

الْبَيْتُ وَالْبَيْتَانِ

فِي

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ صَحِيحِ الْإِسْنَيْنِ

تَأَلَّفَ الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ

الرَّيِّسُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الطُّغْجَرَاوِي

الْمَجْلَدُ الْحَادِي عَشَرَ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبَيْتَانِ

فِي

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ صَحِيحِ الشَّيْخِ

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي
Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman
Al-Maghrawi.

عدد الصفحات (40 مجلداً) 22072
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYÂN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ÂN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis التصنيف : تفسير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

مدمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف

أغراض السورة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... سورة (الأعراف) مشتملة على أصول الدين، والاعتصام بالكتاب، وذم الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله؛ كالشرك وتحريم الطيبات، أو خالفوا ما شرعه الله من أمور دينهم؛ كإبليس، ومخالفي الرسل من قوم نوح إلى قوم فرعون، والذين بدلوا الكتاب من أهل الكتاب؛ فاشتملت السورة على ذم من أتى بدين باطل ككفار العرب، ومن خالف الدين الحق كله كالكفار بالأنبياء؛ أو بعضه ككفار أهل الكتاب.

وقد جمع سبحانه في هذه السورة وفي (الأنعام) وفي غيرهما ذنوب المشركين في نوعين؛ أحدهما: أمر بما لم يأمر الله به كالشرك، ونهي عما لم ينه الله عنه كتحریم الطيبات؛ فالأول شرع من الدين ما لم يأذن به الله، والثاني تحريم لما لم يحرمه الله»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة (الأعراف)

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو

حبر»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١/٨٦-٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/٧٣)، والطحاوي في شرح المشكل (٣/٤٠٧-٤٠٨/١٣٧٧-١٣٧٨)، والبغوي في شرح السنة (٤/٤٦٨/١٢٠٣)، والحاكم (١/٥٦٤) وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/١٦٢) وعزاه لأحمد والبزار وقال: «ورجال البزار رجال الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة».

★ غريب الحديث:

حبر: بفتح المهملة وكسرهما؛ أي: عالم.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: فضيلة ظاهرة لسورة (الأعراف)؛ لأنها من جملة السبع الطوال التي من حفظها وعلم معانيها صار من الأحبار العلماء.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في قراءته ﷺ سورة (الأعراف) في صلاة المغرب

* عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: ما لك تقرأ في المغرب بقصار (المفصل) وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بطولى الطولين؟ قال: قلت: ما طولى الطولين؟ قال: (الأعراف) والأخرى (الأنعام)، قال: وسألت أنا ابن أبي مليكة، فقال لي من قبل نفسه: (المائدة)، و(الأعراف)^(١).

★ فوائد الحديث:

قوله: «ما لك تقرأ في المغرب بقصار (المفصل)؟»:

قال السندي رحمه الله: «أي: دائماً بحيث كأنه اللازم ولا يجوز غيره، فالإنكار على التزام القصار وفيه أنه ينبغي للإمام أن يقرأ ما قرأه - صلى الله تعالى عليه وسلم - أحياناً تبركاً بقراءته ﷺ وإحياء لسنته وآثاره الجميلة»^(٢).

قال ابن بطال: «وأما طولى الطولين فإن العلماء قالوا: هي سورة (الأعراف)، ذكر ذلك النسائي في حديث زيد بن ثابت من رواية ابن وهب، ومن رواية ابن جريج. وقال أبو سليمان الخطابي: (طولى) تأنيث (أطول)، و(الطولين) تشنية (الطولى)، يريد أنه كان يقرأ فيها بأطول السورتين، يعني (الأنعام) و(الأعراف). قال غيره: فإن قيل: هي (البقرة)؛ لأنها أطول السبع الطوال.

(١) أخرجه: أحمد (١٨٧/٥)، والبخاري (٣١٣/٢)، وأبو داود (٥٠٩/١)، والنسائي (٥١٠/٢). (٩٨٩-٩٨٨).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (٥١٠/٢).

قيل: لو أراد (البقرة) لقال: بطول الطول، فلما لم يقل ذلك دل أنه أراد (الأعراف)، وهي أطول السور بعد (البقرة)، ويحتمل أن يكون قرأها في الركعتين من المغرب؛ لأنه لم يذكر أنه قرأ معها غيرها^(١).

قال السندي: «وَصِدْقُ هذا الوصف -يعني أطول الطولين- على غير (الأعراف) لا يضر؛ لأنه عينها بالبيان»^(٢).

قال ابن المنير: «تسمية (الأعراف) و(الأنعام) بالطولين إنما هو لعرف فيهما، لا أنهما أطول من غيرهما، والله أعلم»^(٣).

قال الحافظ: «استدل بهذا الحديث على امتداد وقت المغرب، وعلى استحباب القراءة فيهما بغير قصار (المفصل)»^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فعلم أن وقتها -أي: المغرب- يمتد بقدر قراءة سورة (الأعراف)»^(٥).

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (٣٨١/٢).

(٢) حاشية السندي على النسائي (٥١٠/٢).

(٣) فتح الباري (٣١٥/٢).

(٤) المصدر السابق بتصريف.

(٥) شرح العمدة (١٨٧/٤).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الْمَص ﴿١﴾ ﴿

تقدم بسط الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة (البقرة).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

★ غريب الآية:

حرج: أي: ضيق؛ أي: لا يضيق صدرك بالإبلاغ. ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرج هنا: الشك، وليس هذا شك الكفر، وإنما هو شك الضيق، وهو تفسير باللازم؛ لأن الشاك يضيق صدره بخلاف المتيقن؛ فإنه ينفصح.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: هذا القرآن، -يا محمد- في كتاب أنزله الله إليك... ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: فلا يضيق صدرك -يا محمد- من الإنذار به من أرسلتك لإنذاره به، وإبلاغه من أمرتك بإبلاغه إياه، ولا تشك في أنه من عندي، واصبر بالمضي لأمر الله، واتباع طاعته فيما كلفك وحمّلك من عبء أثقال النبوة، كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن الله معك... ﴿لِتُنذِرَ بِهِ. وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بذلك -تعالى ذكره-: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد لتنذر به من أمرتك بإنذاره، وذكرى للمؤمنين، وهو من المؤخر الذي معناه التقديم، ومعناه: كتاب أنزل إليك لتنذر به، وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه»^(١).

قال إلكيا الهراسي: «﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ظاهره النهي، ومعناه نفي الحرج عنه؛ أي: لا يضيقن صدرك أن لا يؤمنوا به، فعليك البلاغ، وليس عليك شيء من إيمانهم وكفرهم سوى الإنذار به، ومثله قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾^(٢) الآية. وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣)»^(٤).

(١) جامع البيان (٨/١١٦-١١٧).

(٢) الكهف: الآية (٦).

(٣) الشعراء: الآية (٣).

(٤) أحكام القرآن (٣/١٣١).

قال القرطبي: «وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١)»^(٢).
قال الماوردي: «﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ وفي الحرج ههنا ثلاثة أقاويل:
أحدها: أنه الضيق، قاله الحسن، وهو أصله.

قال الشماخ بن ضرار:

ولو ردت المعروف عندي رددتها لحاجة لا العالي ولا المتحرج
ويكون معناه: فلا يضيق صدرك خوفاً ألا تقوم بحقه.

والثاني: أن الحرج هنا الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي.
قال الراجز:

آليت لولا حرج يعروني ما جئت أغزوك ولا تغزوني
ومعناه: فلا تشك فيما يلزمك فيه؛ فإنما أنزل إليك لتنذر به.
والثالث: فلا يضيق صدرك بأن يكذبوك، قاله الفراء^(٣).

قال الشنقيطي: «وجمهور العلماء على أن المراد بالخرج في الآية: الضيق؛
أي: لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أمرت به لشدة تكذيبهم لك؛ لأن تحمل
عداوة الكفار، والتعرض لبطشهم مما يضيق به الصدر، وكذلك تكذيبهم له ﷺ مع
وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر. وقد قال ﷺ: «إذا يثلغوا
رأسي فيدعوه خبزة»^(٤)، أخرجه مسلم. والثلغ: الشدخ، وقيل: ضرب الرطب
باليابس حتى ينشدخ، وهذا البطش مما يضيق به الصدر.

ويدل لهذا الوجه الأخير في الآية قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ
إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(٦)،
وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(٧)، وقوله:

(١) الحجر: الآية (٩٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/١٦١).

(٣) النكت والعيون (٢/١٩٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/١٦٢)، ومسلم (٤/٢١٩٧-٢١٩٨/٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/٢٦-٢٧/٨٠٧٠).

(٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٦) الحجر: الآية (٩٧).

(٥) هود: الآية (١٢).

(٧) الكهف: الآية (٦).

﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

ويؤيد الوجه الأخير في الآية أن الحرج في لغة العرب: الضيق. وذلك معروف في كلامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ﴾^(٣)، وقوله: ﴿يَجْمَلُ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرْجًا﴾^(٤)؛ أي: شديد الضيق، إلى غير ذلك من الآيات، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة، أو جميل:

فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلمت أن يمينها لم تخرج
وقول العرجي:

عوجي علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلني تخرجي
والمراد بالإحراج في البيتين: الإدخال في الحرج، بمعنى الضيق كما ذكرنا^(٥).

وقال: «قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»، لم يبين هنا المفعول به لقوله: ﴿لِنُنْذِرَ﴾، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾^(٦)، وقوله: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾^(٧)، إلى غير ذلك من الآيات. كما أنه بين المفعول الثاني للإنذار في آيات أخر، كقوله: ﴿لِنُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾^(٨)، وقوله: ﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ فَاذْكُرْ تِلْكَ لَظْفَى﴾^(٩)، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾^(١٠) الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾^(١١)، وقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٢)، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾^(١٣).

(١) الشعراء: الآية (٣).

(٣) الحج: الآية (٧٨).

(٥) أضواء البيان (٢/٣-٤).

(٧) يس: الآية (٦).

(٩) الليل: الآية (١٤).

(١١) مريم: الآية (٩٧).

(١٣) ق: الآية (٤٥).

(٢) النور: الآية (٦١).

(٤) الأنعام: الآية (١٢٥).

(٦) مريم: الآية (٩٧).

(٨) الكهف: الآية (٢).

(١٠) النبأ: الآية (٤٠).

(١٢) الذاريات: الآية (٥٥).

ولا ينافي ما ذكرنا من أن الإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾^(١)؛ لأنه لما كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم؛ لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم.

ومن أساليب اللغة العربية: التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء.

وحاصل تحرير المقام في هذا المبحث: أن الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين:

أحدهما: عام لجميع الناس، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾^(٢)، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٣).

وهذا الإنذار العام: هو الذي قصر على المؤمنين قصراً إضافياً في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ الآية؛ لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم.

والثاني: إنذار خاص بالكفار؛ لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب، وهو الذي يذكر في القرآن مبيناً أنه خاص بالكفار دون المؤمنين، كقوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّذًا﴾^(٤)، وقوله هنا: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اهـ.

والإنذار في اللغة العربية: الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الحرج في الآية

* عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه - قال: والتهنث: التعب - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود بمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال رسول الله ﷺ:

(٢) المدثر: الآيتان (٢١ و ٢٢).

(٤) مريم: الآية (٩٧).

(١) يس: الآية (١١).

(٣) الفرقان: الآية (١).

(٥) أضواء البيان (٢/ ٤-٥).

ما أنا بقارئ. قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(١) . فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . قال لخديجة : أي خديجة ، مالي لقد خشيت على نفسي ؟ فأخبرها الخبر . قالت خديجة : كلا أبشر . فوالله لا يخزيك الله أبداً ، فوالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت خديجة : يا عم ، اسمع من ابن أخيك ، قال ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ، ليتني فيها جذعاً . ليتني أكون حياً - ذكر حرفاً - قال رسول الله ﷺ : أومخرجني هم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما جئت به إلا أودي ، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ ^(٢) .

★ فوائد الحديث:

قلت : والشاهد من الحديث ما أخبر به ورقة الرسول ﷺ فيما سيقع له من مضايقة قومه إذا ظهرت دعوته ؛ فإنهم سيقاومونه ويردون دعوته ، وهذا الكلام قاله ورقة بناءً على ما قرأه في الكتب السابقة وما تعلمه من دعوات الأنبياء الماضين ، وأنهم وجدوا تضيقاً من أممهم ومعارضة ومطاردة بكل الوسائل ؛ كما ذكر الله

(١) العلق : الآيات (١-٥) .

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها : أحمد (٢٣٢-٢٣٣) ، والبخاري (٨/٩٢٦-٩٢٧/٤٩٥٣) ، ومسلم (١/١٣٩-١٤٣/١٦٠) .

عنهم في القرآن بالأقوال والأفعال، فرسول الله محمد ﷺ وهو من أعظمهم؛ لا بد أن يناله ما نالهم وأكثر، وقد تعجب رسول الله ﷺ من كلمة ورقة: «إذ يخرجك قومك» فما ظن أن الأمر قد يبلغ إلى هذا الحد، وهو الطرد والإبعاد لما يعلمه ﷺ من عصبية قومه بعضهم لبعض، ولا سيما وهو ﷺ من أشرف أسرة التي هي أسرة بني هاشم، وكانت أعز أسرة وأمنعها، وأشهرها في الكرم والضيافة والسقاية والرفادة وغيرها من خدمة البيت وخدمة الحجاج الذين كانوا يفدون على البيت من كل فج عميق، وهذا هو الذي جعل رسول الله ﷺ يتعجب من كلمة ورقة، ولهذا قال له: «أو مخرجي هم؟» فبين له ورقة أن الأمر أعظم من ذلك، وأن هذه المباينات والمفارقات حاصلة لا محالة: إذا أنت أتيتهم بهذه الدعوة التي ذكرت لي، وهي نتيجة حتمية عند ورقة؛ لما يعلمه من تواريخ الأنبياء، فلا تردد عنده في هذه النتيجة، فكان كما قال ﷺ، وقد تمنى أن يكون من أنصار رسول الله ﷺ وأصحابه الذين يكونون في صفه، ولكن الأجل وافاه؛ كما ذكر في الحديث.

فالداعية إلى الله تعالى على بصيرة بالتوحيد والسنة؛ لا بد أن يجد هذه المواجهات من عدة جهات، فلهذا لا يكن في صدره ضيق وحرَج؛ بل ينبغي أن يشرح صدره وأن يعيش على الفأل المتواصل وأن يتفاءل ولو بإيمان نفسه، فضلاً عن أن تكون له زوجة، أو أب أو ابنة، أو جار أو جارة، أو تلميذ أو تلميذة، يشاركونه دعوته، فهذا كله مكسب له، وأما إن كان له وقع في المجتمع، وشريحة اجتماعية تدعو بدعوته على السنة، فهذا ينبغي له أن يكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار كما قال تعالى لنبيه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾^(١).

(١) النصر: الآية (٣).

قوله تعالى : ﴿ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال محمد رشيد رضا : « هذا بيان للإنذار العام الذي أمر الرسول بتبليغه إلى جميع الأنام ، وهو على تقدير القول الذي يكثر حذفه في مثل هذا المقام ، لما يدل عليه من الأسلوب وسياق الكلام ؛ أي : قل : يا أيها الناس اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، الذي هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم ؛ فإنه هو الذي له وحده الحق في شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم ، والتحليل لما ينفعكم ، والتحريم لما يضركم ؛ لأنه أعلم بمصلحتكم منكم ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ تتخذونهم من أنفسكم ، ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم ، بما يزين لكم ضلال تقاليدكم والابتداع في دينكم ، فتولونهم أموركم ، وتطيعونهم فيما يرومون منكم ، من وضع أحكام ، وحلال وحرام ، زاعمين أنه يجب عليكم تقليدهم لأنهم أعلم منكم ، أو للاقتداء بما كان عليه آباؤكم ، فإنما على العالم بدين الله تبليغه وبيانه للمتعلم لا بيان آرائه وظنونه فيه ، ولا أولياء تتخذونهم لأجل إنجائكم من الجزاء على ذنوبكم ، وجلب النفع لكم أو رفع الضر عنكم ، زاعمين أنهم بصلاحتهم يقربونكم إليه زلفى ، أو يشفعون لكم عنده في الآخرة أو الدنيا ، فإن الله ربكم هو الولي ؛ أي : الذي يتولى أمر العباد بالتشريع والتدبير ، والخلق والتقدير ، فله وحده الخلق والأمر ويده النفع والضر »^(١).

قال ابن القيم : « أمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ، ونهى عن اتباع غيره ؛ فما هو إلا اتباع المنزل ، واتباع أولياء من دونه ؛ فإنه لم يجعل بينهما واسطة ؛ فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل ، واتباع أولياء من دون الله ، وهذا بحمد الله

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

ظاهر لا خفاء به .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾
يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ . فكل من اتخذ غير الرسول بترك لأقواله وآرائه وما جاء به الرسول
ﷺ ، فإنه قائل هذه المقالة لا محالة . ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم (فلان) ؛ إذ
لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان .

فهذا حال الخليلين المتخالفين على خلاف طاعة الرسول ﷺ . ومآل تلك الخلّة
إلى العداوة واللعنة ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا
الْمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾ .

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع ، وحال من تبعوهم ، في غير موضع من كتابه ،
وكقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝٣١﴾
وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۝٣٢﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالْعَنِّهِمْ لَعْنَا كَبِيرًا ۝٣٣﴾ . تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك ، واعتذروا
بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم ، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك ، وأنهم
أطاعوا السادات والكبراء ، وعصوا الرسول ، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى
قولهم : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّهِمْ لَعْنَا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ . وفي بعض هذا عبرة
للعاقل ، وموعظة شافية ، وبالله التوفيق ۝٣٥﴾ .

قلت : ما أحسن ما قاله العلامة ابن القيم في توجيه هذه الآية ، وأنه لا واسطة
بين النبي ﷺ وبين غيره في البلاغ ، فيجب أن يكون البلاغ نقلًا مباشرًا لنصوص
وحيه دون واسطة رأي أو فهم سقيم ، أو نظرية تفسد الوحي ، ولهذا قرر رَحِمَهُ اللَّهُ
بالاستدلال بآيات الفرقان والأحزاب أن كل من فعل ذلك يتبرأ من صاحبه في
الآخرة ، فلهذا الذين يؤلفون المتون الشرعية بزعم أنهم يقربون الشرع للناس ،
ويخلون ذلك من الأدلة من القرآن والسنة ، فربما يصدق عليهم هذا ، فإن الواجب
على الداعية أن يربط الناس في عقائدهم وعباداتهم بنصوص الوحي ، وأن لا

(١) الفرقان : الآيات (٢٧-٢٩) .

(٢) الزخرف : الآية (٦٧) .

(٣) الأحزاب : الآيات (٦٦-٦٨) .

(٤) زاد المهاجر (ص : ٣١-٣٢) .

يربطهم برأيه ولا بكلامه ، حتى يبرئ ذمته ، ويبرأ هو بذلك . وهذا هو الاعتصام بالكتاب والسنة حقاً . ولقد أحسن من قال :

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلافة سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه

وقال ابن كثير : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ

بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) الآية ، وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ^(٣) ^(٤) .

قال محمد رشيد رضا : « المتبادر هنا من النهي عن اتباع الأولياء من دونه تعالى هو النهي عن طاعة كل أحد من الخلق في أمر الدين غير ما أنزله الله من وحيه ، كما فعل أهل الكتاب في طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحي من العبادات وما حرموا عليهم من المباحات ، كما ورد في الحديث المرفوع في تفسير قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(٥) ، وكل من أطاع أحداً طاعة دينية في حكم شرعي لم ينزله ربه إليه ، فقد اتخذ رباً . والآية نص في عدم جواز طاعة أحد من العلماء ولا الأمراء في اجتهاده في أمور العقائد والعبادات والحلال والحرام تديناً . وما على العلماء إلا بيان ما أنزله الله وتبليغه وإرشاد الناس إلى فهمه ، وما عسى أن يخفى عليهم من تطبيق العمل على النص وحكمة الدين في الأحكام ، كبيان سمت القبلة في البلاد المختلفة ، فهم لا يتبعون في ذلك لذواتهم ، بل المتبع ما أنزله الله بنصه أو فحواه ، على حسب روايتهم له وتفسيرهم لمعناه ، وإنما يطاع أولو الأمر من الأمراء وأهل الحل والعقد في تنفيذ ما أنزله الله تعالى ، وفيما ناطه بهم من استنباط الأحكام في سياسة الأمة وأقضيتها التي تختلف المصالح فيها باختلاف الزمان والمكان . والآية نص في بطلان القياس ونبذ الرأي في الأمور الدينية المحضة ، وقد فصلنا القول في ذلك وما يتعلق به من الأصول والفروع في تفسير ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

(١) يوسف : الآية (١٠٣) .

(٣) يوسف : الآية (١٠٦) .

(٥) التوبة : الآية (٣١) .

(٢) الأنعام : الآية (١١٦) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٧) .

مِنْكُمْ ﴿١﴾ الآية (٢)، وتفسير قوله تعالى : ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الآية (٤).

ولا شك في أن اتباع الرسول ﷺ فيما صح عنه من بيان الدين داخل في عموم ما أنزل إلينا على لسانه، وكذا اتباعه في أحكامه الاجتهادية؛ فإنه تعالى أمرنا باتباعه وبطاعته، وأخبرنا بأنه مبلغ عنه، وقال له : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (٥)، والجمهور على أن الأحكام الشرعية الواردة في السنة موحى بها، وأن الوحي ليس محصوراً في القرآن، والإمام الشافعي يقول : إنها مستنبطة من القرآن. وقد قال ﷺ : «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» (٦)، رواه مسلم من حديث رافع بن خديج في مسألة تأبير النخل، وروى من حديث موسى بن طلحة عن أبيه أنه ﷺ قال : «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه؛ فإنني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إن حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به؛ فإنني لن أكذب على الله ﷻ» (٧)، وإذا كان -عليه أفضل الصلاة والسلام- قد أذن لنا أن لا نأخذ بظنه في أمور الدنيا وقال : «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (٨) كما في حديث عائشة وثابت عن أنس عند مسلم، فما القول بظن غيره؟ ومنه اجتهاد العلماء فيما ذكرنا آنفاً (٩).

* * *

(١) النساء : الآية (٥٩).

(٣) المائدة : الآية (١٠١).

(٥) النحل : الآية (٤٤).

(٦) أخرجه : مسلم (٤/١٨٣٥-١٨٣٦/٢٣٦٢).

(٧) أخرجه : أحمد (١/١٦٢)، ومسلم (٤/١٨٣٥/٢٣٦١) من حديث طلحة ﷺ.

(٨) أخرجه : أحمد (٣/١٥٢) (٦/١٢٣)، ومسلم (٤/١٨٣٦/٢٣٦٣)، وابن ماجه (٢/٨٢٥/٢٤٧١) من حديث

عائشة وأنس ﷺ.

(٩) تفسير المنار (٨/٣٠٨-٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

بَأْسُنَا: البأس: العذاب الآتي على النفس، وهو الاستئصال.
بَيِّنًا: أي: ليلاً. ومنه البيت؛ لأنه يبات فيه؛ يقال: بات بيت بيتاً وبياتاً.
قَائِلُونَ: مأخوذ من القيلولة، وهي الراحة والدعة وسط النهار، وإن لم يكن معها نوم. وقيل: هي نوم وسط النهار.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «خَوَّفَ اللَّهُ تعالى في هذه الآية الكريمة الكفار الذين كذبوه ﷺ، بأنه أهلك كثيراً من القرى بسبب تكذيبهم الرسل، فمنهم من أهلكها ﴿بَيِّنًا﴾؛ أي: ليلاً، ومنهم من أهلكها و﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ أي: في حال قيلولتهم... يعني: فاحذروا تكذيب رسولي ﷺ لئلا أنزل بكم مثل ما أنزلت بهم. وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١)، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْتَئِثُ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِلَّكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(٤)، ثم بيّن أنه يريد تهديدهم بذلك بقوله: ﴿وَاللَّكَفِرِينَ أَمْثَلُنَا﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد هدد تعالى أهل القرى بأن يأتيهم عذابه ليلاً في حالة النوم، أو ضحى في حالة اللعب، في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(٢) الحج: الآية (٤٥).

(٤) محمد: الآية (١٠).

(١) الأنعام: الآية (١٠).

(٣) القصص: الآية (٥٨).

أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ^(١) ، وهَدَدَ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۚ ﴾^(٢) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۚ ﴾^(٣) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ^(٤) .

قال محمد رشيد رضا : « والمعنى : وكثيراً من القرى أهلكتها لعصيان رسلها فيما جاؤوها به من عند ربها ، فكان هلاكها على ضربين بأن جاء بعضهم بأسنا حال كونهم مبشرين أو بآتين ليلاً كقوم لوط ، وجاء بعضهم وهم قائلون آمنون نهاراً كقوم شعيب . والوقتان وقتا دعة واستراحة ، ففيه إيذان بأنه لا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي ولا موآتاة الأيام ، ولا يغتر بالرخاء فيعده آية على الاستحقاق له الذي هو مظنة الدوام ، وقد يعذر بالغفلة قبل مجيء النذير ، وأما بعده فلا عذر ولا عذير ، وفيه تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزة عصبيتهم ، وبما كانوا يزعمون أنها آية رضى الله عنهم ، ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾^(٥) ، وليس أمرهم بأعجب من الأقوام التي عرفت هداية القرآن ، أو سنن الله في نوع الإنسان ، ثم هي تغتر بما هي عليه وإن كان دليلاً على الهلاك ، ولا ترجع عن غيرها حتى يأتيها العذاب^(٦) . »

قال ابن عاشور : « ففي الآية أخبر عن كيفية إهلاكهم بعد الخبر بالإهلاك ، وهذا الترتيب هو في الغالب تفصيل بعد إجمال ، فيكون من عطف المفصل على المجمل ، وبذلك سماه ابن مالك في « التسهيل » ، ومثّل له بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ۚ ﴾^(٧) فَعَلَّاهُمْ أَبْكَارًا ۚ ﴾^(٨) عُرْبًا^(٩) الآية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(١٠) ، أو قوله : ﴿ فَازْلِهْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾^(١١) ، لأن الإزالة عن الجنة فصل بأنه الإخراج ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْجٌ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْنُورٌ وَأَزْدُجِرَ ﴾^(١٢) ، وهذا من أساليب الإطناب ، وقد يغفل عنه^(١٣) . »

(١) الأعراف : الآيتان (٩٧ و ٩٨) .

(٣) أضواء البيان (٢ / ٥-٦) .

(٥) تفسير المنار : الآية (٨ / ٣١٠-٣١١) .

(٧) غافر : الآية (٧٦) .

(٩) القمر : الآية (٩) .

(٢) النحل : الآيات (٤٥-٤٧) .

(٤) سبأ : الآية (٣٥) .

(٦) الواقعة : الآيات (٣٥-٣٧) .

(٨) البقرة : الآية (٣٦) .

(١٠) التحرير والتنوير (٨ / القسم الثاني / ٢١) .

قال أبو منصور الماتوريدي: «وفي الآية دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ؛ لأنه أخبر عن إهلاك الأمم الخالية بتكذيبهم الرسل، وهو لم ينظر في كتبهم ولا اختلف إليهم ليُعلموه عن ذلك، ثم أخبرهم بذلك، فدل أنه إنما عرف ذلك بالله ﷻ»^(١).

* * *

(١) تأويلات أهل السنة (٢/٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

أقوال المفسرين في الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فلم يكن دعوى أهل القرية التي أهلكناها إذ جاءهم بأسنا وسطوتنا بيئاتاً أو هم قائلون إلا اعترافهم على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مسيئين، وبربهم آثمين، ولأمره ونهيه مخالفين.

وعنى بقوله - جل ثناؤه - : ﴿دَعْوَتُهُمْ﴾ في هذا الموضع : دعاءهم.

وللدعوى في كلام العرب وجهان، أحدهما : الدعاء، والآخر : الادعاء للحق. ومن الدعوى التي معناها الدعاء قول الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾^(١) . . . وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله : «ما هلك قوم حتى يُعذِّروا من أنفسهم»^(٢) . . .

فإن قال قائل : وكيف قيل : ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؟ وكيف أمكنتهم الدعوى بذلك وقد جاءهم بأس الله بالهلاك؟ أقالوا ذلك قبل الهلاك؟ فإن كانوا قالوه قبل الهلاك فإنهم قالوا قبل مجيء البأس، والله يخبر عنهم أنهم قالوه حين جاءهم، لا قبل ذلك، أو قالوه بعدما جاءهم، فتلك حالة قد هلكوا فيها، فكيف يجوز وصفهم بقبل ذلك إذا عاينوا بأس الله وحقيقة ما كانت الرسل تعدهم من سطوة الله؟

قيل : ليس كل الأمم كان هلاكها في لحظة ليس بين أوله وآخره مهل، بل كان منهم من غرق بالطوفان، فكان بين أول ظهور السبب الذي علموا أنهم به هالكون

(١) الأنبياء : الآية (١٥).

(٢) أخرجه : أحمد (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٤/ ٥١٥ / ٤٣٤٧) من حديث أبي البختري الطائي عن رجل من الصحابة لم يسمه. والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسنه القاري في «المراقبة» (٨/ ٨٧٩)، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٢٠ / ٣٦٥٣).

وبين آخره الذي عمّ جميعهم هلاكه المدة التي لا خفاء بها على ذي عقل، ومنهم من متع بالحياة بعد ظهور علامة الهلاك لأعينهم أيامًا ثلاثة، كقوم صالح وأشباههم، فحينئذ لما عاينوا أوائل بأس الله الذي كانت رسل الله تتوعدهم به، وأيقنوا حقيقة نزول سطوة الله بهم، دعوا: ﴿يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(١)، فلم يك ينفعهم إيمانهم مع مجيء وعيد الله وحلول نقمته بساحتهم، فعذر ربنا - جل ثناؤه - الذين أرسل إليهم نبيه محمدًا ﷺ من سطوته وعقابه على كفرهم به وتكذيبهم رسوله ما حلّ بمن كان قبلهم من الأمم إذ عصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «والعبرة في الآية أن كل مذنّب يقع عليه عقاب ذنبه في الدنيا يندم ويتحسر ويعترف بظلمه وجرمه إذا علم أنه هو سبب العقاب، وما كل معاقب يعلم ذلك؛ لأن من الذنوب ما يجهل أكثر الناس أنه سبب للعقاب، وأما الذنوب التي مضت سنة الله تعالى بجعل عقابها أثرًا لازمًا لها في الدنيا، فلا تظرد في الأفراد كاظرادها في الأمم، ولا تكون دائمًا متصلة باقتراف الذنب، بل كثيرًا ما تقع على التراخي، فلا يشعر فاعلها بأنها أثر له، مثال ذلك أن ما يتولد من شرب الخمر من الأمراض والآلام لا يعرف أكثر السكارى منه غير ما يعقب الشرب من صداع وغثيان، وهو ما يسهل عليهم احتماله وترجيح لذة النشوة عليه، وأما ما يولده السكر من أمراض القلب والكبد والجهاز التناسلي، وما يترتب عليه من ضعف النسل واستعداده للأمراض، وانقطاعه أحيانًا، وغير ذلك من الأمراض الجسدية والعصبية (العقلية) فهي تحصل ببطء، وقلما يعلم غير الأطباء أنها من تأثير السكر، ثم قلما يفيد العلم بها بعد بلوغ تأثيرها هذه الدرجة أن تحمل السُّكُورَ على التوبة؛ لأن داء الخمار يزمن، وحب السكر يضعف الإرادة، ومضار الزنا الجسدية أخفى من مضار الخمر والميسر، ومفاسده الاجتماعية أخفى من مضاره الجسدية، فما كل أحد يفطن لها. ويا ليت كل من علم بضرر ذنبه بعد وقوعه يرجع عنه ويتركه ويتوب إلى الله تعالى منه، ولا يكتفي بالاعتراف بظلمه، ولا بالإقرار بذنبه، فإن هذا لا فائدة له فيه لا في دنياه ولا في دينه، وإذا كان الراسخ في الفسق لا يتوب من ذنب وقع عليه ضرره وعلم به، فكيف يتوب من ذنب لم يصبه منه ضرر أو أصابه من

(١) الأنبياء: الآية (١٤).

(٢) جامع البيان (٨/١١٩-١٢٠).

حيث لا يدري به؟ إنما تسهل التوبة على المؤمنين الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، وإلا فهي لأولي العزائم القوية الذين تقهر إرادتهم شهواتهم، وهم الأقلون.

وأما ذنوب الأمم فعقابها في الدنيا مطرد، ولكن لها آجالاً ومواقيت أطول من مثلها في ذنوب الأفراد، وتختلف باختلاف أحوالها في القوة والضعف، كما تختلف في الأفراد، بل أشد. فإذا ظهر الظلم واختلال النظام وفشا الترف وما يلزمه من الفسق والفجور في أمة من الأمم، تمرض أخلاقها، فتسوء أعمالها، وتنحل قواها، ويفسد أمرها، وتضعف منعتها، ويتمزق نسيج وحدتها، حتى تحسب جميعاً وهي شتى، فيغري ذلك بعض الأمم القوية بها، فتستولي عليها، وتستأثر بخيرات بلادها، وتجعل أعزة أهلها أذلة. فهذه سنة مطردة في الأمم على تفاوت أمزجتها وقواها، وقلمما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع عقوبتها، ولا ينفعها بعده أن يقول العارفون: ﴿يَتَوَلَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(١). على أنه قد يعمها الجهل حتى لا تشعر بأن ما حلّ بها، إنما كان بما كسبت أيديها، فترضى باستذلال الأجنبي، كما رضيت من قبل بما كان سبباً له من الظلم الوطني، فينطبق عليها قولنا في المقصورة:

من ساسه الظلم بسوط بأسه هان عليه الذل من حيث أتى

ومن يهن هان عليه قومه وعرضه ودينه الذي ارتضى

وقد تنقرض بما يعقبه الفسق والذل من قلة النسل، ولا سيما فشو الزنا والسكر، أو تبقى منها بقية مدغمة في الكثرة الغالبة، لا أثر لها تُعدُّ به أمة. وقد تتوالى عليها العقوبات حتى تضيق بها ذرعاً فتبحث عن أسبابها، فلا تجدها بعد طول البحث إلا في أنفسها، وتعلم صدق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾^(٢)، ثم تبحث عن العلاج فتجده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣)، وإنما يكون التغيير بالتوبة النصوح، والعمل الذي تصلح به القلوب، فتصلح الأمور، كما قال العباس عم الرسول ﷺ إذ توسل به عمر والصحابه بتقديمه لصلاة الاستسقاء بهم: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم

(١) الأنبياء: الآية (١٤).

(٢) الشورى: الآية (٣٠).

(٣) الرعد: الآية (١١).

يرفع إلا بتوبة»^(١)، خلافاً للحشوية^(٢) الذين يستدلون به على أن البلاء إنما يرتفع كرامة للصالحين الذين يتوسل بهم المذنبون المفسدون. ومتى علمت الأمة داءها وعلاجه، فلا تعدم الوسائل له.

فلينظر القارئ أين مكان الشعوب الإسلامية من هذه العبرة، والشعور بعقوبة الجنائية والحاجة إلى علاج التوبة، وقد ثلت عروشها، وخوت صروح عظمتها على عروشها، وكانت أجدر الشعوب بمعرفة سنن الله في هلاك الأمم واتقائها، وأسباب حفظ الدول وبقائها، فقد أرشدها إليه القرآن، ولكن أين هي من هداية القرآن، وقد ترك تذكيرها به العلماء، فهجره الدهماء، وجهل أحكامه وحكمه الملوك والأمراء، ثم نبتت فيها نابتة لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، أقنعهم أساتذتهم أعداء الإسلام، بأن لا سبب لهبوطها وسقوطها إلا اتباع القرآن!! فأضلّوهم السبيل، ولفتوهم عن الدليل، فذنب هؤلاء أنهم يجهلون، وذنب أولئك أنهم لا يقيمونه، هؤلاء مقلدة للأجانب الطامعين الخادعين، وأولئك مقلدة لشيوخ الحشوية الجامدين، فمتى تنتشر دعوة المصلحين أولي الاستقلال، فتجمع الكلمة بما أوتيت من الحكمة والاعتدال، على قول الكبير المتعال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٣) (٤).

قلت: ما أحسن ما قال الشيخ محمد رشيد رضا في هذا التوجيه الطيب، وأن الناس قد انفصلوا عن الوحيين، فطائفة رضعت من ثدي الكفرة من المستشرقين والمبشرين والشيوعيين والبعثيين والاشتراكيين والعلمانيين، وظنوا أن هذا هو التقدم، وهذه هي الحضارة، وما سواها ظلام دامس، ومن اتبع الإسلام ضاع وضيع، وتخلف وأصبح رجعيًا يرجع بالناس إلى عصور الجهل والظلام ومقالاتهم وكتبهم وأشخاصهم هذه هي شعاراتها وهذه هي عناوينها من بداية ظهور هذه الفتنة في مطلع القرن الرابع عشر هجري وإلى يومنا هذا، وهي سلسلة من القردة

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٦٣٢) نقلاً عن الزبير بن بكار في الأنساب، وصححه الشيخ الألباني في

(٢) لو قال: «خلافاً للصوفية»، لكان أولى.

رسالة «التوسل» (ص: ٦٨).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٣١٢-٣١٤).

(٤) الرعد: الآية (١١).

والخنازير يتناسلون من بعضهم ، وغالب أسمائهم مع الأسف أسماء إسلامية : كطه وإبراهيم ومحمود وغيرها !

والصنف الثاني ، وهم دعاة الشهوات الذين أطلقوا لشهواتهم العنان بدون حصر ، ووضعوا للشهوة كل وسيلة تقربها ، فوضعوا التمثيليات والمسرحيات والأفلام ، وأسسوا لها دور الأزياء والدعارة ، ودور الميسر والقمار ، وضيعوا الناس بوسائل الرياضة من كرة وغيرها من الوسائل التي ضاعت بها الأمم ، وأقيمت عليها دول ، ولكن الله ابتلاهم بأمراض عجزوا عنها ، وما تزال تنتشر انتشار النار في الهشيم ، وما يزالون يكذبون على الناس بتأسيس مؤتمرات وندوات ويقترحون على الزناة وسائل واقية بزعمهم ، وهي في الحقيقة هالكة ولا تغني من شيء ، فهلاكهم قريب متوقع ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ؛ فإنه أهلك من هو أقوى وأشد .

وقال الشنقيطي : « بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن تلك القرى الكثيرة التي أهلكها في حال البيات ، أو في حال القيلولة ، لم يكن لهم من الدعوى إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين .

وأوضح هذا المعنى في قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (١١) ﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ (١٢) ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُون ﴾ (١٣) ﴿ قَالُوا يُبَوِّلْنَا إِنََّّا ظَالِمِينَ ﴾ (١٤) ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴾ (١٥) (١) (٢) .

* * *

(١) الأنبياء : الآيات (١١-١٥) .

(٢) أضواء البيان (٢/٢٨٩) .

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾
فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾

★ غريب الآية:

فلنسألن: السؤال: طلب الجواب على شيء معين.
فلنقصن: القصص: الأخبار المتتابعة. أصله من قصّ الأثر؛ أي: تتبّعهُ.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لنسألن الأمم الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عملت فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني، فخالفوا ذلك؟ ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتهم إلى الأمم، هل بلغتهم رسالاتي، وأدت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم، أم قصّروا في ذلك، ففرطوا ولم يبلغوهم؟ ...

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: يقول -تعالى ذكره-: فلنخبرن الرسل ومن أرسلتهم إليه بيقين علم بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها.

فإن قال قائل: وكيف يسأل الرسل والمرسل إليهم وهو يخبر أنه يقص عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟

قيل: إن ذلك منه -تعالى ذكره- ليس بمسألة استرشاد، ولا مسألة تعرف منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقدير، معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: ألم أحسن إليك فأسأت؟ وألم أصلك فقطعت؟ فكذلك مسألة الله المرسل إليهم بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتندركم عذابي وعقابي في هذا اليوم من كفر بي وعبد غيري؟ كما أخبر -جل ثناؤه- أنه قائل

لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١)، ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهر المسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعد توبيخ وتقرير.

وأما مسألة الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشتركة لما سئلت في القيامة، قيل لها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾^(٢)؟ أنكر ذلك كثير منهم، وقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ف قيل للرسل: هل بلغت ما أرسلتم به؟ أو قيل لهم: ألم تبلغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به؟ كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، وكما قال -جل ثناؤه- لأمة نبينا محمد ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٣)، فكل ذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم وللمرسل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكل ذلك بمعنى القصص والخبر.

فأما الذي هو عن الله منفي من مسألته خلقه، فالمسألة التي هي مسألة استرشاد واستثبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول ليعلم السائل علم ذلك من قبله، فذلك غير جائز أن يوصف الله به؛ لأنه العالم بالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها -جل ثناؤه- عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾^(٤)، وبقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٥)؛ يعني: لا يسأل عن ذلك أحدا منهم بمسألة مستثبت ليعلم علم ذلك من قبل من سأل منه؛ لأنه العالم بذلك كله وبكل شيء غيره.

وقد ذكرنا ما روي في معنى ذلك من الخبر في غير هذا الموضع، فكرهنا إعادته.

وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقول في معنى قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ﴾ أنه ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم.

وهذا قول غير بعيد عن الحق، غير أن الصحيح من الخبر عن رسول الله ﷺ أنه

(١) يس: الآيتان (٦٠ و٦١).

(٢) الزمر: الآية (٧١).

(٣) البقرة: الآية (١٤٣).

(٤) الرحمن: الآية (٣٩).

(٥) القصص: الآية (٧٨).

قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول له: أتذكر يوم فعلت كذا وفعلت كذا؟ حتى يذكره ما فعل في الدنيا»^(١)، والتسليم لخبر رسول الله ﷺ أولى من التسليم لغيره»^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «المراد بالذين أرسل إليهم: جميع الأمم التي بلغتها دعوة الرسل، يسأل تعالى كل فرد منهم في الآخرة عن رسوله إليه وعن تبليغه لآياته، وبماذا أجابوهم وما عملوا من إيمان وكفر، وخير وشر، ويسأل المرسلين عن التبليغ منهم، والإجابة من أقوامهم.

بين هذا الإجمال في آيات، منها قوله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿يَمَعَّشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَّا يَتَّبِعُونَ وَيُذَرُّونَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾^(٣)، وفي سورة (القصص): ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤)، وفي سورة (العنكبوت): ﴿وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾^(٥)، ومثله في سورة (النحل): ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْقَرُونَ﴾^(٦)، وهو ما ابتدعه في الدين كجعلهم لمعبوداتهم نصيباً مما رزقوا من الحرث والأنعام، يتقربون إليهم بها بنذر أو غيره ويتقربون بهم إلى الله، كما تقدم في سورة (الأنعام)، ومنه ما ينذره القبوريون لأوليائهم، وأعم منه قوله تعالى في (النحل) أيضاً: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٧)، وهو خطاب لجميع الناس، ومثله في التأكيد والعموم قوله في سورة (الحجر): ﴿فَوَرَبِّكَ لَتُسْأَلُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٨) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٩)، ومنه في السؤال عن المشاعر الظاهرة والباطنة: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٩)، وقال تعالى في سؤال الرسل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ

(١) أخرجه من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه: أحمد (٢٥٦/٤-٣٧٧)، والبخاري (١١/٤٨٨/٦٥٣٩)، ومسلم (٢/٧٠٣-٧٠٤/١٠١٦ [٦٧])، والترمذي (٤/٥٢٨/٢٤١٥)، وابن ماجه (١/٦٦/١٨٥)، وليس فيه: «أتذكر يوم فعلت كذا... إلى آخر ما ذكر؛ وإنما لفظه بشيء من الاختلاف عند هؤلاء: «ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة».

(٢) جامع البيان (٨/١٢٠-١٢٢).

(٣) الأنعام: الآية (١٣٠).

(٤) القصص: الآية (٦٥).

(٥) العنكبوت: الآية (١٣).

(٦) النحل: الآية (٥٦).

(٧) النحل: الآية (٩٣).

(٨) الحجر: الآيتان (٩٢ و ٩٣).

(٩) الإسراء: الآية (٣٦).

الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ .

وقال الشنقيطي : «وهنا إشكال معروف : وهو أنه تعالى قال هنا : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وقال أيضاً : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣﴾ ، وقال : ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ﴿٤﴾ ، وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة ، مع أنه قال : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥﴾ ، وقال : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٦﴾ .

وقد بينا وجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، وسنزيده إيضاحاً هنا إن شاء الله تعالى .

اعلم أولاً : أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة أخص من السؤال المثبت فيها ؛ لأن السؤال المنفي فيها مقيد بكونه سؤالاً عن ذنوب خاصة ؛ فإنه قال : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، فخصه بكونه عن الذنوب ، وقال : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ، فخصه بذلك أيضاً . فيتضح من ذلك أن سؤال الرسل والموءودة مثلاً ليس عن ذنب فعلوه ، فلا مانع من وقوعه ؛ لأن المنفي خصوص السؤال عن ذنب . ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ ﴿٧﴾ الآية ، وقوله - بعد سؤاله لعيسى المذكور في قوله : ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿٨﴾ الآية - : ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ﴿٩﴾ الآية .

والسؤال عن الذنوب المنفي في الآيات ؛ المراد به سؤال الاستخبار والاستعلام ؛ لأنه - جل وعلا - محيط علمه بكل شيء ، ولا ينافي نفي هذا النوع من السؤال ثبوت نوع آخر منه هو سؤال التوبيخ والتقريع ؛ لأنه نوع من أنواع العذاب . ويدل لهذا أن سؤال الله للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع ؛ كقوله : ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ، وقوله : ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورُ﴾ ﴿١١﴾ ،

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣١٥-٣١٦) .

(٤) الصافات: الآية (٢٤) .

(٦) الرحمن: الآية (٣٩) .

(٨) المائدة: الآية (١١٦) .

(١٠) الصافات: الآيتان (٢٤ و ٢٥) .

(١) المائدة: الآية (١٠٩) .

(٣) الحجر: الآيتان (٩٢ - ٩٣) .

(٥) القصص: الآية (٧٨) .

(٧) الأحزاب: الآية (٨) .

(٩) المائدة: الآية (١١٩) .

(١١) الطور: الآية (١٥) .

إلى غير ذلك من الآيات .

وباقى أوجه الجمع مبين في كتابنا المذكور ، والعلم عند الله تعالى^(١) .

وذكر في دفع إيهام الاضطراب الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه :

أولها : الذي ذكر هنا من سؤال التوبيخ . وقال في الوجهين الآخرين :

«الوجه الثاني : أن في القيامة مواقف متعددة ؛ ففي بعضها يُسألون ، وفي بعضها

لا يُسألون .

الوجه الثالث : هو ما ذكره الحلبي ، من أن إثبات السؤال محمول على السؤال

عن التوحيد وتصديق الرسل ، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات

من شرائع الدين وفروعه ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢) .

والعلم عند الله تعالى^(٣) .

وقال : «قوله تعالى : ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ بين تعالى في هذه

الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا ، وأخبرهم

بأنه - جل وعلا - لم يكن غائباً عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا ؛ بل هو الرقيب

الشهيد على جميع الخلق ، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير ، وجليل

وحقير ، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة ؛ كقوله : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ

رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ

يُنْزِلُ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا

يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٥) ، وقوله : ﴿وَمَا تَكُونُ

فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا

يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٦) .

تنبيه : في هذه الآية الكريمة الرد الصريح على المعتزلة النافين صفات المعاني ،

القائلين : إنه تعالى عالم بذاته ، لا بصفة قامت بذاته ، هي العلم ، وهكذا في قولهم :

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٨٩-٢٩١) .

(٣) دفع إيهام الاضطراب (ص : ١١٦) .

(٥) الحديد : الآية (٤) .

(٢) القصص : الآية (٦٥) .

(٤) المجادلة : الآية (٧) .

(٦) يونس : الآية (٦١) .

قادر مرید، حي سمیع، بصیر متکلم، فإنه هنا أثبت لنفسه صفة العلم بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾^(١) الآية، وهي أدلة قرآنية صريحة في بطلان مذهبهم الذي لا يشك عاقل في بطلانه وتناقضه^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان عظم المسؤولية في الدعوة والبلاغ

* عن معاوية بن حيدة أن رسول الله ﷺ قال: «إن ربي داعي وإنه سائلي هل بلغت عباده؟ وإنني قائل: رب إني قد بلغتهم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ثم إنكم مدعوون مقدمة أفواهكم بالفدام، ثم إن أول ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه»^(٣).

* غريب الحديث:

مقدمة أفواهكم بالفدام: الفدام: ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه؛ أي: أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم، فشبّه ذلك بالفدام.

* فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: أن الله ﷻ يسأل النبي ﷺ يوم القيامة هل بلغ، وأنه يقر بالبلاغ، وهو ﷺ داخل في عموم المرسلين الذين ذكر الله أنه يسألهم عما بلغوا أممهم.

قال تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللهُ: «الذي أرسل إلينا نحن معاشر المسلمين هو خير خلق الله محمد رسول الله ﷺ فبلغ إلينا كل ما أنزل الله عليه، والله يشهد وأهل العلم يشهدون أنه لم يكتم شيئاً من ذلك، فإذا سأله الله تعالى شهد له المؤمنون. إذا سئلنا نحن هل بلغكم رسولكم ما أرسلته به إليكم فلا سبيل إلى الجحود، فمن اتبعه

(١) النساء: الآية (١٦٦).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٦٤)، والطبراني (١٩/ ٤٠٧-٤٠٨/ ٩٦٩) في حديث طويل. وذكره الهيثمي في

«المجمع» (١٠/ ٣٥١) وقال: «رواه أحمد في حديث طويل، ورجاله ثقات». وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٩-٤٤٠)

(٤٤٠) ووافقه الذهبي. وأخرجه دون موضع الشاهد: النسائي (٥/ ٨٧٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٦).

بصدق وإخلاص سعد وفاز، ومن اتخذ من دون الله أولياء أئمة وشيوخاً ورؤساء أحزاب، وهوى وشهوات، حقت عليه كلمة العذاب»^(١).

* عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا كللكم راع، وكللكم مسؤول عن رعيته، فالأمر الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكللكم راع وكللكم مسؤول عن رعيته»^(٢).

* عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه: أحفظ ذلك أم ضيعه، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»^(٣).

* غريب الحديثين:

الراعي: هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره^(٤).

* فوائد الحديثين:

قال الطيبي رحمه الله في حديث ابن عمر: «هذا تمثيل لا يرى في الباب اللفظ ولا أجمع ولا أبلغ منه، ولذلك أجمل أولاً، ثم فصله، ثم أتى بحرف التنبيه مكرراً وبالفدلة كالخاتمة»^(٥).

وقال البغوي: «معنى الراعي ههنا: الحافظ المؤتمن على ما يليه، أمره النبي ﷺ بالنصيحة فيما يلونه، وحذرهم الخيانة فيه، بإخباره أنهم مسؤولون عنه،

(١) سبيل الرشاد (٣/٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٥٤٥-٥٥٥ و١١١)، والبخاري (٥/٢٢٢-٢٢٣/٢٥٥٤)، ومسلم (٣/١٤٥٩/١٨٢٩) واللفظ له، وأبو داود (٣/٣٤٢-٣٤٣/٢٩٢٨)، والترمذي (٤/١٨٠-١٨١/١٧٠٥).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٥/٣٧٤-٩١٧٤-٩١٧٥) وصححه ابن حبان (١٠/٣٤٤/٤٤٩٢). وله شاهد من حديث أبي هريرة عند: أحمد (٢/٢٩٧)، والبخاري (٦/٦١٢-٦١٣/٣٤٥٥)، ومسلم (٣/١٤٧١/١٨٤٢).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٢/١٨٠).

(٥) شرح الطيبي (٨/٢٥٦٩).

فالرعاية حفظ الشيء وحسن التعهد، فقد استوى هؤلاء في الاسم ولكن معانيهم مختلفة، فرعاية الإمام ولاية أمور الرعية، والحياطة من ورائهم وإقامة الحدود والأحكام فيهم، ورعاية الرجل أهله بالقيام عليهم بالحق في النفقة وحسن العشرة، ورعاية المرأة في بيت زوجها بحسن التدبير في أمر بيته، والتعهد لخدمه وأضيافه، ورعاية الخادم حفظ ما في يده من مال سيده، والقيام بشغله، والله أعلم^(١).

وقال ابن أبي جمرة: «فائدة الإخبار بهذا الحديث تنبيهًا على المذكورين لأنه أمر يعقل لأن الناس لا يحسبون الراعي لهم إلا الخليفة، ليس إلا، وأن غيره ممن ذكر بعد لا يدخل عندهم في باب الرعاية ولا في باب الأمانة؛ لأن الرجل يقول: أهلي قد أبيحوا لي، وليس لهم قبلي شيء غير الذي يجب علي من نفقة أو غير ذلك مما جرت به العادة، وهي مسؤولة عن نفسها، ولا يفكر أن عليه شيئًا مما يزيد على ذلك، والابن يقول: مال أبي ما علي أنا منه بل هو الحاكم علي، وتقول الزوجة مثل ذلك، والعبد مثلهم، فتضيع بين ذلك الحقوق، ويسألون عنها وهم قد أغفلوها، فجاء التنبيه على ذلك من باب توفية النصيح لمن استرعي، وهو ﷺ أكبر الرعاة توفية»^(٢).

قوله: «فالأمير الذي على الناس فهو راع، وهو مسؤول عنهم»:

قال الطيبي: «فيه أن الراعي ليس بمطلوب لذاته، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فعلى السلطان حفظ الرعية فيما يتعين عليه من حفظ شرائعهم والذب عنها لكل متصدٍّ لإدخال داخله فيها، أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، وترك حماية من جار عليهم، ومجاهدة عدوهم، أو ترك سيرة العدل فيهم، فينبغي أن لا يتصرف في الرعية إلا بإذن الله ورسوله، ولا يطلب أجره إلا من الله كالراعي»^(٣).

قال الحافظ: «وقال غيره: دخل في هذا العموم المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد، فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه، حتى يعمل المأمورات ويجتنب المنهيات، فعلاً ونطقاً واعتقاداً، فجوارحه وقواه وحواسه رعيته، ولا يلزم

(٢) بهجة النفوس (٢/٤٦).

(١) شرح السنة (١٠/٦٢).

(٣) شرح الطيبي (٨/٢٥٦٩).

من الاتصاف بكونه راعيًا أن لا يكون مرعيًا باعتبار آخر»^(١).

قوله: «والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم»:

قال ابن أبي جمرة: «فأما ما يجب على الرجل من الحق في زوجه وولده وعبيده، فمنه ما هو عند الناس كلهم عالمهم وجاهلهم معروف كالكسوة والنفقة والسكنى، لا خفاء به، وهذا بعض من كل، فإن الذي يجب عليه -زائدًا على ذلك- حفظهم في دينهم حتى يحملهم عليه فرضه وندبه، كل على وجهه، وهو أكد من النفقة والكسوة بدليل أن الكسوة والنفقة قد تسقط عنه بالعسر، والإرشاد إلى الدين وتعليمه لا يسقط عنه بوجه، وما لا يسقط أكد ضرورة مما يسقط، لكن لما رأى الناس الأحكام يحكمون في النفقة والكسوة، وما يتعلق بالأمور الدنيوية ولم يحكموا في غيرها على الرعاة لم يبقوا يجعلون الواجب إلا ما حكم فيه ليس إلا، وغاية الذين ينسبون إلى العلم والخير في الأغلب منهم ينسبون ما زاد على ما حكم به أن الكلام فيه من قبيل المندوب الذي إذا فعلوه كانوا مأجورين، وإن لم يفعلوه لم يأثموا، وهذا جهل محض وغلط ظاهر بدليل الكتاب والسنة، وقول الأئمة»^(٢).

قلت: ويستفاد من الآيات والأحاديث وما ذكر فيها من شرح وفوائد: أن الدعوة إلى الله، وإلى دينه وكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، أمر عظيم كبير، يجب على كل أب وأم ورئيس لقوم وإمام ومدرس، ومحتسب وحاكم وقاض، وكل من ولاه الله مسؤولية أن يجتهد في البلاغ لمن ولاه الله أمره، فلا يقتصر الأب والأم على مجرد الإطعام والشراب والكسوة فحسب، بل ينبغي أن يتجاوزا هذا الأمر إلى ما هو أهم منه من التربية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ إذ البلاغ أساس في الأبوة والأمومة، وفي كل مسؤولية تولاهما الإنسان؛ حتى ينتشر هذا الدين ويورث، ويحفظه الآخر عن الأول، وينتشر ويشتهر، وتثار محاسنه ومناقبه في المجالس والمناسبات، وأن لا يهمل وينسى، وكان المسلم لا صلة له بهذا الدين علمًا وتعلمًا.

(١) فتح الباري (١٣/١٤٢).

(٢) بهجة النفوس (٢/٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَايَتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

★ غريب الآية:

الوزن: في الأصل: هو معرفة قدر الشيء بألة خاصة.
الحق: هو وضع الشيء في موضعه على وجه تقتضيه الحكمة.
فمن ثقلت موازينه: أي: رجحت. والثقل يقابل الخفة، فكل ما رجح غيره بوزن أو مقدار فهو أثقل منه. وأصله في الأجسام، ويستعمل في المعاني.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن وزنه للأعمال يوم القيامة حق؛ أي: لا جور فيه، ولا ظلم، فلا يزداد في سيئات مسيء، ولا ينقص من حسنات محسن.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا﴾^(٢)، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَايَتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من ثقلت موازينهم أفلحوا، ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، ولم يفضل الفلاح والخسران هنا.

(١) الأنبياء: الآية (٤٧).

(٢) النساء: الآية (٤٠).

سبحانك عما يذنبون

والرد على من أنكره وبيان صفتها عليه السلام *

سأرى الله في الجنة الحمد لله : مجيباً (١)

(3) ریحتمیتا، (۸۷۱/۶) لمعاً: مجعاً (۲)

(١) القارعة: الآيات (٦-١١).

١٠٢٦، الخيال، د (٢٦٢ / ٢) لمعاً : مجرماً (٦)

وهو عند مسلم (١/٣٦-٣٨/٤) بسنده ولم يسق المتن.

(٥٠) والترمذي (٤٦٩٥/٦٩/٥)، والنسائي (٤٧٢/٨) إلى (٤٧٥/٤٧٥/٥) وابن ماجه (٢٤٠/١)

• (۶۳

(٢١٠٦٢١/١٨٣) نالیه زبدا مصصه

السموات والأرض لو سعت ، فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله : لمن شئت من خلقي . فتقول الملائكة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، ويوضع الصراط مثل حد موسى ، فتقول الملائكة : من تجيز على هذا؟ فيقول : من شئت من خلقي . فيقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»^(١) .

* عن أنس قال : «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل ، قال : قلت : يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط؟ قال : فاطلبي عند الميزان . قلت : فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال : فاطلبي عند الحوض ، فإني لا أخطئ هذه الثلاث موطن»^(٢) .

* عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده»^(٣) .

* عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٤) .

* عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق»^(٥) .

(١) أخرجه : اللالكائي في «شرح السنة» (٦/١٢٤٤/٢٢٠٨) ، وصححه الحاكم (٤/٥٨٦) على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه : أحمد (٣/١٧٨) ، والترمذي (٤/٥٣٧/٢٤٣٣) وقال : «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» . وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٣٠) .

(٣) أخرجه : أحمد (٢/٢٣٢) ، والبخاري (١١/٢٤٦-٢٤٧/٦٤٠٦) ، ومسلم (٤/٢٠٧٢/٢٦٩٤) ، والترمذي (٥/٤٧٨/٣٤٦٧) وقال : «حسن غريب صحيح» ، وابن ماجه (٢/١٢٥١/٣٨٠٦) ، والنسائي في الكبرى (٦/٢٠٧-٢٠٨/١٠٦٦٦) .

(٤) أخرجه : أحمد (٥/٣٤٢-٣٤٣/٣٤٤) ، ومسلم (١/٢٠٣/٢٢٣) ، والترمذي (٥/٥٠١/٣٥١٧) .

(٥) أخرجه : أحمد (٦/٤٤٢ و٤٤٦ و٤٤٨) ، وأبو داود (٥/١٤٩-١٥٠/٤٧٩٩) ، والترمذي (٤/٣١٩/٢٠٠٣) ، وصححه ابن حبان (٢/٢٣٠/٤٨١) .

* عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾»^(٢)^(٣).

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «أنه كان يجتني سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: ممّ تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله! من دقة ساقه، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (٢١٣/٢، ٢٢١-٢٢٢)، والترمذي (٢٦٣٩/٥/٢٥) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/١٤٣٧/٤٣٠٠)، وصححه الحاكم (٦/١) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وفي موضع آخر (١/٥٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) الكهف: الآية (١٠٥).

(٣) أخرجه: البخاري (٤٧٢٩/٥٤٤/٨)، ومسلم (٢١٤٧/٢٧٨٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٤٢٠-٤٢١)، وصححه ابن حبان (٧٠٦٩/٥٤٦/١٥)، وأخرجه الطيالسي في مسنده (٣٥٥)، وأبو يعلى في مسنده (٢٠٩-٢١٠/٥٣١٠)، والبزار (٢٢٢-٢٢١/١٨٢٧ البحر الزخار)، والطبراني في الكبير (٨٤٥٢/٧٨/٩) وغيرهم، من طريق عاصم عن زر بن حبیش عنه. وله عنه طرق أخرى. قال الهيثمي في «المجمع» (٢٨٩/٩): «وأمثل طرقه فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح». وانظر الصحيحة (٢٧٥٠).

ملح * فوائد الأحاديث:

١- في هذه الأحاديث فوائد:

٢- الفائدة الأولى: إثبات الميزان والرد على من أنكره وتأوله وقال: هو بمعنى العدل والقضاء.

قال ابن أبي العز: «ونؤمن بالميزان. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ»^(٣).

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها»^(٤).

قال الحافظ: «قال أبو إسحق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال، وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين»^(٥).

قال ابن جرير بعد ذكره اختلاف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ قال: «والصواب من القول في ذلك عندي: القول الذي ذكرناه عن عمرو ابن دينار، من أن ذلك هو الميزان المعروف الذي يوزن به، وأن الله -جل ثناؤه- يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موازين عمله الصالح ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله: «ما وضع في الميزان شيء أثقل من حسن

(١) الأنبياء: الآية (٤٧).

(٢) المؤمنون: الآيتان (١٠٢ و ١٠٣).

(٣) شرح الطحاوية (ص: ٤١٧).

(٤) فتح الباري (١٣/٦٥٩).

سَدِّ لَامِ نَبِيهِ فِي مَهْنَدِ

فی صحیحہ (۲/۲۳۰/۴۸۱).

(٢) الجاثية: الآيتان (٢٨ و ٢٩).

٣٢١/٨) ناليبا مهلج (١)

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

القيامة ويخفف موازين آخرين ، وتظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ بتحقيق ذلك ، فما الذي أوجب لك إنكار الميزان ، أن يكون هو الميزان الذي وصفنا صفته الذي يتعارفه الناس ، أحجة عقل ؟ فقد يقال : وجه صحته من جهة العقل ، وليس في وزن الله - جل ثناؤه - خلقه وكتب أعمالهم لتعريفهم أثقل القسمين منها بالميزان خروج من حكمة ، ولا دخول في جور في قضية ، فما الذي أحال ذلك عندك من حجة أو عقل أو خبر ، إذ كان لا سبيل إلى حقيقة القول بإفساد ما لا يدفعه العقل ، إلا من أحد الوجهين اللذين ذكرت ، ولا سبيل إلى ذلك ، وفي عدم البرهان على صحة دعواه من هذين الوجهين وضوح فساد قوله ، وصحة ما قاله أهل الحق في ذلك ، وليس هذا الموضع من مواضع الإكثار في هذا المعنى على من أنكر الميزان الذي وصفنا صفته ، إذ كان قصدنا في هذا الكتاب البيان عن تأويل القرآن دون غيره ، ولولا ذلك لقرنا إلى ما ذكرنا نظائره ، وفي الذي ذكرنا من ذلك كفاية لمن وفق لفهمه إن شاء الله^(١) .

قال صديق حسن خان : «وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها ، فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه ، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة على أحد ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كل ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم ، وليتهم جاؤوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها ، بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه ، ومن هو تابع له ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم ، يعرف هذا كل منصف ، ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه ، وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾^(٣) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٦﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ

(٢) الأنبياء : الآية (٤٧) .

(١) جامع البيان (٨/ ١٢٣-١٢٤) .

(٣) المؤمنون : الآيات (١٠١-١٠٣) .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ^(١)، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ^(٢)﴾ فهو في عَشْرَةِ أَلْفَةِ مِثْقَالٍ^(٣) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ^(٤) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ^(٥)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، مذكورة في كتب السنة المطهرة، وما في الكتاب والسنة يغني عن غير هذا، فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه مع قول الله تعالى ورسوله الصادق المصدوق، والصباح يغني عن المصباح^(٦).

الفائدة الثانية: الحكمة من وضع الموازين يوم القيامة: إن آياتها كثيرة، ومنها ما قال ابن ناصر الدين الدمشقي: «ونصب ميزان الحق يوم القيامة بيقين الخلق لفوائد عظيمة، وحكم بهية، اقتضتها الحكمة الإلهية مع علم الله العظيم الخبير بمقادير الأعمال، الصغير والكبير، لا يغيب عن نظره غائب، ولا يقوته هارِبٌ، ولا يؤوده حفظ ما خلق، وهو رب العرش العظيم، ولا يعزب عن علمه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، وإنما الحكمة في وزن أعمال العباد، أن ذلك لامتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا، وهذا أحد الأقوال في معنى ذلك، وقيل: لإظهار علامة السعادة والشقاوة يوم القيامة، وقيل: ليُعرف العباد ما لهم من خير وشر، وقيل: لإقامة الحجة عليهم، وقيل: للإعلام بأن الله جل جلاله عادل لا يظلم من خلقه أحداً، متفضل يربي الحسنيات لصاحبيها ويضاعفها^(٧)».

وقال ابن بطلال: «قال المهلب: فأخبر الله تعالى أنه يضع الموازين لوزن أعمال العباد بها، فيريهم أعمالهم ممثلة في الميزان لأعين العاملين، ليكونوا على أنفسهم شاهدين؛ قطعاً لحججهم، وإبلاغاً في إنصافهم عن أعمالهم الحسنة، وتبكيئاً لمن قال: إن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، وتقصياً عليهم لأعمالهم المخالفة لما شرع لهم، وبرهاناً على عدله على جميعهم، وأنه لا يظلم مِثْقَالَ حَبَّةٍ من خردل حتى يعترف كل بما قد نسيه من عمله، ويميز ما عساه قد جتقروا من فعله، ويقال له عند اعترافه: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً^(٨)».

شبهه به صفة (٦)

(٢) القارة: الآيات (٦-٩): (١٧٣) من تصانيف

(١١٣٨٣١٨٣٥١) مجازة

أبوية مجيئة وملتق (٣)

(٥٠١) قايلاً: سفيها (٢)

(١) النساء: الآية (٤٠).

(٣) فتح البيان (٤/٣٠٥).

(٤) منهاج السلامة في ميزان القيامة (ص: ١١٩-١٢٠).

(٥) شرح ابن بطلال (١٠/٥٥٩).

لَهُ لَذَّةُ النَّفْسِ فِيهَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمَوْزُونِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا هُوَ؟
 «الْحَقُّ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالَّذِي يُوَضَّعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قِيلَ: الْأَعْمَالُ، وَإِنْ
 كَانَتْ الْأَعْمَالُ خَيْرًا مِنَ الْإِيمَانِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْلِبُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْسَامًا. قَالَ الْبَغَوِيُّ: يَرَوَى
 هَذَا عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الصَّحِيحَ مِنْ أَنْ (البقرة) و(آل عمران) يَأْتِيَانِ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ فَرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ^(١)، وَمِنْ ذَلِكَ فِي
 الصَّحِيحِ قِصَّةُ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةٍ شَابٍ شَاحِبِ اللَّوْنِ فَيَقُولُ: مَنْ
 أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: نَبِيُّكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَشْهَرْتَ لَيْلِكَ، وَأَظْمَأْتَ نَهَارَكَ^(٢)، وَفِي حَدِيثٍ
 الْيَوْمَ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ الْقَيْسَرِ يَأْتِي الْمُؤْمِنُ شَابٌ حَسَنَ اللَّوْنِ طِيبَ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: مَنْ
 أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، وَذَكَرَ عَكْسَهُ فِي شَأْنِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ^(٣).

قَالَ الْقَائِلُ هُمِلَ مِنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبُطَّاقَةِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي يُؤْتَى
 بِهِ لِيُوضَعَ فِي كِفَّةٍ تَمْلُكُهُ وَتَسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِتِلْكَ
 الْبُطَّاقَةِ فِيهَا (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! وَمَا هَذِهِ الْبُطَّاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ،
 فَيَقُولُ: اللَّهُ تَعَالَى لِيُحْكَمَ لَكَ تَظْلَمَ، فَتُوضَعُ تِلْكَ الْبُطَّاقَةُ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فُطِّمَتِ السَّجَلَاتُ وَثُقُلَتِ الْبُطَّاقَةُ»^(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِنَحْوِ مَنْ هَذَا
 وَصَحَّحَهَا، وَقِيلَ سَجَلًا صَاحِبِ الْعَمَلِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 بِالرَّجُلِ السَّمِينِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ بَعُوضَةٍ»^(٥)، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 وَزَنَهُمْ﴾^(٦) وَوَفَّقَهُ الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ دَقَّةِ

رَجُلٍ إِذَا مَاتَ دُنِيَ لَهُ

(١) أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ الْبُطَّاقَةِ ابْنُ سَمْعَانَ: أَحْمَدُ (٤/١٨٣)، وَمُسْلِمٌ (١/٥٥٤/٨٠٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٥/١٤٧-١٤٨/٢٨٨٢).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَتْمٍ: أَحْمَدُ (٥/٣٥٢)، وَابْنُ مَاجَةَ (٢/١٢٤٢/٣٧٨١)، وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي
 قُبْرِ النَّبِيِّ ﷺ (٢/٢٥٨) «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رَجَالُهُ ثِقَاتٌ»، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي التَّفْسِيرِ (١/٣٢): «وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ
 مِنْ حَدِيثِ بَشِيرِ بْنِ الْمُهَاجِرِ بَعْضَهُ، وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ»، وَالْبَغَوِيُّ فِي شَرْحِ السَّنَةِ (٤/٥٣٨-٥٣٩/١١٩٠) وَقَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ (١/٥٦٠) عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَوَفَّقَهُ الذَّهَبِيُّ.

وَمِنْ التَّخْرِيجِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ عَزْوَهُ لِلصَّحِيحِ لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: أَحْمَدُ (٤/٢٨٧-٢٨٨)، وَأَبُو دَاوُدَ (٥/١١٤-١١٦/٤٧٥٣)،
 وَالحَاكِمُ (١/٣٧-٣٨) وَصَحَّحَهُ، وَوَفَّقَهُ الذَّهَبِيُّ. وَأَخْرَجَهُ مُخْتَصَرًا: النَّسَائِيُّ (٤/٣٨١/٢٠٠٠)، وَابْنُ
 مَاجَةَ (١/٤٩٤/١٥٤٩)، وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْقَيْمِ فِي إِعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ (١/١٧٨).

(٤) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ قَرِيبًا. (٥) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ قَرِيبًا.

(٦) الْكَهْفُ: الْآيَةُ (١٠٥).

ساقيه؟ والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»^(١)، وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن مَحَالُهَا، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم»^(٢).

قال الحكمي: «والذي استظهر من النصوص - والله أعلم - أن العامل وعمله وصحيفة عمله، كل ذلك يوزن؛ لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل لذلك ما رواه أحمد^(٣) - رحمه الله تعالى - عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصى عليه، فيما ييل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار، قال: فإذا أدبر، إذا صائح من عند الرحمن ﷻ يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان»، فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، والله الحمد والمنة»^(٤).

الفائدة الرابعة: هل توزن أعمال الكفار؟

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين: فقالت طائفة: إن الوزن خاص بأعمال المؤمنين. وقالت طائفة أخرى: إن الكفار توزن أعمالهم كذلك.

قال الألوسي: «وظاهر النظم الكريم أن الوزن ليس مختصاً بالمسلمين، بل الكفار أيضاً توزن أعمالهم التي لا توقف لها على الإسلام، وإلى ذلك ذهب البعض، وادعى القرطبي أن الصحيح أنه يخفف بها عذابهم، وإن لم تكن راجحة، كما ورد في حق أبي طالب^(٥). وذهب الكثير إلى أن الوزن مختص بالمؤمنين، وأما

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٣) في المسند (٢/ ٢٢١-٢٢٢) وكذا الترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٣٩)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٢) وقال: «رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقي رجاله رجال الصحيح»، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند (١٢/ ٢٣). وقد تقدم قريباً.

(٤) معارج القبول (٢/ ٢٧١-٢٧٢).

(٥) أخرجه من حديث العباس بن عبد المطلب: أحمد (١/ ٢٠٦)، والبخاري (١٠/ ٧٢٣/ ٦٢٠٨)، ومسلم (١/ ١٩٤-١٩٥/ ٢٠٩).

الكفار فتحبط أعمالهم كيفما كانت ، وهو أحد الوجهين في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا ﴾^(١) ولا يخفف بها عنهم من العذاب شيء ، وما ورد من التخفيف عن أبي طالب فقد قال السخاوي : إن المعتمد أنه مخصوص به^(٢) .

وقال الحلبي : « وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهارها معانيها دبرها ليكون الجزاء بحسبها قال - جل ثناؤه - : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾^(٣) ، ﴿ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٤) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾^(٥) ، وقال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾^(٦) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٧) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾^(٨) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾^(٩) ، وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾^(١٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾^(١١) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾^(١٢) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾^(١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴾^(١٤) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾^(١٥) ، وفي هذه الآيات كلها إخبار بوزن أعمال الكفار ؛ لأن غاية المعنيين بقول الله تعالى : ﴿ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ في هذه الآيات هم الكفار ، فإن في إحداها : ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ ، والظلم بآيات الله الاستهزاء بها وترك الإذعان لها ، وفي الثانية : ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾^(١٦) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾^(١٧) أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالِ عَلَيْكُمْ فَاكُتُمُوهَا تَكْذِبُونَ ﴾^(١٨) ، وفي الثالثة : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾^(١٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴾^(٢٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾^(٢١) ، فهذا الوعيد بالإطلاق لا يكون إلا للكفار ، فإذا جمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾^(٢٢) ، ثبت أن الكفار يسألون عن كل ما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه ؛ إذ لو لم يسألوا عما وافقوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم ، ولم يحاسبوا بها لم يعتد بها في الوزن ، وإذا كانت موزونة في وقت الوزن دل ذلك على أنهم محاسبون بها

(٢) روح المعاني (٨ / ٨٥) .

(٤) المؤمنون : الآيات (١٠١-١٠٤) .

(٦) المؤمنون : الآيات (١٠٣-١٠٥) .

(١) الكهف : الآية (١٠٥) .

(٣) الأنبياء : الآية (٤٧) .

(٥) القارعة : الآيات (٦-١١) .

(٧) الأنبياء : الآية (٤٧) .

في موقف الحساب، والله أعلم^(١).

وقال البيهقي: «وهذا على قول من قال في الكفار: إنهم مخاطبون بالشرائع، وهو الصحيح؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(٢)، فتوعدهم على منع الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾^(٣)، ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(٤)، ﴿لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾^(٥)، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾^(٦)، ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٧)، ﴿حَقَّ أَتَيْنَا الْيَقِينَ﴾^(٨)، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان بالبعث وبقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها مخاطبون بها، مُجْزَوْنَ على ما أخلوا به منها، والله أعلم^(٩).

الفائدة الخامسة: هل الميزان واحد، أم هي موازين متعددة؟

سيأتي بحث هذه المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الآية (٤٧) من سورة (الأنبياء)؛ إذ هو أنسب مكان لمناقشتها، وبيان وجه الصواب فيها، وبالله التوفيق.

(١) المنهاج في شعب الإيمان (١/٣٨٧-٣٨٨).

(٢) فصلت: الآيتان (٦ و٧).

(٣) المدثر: الآيات (٤٢-٤٧).

(٤) شعب الإيمان (١/٢٥٨).

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (١٠)

★ غريب الآية :

مَكَّنَّاكُمْ : أي : ملكناكم وجعلناكم متمكنين من المكان الذي وليناكم إياه ؛ أي :
قويناكم . من تمكن فلان من كذا : إذا قدر عليه وأطاقه . وأصله من المكان . والمكان
لغة هو : الحاوي للشيء .

جعلنا : الجعل : التصيير .

معاش : جمع معيشة ، وهو ما يُعَاشُ به ؛ أي : يحيا من زرع وضرع وغيرهما .
وهي في الأصل : مصدر لعاش يعيش عيشًا وعيشةً ومعاشًا ومعيشًا .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال محمد رشيد رضا : « تقدم أن الله تعالى بدأ هذه السورة بذكر إنزال القرآن على
خاتم الرسل ؛ لينذر به جميع البشر فيما يدعوههم إليه من دينه ، وبيان أساس الدين
الإلهي ، وهو أن واضع الدين هو الله تعالى رب العباد ، فالواجب فيه اتباع ما أنزله
إليهم ، وأن لا يتبعوا من دونه أولياء يتولونهم ، ويعملون بما يأمرونهم به من عبادة
وحلال وحرام ، وأنه قفى على ذلك ببيان نوعي العذاب الذي أنذر به من يتبعون
أولئك الأولياء ؛ أي : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . فهذا موضوع الآيات السابقة .

ولما كان الدين الذي أمر تعالى باتباع التنزيل فيه دون غيره - إلا ما بينه من سنة
الرسول المنزل عليه بأمره - هو دين الفطرة المبين لكل ما يوصلها إلى كمالها ،
والناهي لها عن كل ما يحول بينها وبين هذا الكمال ، وكان افتتان الناس بأمر المعيشة
من أسباب إفساد الفطرة بالإسراف في الشهوات ، من حيث إنه يجب أن تكون نعم
الله عليهم بما يحتاجون إليه من أمر المعيشة سببًا لإصلاحها بشكر الله عليه الموجب
للمزيد منه ؛ لما كان الأمر كذلك ذكر سبحانه الناس في هذه الآية بنعمه عليهم في

التمكين في الأرض، وخلق أنواع المعاش فيها، وهو بدء سياق طويل فيه بيان خلق نوعهم الإنساني مستعداً للكمال وما يعرض له من وسوسة الشيطان التي تصده عنه، وما ينبغي لأفراده من اتقاء فتنة هذه الوسوسة، وعدم اتخاذ شياطينها الملقين لها أولياء يتبعونهم دون ما أنزل إليهم من ربهم؛ فإنهم هم الذين يحملونهم بذلك على كفر النعم عوضاً عن الشكر، وعلى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه، ويتلوه ما شرعه لهم من الزينات والطيبات، وما حرمه عليهم فيهما.

فهذا السياق الاستطراذي أو المشبه للاستطراد يبتدئ من الآية التاسعة إلى الآية الثانية والثلاثين، ثم يعود الكلام إلى ذكر دعوة الرسل للأمم وجزاء من آمن بهم واتبعهم ومن كفر بهم وعصاهم، وفيه تفصيل لما أجمل في الآيتين اللتين قبل هذه الآية من جزاء الآخرة. فتأمل دقة بلاغة التناسب بين آيات القرآن؛ فإنها نوع خاص من أنواع إعجازه الكثيرة^(١).

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولقد وطنّا لكم أيها الناس في الأرض، وجعلناها لكم قراراً تستقرون فيها، ومهاذا تمتهدونها، وفراشاً تفترشونها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب نعمة مني عليكم، وإحساناً مني إليكم، ﴿فَلَيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول: وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم؛ لعبادتكم غيري، واتخاذكم إلهاً سواي»^(٢).

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا كيفية هذه المعاش التي جعل لنا في الأرض، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر، كقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ١٤٠ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ١٤١ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ١٤٢ فَأَبْقَيْنَا فِيهَا جَبًّا ١٤٣ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ١٤٤ وَزَيَّنَّا وَنَحَلًا ١٤٥ وَحَدَّاقًا غُلَبًا ١٤٦ وَفَكَهَنَةً وَأَبْنَا ١٤٧ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ^(٣)»، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ٥٢ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٥)، وذكر كثيراً من ذلك في سورة (النحل)، كقوله: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).

(٥) طه: الآيتان (٥٣ و٥٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٢٥).

(٤) السجدة: الآية (٢٧).

فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ»^(١)، إلى غير ذلك من الآيات»^(٢).

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أمر الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام، وبقبول دعوتهم ثم خوفهم بعذاب الدنيا، وهو قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾»^(٣)، ثم خوفهم بعذاب الآخرة من وجهين: أحدهما: السؤال، وهو قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾»^(٤). والثاني: بوزن الأعمال، وهو قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾»^(٥)، رغبتهم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام في هذه الآية بطريق آخر وهو أنه كثرت نعم الله عليهم، وكثرة النعم توجب الطاعة، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾، فقوله: ﴿مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، ومكناكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها، وجعلنا لكم فيها معاش. والمراد من المعاش: وجوه المنافع، وهي على قسمين؛ منها ما يحصل بخلق الله تعالى ابتداءً؛ مثل خلق الثمار وغيرها، ومنها ما يحصل بالاكتساب، وكلاهما في الحقيقة إنما حصل بفضل الله وإقداره وتمكينه، فيكون الكل إنعاماً من الله تعالى، وكثرة الإنعام لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد، ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال والإنعام عالم بأنهم لا يقومون بشكره كما ينبغي، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. وهذا يدل على أنهم قد يشكرون والأمر كذلك، وذلك لأن الإقرار بوجود الصانع كالأمر الضروري اللازم لجبلته عقل كل عاقل، ونعم الله على الإنسان كثيرة، فلا إنسان إلا ويشكر الله تعالى في بعض الأوقات على نعمه، إنما التفاوت في أن بعضهم قد يكون كثير الشكر، وبعضهم يكون قليل الشكر»^(٦).

وقال ابن عاشور: «وفي التعقيب بهذه الآية لآية ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾»^(٧) إيحاءً إلى أن إهمال شكر النعمة يعرض صاحبها لزوالها، وهو ما دل عليه قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾»^(٨).

(٢) أضواء البيان (٩/٢).
(٤) الأعراف: الآية (٦).
(٦) التفسير الكبير (٣١/١٤).

(١) النحل: الآية (٥).
(٣) الأعراف: الآية (٤).
(٥) الأعراف: الآية (٨).
(٧) الأعراف: الآية (٤).
(٨) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١١﴾

★ غريب الآية:

خلقناكم: الخلق: إحداث الشيء على تقدير تقتضيه الحكمة. وأصل الخلق: التقدير المستقيم. ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، كقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ...﴾

صوّرناكم: التصوير: جعل شيء على صورة.

اسجدوا: السجود: أصله الخضوع والتذلل. وخص ذلك شرعاً بعبادة الله، فلا يجوز السجود لغير الله تعالى.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام بالتحوير أولاً ثم بالترغيب ثانياً على ما بيناه، والترغيب إنما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق، فبدأ في شرح تلك النعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾^(١)، ثم أتبعه بذكر أنه خلق أبانا آدم وجعله مسجوداً للملائكة، وإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات. ونظيره أنه تعالى قال في أول سورة (البقرة): ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾^(٢)، فمنع تعالى من المعصية بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، وعلل ذلك المنع بكثرة نعمه على الخلق، وهو أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم، ثم خلق لهم ما في الأرض جميعاً من المنافع، ثم أتبع تلك المنفعة بأن جعل آدم خليفة في الأرض مسجوداً للملائكة، والمقصود من الكل تقرير أن مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم التمرد والجحود، فكذا في هذه السورة ذكر تعالى عين هذا

المعنى بغير هذا الترتيب، فهذا بيان وجه النظم على أحسن الوجوه^(١).

وقال ابن كثير: «ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منظور عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّتَّسُونَ﴾ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ^(٢) الآية، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ بيده من طين لازب، وصوره بشرًا سويًا، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة (البقرة). وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم ﷺ.

وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: «خُلِقُوا فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَصُورُوا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ»، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضًا أن المراد بـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾: الذرية.

وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك: آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع؛ لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰ قُلُوبِكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾^(٣)، والمراد آبائهم الذين كانوا في زمن موسى، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن

(١) التفسير الكبير (٣٢/١٤).

(٢) الحجر: الآيات (٢٨-٣٠).

(٣) البقرة: الآية (٥٧).

سُلِّلَتْ مِّن طِينٍ ﴿١١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَّكِينٍ ﴿١٢﴾^(١)؛ فإن المراد من آدم المخلوق من السلالة، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: الجنس، لا معينًا، والله أعلم^(٢).

قال ابن جرير: «وأما قوله للملائكة: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإنه يقول -جل ثناؤه-: فلما صورنا آدم، وجعلناه خلقًا سويًا، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ابتلاءً منا واختبارًا لهم بالأمر؛ ليعلم الطائع منهم من العاصي، ﴿فَسَجَدُوا﴾ يقول: فسجد الملائكة ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإنه ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدم حين أمره الله مع من أمر من سائر الملائكة غيره بالسجود. وقد بينا فيما مضى المعنى الذي من أجله امتحن جل جلاله ملائكته بالسجود لآدم، وأمر إبليس وقصصه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع^(٣).

قال أبو السعود: «وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق آدم ﷺ وتصويره حتمًا توفية لمقام الامتتان حقه، وتأكيذاً لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظًا من خلقه ﷺ وتصويره لما أنهما ليس من الخصائص المقصورة عليه ﷺ كسجود الملائكة له ﷺ، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعًا؛ إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه على نمطه، ومصنوع على شاكلته، فكأنهم الذي تعلق به خلقه وتصويره؛ أي: خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصور، ثم صورناه أبدع تصوير، وأحسن تقويم سار إليكم جميعًا^(٤)».

(١) المؤمنون: الآيتان (١٢ و ١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩١-٣٩٢).

(٣) جامع البيان (٨/ ١٢٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٦﴾ ﴿

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : « وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - ، عن قيله لإبليس إذ عصاه فلم يسجد لآدم إذ أمره بالسجود له ، يقول : ﴿ قَالَ ﴾ الله لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ أي شيء منعك ﴿ إِلَّا تَسْجُدَ ﴾ أن تدع السجود لآدم ، ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أن تسجد ، ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ يقول : قال إبليس : أنا خير من آدم ﴿ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

فإن قال قائل : أخبرنا عن إبليس ، ألحقته الملامة على السجود أم على ترك السجود؟ فإن تكن لحقته الملامة على ترك السجود فكيف قيل له : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ ؟ وإن كان النكير على السجود ، فذلك خلاف ما جاء به التنزيل في سائر القرآن ، وخلاف المسلمون .

قيل : إن الملامة لم تلحق إبليس إلا على معصيته ربه ، بتركه السجود لآدم إذ أمره بالسجود له ، غير أن في تاويل قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ بين أهل المعرفة بكلام العرب اختلافاً .

والصواب عندي من القول في ذلك أن يقال : إن في الكلام محذوفاً قد كفى دليل الظاهر منه ، وهو أن معناه : ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد ، فترك ذكر (أحوجك) استغناءً بمعرفة السامعين ، قوله : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أن ذلك معنى الكلام من ذكره ، ثم عمل قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ في أن ما كان عاملاً فيه قبل (أحوجك) لو ظهر ، إذ كان قد ناب عنه .

وإنما قلنا : إن هذا القول أولى بالصواب ؛ لما قد مضى من دلالتنا قبل على أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له ، وأن لكل كلمة معنى صحيحاً ، فتبين بذلك فساد قول من قال : (لا) في الكلام حشو لا معنى لها ، وأما قول من قال : معنى المنع ههنا : القول ، فلذلك دخلت (لا) مع (أن) ، فإن المنع وإن كان قد

يكون قولاً وفعلًا ، فليس المعروف في الناس استعمال المنع في الأمر بترك الشيء ؛ لأن المأمور بترك الفعل إذا كان قادرًا على فعله وتركه ، ففعله لا يقال : فعله ، وهو ممنوع من فعله إلا على استكراه للكلام ، وذلك أن المنع من الفعل حول بينه وبينه ، فغير جائز أن يكون ، وهو محول بينه وبينه فاعلاً له ؛ لأنه إن جاز ذلك ، وجب أن يكون محولاً بينه وبينه لا محولاً ، وممنوعاً لا ممنوعاً ، وبعد : فإن إبليس لم يأت أمر الله تعالى بالسجود لآدم كبراً ، فكيف كان يأتى لغيره في ترك أمر الله وطاعته بترك السجود لآدم ، فيجوز أن يقال له : أي شيء قال لك : لا تسجد لآدم إذ أمرتك بالسجود له ؟ ولكن معناه إن شاء الله ما قلت : ما منعك من السجود له فأخرجك أو فأخرجك أو فاضطرك إلى أن لا تسجد له على ما بينت .

وأما قوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فإنه خبر من الله - جل ثناؤه - عن جواب إبليس إياه ، إذ سأله ما الذي منعه من السجود لآدم ، فأحوجه إلى أن لا يسجد له واضطره إلى خلافه ، أمره به وتركه طاعته ، أن المانع كان له من السجود ، والداعي له إلى خلافه أمر ربه في ذلك ، أنه أشد منه يداً وأقوى منه قوة وأفضل منه فضلاً ؛ لفضل الجنس الذي منه خلق وهو النار ، من الذي خلق منه آدم وهو الطين ، فجهل عدو الله وجه الحق ، وأخطأ سبيل الصواب ؛ إذ كان معلوماً أن من جوهر النار : الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علواً ، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق على الاستكبار عن السجود لآدم ، والاستخفاف بأمر ربه ، فأورثه العطب والهلاك ، وكان معلوماً أن من جوهر الطين : الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبت ، وذلك الذي في جوهره من ذلك كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة ، ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان : أول من قاس إبليس ، يعنيان بذلك القياس الخطأ ، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله وبعده من إصابة الحق في الفضل الذي نخص الله به آدم على سائر خلقه : من خلقه إياه بيده ، ونفخه فيه من روحه ، وإسجاده له الملائكة ، وتعليمه أسماء كل شيء مع سائر ما خصه به من كرامته ، فضرب عن ذلك كله الجاهل صفحاً ، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خلقه من نار ، وخلق آدم من طين ، وهو في ذلك أيضاً له غير كفاء ، لو لم يكن لآدم من الله ^{عليه} ذكره تكريماً

شيء غيره، فكيف والذي خص به من كرامته يكثّر تعداده ويُملّ إحصاؤه..
وهذا الذي قاله عدو الله ليس لما سأله عنه بجواب؛ وذلك أن الله -تعالى ذكره- قال له: ما منعك من السجود؟ فلم يجب بأن الذي منعه من السجود أنه خلقه من نار، وخلق آدم من طين، ولكنه ابتدأ خبراً عن نفسه، فيه دليل على موضع الجواب، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(١).

قال صديق حسن خان: «والاستفهام: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتقريع والتوبيخ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك، وقال هنا: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وفي سورة (الحجر): ﴿قَالَ يَتْلِيَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢)، وقال في سورة (ص): ﴿أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾^(٣)، واختلاف العبارات عند الحكاية، يدل على أن اللعين قد أدرج في معصية واحدة ثلاث معاص: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، والاستكبار مع تحقير آدم، وقد وبخ على كل واحدة منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر، وقد تركت حكاية التوبيخ رأساً في سورة (البقرة) و(الإسراء) و(الكهف) و(طه)»^(٤).

قال القرطبي: «قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يدل على ما يقوله الفقهاء من أن الأمر يقتضي الوجوب، بمطلقه من غير قرينة؛ لأن الظم علق على ترك الأمر المطلق، الذي هو قوله ﴿عَلَيْكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وهذا بين»^(٥).

قال ابن القيم: «أخبر الله أن امتناع إبليس من السجود كان كبيراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتاً، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه، وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة: أحدها: أن دعواه كونه خيراً من آدم، دعوى كاذبة باطلة، واستدلّاله عليها بكونه مخلوقاً من نار، وآدم من طين،

(١) جامع البيان (٨/ ١٢٩-١٣١).

(٢) الحجر: الآية (٣٢).

(٣) ص: الآية (٧٥).

(٤) فتح البيان (٤/ ٣١٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٧٠).

استدلال باطل ، وليست النار خيرًا من الطين والتراب ، بل التراب خير من النار وأفضل عنصرًا من وجوه :

أحدهما : أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلق به بخلاف التراب .

الثاني : أن طبعها الخفة والحدة والطيش ، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات .

الثالث : أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزيتهم وآلات معاشهم ومساكنهم ، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك .

الرابع : أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة ، ولا عن ما يتكون فيه ومنه ، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقًا ، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور ، فلا تدعوه إليها الضرورة ، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار ، في بعض الأحيان .

الخامس : أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه ، فمن برakte يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفًا ، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر .

السادس : أن النار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملًا لها ، والتراب لا يفتقر إلى حامل ، فالتراب أكمل منها .

السابع : أن النار مفتقرة إلى التراب ، وليس بالتراب فقر إليها ، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونًا من التراب أو فيه ، فهي الفقيرة إلى التراب ، وهو الغني عنها .

الثامن : أن المادة الإبليلية هي المارج من النار ، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى ، فيميل معه كيفما مال ، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره ، ولما كانت المادة الآدمية التراب ، وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب ، قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباها واصطفاه ، فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضًا سريع الزوال فزال ، وكان الثبات والرزانة أصليًا له فعاد إليه ، وكان إبليس بالعكس من ذلك ، فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره ، آدم إلى أصله الطيب الشريف ، واللعين إلى أصله الرديء .

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع، فالشر فيها لا يصددها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه، كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته، فأين أحدهما من الآخر؟

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهادًا وفراشًا، وبساطًا وقرارًا، وكفأًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكير فيها والنظر في آياتها، وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب، إلا موضعًا أو موضعين، ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان، وهم المقوون النازلون بالقوا، وهي الأرض الخالية، إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟

الحادي عشر: أن الله وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصًا، وأخبر أنه بارك فيها عمومًا، فقال: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩﴾ وجعل فيها رويسًا من فوقها وبرك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين^(١)، فهذه بركة عامة، وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٢٠﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً ٢١﴾ وقوله: ﴿وَلَسَلِّمُنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ٢٢﴾، وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلًا، بل المشهور أنها مذهب للبركة ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه، إلى مزيل البركة وماحقها.

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبح له فيها بالغدو والآصال عمومًا، وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا فيه، وهدى للعالمين خصوصًا، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفضلًا على النار.

(١) فصلت: الآيتان (٩ و ١٠).

(٢) الأنبياء: الآية (٧١).

(٣) سبأ: الآية (١٨).

(٤) الأنبياء: الآية (٨١).

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن، والأنهار والعيون والثمرات، والحبوب والأقوات، وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والجنان، والرياض والمراكب البهية، والصور البهيجة ما لم يودع في النار شيئاً منه، فأى روضة وجدت في النار أو جنة، أو معدن أو صورة، أو عين فوارة، أو نهر مطرد، أو ثمرة لذیذة أو زوجة حسنة، أو لباس وسترة.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه، ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته، رأى صورة الطين تراباً ممتزجاً بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين: الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة، فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته، لرأى أنه خير من النار وأفضل، وإذا استقرت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها، وجدتها كثيرة جداً، وإنما أشرنا إليها إشارة، ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين، لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيراً من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقرار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خلقاً وخلقاً؟ وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور، وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب، فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين، وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم، فعارض حكمة الله وأمره، برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصاً وعقلاً، وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ بالله من الخذلان، ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشراً منه، ولأن يلقي الله

بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراف به أسلم له من أن يلقي الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه، ورأي بني جنسه. وهل طرد الله تعالى إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس، ثم قدمه عليه، والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة، أقوى من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بأرائهم وعقولهم، فالعالم يتدبر سر تكرير الله تعالى لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر، فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالى ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله عن عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله، دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان، قبل أن يوزن يوم القدوم على الله، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

قلت: رحمة الله على الإمام ابن القيم حيث أوتي علماً وعملاً وفهماً وتوفيقاً، فكل ما ذكر من أغلاط إبليس في قياسه نفسه على النار ومقارنتها بالطين والتراب توجد في بني آدم وقد انتقلت إليهم، ولو تتبعنا أحوالهم وجدت المتكبرين المغرورين فيهم كثر على تنوع أحوالهم، فبعضهم يغتر بالملك والمنصب كما حصل لفرعون اللعين الذي قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾^(٢). فما هي المقارنة بين نبي وبين كافر زنديق يسبح في غروره؟! وفي غرور قارون بماله حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٣)، فكم بين قارون وبين أهل العلم الذين أوتوا الهداية والتوفيق، الذين قالوا: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقِّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾^(٤)؟! وكم من المقارنة بين قول كفار قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٥) وبين شمس الهداية وقمرها وباعث روحها ولبها محمد ﷺ؟! وهكذا نجد في بني آدم من أنواع ما ابتلي به إبليس من

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٩-١٤٣).

(٢) القصص: الآية (٧٨).

(٣) القصص: الآية (٧٨).

(٤) الزخرف: الآية (٣١).

(٥) الزخرف: الآية (٥٢).

(٦) القصص: الآية (٨٠).

الفرور ما لو تمتحنه لوجدت هذا يفتخر بنسبه، وآخر بلونه، وآخر بجماله، وآخر بوطنه، وهذا يفتخر بزمانه، وهذا يفتخر بمبدئه وانتمائه، وظهر هذا جلياً في اليهود الذين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وكما سبق أن هذا كثير في بني آدم فيفضلون ما هو مفضل، ويفتخرون بما هو مفخور، والأصل هو امثال أمر الله واجتناب نهيه واتباع أنبيائه ورسله، فإذا كان الفضل فهذه الصفات وإلا فكلنا من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾^(١). وما نبه عليه الإمام ابن القيم من معارضة الوحي بالعقل والقياس فهو بحر لا ساحل له وكل الفرق والطوائف التي نشأت فهي من هذا الوادي ومن هذا المسلك. خرجت فتأسست لمعارضة الكتاب والسنة ولفهم سلف الأمة، وهكذا الجماعات المعاصرة على اختلاف انتماءاتها والمفكرون المعاصرون كلهم -إلا من رحم الله- لا تكاد تجد في ألسنتهم إلا: «هذا في نظري»، و«أما أنا فلا أسلم بهذا النص، والعقل لا يصدق». . . . وهم كما وصف الله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَىٰ فُهُمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢) والله المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان العناصر

التي خلق الله منها آدم والجنان والملائكة

✽ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٣).

✽ غريب الحديث:

مارج من نار: المارج: نار لا دخان لها منها الجن، وفي «اللسان»: مارج النار: لهبها المختلط بسوادها.

✽ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفقه: إخبار النبي ﷺ عن بدء الخلق، وبيانه للعناصر التي

(٢) البقرة: الآية (١٧١).

(١) الحجرات: الآية (١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١٥٣/٦)، ومسلم (٢٢٩٤/٤)، وأبو داود (٢٩٩٦).

خلق الله منها الملائكة والجن وادم، قال ابن عثيمين: «فذكر النبي ﷺ أن الملائكة خلقوا من النور، ولذلك كانوا كلهم خيراً، لا يعصون الله ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فالملائكة خلقوا من نور، أما الشياطين -الجن- فقال: إنهم خلقوا من نار، وفي هذا دليل على أن الجن هم ذرية الشيطان الأكبر، الذي أبى أن يسجد لآدم وقال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، فالجن كلهم مخلوقون من النار، ولهذا كثر منهم الطيش والعبث والعدوان على كل من يستطيعون العدوان عليه . . . وخلق آدم مما ذكر لكم؛ يعني: خلق من طين من تراب، من صلصال كالفخار؛ لأن التراب صار طيناً ثم صار فخاراً، فخلق منه آدم عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(١)»^(٢).

وفيه: «بيان قدرة الله تعالى في خلقه، وأنه يخلق ما يشاء مما يشاء، فله العظمة والكبرياء، وأنه قادر على كل شيء، فعال لما يريد، فيجب الإيمان بكل ما أخبر عنه ﷺ»^(٣).

* * *

(١) طه: الآية (٥٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/٣٢٦-٣٢٧).

(٣) انظر نزهة المتقين (ص: ٦٦٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (١٣)

★ غريب الآية:

الصاغر: الذليل. والصَّغار: الذلة. والصاغر: الراضي بالمنزلة الدنية.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني: ﴿فَأَهِيطَ مِنْهَا﴾ أي: بسبب عصيانك لأمرى، وخروجك عن طاعتي، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ أي: الذليلين الحقيرين؛ معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده»^(١).

وقال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاضم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، والصغار: أشد الذل والهوان، وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْهُورًا﴾^(٢)، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك؛ وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾^(٣).

وبيّن في مواضع أخر كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر، أعادنا الله والمسلمين منه، فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله، والاهتداء

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٩٣).

(٢) الأعراف: الآية (١٨).

(٣) غافر: الآية (٥٦).

بها كما في قوله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِقَى الَّذِينَ يَنْكَبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(١) الآية، ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار، كما في قوله تعالى: ﴿الْأَنسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٢) وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣) ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى كما في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾^(٤)، ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به ولا يستعاذ إلا مما هو شر، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾^(٥)، إلى غير ذلك من نتائج السيئة، وعواقبه الوخيمة، ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله - جل وعلا - يرفعه الله.

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخر كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٦)، وقوله: ﴿تِلْكَ الْأَرْضُ أَخْبَرْتُ بَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٧)، وقد صح عنه عليه السلام أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»^(٨)، وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدور تبصر وجهه على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالمدخان يعلو بنفسه إلى صفحات الجو وهو ضيع^(٩).

(١) الأعراف: الآية (١٤٦).

(٣) الصافات: الآية (٣٥).

(٥) غافر: الآية (٢٧).

(٧) القصص: الآية (٨٣).

(٢) الزمر: الآية (٦٠).

(٤) النحل: الآية (٢٣).

(٦) الفرقان: الآية (٦٣).

(٨) أخرجه: مسلم (٤/٢١٩٧-٢١٩٩/٢٨٦٥ [٦٤])، وأبو داود (٥/٢٠٣/٤٨٩٥)، وابن ماجه (٢/١٣٩٩).

(٩) ٤١٧٩ من حديث عياض المجاشعي رحمته الله.

(٩) أضواء البيان (٢/١٠-١١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾

★ غريب الآية:

أنظرني: الإنظار: الإمهال والتأخير.

يُبعثون: البعث: أصله الإثارة والتوجيه. يقال: بعثته فانبعث، ويختلف باختلاف متعلقاته، فبعثت البعير: أثرتُه وسيّرتُه، وبعثت رسولي: أرسلته، وبعث الله الموتى: أي: أقامهم للحشر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه أيضًا جهلة أخرى من جهلاته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه، وذلك أنه سأل النظرة إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق، ولو أعطي ما سأل من النظرة كان قد أعطي الخلود، وبقاء لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث، فقال -جل ثناؤه-: ﴿فَأِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ»^(١)، وذلك إلى اليوم الذي قد كتب الله عليه فيه الهلاك والموت والفناء؛ لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى غير ربنا الحي الذي لا يموت؛ يقول الله -تعالى ذكره-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٢)، والإنظار في كلام العرب: التأخير، يقال منه: أنظرته بحقي عليه أنظره به إنظارًا.

فإن قال قائل: فإن الله قد قال له إذ سألته الإنظار إلى يوم يُبعثون: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سأل؟

قيل له: ليس الأمر كذلك، وإنما كان مجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنك من المنظرين إلى الوقت الذي سألت، أو: إلى يوم البعث، أو: إلى يوم يُبعثون، أو ما أشبه ذلك مما يدل على إجابته إلى ما سأل من النظرة، وأما قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ

(١) الحجر: الآيتان (٣٧ و٣٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٨٥).

الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ فلا دليل فيه لولا الآية الأخرى التي قد بين فيها مدة إنظاره إياه إليها ، وذلك قوله : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٢٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾ على المدة التي أنظره إليها ؛ لأنه إذا أنظره يوماً واحداً ، أو أقل منه أو أكثر ، فقد دخل في عداد المنظرين ، وتم فيه وعد الله الصادق ، ولكنه قد بين قدر مدة ذلك بالذي ذكرناه ، فعلم بذلك الوقت الذي أنظره إليه ، وبنحو ذلك كان السدي يقول .

حدثني موسى بن هارون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدي : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٢٨) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٠﴾ ^(١) ، فلم ينظره إلى يوم البعث ، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى ، فصَعِقَ من في السموات ومن في الأرض ، فمات .

فتأويل الكلام : قال إبليس لربه : ﴿ أَنْظِرْنِي ﴾ أي : أخرني وأجلني ، وأنسى في أجلي ، ولا تُمِتني ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يقول : إلى يوم يبعث الخلق ، فقال - تعالى ذكره - : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ إلى يوم ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله .

فإن قال قائل : فهل أحد مُنْظَرٍ إلى ذلك اليوم سوى إبليس ، فيقال له : إنك منهم ؟ قيل : نعم ، من لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم ممن تقوم عليه الساعة ، فهم من المنظرين بأجالهم إليه ، ولذلك قيل لإبليس : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ بمعنى : إنك ممن لا يميتة الله إلا ذلك اليوم ^(٢) .

قال الزمخشري : « فإن قلت : لِمَ أُجِيبَ إلى استنظاره وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم ؟ قلت : لما في ذلك من ابتلاء العباد في مخالفته من أعظم الثواب ، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده » ^(٣) .

قال ابن المنير : « وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح في أفعاله . وأما أهل السنة فقد أصغوا حق

(١) الحجر : الآيات (٣٦-٣٨) .

(٢) جامع البيان (٨/ ١٣٢-١٣٣) .

(٣) الكشف (٢/ ٦٩) .

الإصغاء إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١)، فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق^(٢).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال [٦٩/٢] الكشف.

قوله تعالى : ﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - جل ثناؤه - : قال إبليس لربه : ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يقول : فيما أضللتني . . . وكان بعضهم يتأول قوله : ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ بما أهلكتني من قولهم : غوى الفصيل يغوى غوىً ، وذلك إذا فقد اللبن فمات ، من قول الشاعر :

معطفة الأثناء ليس فصيلها برازئها برا ولا ميت غوى

وأصل الإغواء في كلام العرب : تزيين الرجل للرجل الشيء حتى يحسنه عنده غاراً له ، وقد حكى عن بعض قبائل طيء أنها تقول : أصبح فلان غاوياً ؛ أي : أصبح مريضاً ، وكان بعضهم يتأول ذلك أنه بمعنى القسم ، كأن معناه عنده : فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، كما يقال : بالله لأفعلن كذا ، وكان بعضهم يتأول ذلك بمعنى المجازاة ، كأن معناه عنده : فلأنك أغويتني ، أو فبأنك أغويتني ، لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، وفي هذا بيان واضح على فساد ما يقول القدرية ، من أن كل من كفر أو آمن فبتفويض الله أسباب ذلك إليه ، وأن السبب الذي به يصل المؤمن إلى الإيمان ، هو السبب الذي به يصل الكافر إلى الكفر ، وذلك أن ذلك لو كان كما قالوا ، لكان الخبيث قد قال بقوله : فيما أغويتني : فيما أصلحتني ؛ إذ كان سبب الإغواء هو سبب الإصلاح ، وكان في إخباره عن الإغواء إخبار عن الإصلاح ، ولكن لما كان سببهما مختلفين ، وكان السبب الذي به غوى وهلك من عند الله ، أضاف ذلك إليه فقال : ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾»^(١) .

وذهب الزمخشري إلى أن المعنى : فبسبب وقوعي في الغي ، لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي ، كما فسدت بسببهم^(٢) .

قال أحمد بن المنير : «تحت كلام الزمخشري هذا ، نزغتان من الاعتزال

(١) جامع البيان (٨/ ١٣٣-١٣٤) .

(٢) الكشاف (٢/ ٦٩) .

خفيتان : إحداهما : تحريفه الإغواء إلى التكليف ؛ لأنه يعتقد أن الله تعالى لم يغوه ؛ أي : لم يخلق له الغي ، بناءً على قاعدة التحسين والتقبيح ، والصلاح والأصلح ، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود ؛ لأنه كان سبباً في غيه ، وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى ، إذا أسندها إلى ذاته حقيقة ، إلى التسبب ، ويجعل ذلك من مجاز السببية ؛ لأن الفعل له ملابسات بالفاعل والمفعول ، والزمان والمكان والسبب ، فإسناده إلى الفاعل حقيقة ، وإسناده إلى بقيتها مجاز ، ويجعل الفعل مسنداً إلى الله تعالى ؛ لأنه مسببه لا أنه فاعله ، وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيداً محبوساً في مال عليه : هذه وضعت القيود في رجلك ، وأشار إلى سلة فيها أخبصة ، وألوان مختلفة رآها عند المسجون ؛ أي : اعتناؤك بهذه الأطعمة ، كان سبباً في تبذير المال ، الذي آل بك إلى وضع القيود في رجلك ، فعلى هذا يروم حمل هذه الآية ؛ يعني : بما كلفتني من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي النفسي ، ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ ، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة ، وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى فمجاز ، هذه إحدى النزعتين ، والأخرى : جعله التكليف من جملة الأفعال ؛ لأنه يزعم أن كلام الله تعالى محدث ، من جملة أفعاله ، لا صفة من صفاته ، والتكليف من الكلام ، فهاتان زلتان ، جمع القدرية بينهما ، وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما ؛ لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى ؛ إذ هو خالق كل شيء ، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك ، ما لم يسبق به إبليس ، نعوذ بالله من التعرض لسخطه^(١) .

وقال القرطبي : «مذهب أهل السنة أي أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر ، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى ، وهو الحقيقة ، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له ، صادر عن إرادته تعالى ، وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاعوه في كل ما زينه لهم ولم يطاعوه في هذه المسألة ، ويقولون : أخطأ إبليس ، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه تعالى الله عن ذلك ، فيقال لهم : وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم ، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٢/٦٩-٧٠) (حاشية الكشاف).

يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١)، وقد روي أن طاووسًا جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهمًا بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه فقال له طاووس: تقوم أو تقام؟ ف قيل لطاووس: تقول هذا لرجل فقيه. فقال: إبليس أفاقه منه: يقول إبليس: رب بما أغويتني، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي^(٢).

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنه يقول: لأجلسن لبني آدم صراطك المستقيم؛ يعني: طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه، وإنما معنى الكلام: لأصدن بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأغوينهم كما أغويتني ولأضلنهم كما أضللتني، وذلك كما روي عن سبرة بن الفاكه^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة عداوة إبليس

* عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، قال: فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماؤك؟ وإنما مثل المهاجر كمثّل الفرس في الطول، قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتتكح المرأة ويقسم المال، قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة^(٤).

* غريب الحديث:

بأطرقه: جمع طريق على التأنيث؛ لأن الطريق تذكر وتؤنث، فجمعه على

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٧٥).

(١) هود: الآية (٣٤).

(٣) جامع البيان (٨/ ١٣٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٣) واللفظ له، والنسائي (٦/ ٣٢٩-٣٣٠/ ٣١٥٤)، وصححه ابن حبان (١٠/ ٤٥٣-٤٥٤)، وحسن الحافظ إسناده النسائي في الإصابة (٤/ ١٢٠).

التذكير أطرقة، كـرغيف وأرغفة، وعلى التأنيث: أطرق، كيمين وأيمن.
 الطَّوْل: الطَّوْل والطَّيْل بالكسر الحبل الطويل، يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره،
 والطرف الآخر في يد الفرس، ليدور فيه ويرعى ولا يذهب.
 قال السندي: «وهذا من كلام الشيطان، ومقصوده أن المهاجر يصير كالمقيد
 في بلاد الغرب، لا يدور إلا في بيته، ولا يخالطه إلا بعض معارفه، فهو كالفرس في
 طول لا يدور ولا يرعى إلا بقدره، بخلاف أهل البلاد في بلادهم، فإنهم مبسوطون
 لا ضيق عليهم، فأحدهم كالفرس المرسل»^(١).
 وقصته دابته: الوقص: كسر العنق.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: «أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما
 بهم بالخير ويدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن
 شيطاناً تفلت عليّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي»^(٢) الحديث. وكلما كان
 الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر. فالشيطان بالرصد
 للإنسان على طريق كل خير»^(٣).

وقال الألوسي: «ولعل الاختصار منه ﷺ على هذه المذكورات للاعتناء بشأنها،
 والتنبيه على عظم قدرها لما أن المقام قد اقتضى ذلك لا الحصر»^(٤).

✽ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قال:
 وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. قال الرب:
 وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٥).

(١) حاشية سنن النسائي (٦/٣٢٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٢٩٨)، والبخاري (١/٧٢٩/٤٦١)، ومسلم (١/٣٨٤/٥٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٤٣/١١٤٤٠).

(٣) قاله ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/١٥٠-١٥١).

(٤) روح المعاني (٨/٩٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/٢٩-٤١-٧٦) واللفظ له، وأبو يعلى (٢/٤٥٨/١٢٧٣)، و(٢/٥٣٠/١٣٩٩)، والبغوي
 في شرح السنة (٥/٧٦/١٢٩٣)، وصححه الحاكم (٤/٢٦١)، ووافقه الذهبي.

★ فوائد الحديث:

في الحديث بيان قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تاويل ذلك، فقال بعضهم: معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قبل الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قبل الدنيا، ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ من قبل الحق، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل الباطل... وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قبل دنياهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قبل آخرتهم... وقال آخرون: معنى ذلك من حيث يبصرون ومن حيث لا يبصرون... وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: معناه: ثم لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق وأحسن لهم الباطل، وذلك أن ذلك عقيب قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم الله أن يسلكوه، وهو ما وصفنا من دين الله الحق، فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، من الوجه الذي أمرهم الله به، فيصدهم عنه، وذلك من بين أيديهم وعن أيمانهم، ومن الوجه الذي نهاهم الله عنه، فيزينه لهم ويدعوهم إليه، وذلك من خلفهم وعن شمائلهم، وقيل: ولم يقل: من فوقهم؛ لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم»^(١).

وقال ابن القيم: «السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأى سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان رصداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يشبطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له خادماً ومعيناً وممناً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لآتاه من هناك»^(٢).

(٢) إغاثة اللهفان (١/١٦٦).

(١) جامع البيان (٨/١٣٥-١٣٧) بتصرف.

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ خبر أن سعايته تفعل ذلك ظناً منه وتوهمًا، في خلقه آدم، حين رأى خلقته من أشياء مختلفة، فعلم أنه ستكون لهم شيم تقتضي طاعته، كالغل والحسد والشهوات ونحو ذلك... وما ظنه إبليس صدقه الله ﷻ، ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، فجعل أكثر العالم كفرًا، ويبينه قول النبي ﷺ في الحديث: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم! أخرج بعث النار، فيقول: يارب! وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وواحد إلى الجنة»^(٢)، ونحوه مما يخص أمة محمد ﷺ: «ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الشور الأسود»^(٣)،^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعائه ﷺ بالعفو والعافية

* عن ابن عمر يقول: «لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتني - وقال عثمان: عوراتي - وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»^(٥).

★ غريب الحديث:

عوراتي: ساكنة الواو: جمع عورة، وأراد كل ما يستحي منه، ويسوء صاحبه أن يرى ذلك منه.

روعاتي: جمع روعة، وهي المرة الواحدة من الروع، وهو الفزع.

(١) سبأ: الآية (٢٠).

(٢) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٣٣/٣)، والبخاري (٤٧١/٦)، ومسلم (٢٠١/١)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٩/٤٠٩/٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) جزء من الحديث المتقدم تخريجه قبله.

(٤) المحرر الوجيز (٣٨١/٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢٥/٢)، وأبو داود (٥٠٧٤/٣١٥/٥)، وابن ماجه (١٢٧٣/٢-١٢٧٤/١٢٧٤)، وصححه الحاكم (٥١٨-٥١٧/١) ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (٩٦١/٢٤١/٣).

أن اغتال من تحتي : أي : أدهى من حيث لا أشعر ، يريد به الخسف ، والاغتيال هو أن يخدع ويقتل في موضع لا يراه فيه أحد .

★ فوائد الحديث :

قال ابن كثير : «ورد في هذا الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها»^(١) .

وقال الطيبي : «قوله : «من بين يدي ومن خلفي» استوعب الجهات الست بحذاويرها ؛ لأن ما يلحق الإنسان من نكبة وفتنة ، فإنما يحيق به ، ويصل إليه من إحدى هذه الجهات ، والفرق بين استعمال «من» مع قوله : «من بين يدي ومن خلفي» وحروف المجاوزة مع «عن يميني وعن شمالي» قد مضى ، وأما تخصيص جهة السفلى بقوله : «وأعوذ بعظمتك أن اغتال» فليدمج معنى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلَّتْ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾^(٢) ، وما أحسن موقع قوله : «بعظمتك» في هذا المقام ، فليتدبر»^(٣) .

وقال الصنعاني : «وسأل الله الحفظ له من جميع الجهات ؛ لأن العبد بين أعدائه من شياطين الإنس والجن كالشاة بين الذئاب ، إذا لم يكن له حافظ من الله فما له من قوة ، وخص الاستعاذة بالعظمة عن الاغتيال من تحته ؛ لأن الاغتيال أخذ الشيء خفية ، وهو أن يخسف به الأرض ، كما صنع الله تعالى بقارون ، أو بالغرق كما صنع بفرعون ، فالكل اغتيال من تحت»^(٤) .

وقال العيني : «قوله : «اللهم احفظني من بين يدي» إلى آخره ، طلب من الله أن يحفظه من المهالك التي تعرض لابن آدم على وجه الغفلة من الجهات الست بقوله : «من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي» ولا سيما من الشيطان ، وهو المزعج لعباد الله بدعواه في قوله : ﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ الآية . وأما من جهة فوق فإن منها ينزل البلاء والصواعق والعذاب»^(٥) .

(٢) الأعراف : الآية (١٧٦) .

(٤) سبل السلام (٤/ ٤٠٥) .

(١) تفسير القرآن العظيم (بتصرف) .

(٣) شرح الطيبي (٦/ ١٨٨١-١٨٨٢) .

(٥) العلم الهيب (ص : ١٥٠-١٥١) .

قوله تعالى : ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - ، عن إحلاله بالخبيث عدو الله ما أحل به من نعمته ولعنته ، وطرده إياه عن جنته ؛ إذ عصاه وخالف أمره ، وراجعته من الجواب بما لم يكن له مراجعته به ؛ يقول : ﴿قَالَ﴾ الله له عند ذلك : ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي : من الجنة ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول : معيبًا ، والذأم : العيب ، يقال منه : ذأمه يذأمه ذأماً ، فهو مذؤوم ، ويتركون الهمز فيقولون : ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا ، والذأم والذيم أبلغ في العيب من الذم ، وقد أنشد بعضهم هذا البيت :

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي أذيمها

وأكثر الرواة على إنشاده : ألومها . وأما المدحور فهو المقصي ، يقال : دحره يدحره دحرًا ودحورًا : إذا أقصاه وأخرجه ؛ ومنه قولهم : ادحر عنك الشيطان . .

﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : وهذا قسم من الله - جل ثناؤه - ، أقسم أن من اتبع من بني آدم عدو الله إبليس وأطاعه وصدق ظنه عليه أن يملأ من جميعهم ، يعني من كفره بني آدم تباع إبليس ، ومن إبليس وذريته جهنم ، فرحم الله امرءًا كذب ظن عدو الله في نفسه ، وخيب فيها أمله وأمنيته ، ولم يكن ممن أطمع فيها عدوه ، واستغشاه ولم يستنصحه ، وإن الله - تعالى ذكره - إنما نبه بهذه الآيات عباده على قدم عداوة عدوه وعدوهم إبليس لهم ، وسالف ما سلف من حسده لأبيهم ، وبغيه عليه وعليهم ، وعرفهم مواقع نعمه عليهم قديمًا في أنفسهم ووالدهم ليذبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ، فينزعروا عن طاعة عدوه وعدوهم إلى طاعته وينيبوا إليها^(١) .

(١) جامع البيان (٨/ ١٣٨-١٣٩) .

وقال الشنقيطي: «بين في هذه الآية الكريمة أنه قال لإبليس: اخرج منها في حال كونك مذؤومًا مدحورًا، والمذؤوم: المعيب أو الممقوت، والمدحور: المبعد عن الرحمة، المطرود، وأنه أوعده بملء جهنم منه. وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٤) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، وقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ (٨٥) ﴿وَأَسْتَفِيزُ مَنْ أَسْطَفَتْ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَلْجَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢)، وقوله: ﴿فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْفَاوَنَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من الآيات»^(٤).

خاتمة الآيات

قال محمد رشيد رضا: «وقد استشكل بعض المفسرين - ولا سيما المتكلمين منهم - خطاب الرب سبحانه للشيطان في هذا التحاور الطويل، واختلفوا فيه: هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسل البشر، أم بغير واسطة؟ وكيف وهو يقتضي التكريم؟ وتحكموا في الجواب حتى قال بعضهم: إن الشيطان كان يطلع على اللوح المحفوظ فيعلم مراد الله في جواب أسئلته، واستشكلوا أمر الله تعالى إياه بإغواء البشر وإضلالهم المبين في سورة (الإسراء) بقوله سبحانه: ﴿وَأَسْتَفِيزُ مَنْ أَسْطَفَتْ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَلْجَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾^(٥) الآية، مع قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٦)، وإنما يشكل هذا كله على ما جروا عليه من جعل الخطاب للتكليف. وأما إذا جعل الخطاب للتكوين - كما صرح به ابن كثير - فلا إشكال؛ لأنه عبارة عن بيان الواقع من صفة طبيعة البشر وطبيعة الشيطان، واستعدادهما وأعمالهما الاختيارية. وللأشعرية والمعتزلة فيها جدل طويل، فالأولون يثبتون الإغواء والإضلال لله تعالى، وينفون رعاية الرب لمصالح العباد في كل من دينهم ودنياهم، ويجعلون الإنسان مجبورًا في صورة مختار، والآخرون يخالفونهم، فندع أمثال هذه المباحث الجدلية لابني بجدتها الرازي والزمخشري، ونختم تفسير هذه

(١) ص: الآيتان (٨٤ و ٨٥).

(٣) الشعراء: الآيتان (٩٤ و ٩٥).

(٥) الإسراء: الآية (٦٤).

(٢) الإسراء: الآيتان (٦٣ و ٦٤).

(٤) أضواء البيان (٢/ ١١-١٢).

(٦) الأعراف: الآية (٢٨).

الآيات ببيان حكمة الله تعالى في خلق إبليس وذريته الشياطين ، وكشف شبهة المستشكلين له ولخلق الإنسان مستعداً لقبول إغوائه ؛ فإنها مما يحتاج إليه هنا حتى على القول بأن السياق كله لبيان حقيقة التكوين .

حكمة خلق الله الخلق واستعداد الشيطان والبشر للشر :

اعلم أن الحكمة العليا لخلق جميع المخلوقات هي أن يتجلى بها الرب الخالق لها بما هو متصف به من صفات الكمال ليعرف ويعبد ، ويشكر ويحمد ، ويحكم ويجزي فيعدل ، ويغفر ويعفو ويرحم . . إلخ ، فهي مظهر أسمائه وصفاته ، ومجلى سننه وآياته ، وترجمان حمده وشكره ، ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١) ، لذلك كانت في غاية الإحكام والنظام الدالين على العلم والحكمة والمشئنة والاختيار ، ووحدانية الذات والصفات والأفعال ، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢) ، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾^(٣) ، كما نطق القرآن ، الخير كله بيديه ، والشر ليس إليه ، كما ورد في الحديث . بل ليس في خلقه ما هو شر محض في نفسه ، وإنما الشر أمر اعتباري مداره على ما يؤلم الأحياء أو تفوت به مصلحة أو منفعة على أحد منهم ، فيكون شراً له إن لم يترتب على ذلك منفعة أعظم ، أو دفع مفسدة أكبر ؛ فإن الإنسان قد يتألم من الدواء الذي يزيل مرضه الذي هو أشد أو أطول إيلاًماً منه ، وقد تفوته منفعة صغيرة يكون فوتها سبباً لمنفعة أكبر منها ، كالذي يبذل ماله في المصلحة العامة لملته ووطنه ، فيكرم ويكون قدوة في الخير ، وحظه من كرامة الأمة وعمران الوطن أعظم مما بذل من المال ، وفوق ذلك من يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، وهي سبيل الحق والخير وسعادة الدارين ابتغاء مرضاته والزلفى عنده .

وقد كان مقتضى تحقق معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلى أن يخلق ما علمنا وما لم نعلم من أنواع المخلوقات ، وأن تكون المقابلات والنسب بين بعضها مختلفة من توافق وتباين وتضاد ، ويترتب على ذلك في نظام الخلق ، أن الضد يظهر حسنه الضد ، وأن تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ، وأن يسيء بعضهم إلى نفسه أو إلى غيره ، وأن يكون بعضهم مفطوراً على طاعة ربه ، دائباً على عبادته وحمده

(١) الإسراء : الآية (٤٤) .

(٢) النمل : الآية (٨٨) .

(٣) السجدة : الآية (٧) .

وشكره، وأن يكون بعضهم مختاراً في عمله، مستعداً للأضداد في ميله وطبعه، يتنازعه عاملاً الكفر والشكر، وتشتبه عليه حقيقتا التوحيد والشرك، وتتجاذبه داعيتا الفجور والبر، فيكون لشكره وبره وطاعته لربه من عظم الشأن مع معارضة الموانع ما ليس للمفطور على ذلك، وقد يعصي فيفيده العصيان خوفاً ورهبة، ويحمله على التوبة، فيكون له أوفر حظ من اسمي (العفو الغفور)، وقد يستكبر عن الطاعة والإيمان، ويصر على الفسوق والعصيان، فيكون موضعاً لعقاب (الحكم العدل)، وآية فيه على تنزهه تعالى عن الجور والظلم.

ولا نعرف نوعاً من أنواع الخلق مفطوراً على الباطل والشر، مجبوراً على الفسق والكفر، فهو غير موجود على أنه لو وجد لما صح أن يعترض به العبد المربوب على الرب المعبود، وهذه الآيات المبينة لمعصية إبليس - وهو شر أفراد هذا النوع المسمى بالجن - تدل على أنه كان مختاراً في عصيانه بانياً إياه على شبهة احتج بها عليه، وكذلك خلق الله نوعه فكانوا كالbشر منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما يعلم من السورة التي سميت باسمهم (الجن)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١)، الفسق: الخروج من الشيء، فهو يدل على أنه كان قبل ذلك يطيعه ويعبده كما يدل عليه وجوده مع الملائكة، وعقوبته بإخراجه منهم بعد المعصية. وقد عصى آدم ربه بعد عصيان إبليس، وكان الفرق بينهما أن آدم تاب إلى ربه فتاب عليه وهداه واجتباها، وجعله موضع مغفرته ورحمته، وأن إبليس أصر على عصيانه واحتج على ربه فلعنه وأخزاه، وجعله موضع عدله في عقابه، وقص قصصهما على المكلفين من ذريتهما بما أظهر حقيقة النوعين، ومآل العملين؛ عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين، وابتلاء (اختباراً) للعالمين، يميز الله به المحسنين والمسيئين، ويزيل بين الطيبين والخبيثين؛ إذ كان من سننه فيهما أن الحياة جهاد، يظهر به ما أودع من النفوس من الاستعداد، وأن من حكم تفاوت البشر فيه أن يكون منهم العالم والجاهل، والحكيم والحاكم، والمسوس والسائس، والقائد والجندي، والمخدوم والخادم، والزارع والصانع، والتاجر والعامل، فلولوا العمال - مثلاً - لما اتسعت

(١) الكهف: الآية (٥٠).

مسائل العلوم بالأعمال، ولما أمكن الانتفاع بما كشف العلماء من أسرار الطبيعة وخواص المخلوقات، ولولا ذلك لما عرفت نعم الخالق وسننه ودقائق علمه وحكمته في الأشياء، وغير ذلك من معاني الصفات ومظاهر الأسماء، وموجبات الحمد والشكر والثناء.

وجملة القول: أن كل ما خلقه الله تعالى فهو حسن في نفسه، متقن في صنعه، مظهر لنوع أو أنواع من حكمه في خلقه، ومن كماله في ذاته وصفاته، ولا شيء منه بباطل ولا بشر محض، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(١)، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(٢).

وإذا كان من حكمته تعالى فيما ذكر من معصيتي أبوي الإنس والجن ظهور استعدادهما وإظهار حكمه تعالى في الجزاء على الذنوب في حالي التوبة منها والإصرار عليها، والعبرة والموعظة، وحسن الأسوة، وسوء القدوة، والابتلاء والجهاد وغيره مما بيّنا - وإذ كانت معصية الأول بسبب وسوسة الآخر - فلا خفاء في استمرار ذلك في ذريتهما؛ لأنه من مقتضى فطرة نوعيهما، التي هي مظهر أسماء الله وصفاته فيهما، فجنس الجن أو الجنة الغيبي الروحاني نوعان أو صنفان: صنف ملكي يلبس بعضه أرواح البشر الميالة إلى الحق والخير، فتقوى داعيتهما فيها، وصنف شيطاني يلبس أرواح البشر الميالة إلى الباطل والشر فتقوى داعيتهما فيها^(٣).

* * *

(١) الحجر: الآية (٨٥).

(٢) ص: الآية (٢٧).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٣٣٩-٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَبَقَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول الله - تعالى ذكره - : وقال الله لآدم: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما، فأسكن - جل ثناؤه - آدم وزوجته الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه منها، وأباح لهما أن يأكلا من ثمارها، من أي مكان شاءا منها، ونهاهما أن يقربا ثمر شجرة بعينها.

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في ذلك، وما نرى من القول فيه صواباً، في غير هذا الموضع، فكرهنا إعادته.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: فتكونا ممن خالف أمر ربه، وفعل ما ليس له فعله»^(١).

قال ابن عاشور: «وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة؛ لأن إعطاء النعم لمرضي عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقب، وإظهار للتفاوت بين مستحق الإنعام ومستحق العقوبة، فلا يفيد الكلام من المعاني ما أفاده العطف على المقول المحكي، ولأنه لو أريد ذلك لأعيد فعل القول. ثم إن كان آدم خلق في الجنة، فكان مستقراً بها من قبل، فالأمر في قوله: ﴿أَسْكُنْ﴾ إنما هو أمر تقرير: أي: ابق في الجنة، وإن كان آدم قد خلق خارج الجنة فالأمر للإذن تكريماً له، وأياً ما كان ففي هذا الأمر، بمسمع من إبليس، مقمعة لإبليس؛ لأنه إن كان إبليس مستقراً في الجنة من قبل، فالقمع ظاهر؛ إذ أطرده الله، وأسكن الذي تكبر هو عن السجود إليه في المكان المشرف الذي كان له قبل تكبره. وإن لم يكن إبليس ساكناً في الجنة قبل، فإكرام الذي احتقره وترفع

عليه قمع له . فقد دل موقع هذا الكلام في هذه السورة على معنى عظيم من قمع إبليس ، زائد على ما في آية سورة (البقرة) ، وإن كانتا متماثلتين في اللفظ ، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع ، وهذا من بدائع إعجاز القرآن .

ووجد إيثار هذه الآية بهذه الخصوصية أن هذا الكلام مسوق إلى المشركين الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله ، فأما ما في سورة (البقرة) فإنه لموعظة بني إسرائيل ، وهم ممن يحذر الشيطان ولا يتبع خطواته .

والنداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملاء . والإتيان بالضمير المنفصل بعد الأمر ، لقصد زيادة التنكيل بإبليس ؛ لأن ذكر ضميره في مقام العطف يذكر غيره بأنه ليس مثله ؛ إذ الضمير وإن كان من قبيل اللقب وليس له مفهوم مخالفة فإنه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضمير بالقرينة على طريقة التعريض ، ولا يمنع من هذا الاعتبار في الضمير كون إظهاره لأجل تحسين أو تصحيح العطف على الضمير المرفوع المستتر ؛ لأن تصحيح أو تحسين العطف يحصل بكل فاصل بين الفعل الرافع للمستتر وبين المعطوف ، لا خصوص الضمير ، كأن يقال : ويا آدم اسكن الجنة وزوجك ، فما اختير الفصل بالضمير المنفصل إلا لما يفيد من التعريض بغيره^(١) .

وقال مبيّنًا الفرق بين هذه الآية ونظيرتها التي في (البقرة) : «الذي وقع في سورة (البقرة) : ﴿وَكَلَّا﴾^(٢) بالواو ، وهنا بالفاء ، والعطف بالواو أعم ، فالآية هنا أفادت أن الله تعالى أذن لآدم بأن يتمتع بشمار الجنة عقب أمره بسكنى الجنة . وتلك منة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام ، ولما كان ذلك حاصلاً في تلك الحاضرة ، وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس ، الذي تكبر وفضل نفسه عليه ، كان الحال مقتضياً إعلام السامعين به في المقام الذي حُكي فيه الغضب على إبليس وطرده ، وأما آية (البقرة) فإنما أفادت السامعين أن الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنة والتمتع بشمارها ؛ لأن المقام هنالك لتذكير بني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته ، والتحذير من كيد الشيطان ذلك الكيد الذي هم واقعون في شيء منه عظيم .

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني / ٥٣-٥٤) .

(٢) البقرة : الآية (٣٥) .

على أن آية (البقرة) لم تخل عن ذكر ما فيه تكرمة له وهو قوله: ﴿رَغَدًا﴾؛ لأنه مدح للممتن به أو دعاء لآدم. فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم، وقد وزعت على عادة القرآن في توزيع أغراض القصص على مواقعها؛ ليحصل تجديد الفائدة؛ تنشيطاً للسامع، وتفتناً في أساليب الحكاية؛ لأن الغرض الأهم من القصص في القرآن إنما هو العبرة والموعظة والتأسي.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أشد في التحذير من أن يُنهي عن الأكل منها؛ لأن النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها، وقد تقدم نظيره في سورة (البقرة) (١).

قال أبو منصور الماتوريدي: «ثم فيه - أي: في إسكانهما الجنة وتأمينهما من الخوف مما ينقص النعم ويذهب بلذتها - أن أول المحنة والابتلاء من الله تعالى لعباده إنما يكون بالإنعام والإفضال عليهم، ثم الجزاء والعدل لسوء ما ارتكبوا؛ لأنه ﷺ امتحن آدم أولاً بالإنعام والإفضال عليه حين أسجد ملائكته له، وأسكنه جنته ووسع عليه نعمه، ثم امتحنه بالشدائد وأنواع المشقة، وجزاء ما ارتكبا من تناول من الشجرة التي نهاهما عن قربها فهو ما ذكرنا أن شرط امتحانه عباده في الابتلاء يكون بالإفضال والإنعام، ثم بالعدل والجزاء لسوء صنيعهم. ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (٢)، أخبر أن ما يصيبنا هو من كسب أيدينا، وهو جزاء ما كسبنا، وفيه وفي غيرها من القصص الذي ذكر دليل إثبات رسالة محمد ﷺ ونبوته؛ لأنه لما أخبر عما كان من غير أن يختلف إلى أحد ممن يعرف ذلك، ولا نظر في الكتب التي فيها، دل أنه عرف ذلك بالله تعالى» (٣).

وقال محمد رشيد رضا: «الآية ترشد إلى أن المرأة تابعة للرجل في السكنى والمعيشة باقتضاء الفطرة، وهو الحق الذي يعد ما خالفه شذوذاً» (٤).

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٥٤).

(٢) الشورى: الآية (٣٠).

(٣) تأويلات السنة (٢/ ٢١٤-٢١٥).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٣٤٦).

قوله تعالى : ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿

★ غريب الآية:

فوسوس : قال الليث : الوسوسة : حديث النفس والصوت الخفي من ريح تهز قصباً ونحوه كالهمس . والوسواس : اسم الشيطان . قال أبو عبيدة : الوسوسة في التنزيل : هي ما يلقيه الشيطان في القلب .

ليبدي : الإبداء : الإظهار ، خلافة : الإخفاء .

ما ووري : أي : ستر ، والموارة : ستر الشيء ، يقال : وارىت كذا : إذا سترته ، وتواري : استتر .

سوءاتهما : السوءة : الفرج ؛ لأنه يسوء صاحبه إظهاره ، والسوءة : العورة ؛ لأنها تسوء من ينظرها ، أو تسيء من يظهر منه لا ستكره ذلك طبعاً .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يعني - جل ثناؤه - بقوله : ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا﴾ : فوسوس إليهما ، وتلك الوسوسة كانت قوله لهما : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ وإقسامه لهما على ذلك .

وقيل : وسوس لهما والمعنى ما ذكرت كما قيل : عرضت إليه بمعنى : استبنت إليه ، وإنما يعني : عرضت من هؤلاء إليه ، فكذلك معنى ذلك ، فوسوس من نفسه إليهما الشيطان بالكذب من القيل ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ، كما قال رؤبة :

وسوس يدعو مخلصاً ربّ الفلق

ومعنى الكلام : فجذب إبليس إلى آدم حواء وألقى إليهما : ما نهاكما ربكما عن

أكل ثمر هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين؛ ليبيدي لهما ما واراها الله عنهما من عوراتهما، فغطاه بستره الذي ستره عليهما»^(١).

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾: «يقول -جل ثناؤه-: وقال الشيطان لآدم وزوجته حواء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها إلا لئلا تكونا ملكين... ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ في الجنة الماكثين فيها أبدا فلا تموتا»^(٢).

قال ابن القيم: «ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه، ويخالطه، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مسدود.

فشام عدو الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناسا وركونا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

وكان عبد الله بن عباس يقرأها (مَلَكَيْنِ) بكسر اللام، ويقول: «لم يطمع أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين، فأتاهما من جهة الملك»، ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَتْلَاهُمَ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٣).

وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم ﷺ أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وكان آدم ﷺ أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولا سيما مما نهاه

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٠).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٤٠).

(٣) طه: الآية (١٢٠).

اللَّهُ ﷻ عنه؟

فالجواب : أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً ، وإنما كذبهما عدو الله وغرهما ، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد ، فهذا أول المكر والكيد ، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح ، وسموا أخاها بلقيمة الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية ، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان ، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب تنزيهاً ، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة ؛ فلما سماها شجرة الخلد قال : ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون ، ولم يكن آدم ﷺ قد علم أنه يموت بعد ، واشتهى الخلود في الجنة ، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما ، فاجتمعت الشبهة والشهوة ، وساعد القدر لما قد فرغ الله سبحانه من تقديره فأخذتهما سنة الغفلة ، واستيقظ لهما العدو ، كما قيل :

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم لينفذ القدر المحتوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله : ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ .

فيقال : الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده ، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله والاعتذار عنه ، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك راجع عليه وولج سمعه ، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلتا منها صاروا ملكين ، وإنما ردد الأمر بين أمرين : أحدهما ممتنع ، والآخر ممكن ، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر ، ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يردده . فقال : ﴿يَتَّعَدُمُ هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(١) ، فلم يدخل أداة الشك وهنا كما أدخلها في قوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ، فتأمله^(٢) .

وقال القاسمي : «قال الحاكم : وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة ،

(١) طه : الآية (١٢٠) .

(٢) إغاثة اللفهان (١/١٧٩-١٨١) .

وأنه كان في شريعة آدم عليه السلام. قال القاضي: لا دليل في الآية على الوجوب؛ لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك. قال الأصم: في الآية دليل على أنهما كرها التعري، وإن لم يكن لهما ثالث، ففي ذلك دليل على قبح التعري، وإن لم يكن مع المتعري أحد، إلا لحاجة^(١).

وقال في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ قال: «وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء؛ لارتكابهما ذلك طمعاً في نيل ما ذكر. وأجاب من لم ير هذا باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم. ولئن كانت بعدها، فلعل آدم رغب في الملكية للقوة والشدة والقدرة، أو لخلق الذات، بأن يصير جوهراً نورانياً - أشار له الرازي -».

وقال الناصر: لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل، أن يكون الأمر كذلك في علمه تعالى. ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً، وليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا تصديقه فيه، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرهما؛ إذ قال الله تعالى: ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾^(٢) فلعل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره، انتهى.

وقال السيوطي في «الإكليل»: وأنا أقول: لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية، والكلام الذي فيها، حكاه الله تعالى عن قول إبليس في معرض المناذاة عليه بالكذب والغرور والزور والتدليس. وإنما يستدل من كلامه تعالى، أو من كلام حكاه عن بعض أنبيائه. وإن لم يكن ذلك، فكلام حكاه راضياً به مقرراً له، انتهى^(٣).

وقال الشوكاني: «وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافاً كثيراً، وأطالوا الكلام في غير طائل، وليس هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه، فالكلام فيها لا يعيننا»^(٤).

* * *

(١) محاسن التأويل (٣٦/٧).

(٢) الأعراف: الآية (٢٢).

(٣) محاسن التأويل (٣٦/٧).

(٤) فتح القدير (٢/٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢١﴾

★ غريب الآية:

قَاسَمَهُمَا: أي: حلف لهما. والمفاعلة هنا تحتل أن تكون على بابها: حلف لهما أنه لهما من الناصحين وحلفا له أنهما لمن القابليين أمره ونصحه. ويحتمل أن يكون (فاعل) بمعنى (أفعل)، كباعده وأبعده. ذلك أن الحلف إنما كان من إبليس دونهما. قال القرطبي: وهو يردّ على من قال: إن المفاعلة لا تكون إلا من اثنين. الناصحين: النصيح: بذل الجهد في طلب الخير خاصة، وهو من قولك: نصحت له الود؛ أي: أخلصته، وناصح العسل: خالصه، أو من قولهم: نصحت الجلد: خطته، والناصح: الخياط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - جل ثناؤه - بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾: وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾^(١) بمعنى: تحالفوا بالله... وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾: أي: لمتن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي نهيتما عن أكل ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به من أنكما إن أكلتماه كنتما ملكين، أو كنتما من الخالدين»^(٢).

وقال ابن القيم: «تضمن هذا الخبر أنواعاً من التأكيد:

أحدها: تأكيده بالقسم.

الثاني: تأكيده بـ(إن).

الثالث: تقديم المعمول على العامل؛ إيداناً بالاختصاص؛ أي: نصيحتي

مختصة بكما، وفائدتها عائدة إليكما لا إلي.

(٢) جامع البيان (٨/ ١٤١).

(١) النمل: الآية (٤٩).

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد: أي: النصيح صفتي وسجيتي، ليس أمراً عارضاً لي.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

السادس: أنه صور نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم، كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به.

سمى نحوها حتى تجاوز حده وكثر فارتابت، ولو شاء قللاً

وورث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا جاؤوه: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾^(١)، فأكدوا خبرهم بالشهادة وب(إن) ولام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ﴾^(٢)،^(٣).

وقال: «ولم يكن آدم يظن أن أحداً يقسم بالله كاذباً يمين غموس، يتجرأ فيها على الله هذه الجرأة، فغره عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك، إما باعتذار، وإما بتوبة، وإما بغير ذلك، كما تجد هذا التأويل قائماً في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً لا شك فيه إذا أقدم على المعصية»^(٤).

وقال ابن عاشور: «وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردد في صدقه، وإنما شكاً في نصحه لأنهما وجدا ما يأمرهما مخالفاً لما أمرهما الله الذي يعلمان إرادته بهما الخير علماً حاصلًا بالفطرة»^(٥).

(١) المنافقون: الآية (١).

(٢) التوبة: الآية (٥٦).

(٣) إغاثة اللفهان (١/١٨١).

(٤) الصواعق المرسلة (١/٣٧٥).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّلْنَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا
مَخَصِفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

دلّاهما: أي: أطمعهما. أصله: من تدلية الدلو، وهو إرسالها في البئر.
ودلّاهما: أخرجها. وقيل: دلّهما، من الدالة، وهي الجرأة؛ أي: جرأهما على
المعصية فخرجا من الجنة.

بغرور: أي: بمكر وخديعة. والغرور: إظهار النصح وإبطان الغش. والغرر
والغُرور: مصدر أغره يغره: إذا أوهمه إعجاباً بشيء وأطمعه فيه. والغُرور: كل ما
يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان: إذ هو أخبث
الغارين، وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغر وتضر وتمر.

ذاقا: الذوق: وجود الطعم بالفم، ويعبر به عن الأكل، وقيل: الذوق: مس
الشيء باللسان أو بالفم؛ يقال فيه: ذاق يذوق ذوقاً: مثل: صام يصوم صوماً، ونام
ينام نوماً.

طفقا: جعلاً وابتدأ. وطفق: من أفعال الشروع، كأخذ وجعل، فهذه تدل على
التلبس بأول الفعل.

يخصفان: الخصف: أصله الضم والجمع. ومنه خَصِفُ النُّعْل: إذا ضممت
بعض جلدها على بعض، فاستعير لفعلهما ذلك بورق الجنة على بدنهما لما زال
عنهما لباسهما.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - جل ثناؤه - بقوله: ﴿فَدَلَّلْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فخدعهما بغرور،

(١) الأعراف: الآية (٢٢).

يقال منه: ما زال فلان يدلي فلانًا بغرور، بمعنى: ما زال يخدعه بغرور، ويكلمه بزخرف من القول باطل، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ يقول: فلما ذاق آدم وحواء ثمر الشجرة، يقول: طعامه، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ يقول: انكشفت لهما سواتهما؛ لأن الله أعراهما من الكسوة التي كان كساهما قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطأ، أو المعصية التي ركبا، ﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يقول: أقبلا وجعلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليواريا سواتهما^(١).

وقال القرطبي: «وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأن الله أوجب عليهما الستر، ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة، كما قيل لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه التستر بها، كما فعل آدم في الجنة، والله أعلم^(٢).

وقال القاسمي: «قال السيوطي في «الإكليل»^(٣): استدل به -أي: قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾- بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى، انتهى. وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا؛ فإن الذوق وجود الطعم بالفم، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير، وهو المراد هنا؛ لأنه وقع في آية أخرى مصرحًا بالأكل فيها^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم»^(٥).

★ غريب الحديث:

غرّ: أي: ليس بذئ نكر، فهو ينخدع لانقياده ولينه. وهو ضد الخبّ.

(١) جامع البيان (٨/١٤٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/١٨١).

(٣) (ص: ١٢٦).

(٤) محاسن التأويل (٧/٣٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/٣٩٤)، وأبو داود (٥/١٤٤/٤٧٩٠)، والترمذي (٤/٣٠٣/١٩٦٤)، والحاكم (١/٤٣-٤٤).

(٤٤). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/٦٠٧/٩٣٥).

خَبٌّ: الخَبُّ: بالفتح: الخداع، وهو الذي يسعى بين الناس بالفساد، رجل خَبٌّ وامرأة خَبَّة. وقد تكسر خاؤه.

★ فوائد الحديث:

قال الطحاوي: «تأملنا هذا الحديث لنقف على المراد به ما هو إن شاء الله، فوجدنا الغرّ في كلام العرب: هو الذي لا غائلة معه، ولا باطن له يخالف ظاهره، ومن كانت هذه سبيله، أمِن المسلمون من لسانه ويده، وهي صفة المؤمنين، ووجدنا الفاجر ظاهره خلاف باطنه؛ لأن باطنه هو ما يُكره، وظاهره مخالف لذلك، كالمنافق الذي يُظهر شيئاً غير مكروه منه وهو الإسلام الذي يحمده أهله عليه، ويبطن خلافه وهو الكفر الذي يذمه المسلمون عليه، فكان مثل ذلك الخَبِّ الذي يُظهر المعنى الذي هو محمود منه، حتى يحمده المسلمون على ذلك، ويبطن ضده مما يذمه المسلمون عليه، وهو الفاجر الذي وصفه رسول الله ﷺ بما وصفه به في هذا الحديث، وخالف بينه وبين المؤمن الذي وصفه بما وصفه به في هذا الحديث، والله ﷻ نسأله التوفيق»^(١).

وقال فضل الله الجيلاني: «فالمؤمن يبعد عن الشر، فتقل فطنته له، فلا يتحرز في مواقع التحرز فينخدع، وليس ذلك من جهله، بل من كرمه وحسن خلقه وحسن الظن بالناس، لا يريد أن يطلع على دخائل الصدور وبواطن الأمور، وهذا يكون في أمور الدنيا وما يتعلق بحقوق نفسه، ويعد الأمر في ذلك سهلاً ولا يبالي ولا يهتم به، وأما في أمر الآخرة فهو ذو همة رفيعة وتيقظ تام، يشتغل بإصلاح دينه والتزود لمعاده من غير غفلة وكسل وتوان، والمنافق مفتش فتّان يسعى بين الناس بالفساد والمخادعة، لا يسامح خليله في زلاته فضلاً عن عدوه في وقعاته، فلا ينخدع ولا يرضى به عن نفسه»^(٢).

وقال المناوي: «قال بعض العلماء: كن عُمرِيّ الفعل؛ فإن الفاروق يقول: «من خدعنا في الله انخدعنا له»، فإذا رأيت من يخدعك، وعلمت أنه مخادع، فمن مكارم

(١) شرح مشكل الآثار (٨/ ١٥٢).

(٢) فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد (١/ ٥٠٧).

الأخلاق أن تنخدع له، ولا تفهمه أنك عرفت خداعه؛ فإنك إذا فعلت ذلك، فقد وفيت الأمر حقه؛ لأنك إنما عاملت الصفة التي ظهر لك فيها، والإنسان إنما يعامل الناس لصفاتهم، لا لأعيانهم، ألا تراه لو كان صادقًا مخادعًا فعامله بما ظهر منه وهو يسعد بصدقه ويشقى بخداعه، فلا تفضحه بخداعه، وتجاهل وتصنع له باللون الذي أراه منك، وادع له وارحمه عسى الله أن يرحمه بك، فإذا فعلت ذلك كنت مؤمنًا حقًا؛ فالمؤمن غرّ كريم؛ لأن خلق الإيمان يعطى المعاملة بالظاهر، والمنافق خبّ لئيم؛ أي: على نفسه؛ حيث لم يسلك بها طريق نجاتها وسعادتها»^(١).

✽ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلاً والله الذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله، وكذبت عيني»^(٢).

✽ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جواز أن يكون قد أخذ من ماله، فظنه المسيح سرقة؛ وهذا تكلف، وإنما كان الله سبحانه في قلب المسيح أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمة وتهمة بصره، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين بالله، كما ظن آدم صدق إبليس لما حلف له بالله، وقال: ما ظننت أحدًا يحلف بالله كاذبًا»^(٣).

✽ ✽ ✽

(١) فيض القدير (٦/٢٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٣١٤)، والبخاري (٦/٥٩١/٣٤٤٤)، ومسلم (٤/١٨٣٨/٢٣٦٨)، والنسائي (٨/٢٤٩)، وابن ماجه (١/٦٧٩/٢١٠٢).

(٣) إغاثة اللهفان (١/١٨٣).

قوله تعالى : ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : ونادى آدم وحواء ربهما : ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها ، وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين ، يقول : قد أبان عداوته لكما بترك السجود لآدم حسداً وبغياً»^(١).

وقال ابن عطية : «﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة (طه) في قوله : ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾»^(٢). قال القاضي أبو محمد : وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه»^(٣).

وقال ابن عاشور : «قد تأخر نداء الرب إياهما إلى أن بدت لهما سوءاتهما ، وتحيلاً لستر عوراتهما ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما ، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفسد عصيانهما ، فيعلما أن الخير في طاعة الله ، وأن في عصيانه ضرراً»^(٤).

وقال : «وظاهر إسناد النداء إلى الله أن الله ناداهما بكلام بدون واسطة ملك مرسل ، مثل الكلام الذي كلم الله به موسى ، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض ، فلا ينافي ما ورد من أن موسى هو أول نبي كلمه الله تعالى بلا واسطة ، ويجوز أن يكون نداء آدم بواسطة أحد الملائكة»^(٥).

وقال : «وعطف جملة : ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا﴾ على جملة : ﴿أَنْهَكُمَا﴾ للمبالغة في التوبيخ ؛ لأن النهي كان مشفوعاً بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة ، فهما قد أضاعا وصيتين . والمقصود من حكاية هذا القول هنا

(٢) طه : الآية (١١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني / ٦٥).

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٣).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨٧).

(٥) المصدر السابق (٨/ القسم الثاني / ٦٦).

تذكير الأمة بعداوة الشيطان لأصل نوع البشر، فيعلموا أنها عداوة بين النوعين، فيحذروا من كل ما هو منسوب إلى الشيطان ومعدود من وسوسته، فإنه لما جُبل على الخبث والخزي، كان يدعو إلى ذلك بطبعه، وكان لا يهنا له بال ما دام عدوه ومحسوده في حالة حسنة^(١).

وقال الألوسي: «استدل بعضهم بالآية على أن مطلق النهي للتحريم؛ لما فيها من اللوم الشديد مع الندم والاستغفار المفهوم مما يأتي، والأكثر على أن النهي هنا للتنزيه، وندمهما واستغفارهما على ترك الأولى، وهو في نظرهما عظيم، وقد يلام عليه أشد اللوم إذا كان فاعله من المقربين»^(٢).

(١) المصدر السابق (٨/ القسم الثاني/ ٦٧).

(٢) روح المعاني (٨/ ١٠١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَسِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - عن آدم وحواء فيما أجاباه به، واعترافهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة، خلاف جواب اللعين إبليس إياه.

ومعنى قوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ قال آدم وحواء لربهما: يا ربنا! فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك، وخلاف أمرك، وبطاعتنا عدونا وعدوك فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ يقول: وإن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه، ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بتعطفك علينا وتركك أخذنا به، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ يعني: لنكونن من الهالكين»^(١).

وقال السمرقندي: «في الآية دليل أن الله تعالى يعذب عباده إذا أصرروا على الذنوب، ويتجاوز عنهم إذا تابوا؛ لأن إبليس لم يتب وسأل النظرة، فجعل مأواه جهنم، وتاب آدم ورجع عن ذنبه، فقبل توبته»^(٢).

ونقل ابن جرير بسنده عن الضحاك في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية، قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه^(٣).

* * *

(٢) بحر العلوم (١/٥٣٥).

(١) جامع البيان (٨/١٤٤).

(٣) جامع البيان (١٢/٣٥٧) (شاكر).

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾

★ غريب الآية:

مستقر: أي: موضع استقرار.

متاع: المتاع: الانتفاع على وجه اللذة.

حين: الحين: مطلق الوقت قصيرًا كان أو طويلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ أي: قال الله مخاطبًا لآدم وحواء بلفظ الجمع؛ لأن إبليس هبط من قبل إلى السماء، ثم هبطوا جميعًا إلى الأرض. وكرر الأمر لإبليس تبعًا لهما؛ ليعلم أنهم قرناء أبدًا؛ لأن إبليس لا يفارق الإنسان، بل يلزمه كل الملازمة، ويبذل كل جهده في إضلال بني آدم. وجملة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع نصب على الحال، من الضمير الذي هو الواو في ﴿اهْبِطُوا﴾.

وخلاصة المعنى أن الله قال لهما وللشيطان: اهبطوا جميعًا من الجنة إلى الأرض متعادين، ولكم في الأرض استقرار، وموضع استقرار، تتمتعون وتنتفعون، إلى حين انقضاء آجالكم^(١).

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور، وبزمن الحياة فسر أبو العالية وقال: هي كقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾^(٢)، وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس، واللفظ يعمهما، فهي كقوله: ﴿أَنْتَ جَعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾^(٣). وأما (المتاع) فهو بحسب شخص شخص، في

(٢) البقرة: الآية (٢٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٤/٣).

(٣) المرسلات: الآيتان (٢٥ و ٢٦).

زمن الحياة، اللهم إلا أن يقدر سكنى القبر متاعاً بوجه ما، و(المتاع) التمتع والنيل من الفوائد، و﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ هو بحسب الجملة قيام الساعة، وبحسب مفرد بلوغ الأجل والموت، والحين في كلام العرب: الوقت غير معين^(١).

وقال ابن عاشور: «طوى القرآن هنا ذكر التوبة على آدم؛ لأن المقصود من القصة في هذه السورة التذكير بعبادة الشيطان، وتحذير الناس من اتباع وسوسته، وإظهار ما يعقبه اتباعه من الخسران والفساد، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التوبة للاقتصار على أسباب الخسارة، وقد ذكرت التوبة في آية (البقرة) المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند ربه، ولكل مقام مقال...»

والمقصود تذكير بني آدم بعبادة الشيطان لهم ولأصلهم؛ ليتهموا كل وسوسة تأتيهم من قبله، وقد نشأت هذه العداوة عن حسد إبليس، ثم سرت وتشجرت فصارت عداوة تامة في سائر نواحي الوجود، فهي منبثة في التفكير والجسد، ومقتضية تمام التنافر بين النوعين^(٢).

الفوائد والعبر المستفادة من قصة آدم وإبليس

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «وفي القصة فوائد عظيمة وعبر لمن اعتبر بها:

منها: أن خلق آدم من تراب من أبين الأدلة على المعاد كما استدل عليه سبحانه في غير موضع، وعلى قدرته سبحانه وعظمته ورحمته وعقوبته، وإنعامه وكرمه وغير ذلك من صفاته.

ومنها: أنها من أدلة الرسل عامة، ومن أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة.

ومنها: الدلالة على الملائكة وعلى بعض صفاتهم.

ومنها: الدلالة على القدر خيره وشره، فقد اشتملت على أصول الإيمان الستة

في حديث جبريل^(٣).

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٦٨).

(٣) تقدم تخريجه.

ومنها ، وهي أعظمها : أنها تفيد الخوف العظيم الدائم في القلب ، وأن المؤمن لا يأمن حتى تأتيه الملائكة عند الموت تبشّره ، وذلك من قصة إبليس وما كان فيه أولاً من العبادة والطاعة ، ففي ذلك شيء من تأويل قوله ﷺ : «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع . .»^(١) إلى آخره .

ومنها : أن لا يأمن عاقبة الذنب ، ولو كان قبله طاعات كثيرة ، وهو ذنب واحد ، فكيف إذا كانت الذنوب بعدد رمل عالج ؟!

ومن هذا قول بعض السلف : نضحك ولعل الله اطلع على بعض أعمالنا ، فقال : اذهبوا ، فلا أقبل منكم عملاً - أو كلاماً هذا معناه .

وأبلغ منه قوله ﷺ : «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(٢) . قال علقمة : كم من كلام منعه حديث بلال ، يعني هذا .

ومنها : أنها تخلع من القلب داء العُجب الذي هو أشد من الكبائر .

ومنها ، وهي من أعظمها : أنها تعرف المؤمن شيئاً من كبرياء الله وعظمته وجبروته ، ولا يُدَلّ عليه ولو بلغ في الطاعة ما بلغ ، وقد وقع في هذه الورطة كثير من العباد فمستقل ومستكثر .

ومنها : التحذير من معارضة القدر بالرأي لقوله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾^(٣) ، وهذه بلية عظيمة لا يتخلص منها إلا من عصمه الله لكل مقل ومكثر .

ومنها ، وهي من أعظمها : تأدب المؤمن من معارضة أمر الله ورسوله بالرأي كما استدل بها السلف على هذا الأمر ، ولا يتخلص من هذا إلا من سبقت له من الله الحسنی .

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ : أحمد (١/٣٨٢-٤٣٠)، والبخاري (٦/٣٧٣/٣٢٠٨)، ومسلم (٤/٢٠٣٦/٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/٨٢-٨٣/٤٧٠٨)، والترمذي (٤/٣٨٨-٣٨٩/٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٦٦/١١٢٤٦)، وابن ماجه (١/٢٩/٧٦) .

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ : أحمد (٢/٢٣٦)، والبخاري (١١/٣٧٣/٦٤٧٧)، ومسلم (٤/٢٢٩٠/٢٩٨٨)، والترمذي (٤/٤٨٢-٤٨٣/٢٣١٤)، وابن ماجه (٢/١٣١٣/٣٩٧٠) .

(٣) الإسراء : الآية (٦٢) .

ومنها : عدم الاحتجاج بالقدر عند المعصية لقوله : ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾^(١) ، بل يقول كقول أبيه : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾^(٢) الآية .

ومنها : معرفة قدر المتكبر عند الله خصوصاً مع قوله : ﴿فَاهَيْطَ مِنَّا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾^(٣) .

ومنها : الفخر بالأصل ، وقد ورد عن النبي ﷺ التشديد في ذلك ، والفخر منهي عنه مطلقاً ولو كان بحق ، فكيف إذا كان باطلاً ؟

ومنها : الشهادة لما كان عليه السلف أن البدعة أكبر من الكبائر ؛ لأن معصية اللعين كانت بسبب الشبهة ، ومعصية آدم بسبب الشهوة .

ومنها : عدم الاغترار بالعلم ، فإن اللعين كان من أعلم الخلق فكان من أمره ما كان .

ومنها : عدم الاغترار بالرتبة والمنزلة ؛ فإنه كان له منزلة رفيعة ، وكذلك بلعام وغيره ممن له علم ورتبة ثم سلب ذلك .

ومنها : معرفة العداوة التي بين آدم وذريته ، وبين إبليس وذريته ، وأن هذا سببها لما طرد عدو الله ، ولعن بسبب آدم لما لم يخضع ، وهذه المعرفة مما يغرس في القلب محبة الرب جل جلاله ، ويدعوه إلى طاعته وإلى شدة مخالفة الشيطان ؛ لأنه سبحانه ما طرد إبليس ولعنه ، وجعله بهذه المنزلة الوضيعة بعد تلك المنزلة الرفيعة إلا لأنه لم يخضع بالسجود لأبينا آدم ، فليس من الإنصاف والعدل موالاته ، وعصيان المنعم جل جلاله ، كما ذكر هذه الفائدة بقوله : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٤) .

ومنها : معرفة شدة عداوة عدو الله لنا ، وحرصه على إغوائنا بكل طريق ، فيعتد المؤمن لهذه الحرب عدته ، ويعلم قوة عدوه وضعفه عن محاربته إلا بمعونة الله ، كما قال قتادة : إن عدواً يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم إنه لشديد المؤونة إلا من عصمه الله ، وقد ذكر الله عداوته في القرآن في غير موضع ، وأمرنا باتخاذهم عدواً .

ومنها : وهي من أعظمها : معرفة الطرق التي يأتينا منها عدو الله ، كما ذكر الله

(٢) الأعراف : الآية (٢٣) .

(٤) الكهف : الآية (٥٠) .

(١) الحجر : الآية (٣٩) .

(٣) الأعراف : الآية (١٣) .

تعالى عنه في القصة أنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (١)، وإنما تعرف عظمة هذه الفائدة بمعرفة شيء من معاني هذا الكلام. قال جمهور المفسرين: انتصب (صراط) بحذف (على)، التقدير: لأقعدن لهم على صراطك. قال ابن القيم: والظاهر أن الفعل مضمر؛ فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمه ولأرصدنه ونحو ذلك. قال ابن عباس: دينك الواضح. ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني الدنيا والآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني الآخرة والدنيا ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أشبه عليهم أمر دينهم، وعنه أيضاً: من قبل الحسنات، وقوله: ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ الباطل أرغبهم فيه، قال الحسن: السيئات يحثهم عليها ويزينها في أعينهم.

قال قتادة: أتاك الشيطان يا بن آدم من كل وجه إلا أنه لم يأتك من فوقك، ولم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله، وهو يوافق قول من ذكر هذه الأوجه للمبالغة في التوكيد أي: أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم، ولا يناقض ما ذكر السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل، فالسبل التي للإنسان أربعة فقط، فإنه تارة يأخذ على جهة شماله، وتارة على يمينه، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأى سبيل من هذه سلكها وجد الشيطان عليها راصداً له، فإن سلكها في طاعة ثبطه، وإن سلكها بالمعصية هداه، وأنا أمثل لك مثالا واحداً لما ذكر السلف، وهو أن العدو الذي من بني آدم إذا أراد أن يمكر بك لم يستطع أن يمكر إلا في بعض الأشياء، وهي الأشياء الغامضة، والأشياء التي ليست بعالية، فلو أراد أن يمكر بك في أمر واضح بين مثل التردي من جبل أو بئر وأنت ترى ذلك لم يستطع، خصوصاً إذا عرفت أنه قد مكر بك مرات متعددة، ولو أراد لي مكر بك لتتزوج عجوزاً شوهاء وأنت تراها لم يستطع ذلك.

وأنت ترى اللعين -أعاذنا الله منه- يأتي الآدمي في أشياء واضحة بينة أنها مما حرم الله ورسوله فيحمله عليها حتى يفعلها، ويزينها في عينه حتى يفرح بها، ويزعم أن فيها مصلحة ويذم من خالفه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ (٣)، وقوله:

(١) الأعراف: الآيتان (١٦ و ١٧).

(٢) آل عمران: الآية (١٨٨).

(٣) البقرة: الآية (٤٢).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾^(١)، وهذا معنى قول من قال :
 ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من قبل الدنيا ؛ فإنهم يعرفونها وعيوبها ومجمعون على ذمها ، ثم مع
 هذا لأجلها قطعوا أرحامهم وسفكوا دماءهم ، وفعلوا ما فعلوا ، وهذا معنى قول
 مجاهد : ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من حيث يبصرون ، فهو لم يقنع بإتيانه إياهم من الجهة
 التي يجهلون أنها معصية مثل ما فسّر به مجاهد ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال : من حيث لا
 يبصرون ، ولا من جهة الغيب كما قال فيها بعضهم : الآخرة أشككهم فيها ، لم يقنع
 بذلك عدو الله حتى أتاهم في الأمور التي يعرفونها عياناً أنها النافعة وضدها
 الضار ، وفي الأمور التي يعرفون أنها سيئات وضدها حسنات ، ومع هذا أطاعوه في
 ذلك إلا من شاء الله منهم كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
 فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) . وقال تعالى حكاية عنه : ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ
 عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٧٨﴾ وَلَاضِلْنَهُمْ وَأَلْأَمِيتَنَّهُمْ وَلَا أَمُرْنَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ ءَاذَانَ الْإِنْعَمِ
 وَلَا أَمُرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾^(٣) الآية . قال الضحاك : ﴿مَفْرُوضًا﴾ معلوماً ، وحقيقة
 الفرض التقدير ، والمعنى أن من اتبعه فهو نصيبه المفروض ، فالناس قسمان :
 نصيب الشيطان ومفروضه ، وحزب الله وأولياؤه ، قوله : ﴿وَلَاضِلْنَهُمْ﴾ يعني عن
 الحق ، ﴿وَلَا أَمِيتَنَّهُمْ﴾ قال ابن عباس : «تسوية التوبة وتأخيرها» ، وقال الزجاج :
 أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة ، وقوله :
 ﴿وَلَا أَمُرْنَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ ءَاذَانَ الْإِنْعَمِ﴾ البتة : القطع ، وهو ههنا قطع آذان البحيرة ،
 وقوله : ﴿وَلَا أَمُرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس : دين الله ، وقاله ابن
 المسيب والحسن وإبراهيم وغيرهم ، ومعنى ذلك أن الله فطر عباده على الفطرة
 وهي الإسلام كما قال تعالى : ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
 عَلَيْهَا﴾^(٤) .

وفي الصحيح : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه . . .»^(٥)
 الحديث .

(٢) سبأ : الآية (٢٠) .

(١) البقرة : الآية (١٠٢) .

(٤) الروم : الآية (٣٠) .

(٣) النساء : الآيتان (١١٨ و ١١٩) .

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أحمد (٢٣٣/٢) ، والبخاري (١٣٥٩/٢٨١/٣) ، ومسلم (٢٠٤٧/٤) .

(٢٦٥٨) ، وأبو داود (٤٧١٤/٨٨-٨٦/٥) ، والترمذي (٢١٣٨/٣٨٩/٤) .

فجمع ﷺ بين الأمرين : تغيير الفطرة بالتهويد وغيره ، وتغيير الخلقة بالجدع ، وهما اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما ، ثم قال تعالى : ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ﴾^(١) ، فوعده ما يصل إلى قلب الإنسان نحو : سيطول عمرك ، وتنال من الدنيا وتعلو ، والدنيا دول وستكون لك ، ويطول أمله ، ويعدده الحسنى على شركه ومعاصيه ، ويمنيه الأمانى الكاذبة على اختلاف وجوهها ، فالوعد في الخير ، والتمنية في الطلب والإرادة .

ومنها : أن معرفة هذه القصة تزرع في قلب المؤمن حب الله تعالى الذي هو أعظم النعم على الإطلاق ، وذلك من صنعه سبحانه بالإنسان وتشريفه ، وتفضيله إياه على الملائكة ، وفعله بإبليس ما فعل لَمَّا أبى أن يسجد له ، وخلقه إياه بيده ونفخه فيه من روحه ، وإسكانه جنته ، وقد خاطب الله سبحانه بني إسرائيل الموجودين في زمن النبي ﷺ بما فعل مع آبائهم ، وذكرهم بذلك واستدعاهم به ، وذكرهم أنه فعله بهم كقوله : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٢) وغير ذلك ، وذكر النعم التي هي أصل الشكر الذي هو الدين ؛ لأن شكرها مبني على معرفتها وذكرها ، فمعرفة النعم من الشكر ، بل هي أم الشكر ؛ كما في الحديث : «من أسدي إليه معروف فذكره فقد شكره ، فإن كنتم فقد كفره»^(٣) . هذا في الأشياء التي تصدر من بني آدم فكيف بنعم المنعم على الحقيقة والكمال ؟ واجتمع الصحابة يوماً في دار يتذكرون ما من الله عليهم به من بعثة محمد ﷺ .

ومنها : أن التأويل الفاسد في رد النصوص ليس عذراً لصاحبه ، كما أنه سبحانه لم يعذر إبليس في شبهته التي أبداها كما لم يعذر من خالف النصوص متأولاً مخطئاً ، بل كان ذلك التأويل زيادة في كفره .

ومنها : أن مثل هذا التأويل ليس على أهل الحق أن يناظروا صاحبه ، ويبيّنوا له الحق كما يفعلون مع المخطئ المتأول ؛ بل يبادر إلى عقوبته بالعقوبة التي يستحقها

(١) النساء : الآية (١٢٠) .

(٢) البقرة : الآية (٥٠) .

(٣) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ مغاير : أبو داود (٤٨١٣/١٥٨/٥) ، والترمذي (٣٣٢/٤-٣٣٣/٤) ، وصححه ابن حبان (٢٠٣/٨-٢٠٤/٨) ، وسيأتي في تفسير سورة (لقمان) .

بقدر ذنبه، وإلا أعرض عنه إن لم يقدر عليه، كما كان السلف الصالح يفعلون هذا وهذا، فإنه سبحانه لما أبدى له إبليس شبهته فعل به ما فعل، ولما عتب على الملائكة في قتلهم أبدى لهم شيئاً من حكمته وتابوا، وقد وقعت هذه الثلاث لرسول الله ﷺ في غزوته التي فتح الله فيها مكة، فإنه لما أعطى المؤلفة قلوبهم ووجدت عليه الأنصار عاتبهم واعتذروا وقبل عذرهم، وبين لهم شيئاً من الحكمة، ولما قال له ذلك الرجل العابد: اعدل، قال له كلاماً غليظاً، واستأذنه بعض الصحابة في قتله ولم ينكر عليه^(١)، لكن ترك قتله لعذر ذكره، ولما فعل خالد بن الوليد ببني جذيمة ما فعل رد عليهم ما أخذ منهم ووداهم، ولا نعلم أنه عاتب خالدًا ولا منعه ذلك من تأميره على الناس^(٢).

ومنها: أن الشبهة إذا كانت واضحة البطلان لا عذر لصاحبها، فإن الخوض معه في إبطالها تضييع للزمان وإتعب الحيوان، مع أن ذلك لا يردعه عن بدعته، وكان السلف لا يخرجون مع أهل الباطل في رد باطلهم كما عليه المتأخرون، بل يعاقبونهم إن قدروا وإلا أعرضوا عنهم.

وقال أحمد لمن أراد أن يرد عليهم: اتق الله ولا تنصب نفسك لهذا، فإن جاءك مسترشدًا فأرشده.

وهو سبحانه لما قال اللعين: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قال: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾^(٣)، ولما قالت الملائكة ما قالت: ﴿قَالَ إِنِّي أَكَلْتُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، ثم بين لهم ما بين حتى أذعنوا.

ومنها: معرفة قدر الإخلاص عند الله، وحمايته لأهله؛ لقول اللعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٥) فعرف عدو الله أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص.

ومنها: أن كشف العورة مستقر قبحه في الفطر والعقول لقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا

(١) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أحمد (٥٦/٣)، والبخاري (١٢/٣٥٩-٣٦٠/٦٩٣٣)، ومسلم (٢/٧٤٤-٧٤٥/١٠٦٤ [١٤٨])، والنسائي في الكبرى (٦/٣٥٥/١١٢٢٠).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/١٥٠-١٥١)، والبخاري (٨/٧٠/٤٣٣٩)، والنسائي (٨/٦٢٨-٥٤٢٠/٦٢٩).

(٤) البقرة: الآية (٣٠).

(٣) ص: الآية (٧٧).

(٥) الحجر: الآية (٤٠).

الشَّيْطَانُ يُبْدِي لَهَا مَا يُرَى عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ لَهَا^(١) وقد سمّاه الله فاحشة .

ومنها : أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغترّ بالفجرة ، بل يكون على حذر منهم ولو قالوا ما قالوا ، خصوصاً أولياء الشيطان الذين تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته ، فإن اللعين حلف ﴿إِنِّي لَكُمَّا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٢) .

ومنها : أن زخرف القول قد يخرج الباطل في صورة الحق كما في الحديث : «إن من البيان لسحراً»^(٣) ، فإن اللعين زخرف قوله بأنواع ، منها : تسمية الشجرة شجرة الخلد ، ومنها تأكيد قوله : ﴿إِنِّي لَكُمَّا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ، وغير ذلك مما ذكر في القصة . فينبغي للمؤمن أن يكون من زخرف القول على حذر ، ولا يقنع بظاهره حتى يعجم العود .

ومنها : أن في القصة شاهداً لما ذكر في الحديث : «إن في العلم جهلاً»^(٤) ؛ أي : من بعض العلم ما العلم به جهل ، والجهل به هو العلم ، فإن اللعين من أعلم الخلق بأنواع الحيل التي لا يعرفها آدم ، مع أن الله علمه الأسماء كلها ، فكان ذلك العلم من إبليس هو الجهل ، وفي الحديث : «إن الفاجر خبّ لثيم ، وإن المؤمن غرّ كريم»^(٥) . وأبلغ من ذلك وأعم منه قول الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^(٦) . فقل لهم ما قيل وعوتبوا ، فكانت توبتهم أن قالوا : ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾^(٧) ، فكان كمالهم ورجوعهم عن العتب وكمال علمهم أن أقروا على أنفسهم بالجهل إلا ما علمهم سبحانه .

ففي هذه القصة شاهد للقاعدة الكبرى في الشريعة المنبّه عليها في مواضع منها

(١) الأعراف : الآية (٢٠) .

(٢) الأعراف : الآية (٢١) .

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : أحمد (١٦/٢) ، والبخاري (٩/٢٥٢/٥١٤٦) ، وأبو داود (٥/٢٧٥/٥٠٠٧) ، والترمذي (٤/٣٢٩-٣٣٠/٢٠٢٨) .

(٤) أخرجه : أبو داود (٥/٢٧٨/٥٢٠٠) من حديث بريدة بن الحصيب ، وفي سنده سعيد بن محمد بن سعيد الجرمي ، قال الحافظ في «التقريب» : «صدوق رُمي بالتشيع» ، وقال العراقي : «وفي إسناده من يُجهل» ، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» .

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أحمد (٢/٣٩٤) ، وأبو داود (٥/١٤٤/٤٧٩٠) ، والترمذي (٤/٣٠٣/١٩٦٤) . والحديث حسنه الألباني في الصحيحة (٩٣٥) .

(٦) البقرة : الآية (٣٠) .

(٧) البقرة : الآية (٣٢) .

قوله ﷺ: «وسكتَ عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»^(١).

ومنها: أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بخوارق العادة إذا لم يكن مع صاحبها استقامة على أمر الله، فإن اللعين أنظره الله تعالى ولم يكن ذلك إلا إهانة له وشقاء له، وحكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير، فينبغي للمؤمن أن يميز بين الكرامات وغيرها، ويعلم أن الكرامة هي لزوم الاستقامة.

ومنها: أن الأمور التي يحرص عليها أهل الدنيا قد تكون عقوبة ومحنة، والجاهل يظنها نعمة مثل المال والجاه وطول العمر، فإن الله أعطى اللعين من النظرة ما أعطاه.

ومنها: أن يعلم المؤمن أن الذنوب كثيرة ولا نجاة له منها إلا بمعونة الله وعفوه، وأن كثيراً منها قد لا يعلمه من نفسه، فإن أكثر الكبائر القلبية مثل الرياء والكبر والحسد، وترك التوكل والإخلاص وغير ذلك قد يتلطف بها الرجل وهو لا يشعر، ولعله يتورع عن بعض الصغائر الظاهرة، وهو في غفلة عن هذه العظائم.

ومنها: أن يعرف قدر معصية الحسد، وكيف آل باللعين حسده إلى أن فعل به ما فعل.

ومنها، وهو من أحسنها: أن يعرف صحة ما ذكر عن بعض السلف أن من لم يجاهد في سبيل الله ابتلي بالجهاد في سبيل الشيطان، ومن بخل بإنفاقه المال في طاعة الله ابتلي بإنفاقه في المعاصي وفيما لا ينفعه، ومن لم يمش في طاعة الله خطوات، مشى في طاعة الشيطان أميالاً، وأشبه ذلك، والدليل من القصة أبلغ من هذا بكثير، فإن اللعين أبي أن يسجد لزعمه أن ذلك نقص في حقه، ثم صار بعد ذلك يكدر جهده في القيادة والديانة وأنواع الرذائل.

ومنها: أن في القصة معنى قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» إلى آخره^(٢).

(١) أخرجه من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: الدارقطني (٤/١٨٣-١٨٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/٢٢١-٢٢٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٢)، وصححه الحاكم (٤/١٢٩/٧١١٤)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وحسنه النووي في الأربعين، وذكر له ابن رجب في شرحه على الأربعين علتين.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

ومن ذلك : قوله حكاية عن إبليس : ﴿وَلَا تُرْثَهُمْ فَلْيَغَيِّرْتُ خَلْقَ اللَّهِ﴾^(١) فإنهم ذكروا في معناه أي : أمرهم بتغيير خلق الله ، وهي فطرته التي فطر عباده عليها ، وهي الإسلام لله وحده لا شريك له .

ومنها : أن فيها معنى القاعدة الكبرى في الشريعة المذكورة في مواضع ، منها : قول النبي ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢) ، وهي من قوله : ﴿وَلَا تُرْثَهُمْ فَلْيَغَيِّرُوا خَلْقَ اللَّهِ﴾ فإنهم ذكروا أن معناه قطع آذان البحيرة تقرباً إلى الله على عادات الجاهلية .

ومنها : أنها تفيد المعنى العظيم المذكور في قوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^(٣) ، وما في معناه من النصوص ، وذلك مستفاد من صنع اللعين ، فإنه مع علمه بجبروت الله وأليم عذابه ، وأنه لا محيص له عنه ، ويعرف من الأمور ما لا يعرفه كثير من أهل العلم ، ومع ذلك لم يتب ولم يرجع ، بل أصر وعاند ، وطلب النظرة لأجل المعصية مع علمه بعقابه وعدم مصلحته من فعله ، وهذا باب عظيم من معرفة الرب وقدرته ، وتقليبه القلوب كيف شاء ، وتيسيره كلَّ عبد لما خلق له فيفعله باختياره .

ومنها : أن الله سبحانه قد يعاقب العبد إذا غضب عليه بعقوبات باطنة في دينه وقلبه لا يعرفها الناس ، مع إمداده إياه في الدنيا كما قال تعالى : ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾^(٤) كما فعل إبليس .

ومنها : أن فيها شهادة لما ذكر عن بعض السلف أن من عقوبة السيئة سيئة بعدها .

ومنها : أنها تفيد القاعدة المعروفة أن الجزاء من جنس العمل ، وذلك أنه قصد الترفع فقليل له : ﴿فَأَخْرَجْنَاكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾^(٥) فقصد العز فأذله الله بأنواع من الذل .

(١) النساء : الآية (١١٩) .

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها : أحمد (٧٣/٦) ، والبخاري (٢٦٩٧/٣٧٧/٥) ، ومسلم (١٧١٨/١٣٤٣/٣) ، وأبو داود (٤٦٠٦/١٢/٥) ، وابن ماجه (١٤/٧/١) .

(٤) التوبة : الآية (٧٧) .

(٣) الأنفال : الآية (٢٤) .

(٥) الأعراف : الآية (١٣) .

ومنها : الشهادة لصحة الكلام المذكور عن بعض السلف في قوله : والله إن معالجة التقى التقوى أهون من معالجة غير التقى الناس ، وقول من قال : مصانعة وجه واحد أهون من مصانعة ألف وجه ، وبيان ذلك أن اللعين لما تخيل أن عليه من أمر الله شيئاً من النقص ، فلو قدم طاعة الله وآثرها على هواه وسجد لآدم ، فلو قدر أن ما تخيله صحيح وأن ذلك غضاضة عليه ، لكان في جنب ما أتاه من الشر والهوان والصغار جزءاً يسيراً ، فالله المستعان ، فكيف ولو فعل ذلك لكان فيه شرفه وسعادته ، كما هو عادة الله في خلقه أن من تواضع لله رفعه .

ومنها : أن الفاجر قد يعطيه الله سبحانه كثيراً من القوى والإدراكات في العلوم والأعمال حتى في صحة الفراسة ، كما ذكر عن اللعين حين تفرّس فيهم أنه يغويهم إلا المخلصين ، فصدق الله فراسته في قوله : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ، فإن قيل في الحديث : «اتّقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله»^(٢) ، فلا يناقض ما ذكرناه ، بل يدل على أن المؤمن أتم في هذه الخصلة من غيره وأصدق ، كما كان في العلم والإيمان والأعمال والحلم والصبر وغير ذلك ، ولو كان للفجار شيء من ذلك .

ومنها : الشهادة للقاعدة المعروفة في الشريعة أن كل عمل لا يقصد به وجه الله فهو باطل ؛ لاستثنائه المخلصين .

ومنها : الشهادة للقاعدة الثانية وهي : أن كل عمل على غير اتباع الرسول غير مقبول ، لقوله في القصة : ﴿أَهْطَأُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾^(٣) ، فقسّم الناس

(١) سبأ : الآية (٢٠) .

(٢) أخرجه : الترمذي (٣١٢٧/٢٧٨/٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقال : «غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه» ، والطبراني في الكبير (٧٤٩٧/١٠٢/٨) من حديث أبي أمامة . وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/٢٦٨) وقال : «إسناده حسن» . قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤/٣٠٠/١٨٢١) - بعد نقله لكلام الحافظ في «التقريب» في أبي صالح راوي هذا الحديث : «صدوق كثير الغلط ، ثبت في كتابته ، وكانت فيه غفلة» - قال الألباني : «ومنه يتبين أن قول الهيثمي في المجمع (١٠/٢٦٨) : (رواه الطبراني وإسناده حسن) ، فهو غير حسن . ومثله قول السيوطي في اللآلئ (٢/٣٣٠) : (فإنه بمفرده على شرط الحسن ، وعبدالله بن صالح لا بأس به) ، إذ كيف يكون ابن صالح لا بأس به ، وحديثه حسناً ، مع كثرة غلظه ، وبالغ غفلته ، حتى أدخلت الأحاديث المفتعلة في كتبه ، فيحدث بها وهو لا يدري» . وقال : «وجملة القول أن الحديث ضعيف ، لا حسن ، ولا موضوع ، وإليه مال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» ، والله أعلم» (المصدر السابق ٤/٣٠٢) . (٣) البقرة : الآية (٣٨) .

إلى قسمين : إلى أهل الجنة ، وهم الذين اتبعوا الهدى المنزّل من الله ، وأهل الشقاق والضلال ، وهم من أعرض عنه ، فانتظمت هذه القصة لهاتين الآيتين العظيمتين اللتين هما أكبر قواعد الشريعة على الإطلاق ، القاعدة الأولى : فيها حديث عمر : «إنما الأعمال بالنيات»^(١) ، والقاعدة الثانية : حديث عائشة : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢)،^(٣).

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أحمد (٢٥ / ١) ، والبخاري (١ / ١١ / ١) ، ومسلم (٣ / ١٥١٥ - ١٥١٦ / ١٩٠٧) ، وأبو داود (٢ / ٦٥١ - ٦٥٢ / ٢٢٠١) ، والترمذي (٤ / ١٥٤ / ١٦٤٧) ، والنسائي (١ / ٦٢ - ٦٣ / ٥٧) ، وابن ماجه (٢ / ١٤١٣ / ٤٢٢٧).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص : ٨٩ - ١٠٣).

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٢٥)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : « وقوله : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ^(١) ، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم ، وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويجازي كلأ بعمله ^(٢) .

فائدة في بيان مغزى القصة والعبرة فيها :

قال محمد رشيد رضا : « قد بينا من قبل أن الله قصّ علينا خبر نشأتنا الأولى ، بما يبين لنا سنته تعالى في فطرتنا ، وما يجب علينا من شكره وطاعته في تزكيتها وتهذيب غرائزها ، وملخص هذه الآيات فيها مع ما يفسرها ويوضحها من السور الأخرى أن الله تعالى خلق الإنسان ليكون خليفة له في الأرض ، وجعله مستعداً لعلم كل شيء فيها ، ولتسخير جميع ما فيها من القوة والمادة لمنافعه ؛ ليكون في ذلك مظهرًا لأسمائه الحسنی ، وصفاته العلی ، وتعلقها بتدبير خلقه ومعاملتهم في الآخرة والأولى ، وأنه كان في نشأته الأولى في جنة من النعيم وراحة البال ، وأنه لاستعداد له للأمور المتضادة ، التي يكون بها مظهرًا للصفات المتقابلة ، كالضار والنافع ، والمنتقم والغافر ، كانت نفسه مستعدة للتأثر بالأرواح المَلَكِيَّة التي تجذبها إلى الحق والخير ، وبالأرواح الشيطانية التي تجذبها إلى الباطل والشر ، وأن عاقبة التأثر الأول سعادة الدارين بما تقبله طبيعة كل منهما ، وعاقبة الثاني شقاء الدارين بقدر ما يوجد من أسباب الشقاء فيهما ، ويحتاج البشر في ذلك إلى هداية الوحي الإلهي الهادية إلى اتقاء الأول والتعرض للآخر ، وهو ما بينه تعالى في سورة (طه)

(١) طه : الآية (٥٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣ / ٣٩٥) .

بقوله: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۚ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ۚ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۚ﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَابِتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۚ﴾ (١) ، ونحوه ما تقدم في سورة (البقرة) ، فهذا أثر الدين في الحفظ من شقاء الدنيا وهلاك الآخرة ، وكتاب الله حجة على من لا يصدق عليهم ذلك في حالهم ، ومن يفسرونه بما يخالف ذلك بأقوالهم . . .

هذا ملخص مضمون القصة أو ملخص بقيتها ، وأما ملخص ما فيها من العبرة فهو أنه ينبغي لنا أن نعرف أنفسنا بغرائزها واستعدادها للكمال ، وما يعرض لها دونه من الموانع ، فيصرفها عنه إلى النقائص ، وأن أنفع ما يعيننا على تربيتها أن نتذكر عهد الله إلينا بأن نعبد وحده ، وأن لا نعبد معه الشيطان ولا غيره ، وأن نذكره ولا ننساه فننسى أنفسنا ، ونغفل عن تركيتها ، وصقلها بصقال التوبة كلما عرض لها من وسواس الشيطان ما يلوثها ؛ فإنه إن يترك صار صداً وطبعاً مفسداً لها ، وما أفسد أنفس البشر ودساها إلا غفلة عقولهم وبصائرهم عنها ، وتركها كالريشة في مهاب أهواء الشهوات ، ووساوس شياطين الضلالات ، فعلى العاقل أن يعرف قيمتها ، ويحرص عليها أشد من حرصه على ما عساه يملك من نفائس الجواهر ، وأعلاق الذخائر ، فإن حرصه على مثل هذا إنما يكون لأجلها ، وهو يبذله عند الضرورة في أحقر ما لا بدلها منه . وذلك بأن يطلب لها أقصى ما تسمو إليه همته من الكمال ، ويحاسبها كل يوم مرة أو أكثر على ما بذلت من السعي لذلك ، وعلى مكافحة ما يصدها عنه من الأهواء والوساوس ، وينصب الميزان القسط لما يشتبه عليها من الآراء والخواطير ، ليعرف كنه الحق والخير فيلتزمهما ، وأضدادهما من الشر والباطل فيجتنبهما ، وليتدبر ما قفى به الكتاب العزيز على القصة من الوصايا في الآيات الآتية» (٢).

(١) طه : الآيات (١٢٣-١٢٦).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٥٢-٣٥٤).

قوله تعالى : ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا
وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

★ غريب الآية:

لباسًا : اللباس : كل ما يصلح للباس من ثوب أو غيره . وليس الثوب : استتر به .
واللباس واللبوس واللبس : ما يلبس .

ريشًا : وقرئ : (رياشًا) : وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهية العيش ووجود
الملبس والتمتع . وفسره قوم بالأثاث . وفسره ابن عباس بالمال . وقال ابن زيد :
الريش : الجمال . والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش : ما ستر من لباس أو معيشة .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - جل ثناؤه - للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرون
للطواف اتباعًا منهم أمر الشيطان ، وتركا منهم طاعة الله ، فعرفهم انخداعهم بغروره
لهم حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر الله الذي أنعم به عليهم حتى أبدى سواتهم ،
وأظهرها من بعضهم لبعض ، مع تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به ، وأنهم
قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلّاهما بغرور حتى سلبهما ستر الله
الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سواتهما فعراهما منه : ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا
عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ ، يعني بإنزاله عليهم ذلك : خلقه لهم ورزقه إياهم ، واللباس : ما
يلبسون من الثياب ، ﴿يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ﴾ يقول : يستر عوراتكم عن أعينكم ، وكنى
بالسوات عن العورات ، واحدها : سواة ، وهي (فَعْلَة) من السوء ؛ وإنما سميت
سواة لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده»^(١) .

وقال : «القول في تأويل قوله تعالى : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ : اختلف أهل
التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : لباس التقوى : هو الإيمان . . . وقال

(١) جامع البيان (٨/١٤٦) .

آخرون: هو الحياء... وقال آخرون: هو العمل الصالح... وقال آخرون: بل ذلك هو السميت الحسن... وقال آخرون: هو خشية الله... وقال آخرون: (لباس التقوى) في هذه المواضع: ستر العورة...

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ استشعار النفوس تقوى الله في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان والعمل الصالح والحياء وخشية الله والسميت الحسن؛ لأن من اتقى الله كان به مؤمناً، وبما أمره به عاملاً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يرى عند ما يكرهه من عباده مستحيماً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورثيت عليه بهجة الإيمان ونوره.

وإنما قلنا: عني بـ(لباس التقوى) استشعار النفس والقلب ذلك؛ لأن اللباس إنما هو أذراع ما يلبس، واحتباء ما يكتسى، أو تغطية بدنه أو بعضه به، فكل من أدرع شيئاً أو احتبى به حتى يرى هو، أو أثره عليه، فهو له لباس، ولذلك جعل -جل ثناؤه- الرجال للنساء لباساً وهنّ لهم لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً^(١).

وقال: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾»: يقول -تعالى ذكره-: ذلك الذي ذكرت لكم أني أنزلته إليكم أيها الناس من اللباس والرياش من حجج الله وأدلته التي يعلم بها من كفر صحة توحيد الله، وخطأ ما هم عليه مقيمون من الضلالة، ﴿لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ﴾: يقول -جل ثناؤه-: جعلت ذلك لهم دليلاً على ما وصفت ليدّكروا، فيعتبروا وينيبوا إلى الحق، وترك الباطل رحمة مني بعبادي^(٢).

وقال ابن كثير: «فاللباس المذكور هنا لستر العورات -وهي السوآت- والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات»^(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «خاطب الله تعالى بني آدم في هذه الآية وأمثالها بالنداء

(١) المصدر السابق (٨/ ١٤٨-١٥١).

(٢) المصدر السابق (٨/ ١٥١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٥).

الذي يخاطب به البعيد لما كان عليه عربهم وعجمهم عند نزول هذه السورة في مكة من البعد عن الفطرة السليمة، والشرعة القويمة؛ تنبيهًا للأذهان، بما يقرع الآذان، فامتن عليهم -بعد أن أنبأهم بما كان من عري سلفهم الأول- بما أنعم به عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وأنواعه من الأدنى الذي يستر السوأة عن أعين الناس إلى أنواع الحلل التي تشبه ريش الطير في وقاية البدن من الحر والبرد بستر جميع البدن، وما في ذلك من أنواع الزينة والجمال اللائقة بجميع ذكران البشر وإناثهم، على اختلاف أسنانهم وأحوالهم، فهو يقول: يا بني آدم! إنا بما لنا من القدرة والنعمة والرحمة قد أنزلنا عليكم من علو سمائنا، بتدبيرنا لأمركم من فوق عرشنا، لباسًا يوارى سواآتكم، وهو أدنى اللباس وأقله الذي يعد فاقده ذليلاً مهيناً، وريشاً تتزينون به في مساجدكم ومجالسكم ومجامعكم، وهو أعلاه وأكمله، وبينهما لباس الحاجة، وهو ما يقي الحر والبرد. والامتنان به يؤخذ من الامتنان بما فوقه بطريق المفهوم من الأسلوب، أو هو داخل فيه بطريق المنطوق على ما اخترنا آنفاً.

والمراد بإنزال ما ذكر أن الله تعالى خلق لبني آدم مادته من القطن والصوف والوبر وريش الطير والحرير وغيرها، وعلمهم بما خلق لهم من الغرائز والقوى والأعضاء وسائل صنع اللباس منها، كالزراعة والغزل والنسج والخياطة.

وإن مننه تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف مننه على المتقدمين من شعوب بني آدم، فيجب أن يكون شكرهم له أعظم، فقد بلغ من إتقان صناعات اللباس أن عاقل ألمانية الأخير -قيصرها- دخل مرة أحد معامل الثياب ليشاهد ما وصلت إليه من الإتقان، فجزّوا أمامه عند دخوله صوف بعض أكباش الغنم، ولما انتهى من التجوال في المعمل ومشاهدة أنواع العمل فيه، وأراد الخروج، قدموا له معطفاً ليلبسه تذكّاراً لهذه الزيارة، وأخبروه أنه صنع من الصوف الذي جزّوه أمامه عند دخوله، فهم قد نظفوه في الآلات المنظفة، فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصلوه، فخاطوه في تلك الفترة القصيرة، فانتقل في ساعة أو ساعتين من ظهر الخروف إلى ظهر الإمبراطور!

وامتنانه تعالى على بني آدم بلباس الزينة يدل على استحبابها، ولا يعارضه قوله تعالى في أوائل سورة (الكهف): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا^(١) وإن فسر الحسن البصري إحسان العمل بترك الدنيا ، وسفيان الثوري بالزهد فيها ؛ ذلك بأن دين الإسلام هو دين الفطرة ، فليس فيه ما يخالف مقتضاها ويناقض غرائزها ؛ بل هو مهذب ومكمل لها . وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن الله في الخليقة وأنواع نعمه على عباده ؛ كما سنفصله في تفسير ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾^(٢) في هذا السياق ، وتحقيق معنى كونها ابتلاء : أن الله تعالى يختبر بها طالبها ما يقصد منها ؟ وواجدها أيشكر المنعم عليه بها إذا استعملها ، ويقف عند الحد المشروع فيها ؟ وماذا يقصد وينوي بترك ما يتركه منها ؟ وفاقدها يصبر على فقدتها أم يكون ساخطًا على ربه وحاسدًا لأهلها ؟^(٣)

وقال ابن عاشور : «وفي الآية إشارة إلى وجوب ستر العورة المغلظة ، وهي السوأة ، وأما ستر ما عداها من الرجل والمرأة فلا تدل الآية عليه ، وقد ثبت بعضه بالسنة ، وبعضه بالقياس . والخوض في تفاصيلها وعللها من مسائل الفقه»^(٤).

وقال الزمخشري : «وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت ، وخصف الورق عليها إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»^(٥).

(١) الكهف : الآية (٧).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٣٥٨-٣٦٠).

(٥) الكشف (٧٤/٢).

(٢) الأعراف : الآية (٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني / ٧٤).

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾^(١)

★ غريب الآية:

لا يفتنكم: الفتنة: الابتلاء والامتحان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : يا بني آدم لا يخذعنكم الشيطان، فيبدي سوءاتكم للناس، بطاعتكم إياه عند اختباره لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء، عند اختباره إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخذعه من الجنة ونزع عنهما ما كان ألبسهما من اللباس، ليريهما سوءاتهما بكشف عورتهم، وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستورة...»

وقد اختلف أهل التأويل في صفة اللباس الذي أخبر الله - جل ثناؤه - أنه نزع عن أبوينما وما كان، فقال بعضهم: كان ذلك أظفارا... وقال آخرون: كان لباسهما نورًا... وقال آخرون: إنما عنى الله بقوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ يسلبهما تقوى الله... والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى حذر عباده أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم آدم وحواء، وأن يجردهم من لباس الله الذي أنزله إليهم، كما نزع عن أبويهم لباسهما، واللباس المطلق من الكلام بغير إضافة إلى شيء في متعارف الناس، هو ما اختاره اللابس من أنواع الكساء، أو غطى بدنه أو بعضه. وإذا كان ذلك كذلك، فالحق أن يقال: إن الذي أخبر الله عن آدم وحواء من لباسهما الذي نزع عنهما الشيطان، هو بعض ما كانا يواريان به أبدانهم وعورتهم، وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفراً، ويجوز أن يكون ذلك كان

نورًا، ويجوز أن يكون غير ذلك، ولا خبر عندنا بأي ذلك تثبت به الحجة، فلا قول في ذلك أصوب من أن يقال: كما قال -جل ثناؤه-: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، وأضاف -جل ثناؤه- إلى إبليس إخراج آدم وحواء من الجنة، ونزع ما كان عليهما من اللباس عنهما، وإن كان الله -جل ثناؤه- هو الفاعل ذلك بهما عقوبة على معصيتهما إياه، إذ كان الذي كان منهما في ذلك عن تشبيه ذلك لهما بمكره وخداعه، فأضيف إليه أحيانًا بذلك المعنى، وإلى الله أحيانًا بفعله ذلك بهما^(١).

وقال الشنقيطي: «حذر تعالى في هذه الآية الكريمة بني آدم أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم، وصرح في موضع آخر أنه حذر آدم من مكر إبليس قبل أن يقع فيما وقع فيه، ولم ينجه ذلك التحذير من عدوه، وهو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٢)»^(٣).

وقال السيوطي: «قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية. استدل به أيضًا على وجوب ستر العورة، واستدل بالآيتين من قال: إن العورة هي السوءتان خاصة^(٤)».

وقال محمد رشيد رضا: «وتكرار النداء في مقام الوعظ والتذكير، من أقوى أساليب التنبيه والتأثير، يعرف ذلك الإنسان من نفسه، ويشعر به في قلبه، ونظيره في التنزيل قصة الجن من سورة (الأحقاف)، إذ جاء فيها الوعظ والإنذار، بتكرار النداء: يا قومنا... يا قومنا... ووعظ مؤمن آل فرعون في سورة (غافر) يا قوم... يا قوم... والذي يفهم من أساليب العربية في نسبة الإنسان إلى أحد أجداده، أنه خاص بالجد الذي صار رئيس القبيلة، أو العشيرة الكبيرة، التي انحصر نسبها فيه كقريش،... أو الذي له صفة ممتازة يقتضي المقام تذكير من ينسب إليه بها لمشاركته له فيها، أو للتعريض بتجرده منها مثلًا،... وتسمية الناس أبناء آدم من النوع الأول، وفي كل منهما تدل القرينة أن المنسوب إليه أحد الأجداد، وليس هو الأب^(٥)».

(٢) طه: الآية (١١٧).

(٤) الإكليل (ص: ١٢٧).

(١) جامع البيان (٨/ ١٥١-١٥٣).

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٢).

(٥) تفسير المنار (٨/ ٣٦١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة عن الصحابة

في بيان ميراث الجد مع الأب والإخوة

✽ قال ابن عباس وأبو بكر وابن الزبير: «الجدُّ أبٌ»^(١).

✽ فوائد الأثر:

احتج ابن عباس رضي الله عنه بهذه الآية لإثبات أن الجد يرث ما كان يرث الأب عند عدم هذا الأخير.

قال ابن عبد البر: «وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري وعائشة وابن الزبير وبه قال شريح والحسن وعبد الله بن عقبة وجابر بن زيد وفقهاء البصرة عثمان البتي وغيره، وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور والمزني وإسحق بن راهويه والطبري وداود ونعيم بن حماد، واختلف في الجد عن عمر اختلافاً كثيراً، وروي عنه أنه قال: «احفظوا عني ثلاثاً: لم أقل في الجد شيئاً، ولم أقل في الكلالة شيئاً، ولم أستخلف أحداً»، وروي عن زيد بن ثابت أنه قال: «أدركت الخلفتين - يعني عمر وعثمان - يقولان في الجد بقولي» وهذا أصح عنه، وأهل المدينة يروون عن عمر أنه كان يقول في الجد بقول زيد بن ثابت إلا في (الأكدرية)، وروى أهل العراق عنه أنه كان يقاسم الجد بالإخوة إلى السدس، ثم يقاسم بينهم إلى الثلث، وروي عن عثمان أنه جعل الجد أباً، وروي عنه أنه قال فيه بقول زيد إلا في الخرقاء، وأما علي بن أبي طالب وعبد الله ابن مسعود وزيد بن ثابت، فإنهم يقاسمون الجد بالإخوة، وإن كانوا قد اختلفوا في كيفية مقاسمة الجد الإخوة، فإنهم مجمعون على أن الجد ليس بأب، ولا يحجب به الإخوة... وقال كقول زيد في الجد مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وأبو يوسف ومحمد بن الحسن»^(٢).

(١) أخرجه البخاري تعليقاً (١٨/١٢) عن أبي بكر وابن الزبير وابن عباس. فأما قول أبي بكر، فقد أسنده البخاري

(١٢/٢٠/٢٧٣٨) من حديث ابن عباس، وأما قول ابن الزبير فأسنده البخاري أيضاً (٣٦٥٨/٢١/٧) من

طريق عبد الله بن أبي مليكة عنه، وأما قول ابن عباس فوصله عبدالرزاق (١٠/٢٦٤/١٩٠٥٥)، والدارمي

(٤/١٩٢٠/٢٩٦٨)، وصحح إسناده الحافظ في «الفتح» (٢١/١٢).

(٢) التمهيد (١٢/٥٩١-٥٩٢) (فتح البر).

قال الحافظ ابن حجر: «وقد أخذ بقوله -أي: بقول زيد- جمهور العلماء وتمسكوا بحديث: «أفرضكم زيد»^(١)، وهو حديث حسن، أخرجه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم من رواية أبي قلابة عن أنس، وأعله بالإرسال ورجحه الدارقطني والخطيب وغيرهما، وله متابعات وشواهد ذكرتها في تخريج أحاديث الرافعي»^(٢).

وقال السهيلي: «لم ير زيد بن ثابت لاحتجاج ابن عباس بقوله تعالى: ﴿يَبْنِيْٓءَادَمَ﴾ ونحوها مما ذكر عنه حجة؛ لأن ذلك ذكر في مقام النسبة والتعريف فعبر بالبنوة، ولو عبر بالولادة لكان فيه متعلق، ولكن بين التعبير بالولد والابن فرق، ولذلك قال تعالى: ﴿يُؤْصِيْكُمْ اللّٰهُ فِىٓ اٰوْلَادِكُمْ﴾^(٣)، ولم يقل: في أبنائكم، ولفظ (الولد) يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع؛ بخلاف الابن، وأيضاً فلفظ (الولد) يليق بالميراث بخلاف (الابن)، تقول: ابن فلان من الرضاعة، ولا تقول: ولده، وكذا كان من يتبنى ولد غيره قال له: ابني، وتبناه، ولا يقول: ولدي، ولا ولده، ومن ثم قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ اٰبَائِكُمْ﴾^(٤)؛ إذ لو قال: وحلائل أولادكم، لم يحتج إلى أن يقول: ﴿مِنْ اٰصْلَابِكُمْ﴾؛ لأن الولد لا يكون إلا من صلب أو بطن»^(٥).



(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أحمد (١٨٤/٣)، والترمذي (٣٧٩١/٥/٦٢٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١٥٤/٥٥/١)، وصححه ابن حبان (٧١٣١/٧٤/١٦).

(٢) فتح الباري (٢٢/١٢).

(٣) النساء: الآية (١١).

(٤) النساء: الآية (٢٣).

(٥) فتح الباري (٢٢/١٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

قَبِيلُهُ: أي: جماعته وجنوده. والقبيل: الجماعة من قبائل شتى، فإذا كانوا من أب واحد وأم واحدة فهم قبيلة. وقد سوى ابن عرفة بينهما فقال: يقال: قبيلة وقيل. قال ابن زيد: قبيلة: نسله، وقيل: جيله. وقال مجاهد: الجن والشياطين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بذلك: إن الشيطان يراكم هو، والهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ عائدة على الشيطان. وقبيله: يعني: وصفه وجنسه الذي هو منه واحد، جمعه: قُبُل، وهم الجن...»

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يقول: من حيث لا ترون أنتم أيها الناس الشيطان وقبيله، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: جعلنا الشياطين نصراء الكفار الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله^(٢).

قال صديق حسن خان: «قد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة. وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبداً؛ فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً.

قال مالك بن دينار: إن عدوا يراكم ولا ترونه، كأن في الكلام حذفاً تقديره: جدير بأن يحذرو ويتقى، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة، وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرثيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض^(٣).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٥٣).

(١) الأعراف: الآية (٢٧).

(٣) فتح البيان ٤/ ٣٢٦.

وقال القرطبي: «وفي الخبر: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(١)، وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٢). وقال عليه السلام: «إن للملك لمة وللشيطان لمة - أي: بالقلب - فأما لمة الملك فيإعاد بالخير وتصديق بالحق، وأما لمة الشيطان فيإعاد بالشر وتكذيب بالحق»^(٣). وقد تقدم في (البقرة). وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة. وقد خرّج البخاري عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة طويلة، ذكر فيها أنه أخذ الجنّي الذي كان يأخذ التمر، وأن النبي ﷺ قال له: «ما فعل أسيرك البارحة؟»^(٤). وقد تقدم في (البقرة). وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «والله لولا دعوة أخي سليمان، لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة»^(٥) في العفريت الذي تفلّت عليه. وسيأتي في تفسير سورة (ص) إن شاء الله تعالى»^(٦).

* * *

(١) أخرجه من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها: أحمد (٣٧٧/٦)، والبخاري (٢٠٣٨/٣٥٤/٤)، ومسلم (٤/١٧١٢/٢١٧٥)، وأبو داود (٨٣٤-٨٣٥/٢/٢٧٧٠)، وابن ماجه (٥٦٥-٥٦٦/١/١٧٧٩)، والنسائي في الكبرى (٣٣٥٧/٢٦٣/٢).

(٢) الناس: الآية (٥).

(٣) أخرجه: عبد الرزاق في تفسيره (١٠٩/١)، وابن جرير (٨٨/٣) موقوفاً بسند صحيح، وهو عند النسائي في الكبرى (١١٠٥/٣٠٥/٦)، والترمذي (٢٩٨٨/٢٠٤/٥) مرفوعاً، وصححه ابن حبان (٢٧٩-٢٧٨/٣/٩٩٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص، وفيه عطاء بن السائب، اختلط، والراوي عنه أبو الأحوص روى عنه بعد الاختلاط».

(٤) أورده البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم (٢٣١١/٦١٢/٤)، ووصله النسائي في الكبرى (١٣/٥/٨٠١٧).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢٧٥/٢)، والبخاري (٣٤٢٣/٥٦٦/٦)، ومسلم (٣/١٢٧٥/١٦٥٤)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٠/٤٤٣/٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٨٦-١٨٧/٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾
 قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

★ غريب الآية:

فاحشة: الفحشاء: ما تزايد فحشه واشتد نكره، والفاحشة كذلك. وقال
 الراغب: الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير - بعد روايته عن مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والسدي وابن عباس أن معنى الفاحشة في هذا الموضع: طواف العرب بالبيت عراة - قال: «فتأويل الكلام إذن: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحاً من الفعل وهو الفاحشة، وذلك تعريهم للطواف بالبيت، وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آبائنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم ونستنّ بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه، يقول الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّد - لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، يقول: لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساوئها، ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الناس ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يقول: أتروون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك»^(١).
 قال صديق حسن خان: «وفي هذه الآية الشريفة أعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق؛ فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق؛ فإنهم القائلون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾^(٢)، والقائلون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

(٢) الزخرف: الآية (٢٣).

(١) جامع البيان (٨/ ١٥٤).

والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به وأنه الحق لم يبق عليه ، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية والنصراني على النصرانية ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعة ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به ، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغي ، وهذا هو التقليد البحت ، والقصور الخالص .

فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية ! أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة ، وتستمر على الضلالة ، فقد اختلط الشر بالخير ، والصحيح بالسقيم ، وفاسد الرأي بصحيح الرواية ، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتباعه ونهاهم عن مخالفته فقال : ﴿ وَمَا ءَاتَكُمْ الرَّسُولُ فَاخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(١) ، ولو كان محض رأي أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأي المكلفون للناس بما لم يكلفهم الله به .

وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلد لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرائهم ، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم ، ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم^(٢) .

(١) الحشر: الآية (٧) .

(٢) فتح البيان (٤/٣٢٧-٣٢٨) .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

القسط: العدل.

مخلصين: أصل الإخلاص: الصفاء من كل شائب. وإخلاص الدين لله هو توجيه العبادة إليه دون غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبه: ﴿قُلْ﴾ - يا محمد - لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كذباً على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل...»

وأما قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله؛ فقال بعضهم: معناه: وجهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة...

وقال آخرون: بل عنى بذلك: واجعلوا سجودكم لله خالصاً دون ما سواه من الآلهة والأنداد...

وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية: ما قاله الربيع، وهو أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم، لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصاً لا مكاء ولا تصدية. وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية؛ لأن الله إنما خاطب بهذه الآيات قوماً من مشركي العرب، لم يكونوا أهل كنائس وبيع، وإنما كانت الكنائس والبيع لأهل الكتابين، فغير معقول أن يقال لمن لا يصلي في

(١) الأعراف: الآية (٢٩).

كنيسة أو بيعة: وجه وجهك إلى الكعبة في كنيسة أو بيعة.

وأما قوله: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فإنه يقول: واعملوا لربكم مخلصين له الدين والطاعة، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيء مما تعملون له شريكاً^(١).

قال محمد رشيد رضا: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: بأن لا تشوبه أدنى شائبة من التوجه إلى غيره في الدعاء، ولا في غيره من دينكم، كالتوجه إلى الأنبياء والصالحين، أو ما يُذكرُ بهم كقبورهم، فذلك شرك ينافي خلوصه له، قل أو كثر، سمي شركاً أو سمي توسلاً وتبركاً^(٢).

(١) جامع البيان (٨/١٥٥-١٥٦).

(٢) تفسير المنار (٩/٥٥٩).

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

★ غريب الآية:

بدأكم: أي: بدأ خلقكم. والبدء والابتداء: تقديم الشيء على غيره نوعاً من التقديم.

فريقاً: الفريق: الجماعة المنفردة؛ قال الراغب: الفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين.

يحسبون: يظنون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: «جمع في هذه الآية الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالشرع والإيمان بالقدر، وذكر فيها تفصيل الشرع الذي أمر به، وذكر حال من عكس الأمر فجعل المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ثم ختم الآية بهذه المسألة العظيمة، وهي: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾، فلا أجهل ممن هرب عن طاعة الله واختار طاعة الشيطان، ومع هذا يحسب أنه مهتد مع هذا الضلال الذي لا ضلال فوقه، والله أعلم»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان المعنى المراد بالآية

★ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً، ثم

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٠٤).

قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(١)، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم. وإن أناسًا من أصحابي أخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي، أصحابي. فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿الْحَكِيمُ﴾^(٢)،^(٣).

★ غريب الحديث:

محشورون: أي: مجموعون في موضع الحشر.

حُفَاة: جمع حافٍ، والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم، ولا يفقد منهم شيء حتى الغرلة تكون معهم.

غُرْلًا: الغرل، بضم الغين المعجمة وإسكان الراء، معناه: غير مختونين، جمع أغرل، وهو الذي لم يختن وبقيت معه غرلته، وهي قلفته، وهي الجلد التي تقطع في الختان.

★ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث أبو جعفر الطبري في تفسيره لصحة ما اختاره من القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ من أن المراد به كما بدأكم الله خلقًا بعد أن لم تكونوا شيئًا تعودون بعد فنائكم خلقًا مثله، وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد والحسن ورواية عن ابن عباس.

قال أبو جعفر بعد حكايته اختلاف أهل التأويل في المعنى المراد بهذه الآية: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب: القول الذي قاله من قال معناه: كما بدأكم الله خلقًا بعد أن لم تكونوا شيئًا تعودون بعد فنائكم خلقًا مثله، يحشركم إلى يوم القيامة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعَلِّمَ بما في هذه الآية قومًا مشركين أهل جاهلية، لا يؤمنون بالمعاد، ولا يصدقون بالقيامة، فأمره أن يدعوهم إلى الإقرار

(١) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(٢) المائدة: الآيتان (١١٧ و ١١٨).

(٣) أخرجه: أحمد (١/٢٣٥، ٢٥٣)، والبخاري (٦/٤٧٦/٣٣٤٩)، ومسلم (٤/٢١٩٤-٢١٩٥/٢٨٦٠)، والترمذي (٤/٥٣٢/٢٤٢٣)، والنسائي (٤/٤٢٣/٢٠٨٦).

بأن الله باعهم يوم القيامة، ومثيب من أطاعه، ومعاقب من عصاه، فقال له: قل لهم: أمر ربي بالقسط، وأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وأن ادعوه مخلصين له الدين، وأن أقروا بأن كما بدأكم تعودون، فترك ذكر: (وأن أقروا بأن)، كما ترك ذكر: (أن) مع (أقيموا)، إذ كان فيما ذكر دلالة على ما حذف منه. وإذا كان ذلك كذلك، فلا وجه لأن يؤمر بدعاء من كان جاحداً النشور بعد الممات، إلى الإقرار بالصفة التي ينشر عليها من نشر، وإنما يؤمر بالدعاء إلى ذلك من كان بالبعث مصدقاً، فأما من كان له جاحداً وإنما يدعى إلى الإقرار به، ثم يعرف كيف شرائط البعث، على أن في الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ. ما يبين صحة القول الذي قلنا في ذلك، من أن معناه: أن الخلق يعودون إلى الله يوم القيامة خلقاً أحياء، كما بدأهم في الدنيا خلقاً أحياء..»^(١).

وقال الشنقيطي رحمه الله: «والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جداً، كقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعِنْدًا عَلَيْنَا﴾^(٢) الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾^(٣)، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾^(٥) إلى غير ذلك من الآيات»^(٦).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وشقي، أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه يعمل بعمل أهل النار. ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»^(٧).

(١) جامع البيان (٨/١٥٨).

(٢) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(٣) الروم: الآية (٢٧).

(٤) يس: الآية (٧٩).

(٥) الحج: الآية (٥).

(٦) أضواء البيان (٢/١٣).

(٧) أخرجه: أحمد (١/٣٨٢ و٤٣٠)، والبخاري (٦/٣٧٣ و٣٢٠٨)، ومسلم (٤/٢٠٣٦ و٢٦٤٣)، وأبو داود

(٥/٨٢-٨٣/٤٧٠٨)، والترمذي (٤/٣٨٨-٣٨٩/٢١٣٧)، وابن ماجه (١/٢٩/٧٦).

★ غريب الحديث:

يجمع: المراد بالجمع ضم بعضه إلى بعض بعد الانتشار.
 علة: قطعة دم جامد غليظ، سمي بذلك للرطوبة التي فيه وتعلقه بما مرّ به.
 مضغة: قطعة اللحم، سميت بذلك لأنها قدر ما يمضغ الماضغ.
 * عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»^(١).

★ فوائد الحديثين:

احتج بهذين الحديثين وما في معناه من ذهب إلى القول بأن المراد بالآية «أنه كما خلقكم أشقياء وسعداء ومؤمنين وكافرين، تعودون كذلك» وهو قول ابن عباس وجابر وأبي العالية ومحمد بن كعب ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي، وهو الذي اختاره الإمام أبو المظفر السمعاني في تفسيره، وصححه وقال: «وعليه دل قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: فريقًا هداهم الله، وفريقًا أضلهم الله تعالى فوجبت عليهم الضلالة»^(٢).

وقال الشنقيطي: «ومن الآيات الدالة عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَرِيقًا كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾»^(٣)، وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾»^(٤)؛ أي: ولذلك الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم»^(٥).

وقال ابن كثير: «ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾»^(٦)، وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه»^(٧) وفي صحيح مسلم عن عياض بن

(١) أخرجه: أحمد (٣/٣٣١)، ومسلم (٤/٢٢٠٦/٢٨٧٨)، ورواه ابن ماجه (٢/١٤١٤/٤٢٣٠) بلفظ: «يحشر

(٢) تفسير القرآن (٢/١٧٦-١٧٧).

(٤) هود: الآية (١١٩).

(٦) الروم: الآية (٣٠).

الناس على نياتهم».

(٣) التغابن: الآية (٢).

(٥) أضواء البيان (٢/١٣).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٣)، والبخاري (٣/٢٨١/١٣٥٩)، ومسلم (٤/٢٠٤٧/٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/٨٦-

٨٨/٤٧١٤)، والترمذي (٤/٣٨٩/٢١٣٨).

حمار قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(١) ، ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق ، وجعله في غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا ، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾^(٢) ، وفي الحديث : «كل الناس يغدو ، فبائع نفسه ، فمعتقها ، أو موبقها»^(٣) ، وقدر الله نافذ في بريته ؛ فإنه هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾^(٤) و﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٥) ، وفي الصحيحين : «فأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»^(٦) ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ، ثم علل ذلك فقال : ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾^(٧) .

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة إنما ضلوا عن سبيل الله وجاروا عن قصد المحجة باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله وظهراء ؛ جهلاً منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك ، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق ، وأن الصواب ما أتوه وركبوا ، وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عنادًا منه لربه فيها ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل ، وهو يحسب أنه هاد ، وفريق الهدى

(١) أخرجه : أحمد (٤/ ١٦٢) ، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥) ، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١) .

(٢) التغابن : الآية (٢) .

(٣) أخرجه : أحمد (٥/ ٣٤٢-٣٤٣ و٣٤٤-٣٤٥) ، ومسلم (١/ ٢٠٣/ ٢٢٣) ، والترمذي (٥/ ٥٠١/ ٣٥١٧) من حديث أبي مالك الأشعري .

(٤) الأعلى : الآية (٣) .

(٥) طه : الآية (٥٠) .

(٦) أخرجه : أحمد (١/ ١٢٩) ، والبخاري (٣/ ٢٨٩/ ١٣٦٢) ، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧) ، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤) ، والترمذي (٥/ ٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤) ، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨) من حديث علي



(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٤-٤٠٥) .

فرق، وقد فرق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية^(١).

وقال صديق حسن خان: «والآية حجة على أهل الاعتزال في كون الهداية والإضلال إلى الله ذي الجلال، وفيه دليل أيضًا على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق، والجاحد والمعاند في الكفر سواء، ودلت هذه الآية على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين؛ بل لا بد من الجزم والقطع؛ لأنه تعالى ذم الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين، ولولا أن هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك، ودلت أيضًا على أن كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى أو لم يحسب ذلك، قاله الكرخي^(٢).

قلت: ويستفاد من الآية والأحاديث أن كل من كان على منهاج الحق وانحرف يمينة أو يسرة، بسبب محرف من الإنس، سواء كان من أهل الكفر من اليهود والنصارى والمجوس، أو من الملاحدة والشيوعيين وأذئابهم من الاشتراكيين والبعثيين، فتبعهم على مناهجهم الباطلة الكافرة، المليئة بأنواع المخالفات من شرك، وتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، واقتدى بهم في كل رذيلة، تفسد عليه فطرته ودينه، فكل هذا وأمثاله من الموالاة والمتابعة لشياطين الإنس والجن، فخرجوا الله أن يخلص أهل الإسلام من شر هؤلاء الشياطين، سواء من يعيش معهم في دورهم ومجتمعاتهم، ومن هو خارج عنهم يفسدهم بوسائله المسموعة والمرئية والمكتوبة، والله المستعان.

(١) جامع البيان (٨/١٥٩).

(٢) فتح البيان (٤/٣٣١).

قوله تعالى : ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا : «يقال في هذا النداء ما قلنا في مثله قبله ، ونزید أنه يشمل النساء بالتبع للرجال شرعاً لا لغة . ويدل على بعثة النبي ﷺ إلى جميع البشر . والظاهر أن هذه الوصايا مما أوصى الله تعالى به من سبق من الرسل وسنعود إلى هذا في تفسير آخرها ، والزينة ما يزين الشيء أو الشخص ، فهي اسم من زانه يزينه زيناً : ضد شانه - أي : عابه - يشينه شيئاً . وأخذها عبارة عن التزين ؛ لأنه إنما يحصل بأخذ ما يزين واستعماله ، والمراد بها هنا الثياب الحسنة المعتادة ؛ بدليل القرينة والإضافة وسبب نزول الآيات ، وإلا فأنواع الزينة في الدنيا كثيرة ، ومنها المال والبنون ، فلا يدخل فيها ما هو خاص بالنساء من الحلي والحلل التي يتحبن بها إلى أزواجهن ، وقد تكون شاغلة عن العبادة .

وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس ، وهو ما يستر عورته . وقد اقتصر بعضهم على هذا لأجل جعل الأمر للوجوب ، وإنما يجب لصحة الصلاة والطواف ستر العورة فقط ؛ على ما جرى عليه جمهور الفقهاء على اختلافهم في تحديد العورة ، وقالوا : إن ما زاد على ذلك من التجميل بزينة اللباس اللائق عند الصلاة - ولا سيما صلاة الجمعة والجماعة وفي العيدين - سنة لا واجب ، ولكن إطلاق الأمر يدل على وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد بحسب عرف الناس في تزينهم المعتدل في المجامع والمحافل ؛ ليكون المؤمن عند عبادة الله تعالى مع عباده المؤمنين في أجمل حالة لائقة به ، لا تكلف فيها ولا إسراف ؛ فمن قدر بلا تكلف على عمامة وإزار ورداء ، أو ما في معناها من قلنسوة وجبة وقباء ، لا يكون ممثلاً للأمر بالزينة إذا اقتصر على إزار يستر العورة فقط - وهي عند

(١) الأعراف : الآية (٣١) .

بعض الأئمة السواتان فقط ، وعند الجمهور ما بين السرة والركبة - للرجل ، وما عدا الوجه والكفين للمرأة وإن صحت صلاته ؛ فإن المقام ليس مقام بيان شروط صحة الصلاة ؛ بل هو أوسع من ذلك ، ومن العلماء من يقول : إن ستر العورة في الصلاة واجب ، لا شرط لصحتها . وإن فيما ورد من الأخبار والآثار في المسألة ما يدل على ما قلنا حتى جعلت النعال من الزينة ، وهي كذلك وإن تركها جميع المسلمين في المساجد ؛ لأنهم يفرشونها كما يفرشون بيوتهم بالحصر أو بالبسط والطنافس^(١) .

وقال الرازي : «المراد من الزينة لبس الثياب ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾^(٢) يعني الثياب ، وأيضاً فالزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات ، ولذلك صار التزيين بأجود الثياب في الجمع والأعياد سنة ، وأيضاً أنه تعالى قال في الآية المتقدمة : ﴿قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيثًا﴾^(٣) ، فبين أن اللباس الذي يوارى السواة من قبيل الرياش والزينة ، ثم أنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية ، فوجب حمل هذه الزينة على ستر العورة ، وأيضاً فقد أجمع المفسرون على أن المراد بالزينة ههنا لبس الثوب الذي يستر العورة ، وأيضاً فقوله : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أمر ؛ والأمر للوجوب ؛ فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان^(٤) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس قال : «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة . فتقول : من يعيرني تطوفاً ، تجعله على فرجها . وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٥) .

* عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٨٠-٣٨١) .

(٢) النور : الآية (٣١) .

(٣) الآية (٢٦) .

(٤) تفسير الرازي (١٤/ ٦٤-٦٥) .

(٥) أخرجه : مسلم (٤/ ٢٣٢٠/ ٣٠٢٨) ، والنسائي (٥/ ٢٥٨/ ٢٩٥٦) .

ليس على عاتقيه شيء»^(١).

★ غريب الحديث:

العاتق: هو ما بين المنكبين إلى أصل العنق.

★ عن بريدة قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به،

والآخر أن يصلي في سراويل وليس عليه رداء»^(٢).

★ غريب الحديث:

التوشيح: أن يأخذ الإنسان طرف ثوب ألقاه على منكبه الأيمن من تحت يده

اليسرى، وطرفه الذي ألقاه على الأيسر من تحت يده اليمنى، ثم يعقدهما على صدره.

★ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنها

من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم»^(٣).

★ عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا ثياب البياض؛

فإنها أطهر وأطيب»^(٤).

★ فوائد الآية والأحاديث:

في هذه الآية والأحاديث عدة مسائل:

الأولى: في بيان سبب نزول الآية:

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٤٣)، والبخاري (١/٦٢١/٣٥٩)، ومسلم (١/٣٦٨/٥١٦)، وأبو داود (١/٤١٤/٦٢٦)، والنسائي (٢/٤٠٥/٧٦٨).

(٢) أخرجه: أبو داود (١/٤١٨-٤١٩/٦٣٦) وسكت عنه، وصححه الحاكم (١/٢٥٠) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (١/٢٤٧)، وأبو داود (٤/٣٣٢/٤٠٦١)، والترمذي (٣/٣١٩-٣٢٠/٩٩٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/٤٧٣/١٤٧٢). وقال ابن كثير (٣/٤٠٢): «هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم».

(٤) أخرجه: أحمد (٥/١٣-١٧-١٨)، والترمذي (٥/١٠٩/٢٨١٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/٥٩٢-٥٩٣)، وابن ماجه (٢/١١٨١/٣٥٦٧) واللفظ له، والحاكم (٤/١٨٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قال ابن رجب: «أما قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، فإنها نزلت بسبب طواف المشركين بالبيت عراة، وقد صح هذا عن ابن عباس وأجمع عليه المفسرون من السلف بعده. وقد ذكر الله هذه الآية عقب ذكره قصة آدم عليه السلام، وما جرى له ولزوجه مع الشيطان حتى أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما حتى بدت عوراتهما، قال الله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمراد بالفاحشة هنا نزع ثيابهم عند الطواف بالبيت وطوافهم عراة - كما كان عادة أهل الجاهلية - ثم قال بعد ذلك: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

والمراد بذلك: أن يسترُوا عوراتهم عند المساجد، فدخل في ذلك الطواف والصلاة والاعتكاف، وغير ذلك^(١).

قال الجصاص: «قال بعض من يحتج لمالك بن أنس: إن هؤلاء السلف لما ذكروا سبب نزول الآية وهو طواف العريان، وجب أن يكون حكمها مقصوراً عليه، وليس هذا عندنا كذلك؛ لأن نزول الآية عندنا على سبب لا يوجب الاقتصار بحكمها عليه؛ لأن الحكم عندنا لعموم اللفظ لا للسبب، وعلى أنه لو كان كما ذكر، لا يمنع ذلك وجوباً في الصلاة؛ لأنه إذا وجب الستر في الطواف فهو في الصلاة أوجب، إذ لم يفرق أحد بينهما... ويدل على أن حكم الآية غير مقصور على الطواف وأن المراد بها الصلاة قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، والطواف مخصوص بمسجد واحد، ولا يفعل في غيره، فدل على أن مراده الصلاة التي تصح في كل مسجد، ويدل عليه من جهة السنة حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصل أحدكم في ثوب واحد ليس على فرجه منه شيء» وروى محمد ابن سيرين عن صفية بنت الحارث عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار»^(٢)، فنفي قبولها لمن بلغت

(١) فتح الباري (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٠)، وأبو داود (١/ ٤٢١/ ٦٤٥)، والترمذي (٢/ ٢١٥/ ٣٧٧) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (١/ ٢١٥/ ٦٥٥)، وابن حبان (٤/ ٦١٢/ ١٧١١)، وصححه الحاكم (١/ ٢٥١) ووافقه الذهبي.

الحيض فَصَلَّتْهَا مَكشُوفَةً الرَّأْسَ، كما نفى قبولها مع عدم الطهارة بقوله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور»، فثبت بذلك أن ستر العورة من فروضها»^(١).

الثانية: بيان حكم ستر العورة في الصلاة:

قال أبو بكر بن العربي: «اختلف الناس في ستر العورة هل هي فرض في الصلاة أم مستحبة؟

فأما أبو حنيفة والشافعي وأحمد فقالوا: إنها فرض فيها، وأما مالك فالمشهور من قوله: أنها فرض إسلامي لا تختص بالصلاة، وهو أشهر أقوالنا، والقول الآخر مثل قول من تقدم، وهو الصحيح لما ثبت من أمر النبي ﷺ بستر العورة في الصلاة، والأمر على الوجوب، وهو وإن كان فرضاً إسلامياً فإنه يتأكد في الصلاة»^(٢).

قال الجصاص: «هذه الآية تدل على فرض ستر العورة في الصلاة.. ودلالة هذه الآية على فرض ستر العورة في الصلاة من وجوه: أحدها: أنه لما قال: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فعلق الأمر بالمسجد، علمنا أن المراد الستر للصلاة، لولا ذلك لم يكن لذكر المسجد فائدة، فصار تقديرها: خذوا زينتكم في الصلاة، ولو كان المراد سترها عن الناس لما خص المسجد بالذكر؛ إذ كان الناس في الأسواق أكثر منهم في المساجد، فأفاد بذكر المسجد وجوبه في الصلاة؛ إذ كانت المساجد مخصوصة بالصلاة، وأيضاً لما أوجب في المسجد وجب بظاهر الآية فرض الستر في الصلاة، إذا فعلها في المسجد، وإذا وجب في الصلاة المفعولة في المسجد وجب في غيرها من الصلوات حيث فعلت؛ لأن أحداً لم يفرق بينهما، وأيضاً فإن المسجد يجوز أن يكون عبارة عن السجود نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٣)، والمراد السجود، وإذا كان كذلك اقتضت الآية لزوم الستر عند السجود، وإذا لزم ذلك في السجود لزم في سائر أفعال الصلاة، إذ لم يفرق أحد بينهما»^(٤).

(١) أحكام القرآن (٣/ ٣١-٣٢).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٧٨).

(٣) الجن: الآية (١٨).

(٤) أحكام القرآن (٣/ ٣١).

الثالثة: بيان حد عورة المصلي:

قال ابن رجب: «استدل من قال: إن المأمور به من الزينة أكثر من ستر العورة التي يجب سترها عن الأبصار بأن النبي ﷺ نهى أن يصلي الرجل في ثوب واحد ليس على عاتقه منه شيء، وبأن من صلى عارياً خالياً لا تصح صلاته، وبأن المرأة الحرة لا تصح صلاتها بدون خمار مع أنه يباح لها وضع خمارها عند محارمها، فدل على أن الواجب في الصلاة أمر زائد على ستر العورة التي يجب سترها عن النظر»^(١).

أ - حد عورة الرجل في الصلاة:

قوله في حديث أبي هريرة: «ليس على عاتقه منه شيء»:

قال الشوكاني: «الحديث يدل على جواز الصلاة في الثوب الواحد، قال النووي: ولا خلاف في هذا إلا ما حكى عن ابن مسعود ولا أعلم صحته، وأجمعوا أن الصلاة في ثوبين أفضل، ويدل أيضاً على المنع من الصلاة في الثوب الواحد إذا لم يكن على عاتق المصلي منه شيء وقد حمل الجمهور هذا النهي على التنزيه، وعن أحمد لا تصح صلاة من قدر على ذلك فتركه، وعنه أيضاً: تصح ويأثم، وغفل الكرماني عن مذهب أحمد، فادعى الإجماع على جواز ترك جعل طرف الثوب على العاتق، وجعله صارفاً للنهي عن التحريم إلى الكراهة، وقد نقل ابن المنذر عن محمد بن علي عدم الجواز، وكلام الترمذي يدل على ثبوت الخلاف أيضاً، وعقد الطحاوي له باباً في «شرح المغني»^(٢) ونقل المنع عن ابن عمر ثم عن طاووس والنخعي، ونقله غيره عن ابن وهب وابن جرير وجمع الطحاوي بين الأحاديث بأن الأصل أن يصلي مشتملاً، فإن ضاق اتزر، ونقل الشيخ تقي الدين السبكي وجوب ذلك عن الشافعي واختاره، قال الحافظ: لكن المعروف في كتب الشافعية خلافه، واستدل الخطابي على عدم الوجوب بأنه ﷺ صلى في ثوب كان أحد طرفيه على بعض نسائه وهي نائمة، قال: ومعلوم أن الطرف الذي هو لابس من الثوب غير

(١) فتح الباري (٢/٣٣٦).

(٢) لعله خطأ مطبعي، والصواب: (شرح معاني الآثار). وقد عقد لهذه المسألة باباً سماه: باب الصلاة في الثوب الواحد (شرح معاني الآثار ١/٣٧٧).

متسع لأن يتزر به ويفضل منه ما كان لعاتقه، وفيما قاله نظر لا يخفى، قاله الحافظ. إذا تقرر لك عدم صحة الإجماع الذي جعله الكرمانى صارفاً للنهي، فالواجب الجزم بمعناه الحقيقي، وهو تحريم ترك جعل طرف الثوب الواحد حال الصلاة على العاتق والجزم بوجوبه مع المخالفة بين طرفيه بالحديث الآتي، حتى ينتهض دليل يصلح للصرف، ولكن هذا في الثوب إذا كان واسعاً؛ جمعاً بين الأحاديث كما سيأتي التصريح بذلك في حديث جابر^(١). . . والمراد (أي: من حديث جابر) أنه لا يشد الثوب في وسطه فيصلي مكشوف المنكبين، بل يتزر به ويرفع طرفيه فيلتحف بهما فيكون بمنزلة الإزار والرداء، هذا إذا كان الثوب واسعاً، وأما إذا كان ضيقاً جاز الاتزار به من دون كراهة، وبهذا يجمع بين الأحاديث كما ذكره الطحاوي وغيره، واختاره ابن المنذر وابن حزم، وهو الحق الذي يتعين المصير إليه، فالقول بوجوب طرح الثوب على العاتق والمخالفة من غير فرق بين الثوب الواسع والضيق ترك للعمل بهذا الحديث وتعسير مناف للشريعة السمحة^(٢).

قال النووي: «قال العلماء: حكمته أنه إذا اتزر به ولم يكن على عاتقه منه شيء لم يؤمن أن تنكشف عورته، بخلاف ما إذا جعل بعضه على عاتقه، ولأنه قد يحتاج إلى إمساكه بيده أو يديه، فيشغل بذلك وتفوته سنة وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت صدره ورفعهما حيث شرع الرفع وغير ذلك؛ لأن فيه ترك ستر أعلى البدن وموضع الزينة، وقد قال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾^(٣).

ب - حد عورة المرأة في الصلاة؛ الحرية والأمة:

قال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وَاللَّهُ: «هذا خطاب للرجال والنساء إلا أنهم يختلفون في العورة، فعورة الرجل قد تقدم ذكرها، وعورة المرأة جميع بدنها إلا وجهها وكفيها، وفي المصنفين أن النبي ﷺ قال: «لا تقبل صلاة حائض إلا بخمار»^(٤)، وهذا في الحرية، فقد ثبت عن أم سلمة أنها سألت النبي ﷺ: أتصلي المرأة في درع وخمار ليس عليها إزار؟ قال: «إذا كان الدرع

(١) أخرجه: أحمد (٣/٣٢٨-٣٣٥)، والبخاري (١/٦٢٢/٣٦١)، ومسلم (٤/٢٣٠١-٢٣٠٢/٣٠١٠)، وأبو

داود (١/٤١٧-٤١٨/٦٣٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (٤/١٩٦).

(٣) نيل الأوطار (٢/٧٠-٧٢).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

سابقاً يغطي ظهور قدميها»^(١)، فأما الأمة فإنها تصلي كما تمشي حاسرة الرأس، وقال علماؤنا: تستر في الصلاة ما يستر الرجل، حتى لو انكشف بطنها لم يضرها، وقال أصبغ: إن انكشفت فخذا أعادت في الوقت»^(٢).

قال ابن قدامة: «وأما سائر بدن المرأة الحرة فيجب ستره في الصلاة، وإن انكشف عنه شيء لم تصح صلاتها إلا أن يكون يسيراً، وبهذا قال مالك والأوزاعي والشافعي، وقال أبو حنيفة: القدمان ليس من العورة، لأنهما يظهران غالباً فهما كالكفين؛ ولأنهما يغسلان في الوضوء فلم يكونا من العورة كالوجه والكفين وإن انكشف من المرأة أقل من ربع شعرها أو ربع فخذا أو ربع بطنها لم تبطل صلاتها، ولنا ما روت أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله! أتصلي المرأة في درع وخمار ليس عليها إزار؟ فقال: «نعم إذا كان سابقاً يغطي ظهور قدميها» رواه أبو داود. وقال: وقفه جماعة على أم سلمة، ورفع عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار^(٣)، وروى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء» فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟ قال: «يرخين شبراً»، فقالت: إذا تنكشف أقدامهن، قال: «فيرخينه ذراعاً، لا يزدن عليه». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح^(٤). وهذا يدل على وجوب تغطية القدمين، ولأنه محل لا يجب كشفه في الإحرام، فلم يجز كشفه في الصلاة كالساقين، ولأن الخبر المروي في أن المرأة عورة بالإجماع، فإن أهل العلم أجمعوا على أن للمرأة الحرة أن تغطي رأسها في الصلاة، وعلى أنها إذا صلت وجميع رأسها مكشوف أن عليها الإعادة، والتقدير بالربع تحكم لا دليل عليه، والتقدير لا يجوز بمجرد الرأي والتحكم، وقد ثبت وجوب ستر الرأس بقول النبي ﷺ: «لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار» رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وفي هذا تنبيه على وجوب ستر البطن وغيره من سائر البدن. . والمستحب أن تصلي المرأة في درع، وهو القميص، لكنه سابق يغطي قدميها، وخمار، وهو المقنعة، وجلباب، وهو الملحفة تلتحف به من فوق الدرع،

(١) أخرجه أبو داود (١/٤٢٠/٦٤٠)، وهو ضعيف.

(٢) أحكام القرآن (٢/٧٨١).

(٣) تقدم تخريجه قريباً، وهو ضعيف.

(٤) أخرجه: الترمذي (٤/١٩٥-١٩٦/١٧٣١) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/٥٩٧-٥٩٨/٥٣٥١).

روي نحو ذلك عن عمر وابنه وعائشة وعبيدة السلماني وعطاء، وهو قول الشافعي، قال أحمد: قد اتفق عامتهم على الدرع والخمار، وما زاد فهو خير وأستر، ولأنه إذا كان عليها جلباب فإنها تجافيه راحة وساجدة، لثلاث تصفها ثيابها فتبين عجيزتها ومواضع عوراتها المغلظة»^(١).

وقال معلقاً على قول الخرقى: «وصلاة الأمة مكشوفة الرأس جائزة»: «هذا قول عامة أهل العلم لا نعلم أحداً خالف في هذا إلا الحسن، فإنه من بين أهل العلم أوجب عليها الخمار إذا تزوجت، أو اتخذها الرجل لنفسه، واستحب لها عطاء أن تقنع إذا صلت، ولم يوجبها، ولنا أن عمر رضي الله عنه كان ينهى الإمام عن التقنع، قال أبو قلابة: إن عمر بن الخطاب كان لا يدع أمة تقنع في خلافته، وقال: «إنما القناع للحرائر»، وضرب أمة لآل أنس رآها متقنعة، وقال: «اكشفي رأسك ولا تشبهي بالحرائر»، وهذا اشتهر في الصحابة فلم ينكر فكان إجماعاً، ولأنها أمة فلم يجب عليها ستر رأسها كالتي لم تتزوج ولم يتسر بها سيدها»^(٢).

الرابعة: استحباب أخذ الزينة عند الصلاة وأنها قدر زائد على ستر العورة:

قال ابن رجب: «قال طائفة من العلماء: إن الآية تدل على أخذ الزينة عند المساجد، وذلك قدر زائد على ستر العورة، وإن كان ستر العورة داخلاً فيه، وهو سبب نزول الآيات، فإن كشف العورة فاحشة من الفواحش، وسترها من الزينة، ولكنه يشمل مع ذلك لبس ما يتجمل به ويتزين عند مناجاة الله وذكره ودعائه والطواف ببيته، ولهذا قال تعالى عقيب ذلك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾»^(٣)^(٤).

قال ابن كثير: «ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض»^(٥).

قال ابن بطال: «الثياب البيض من أفضل الثياب وهو لباس الملائكة الذين

(١) المغني (٢/ ٣٢٨-٣٣٠).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

(٣) الأعراف: الآية (٣٢).

(٤) فتح الباري (٣/ ٣٣٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٦).

نصروا النبي ﷺ يوم أحد وغيره، . . . وكان ﷺ يلبس البياض ويفضله، ويحضر على لباسه الأحياء، وأمر بتكفين الأموات فيه^(١).

وإنما كان اللباس الأبيض من خير الثياب وأطيبها: «لدلالته غالبًا على التواضع، وعدم الكبر والخيلاء والعجب، وسائر الأخلاق الطيبة»^(٢).

قال المناوي: «ولهذه الأظبية نُدبَ إيثارها في المحافل، كشهود جمعة وحضور مسجد ولقاء الملائكة، ولذلك فضلت في التكفين، كما قال: «وكفنوا فيها موتاكم»، ندبًا مؤكدًا»^(٣).

وقال ابن عثيمين: «وصدق النبي ﷺ، فإن الثوب الأبيض خير من غيره من جهة الإضاءة والنور، ومن جهة أنه إذا اتسخ أدنى اتساخ ظهر فيه، فبادر الإنسان إلى غسله، أما الثياب الأخرى فربما تتراكم فيها الأوساخ والإنسان لا يشعر بها ولا يغسلها، وإذا غسلها فلا يدري هل تنظفت أم لا؟ فلهذا قال النبي ﷺ: «إنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم» وهو شامل للباس الثياب البيض، القمص والأزر والسراويل، كلها ينبغي أن تكون من البياض فإنه أفضل، ولكن لو أنه لبس من لون آخر فلا بأس»^(٤).

* عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله ﷺ في ثوب دُون، فقال: ألك مال؟ قال: نعم. قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيول والرقيق. قال: فإذا آتاك الله مالا فليُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته»^(٥).

* غريب الحديث:

دُون: أي دنيء غير لائق بحالي من الغنى.

* عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة.

(١) شرح البخاري (٩/١٠٤).

(٢) قاله في «عون المعبود» (١١/١١٠-١١١).

(٣) فيض القدير (٢/١٥٦).

(٤) شرح رياض الصالحين (٧/٢٨٧).

(٥) أخرجه: أبو داود (٤/٣٣٣/٤٠٦٣)، والنسائي (٨/٥٦٣/٥٢٣٩).

قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبير بطر الحق وغمط الناس»^(١).

★ غريب الحديث:

مثقال ذرة: أي زنة ذرة. والذر: النمل الأحمر الصغير، واحدها ذرة. وسئل ثعلب عنها فقال: إن مائة نملة وزن حبة، والذرة واحدة منها. وقيل: الذرة ليس لها وزن، ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة.

بطر الحق: بطر الحق هو أن يجعل ما يجعله الله حقاً من عبادته وتوحيده باطلاً.

وقيل: هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقاً. وقيل: هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله.

غمط الناس: الغمط: الاستهانة والاستحقار، وهو كالغمص.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن القيم: «وقوله في الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال» يتناول جمال الثياب المسؤول عنه في نفس الحديث، ويدخل فيه بطريق العموم الجمال من كل شيء كما في.. الصحيح: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(٢)، وفي السنن: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٣)، وفيها عن أبي الأحوص الجشمي قال: «رأني النبي ﷺ وعلي أطمار، فقال: هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما أتى الله من الإبل والشاء، قال: فلتر نعمته وكرامته عليك»^(٤) فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة، والجمال الباطن بالشكر عليها، ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباساً وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم، فقال: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(٥)، وقال في أهل الجنة:

(١) أخرجه: أحمد (٣٩٩/١)، ومسلم (٩١/٩٣/١)، وأبو داود (٤٠٩١/٣٥١/٤) مختصراً، والترمذي (٤/١٩٩٩/٣١٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ؓ: أحمد (٣٢٨/٢)، ومسلم (١٠١٥/٧٠٣/٢)، والترمذي (٥/٢٠٥/٢٩٨٩).

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ: أحمد (١٨٢/٢)، والترمذي (٥/٢٨١٩/١١٤) وقال: «حديث حسن»، وصححه الحاكم (٤/١٣٥)، ووافقه الذهبي.

(٤) تقدم في أحاديث الباب. (٥) الأعراف: الآية (٢٦).

﴿وَلَقَدْ أَنشَأُوا فِصَالًا مِّنَ الْفِئَالِ صَبُؤًا بِمَا صَبَّوْا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾^(١)، فجعلهم وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسرور، وأبدانهم بالحرير، وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله، ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا: كل ما خلقه جميل، فهو يحب كل ما خلقه، ونحن نحب جميع ما خلقه، فلا نبغض منه شيئاً، قالوا: ومن رأى الكائنات منه رأها كلها جميلة، وأنشد منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوي الوجود مليح
واحتجوا بقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(٢)، وقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٣)، وقوله: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾^(٤)، والعارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال، ولا يرى في الوجود قبيحاً، وهؤلاء قد عدت الغيرة لله من قلوبهم، والبغض في الله، والمعاداة فيه، وإنكار المنكر، والجهد في سبيله، وإقامة حدوده، ويرى جمال الصور من الذكور والإناث، من الجمال الذي يحبه الله، فيتعبدون بفسقهم، وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر في تلك الصورة ويحل فيها، وإن كان اتحادياً، قال: هي مظهر من مظاهر الحق، ويسمونها المظاهر الجمالية،.. وقابلهم الفريق الثاني فقالوا: قد ذم الله سبحانه جمال الصور، وتمايم القامة والخلقة، فقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَتْهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيءًا﴾^(٦)؛ أي: أموالاً ومناظر، قال الحسن: هو الصور، وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٧)، قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، وإنما نفى نظر المحبة، قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير

(١) الإنسان: الآيتان (١١ و ١٢).

(٢) السجدة: الآية (٧).

(٣) النمل: الآية (٨٨).

(٤) الملك: الآية (٣).

(٥) المنافقون: الآية (٤).

(٦) مريم: الآية (٧٤).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/٢٨٥)، ومسلم (٤/١٩٨٦-١٩٨٧/٢٥٦٤ [٣٣-٣٤])، وابن

ماجه (٢/١٣٨٨/٤١٤٣).

والذهب، وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا، وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾^(١)، وفي الحديث: «البذاذة من الإيمان»^(٢) وقد ذم الله المسرفين، والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس، وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم، فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له كما كان النبي يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله، ونصر دينه وغيظ عدوه، والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة، والفخر والخيلاء، والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك، وأما ما لا يحمد ولا يذم، هو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين، والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصليين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك، فيعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه، في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة، والختان وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات بالجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك»^(٣).

* عن ابن عباس قال: «لما خرجت الحرورية أتيتُ علياً عليه السلام، فقال: ائت هؤلاء القوم. فلبست أحسن ما يكون من حُلل اليمن، قال أبو زميل: وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيراً. قال ابن عباس: فأتيتهم فقالوا: مرحباً بك يا ابن

(١) طه: الآية (١٣١).

(٢) أخرجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة الأنصاري عليه السلام: أبو داود (٤/٣٩٣-٣٩٤/٤١٦١)، وابن ماجه (٢/١٣٧٩/٤١١٨)، وصححه الألباني، انظر الصحيحة (٣٤١).

(٣) الفوائد (ص: ٢٣٧-٢٤٠) بتصرف.

عباس، ما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون عليّ؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل»^(١).

★ غريب الحديث:

جَهِيرًا: بفتح الجيم وكسر الهاء؛ أي: ذا منظر بهي. قال في «النهاية»: رجل جهير؛ أي: ذو منظر. وقال في «القاموس»: الجُهر، بالضم، هيئة الرجل بحسن منظره.

★ فوائد الحديث:

قال في «العون»: «واعلم أنه كان هديه ﷺ - كما قال الحافظ ابن القيم^(٢) - أن يلبس ما تيسر من اللباس، الصوف تارة، والقطن أخرى، والكتان تارة، ولبس البرود اليمانية، والبرد الأخضر، ولبس الجبة، والقباء، والقميص... إلى أن قال: «فالذين يمتنعون عما أباح الله من الملابس والمطاعم والمناكح ترهّدًا وتعبّدًا بإزائهم طائفة قابلوهم فلم يلبسوا إلا أشرف الثياب، ولم يأكلوا إلا أطيب وألين الطعام، فلم يروا لبس الخشن ولا أكله تكبرًا وتجبّرًا، وكلا الطائفتين مخالف لهدى النبي ﷺ»^(٣).

وقال الشوكاني في «النيل»: «إن الأعمال بالنيات، فلبس المنخفض من الثياب تواضعًا وكسرًا لسورة النفس التي لا يؤمن عليها من التكبر إن لبست غالي الثياب من المقاصد الصالحة الموجبات للمثوبة من الله، ولبس الغالي من الثياب عند الأمن على النفس من التسامي المشوب بنوع من التكبر لقصد التوصل بذلك إلى تمام المطالب الدينية من أمر بمعروف أو نهى عن منكر عند من لا يلتفت إلا إلى ذوي الهيئات كما هو الغالب على عوام زماننا وبعض خواصه؛ لاشك أنه من الموجبات للأجر لكنه لا بد من تقييد ذلك بما يحل لبسه شرعًا» انتهى^(٤).

(١) أبو داود (٤/٣١٧/٤٠٣٧). وهو عند ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/٩٦٢) بلفظ أطول من هذا،

وحسن إسناده الألباني رحمه الله [صحيح سنن أبي داود (٢/٧٦٢/٣٤٠٦)].

(٢) (٣/١١-٨٠-٨١).

(٣) انظر كلامه في «الزاد» (١/١٤٥).

(٤) (٢/١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

ولا تسرفوا: الإسراف والسرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر. ويقال تارة اعتباراً بالقدر، وتارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار، كما صح في الأحاديث الصحيحة، والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به، من طاعة أو سعي على نفسه أو على من يعول، مخالف لما أمر الله به، وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده، واقع في النهي القرآني، وهكذا من حرم حلالاً، أو حلّ حراماً، فإنه يدخل في المسرفين، ويخرج عن المقتصدين، ومن الإسراف الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع»^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾: قال محمد رشيد رضا: «هذا الأمر المقيد بما عطف عليه من النهي إرشاد عالٍ أيضاً، فيه صلاح للبشر في دينهم ومعاشهم ومعادهم، لا يستغنون عنه في وقت من الأوقات، ولا عصر من الأعصار، وكل ما بلغوه من سعة العلم في الطب وغيره لم يغنهم عنه؛ بل هو يغني المهتدي به في أمره ونهيه عن معظم وصايا الطب لحفظ الصحة.

والمعنى: خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات، وكلوا من الطيبات، واشربوا الماء وغيره من الأشربة النافعة المستلذات، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فيها، ولا

(١) الأعراف: الآية (٣١).

(٢) فتح القدير (٢/٢٨٨).

تعتدوا؛ بل الزموا الاعتدال .

﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي : إن ربكم الله الذي أنعم عليكم بهذه النعم لمنفعتكم ، لا يحب المسرفين في أمرهم ؛ بل يعاقبهم على الإسراف ، بقدر ما ينشأ عنه من المفسد والمضار ، فالنهي راجع إلى الثلاثة كما يأخذ من أكثر الروايات ، بل حذف المعمول يدل على العموم ، أي لا تسرفوا في هذه الأشياء ولا في غيرها ، ويؤيده تعليل النهي بأنه تعالى لا يحب جنس المسرفين ، أي لأنهم يخالفون سنته في فطرتهم ، وشريعته في هدايتهم ، بجنايتهم على أنفسهم في ضرر أبدانهم وضياع أموالهم ، وغير ذلك من مضار الإسراف الشخصية والمنزلية والقومية^(١) .

وقال ابن كثير : «قال بعض السلف : جمع الله الطب كله في نصف آية : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾»^(٢) .

قال السعدي : «جمع الله فيها - أي : هذه الآية - أمورًا كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل ، فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب ، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعًا ، كما لا يتمكن قدرًا ما دام عقله معه ، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة ؛ لأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الإباحة ، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لإطلاق ذلك ، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ، ويوافق لغناه وفقره ، ويوافق لصحته ومرضه ، ولعاداته وعدمها ؛ لأنه حذف المأكول ، والآية ساقها الله لإرشاد العباد إلى منافعهم ، وهي تدل على ذلك كله ، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء ، بأن يأكل ويشرب ما ينفعه ، ويقيم صحته وقوته ، وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن ؛ لأنه لما أمر بالأكل والشرب نهى عن السرف ، وعلى أن السرف منهى عنه ، وخصوصًا في الأطعمة والأشربة ، فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال :

أما ضرره الديني : فكل ما ارتكب ما نهى الله عنه ورسوله ، فقد انجرح دينه ، وعليه أن يداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع .

(١) تفسير المنار (٨ / ٣٨٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣ / ٤٠٦) .

وأما ضرره العقلي : فإن العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه ، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه ، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الإسراف الضار فلا ريب أن ذلك لنقص عقله ؛ فإنه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير .

وأما ضرره البدني : فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضرّ بدنه واعتراه أمراض خَطَرَة ، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء ، ثم إنه ينضرّ أيضًا من وجه آخر ؛ فإن من عوّد بدنه شيئًا اعتاده ، فإذا عوّده كثرة الأكل ، أو أكل الأطعمة المتنوعة ، فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره ، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتادًا له فتتحرف صحته .

وأما ضرره المالي : فظاهر ؛ فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ ^(١) ^(٢) .

قال القاسمي : «أثر عنه عليه السلام من بدائع الطب أصناف العلاج ، ما لم يؤثر عن نبي قط ، وللمحدثين في عهد السلف منه قسم كبير في جوامعهم ومساندهم ، وأما أعلام المتأخرين ، فقد اضطربهم وفرة ما روي في ذلك إلى تدوينه في أسفار مطولة ومختصرة بعنوان (الطب النبوي) ، وقد بين الإمام ابن القيم - عليه الرحمة - اشتغال التنزيل العزيز على أصول الطب ، والسنة المطهرة على بدائعه في كتابه (زاد المعاد) بيانًا يدهش الألباب ، وفوق كل ذي علم عليم» ^(٣) .

وقال الجصاص : «ظاهره - أي : قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ - يقتضي جواز أكل سائر المأكولات وشرب سائر الأشربة ، مما لا يحظره دليل ، بعد أن لا يكون مسرفًا فيما يأتيه من ذلك ؛ لأنه أطلق الأكل والشرب ، على شريطة أن لا يكون مسرفًا فيهما ، والإسراف هو مجاوزة حد الاستواء ، فتارة يكون بمجاوزة الحلال إلى الحرام ، وتارة يكون بمجاوزة الحد في الإنفاق ، فيكون ممن قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(٤) ، والإسراف وضده من الإقتار

(١) الإسراء : الآية (٢٩) .

(٢) تيسير اللطيف المنان (ص : ٤٣٦-٤٣٨) .

(٣) محاسن التأويل (٦١ / ٧) .

(٤) الإسراء : الآية (٢٧) .

مذمومان، والاستواء هو التوسط، ولذلك قيل: دين الله بين المقصر والغالي، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١)، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(٢)، وقد يكون الإسراف في الأكل أن يأكل فوق الشبع حتى يأديه إلى الضرر، فذلك محرم أيضًا^(٣).

قال السعدي: «إخباره أنه لا يحب المسرفين دليل على أنه يحب المقتصدين، ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله، وأنه تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها، فسبحان من جعل كتابه كنوزًا للعلوم النافعة المتنوعة»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في آداب الأكل والشرب

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا، وتصدقوا، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»^(٥).

★ غريب الحديث:

مخيلة: بفتح فكسر؛ أي: كبر وخيلاء.

★ فوائد الحديث:

قال الموفق عبداللطيف البغدادي: «هذا الحديث جامع لفصائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه أيضًا تدبير مصالح النفس والجسد والدنيا والآخرة، فإن الإسراف في كل شيء يضر بالمعيشة، إذ فيه الإتلاف، ويضر بالنفس حيث كانت تابعة للجسد في كثير من الأحوال، ولها أمراض تخصها، والمخيلة هي الخيلاء، وهي تضر بالنفس حيث تكسبها العجب، وإن كانت مخلوقة منه، وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم،

(١) الفرقان: الآية (٦٧).

(٢) الإسراء: الآية (٢٩).

(٣) أحكام القرآن (٣/٣٣).

(٤) تيسير اللطيف المنان (ص: ٤٣٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/١٨١-١٨٢)، والبخاري معلقاً (١٠/٣١٠)، والنسائي (٥/٨٣/٢٥٥٨)، وابن ماجه (٢/

١١٩٢/٣٦٠٥)، وحسن إسناده الألباني في «المشكاة» (٢/١٨٥٢).

وتضرر بالدنيا حيث تكسب المقت من الناس ، فمن برئ من الإسراف والخيلاء في تصرفاته وتدبيره وسياسته ، فقد برئ من العيوب كلها ، أو جلها»^(١) .

قال الطيبي : «ونفي السرف مطلقاً يستلزم نفي المخيلة ؛ فنفي المخيلة بعده للتأكيد واستيعاب ما يعرف منهما نحو قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهَا﴾^(٢)»^(٣) .

وقال القاري : «الظاهر أن الآية نظير الحديث لكون الانتهاز يشمل الأف . نعم مفهوم النهي النهي عن الانتهاز بالطريق الأولى ، وليس كذلك في الحديث ، بل الظاهر منه أن الإسراف متعلق بالكمية والمخيلة بالكيفية ، ولذا قيل : لا خير في سرف ولا سرف في خير»^(٤) .

* عن ابن عمر رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن يأكل في معي واحد ، وإن الكافر أو المنافق يأكل في سبعة أمعاء»^(٥) .

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي : «وهذا منه ﷺ حض على التقليل من الدنيا ، والزهد فيها ، والقناعة بالبلغة ، وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرتها ، كما قال قائلهم : تكفيه فلذة كبد إن ألم بها من الشواء ويروي شربه الغمر»^(٦) وقال حاتم الطائي يذم بكثرة الأكل :

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا
وقال الخطابي : «معنى قوله ﷺ : «المؤمن يأكل في معي واحد» أنه يتناول دون

(١) الأربعون الطيبة (ص : ٦٧) .

(٢) الإسراء : الآية (٢٣) .

(٣) شرح الطيبي (٩/ ٢٩١١) .

(٤) المرقاة (٨/ ١٧٦) .

(٥) أخرجه : أحمد (٢/ ٢١) ، والبخاري (٩/ ٦٦٩/ ٥٣٦٤) ، ومسلم (٣/ ١٦٣١/ ٢٠٦٠) ، والترمذي (٤/ ٢٣٤- ٢٣٥/ ١٨١٨) وقال : «حسن صحيح» ، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٨/ ٦٧٧١) ، وابن ماجه (٢/ ١٠٨٤/ ٣٢٦٧) .

(٦) أخرجه : البخاري (٩/ ٣١٧- ٣١٨/ ٥١٨٩) ، ومسلم (٤/ ١٨٩٦- ١٩٠٢/ ٢٤٤٨) ، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٥٤- ٣٥٦/ ٩١٣٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

شبعه، ويؤثر على نفسه، ويبقى من زاده لغيره، فيقنعه ما أكل، والتأويل الأول أولى، والله أعلم. وقيل في قوله ﷺ: «والكافر يأكل في سبعة أمعاء» ليس على عمومته؛ لأن المشاهدة تدفعه، فإنه قد يوجد كافر أقل أكلاً من مؤمن، ويسلم الكافر فلا يقل أكله ولا يزيد، وقيل: هو إشارة إلى معين، ضاف النبي ﷺ ضيفاً كافراً، يقال: إنه الجهجاه الغفاري، وقيل: ثمامة بن أثال، وقيل: نضلة بن عمرو الغفاري، وقيل: بصرة بن أبي بصرة الغفاري، فشرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم، فشرب حلاب شاة فلم يستتمه، فقال النبي ﷺ ذلك، فكأنه قال: هذا الكافر، والله أعلم، وقيل: إن القلب لما تنور بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوي على الطاعة، فأخذ منه قدر الحاجة، وحين كان مظلماً بالكفر، كان أكله كالبهيمة، ترتع حيث تثلط.

واختلف في هذه الأمعاء هل هي حقيقة أم لا؟ فقيل: حقيقة، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح، وقيل: هي كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النهم: يأكل للحاجة والخبر^(١) والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغنائاً، وقيل: المعنى: أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء، والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا معي واحد، فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله، والمعنى في هذا الحديث هو المعدة^(٢).

عن سلمان أنه أكره على طعام يأكله فقال: حسبي إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة»^(٣).

عن المقدام بن معدى كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث

(١) يريد بالخبر شهوة الأذن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢٤/٧).

(٣) أخرجه: ابن ماجه (١١١٢/٢) (٣٣٥١). وقال البوصيري: «في إسناده سعيد بن محمد الوراق الثقفي، ضعفه ووثقه ابن حبان والحاكم». وفي الباب عن ابن عمر: الترمذي (٤/٥٦٠/٢٤٧٨) وقال: «حديث غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (١١١١-١١١٢/٢) (٣٣٥٠). وفي الباب من حديث أبي جحيفة وابن عمرو وابن عباس. انظره في «السلسلة الصحيحة» (١/٦٧٢/٣٤٣).

لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب في شرح حديث المقدم بن معدي كرب: «وهذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها، وقد روي أن ابن ماسويه الطبيب، لما قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة، قال: لو استعمل الناس هذه الكلمات، سلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارستانات، ودكاكين الصيادلة، وإنما قال هذا لأن أصل كل داء التخم، كما قال بعضهم: أصل كل داء البردة - التخمة - وروي مرفوعاً ولا يصح رفعه»^(٢).

وفيه: «التحذير من الإكثار من الطعام والحث على القناعة فيه والاكتفاء بما يقيم صلب الإنسان؛ أي: ما يكفيه ويسد جوعه، ومما لا شك فيه عند كافة العقلاء والأطباء، أن الشره مضر بالصحة، مقعد بالمرء عن واجباته، ومثقل له عن وظائفه وأعماله، فإذا اعتاد المرء تقليل طعامه، عملاً بسنة النبي ﷺ، ووصاياه؛ كان أبعد عن الأسقام، وأقرب إلى الصحة والعافية»^(٣).

(١) أخرجه: أحمد (١٣٢/٤)، والترمذي (٥٠٩-٥١٠/٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦٧٦٨/١٧٧/٤)، وصححه الحاكم (١٢١/٤) ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (٤٤٩/٢/٤٤٩). (٦٧٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (٤١٨/٢).

(٣) إهداء الديباجة (٤٧٠/٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

★ غريب الآية:

حَرَّمَ: التحريم: أصله المنع، خلافة: التحليل. والحرام: الممنوع منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إن هذه الآية ظاهرها الاستفهام إلا أن المراد منه تقرير الإيثار والمبالغة في تقرير ذلك الإنكار، وفي الآية قولان: القول الأول: أن المراد من الزينة في هذه الآية: اللباس الذي تستر به العورة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وكثير من المفسرين. والقول الثاني: أنه يتناول جميع أنواع الزينة، فيدخل تحت الزينة جميع أنواع التزيين، ويدخل تحتها تنظيف البدن من جميع الوجوه، ويدخل تحتها المركوب، ويدخل تحتها أيضًا أنواع الحللي؛ لأن كل ذلك زينة، ولولا النص الوارد في تحريم الذهب والفضة والإبريسم على الرجال، لكان ذلك داخلًا تحت هذا العموم»^(١).

قال الشوكاني: «فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة، إذا لم يكن مما حرم الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة، ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطًا بيّنًا»^(٢).

قال القرطبي: «وإذا كان هذا فقد دلت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمل بها في الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الأخوان، قال أبو

(١) مفاتيح الغيب (٦٧/١٤).

(٢) فتح القدير (٢/٢٨٣).

العالية : كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا ، وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب : أنه رأى حلة سيرا تباع عند باب المسجد فقال : يا رسول الله ! لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة »^(١) ، فما أنكر عليه ذكر التجمل ، وإنما أنكر عليه كونها سيرا ، وقد اشترى تميم الداري حلة بألف درهم ، كان يصلي فيها ، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العذنية الجياد ، وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار ، أين هذا ممن يرغب عنه ، ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب ، ويقول : ولباس التقوى ذلك خير ، هيهات ، أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى ، لا والله ! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنهي ، وغيرهم أهل دعوى ، وقلوبهم خالية من التقوى ، قال خالد بن شاذب : شهدت الحسن وأتاه فرقد ، فأخذ الحسن بكسائه فمده إليه وقال ، يا فريقد ، يا بن أم فريقد ، إن البر ليس في هذا الكساء ، إنما البر ما وقر في الصدر وصدقته العمل . ودخل أبو محمد ابن أخي معروف الكرخي على أبي الحسن بن يسار ، وعليه جبة صوف ، فقال له أبو الحسن : يا أبا محمد ، صوفت قلبك أو جسمك ؟ صوف قلبك ، والبس القوهي على القوهي ، وقال رجل للشبلي : قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع ، فمضى فرأى عليهم المرقعات والفوط ، فأنشأ يقول :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائه
قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه :

أحدها : أنه ليس من لبس السلف ، وإنما كانوا يرقعون ضرورة .

والثاني : أنه يتضمن ادعاء الفقر ، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه .

والثالث : إظهار التزهّد ، وقد أمرنا بستره .

والرابع : أنه تشبه بهؤلاء المتزحزين عن الشريعة ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وقال الطبري : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان ،

(١) أخرجه : أحمد (١٠٣/٢) ، والبخاري (٩٤٨/٥٥٨/٢) ، ومسلم (٢٠٦٨/١٦٣٨/٣) ، وأبو داود (٣٢٠/٤) ، (٤٠٤٠) ، والنسائي (٥٣١٤/٥٨٤/٨) ، وابن ماجه (١١٨٧-١١٨٨/٣٥٩١) .

مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعدس، واختاره على خبز البر، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض شهوة النساء، وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف، فشق عليه وتبينت الكراهة في وجهه، ثم قال: لبس الخز والمعصر أحب إلي من لبس الصوف في الأمصار.

وقال أبو الفرج: وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد، وللقاء الإخوان، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحاً، وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه منهى عنه، فإن قال قائل: تجويد اللباس هوى النفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزين للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق، فالجواب: ليس كل ما تهواه النفس يذم، وليس كل ما يتزين به للناس يكره، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو على وجه الرياء في باب الدين، فإن الإنسان يحب أن يرى جميلاً، وذلك حظ للنفس لا يُلام فيه، ولهذا يسرح شعره، وينظر في المرأة، ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم، . . . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة»^(٢).

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الطيبات: اسم عام لما طاب كسباً وطعمًا، قال ابن عباس وقتادة: يعني بالطيبات من الرزق: ما حرم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي، وقيل: هي كل مستلذ من الطعام، وقد اختلف في ترك الطيبات والإعراض عن اللذات، فقال قوم: ليس ذلك من القربات، والفعل والترك يستوي في المباحات، وقال آخرون: ليس قرينة في ذاته، وإنما هو سبيل إلى الزهد في الدنيا، وقصر الأمل فيها، وترك التكلف لأجلها،

(١) تقدم تخريجه في تفسير الآية السابقة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/١٩٦-١٩٨).

وذلك مندوب إليه، والمندوب قرينة، وقال آخرون: ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو شئنا لاتخذنا صلاء وصلاتك وصنابًا، ولكني سمعت الله تعالى يذم أقوامًا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾^(١)، ويروى صرائق بالراء، وهما جميعًا الجرادق، والصلائق باللام، ما يلصق من اللحوم والبقول، والصلاء بكسر الصاد والمد، الشواء، والصناب الخردل بالزبيب، وفرق آخرون بين حضور ذلك كله بكلفة وبغير كلفة، قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي شيخ أشياخنا: وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل، فإنه لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه امتنع من طعام لأجل طيبه قط، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ، والرطب، وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة، والله تعالى أعلم، قلت: وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات، واحتج بقول عمر رضي الله عنه: إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر، والجواب: أن هذا -من عمر- قول خرج على من خشي منه إثارة التمتع في الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشفاء النفس من اللذات، ونسيان الآخرة، والإقبال على الدنيا، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله: إياكم والتنعيم، وزى أهل العجم، واخشوشنوا، ولم يرد رضي الله عنه تحريم شيء أحله الله، ولا تحظر ما أباحه الله تبارك اسمه، وقول الله عز وجل أولى ما امتثل واعتمد عليه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. . . وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم: «كان يأكل الطبيخ بالرطب، ويقول: يكسر حر هذا برد هذا، وبرد هذا حر هذا»^(٢)، والطبيخ لغة في البطيخ، وهو من المقلوب. وقد مضى في (المائدة) الرد على من أثر أكل الخشن من الطعام، وهذه الآية ترد عليه وغيرها، والحمد لله»^(٣).

قوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾:

قال القرطبي: «(خالصة) بالرفع، وهي قراءة ابن عباس ونافع، ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ

(١) الأحقاف: الآية (٢٠).

(٢) أخرجه: أبو داود (٣٨٣٦/١٧٦/٤)، والترمذي (٢٤٦-٢٤٧/٢٤٧/١٨٣٤) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦٧٢٢/١٦٦/٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩٨-١٩٩/٧).

الْقِيَمَةُ ﴿٣٢﴾ أي: يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء، كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها، ومجاز الآية: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ مشتركة في الدنيا مع غيرهم، وهي للمؤمنين ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ف(خالصة) مستأنف على خبر مبتدأ مضمرة، وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد، وقيل: المعنى: أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا، هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا، وخلصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون، فقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿آمَنُوا﴾، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير، وقرأ الباقر بالنصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تم دونه»^(١).

قوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : كما بينت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة، والحلال من المطاعم والمشارب، والحرام منها، وميزت بين ذلك لكم أيها الناس، كذلك أبين جميع أدلتي وحججي، وأعلام حلالتي وحرامي وأحكامي، لقوم يعلمون ما يبين لهم، ويفقهون ما يميز لهم»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على سعة دين الإسلام ورحمة الله بعباده حيث حرم عليهم ما يضرهم وأباح لهم ما ينفعهم

★ سبب نزول الآية:

✽ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة، على فرجها خرقة، هي تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾»^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٩-٢٠٠). (٢) جامع البيان (٨/ ١٦٦).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٩/ ٢٤١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٣)، والحاكم (٢/ ٣١٩-٣٢٠) واللفظ له، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصحح الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٣١٠) إسناد الطبري.

★ فوائد الأثر:

في هذا الأثر من الفوائد: أن هذه الآية نزلت بسبب طواف المشركين بالبيت عراة.

قال الحافظ: «وأخرج الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد جياد عن أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء وغيرهما نحوه، وكذا عن إبراهيم النخعي والسدي والزهري وقتادة وغيرهم، أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت وهم عراة»^(١).
تنبيه:

قد تقدم أن قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾^(٢) الآية، نزل لنفس السبب، قال السيوطي: «ولا إشكال في ذلك، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة»^(٣).
قال مقبل بن هادي الوادعي: «لعل الآيتين نزلتا معاً لهذا السبب، والله أعلم»^(٤).

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا، وتصدقوا، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»^(٥).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مخيلة»^(٦).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»^(٧).

(٢) الأعراف: الآية (٣١).

(١) فتح الباري (١٠/٣١٠).

(٣) الإتيان (١/٩٧).

(٤) الصحيح المسند من أسباب النزول (ص: ١٠٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/١٨١-١٨٢)، والبخاري معلقاً (١٠/٣١٠)، والنسائي (٥/٨٣/٢٥٥٨)، وابن ماجه (٢/١١٩٢/٣٦٠٥)، وحسن إسناده الألباني في «المشكاة» (٢/١٨٥٢).

(٦) علقه البخاري في صحيحه في «كتاب اللباس» (١٠/٣١٠) بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي شيبة (٥/١٧١/٢٤٨٧٨)، وعبد الرزاق (١١/٢٧٠/٢٠٥١٥)، وابن جرير (١٢/٣٩٤/١٤٥٢٩ شاكر)، والدينوري في «المجالسة» (٤/٤٠٦-٤٠٧/١٦٠١).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/٦٧)، والبخاري (١٠/٣١٠/٥٧٨٣)، ومسلم (٣/١٦٥١/٢٠٨٥)، وأبو داود (٤/٣٤٥/٤٠٨٥)، والترمذي (٤/١٩٥/١٧٣٠).

★ غريب الحديث:

سرف: من الإسراف، وهو التبذير لغير حاجة أو في غير طاعة الله.
مخيلة: وهي معنى الخيلاء، وفيه البطر والكبر والزهو والتبخر وكلها بمعنى واحد.

★ فوائد الأحاديث:

ترجم البخاري لهذه الأحاديث بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، وغرضه من ذلك بيان أن جميع أنواع الزينة مباح مأذون فيه، إلا ما خصه الدليل، كالخيلاء والمخيلة في اللباس، التي تجتمع أحاديث هذا الباب على النهي عنها.

قال ابن عبد البر: «الخيلاء: التكبر، وهي الخيلاء، والمخيلة: يقال منه: رجل خال ومختال: شديد الخيلاء، وكل ذلك من البطر والكبر. والله لا يحب المتكبرين، ولا يحب كل مختال فخور.

وهذا الحديث يدل على أن من جر إزاره من غير خيلاء ولا بطر أنه لا يلحقه الوعيد المذكور. غير أن جر الإزار والقميص، وسائر الثياب، مذموم على كل حال. وأما المستكبر الذي يجر ثوبه فهو الذي ورد فيه ذلك الوعيد الشديد.

يروى عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدة منهما أدخلته النار»^(١).

روى كريب بن إبراهيم عن أبي ریحانة، سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل شيء من الكبر الجنة»^(٢).

وترك التكبر واجب فرضاً وهيئة اللباس سنة.

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢٤٨/٢)، وأبو داود (٣٥٠-٣٥١/٤)، وابن ماجه (١٣٩٧/٢)، وأبو حنبل (٣٥-٣٦/٢)، والحاكم (٦١/١) وصححه على شرط مسلم، من حديث أبي هريرة ر. وأخرجه مسلم (٢٠٢٣/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ر.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣-١٣٤/٤). قال الهيثمي في المجمع (٣١١/٢): «رواه أحمد ورجاله ثقات». وانظر الصحيحة (١٦٢٦).

قال ﷺ: «إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا جناح عليه فيما بين ذلك إلى الكعبين، ما أسفل من ذلك ففي النار»^(١).

يعني أن هذا مستحق من فعل ذلك وهو عالم بالنهي، مستخف بما جاءه عن نبيه ﷺ، وإن عفا الله عنه، فهو أهل العفو، وأهل المغفرة.

ومما يدل على أن جر الإزار مذموم على كل حال: ما ذكره أبو زرعة، قال: حدثنا محمد بن أبي عمر عن سفيان بن عيينة أنه أخبرهم عن زيد بن أسلم، قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول لابن ابنه عبد الله بن واقد: يا بني! ارفع إزارك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء»^(٢).

ألا ترى أن ابن عمر لم يقل لابن ابنه: هل تجره خيلاء؟ بل أرسل ذلك إرسالاً خوفاً منه أن يكون ذلك خيلاء، ولو صح أنه ليس خيلاء لديه إن شاء الله»^(٣).

وقال أيضاً: «وقد ظن قوم أن جر الثوب إذا لم يكن خيلاء، فلا بأس به. واحتجوا لذلك بما حدثناه عبد الله بن محمد بن أسد، قال: حدثنا سعيد بن عثمان بن السكن، قال: حدثنا محمد بن يوسف، قال: أخبرنا البخاري، قال أخبرنا ابن مقاتل، قال أخبرنا عبد الله، قال: أخبرنا موسى بن عقبة عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، فقال أبو بكر: إن أحد شقي ليسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء»^(٤).

قال موسى قلت لسالم: أذكر عبد الله من جر إزاره؟ قال: لم أسمع إلا ذكر ثوبه. وهذا إنما فيه: إن أحد شقي ثوبه يسترخي لا أنه تعمد ذلك خيلاء. فقال له رسول الله ﷺ: لست ممن يرضى ذلك، ولا يتعمده، ولا يظن بك ذلك»^(٥).

قال الحافظ: «قال ابن العربي: لا يجوز للرجل أن يجاوز بثوبه كعبه ويقول:

(١) أخرجه: أحمد (٥/٣)، وأبو داود (٤/٣٥٣/٤٠٩٣)، وابن ماجه (٢/١١٨٣/٣٥٧٣)، وابن حبان (١٢/٢٦٢-٢٦٣/٥٤٤٦-٥٤٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) فتح البر (٣/٥٩٦-٥٩٧).

(٤) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/٦٧)، والبخاري (٦/٢٢/٣٦٦٥)، وأبو داود (٤/٣٤٥-٣٤٦/٤٠٨٥)، والنسائي (٨/٥٩٧/٥٣٥٠).

(٥) فتح البر (٣/٥٩٩).

لا أجره خيلاء؛ لأن النهي قد تناوله لفظًا، ولا يجوز لمن تناوله اللفظ حكمًا أن يقول: لا أمثله لأن تلك العلة ليست فيَّ، فإنها دعوى غير مسلمة، بل إطالته ذيله دالة على تكبره. اهـ ملخصًا. وحاصله أن الإسبال يستلزم جر الثوب، وجر الثوب يستلزم الخيلاء، ولو لم يقصد اللابس الخيلاء^(١).

(١) فتح الباري (١٠/٣٢٤).

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ
وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا
لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

★ غريب الآية :

الفواحش : جمع فاحشة ، وهي ما عظم قبحه . وقيل : هي كل ما نهى الله عنه .
وقد تفحش وتفاحش .

الإثم : الذنب . وقيل : الإثم والآثام : اسم للأفعال البطيئة عن الخيرات ؛
لتضمنه معنى البطء . ويسمى الخمر إثماً ؛ قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول
لأنها سبب فيه . وقولهم : تأثم ؛ أي : خرج من الإثم .

البغي : الاستطالة على الناس والكبر . والبغي : التعدي وتجاوز الحد ، كان
الإنسان مبتدياً بذلك أو منتصراً متجاوزاً للحد في الانتصار .
سلطاناً : السلطان : البرهان والحجة التي يثبت بها الأمر .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال إلكيا الهراسي : «جمعت الآية المحرمات ، كما جمع ما قبلها المحلات
في قوله : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ مع ما فيه من
تحريم الإسراف فيه ، ولما حرم المحرمات نبه على اتباع الحجج والأدلة ، لكي
يكون المكلف متحرزاً في أمر دينه ودنياه»^(١) .

قال ابن القيم : «ودخل في قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٣٩) .

تحريم كل فاحشة ظاهرة وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله وإن دق في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عدلاً بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط، أو خبر عنه باسم أو صفة نفياً أو إثباتاً، أو خبراً عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام، في أفعاله وصفاته ودينه^(١).

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: «فيه ستة أقوال: أحدها: أن المراد به الزنى، ما ظهر منه: علانيته، وما بطن: سره، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والثاني: أن ما ظهر: نكاح الأمهات، وما بطن: الزنى، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال علي بن الحسين، والثالث: أن ما ظهر: نكاح الأبناء نساء الآباء، والجمع بين الأختين، وأن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، وما بطن: الزنى، روي عن ابن عباس أيضاً، والرابع: أن ما ظهر: الزنى، وما بطن: العزل، قاله شريح، والخامس: أن ما ظهر: طواف الجاهلية عراة، وما بطن: الزنى، قاله مجاهد، والسادس: أنه عام في جميع المعاصي^(٢).

قلت: وهذا الأخير هو الصحيح؛ قال ابن عطية: «فقوله هنا: الفواحش، إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في مواضع أخرى، فكل ما حرمه الشرع فهو فاحش، وإن كان العقل لا ينكره، كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يجمع النوع كله؛ لأنه تقسيم لا يخرج عنه شيء، وهو لفظ عام في جميع الفواحش، وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك، بأن قال: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الطواف عرياناً، والبواطن: الزنى، وقيل غير هذا، مما يأتي على طريق المثال، و﴿وَمَا﴾ بدل من الفواحش، وهو بدل بعض من كل، ومجموع القسمين يأتي بدل الشيء من الشيء، وهو هو، ﴿وَالْإِثْمَ﴾ أيضاً لفظه عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم، هذا قول الجمهور، وقال بعض الناس: هي الخمر، واحتج على ذلك بقول الشاعر:

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٣٤).

(٢) زاد المسير (٣/ ١٢٩).

شربت الإثم حتى طار عقلي

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مكية، ولم تكن الشريعة لتحريم الخمر إلا بالمدينة، بعد أحد؛ لأن جماعة من الصحابة اصطبحوها يوم أحد، وماتوا شهداء وهي في أجوافهم، وأيضاً فبيت الشعر يقال: إنه مصنوع مختلق، وإن صح فهو على حذف مضاف، وكأن ظاهر القرآن على هذا القول، أن تحريم الخمر من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾^(١)، وهو في هذه الآية قد حرم، فيأتي من هذا أن الخمر إثم، والإثم محرم فالخمر محرمة، قال القاضي أبو محمد: ولكن لا يصح هذا؛ لأن قوله: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ﴾ لفظ محتمل أن يراد به أنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراء وقتل النفس وغير ذلك آثام، فكأنه قال في الخمر هذه الآثام؛ أي: هي بسببها ومعها، وهذه الأشياء محرمة لا محالة، وخرجت الخمر من التحريم على هذا، ولم يترتب القياس الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه، ويعضد هذا أنا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ﴾ وفي بعض الأحاديث، فتركها قوم للإثم الذي فيها، وشربها قوم للمنافع، وإنما حرمت الخمر بظواهر القرآن، ونصوص الأحاديث وإجماع الأمة.

﴿وَالْبَغْيَ﴾ التعدي وتجاوز الحد، كان الإنسان مبتدياً بذلك أو منتصراً، فإذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ، وقوله: ﴿يَغْيِرُ الْحَقَّ﴾ زيادة بيان، وليس يتصور بغى بحق؛ لأن ما كان بحق فلا يسمى بغياً^(٢).

قال القرطبي: «وأخرج الإثم والبغى من الفواحش، وهما منه لعظمهما وفحشهما، فنص على ذكرهما تأكيداً لأمرهما، وقصدًا للزجر عنهما، وكذا ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا﴾، و﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾، وهما في موضع نصب عطفاً على ما قبل^(٣).

(١) البقرة: الآية (٢١٩).

(٢) المحرر الوجيز (٢/٣٩٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٠١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في إثبات صفة الغيرة لله تعالى

✽ عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله»^(١).

✽ غريب الحديث:

أغير: يجوز فيها الرفع والنصب، والغيرة صفة لله تعالى ينبغي إثباتها له من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، كما هو منهج السلف الصالح في كل الصفات، الذاتية والفعلية.

✽ عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عباد: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله»^(٢).

✽ غريب الحديث:

غيرة: الغيرة: بفتح الغين، وأصلها المنع، والرجل غيور على أهله؛ أي: يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره.

✽ فوائد الحديثين:

قال شيخ الإسلام: «جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين وصفه سبحانه بأكمل المحبة للممادح، وأكمل البغض للمحارم،.. فقد أخبر النبي ﷺ: «لا أحد أغير

(١) أخرجه: أحمد (٣٨١/١)، والبخاري (٣٩٨/٩)، ومسلم (٢١١٣/٤)، والترمذي (٥/٥٠٧)، والنسائي في الكبرى (١١١٨٣/٣٤٥/٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٤٨/٤)، والبخاري (٢١٣/١٢)، ومسلم (١١٣٦/٢)، وأخرجه من غير ذكر موضع الشاهد: مسلم (١١٣٥/٢)، وأبو داود (٦٧٠-٦٧١/٤)، وابن ماجه (٢٦٠٥/٨٦٨/٢).

من الله» وقال: «غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه»^(١)، وهذا يعم جميع المحرمات، وقال: «ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»، فهذا تخصيص لغيرته من الفواحش، وكذلك في حديث عائشة: «لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته»^(٢)، فهذه الغيرة من الفواحش، وكذلك عامة ما يطلق من الغيرة، إنما هو من جنس الفواحش، وبين النبي ﷺ أنه أغير من غيره من المؤمنين وأن المؤمن يغار والله يحب الغيرة، وذلك في الريبة، ومن لا يغار فهو ديوث، وقد جاء في الحديث: «لا يدخل الجنة ديوث»^(٣)، فالغيرة المحبوبة هي ما وافقت غيرة الله تعالى، وهذه الغيرة هي أن تنتهك محارم الله، وهي أن تؤتى الفواحش الباطنة والظاهرة، لكن غيرة العبد الخاصة، هي أن يشركه الغير في أهله، فغيرته من فاحشة أهله ليست كغيرته من زنى الغير؛ لأن هذا يتعلق به، وذاك لا يتعلق به إلا من جهة بغضه لمبغضة الله»^(٤).

قال النووي: «أخبر ﷺ بأن سعدًا غيور، وأنه أغير منه، وأن الله أغير منه ﷺ وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش، فهذا تفسير لمعنى غيرة الله تعالى؛ أي: أنها منعه ﷺ الناس من الفواحش»^(٥).

قال الغنيان معلقًا على كلام النووي: «ليس هذا هو غيرة الله تعالى، ولكن مقتضى الغيرة، كما يوضحه قوله: ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش، فبين أن تحريم الفواحش والمنع منها ليس هو الغيرة، وإنما هو من آثارها»^(٦).

وفيهما من الفوائد: ما يدل على إثبات صفة الغيرة لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظمته سبحانه، قال الغنيان: «وغيرة الله تعالى من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته، مثل

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٣٨٧/٢)، والبخاري (٣٩٨-٣٩٩/٩)، ومسلم (٥٢٢٣/٤)، والترمذي (٢٧٦١/٢١١٤).

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (١٦٤/٦)، والبخاري (٦٧٢-٦٧٣/٢)، ومسلم (٦١٨/٢) [١٩٠١]. وأخرجه مختصراً دون ذكر الشاهد: أبو داود (١١٩١/٧٠٣)، والنسائي بأطول منه دون ذكر

الشاهد أيضاً (١٤٨-١٤٩/٣). (٣) سيأتي تخريجه في تفسير سورة (النور).

(٤) الاستقامة (٧-٣/٢) بتصرف. (٥) شرح النووي (١١١/١٠).

(٦) شرح كتاب التوحيد (٣٣٦/١).

الغضب والرضى ونحو ذلك، من خصائصه التي لا يشاركه المرء فيها، وقد تقرر أنه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته وكذلك في صفاته وأفعاله، ولكن لا بد من الاشتراك في ألفاظ الأسماء التي تضاف إلى الله صفات له، وبين ألفاظ الأسماء التي يوصف بها العباد؛ لأنه لا يمكن معرفة ما غاب عنا، إلا بمعرفة ما شهدناه، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد^(١).

(١) شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٣٠-٣٣١).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)

★ غريب الآية:

أُمَّة: الأمة: الجماعة من الناس يجمعهم أمر ما، من دين أو لغة أو زمان أو مكان واحد، إما اختياراً أو قهراً. والجمع: أُمَمٌ.
أجل: الأجل: المدة المضروبة، ومنه أجل الإنسان؛ أي: عُمره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مهدياً للمشركين الذين أخبر -جل ثناؤه- عنهم أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، ووعيداً منه لهم على كذبهم عليه، وعلى إصرارهم على الشرك به، والمقام على كفرهم، ومذكراً لهم ما أحل بأمثالهم من الأمم الذين كانوا قبلهم، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يقول: ولكل جماعة اجتمعت على تكذيب رسل الله، ورد نصائحهم، والشرك بالله مع متابعة ربهم حججه عليهم، ﴿أَجَلٌ﴾ يعني: وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثلاث بهم على شركهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم وحلول العقاب بهم، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يقول: لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يتمتعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم، وحين حلول أجل فنائهم ساعة من ساعات الزمان، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يقول: ولا يتقدمون بذلك أيضاً عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتاً للهلاك»^(١).

وقال الرازي: «اعلم أن الأجل هو الوقت المؤقت المضروب لانقضاء المهلة، وفي هذه الآية قولان: القول الأول: وهو قول ابن عباس والحسن ومقاتل: أن

(١) جامع البيان (٨/١٦٧).

المعنى: أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة. والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه. والقول الأول أولى لأنه تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولم يقل: ولكل أحد أجل، لأن الأمة هي الجماعة في كل زمان، ومعلوم من حالها التقارب في الأجل؛ لأن ذكر الأمة في ما يجري مجرى الوعيد أفحم، وأيضاً فالقول الأول يقتضي أن يكون لكل أمة من الأمم وقت معين في نزول عذاب الاستئصال عليهم، وليس الأمر كذلك لأن أمتنا ليست كذلك^(١).

قال ابن عطية: «كأنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تعارض؛ لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا، والوعيد بمعالجة إن كفروا... والحق مذهب أهل السنة أن كل أحد إنما هو بأجل واحد، لا يتأخر عنه ولا يتقدم، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالى أنه يكفر فيعاجل، وذلك هو أجله المحتوم، ومنه من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين، فندب الكل إلى طريق النجاة، وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها، فكأنه يقول: فإن آمنتم علمنا أنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأجل المؤخر، وإن كفرتم علمنا أنه ممن قضى له بالأجل المعجل بالكفر... وعلى هذا الحد هو دعاء محمد ﷺ العالم إلى طريق الجنة، وقد علم أن منه من يكفر فيدخل النار، وكذلك هو أمر الأسير، يقال له: إما أن تؤمن فتترك وإلا قتلت^(٢).

قال القرطبي: «فدل بهذا على أن المقتول إنما يقتل بأجله، وأجل الموت هو وقت الموت، كما أن أجل الدين هو وقت حلوله، وكل شيء وقت به شيء فهو أجل له، وأجل الإنسان هو الوقت الذي يعلم الله أنه يموت الحي فيه لا محالة، وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لا من حيث إنه ليس مقدوراً تأخيره. وقال كثير من المعتزلة إلا من شذ منهم: إن المقتول مات بغير أجله الذي ضرب له، وأنه لو لم

(١) مفاتيح الغيب (٧٢/١٤).

(٢) المحرر الوجيز (٣٩٦/٢).

يقتل لحيي، وهذا غلط؛ لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عند الضرب له، فإن قيل: فإن مات بأجله فلم تقتلون ضاربه وتقتصون منه؟ قيل له: نقتله لتعديه، وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيه، لا لموته وخروج الروح، إذ ليس ذلك من فعله، ولو ترك الناس والتعدي من غير قصاص، لأدى ذلك إلى الفساد ودمار العباد، وهذا واضح^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان أسباب بسط الرزق والزيادة في العمر

* عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره؛ فليَصِلْ رحمه»^(٢).

★ غريب الحديث:

يُنْسَأُ: مهموز؛ أي: يُؤَخَّرُ.

أثره: الأثر: الأجل؛ لأنه تابع للحياة في أثرها.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور: وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وأجاب العلماء بأجوبة:

.. منها: أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

والثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة، إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون، وقد علم الله ﷻ ما سيقع له من ذلك، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١٥٦-٢٢٩-٢٦٦)، والبخاري (١٠/٥٠٩/٥٩٨٦)، ومسلم (٤/١٩٨٢/٢٥٥٧)، وأبو داود (٢/٣٢١/١٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٣٨/١١٤٢٩).

مَا يَشَاءُ وَيُتَّبِعُ^(١) فيه النسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره، ولا زيادة، بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة، وهو مراد الحديث.

والثالث: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يمت، حكاه القاضي، وهو ضعيف أو باطل، والله أعلم^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والأجل أجلان: (أجل مطلق) يعلمه الله، (وأجل مقيد). وبهذا يتبين معنى قوله ﷺ: «من سرّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصِلْ رحمه»؛ فإن الله أمر الملك أن يكتب له أجلاً، وقال: «إن وصل رحمه زدته كذا وكذا»، والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر^(٣).

وسياتي مزيد بيان لهذا المبحث عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ من سورة (الرعد). وقد بسط القول في هذا المبحث صديق حسن خان في «فتح البيان»^(٤) عند هذه الآية من سورة (الأعراف)، فليراجعه من شاء فإنه مفيد.

* * *

(١) الرعد: الآية (٣٩).

(٢) شرح مسلم (٩٣/١٦) بتصرف يسير.

(٣) مجموع الفتاوى (٥١٧/٨).

(٤) (٣٥٢-٣٣٩/٤).

قوله تعالى : ﴿يَبْنِيْءَ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾﴾

★ غريب الآية:

يقصون عليكم آياتي : أي : يتلون عليكم فرائضي وأحكامي . والقصاص : إتباع الحديث بعضه بعضًا .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - ، معرّفًا خلقه ما أعدّ لحزبه ، وأهل طاعته ، والإيمان به وبرسوله ، وما أعدّ لحزب الشيطان وأوليائه ، والكافرين به وبرسوله : ﴿يَبْنِيْءَ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ يقول : إن يجئكم رسلي الذين أرسلهم إليكم بدعائكم إلى طاعتي ، والانتهااء إلى أمري ونهيي ، ﴿مِّنْكُمْ﴾ يعني : من أنفسكم ، ومن عشائركم وقبائلكم ، ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ يقول : يتلون عليكم آيات كتابي ، ويعرّفونكم أدلتي وأعلامي على صدق ما جاؤوكم به من عندي ، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي ، ﴿فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ يقول : فمن آمن منكم بما أتاه به رسلي مما قص عليه من آياتي ، وصدق واتقى الله ، فخافه بالعمل بما أمره به ، والانتهااء عما نهاه عنه ، على لسان رسوله ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ يقول : وأصلح أعماله التي كان لها مفسدًا قبل ذلك من معاصي الله بالتحوّب منها ، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يقول : فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله إذا وردوا عليه ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها ، وشهواتهم التي تجنبوها ؛ اتباعًا منهم لنهي الله عنها إذا عاينوا من كرامة الله ما عاينوا هنالك . . .

فإن قال قائل : ما جواب قوله : ﴿إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ ؟

قيل : قد اختلف أهل العربية في ذلك ، فقال بعضهم في ذلك : الجواب مضمّر ، يدل عليه ما ظهر من الكلام ، وذلك قوله : ﴿فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ وذلك لأنه حين قال : ﴿فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ كأنه قال : فاطيعوهم .

وقال آخرون منهم: الجواب: ﴿فَمَنْ أَتَقَى﴾؛ لأن معناه: فمن اتقى منكم وأصلح، قال: ويدل على أن ذلك كذلك تبغيضه الكلام، فكان في التبغيض اكتفاء من ذكر (منكم)»^(١).

قال الرازي: «اختلف العلماء في أن المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف وحزن عند أهوال يوم القيامة. فذهب بعضهم إلى أنه لا يلحقهم ذلك، والدليل عليه هذه الآية، وأيضاً قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾»^(٢)، وذهب بعضهم إلى أنه يلحقهم ذلك الفزع؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾»^(٣)؛ أي: من شدة الخوف.

وأجاب: هؤلاء عن هذه الآية: بأن معناه أن أمرهم يؤول إلى الأمن والسرور، كقول الطبيب للمريض: لا بأس عليك؛ أي: أمرك يؤول إلى العافية والسلامة، وإن كان في الوقت في بأس من علته»^(٤).



(١) جامع البيان (٨/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) الأنبياء: الآية (١٠٣).

(٣) الحج: الآية (٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٧٤).

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - جل ثناؤه - : وأما من كذب بأنباء رسلي التي أرسلتها إليه ، وجحد توحيدى ، وكفر بما جاء به رسلي ، واستكبر عن تصديق حججى وأدلتى ، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يقول : هم في نار جهنم ما كثون ، لا يخرجون منها أبداً»^(١).

وقال محمد رشيد رضا : «الاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبراً وعناداً لمن جاء بها أن يكون إماماً متبوعاً للمستكبرين ؛ لأنهم يرون أنفسهم فوقه ، أو أقوامهم فوق قومه ، أو يحبون أن يروا الناس ويوهموهم ذلك ، فرؤساء قريش المستكبرون منهم من كان يرى من الضعة والمهانة أن يكون مرؤوساً للنبي ﷺ نفسه ؛ لأنهم أكثر منه مالاً وأعز نفراً ، أو أكبر سنّاً ، فيرون أنهم أحق بالرياسة ، وكان من هؤلاء بعض عشيرته بني هاشم ، ومنهم من كان يستكبر أن يتبع رجلاً من بني هاشم كأبي جهل وأبي سفيان ، وآخرين مات بعضهم على الكفر ودان بعضهم بالإسلام بعد ظهوره . ولم يكن في غير قريش من العرب من يستكبر أن يتبع رجلاً منهم إلا بالتبع لعدم اتباعهم هم له ، ولكن أحبار اليهود استكبروا عن اتباعه لأنه عربي وهم يرون أن النبوة يجب حصرها فيهم ؛ كما تقدم في سورة (البقرة) . وكذلك أمراء المجوس ، ورؤساء دينهم إذ كانوا يحتقرون العرب كافة إلا من هدى الله من الفريقين . ولا يزال بعض الشعوب يأبى الاهتداء بالإسلام استكباراً عن اتباع أهله ؛ بل نرى بعض غلاة العصبية الجنسية المرتدين عن الإسلام من الترك كذلك ؛ حتى نقلت صحف الأخبار عن بعضهم أنه قال : إن قومه يستنكفون أن يتسفلوا لاتباع

الخلفاء الراشدين! بل قال ما هو أكبر من ذلك إثماً!!

والمعنى: أن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا، واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسداً له على الرياسة، وتفضيلاً لأنفسهم عليه، أو لقومهم على قومه؛ فأولئك ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الذين يخلدون فيها، لا كالذين يعذبون فيها زمناً معيناً على ذنوب اقترفوها.

وجملة القول في هاتين الآيتين أن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتباعهم في اتقاء ما يفسد فطرتهم من الشرك وخرافات الرذائل والمعاصي، وفي إصلاح أعمالهم بالطاعات؛ يترتب عليه الأمن من الخوف من كل ما يتوقع والحزن على كل ما يقع، إما مطلقاً، وإما بالنسبة إلى غير المؤمنين المتقين، وإن تكذيب ما جاؤوا به من آيات الله والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه الخلود في النار فوق ما بين في آيات أخرى من سوء الحال في الدنيا، وقد سكت عن الجزاء الدنيوي هنا؛ لأن الآية الأولى تدل عليه، ولأنه لا يظهر للناس في كل وقت^(١).

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ
 أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَإِنَّا
 مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
 كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

★ غريب الآية:

ينالهم: النيل: يقال: نال الشيء: إذا وصل إليه وحازه وأدركه.
 يتوفونهم: التوفي: أصله: قبض الشيء بتمامه، والمراد هنا: قبض الروح.
 ضلُّوا عَنَّا: أي: هلكوا وتلفوا وفقدوا وبطلوا وذهبوا. والضلال في الأصل:
 إما العدول عن الطريق المستقيم، وإما الغيوبة والضياغ، والأول يقابله الهداية،
 والثاني يقابله الوجدان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فمن أخطأ فعلاً وأجهل قولاً وأبعد ذهاباً
 عن الحق والصواب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقول: ممن اختلق على الله زوراً من
 القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يقول: أو كذب
 بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها،
 ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يقول: من فعل ذلك فافتري على الله الكذب، وكذب بآياته ﴿أُولَٰئِكَ
 يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يقول: يصل إليهم حظهم مما كتب الله لهم في اللوح
 المحفوظ.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة ذلك النصيب الذي لهم في الكتاب وما هو،
 فقال بعضهم: هو عذاب الله الذي أعدّه لأهل الكفر به...
 وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما سبق لهم من الشقاء
 والسعادة...

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من كتابهم الذي كتب لهم أو عليهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير وشر...

وقال آخرون: معنى ذلك: ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر...

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب الذي كتبه الله على ما افترى عليه...

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما كتب لهم من الرزق والعمر والعمل...

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب مما كتب لهم من خير وشر في الدنيا، ورزق وعمل وأجل، وذلك أن الله - جل ثناؤه - أتبع ذلك قوله: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فأبان بإتباعه ذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضياً عليهم في الدنيا أن ينالهم؛ لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهم، ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعد لهم في الآخرة، لم يكن محدوداً بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم؛ لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء؛ فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه، فبين بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه^(١).

وقال ابن كثير: «وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^(٢) مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ^(٣)، وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾^(٤) إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٥) نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ^(٦)»^(٣)»^(٤).

(١) جامع البيان (٨/١٦٨-١٧٢).

(٢) يونس: الآيتان (٦٩ و ٧٠).

(٣) لقمان: الآيتان (٢٣ و ٢٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٤١٠).

قال ابن جرير: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاْفِرِينَ﴾: يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ إلى أن جاءتهم رسلنا، يقول -جل ثناؤه-: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، أو كذبوا بآيات ربهم ينالهم حظوظهم التي كتب الله لهم، وسبق في علمه لهم من رزق وعمل وأجل، وخير وشر في الدنيا، إلى أن تأتيهم رسلنا لقبض أرواحهم، فإذا جاءتهم رسلنا، يعني ملك الموت وجنده، ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقول: يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة، ﴿قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يقول: قالت الرسل: أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهلا يغثونكم من كرب ما أنتم فيه فينقذوكم منه؟ فأجابهم الأشقياء فقالوا: ضل عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله، يعني بقوله: ﴿ضَلُّوا﴾ جاروا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا، يقول الله -جل ثناؤه-: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته»^(١).

* * *

قوله تعالى : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

★ غريب الآية:

خلت : مضت وانتهى زمانها .

اداركوا : تلاحقوا ؛ أي : لحق كل بالآخر .

أخراهم لأولاهم : أي : آخرهم دخولا ، وهم الأتباع ، لأولاهم ، وهم القادة .

ضعفاً : أي : مرتين . والضعف : من الأسماء المتضايقة - التي يقتضي وجود

أحدها وجود الآخر ، كالنصف والزوج ، وهو تركب قدرين متساويين - ويختص بالعدد . تقول : أضعفت الشيء وضعفته وضاعفته : إذا ضمنت إليه مثله فصاعداً .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - عن قيله لهؤلاء المفترين عليه ، المكذبين آياته يوم القيامة ، يقول - تعالى ذكره - : قال لهم حين وردوا عليه يوم القيامة : ادخلوا أيها المفترون على ربكم ، المكذبون رسله في جماعات من ضربائكم : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يقول : قد سلفت من قبلكم ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ . ومعنى ذلك : ادخلوا في أمم هي في النار ، قد خلت من قبلكم من الجن والإنس . وإنما يعني بالأمم : الأحزاب وأهل الملل الكافرة ، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ ، يقول - جل ثناؤه - : كلما دخلت النار جماعة من أهل ملة ﴿لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ يقول : شتمت الجماعة الأخرى من أهل ملتها تبرئاً منها . وإنما عني بالأخت : الأخوة في الدين والملة ، وقيل : ﴿أُخْتَهَا﴾ ولم يقل : أخاها ؛ لأنه عني بها أمة وجماعة أخرى ، كأنه قيل : كلما دخلت أمة لعنت أمة أخرى من أهل

ملتها ودينها»^(١).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ»^(٤)، وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿قَالَتْ أَخْرِثُهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أي: أخراهم دخولا، وهم الأتباع، لأولاهم، وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرما من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوههم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوه عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(٥) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ^(٦) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ لَعْنًا كَبِيرًا»^(٧).

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - عن محاورة الأحزاب من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة، يقول الله - تعالى ذكره - : فإذا اجتمع أهل الملل الكافرة في النار فاداركوا، قالت أخرى أهل كل ملة دخلت النار - الذين كانوا في الدنيا بعد أولى منهم تقدمتها، وكانت لها سلفا وإماما في الضلالة والكفر - لأولاها الذين كانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك، وزينوا لنا طاعة الشيطان، فاتهم اليوم من عذابك الضعف على عذابنا»^(٨).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾^(٩)، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) البقرة: الآيتان (١٦٦ و ١٦٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤١٠-٤١١).

(٧) النحل: الآية (٨٨).

(٢) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٤) الأحزاب: الآيات (٦٦-٦٨).

(٦) جامع البيان (٨/ ١٧٣).

أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ^(١)، وقال: ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ^(٢)﴾^(٣).

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات: أن الأتباع يسألون الله يوم القيامة أن يضاعف العذاب للمتبوعين، وبين في مواضع آخر: أن مضاعفة العذاب للمتبوعين لا تنفع الأتباع، ولا تخفف عنهم من العذاب، كقوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ^(٤)﴾، وقوله هنا: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَقَالَتْ أُولُنَّهُمْ لِأَخْرَجْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ^(٥)﴾، وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ^(٦)﴾، إلى غير ذلك من الآيات^(٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولكنكم يا معشر أهل النار، لا تعلمون ما قدر ما أعد الله لكم من العذاب، فلذلك تسأل الضعف منه الأمة الكافرة الأخرى، لأختها الأولى^(٨)».



(١) العنكبوت: الآية (١٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٤١١).

(٥) الأعراف: الآية (٣٩).

(٧) أضواء البيان (٢/١٤-١٥).

(٨) جامع البيان (٨/١٧٤).

(٢) النحل: الآية (٢٥).

(٤) الزخرف: الآية (٣٩).

(٦) غافر: الآية (٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْتَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وقالت أولى كل أمة وملة سبقت في الدنيا لأخراها الذين جاؤوا من بعدهم، وحدثوا بعد زمانهم فيها، فسلكوا سبيلهم، واستنوا سنتهم: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بمعصيتنا إياه، وكفرنا به، وجاءتنا وجاءتكم بذلك الرسل والنذر، هل انتهيتم إلى طاعة الله، وارتدعتم عن غوايتكم وضلالكم؟ فانقضت حجة القوم وخصموا، ولم يطبقوا جواباً بأن يقولوا: فضّلنا عليكم أنا اعتبرنا بكم فآمنا بالله وصدقنا رسله، قال الله لجميعهم: ﴿فَذُوقُوا﴾ جميعكم أيها الكفرة عذاب جهنم، ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والمعاصي، وتجترحون من الذنوب والإجرام»^(١).

قال ابن عاشور: «وفيما قصّ الله من محاوراة قادة الأمم وأتباعهم ما فيه موعظة وتحذير لقادة المسلمين من الإيقاع بأتباعهم فيما يَزِجُ بهم في الضلالة، ويحسن لهم هواهم، وموعظة لعامتهم من الاسترسال في تأييد من يشايع هواهم، ولا يبلغهم النصيحة، وفي الحديث: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٢)»^(٣).

قال محمد رشيد رضا: «إن كل دعاة التقليد الأعمى من هؤلاء المضلين الذين يضاعف لهم العذاب، وإن أئمة الهدى من علماء السلف ليسوا منهم؛ لأنهم كانوا يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنة ليفتحوا للناس أبواب الفهم والفقه فيهما مع

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٤).

(٢) تقدم تخريجه تحت قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية (٦) من سورة (الأعراف).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٢٥).

نهيهم عن تقليدهم وأمرهم بعرض كلامهم على الكتاب والسنة، وأخذ ما وافقهما ورد ما عداه. ومنهم الأئمة الأربعة الذين تنتمي إليهم طوائف السنة وأئمة العترة الذين تنتمي إليهم الشيعة كالإمامين جعفر الصادق وزيد بن علي رضي الله عنهم أجمعين. لم يبح أحد من هؤلاء الأئمة التقليد - وقد حرمه الله في كتابه - فهم برآء من جميع المقلدين لهم ولغيرهم في دين الله كما فصلناه في تفسير تلك الآيات وفي مواضع أخرى. وورد في معنى ذلك آيات أخرى في سورة (إبراهيم) و(القصص) و(الأحزاب) و(الصافات) و(ص) وغيرهن^(١).

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على أن الكفار والضالّ والمبتدعة، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالهم، وتوآدوا في الدنيا، فإنهم في الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم. وتدل على فساد التقليد، والاعتزاز بقول علماء السوء. وتدل على أن الداعي إلى الضلال مضلّ. وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له. وتدل على أن اشتراكهم في العذاب لا يوجب لهم راحة، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا»^(٢).

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٤١٥).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٧٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الجمال: الجمال من الإبل. قال الفراء: الجمال زوج الناقة. وكذا قال عبد الله بن مسعود لما سئل عن الجمال فقال: هو زوج الناقة، كأنه استجهل من سأله عما يعرفه الناس جميعاً. والجمع: جمال وأجمال وجماليات وجمالي. وإنما يسمى جملاً إذا أربع.

سم الخياط: السم والسم: هو ثقب الإبرة وخرمها. وقيل: هو كل ثقب ضيق كخرق الإبرة، وثقب الأنف والأذن، والجمع: سُموم.

الخياط: ما يخاط به كالإبرة. ويقال: خياط ومخيط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِحُجُجِنَا وَأَدْلَتْنَا فَلَمْ يَصْدَقُوا بِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعُوا رِسْلَنَا، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾» يقول: وتكبروا عن التصديق بها، وأنفوا من اتباعها والانقياد لها تكبراً، لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يصعد لهم في حياتهم قول ولا عمل؛ لأن أعمالهم خبيثة، وإنما يرفع الكلم الطيب والعمل الصالح، كما قال - جل ثناؤه -: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١) «(٢)».

وقال في قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي

(١) فاطر: الآية (١٠).

(٢) جامع البيان (٨/١٧٥).

الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ : «يقول -جل ثناؤه- : ولا يدخل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها الجنة التي أعدها الله لأوليائه المؤمنين أبدًا، كما لا يلج الجمل في سم الخياط أبدًا، وذلك ثقب الإبرة، وكل ثقب في عين أو أنف أو غير ذلك، فإن العرب تسميه سَمًا»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الكافر

لا تصعد له روح إلى السماء ولا يرفع له عمل في الحياة الدنيا للقبول

* عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت ﷺ حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون -يعني بها- على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده. فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٧-١٧٨).

دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدَّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشِّرْ بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالخير؟! فيقول: أنا عمَلِك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كائنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(١).

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري...! فينادي مناد من السماء: أن كذب فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح

(١) الحج: الآية (٣١).

التياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟! فيقول: أنا عمالك الخبيث. فيقول: رب لا تُقم الساعة»^(١).

★ غريب الحديث:

حنوط: الحَنُوط والحِناط واحد: وهو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء: السقاء يكون للبن والماء، والقربة تكون للماء خاصة. والمعنى: يريد خروج روحه بسهولة كسهولة تقطير الماء من قم القربة. في عليين: قيل: هو اسم أشرف الجنان.

السُّفُود: بوزن التُّور: الحديدية التي يشوى بها اللحم.

سَجِّين: السَّجِّين: اسم لجهنم بإزاء عليين، وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: أن الكفار لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء وقد تنازع العلماء الاحتجاج بهذا الحديث في بيان المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، فأيد به ابن جرير القول الذي اختاره في هذه الآية، وهو أن أبواب السماء لا تفتح لأعمال الكفار في حياتهم، ولا لأرواحهم بعد هلاكهم، وأيد به القرطبي وابن كثير، قول من قال: إن المراد بالآية أن السماء لا تفتح لأرواحهم فقط.

قال ابن جرير: «وإنما اخترنا في تأويل ذلك ما اخترنا من القول، لعموم خبر الله - جل ثناؤه -، أن أبواب السماء لا تفتح لهم، ولم يخصص الخبر أنه يفتح لهم في شيء، فذلك على ما عمه خبر الله تعالى، بأنها لا تفتح لهم في شيء، مع تأييد الخبر عن رسول الله ﷺ، ما قلنا في ذلك»^(٢).

(١) أخرجه بطوله: أحمد (٢٨٧-٢٨٨/٤)، وأبو داود (١١٤-١١٦/٥)، وصححه الحاكم (٣٧-٣٨/١).

ووافقه الذهبي. وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١٧٨/١).

(٢) جامع البيان (١٧٦/٨).

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

★ غريب الآية:

جهنم: اسم من أسماء النار، مأخوذ من قولك: بثرُ جهنَّامُ؛ أي: بعيدة القعر.
وقيل: من الجهومة وهي الغلظ. ومُنعت من الصرف للعلمية والتأنيث.
مهَاد: المهاد: الوطاء الذي يفترش، من مهَّدت الأرض ومهدتها؛ أي:
وطأتها. ومنه مهد الصبي.
غواشٍ: الغواشي: جمع غاشية. وهو كل ما يغشاك؛ أي: يستر. وقيل: هذا
تهكم بهم في اللفظين: المهاد والغواشي؛ لأن كلا منهما إنما يستعمل في الأمر
المحمود.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها:
﴿مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع كالفراش الذي يُفرش،
والبساط الذي يُبسط، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وهو جمع غاشية، وذلك ما غشاهم
فغطاهم من فوقهم.

وإنما معنى الكلام: لهم من جهنم مهَاد، من تحتهم فرش، ومن فوقهم منها
لُحْف، وإنهم بين ذلك...

وأما قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ فإنه يقول: وكذلك نشيب ونكافئ من ظلم
نفسه فأكسبها من غضب الله ما لا قبل لها به بكفره بربه وتكذيبه أنبياءه»^(١).

قال محمد رشيد رضا: «والمراد أن جهنم مطبقة عليهم، ومحيطة بهم؛ كما

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٢).

قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾^(١)، وكما قال: ﴿وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٢).
 ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: ومثل هذا الجزاء نجزي جنس الظالمين لأنفسهم
 وللناس بشرطه الذي ذكر في المعجمين آنفاً.

وأفادت الآيتان أن المجرمين والظالمين الراسخين في صفتي الإجرام والظلم
 هم الكافرون، وأن المؤمنين لا يكونون كذلك، كما قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ﴾^(٣)، وهذا تحقيق القرآن والناس في غفلة عنه، ولذلك خالفوه في عرفه^(٤).

* * *

(١) الهمزة: الآية (٨).

(٢) التوبة: الآية (٤٩)، العنكبوت: الآية (٥٤).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٤).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٤)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: والذين صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به من وحي الله وتنزيله وشرائع دينه، وعملوا ما أمرهم الله به فأتوا به وتجنبوا ما نهاهم عنه، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقول: لا نكلف نفساً من الأعمال إلا ما يسعها، فلا تخرج فيه، ﴿أُولَئِكَ﴾ يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يقول: هم أهل الجنة الذين هم أهلها دون غيرهم ممن كفر بالله وعمل بسيئاتهم، ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يقول: هم في الجنة ما كثون دائم فيها مكثهم، لا يخرجون منها، ولا يسلبون نعيمهم»^(١).

قال ابن القيم: «اعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد؛ فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط، وتقدير صفة محذوفة؛ أي: نفساً منهم، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة»^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٢).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾^(١)

★ غريب الآية:

صدورهم: الصدر: الجارحة، ثم استعير لمقدم الشيء، كصدر القناة وصدر المجلس والكتاب والكلام. وصدره: أصاب صدره. ورجل مصدور: يشكو صدره.

غَلٍّ: الغَلَّ: الحقد والإحنة والبغض، وكذلك الغُلُول. وجمع الغَلَّ: غِلَال.

تجري: الجري: المرّ السريع، وأصله في الماء أو ما يجري مجراه.

الأنهار: النهر: أصله الشق الواسع الذي يجري فيه الماء. من نَهَرْتُ الشيء؛ أي: شَقَقْتُهُ شَقًّا واسعًا. ثم تجوَّز به عن الماء الجاري فيه للمجاورة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وصَفَ صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقد وغل وعداوة، كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذ أدخلهموها على سرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضًا على شيء خص الله به بعضهم، وفضله من كرامته عليه، تجري من تحتهم أنهار الجنة»^(٢).

قال الشوكاني: «من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغل على بعضهم بعضًا، حتى تصفو قلوبهم، ويود بعضهم بعضًا، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة؛ لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر»^(٣).

قال الشنقيطي: «وذكر في موضع آخر أن نزع الغل من صدورهم يقع في حال

(٢) جامع البيان (٨/ ١٨٣).

(١) الأعراف: الآية (٤٣).

(٣) فتح القدير (٢/ ١٩١).

كونهم إخوانًا على سرر متقابلين ، آمنين من النصب والخروج من الجنة ، وهو قوله تعالى في (الحجر) : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿١﴾ (٢) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن يزيد بن زريع : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾ قال : حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يُخْلَصُ المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا» (٣) .

★ غريب الحديث:

يُخْلَصُ : بصيغة المجهول مخففاً ، من الإخلاص ، وفي نسخة بالتشديد ، وفي أخرى بفتح الياء وضم اللام ، من الخلاص ، يقال : خلص فلان : إذا سلم ونجا .
على قنطرة : قال في «اللسان» : «القنطرة معروفة : الجسر» قال الحافظ : «اختلف في القنطرة المذكورة فقليل : هي من تنمة الصراط ، وهي طرفه الذي يلي الجنة ، وقيل : إنهما صراطان ، وبهذا الثاني جزم القرطبي» (٤) . قال ابن عثيمين : «والصواب في هذا أن نقول : الله أعلم ، وليس يعنيننا شأنها ، لكن الذي يعنيننا أن الناس يوقفون عليها» (٥) .

فيقص : بضم أوله على البناء للمجهول ، ويروى : فيقتص ، من الاقتصاص ، وفي رواية : فيقص ، بفتح أوله ، فتكون اللام في قوله : لبعضهم ، زائدة ، أو الفاعل محذوف ، وهو الله ، أو من أقامه في ذلك .

(٢) أضواء البيان (٢/ ١٥) .

(١) الحجر : الآيتان (٤٧ و ٤٨) .

(٣) أخرجه : أحمد (٣/ ١٣ ، ٦٣) ، والبخاري (١١/ ٤٨١ - ٤٨٢ / ٦٥٣٥) .

(٥) شرح الواسطية (٢/ ١٦٣) .

(٤) فتح البيان (١١/ ١٨٦) .

حتى إذا هذبوا ونقوا : التهذيب كالتنقية ، ورجل مهذب ؛ أي : مطهر الأخلاق ، فعلى هذا قوله : « ونقوا » تفسير لقوله : « هذبوا » ، وأدخل واو العطف بين المفسر والمفسر .

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ : «قرأ يزيد هذه الآية وفسرها بالحديث المذكور ، وقد أخرجه الإسماعيلي من طريق محمد بن المنهال عن يزيد بن زريع بهذا السند إلى أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾^(١) : قال : يخلص المؤمنون » الحديث . وظاهره أن تلاوة الآية مرفوع ، فإن كان محفوظا احتمل أن يكون كل من رواه تلا الآية عند إيراد الحديث ، فاختصر ذلك في رواية الصلت ، ممن فوق يزيد بن زريع^(٢) .

قال القرطبي : «معنى «يخلص المؤمنون من النار» أي : يخلصون من الصراط المضروب على النار ، ودل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال»^(٣) .

قال الحافظ : «قال القرطبي : هؤلاء المؤمنون هم الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم . قلت : ولعل أصحاب الأعراف منهم على القول المرجح آنفاً ، وخرج من هذا صنفان من المؤمنين : من دخل الجنة بغير حساب ، ومن أوبقه عمله»^(٤) .

قوله : «فيقتص لبعضهم من بعض» :

قال ابن عثيمين : «وهذا القصاص غير القصاص الأول ، الذي في عرصات القيامة ؛ لأن هذا قصاص أخص ، لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس ، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير ، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص ، فهذه القنطرة بين الجنة والنار ، لأجل تنقية ما في القلوب ، حتى

(١) الحجر : الآية (٤٧) .

(٢) فتح الباري (١١/٤٨٥) .

(٣) التذكرة (ص : ٣٣٩) .

(٤) فتح الباري (١١/٤٨٦) .

يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ ^(١) ^(٢) .

قوله : «حتى إذا هذبوا ونقوا» :

قال القسطلاني : «المراد التخليص من التبعات ، فإذا خلصوا منها أذن لهم . . في دخول الجنة ، وليس في قلوب بعضهم على بعضهم غل ؛ أي : حقد كامل في قلوبهم ، بل ألقى الله فيها التواد والتحاب» ^(٣) .

* * *

(١) الحجر : الآية (٤٧) .

(٢) شرح الواسطية (٢/١٦٣-١٦٤) .

(٣) إرشاد الساري (١٣/٦٢٩) .

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء الذين وصف -جل ثناؤه-، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات حين أدخلوا الجنة، ورأوا ما أكرمهم الله به من كرامته، وما صرف عنهم من العذاب المهين الذي ابتلي به أهل النار بكفرهم بربهم، وتكذيبهم رسوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾، يقول: الحمد لله الذي وفقنا للعمل الذي أكسبنا هذا الذي نحن فيه، من كرامة الله وفضله، وصرف عذابه عنا، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ يقول: وما كنا لنرشد لذلك لولا أن أرشدنا الله له، ووفقنا بمنه وطوله»^(٢).

وقال ابن عطية في قوله: ﴿هَدَانَا لِهَذَا﴾: «وهدانا، بمعنى: أرشدنا، والإشارة بهذا تتجه أن تكون إلى الإيمان والأعمال الصالحة المؤدية إلى دخول الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نفسها؛ أي: أرشدنا إلى طرقها، ولكل واحد من الوجهين أمثلة في القرآن»^(٣).

قال ابن القيم: «ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلى طريق الجنة، كان أحسن وأبلغ»^(٤).

قلت: وإلى هذا المعنى ذهب ابن جرير عند بيانه لمعنى الآية كما تقدم.

قال الألوسي: «ولا يخفى ما في هذه الآية من الرد الواضح على القدرية الزاعمين أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى، ولم يخلق الله تعالى له ذلك»^(٥).

(١) الأعراف: الآية (٤٣).

(٢) المحرر الوجيز (٢/٤٠٢).

(٣) روح المعاني (٨/١٢١).

(٤) جامع البيان (٨/١٨٤).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/٩٠٣).

قال ابن عاشور: «دل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ على بعد حالهم السالفة عن الاهتداء، كما أفاده نفي الكون مع لام الجحود، . . فإنهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة، قد رسخت في أنفسهم، فأما قادتهم، فقد زينها الشيطان لهم حتى اعتقدوها، وسنوها لمن بعدهم، وأما دهماؤهم وأخلافهم، فقد رأوا قدوتهم على تلك الضلالات، وتأصلت فيهم، فما كان من السهل اهتداؤهم، لولا أن هداهم الله ببعثة الرسل وسياستهم في دعوتهم، وأن قذف في قلوبهم قبول الدعوة، ولذلك عقبوا تحميدهم وثناءهم على الله بقولهم: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فتلك جملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، لصدورها عن ابتهاج نفوسهم، واغترباطهم بما جاءتهم به الرسل فجعلوا يتذكرون أسباب هدايتهم، ويعتبرون بذلك ويغضبون، تلذذاً بالتكلم به؛ لأن تذكر الأمر المحبوب، والحديث عنه مما تلذ به النفوس، مع قصد الثناء على الرسل، وتأکید الفعل بلام القسم وبقد، مع أنهم غير منكرين لمجيء الرسل: إما لأنه كناية عن الإعجاب بمطابقة ما وعدهم به الرسل، من النعيم لما وجدوه مثل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾^(١) وقول النبي ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(٢)، وإما لأنهم أرادوا بقولهم هذا، الثناء على الرسل، والشهادة بصدقهم، جمعاً مع الثناء على الله، فأتوا بالخبر في صورة الشهادة المؤكدة، التي لا تردد فيها»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان قيل أهل الجنة عند دخولهم الجنة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فيكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى

(١) الزخرف: الآية (٧١).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٤٩٥/٢)، والبخاري (٣٩١-٣٩٢/٦)، ومسلم (٤/٢١٧٤)، والترمذي (٣٢٣/٥)، وابن ماجه (١٤٤٧/٢)، (٤٣٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٣٣).

مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكر»^(١).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: «بيان ما يقوله أهل الجنة عند دخولهم الجنة»^(٢) اعترافاً بفضل الله عليهم، وحمدًا له على الهداية التامة إلى الإيمان والأعمال الصالحة، التي بسببها نالتهم الرحمة، فأدخلوا الجنة وزحزحوا عن النار.

قال الكرمانى: «فإن قلت: الجنة ليست دار شكر، بل هي دار جزاء، قلت: الشكر ليس على سبيل التكليف، بل هو على سبيل التلذذ، أو المراد لازمه، وهو الرضى والفرح؛ لأن الشاكر عن الشيء راض به فرحان بذلك»^(٣).

✽ عن البراء بن عازب قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

«والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا»^(٤).

★ فوائد الحديث:

فيه اعتراف الصحابة ﷺ بفضل الله عليهم حيث هداهم لهذا الدين. وقد ترجم له البخاري بقوله: «باب ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾»^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (٥١٢/٢) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (١١٤٥٤/٤٤٧/٦)، والحاكم (٤٣٦-٤٣٥/٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» من طريقين (٣٩٩/١٠) وقال: «رواه كله أحمد، ورجال الرواية الأولى -يشير إلى هذه الرواية- رجال الصحيح»، وأخرجه البخاري (٦٥٦٩/٥١٠/١١) دون قوله: «لولا أن الله هداني» ودون قوله: «لو أن الله هداني».

(٢) أفاده البيهقي في «البعث والنشور» (ص: ١٤٥). (٣) شرح صحيح البخاري (٥٨-٥٧/٢٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٨٥ و ٢٩١/٤)، والبخاري (٦٣٠/١١/٦٦٢٠)، ومسلم (١٤٣٠/٣/١٨٠٣)، والنسائي في الكبرى (٨٨٥٧/٢٦٩/٥).

(٥) الزمر: الآية (٥٧).

قال ابن بطال : «في هاتين الآيتين ، وفي هذا الحديث نص أن الله تعالى انفرد بخلق الهدى والضلال ، وإنما قدر العباد على اكتساب ما أراد منهم اكتسابهم له من إيمان أو كفر ، وأن ذلك ليس بخلق للعباد كما زعمت القدرية .

وروي أن علي بن أبي طالب لقي رجلاً من القدرية فقال له : خالفتم الله وخالفتم الملائكة ، وخالفتم أهل الجنة وخالفتم أهل النار وخالفتم الأنبياء وخالفتم الشيطان ، فأما خلافكم الله ؛ فقلوه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١) . وأما خلافكم الملائكة ؛ فقولهم : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾^(٢) . وأما خلافكم الأنبياء ؛ فقول نوح : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾^(٣) . وأما خلافكم أهل الجنة ؛ فقولهم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ . وأما خلافكم لأهل النار ؛ فقولهم : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾^(٤) . وأما خلافكم الشيطان ؛ فقول إبليس : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾^(٥) «^(٦) .

قال ابن القيم في معرض كلامه عن الهدى والضلال ، ومراتبهما ، والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهما ، قال : «هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله ، فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى ، وأعظم ما يبتليه به ويُقدِّره عليه الضلال ، وكل نعمة دون نعمة الهدى ، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال . وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد ، وأن العبد هو الضال أو المهتدي ، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره ، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه»^(٧) .

* * *

(١) القصص : الآية (٥٦) .

(٣) هود : الآية (٣٤) .

(٥) الحجر : الآية (٣٩) .

(٦) شرح البخاري (١٠/٣٢٦-٣٢٧) .

(٧) شفاء العليل (ص : ١٨١-١٨٢) .

(٢) البقرة : الآية (٣٢) .

(٤) المؤمنون : الآية (١٠٦) .

قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

★ غريب الآية:

نُودُوا: النداء: رفع الصوت بطلب من ينادى. وقد يقال للصوت المجرد.

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معناه: ونادى مناد هؤلاء الذين وصف الله صفتهم وأخبر عما أعد لهم من كرامته: أن يا هؤلاء تلكم الجنة التي كانت رسلي في الدنيا تخبركم عنها، أورثكموها الله عن الذين كذبوا رسله، لتصديقكم إياهم، وطاعتكم ربكم، وذلك هو معنى قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^(١).

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: «بسبب أعمالكم، لا بالفضل كما تقول المبطل»^(٢).

قال أحمد بن المنير: «يعني بالمبطل قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بفضل الله وبرحمته، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» فقالوا: صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم أهل السنة، قيل لهم: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^(٣)، قالوا: الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل فضلاً منه ورحمة، لا أن ذلك مستحق عليه، وواجب للعبادة وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها جمعاً بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء، فانظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطل، وحاكم نفسك إليها، ثم إذا

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٥).

(٢) الكشف (٢/ ٨٠).

(٣) الزخرف: الآية (٧٢).

وضح لك أنهم برآء في هذا البر، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم التي لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها، تعالى وتقدس عن ذلك، ويطلقون القول بلسان الجراءة: أن الجنة ونعيمها إقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى لا تفضل له عليهم فيه، بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه، وانظر أيّ الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطل، والسلام»^(١).

وقال النسفي: «سماها - أي: الجنة - ميراثاً لأنها لا تستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله، وعده على الطاعات، كالميراث من الميت، ليس بعوض عن شيء، بل هو صلة خالصة»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الميراث الذي لا يفنى ولا يببىد

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً. فذلك قوله ﷺ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أُرِثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^(٣).

★ غريب الحديث:

تسقموا: يصيبكم الضعف.

أن تشبوا: بكسر الشين المعجمة وتشديد الموحدة؛ أي: تدوموا شباباً.

فلا تبأسوا أبداً: أي: لا يصيبكم البأس، وهو شدة الحال.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد:

١ - بيان «ما يقال لأهل الجنة إذا دخلوها»^(٤)، وما ينادون به من البشارة العظيمة

(١) الإنصاف على ما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٢/ ٨٠) (حاشية الكشاف).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٩٥)، ومسلم (٤/ ٢١٨٢/ ٢٨٣٧)، والترمذي (٥/ ٣٤٩/ ٣٢٤٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٥/ ١١١٨٤).

(٤) أفاده الدارمي في سننه (٣/ ١٨٦٤/ ٢٨٦٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص: ١٤٥).

بالنعيم المقيم، الذي لا يشوبه بأس، ولا يعتريه فساد ولا تغير، قال الطيبي: «هذا النداء والبشارة ألد وأشهى؛ لما فيه من السرور، وفي عكسه أنشد المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور تيقن منه صاحبه انتقالاً»^(١).

٢- «أن كل ما في الجنة دائم لا يلى ولا يفنى ولا يبيد»^(٢).

٣- «أن أهل الجنة لا يموتون فيها لكمال حياتهم، وأن كمالهم في ازدياد من قوة الشباب، ونضرة الوجوه، وحسن الهيئة، وطيب العيش»^(٣).

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، دفع الله ﷻ إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقول: هذا فكاكك من النار»^(٤).

★ غريب الحديث:

فكاكك: الفكاك: بفتح الفاء وكسرهما، والفتح أفصح وأشهر، وهو الخلاص والفداء.

★ فوائد الحديث:

قال البيهقي: «يشبه أن يكون هذا الحديث تفسيراً لحديث الفداء، والكافر إذا أورث على المؤمن مقعده من الجنة، والمؤمن إذا أورث على الكافر مقعده من النار، يصير في التقدير كأنه فدى المؤمن بالكافر والله أعلم، وقد علل البخاري رحمته الله حديث الفداء برواية بريد بن عبد الله، وغيره عن أبي بردة، عن رجل من الأنصار عن أبيه، وبرواية أبي حصين عنه، عن عبد الله بن يزيد، وبرواية حميد عنه، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، ثم قال: الخبر عن النبي ﷺ في الشفاعة، وأن قوماً يعذبون ثم يخرجون من النار أكثر وأبين، وحديث أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قد صح عند مسلم بن الحجاج وغيره رحمهم الله، من الأوجه

(١) شرح الطيبي (١١/٣٥٥٨).

(٢) أفاده القرطبي في «التذكرة» (ص: ٤٨٤).

(٣) أفاده ابن كثير في «النهاية» (٢/٤٦٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤/٢١١٩/٢٧٦٧ [٤٩]).

التي أشرنا إليها وغيرها ، ووجهه ما ذكرناه ، وذلك لا ينافي حديث الشفاعة ؛ فإن حديث الفداء وإن ورد مورد العموم في كل مؤمن فيحتمل أن يكون المراد به كل مؤمن قد صارت ذنوبه مكفرة بما أصابه من البلاء في حياته ، ففي بعض ألفاظه ، «إن أمتي أمة مرحومة ، جعل الله عذابها بأيديها ، فإذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل رجل من المسلمين رجلاً من أهل الأديان ، فكان فداءه من النار» وحديث الشفاعة ، يكون في من لم تصر ذنوبه مكفرة في حياته ، ويحتمل أن يكون هذا القول لهم في حديث الفداء بعد الشفاعة ، والله أعلم»^(١).

وقال أبو الفتوح الطائي : «في الحديث رجاء عظيم لأهل الإيمان بالله تعالى ، قال أبو أسامة : هذا الحديث خير للمؤمنين من الدنيا وما فيها ، وعدّه أهل الدين من كنوز الحديث ، اعتماداً على فضل الله تعالى فيه واعتداداً به ، وفيه دليل على كمال لطف الله تعالى بعباده ، وكرامتهم عليه حيث فدى أوليائه بأعدائه . . وأنكر المعتزلة هذا الحديث ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٢) ، والذي صاروا إليه خلاف الكتاب والسنة ، قال الله تعالى : ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^(٣) ، وقال النبي ﷺ : «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب كأمثال الجبال ، فيغفرها الله تعالى لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى»^(٤)»^(٥).

قال النووي : «معناه أن الله تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين ويسقطها عنهم ويضع على اليهود والنصارى مثلها ، بكفرهم وذنوبهم ، فيدخلهم النار بأعمالهم ، لا بذنوب المسلمين . . ويحتمل أن يكون المراد آثاماً كان للكفار سبب فيها بأن سنّوها ، فتسقط عن المسلمين بعفو الله تعالى ، ويوضع على الكفار مثلها لكونهم سنّوها ، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه مثل وزر من يعمل بها ، والله أعلم»^(٦).

قال أبو الفتوح الطائي : «ولا يُسْتَيْدَعُ من فضل الله تعالى مع أهل الإسلام والإيمان ، أي يفديهم بأهل الكفر والطغيان ، وذلك عدل من الله تعالى مع أهل

(١) شعب الإيمان (١/٣٤٢-٣٤٣).

(٢) الأنعام : الآية (١٦٤).

(٣) العنكبوت : الآية (١٣).

(٤) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : مسلم (٤/٢١٢٠/٢٧٦٧ [٥١]).

(٥) الأربعون الطائفة (ص : ١٢٣-١٢٤).

(٦) شرح صحيح مسلم (١٧/٧٠-٧١).

معصيته، وفضل على أهل طاعته، فإذا كان الفداء محمولاً على ما تقدم ذكره، فلا يصح استدلالهم -أي: المعتزلة- بالآية؛ لأن كل كافر معاقب بوزره على ما بيناه^(١).

قلت: وسيأتي مزيد بيان لمبحث وراثته المؤمنين الجنة، ومنازل الكفار التي أعد الله لهم فيها لو أطاعوه، عند قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٥) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿الآيتان (١٠ و ١١) من سورة (المؤمنون).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحداً منكم عمله»، قال رجل: ولا إياك؟ يا رسول الله! قال: ولا إياي، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سدّدوا^(٢).

★ غريب الحديث:

إلا أن يتغمدني الله منه برحمة: أي: يلبسنيها ويغمدني بها، ومنه أغمدت السيف وغمدته: إذا جعلته في غمده وسترته به.

سدّدوا: السداد: الصواب، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تغلوا ولا تقصروا، والمعنى: اطلبوا السداد واعملوا به.

★ فوائد الحديث:

وفي هذا الحديث من الفقه: «دلالة لأهل الحق، أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بعمله»^(٣).

قال ابن بطال: «فإن قال قائل: فإن قوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» يعارض قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤)، قيل: ليس كما توهمت، ومعنى الحديث غير معنى الآية، أخبر النبي ﷺ في الحديث أنه لا يستحق أحد دخول الجنة بعمله، وإنما يدخلها العباد برحمة الله، وأخبر الله

(١) الأربعون الطائفة (ص: ١٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٤٤/٢)، والبخاري (٦٤٦٣/٣٥٥/١١)، ومسلم (٢٨١٦/٢١٦٩/٤) واللفظ له، وابن

(٣) أفاده النووي (١٣٢/١٧).

ماجه (٤٢٠١/١٤٠٥/٢).

(٤) الزخرف: الآية (٧٢).

تعالى في الآية، أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، ومعلوم أن درجات العباد فيها متباينة، على قدر تباين أعمالهم، فمعنى الآية في ارتفاع الدرجات وانخفاضها والنعيم فيها، ومعنى الحديث في الدخول في الجنة والخلود فيها، فلا تعارض بين شيء من ذلك، فإن قيل: فقد قال الله تعالى في سورة (النحل): ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١)، فأخبر أن دخول الجنة بالأعمال أيضاً، فالجواب: أن قوله: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كلام مجمل يبينه الحديث، وتقديره: ادخلوا منازل الجنة وبيوتها بما كنتم تعملون، فالآية مفتقرة إلى بيان الحديث، وللجمع بين الحديث وبين الآيات وجه آخر، هو أن يكون الحديث مفسراً للآيات، ويكون تقديرها: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢)، و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، و﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤) مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم؛ لأن فضله تعالى ورحمته لعباده في اقتسام المنازل في الجنة، كما هو في دخول الجنة لا ينفك منه، حين ألهمهم إلى ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاة الله عباده من رحمته وتفضله، ألا ترى أنه جازى على الحسنة عشرة، وجازى على السيئة واحدة، وأنه ابتداء عباده بنعم لا تحصى، لم يتقدم لهم فيها سبب ولا فعل، منها أن خلقهم بشراً سوياً، ومنها نعمة الإسلام ونعمة العافية، ونعمة تضمنه تعالى لأرزاق عباده، وأنه كتب على نفسه الرحمة، وأن رحمته سبقت غضبه، إلى ما لا يهتدى إلى معرفته من ظاهر النعم وباطنها»^(٥).

قال الحافظ: «قال ابن الجوزي: يتحصل عن ذلك أربعة أجوبة:

الأول: أن التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة.

الثاني: أن منافع العبد لسيده فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

الثالث: جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله، واقتسام

(٢) الزخرف: الآية (٧٢).

(٤) النحل: الآية (٣٢).

(١) النحل: الآية (٣٢).

(٣) الطور: الآية (١٩).

(٥) شرح البخاري (١٠/١٨١).

الدرجات بالأعمال .

الرابع : أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير ، والثواب لا ينفد ، فالإنعام الذي لا ينفد في جزاء ما ينفد بالفضل لا بمقابلة الأعمال .

وقال الكرماني : الباء في قوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ليست للسببية ، بل للإلصاق أو المصاحبة ؛ أي : أورثتموها ملابسة أو مصاحبة ، أو للمقابلة ، نحو أعطيت الشاة بالدرهم ، وبهذا الأخير جزم الشيخ جمال الدين بن هشام في «المغني» ، فسبق إليه فقال : ترد الباء للمقابلة ، وهي الداخلة على الأعواض ، كـ (اشتريته بألف) ، ومنه : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وإنما لم تقدر هنا للسببية كما قالت المعتزلة ، وكما قال الجميع في : «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» ؛ لأن المعطي بعوض قد يعطي مجاناً ، بخلاف المسبب فلا يوجد بدون سبب ، قال : وعلى ذلك ينتفي التعارض بين الآية والحديث ، قلت : سبقه إلى ذلك ابن القيم ، فقال في كتاب «مفتاح دار السعادة» الباء المقتضية للدخول غير الباء الماضية ، فالأولى السببية : الدالة على أن الأعمال سبب الدخول ، المقتضية له كاقضاء سائر الأسباب لمسيباتها ، والثانية بالمعاوضة : نحو اشتريت منه بكذا ، فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد ، وأنه لولا رحمة الله لعبده لما أدخله الجنة ؛ لأن العمل بمجرده - ولو تناهى - لا يوجب بمجرده دخول الجنة ، ولا أن يكون عوضاً لها ؛ لأنه لو وقع على الوجه الذي يحبه الله لا يقاوم نعمة الله ، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة ، فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها ، وهو لم يوفها حق شكرها ، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم ، وإذا رحمه في هذه الحالة كانت رحمته خيراً من عمله ، كما في حديث أبي بن كعب الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه في ذكر القدر ، ففيه : «لو أن الله عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم» الحديث^(١) ، قال : وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال سبباً في دخول الجنة من كل وجه ، والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل ، وأنها ثمنه ، وأن دخولها بمحض الأعمال ، والحديث يبطل دعوى الطائفتين والله أعلم ، قلت : وجوز الكرماني

(١) أخرجه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه : أحمد (١٨٢/٥ - ١٨٣) ، وأبو داود (٤٦٩٩/٧٥/٥) ، وابن ماجه (١)

٢٩-٣٠/٧٧) ، وصححه ابن حبان (٥٠٥-٥٠٦/٧٢٧) .

أيضاً أن يكون المراد أن الدخول ليس بالعمل ، والإدخال المستفاد من الإرث بالعمل ، وهذا إن مشى في الجواب عن قوله تعالى : ﴿أُورِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لم يمش في قوله تعالى : ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) ، ويظهر لي في الجمع بين الآية والحديث جواب آخر ، وهو أن يحمل الحديث على أن العمل من حيث هو عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم يكن مقبولاً ، وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى الله تعالى ، وإنما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه ، وعلى هذا فمعنى قوله : ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : تعملونه من العمل المقبول ، ولا يضر بعد هذا أن تكون الباء للمصاحبة أو للإلصاق أو للمقابلة ، ولا يلزم من ذلك أن تكون سببية ، ثم رأيت النووي جزم بأن ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ، والجمع بينها وبين الحديث ، أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها ، إنما هو برحمة الله وفضله ، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل ، وهو مراد الحديث ، ويصح أنه دخل بسبب العمل ، وهو من رحمة الله تعالى ، ورد الكرماني الأخير بأنه خلاف صريح الحديث ، وقال المازري : ذهب أهل السنة إلى أن إثابة الله تعالى من أطاعه بفضل منه ، وكذلك انتقامه ممن عصاه بعدل منه ، ولا يثبت واحد منهما إلا بالسمع ، وله عليه السلام أن يعذب الطائع وينعم العاصي ، ولكنه أخبر أنه لا يفعل ذلك ، وخبره صدق لا خلف فيه ، وهذا الحديث يقوي مقالته ويرد على المعتزلة حيث أثبتوا بعقولهم أعواض الأعمال ، ولهم في ذلك خبط كثير وتفصيل طويل^(٢) .

* * *

(١) النحل : الآية (٣٢) .

(٢) فتح الباري (١١/٣٥٧-٣٥٨) .

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾^(١)

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ونادى أهل الجنة أهل النار بعد دخولهما: يا أهل النار! قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً في الدنيا على السن رسله من الثواب على الإيمان به وبهم، وعلى طاعته، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم على ألسنتهم على الكفر به، وعلى معاصيه من العقاب؟ فأجابهم أهل النار بأن نعم، قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً»^(٢).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾: (أَنْ): ههنا مفسرة للقول المحذوف، و(قد) للتحقيق؛ أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً؛ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ قالوا: نعم، كما أخبر تعالى في سورة (الصافات) عن الذي كان له قرين من الكفار، ﴿فَأَطْلَعَ فَأَرَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾^(٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينِ^(٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ^(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنِ^(٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبَيْنِ^(٥٩)؛ أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾^(٦٠) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ^(٦١) أَصَلَوْهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٦٢)»^(٤)»^(٥).

وقال الشوكاني: «مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم... والاستفهام هو

(٢) جامع البيان (٨/١٨٦).

(٤) الطور: الآيات (١٤-١٦).

(١) الأعراف: الآية (٤٤).

(٣) الصافات: الآيات (٥٥-٥٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/١٧٠).

للتقريع والتوبيخ، وحذف مفعول (وعد) الثاني، لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس، كالبعث والحساب والعقاب، وقيل: حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في خطاب النبي ﷺ لمشركي بدر توبيخاً لهم وتحقيراً

✽ عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعمتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟». قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً ونقيمة وحسرة وندماً^(٢).

✽ غريب الحديث:

صناديد قريش: هم أشrafهم وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صنديد، وكل عظيم غالب صنديد.

أطواء بدر: جمع طوي، وهي البئر التي طويت وبُنيت بالحجارة لتثبت ولا تنهار.

العرصة: هو كل موضع واسع لا بناء فيه.

(١) فتح القدير (٢/٢٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٢٩)، والبخاري (٧/٣٨٢)، ومسلم (٤/٢٢٠٤/٢٨٧٥)، وأبو داود (٣/١٤٣) -

١٤٤/٢٦٩٥، والترمذي (٤/١٠٣/١٥٥١).

على شفة الركي: أي: طرف البئر، والركي، بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد آخره: البئر قبل أن تطوى، جمعها ركايا.

ووجه الجمع بين وصفه في هذا الحديث للبئر بأنها طوي، ووصفه إياها بأنها ركي: أنها كانت مطوية، فاستهدمت، فصارت كالركي. أفاده الحافظ.

* فوائد الحديث:

في مناداته ﷺ أصحاب قلب بدر، ومخاطبته إياهم ﷺ بما خاطبهم به، بعد استقرارهم في القلب الذي قذفوا فيه، تقريع وتوبيخ لهم وزيادة في كربهم، كما قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم توبيخًا ونقمة وحسرة وندامة، قال ابن بطال: «وعلى تأويل قتادة فقهاء الأئمة وجماعة أهل السنة، وعلى ذلك تأوله عبد الله بن عمر راوي الحديث عن النبي ﷺ»^(١).

قال الطيبي: «قوله: «أيسركم أنكم» قال المظهر: أي: هل تتمنون أن تكونوا مسلمين بعدما وصلتكم إلى عذاب الله. أقول: ينبغي أن يفسر هذا بما يترتب عليه قوله: «فإننا قد وجدنا»؛ لأنه كالتعليل له، فالمسرة هنا مستعارة لضدها من الحزن والكآبة تهكمًا وسخرية، كما أن البشارة في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) مستعارة لضدها، وكالتحية في قول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

ومقام الشماتة والحسرة والنقمة يقتضيه، وينصره قول قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا، فالمعنى: أتحننون وتحسرون على ما فاتكم من طاعة الله ورسوله أم لا؟ وتذكرون قولنا لكم: إن الله سيظهر دينه على الدين كله، وينصر أوليائه ويخذل أعداءه، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا»^(٣).

قال العيني: «فإن قلت: ما وجه تخصيص هؤلاء بالخطاب؟ قلت: لأنه تقدم منهم من المعاندة العظيمة فخاطبهم بذلك توبيخًا لهم، وطرح باقي القتلى في أمكنة أخرى»^(٤).

(١) شرح صحيح البخاري (٣/٣٥٩).

(٢) آل عمران: الآية (٢١).

(٣) شرح الطيبي (٩/٢٧٤٤).

(٤) عمدة القاري (١٢/٢٨).

قلت : ما أشبه أمس بالغد ! فإن الله سبحانه أحيى هؤلاء - كما قال قتادة - حتى أسمعهم توبيخًا ونقمة وحسرة وندامة ، ويتكرر هذا المشهد على نطاق أوسع حين يخاطب أهل الجنة أهل النار بعد استقرار كل فريق في مكانه توبيخًا ونقمة وحسرة وندامة ، فهل من معتبر . نعوذ بالله من حال أهل النار .

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

★ غريب الآية:

عِوَجًا: العِوَجُ: الميل عن حالة الانتصاب. والعِوَجُ، بالكسر، يكون في المعاني؛ تقول: في دينه وأمره وطريقه عِوَجٌ. وبالفتح: يكون في الجثث؛ تقول: في هذا الحائط عِوَجٌ.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: إن المؤذن بين أهل الجنة والنار يقول: أن لعنة الله على الظالمين الذين كفروا بالله وصدوا عن سبيله، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يقول: حاولوا سبيل الله وهو دينه، أن يغيروه ويبدلوه عما جعله الله له من استقامته، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ يقول: وهم لقيام الساعة والبعث في الآخرة والثواب والعقاب فيها جاحدون»^(١).

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآية تدل على أن ذلك المؤذن أوقع لعنة الله على من كان موصوفاً بصفات أربع:

الصفة الأولى: كونهم ظالمين؛ لأنه قال: ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قال أصحابنا: المراد منه المشركون؛ وذلك لأن المناظرة المتقدمة، إنما وقعت بين أهل الجنة وبين الكفار، بدليل أن قول أهل الجنة: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟ لا يليق ذكره إلا مع الكفار، وإذا ثبت هذا فقول المؤذن بعده: ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يجب أن يكون منصرفاً إليهم، فثبت أن المراد بالظالمين ههنا المشركون، وأيضاً أنه وصف هؤلاء الظالمين بصفات ثلاث، هي مختصة بالكفار، وذلك يقوي ما ذكرناه، وقال القاضي: المراد منه كل من كان ظالماً، سواء كان كافراً أو كان

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٧-١٨٨).

فاسقًا ؛ تمسكًا بعموم اللفظ .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ومعناه : أنهم يمنعون الناس من قبول الدين الحق ، تارة بالزجر والقهر ، وأخرى بسائر الحيل .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَيَبْتَغُونَ عِوَجًا ﴾ والمراد منه إلقاء الشكوك والشبهات في دلائل الدين الحق .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴾ ، واعلم أنه تعالى لما بين أن تلك اللعنة ، إنما أوقعها ذلك المؤذن على الظالمين الموصوفين بهذه الصفات الثلاث ، كان ذلك تصريحًا بأن تلك اللعنة ما وقعت إلا على الكافرين ، وذلك يدل على فساد ما ذكره القاضي من أن ذلك اللعن يعم الفاسق والكافر ، والله أعلم^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن الظالمين المستحقين للجنة هم الكفار والمنافقون

* عن صفوان بن محرز المازني قال : «بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما أخذ بيده ، إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أي رب ! حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين»^(٢) .

★ غريب الحديث:

كنفه : أي : ستره فيحفظه .

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال : «قال المهلب : في هذا الحديث عظيم تفضل الله على عباده

(١) مفاتيح الغيب (٩١/١٤) .

(٢) أخرجه : أحمد (٧٤/٢) ، والبخاري (١٢٢/٥) ، ومسلم (٢٧٦٨/٤) ، والنسائي في الكبرى

(١١٢٤٢/٣٦٤/٦) .

المؤمنين وستره لذنوبهم يوم القيامة ، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم ، بخلاف قول من أنفذ الوعيد على أهل الإيمان ؛ لأنه لم يستثن في هذا الحديث ﷺ ممن يضع عليه كنفه وستره أحداً إلا الكفار والمنافقين ، فإنهم الذين ينادى عليهم على رؤوس الأشهاد باللعنة لهم . . . وهذا الحديث حجة لأهل السنة في قولهم : إن أهل الذنوب من المؤمنين لا يكفرون بالمعاصي كما زعمت الخوارج ، وقوله تعالى : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١) أن المراد بالظلم ههنا : الكفر والنفاق ، كما ذكر في الحديث ، وليس كل ظالم يدخل في معنى الآية ويستحق اللعنة ؛ لأنه لا تكون عقوبة الكفر عند الله كعقوبة صفائر الذنوب ، واللعن في كلام العرب : الإبعاد من الله تعالى ، فدللت هذه الآية أن الكلام ليس على العموم ، وأنه يفتقر إلى ما يبين معناه^(٢) .

قلت : وقد أبان النبي ﷺ معناه ، وأوضح مقصوده ، وخص عمومه ، فصرح في هذا الحديث «أن الظالمين المستحقين لللعنة هم الكفار والمنافقون ؛ لقوله في الحديث : «وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين» ، أما المؤمنون فلا يلعنون ولو كانوا عصاة ؛ لأن مصيرهم إلى الجنة ، ولأن رحمة الله لا بد أن تنالهم ، فلا يلعن العاصي بعينه ، أما اللعن بدون تعيين فلا مانع منه ؛ لقوله ﷺ : «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده»^(٣) ،^(٤) .

* * *

(١) هود : الآية (١٨) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٦ / ٥٧٠-٥٧١) .

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ؓ : أحمد (٢ / ٢٥٣) ، والبخاري (١٢ / ٩٦ / ٦٧٨٣) ، ومسلم (٣ / ١٣١٤ / ١٦٨٧) ، والنسائي (٨ / ٤٣٦-٤٣٧ / ٤٨٨٨) ، وابن ماجه (٢ / ٨٦٢ / ٢٥٨٣) .

(٤) قاله في منار القاري (٣ / ٣٦٤) .

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ
وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

★ غريب الآية:

حِجَاب: الحِجَاب: الحاجز والمانع.

الأعراف: جمع عُرف، بضم العين، وهو كل مرتفع من أرض وغيرها؛ استعارة من عُرف الديك وعرف الفرس، كأنه عرف بارتفاعه دون الأشياء المنخفضة؛ فإنها مجهولة غالباً.

سيماهم: السِّيمَا والسيماء والسيمياء: العلامة، من سَامَ إبله يسومها: إذا أرسلها في المرعى معلّمة، فهو من وَسَمَ يَسِمُ، وقد سَوَّمْتُهُ؛ أي: أعلمته. والوسم: التأثير. والسمة: الأثر؛ يقال: وسمتُ الشيءَ وسماً: إذا أثرت فيه بِسِمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - جل ثناؤه - بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وبين الجنة والنار حجاب، يقول: حاجز، وهو السور الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورٌ لَّهُمُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾^(١)، وهو الأعراف التي يقول الله فيها: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾... فإن الأعراف: جمع، واحدها: عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو عرف، وإنما قيل لعرف الديك عرف؛ لارتفاعه على ما سواه من جسده، ومنه قول الشماخ بن ضرار:

وظلت بأعراف تعالى كأنها رماح نحاسها وجهة الريح راكز

يعني بقوله: بأعراف: بنشوز من الأرض، ومنه قول الآخر:

كل كِنَازٍ لحمه نِيفٌ كالعَلَمِ المُوَفِّي على الأعراف

وكان السدي يقول: إنما سمي الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس..
واختلف أهل التأويل في صفة الرجال الذين أخبر الله -جل ثناؤه- عنهم أنهم
على الأعراف، وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك؟

فقال بعضهم: هم قوم من بني آدم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فجعلوا هنالك
إلى أن يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم...
وقال آخرون: كانوا قُتلوا في سبيل الله عصاة لآبائهم في الدنيا...
وقال آخرون: بل هم قوم صالحون فقهاء علماء...

وقال آخرون: بل هم ملائكة، وليسوا ببني آدم...
قال أبو جعفر: والصواب من القول: في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال
الله -جل ثناؤه- فيهم: هم رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم،
ولا خبر عن رسول الله ﷺ يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، ولا إجماع من
الامة على أنهم ملائكة. فإذا كان ذلك كذلك، وكان ذلك لا يدرك قياساً، وكان
المتعارف بين أهل لسان العرب، أن الرجال اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم،
ودون سائر الخلق غيرهم، كان بيننا أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة قول لا معنى
له، وأن الصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل غيره، هذا مع من قال
بخلافه من أصحاب رسول الله ﷺ، ومع ما روي عن رسول الله ﷺ في ذلك من
الأخبار وإن كان في أسانيدها ما فيها^(١).

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن أصحاب الأعراف
﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة وأهل النار ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾، ولم يبين هنا سيما أهل الجنة،
ولا أهل النار، وكأنه أشار لذلك في مواضع آخر، كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ﴾^(٢). فبياض الوجوه وحسنها سيما أهل الجنة، وسوادها وقبحها، وزرقة
العيون، سيما أهل النار، كما قال أيضاً في سيما أهل الجنة: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
النَّعِيمِ﴾^(٣)، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾^(٤)، وقال في سيما أهل النار: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٨-١٩٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٠٦).

(٣) المطففين: الآية (٢٤).

(٤) القيامة: الآية (٢٢).

وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا^(١)، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ^(٢)﴾، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا^(٣)﴾^(٤).

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: حلت عليهم أمانة الله من عقابه وأليم عذابه.

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿لَنَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فقال بعضهم: هذا خبر من الله عن أهل الأعراف أنهم قالوا لأهل الجنة ما قالوا قبل دخول أصحاب الأعراف، غير أنهم قالوه وهم يطمعون في دخولها . . .

وقال آخرون: إنما عني بذلك أهل الجنة، وأن أصحاب الأعراف يقولون لهم قبل أن يدخلوا الجنة: سلام عليكم، وأهل الجنة يطمعون أن يدخلوها، ولم يدخلوها بعد^(٥).

(١) يونس: الآية (٢٧).

(٣) طه: الآية (١٠٢).

(٥) جامع البيان (٨/١٩٦-١٩٧).

(٢) عبس: الآية (٤٠).

(٤) أضواء البيان (٢/١٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَهُمْ﴾
 ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

★ غريب الآية:

تلقاء: جهة وحذاء.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار؛ يعني: حيالهم ووجاههم فنظروا إلى تشويه الله لهم، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها من سخطك ما أورثهم من عذابك ما هم فيه»^(١).

وقال الرازي: «ومعنى الآية: أنه كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار، تضرعوا إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمريتهم»^(٢).

وقال القرطبي: «سألوا الله ألا يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم. فهذا على سبيل التذلل؛ كما يقول أهل الجنة: ﴿رَبِّنَا أْتِمِّمْ لَنَا ثَوْرَنَا﴾»^(٣)، ويقولون: الحمد لله؛ على سبيل الشكر لله ﷻ، ولهم في ذلك لذة»^(٤).

وفي بناء الفعل ﴿رَبِّنَا أْتِمِّمْ لَنَا ثَوْرَنَا﴾ إلى المجهول فائدة؛ قال ابن عاشور: «وإسناده إلى المجهول هنا جارٍ على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يُتطلب لها فاعل. وقد تكون لهذا الإسناد هنا فائدة زائدة، وهي الإشارة إلى أنهم لا ينظرون إلى أهل النار إلا نظراً شبيهاً بفعل من يحمله على الفعل حَامِلٌ؛ وذلك أن النفس وإن كانت تكره المناظر السيئة فإنَّ حبَّ الاطلاع يحملها على أن توجه النظر إليها آونة لتحصيل ما هو مجهول لديها»^(٥).

(١) جامع البيان (٨/١٩٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/٩٦).

(٣) التحريم: الآية (٨).

(٤) جامع أحكام القرآن (٧/٢١٤).

(٥) التحرير والتنوير (٨/١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير : «يقول تعالى مخبراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم ، يعرفونهم في النار بسيماهم : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي : كثرتكم ، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ : أي : لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال»^(١).

وقال الشنقيطي : «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة : أن أصحاب الأعراف قالوا لرجال من أهل النار : ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ : لم ينفعكم ما كنتم تجمعونه في الدنيا من المال ، ولا كثرة جماعتكم وأنصاركم ، ولا استكباركم في الدنيا .

وبيّن في مواضع أخر وجه ذلك : وهو أن الإنسان يوم القيامة يحشر فرداً ، لا مال معه ، ولا ناصر ، وخادم ، ولا خول ، وأن استكباره في الدنيا يجزى به عذاب الهون في الآخرة ، كقوله : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾^(٣) ، وقوله : ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(٤)»^(٥).

وقال الرازي : «اعلم أنه تعالى لما بين بقوله : ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا﴾^(٦) ، أتبعه أيضاً بأن أصحاب الأعراف ينادون رجالاً من أهل النار ، واستغنى عن ذكر أهل النار لأجل أن الكلام المذكور لا يليق إلا بهم ، وهو قولهم : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ، وذلك لا يليق إلا بمن يبكت ويوبخ ، ولا يليق أيضاً إلا بأكابرهم ، والمراد بالجمع إما جمع المال ، وإما الاجتماع والكثرة ،

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٢).

(٣) مريم : الآية (٨٠).

(٥) أضواء البيان (٢/ ١٥-١٦).

(٢) الأنعام : الآية (٩٤).

(٤) الأحقاف : الآية (٢٠).

(٦) الآية (٤٧).

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ والمراد: استكبارهم عن قبول الحق، واستكبارهم على الناس المحققين. وقرئ (تَسْتَكْبِرُونَ) من الكثرة، وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب، وعلى تبكيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام^(١).

وقال ابن عاشور: «المقصود بهذه الآية ذكر شيء من أمر الآخرة، فيه نذارة وموعظة لجبابرة المشركين من العرب الذين كانوا يحقرون المستضعفين من المؤمنين، وفيهم عبيد وفقراء، فإذا سمعوا بشارات القرآن للمؤمنين بالجنة سكتوا عما كان من أحرار المسلمين وسادتهم، وأنكروا أن يكون أولئك الضعاف والعبيد من أهل الجنة، وذلك على سبيل الفرض؛ أي: لو فرضوا صدق وجود جنة، فليس هؤلاء بأهل لسكنى الجنة؛ لأنهم ما كانوا يؤمنون بالجنة. وقصدهم من هذا تكذيب النبي ﷺ، وإظهار ما يحسبونه خطأ من أقواله، وذلك مثل قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنِّي مَزِقُّ لَكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٢)، فجعلوا تمزق الأجساد وفناءها دليلاً على إبطال الحشر. وسكتوا عن حشر الأجساد التي لم تمزق، وكل ذلك من سوء الفهم وضعف الإدراك والتخليط بين العاديات والعقليات^(٣).

(١) مفاتيح الغيب (١٤/٩٦-٩٧).

(٢) سبأ: الآية (٧).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

★ غريب الآية:

أقسمتم: حلفتهم.

الخوف: توقع المكروه، خلافه: الأمن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في المعنيين بهذا الكلام، فقال بعضهم: هذا قيل الله لأهل النار توبيخاً لهم، على ما كان من قيلهم في الدنيا لأهل الأعراف، عند إدخاله أصحاب الأعراف الجنة... وهذا قول ابن عباس. فتأويل الكلام على هذا التأويل الذي ذكرنا عن ابن عباس، ومن ذكرنا قوله فيه: قال الله لأهل التكبر عن الإقرار بوحداية الله والإذعان لطاعته وطاعة رسله، الجامعين في الدنيا الأموال مكاثرة ورياء: أيها الجبابرة الذين كانوا في الدنيا! أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ قال: قد غفرت لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنة، لا خوف عليكم بعدها من عقوبة تعاقبون بها على ما سلف منكم في الدنيا من الآثام والإجرام، ولا أنتم تحزنون على شيء فاتكم في دنياكم.

وقال أبو مجلز: بل هذا القول خبر من الله عن قيل الملائكة لأهل النار بعدما دخلوا النار تعييناً منهم لهم على ما كانوا يقولون في الدنيا للمؤمنين الذين أدخلهم الله يوم القيامة جنته.

وأما قوله: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فخير من الله عن أمره أهل الجنة بدخولها»^(١).

وقال السعدي: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملون؛ أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكرامًا واحترامًا: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيما يستقبل من المكاره، ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى؛ بل آمنون مطمئنون، فرحون بكل خير.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٣٤) عَلَى الْأَرْأَيْكَ يَنْظُرُونَ﴾ (١) (٢).

* * *

(١) المطففين: الآيات (٢٩-٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

★ غريب الآية:

أفيضوا: أي: صبّوا علينا أو ألقوا علينا. والإفاضة من فاض الماء: إذا سال منصّباً، وأفاض إناءه: إذا ملأه حتى أساله. والفيض: الماء الكثير. وأفاض الماء على نفسه: أفرغه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا خبر من الله تعالى عن استغاثة أهل النار بأهل الجنة عند نزول عظيم البلاء بهم من شدة العطش والجوع؛ عقوبة من الله لهم على ما سلف منهم في الدنيا من ترك طاعة الله، وأداء ما كان فرض عليهم فيها في أموالهم من حقوق المساكين من الزكاة والصدقة، يقول -تعالى ذكره-: ونادى أصحاب النار بعد دخولها، أصحاب الجنة بعدما سكنوها؛ أي: يا أهل الجنة! ﴿افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أطعمونا مما رزقكم الله من الطعام»^(١).

قال ابن عطية: «لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وقع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم، وجائز أن يكون ذلك وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم، على بعد السفلى من العلو، وجائز أن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر... والأشنع على الكافرين في هذه المقالة، أن يكون بعضهم يرى بعضاً فإنه أخزى وأنكى للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تعالى»^(٢).

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال، وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠١).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٠٦).

استغاثوا بأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾^(١).
 وقال في قوله: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: «بين أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب»^(٢).
 وقوله: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا﴾ قال الزمخشري واستظهره الألوسي: «فيه دليل على أن الجنة فوق النار»^(٣).

قال القرطبي: «وقد استدل بهذه الآية من قال بأن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، وأن له منعه ممن أراده؛ لأن معنى قول أهل الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لا حق لكم فيها، وقد بوب البخاري رحمه الله على هذا المعنى: (باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه) وأدخل في الباب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده! لأذودن رجلاً عن حوضي، كما تذاذ الغريبة من الإبل عن الحوض»^(٤) قال المهلب: لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه، لقوله ﷺ: «لأذودن رجلاً عن حوضي»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

الدالة على تحريم الجنة على الكافرين ولو كانوا آباء الأنبياء

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترٌ وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تُخزيني يوم يبعثون، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجلك، فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»^(٦).

(٢) قاله القرطبي في الجامع (٧/٢١٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢١٥).

(٣) الكشف (٢/٨٢)، وروح المعاني (٨/١٢٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٢٩٨)، والبخاري (٥/٥٥/٢٣٦٧)، ومسلم (٤/١٨٠٠/٢٣٠٢)، وابن ماجه (٢/٤٣٨/٤٣٠٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢١٦).

(٦) البخاري (٦/٤٧٧/٣٣٥٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٢/٤٣٧٥).

* غريب الحديث:

قَتْرَة: سواد يغشى الوجه، كناية عن الكآبة.

غَبْرَة: هو ما يعلق بالشئ من الغبار وما كان على لونه. وقيل: الغبرة: هي القتره، فيكون قوله ﷺ: «قتره وغبرة» تأكيداً لفظياً.

الخزي: إما من الخزي وهو الهوان، وإما من الخزاية وهو الحياء.

الذُّبَح: قال الحافظ: بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة: ذَكْرُ الضباع.

* فوائد الحديث:

في هذا الحديث دليل على أن الله تعالى حرم الجنة على الكافرين وذلك يعم دخولها ونعيمها، فلا يدخلونها، ولا يصل إليهم شيء من نعيمها، شرابها وطعامها ولا غير ذلك.

وفيه: «دليل على أن شرف الولد لا ينفع الوالد إذا لم يكن مسلماً»^(١).

* عن سعد بن عبادة قال: «قلت: يا رسول الله! أي الصدقة أفضل؟ قال: سقي الماء»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال القرطبي: «دل هذا الحديث على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى، وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء، وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمناً موحداً وأحياه، روى البخاري^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا كلب يأكل الثرى من

(١) قاله القسطلاني في «إرشاد الساري» (٣١٠/٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٨٥/٥)، وأبو داود (١٦٧٩/٣١٣/٢)، والنسائي (٣٦٦٦-٣٦٦٧/٥٦٥/٦)، وابن ماجه (٣٣٤٨/١٣٦-١٣٥/٨) وصححه ابن حبان (٣٦٨٤/١٢١٤/٢).

(٣) في صحيحه (٢٣٦٣/٥٢/٥)، وكذا أخرجه: أحمد (٣٧٥/٢)، ومسلم (٢٢٤٤/١٧٦١/٤)، وأبو داود (٣/٥٠-٥١/٢٥٥٠).

العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي، فملاً خفه، ثم أمسكه بفيه ثم رقى، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: في كل ذات كبد رطبة أجر» وعكس هذا ما رواه مسلم^(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقيتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٢).

قال المناوي: «قال الطيبي: وإنما كان أفضل (أي: سقي الماء) لأنه أعم نفعًا في الأجور الدينية والدنيوية، ولذلك امتن الله علينا بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ * لِنُخِشَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا وَشَقِيقُهُمْ»^(٣) الآية. وإنما وصف الماء بالطهور ليشير إلى أن الغرض أنه أصل في الأثر؛ أي: إزالة الموانع من العبادة، وباقي الأغراض تابعة، اهـ. وأقول: محل أفضليته التصديق به على غيره، إذا عظمت الحاجة إليه، كما هو غالب في قطر الحجاز لقلة المياه فيه، ومثله الطريق إليه للحجاج ونحو ذلك، وإلا فالتصدق بنحو الخبز أفضل منه، سيما زمن الغلاء والمجاعة»^(٤).



(١) في صحيحه (٤/١٧٦٠/٢٢٤٢)، وكذا أخرجه: أحمد (٢/٢٦١)، والبخاري (٦/٤٣٨/٣٣١٨)، وابن ماجه (٢/١٤٢١/٤٢٥٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢١٥-٢١٦) بتصرف يسير.

(٣) الفرقان: الآيتان (٤٨ و ٤٩).

(٤) فيض القدير (٢/٣٧).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾^(١)

★ غريب الآية:

اللهو: الشغل عن مهمات الأمور؛ يقال: لَهَوْتُ بكذا ولهيتُ عن كذا: إذا اشتغلت عنه بلهو.

اللعب: كل عمل لا ينتفع به صاحبه. وقيل: فعل ما لا فائدة فيه. وقيل: ما فعل من غير قصد صحيح، وهو بمعنى الهزل، فهو ضد الجد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله عن قيل أهل الجنة للكافرين، يقول - تعالى ذكره -: فأجاب أهل الجنة أهل النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٢) الذين كفروا بالله ورسوله ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي أمرهم الله به ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ يقول: سخرية ولعباً... ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يقول: وخدعهم عاجل ما هم فيه من العيش والخفض والدعة عن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية»^(٣).

وقال الرازي: «وفي الآية لطيفة عجيبة، وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم كانوا كافرين، ثم بين من حالهم أنهم اتخذوا دينهم لهواً أولاً، ثم لعباً ثانياً، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثاً، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة... وقد يؤدي حب الدنيا إلى الكفر والضلال»^(٤).

(٢) الأعراف: الآية (٥٠).

(١) الأعراف: الآية (٥١).

(٣) جامع البيان (٨/ ٢٠١-٢٠٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٩٩/ ١٤).

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِعَائِنِنَا بِجَحَدُونَ﴾ (٥١)

★ غريب الآية:

يجحدون: الجحد والجحود: الإنكار. وقد يتضمن معنى الكفر كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾^(١). وقيل: الجحود: نفي ما في القلب لإثباته، وإثبات ما في القلب نفيه.

نساهم كما نسوا: أي: نتركهم مخلدين في النار كما تركوا أوامرنا ونواهيها. والنسيان يعبر به عن الترك.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول الله - جل ثناؤه -: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: ففي هذا اليوم وذلك يوم القيامة، نساهم يقول: نتركهم في العذاب المبين، جياعاً عطاشاً، بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتباع أبدانهم في طاعة الله»^(٢).

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأن الله تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَحِضُّ رَّبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٣) وقال: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ إِيْتِنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾^(٥)،^(٦).

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِعَائِنِنَا بِجَحَدُونَ﴾ معناه: اليوم

(٢) جامع البيان (٨/٢٠٢).

(٤) طه: الآية (١٢٦).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٢٤).

(١) النمل: الآية (١٤).

(٣) التوبة: الآية (٦٧).

(٥) الجاثية: الآية (٣٤).

ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما كانوا بآياتنا يجحدون ، ف(ما) التي في قوله : ﴿وَمَا كَانُوا﴾ معطوفة على (ما) التي في قوله : ﴿كَمَا نَسُوا﴾ ، وتأويل الكلام : فاليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله يوم القيامة ، وكما كانوا بآيات الله يجحدون ، وهي حججه التي احتج بها عليهم من الأنبياء والرسل والكتب وغير ذلك ، ﴿يَجْحَدُونَ﴾ : يكذبون ولا يصدقون بشيء من ذلك^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

الدالة على إثبات صفة النسيان لله تبارك وتعالى

على الوجه اللائق به سبحانه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «قالوا : يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ، ليست في سحابة؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ، ليس في سحابة؟ قالوا : لا . قال : فوالذي نفسي بيده ، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . قال : فيلقى العبد ، فيقول : أي فل ! ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ، ؟ فيقول : بلى . قال فيقول : أظننت أنك ملاقي؟ فيقول : لا . فيقول : فلإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقي الثاني فيقول : أي فل ! ألم أكرمك ، وأسودك وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أي رب ! فيقول : أظننت أنك ملاقي؟ فيقول : لا ، فيقول : فلإني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : يا رب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويشني بخير ما استطاع ، فيقول : ههنا إذا ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدا عليك ، ويتفكر في نفسه : من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه^(٢) .

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠٢) .

(٢) أخرجه : مسلم (٤/ ٢٢٧٩/ ٢٩٦٨) ، والترمذي (٤/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٢٤٢٨) ، ورواه أحمد (٢/ ٤٩٢) مختصراً .

★ غريب الحديث:

تضارون: وفي رواية «تضامون» وروي: «تضارون» بتشديد الراء وتضعيفها ومعنى المشدد: هل تضارون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها كما تفعلون أول ليلة من الشهر، ومعنى المخفف: هل يلحقكم في رؤيته ضير وهو الضرر.

قُل: معناه: يا فلان، وليس ترخيماً؛ لأنه لا يقال إلا بسكون اللام، ولو كان ترخيماً لفتحوها أو ضموها.

ترأس وتربع: أي: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً. و(ترأس)، ففتح التاء وإسكان الراء وبعدها همزة مفتوحة، ومعناه: رئيس القوم وكبيرهم. وأما (تربع)، ففتح التاء والباء الموحدة، هكذا رواه الجمهور؛ أي: تأخذ المربع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها، يقال: ربيعهم؛ أي: أخذت ربع مالهم.

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «قوله: «أنساك كما نسيته» مثل قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(١) من مجانسة اللفظ مجازاة على فعلهم؛ أي: جازاهم على نسيانهم»^(٢).

وقال ابن عثيمين، وقد سئل: هل يوصف الله تعالى بالنسيان؟

فأجاب: «للنسيان معنيان:

أحدهما: الزهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٣)، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(٤) على أحد القولين، ومثل قوله ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»^(٥)، وقوله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»^(٦). وهذا

(٢) الإكمال (٨/ ٥٢١).

(١) التوبة: الآية (٦٧).

(٤) طه: الآية (١١٥).

(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٥) أخرجه: البخاري (١/ ٦٦٣/ ٤٠١)، ومسلم (١/ ٣٩٨/ ٥٧٢)، وأبو داود (١/ ٦٢٠/ ١٠٢٠-١٠٢٢)، والنسائي (٣/ ٣٣-٣٤/ ١٢٤٢-١٢٤٣)، وابن ماجه (١/ ٣٨٢/ ١٢١١).

(٦) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٢٦٩)، والبخاري (٢/ ٨٩/ ٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١٧٨)، والنسائي (١/ ٣١٩/ ٦١٢)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧/ ٦٩٦).

المعنى للنسيان منتفٍ عن الله عز وجل بالدليلين السمعي والعقلي .

أما السمعي : فقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^(١) ، وقوله عن موسى : ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(٢) ، فقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي : مستقبلهم ، يدل على انتفاء الجهل عن الله تعالى ، وقوله : ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي : ماضيهم ، يدل على انتفاء النسيان عنه ، والآية الثانية دلالتها على ذلك ظاهرة .

وأما العقلي : فإن النسيان نقص ، والله تعالى منزّه عن النقص ، موصوف بالكمال ، كما قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ﴾^(٣) ، وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال .

والمعنى الثاني للنسيان : الترك عن علم وعمد ، مثل قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤) الآية ، ومثل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ على أحد القولين ، ومثل قوله ﷺ ، في أقسام أهل الخيل : «ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها ، فهي له كذلك ستر»^(٥) .

وهذا المعنى من النسيان ثابت لله عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾^(٦) ، وقال تعالى في المنافقين : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٧) .

وفي صحيح مسلم في «كتاب الزهد والرقائق» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فذكر الحديث ، وفيه : «أن الله تعالى يلقي العبد فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني» ، وتركه سبحانه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته ، قال

(١) البقرة : الآية (٢٥٥) .

(٢) طه : الآية (٥٢) .

(٣) النحل : الآية (٦٠) .

(٤) الأنعام : الآية (٤٤) .

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أحمد (٣٨٣/٢) ، والبخاري (٢٣٧١/٥٨/٥) ، ومسلم (٦٨٠-٦٨٢/٢) .

(٦) بسياق طويل ، والترمذي (١٦٣٦/١٤٨/٤) ، وابن ماجه (٢٧٨٨/٩٣٢/٢) ، والنسائي (٥٢٥-٥٢٥/٦) .

(٧) التوبة : الآية (٦٧) .

(٦) السجدة : الآية (١٤) .

اللَّهُ تعالى : ﴿وَتَرَكُوهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾^(٢) ، وقال : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾^(٣) ، والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة ، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه ، وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين ، وإن شاركه في أصل المعنى ، كما هو معلوم عند أهل السنة^(٤) .

* * *

(٢) الكهف : الآية (٩٩) .

(١) البقرة : الآية (١٧) .

(٣) العنكبوت : الآية (٣٥) .

(٤) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (١/ ١٧٢-١٧٤) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

★ غريب الآية:

بكتاب: الكتاب: في الأصل: مصدر كتب؛ أي: جمع، ثم سمي المكتوب فيه: كتابًا، والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة مع المكتوب فيه. فضللناه: أي: بيناه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أقسم - يا محمد - لقد جئنا هؤلاء الكفرة بكتاب، يعني القرآن الذي أنزله إليهم، يقول: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآن مفصلاً مبيناً فيه الحق من الباطل، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يقول: على علم منا بحق ما فصل فيه من الباطل الذي ميز فيه بينه وبين الحق، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ يقول: بيناه ليهتدى ويرحم به قوم يصدقون به وبما فيه من أمر الله ونهيه، وأخباره، ووعدته ووعدته، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى»^(١).

قال ابن كثير: «قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾»^(٢)، ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية. وهذا الذي قاله فيه نظر؛ فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة، ذكره أنه قد أزاح عنهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾»^(٣)،^(٤).

(٢) الأعراف: الآية (٢).

(١) جامع البيان (٨/٢٠٣).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٢٥).

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف، ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجه يصير سماع تلك المناظرات حاملاً للمكلف على الحذر والاحتراز، وداعياً له إلى النظر والاستدلال، بين شرف هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ وهو القرآن، ﴿فَصَلَّيْنَاهُ﴾ أي: ميّزنا بعضه عن بعض، تمييزاً يهدي إلى الرشد ويؤمن عن الغلط والخبط. فأما قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فالمراد أن ذلك التفصيل والتمييز إنما حصل مع العلم التام بما في كل فصل من تلك الفصول من الفوائد المتكاثرة، والمنافع المتزايدة...

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يدل على أن القرآن جعل هدىً لقوم مخصوصين، والمراد أنهم هم الذين اهتموا به دون غيرهم؛ فهو كقوله تعالى في أول سورة (البقرة): ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١)،^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «التفصيل عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصلاً بعضها من بعض بما يزيل الاشتباه، واختلاط بعضها ببعض في الأفهام، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدة، ولا التطويل ببيان جميع فروعه، ففي القرآن تفصيل كل شيء نحتاج إليه في أمر ديننا: أسهب حيث ينبغي الإسهاب، وأوجز حيث يكفي الإيجاز.

مثال ذلك في العقائد: أن البشر قد فتنوا بالشرك، ولبس على أكثرهم الأمر ففرقوا بين توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية؛ إذ ظنوا أن الإيمان بوحدة الرب خالق الخلق ومدبر أموره هو الواجب له الممتنع أن يكون له شريك فيه، دون توحيد الإلهية وهو عبادته وحده، وأنه لا يضر التوجه إلى غيره من المقربين عند المقربين من يتوسل بهم إليه كما يتوجه إليه بالدعاء، وطلب ما يعجز المرء عن نيله من طريق الأسباب، وهذا مخ العباداة ومحضها، وكل من يدعى مثل هذا الدعاء فقد اتخذ معبوداً وإلهاً. وشبهتهم في القديم والحديث أن اتخاذ ولي مع الله بقصد التقرب والتوسل به إليه وشفاعته عنده مما يرضيه، وأن المحذور هو الاستغناء به عنه،

(١) الآية (٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/٩٩-١٠٠).

مأخذ هذا ما يعهدون من الملوك الظالمين الذين يتقرب إليهم الرعايا الضعفاء المستذلون بوزرائهم، ويتوسلون إليهم بحواشيهم وحجابهم، فلأجل هذه الشبهات قرر القرآن إبطال هذا الشرك وأطنب في تفصيله كل الإطناب.

ومثاله في العبادات العملية: أن صفة الصلاة وعدد ركعاتها مما يكفي فيه القدوة والتأسي بالرسول الموكول إليه بيان التنزيل، فلهذا لم يبينها القرآن على الوجه الذي تؤدي به، ولكنه كرر الأمر بإقامتها؛ أي: الإتيان بها على أقوم وجه وأكمله وبين حكمتها وفائدتها في عدة آيات؛ لأن معنى الإقامة لها والحكمة في وجوبها مما يغفل عنه أكثر الناس.

ومثاله في العلم الذي هو أساس الإيمان الصحيح والارتقاء في الدين والدنيا: أن أكثر البشر كانوا قد ألفوا فيه التقليد والأخذ بأقوال من يثقون بهم من آبائهم ورؤساء دينهم ودنياهم. فلهذا كرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين، وجهل الظانين والمرتابين، وكرر الحث على النظر والاستدلال والاعتماد على البرهان، والتشجيع على المعرضين عن آيات السموات والأرض وما فيها من جماد ونبات وحيوان، وعن حكمه الخاصة في خلق الإنسان. فبمثل هذا التفصيل كان الإسلام دين العلم والعقل، وكان القرآن ينبوع الهدى والحكمة والرحمة، فيا حسرة على المحرومين من رحمته، ويا شقاء الطاعنين في هدايته^(١).

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤١-٤٤٢).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ
نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾^(١)

★ غريب الآية:

ينظرون: أي: ينتظرون. يقال: نظرته وأنظرته وانتظرته؛ أي: أخرته.
تأويله: التأويل: من الأول، وهو الرجوع إلى الأصل. وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
تَأْوِيلَهُ﴾ أي: بيانه الذي هو غايته المقصودة منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ : هل ينتظر
هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويحسدون لقاءه ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ يقول: إلا ما
يؤول إليه أمرهم من ورودهم على عذاب الله، وصليهم جحيمه، وأشباه هذا مما
أوعدهم الله به...»

وأما قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فإن معناه: يوم يجيء ما
يؤول إليه أمرهم من عقاب الله، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يقول الذين
ضيعوا وتركوا ما أمروا به من العمل المنجيهم مما آل إليه أمرهم يومئذ من العذاب
من قبل ذلك في الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أقسم المساكين - حين عاينوا
البلاء وحل بهم العقاب - إن رسل الله التي أتتهم بالندارة، وبلغتهم عن الله
الرسالة، قد كانت نصحت لهم، وصدقته عن الله، وذلك حين لا ينفعهم
التصديق، ولا ينجيهم من سخط الله وأليم عقابه كثرة القول والقليل^(٢).

(١) الأعراف: الآية (٥٣).

(٢) جامع البيان (٨/٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم أنهم يقولون عند حلول سخط الله بهم، وورودهم أليم عذابه، ومعاينتهم تأويل ما كانت رسل الله تعدهم: هل لنا من أصدقاء وأولياء اليوم، فيشفعوا لنا عند ربنا، فتنجينا شفاعتهم عنده مما قد حل بنا من سوء فعالنا في الدنيا، أو نردّ إلى الدنيا مرة أخرى، فنعمل فيها بما يرضيه ويعتبه من أنفسنا؟ قال هذا القول المساكين هنالك؛ لأنهم كانوا عهدوا في الدنيا أنفسهم لهم شفعاء تشفع لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقت لا خلة فيه لهم ولا شفاعاة. يقول الله - جل ثناؤه - : ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يقول: غبنوا أنفسهم حظوظها ببيعهم ما لا خطر له من نعيم الآخرة الدائم بالخسيس من عرض الدنيا الزائل، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقول: وأسلمهم لعذاب الله، وحاد عنهم أولياؤهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ويزعمون كذباً وافتراءً أنهم أربابهم من دون الله»^(١).

قال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون بأن الرسل جاءت بالحق، ويتمنون أحد أمرين: أن يشفع لهم شفعاء فينقذوهم، أو يردوا إلى الدنيا ليصدقوا الرسل، ويعملوا بما يرضي الله، ولم يبيّن هنا هل يشفع لهم أحد؟ وهل يردون؟ وماذا يفعلون لو ردوا؟ وهل اعترفهم ذلك بصدق الرسل ينفعهم؟ ولكنه تعالى بيّن ذلك كله في مواضع أخر، فبيّن: أنهم لا يشفع لهم أحد بقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٤)، مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى

(١) جامع البيان (٨/٢٠٣-٢٠٤).

(٢) الشعراء: الآية (١٠٠).

(٣) المدثر: الآية (٤٨).

(٤) الأنبياء: الآية (٢٨).

لِعِبَادِهِ الْكَافِرِينَ^(١)، وقوله: ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢)، وبين أنهم لا يردون في مواضع متعددة، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾^(٣) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٤).

فقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية، دليل على أن النار وجبت لهم، فلا يردون، ولا يعذرون، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾^(٥).

فصرح بأنه قطع عذرهم في الدنيا بالإمهال مدة يتذكرون فيها، وإنذار الرسل، وهو دليل على عدم ردهم إلى الدنيا مرة أخرى، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾^(٦)؛ جواباً لقولهم: ﴿أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدُم كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾^(٧)، بعد قوله تعالى عنهم: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾^(٨)، وقوله: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾^(٩) الآية، بعد قوله: ﴿وَتَرَىٰ الْفٰلِغِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَّةٍ مِّن سَبِيلٍ﴾^(١٠)، وقوله هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾، بعد قوله: ﴿فَهَلْ لَّنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ الآية.

فكل ذلك يدل على عدم الرد إلى الدنيا، وعلى وجوب العذاب، وأنه لا محيص لهم عنه.

وبين في موضع آخر أنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر والطغيان؛ وهو قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(١١)، وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنه تعالى يعلم المعدوم الممكن الذي سبق في علمه أنه لا يوجد كيف يكون لو وجد، فهو تعالى يعلم أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع

(١) الزمر: الآية (٧).

(٣) السجدة: الآيتان (١٢ و ١٣).

(٥) إبراهيم: الآية (٤٤).

(٧) غافر: الآية (١١).

(٩) الشورى: الآية (٤٤).

(٢) التوبة: الآية (٩٦).

(٤) فاطر: الآية (٣٧).

(٦) غافر: الآية (١٢).

(٨) الشورى: الآية (٤٥).

(١٠) الأنعام: الآية (٢٨).

كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾، ويعلم أن المتخلفين من المنافقين عن غزوة تبوك لا يحضرونها؛ لأنه هو الذي ثبطهم عنها لحكمة كما بيّنه بقوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللّٰهُ انِّيْعَانَهُمْ فَتَبَطَّوْهُمْ﴾^(١)، وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوْا فِيْكُمْ مَا زَادُوْكُمْ اِلَّا خَبَالًا وَلَاَوَضَعُوْا خِلَالَكُمْ يَبْغُوْنَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾^(٢)، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوْا فِي طَغْيِنِهِمْ يَعْمَهُوْنَ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من الآيات.

وبيّن في مواضع أخر أن اعترافهم هذا بقولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ لا ينفعهم، كقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٥)، ونحو ذلك من الآيات^(٦).

* * *

(١) التوبة: الآية (٤٦).

(٣) المؤمنون: الآية (٧٥).

(٥) الزمر: الآية (٧١).

(٦) أضواء البيان (٢/١٦-١٧).

(٢) التوبة: الآية (٤٧).

(٤) الملك: الآية (١١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

استوى: أي: استواء يليق به ﷻ.

العرش: أصله: شيء مُسَقَّف. ومنه: عَرَّشْتُ الْكَرَمَ أَعَرَّشُهُ: إذا جعلت له كهيئة سقف.

يطلبه حثيثاً: أي: يطلبه دائماً من غير فتور طلباً سريعاً. والحث: الإعجال والسرعة. والحثيث: السير السريع.

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: إن سيدكم ومصلح أموركم أيها الناس، هو المعبود الذي له العبادة من كل شيء، الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام»^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، لم يفصل هنا ذلك، ولكنه فصله في سورة (فصلت) بقوله: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) وَجَعَلَ فِيهَا رُءُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٤) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا»^(٥).

قال الرازي: «في هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٠٥).

(١) الأعراف: الآية (٥٤).

(٣) فصلت: الآيات (٩-١٢).

(٤) أضواء البيان (٢/ ١٧-١٨).

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿١﴾ والمعنى أن الذي يريكم ويصلح شأنكم، ويوصل إليكم الخيرات، ويدفع عنكم المكروهات، هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيث خلق هذه الأشياء العظيمة وأودع أصناف المنافع وأنواع الخيرات، ومن كان له مرب موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة، فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات، أو يعول على غيره في تحصيل السعادات؟

ثم في الآية دقيقة أخرى: فإنه لم يقل أنتم عبيده، بل قال هو ربكم، ودقيقة أخرى، وهي أنه تعالى لما نسب نفسه إلينا، سمى نفسه في هذه الحالة بالرب، وهو مشعر بالتربية وكثرة الفضل والإحسان، فكأنه يقول: من كان له مرب مع كثرة هذه الرحمة والفضل، فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره؟»^(١).

قال ابن كثير: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٢)، بل الأمر كما قال الأئمة، منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: (من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر)، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص؛ فقد سلك سبيل الهدى»^(٣).

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾»^(٤) ونحو ذلك؛ أشكلت على كثير من الناس إشكالًا ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل، وقوم إلى التشبيه، بجلاء علواً كبيراً عن ذلك كله، والله - جل وعلا - أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا

(١) مفاتيح الغيب (١٤/١٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٢٦-٤٢٧).

(٣) الفتوح: الآية (١٠).

(٤) الشورى: الآية (١١).

إشكال، وحاصل تحليل ذلك، أنه -جل وعلا- بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين: أحدهما: تنزيه الله -جل وعلا- عن مشابهة الحوادث في صفاتهم ﷺ عن ذلك علواً كبيراً، والثاني: الإيمان بكل ما وصف به نفسه، في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾^(١)، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢)، فمن نفى عن الله وصفاً أثبتته لنفسه في كتابه العزيز أو أثبتته له رسوله ﷺ، زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله -جل وعلا-، فقد جعل نفسه أعلم بالله ورسوله بما يليق بالله -جل وعلا-، سبحانه هذا بهتان عظيم، ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبتته لنفسه، أو أثبتته له رسوله ﷺ، مع تنزيهه -جل وعلا- عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فنفى عن نفسه -جل وعلا- مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلالة بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال، والظاهر أن السر في تعبيره بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ دون أن يقول مثلاً: وهو العلي العظيم، أو نحو ذلك من الصفات الجامعة، أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى ووصف صفات خلقه، ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة ألبته. . فإذا حققت كل ذلك علمت أنه -جل وعلا- وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح -جل وعلا- في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم

(١) البقرة: الآية (١٤٠).

(٢) النجم: الآيتان (٤٣).

يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال والجلال القاضية بعظمته وجلاله - جل وعلا - ، وأنه الرب وحده ، المستحق لأن يعبد وحده .

الموضع الأول ، بحسب ترتيب المصحف الكريم : قوله هنا في سورة (الأعراف) : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

الموضع الثاني : قوله تعالى في سورة (يونس) : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ (١) .

الموضع الثالث : قوله تعالى في سورة (الرعد) : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّرَابِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) .

الموضع الرابع : قوله تعالى في سورة (طه) : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (١) إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى (٢) تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى (٣) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٤) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٥)﴾ (٣) .

الموضع الخامس : قوله في سورة (الفرقان) : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ (٤) .

(١) يونس : الآيتان (٤٣ و ٤٤) .

(٢) الرعد : الآيات (٢-٤) .

(٣) طه : الآيات (٢-٦) .

(٤) الفرقان : الآيتان (٥٨ و ٥٩) .

الموضع السادس: قوله تعالى في سورة (السجدة): ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(١).

الموضع السابع: قوله تعالى في سورة (الحديد): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٢).

وقال -جل وعلا- في وصف الحادث بالاستواء على بعض المخلوقات: ﴿لِئَسْتَوِيَ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾^(٣)، ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْعَرْشِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّشَنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٤)، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾^(٥)، ونحو ذلك من الآيات.

وقد علمت مما تقدم أنه لا إشكال في ذلك، وأن للخالق -جل وعلا- استواء لائقًا بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضًا استواء مناسب لحاله، وبين استواء الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق، على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ كما تقدم إيضاحه.

وينبغي للناظر في هذه المسألة التأمل في أمور:

الأمر الأول: أن جميع الصفات من باب واحد؛ لأن الموصوف بها واحد، ولا يجوز في حقه مشابهة الحوادث في شيء من صفاتهم، فمن أثبت مثلًا أنه: سميع بصير، وسمعه وبصره مخالفان لأسماع الحوادث وأبصارهم، لزمه مثل ذلك في جميع الصفات، كالاستواء، واليد، ونحو ذلك من صفاته -جل وعلا-، ولا يمكن الفرق بين ذلك بحال.

الأمر الثاني: أن الذات والصفات من باب واحد أيضًا، فكما أنه -جل وعلا-، له ذات مخالفة لجميع ذوات الخلق، فله تعالى صفات مخالفة لجميع صفات الخلق.

الأمر الثالث: في تحقيق المقام في الظاهر المتبادر السابق إلى الفهم من آيات

(١) السجدة: الآيتان (٥٤ و٥٥).

(٣) الزخرف: الآية (١٣).

(٥) هود: الآية (٤٤).

(٢) الحديد: الآية (٤).

(٤) المؤمنون: الآية (٢٨).

الصفات، كالاستواء واليد مثلاً .

اعلم أولاً : أنه غلط في هذا خلق لا يحصى كثرة من المتأخرين ، فزعموا أن الظاهر المتبادر السابق إلى الفهم من معنى الاستواء واليد مثلاً في الآيات القرآنية هو مشابهة صفات الحوادث ، وقالوا : يجب علينا أن نصرفه عن ظاهره إجماعاً ؛ لأن اعتقاد ظاهره كفر ؛ لأن من شبه الخالق بالمخلوق فهو كافر ، ولا يخفى على أدنى عاقل أن حقيقة معنى هذا القول أن الله وصف نفسه في كتابه بما ظاهره المتبادر منه السابق إلى الفهم الكفر بالله والقول فيه بما لا يليق به - جل وعلا - .

والنبي ﷺ الذي قيل له : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(١) لم يبين حرفاً واحداً من ذلك ، مع إجماع من يعتد به من العلماء على أنه ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه ، وأحرى في العقائد ، ولا سيما ما ظاهره المتبادر منه الكفر والضلال المبين . حتى جاء هؤلاء الجهلة من المتأخرين ، فزعموا أن الله أطلق على نفسه الوصف بما ظاهره المتبادر منه لا يليق ، والنبي ﷺ كتم أن ذلك الظاهر المتبادر كفر وضلال يجب صرف اللفظ عنه ، وكل هذا من تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنة ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) .

ولا يخفى أن هذا القول من أكبر الضلال ومن أعظم الافتراء على الله - جل وعلا - ، ورسوله ﷺ ، والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل وصف وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، فظاهره المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان ، هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث . فبمجرد إضافة الصفة إليه ، - جل وعلا - ، يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق ، وبين شيء من صفات المخلوقين ، وهل ينكر عاقل ، أن السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل : هو منافية الخالق للمخلوق في ذاته ، وجميع صفاته ، لا والله لا ينكر ذلك إلا مكابر .

والجاهل المفترى الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله ؛ لأنه كفر وتشبيه ؛ إنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه بقدر التشبيه بين الخالق والمخلوق ، فأداه

(٢) النور : الآية (١٦) .

(١) النحل : الآية (٤٤) .

شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله - جل وعلا - ، وعدم الإيمان بها ، مع أنه - جل وعلا - هو الذي وصف بها نفسه ، فكان هذا الجاهل مشبهًا أولًا ، ومعتلاً ثانيًا ، فارتكب ما لا يليق بالله ابتداءً وانتهاءً . ولو كان قلبه عارفًا بالله كما ينبغي ، معظماً لله كما ينبغي ، طاهرًا من أقذار التشبيه ، لكان المتبادر عنده السابق إلى فهمه : أن وصف الله - جل وعلا - بالغ من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ، فيكون قلبه مستعدًا للإيمان بصفات الكمال والجلال الثابتة لله في القرآن والسنة الصحيحة ، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق على نحو قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فلو قال متنطع : بينوا لنا كيفية الاتصاف بصفة الاستواء واليد ، ونحو ذلك لنعقلها ، قلنا : أعرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة بتلك الصفات ؟ فلا بد أن يقول : لا . فنقول : معرفة كيفية الاتصاف بالصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات . فسبحان من لا يستطيع غيره أن يحصي الشئاء عليه ، هو كما أثنى على نفسه : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(١) ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢) ، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ يُولَدٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٣) ، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(٤) .

فتحصل من جميع هذا البحث أن الصفات من باب واحد ، وأن الحق فيها متركب من أمرين :

الأول : تنزيه الله - جل وعلا - عن مشابهة الخلق .

والثاني : الإيمان بكل ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ إثباتًا ، أو نفيًا . وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والسلف الصالح ﷺ ما كانوا يشكون في شيء من ذلك ، ولا كان يشكل عليهم^(٥) .

(١) طه : الآية (١١٠) .

(٢) الشورى : الآية (١١) .

(٣) سورة الإخلاص .

(٤) النحل : الآية (٧٤) .

(٥) أضواء البيان (٢/١٨-٣٣) باختصار .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان وتفصيل ما أجمله القرآن في كيفية خلق الأرض

* عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷻ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»^(١).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقد استنكر بعض أهل العلم هذا الخبر قالوا: هو مخالف لظاهر القرآن، وليس الأمر كما قالوا، «فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها، وأن ذلك كان في سبعة أيام، ونص القرآن على أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام، والأرض في يومين لا يعارض ذلك؛ لا احتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة في هذا الحديث، وأنه - أعني الحديث - تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض حتى صارت صالحة للسكنى، ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند الله كآلف سنة، وبعضها مقداره خمسون ألف سنة، فما المانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل، والأيام السبعة من أيامنا هذه، كما هو صريح الحديث؟ فحينئذ فلا تعارض بينه وبين القرآن»^(٢).

وسياتي تفصيل ذلك في موطنه عند قوله تعالى في سورة (فصلت): ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾^(٣) إن شاء الله.

(١) أخرجه: أحمد (٣٢٧/٢)، ومسلم (٢١٤٩/٤ - ٢١٥٠/٢٧٨٩) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٢٩٣/٦/١١٠١).

(٢) من كلام الشيخ الألباني في تعليقه على «المشكاة» (٣/١٥٩٨).

(٣) فصلت: الأيتان (١١ و ١٢).

قوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي: يذهب ظلام
هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا؛ أي:
سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال
تعالى: ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾^(٢) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ
لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٣) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ^(٤) لَا
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^(٥)»، فقوله:
﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره بلا واسطة
بينهما، ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾، منهم من
نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى؛ أي: الجميع تحت قهره وتسخيره
ومشيئته، ولهذا قال منبهاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: له الملك والتصرف^(٦).

وقال القرطبي: «لم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل فاكتفى بأحدهما
عن الآخر مثل: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾^(٧)، ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾^(٨)، وقرأ حميد بن
قيس: (يغشى الليل النهار) ومعناه: أن النهار يغشى الليل^(٩).

(٢) يس: الآيات (٣٧-٤٠).

(٤) النحل: الآية (٨١).

(١) الأعراف: الآية (٥٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٢٧).

(٥) آل عمران: الآية (٢٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢١١).

قوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الغنيان : «المقصود من الآية هنا التفرقة بين الخلق والأمر ، فإن الخلق هو أثر الأمر الكائن به الخلق ، فإن الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون ، فالقول وصفه تعالى ، والخلق - الذي هو المخلوق - مفعوله المكون المخلوق الموجد بالقول ، ولهذا قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فعطف الأمر على الخلق لأنه غيره ، وهو تعالى مختص بذلك وحده ، فلا أحد يشاركه فيهما ، وكلاهما عام شامل ، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق ، ومن ذلك أفعال العباد ، وأمره تعالى يتناول الأمر القدري والأمر الديني الشرعي»^(٢).

قال القرطبي : «قال ابن عيينة : فرق بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر ، فالخلق المخلوق ، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق ، وهو قوله : (كن) ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) ، وفي تفرقة بين الخلق والأمر دليل بين على فساد قول من قال بخلق القرآن ؛ إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقاً ، لكان قد قال : ألا له الخلق والخلق ، وذلك عي من الكلام ومستهجن ومستغث ، والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه ، ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿وَمَنْ عَائِيهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾^(٤) ، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ ، فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره ، فلو كان الأمر مخلوقاً لافتقر إلى أمر آخر يقوم به ، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له ، وذلك محال»^(٥).

وقال صديق حسن خان : «في الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله ، ففيه رد على

(١) الأعراف : الآية (٥٤).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٥٤).

(٣) يس : الآية (٨٢).

(٤) الروم : الآية (٢٥).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢١-٢٢٢).

من يقول: إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا هنّ، وله الأمر المطلق، وليس لأحد أمر غيره، فهو الأمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا اعتراض لأحد من خلقه عليه»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات أفعال العباد وأنها خلق لله

✽ عن زهدم قال: «كان بين هذا الحي من جرم وبين الأشعرين ود وإخاء، فكنا عند أبي موسى الأشعري فقرب إليه الطعام فيه لحم دجاج وعنده رجل من بني تيم الله كأنه من الموالي فدعاه إليه فقال الرجل: إني رأيت يأكُل شيئاً فقذرتَه فحلفت لا آكله. فقال: هلم فلا حدثك عن ذاك، إني أتيت النبي ﷺ في نفر من الأشعرين نستحملة، قال: والله لا أحملكُم وما عندي ما أحملكُم، فأتى النبي ﷺ بنهب إبل فسأل عنا فقال: أين النفر الأشعريون؟ فأمر لنا بخمس ذود غُرّ الذُرَى ثم انطلقنا، قلنا ما صنعنا. حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا وما عنده ما يحملنا ثم حملنا، تغفلنا رسول الله ﷺ يمينه، والله لا نفلح أبداً، فرجعنا إليه فقلنا له، فقال: لست أنا أحملكُم ولكن الله حملكم، إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منه وتحللتها»^(٢).

✽ غريب الحديث:

بنهب إبل: بفتح النون وسكون الهاء بعدها موحدة؛ أي: غنيمة، وأصله ما يؤخذ اختطافاً بحسب السبق إليه على غير تسوية بين الآخذين.
بخمس ذود غُرّ الذُرَى: الذُرَى، بضم الذاو وكسرها وفتح الراء المخففة، جمع ذروة، بكسر الذاو وضمها، وذروة كل شيء: أعلاه، والمراد هنا: الأسنمة، وأما الغُرّ فهي البيض. والذود من الإبل: ما بين الثلاث إلى العشر؛ فهو من إضافة الشيء إلى نفسه.

(١) فتح البيان (٤/٣٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٤٠١)، والبخاري (١٣/٦٤٥/٧٥٥٥)، ومسلم (٣/١٢٦٨/١٦٤٩)، والنسائي (٧/

* عن ابن عباس قال: «قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر حرم، فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعوا إليها من وراءنا، قال: أمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتعطوا من المغنم الخمس. وأنهاكم عن أربع: لا تشربوا في الدباء والنقير والظروف المزفتة والحنتمة»^(١).

★ غريب الحديث:

الدُّبَاء: الدباء بضم المهملة وتشديد الباء الموحدة والمد: هو اليابس من القرع.

النَّقِير: والنقير بفتح النون وكسر القاف: أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء.
الظُرُوف المَزْفَتَة: وهي الأواني التي طليت بالزفت، وهو نوع من القار، والقار: نبت يحرق إذا يبس، تطلّى به السفن وغيرها.
الحنتمة: الحنتم، بفتح المهملة وسكون النون وفتح المثناة من فوق: هي الجرة، وقيل: إنها جرار كانت تعمل من طين وشعر ودم.

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»^(٢).

* وبمثلته عن ابن عمر رضي الله عنهما^(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (٢٢٨/١)، والبخاري (١٣/٥٢٧/٧٥٥٦)، ومسلم (٣/٥١/١٧)، وأبو داود (٥/٥٧/٤٦٧٧)، والترمذي (٤/١٣٠-١٣١/١٥٩٩)، والنسائي (٨/٧٢٨/٥٧٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/٨٠)، والبخاري (١٣/٦٤٥-٦٤٦/٧٥٥٧)، ومسلم (٣/١٦٦٩/٢١٠٦/٩٦)، والنسائي (٨/٦٠٦/٥٣٧٧)، وابن ماجه (٢/٢٢٧/٢١٥١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٠)، والبخاري (١٣/٦٤٦/٧٥٥٨)، ومسلم (٣/١٦٨٩/٢١٠٨)، والنسائي في الكبرى (٥/٩٧٨٧/٥٠٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٢)، والبخاري (١٣/٦٤٦/٧٥٥٩)، ومسلم (٣/١٦٧١/٢١١١).

★ فوائد الأحاديث:

ترجم البخاري لهذه الأحاديث بآيات منها قوله تعالى: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم أورد قول ابن عيينة: بين الله الخلق من الأمر بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

قال ابن بطال: «قال المهلب: غرضه في هذا الباب إثبات أفعال العباد وأقوالهم خلقاً لله تعالى كسائر الأبواب المتقدمة، واحتج بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، ثم فصل بين الأمر بقوله للشيء: كن، وبين خلقه؛ قطعاً للمعتزلة القائلين بأن الأمر هو الخلق، والخلق أنه إذا قال للشيء: كن، معناه أنه كونه؛ نفياً منهم للكلام عن الله، خلافاً لقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾^(٢). . . ثم زاد في بيان الأمر فقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ فجعل الأمر غير خلقه لها وغير تسخيرها الذي هو عن أمره، ثم ذكر قول ابن عيينة أنه فصل بين الخلق والأمر، وجعلهما شيئين، بإدخال حرف العطف بينهما، والأمر منه تعالى قول، وقوله صفة من صفاته غير مخلوق»^(٣).

وسياتي بيان وجه دلالة هذه الأحاديث على أن أفعال العباد خلق لله وكسب للعباد عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآية (٩٦) من سورة (الصافات)، وبالله التوفيق.

(١) الصافات: الآية (٩٦).

(٢) النساء: الآية (١٦٤).

(٣) شرح البخاري (١٠/٥٥٣-٥٥٤).

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١)

★ غريب الآية:

تبارك : أي : تزايد خيره على خلقه ؛ قال الأزهري : تبارك ؛ أي : تعالى وتعظم . قال ابن عرفة : هو تفاعل من البركة ، وهو الكثرة والاتساع . ولا يقال ذلك إلا لله تعالى ، فلا يقال : تبارك فلان ، نص عليه أهل العلم . وكل موضع ذكر فيه لفظة (تبارك) فهو تنبيه على اختصاصه بالخيرات المذكورة مع ذكر (تبارك) .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا : «أي : تعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين كلهم ومدبر أمورهم ، والحقيق وحده بعبادتهم . ف(تبارك) من مادة (البركة) وهي الخير الكثير الثابت ، فهي هنا تنبيه على ما في هذا العالم من الخيرات والنعم التي توجب له الشكر والعبادة على عباده دون ما عبدوه معه ، وليس لهم من الخلق ولا من الأمر شيء»^(٢) .

قال ابن القيم في معرض بيانه لنوع البركة المضافة إلى الله تعالى : «والبركة نوعان أيضًا :

أحدهما : بركة هي فعله تبارك وتعالى ، والفعل منها : بارك ، ويتعدى بنفسه تارة ، وبأداة (على) تارة ، وبأداة (في) تارة ، والمفعول منها : مبارك ، وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالى .

والنوع الثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها : تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له ﷻ ؛ فهو سبحانه المبارك ، وعبد

(١) الأعراف : الآية (٥٤) .

(٢) تفسير المنار (٨ / ٤٥٥) .

ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾^(١)، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٢)، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٣)، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾^(٥)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾^(٦)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾^(٧). أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاضم ونحوهما، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى) الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك (تبارك) دال على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاضم.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله؛ فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، ومن هنا قيل: معناه: تعالى وتعاضم. وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك؛ أي: باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك؛ أي: البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: «جاء بكل بركة». وقيل: معناه: ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضًا. وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه تبارك وتعالى.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف، لا الفعل؛ فإنه فعل لازم، مثل (تعالى) و(تقدس) و(تعاضم).

(١) مريم: الآية (٣١).

(٣) المؤمنون: الآية (١٤).

(٥) الفرقان: الآية (١).

(٧) الفرقان: الآية (٦١).

(٢) الملك: الآية (١).

(٤) الزخرف: الآية (٨٥).

(٦) الفرقان: الآية (١٠).

ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ، ولا قدوسًا ، ولا عظيمًا ؛ هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه ، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه ، فهو المتعالي المتقدس ، فكذلك (تبارك) لا يصح أن يكون معناها : بارك في غيره ، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى هذا لازم وهذا متعدّد ، فعلمت أن من فسر (تبارك) بمعنى : ألقى البركة وبارك في غيره ، لم يصب معناها ، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا ، ف(تبارك) من باب (مجد) ، والمجد : كثرة صفات الجلال والسعة والفضل ، و(بارك) من باب (أعطى) و(أنعم) ، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس ، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي ؛ لينتظم المعنيين ، فقال : مجيء البركة كلها من عنده ، أو البركة كلها من قبله . وهذا فرع على (تبارك) في نفسه .

وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكي» ، وبيننا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه ، فهو المبارك ، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك ، ولهذا كان كتابه مباركًا ، ورسوله مباركًا ، وبيته مباركًا ، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة ، فليلة القدر مباركة ، وما حول الأقصى مبارك ، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة . وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة : «اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(١) . فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء ، أعني ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد ، بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى ، فأخبر أنه السلام ، ومنه السلام ، فالسلام له وصفًا وملكًا ، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام ، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام ، وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا ، فهو المحمود في ذاته ، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا ، فيهبه حمدًا من عنده ، وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا ، وهو العزيز الذي لا شيء أعزّ منه ، ومن عزّ من عباده فبإعزازه له . وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا . وكذلك البركة ، فهو المتبارك في

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/٤١٤/٥٩١) ، وأخرجه كذلك الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٧٥) ، وأبو داود (٢/١٧٦-١٧٧/١٥١٣) ، والترمذي (٢/٩٧-٩٨/٣٠٠) وقال : «حسن صحيح» ، والنسائي (٣/٦٨-٦٩) ، وابن ماجه (١/٣٠٠/٩٢٨) .

ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركًا، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢). وهذا بساط، وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جامًا: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٣). وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فاخرّ ساجدًا لربي، فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن»^(٤). وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»^(٥)، فدل على أن لله ﷻ أسماء وصفات استأثرت بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق»^(٦).



(١) غافر: الآية (٦٤).

(٢) الزخرف: الآية (٨٥).

(٣) قوله: «كما أثنيت على نفسك» جزء من حديث أخرجه: أحمد (٩٦/١)، وأبو داود (١٤٢٧/١٣٤/٢)، والترمذي (٣٥٦٦/٥٢٤/٥) وقال: «حسن غريب من حديث علي لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث حماد بن سلمة»، والنسائي (٢٤٨-٢٤٩/٣)، وابن ماجه (١١٧٩/٣٧٣/١)، والحاكم (٣٠٦/١)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «صحيح»، كلهم أخرجه من حديث علي. وأخرجه: أحمد (٥٨/٦)، ومسلم (٤٨٦/٣٥٢/١)، والترمذي (٤٨٩-٤٩٠/٤٩٣) وقال: «حديث حسن قد روى من غير وجه عن عائشة»، والنسائي (٢٢٢-٢٢٣/٢) وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أحمد (٢/٣) مختصرًا، الترمذي (٣١٤٨/٢٨٩-٢٨٨/٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٣٠٨/١٤٤٠/٢).

(٥) أخرجه من حديث ابن مسعود: أحمد (٣٩١/١)، وأبو يعلى (١٩٨-١٩٩/٥٢٩٧)، والطبراني (١٠/١٦٩-١٧٠/١٠٣٥٢)، وابن حبان (٩٧٢/٢٥٣/٣)، والحاكم (٥١٠-٥٠٩/١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه». قال الذهبي: «وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة». والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/١٠)، وعزاه لأحمد وأبي يعلى والبزار والطبراني، وقال: «ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان». والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ح: ١٩٩).

(٦) بدائع الفوائد (٢/١٨٥-١٨٧).

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَدِرِينَ﴾ (٥٥)

★ غريب الآية:

تَضَرُّعًا: التضرع: إظهار الضراعة، وهي: الذل والضعف والخشوع والمسكنة.

خُفْيَةً: الخفية: ضد العلانية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ادعوا أيها الناس ربكم وحده، فأخلصوا له الدعاء دون ما تدعون من دونه من الآلهة والأصنام، ﴿تَضَرُّعًا﴾ يقول: تذللًا واستكانة لطاعته، ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا مرأاة، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته فعل أهل النفاق والخداع لله ولرسوله...»

وأما قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَدِرِينَ﴾ فإن معناه: إن ربكم لا يحب من اعتدى فتجاوز حده الذي حده لعباده في دعائه ومسألته ربه، ورفع صوته فوق الحد الذي حد لهم في دعائهم إياه ومسألتهم وفي غير ذلك من الأمور^(١).

قال شيخ الإسلام: «وعلى هذا (أي: كون الاعتداء عامًا في جميع الأمور): فيكون أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإن أعظم العدوان الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَدِرِينَ﴾ ومن العدوان أن يدعو غير متضرع، بل دعاء هذا كالمستغني المدلي على ربه، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد، ومن الاعتداء أن يعبد بهما لم يشرع، ويشني

(١) جامع البيان (٨/٢٠٦-٢٠٧).

عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعائه: الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب، وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين: أحدهما محبوب للرب سبحانه وهو الدعاء تضرعاً وخفية. الثاني مكروه له مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو لا يحب فاعله، ومن لا يحبه الله فأى خير يناله^(١).

وقال رحمه الله في بيان ما اشتملت عليه هذه الآية من آداب نوعي الدعاء: «وهذه الآية مشتملة على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرراً ولا نفعاً، وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(٣)، فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع، القاصر والمتعدي، فلا يمكنون لأنفسهم ولا لعبادتهم، وهذا كثير في القرآن، يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر، فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعو خوفاً ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، ..

إذا عرف هذا فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره، قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً^(٤)، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت؛ أي: ما كانت إلا همساً بينهم وبين ربهم ﷻ، وذلك أن الله ﷻ يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وأنه ذكر عبداً صالحاً

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٣-٢٤).

(٢) يونس: الآية (١٠٦).

(٣) يونس: الآية (١٨).

(٤) قلت: لا شك في أفضلية دعاء السر على العلانية، لكن تحديد صفة التفاضل بسبعين ضعفاً يحتاج إلى نص عن المعصوم ﷺ.

ورضي بفعله، فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(١)»^(٢).

وفي الآية أيضاً مشروعية رفع الأيدي في الدعاء؛ لأنه من التضرع.

قال القرطبي: «واختلف العلماء في رفع اليدين في الدعاء، فكرهه طائفة، منهم جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، ورأى شريح رجلاً رافعاً يديه فقال: من تتناول بهما، لا أم لك! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم: قطعها الله، واختاروا إذا دعا الله في حاجة أن يشير بإصبعه السبابة، ويقولون: ذلك الإخلاص، وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه، وكره رفع الأيدي عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم. وروي جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، وروي عن النبي ﷺ، ذكره البخاري، قال أبو موسى الأشعري: دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه، ورأيت بياض إبطيه، ومثله عن أنس^(٣)، وقال ابن عمر: رفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»^(٤)، وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ماداً يديه فجعل يهتف بربه، وذكر الحديث^(٥)، وروى الترمذي عنه^(٦) قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه»، قال: هذا حديث صحيح غريب، وروى ابن ماجه^(٧) عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن ربكم حيي كريم

(١) مريم: الآية (٣). (٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٠-١٥) باختصار.

(٣) رواه أحمد (٣/١٠٤)، والبخاري (٢/٦٣٦-٦٣٧/١٠١٣)، ومسلم (٢/٦١٢-٦١٣/٨٩٧)، وأبو داود (١/٦٩٤-٦٩٥/١١٧٤-١١٧٥)، والنسائي (٣/١٥٩-١٦٠).

(٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/١٥٠-١٥١)، والبخاري (٨/٧٠/٤٣٣٩)، والنسائي (٨/٦٢٨-٦٢٩/٥٤٢٠).

(٥) سيأتي تخريجه في سورة (الأنفال) إن شاء الله تحت قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ الآية (٩).

(٦) في سننه (٥/٤٣٢-٤٣٣/٣٣٨٦) وقال: «صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد تفرد به، وهو قليل الحديث، وقد حدث عنه الناس»، والحاكم (١/٥٣٦) وسكت عنه، وسكت عنه الذهبي أيضاً. وكلام الترمذي فيه اختلاف على حسب النسخ، والحديث ضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٨٤٠/١٤٠٦)، وقال: قال يحيى بن معين: هو حديث منكر، وقال أحمد بن حنبل وأبو حاتم والدارقطني: حماد ضعيف.

(٧) في سننه (٢/١٢٧١/٣٨٦٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٢/١٦٥/١٤٨٨)، والترمذي (٥/٥٢٠/٣٥٥٦).

يستحي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردهما صفراً» أو قال: «خائبين»، احتج الأولون بما رواه مسلم^(١) عن عمارة بن ربيعة، ورأى بشر بن مروان على المنبر رافعاً يديه فقال: قبح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا: وأشار بأصبعه المسبحة، وبما روى سعيد بن أبي عروبة^(٢) عن قتادة أن أنس بن مالك حدثه أن النبي ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء، فإنه كان يرفعهما حتى يرى بياض إبطيه، والأول أصح طرقاً وأثبت من حديث سعيد بن أبي عروبة، فإن سعيداً كان قد تغير عقله في آخر عمره، وقد خالفه شعبة في روايته عن قتادة عن أنس بن مالك فقال فيه: كان رسول الله ﷺ يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، وقد قيل: إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عند ذلك جميل حسن، كما فعل النبي ﷺ في الاستسقاء ويوم بدر.

قلت: والدعاء حسن كيفما تيسر، وهو المطلوب من الإنسان؛ لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله ﷻ والتذلل له والخضوع، فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن، وإن شاء فلا، فقد فعل ذلك النبي ﷺ حسبما ورد في الأحاديث. وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ولم يرد صفة من رفع يدين وغيرها، وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا﴾ فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذكر، وقد دعا النبي ﷺ في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة^(٣).

قال شيخ الإسلام: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُتَعِدِّينَ﴾ عقيب قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية، فهو من المعتدين الذين لا يحبهم، فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعاً وخفية، ومعتد بترك ذلك^(٤).

(١) في صحيحه (٢/٥٩٥/٨٧٤)، وأخرجه أيضاً: أحمد (٤/١٣٥-١٣٦)، وأبو داود (١/٦٦٢/١١٠٤)، والترمذي (٢/٣٩١-٣٩٢/٥١٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (١/٥٣١/١٧١٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/٦٥٧/١٠٣١)، ومسلم (٢/٦١٢/٨٩٥ [٧])، وأبو داود (١/٦٩٢/١١٧٠)، والنسائي (٣/١٥٨)، وابن ماجه (١/٣٧٣/١١٨٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٢٤-٢٢٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/٢٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان آداب الدعاء

* عن أبي موسى قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: «ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنْ كُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمُّ وَلَا غَائِبٌ، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا». ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال لي: «يا عبد الله بن قيس! قل: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها كنز من كنوز الجنة» أو قال: «ألا أدلك به»^(١).

★ غريب الحديث:

ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ: بهمزة وصل مكسورة ثم موحدة مفتوحة؛ أي: ارفقوا، ولا تُجهدوا أنفسكم.

كنز من كنوز الجنة: سمي هذه الكلمة كنزًا؛ لأنها كالكنز في نفاسته وصيانتها عن أعين الناس. والمعنى أن أجرها مدخر لقائلها والمتصف بها، كما يدخر الكنز.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه النذب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت حاجة إلى الرفع رفع، كما جاءت به الأحاديث»^(٢).

قال ابن المنير: «وحسبك في تعين الإسرار بالدعاء اقترانه بالتضرع في الآية، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه، وترى كثيرًا من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء خصوصًا في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد، وتستد المسامع وتستك، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء وفي المسجد، وربما خصلت للعوام حينئذ رقة

(١) أخرجه: أحمد (٣٩٤/٤)، والبخاري (٧٣٨٦/٤٦٠/١٣)، ومسلم (٢٧٠٤/٢٠٧٦/٤)، وأبو داود (٢/

١٨٢-١٨٣/١٨٣، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨)، والترمذي (٤٧٥-٤٧٦/٤٧٦)، والنسائي في الكبرى (٤/

٣٩٨-٣٩٩/٧٦٨١-٧٦٨٠) (١٠١٨٨/٩٧/٦) (١١٤٢٧/٤٣٨/٦)، وابن ماجه (٣٨٢٤/١٢٥٦/٢).

(٢) شرح صحيح مسلم (٢٤/١٧).

لا تحصل مع خفض الصوت ورعاية سمت الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالركة العارضة للنساء والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء، وفي خفض الصوت أوفر وأوفى وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه»^(١).

وقال شيخ الإسلام: «وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة: أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي، وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به، وثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق، وقلبه يسأل طالبًا مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكتًا، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً، ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص، وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه، وسادسها: -وهو من النكت البديعة جدًا- أنه دال على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله ﷺ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ فلما استحضر القلب قرب الله ﷻ، وأنه أقرب إليه من كل قريب، أخفى دعاءه ما أمكنه، وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعينه، بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢)، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص،

(١) الإنصاف (٢/ ٨٣-٨٤) (حاشية الكشف).

(٢) البقرة: الآية (١٨٦).

ليس قرباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب. وسابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يمل اللسان، وتضعف قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر، فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له، بخلاف من خفض صوته. وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بد، وممانعته وعارضته، ولولم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته، فيضعف أثر الدعاء، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة. وتاسعها: أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾^(١) الآية، وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله تعالى، قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار،.. وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله تعالى، فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة. وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو ﷺ، متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب، كما قال النبي ﷺ: «أفضل الدعاء: الحمد لله»^(٢) فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحسوب، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه. والمقصود

(١) يوسف: الآية (٥).

(٢) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: الترمذي (٣٣٨٣/٤٣١/٥) وقال: «هذا حديث غريب»، وابن ماجه (٢/١٢٤٩/٣٨٠٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣١)، وصححه ابن حبان (٨٤٦/١٢٦/٣)، والحاكم (٤٩٨/١)، ووافقه الذهبي.

أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾^(١)، فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه، قال مجاهد وابن جريج: أمروا أن يذكره في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح، وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ الآية، وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبطاط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله ومحبه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل. . . وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته، ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئي، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن. . . فتأمل أسرار القرآن وحكمته، في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء. . . وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه؛ فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه؛ إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو لائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور^(٢).

* عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: أي بُني! سل الله الجنة وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»^(٣).

(١) الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٥-٢٢) باختصار.

(٣) أخرجه: أحمد (٨٧/٤) (٥٥/٥)، وأبو داود (٩٦/٧٣/١)، وابن ماجه (٢/١٢٧١/٣٨٦٤)، وابن حبان (١٥/١٦٦/٦٧٦٤)، والحاكم (١/٥٤٠) وصححه ووافقه الذهبي.

* عن مولى لسعد أن سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحو هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألت الله خيرًا كثيرًا ، وتعوذت بالله من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء» وقرأ هذه الآية : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَدِرِينَ﴾ ، وإن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل»^(١) .

* غريب الحديث:

إستبرقها : هو ما غلظ من الحرير والإبريسم .

أغلالها : جمع غُل ، بضم المعجمة ، وهو طوق من حديد يجعل في العنق .

* فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد : «كراهية الاعتداء في الدعاء»^(٢) .

قال الطيبي : «قال التوربشتي : أنكر الصحابي على ابنه في هذه المسألة ؛ لأنه طمح إلى ما لم يبلغه عملاً وحالاً ، حيث سأل منازل الأنبياء والأولياء ، وجعلها من باب الاعتداء في الدعاء ، لما فيها من التجاوز عن حد الأدب ، ونظر الداعي إلى نفسه بعين الكمال ، والاعتداء في الدعاء يكون من وجوه كثيرة ، والأصل فيه أن يتجاوز عن مواقف الافتقار . . . أو يميل إلى أحد شقي الإفراط والتفريط ، في خاصة نفسه ، وفي غيره إذا دعا له أو عليه»^(٣) .

وقال القرطبي : «والاعتداء في الدعاء على وجوه :

منها : الجهر الكثير والصياح كما تقدم ، ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له

(١) أخرجه : أحمد (١/١٧٢ و١٧٣) ، وأبو داود (٢/١٦١-١٦٢ / ١٤٨٠) . قال المنذري في مختصر السنن (٢/ ١٤٢) : «وابن سعد لم يسم ؛ فإن كان عمر فلا يحتج به» . والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥/ ٢٢٠) وقال في إسناده أبي داود : «وهذا إسناده رجاله ثقات معروفون غير ابن سعد ، لكن أولاد سعد الذين يروون عنه كلهم ثقات ، وهم إبراهيم وعامر وعمر ومحمد ومصعب ، إلا أنه قد اضطربوا في إسناده» .

(٢) وبه بؤب ابن ماجه على حديث ابن مغفل في سننه (٢/ ١٢٧١ / ٣٨٦٤) .

(٣) شرح الطيبي (٣/ ٨٠٣) .

منزلة نبي، أو يدعو في محال، ونحو هذا من الشطط، ومنها أن يدعو طالبًا معصية وغير ذلك، ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة، فيتخير ألفاظًا مفقرة، وكلمات مسجعة، قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معول عليها، فيجعلها شعاره، ويترك ما دعا به رسوله ﷺ، وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(١)

★ غريب الآية:

الطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: لا تشركوا بالله في الأرض، ولا تعصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها. وقد ذكرنا الرواية في ذلك فيما مضى، وبيّنا معناه بشواهد. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يقول: بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته بابتعائه فيهم الرسل دعاء إلى الحق؛ لإيضاحه حججه لهم، ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يقول: وأخلصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئاً غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك، وليكن ما يكون منكم في ذلك خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، وإن من كان دعاؤه إياه على غير ذلك، فهو بالآخرة من المكذّبين؛ لأن من لم يخف عقاب الله، ولم يرج ثوابه، لم يبال ما ركب من أمر يسخطه الله ولا يرضاه»^(٢).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ نهى عن كل فساد - قلّ أو كثر - بعد صلاح - قلّ أو كثر -، فهو على العموم، على الصحيح من الأقوال»^(٣).

وقال أبو حيان: «وما روي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل؛ إذ ادعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه كالظلم بعد العدل، أو الكفر بعد الإيمان، أو المعصية بعد الطاعة، أو بالمعصية،

(٢) جامع البيان (٨/٢٠٧).

(١) الأعراف: الآية (٥٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٢٦).

فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بعد إصلاحها بالمطر والخصب، أو يقتل المؤمن بعد بقاءه، أو بتكذيب الرسل بعد الوحي، أو بتغوير الماء المعين، وقطع الشجر والثمر ضرارًا، أو بقطع الدنانير والدراهم، أو بتجارة الحكام، أو بالإشراك بالله بعد بعثة الرسل، وتقرير الشرائع وإيضاح الملة^(١).

قال شيخ الإسلام: «والداعي إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها يبعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله؛ مفسد؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله ومخالفة أمره؛ قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(٢)، قال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم، فتقول: اللهم العنهم، فبسببهم أجذبت الأرض وقحط المطر. وبالجملة؛ فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا أهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ﷺ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة؛ فإن الله أصلح الأرض برسوله ﷺ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به، ومخالفة رسوله ﷺ.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة الرسول ﷺ، والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عمومًا وخصوصًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إنما ذكر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع، فأمر أولاً بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أمر أيضًا أن يكون الدعاء خوفًا وطمعًا.

(١) البحر المحيط (٤/٣١٣).

(٢) الروم: الآية (٤١).

وفصل الجملتين بجملتين :

إحداهما : خبرية ، ومتضمنة للنهي ، وهي قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١) .

والثانية : طلبية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .

والجملتان مقررتان للجمله الأولى ، مؤكدتان لمضمونها .

ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضاده أمر بدعائه خوفاً وطمعاً ؛ لتعلق قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾^(٢) .

ولما كان قوله : ﴿ وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهي الحب والخوف والرجاء ، عقبها بقوله : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : إنما تنال من دعاه خوفاً وطمعاً ، فهو المحسن ، والرحمة قريب منه ؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة^(٣) .

وقال الرازي : « هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق .

إذا ثبت هذا فنقول : إن وجدنا نصاً خاصاً دل على جواز الإقدام على بعض المضار ، قضينا به تقديماً للخاص على العام ، وإلا بقي على التحريم الذي دل عليه هذا النص .

واعلم أنا كنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾^(٤) أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل ، ثم بينا أنه لما كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله تعالى ، فكذلك في هذه الآية أنها تدل على أن الأصل في المضار والآلام : الحرمة .

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله تعالى داخلاً تحت عموم هذه الآية ، وجميع ما ذكرناه من المباحث واللطائف في تلك الآية فهي موجودة في هذه الآية ، فتلك الآية دالة على أن الأصل في المنافع الحل ، وهذه الآية دالة على أن الأصل في

(٢) الأعراف : الآية (٥٥) .

(١) الأعراف : الآية (٥٥) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٥ / ٢٤-٢٦) .

(٤) الأعراف : الآية (٣٢) .

جميع المضار الحرمه، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررمة لمعناها، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخله تحت هذه العمومات، وأيضا هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضي عليه بين الخصمين، فإنه انعقد وصح وثبت؛ لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفسادا بعد الإصلاح، والنص يدل على أنه لا يجوز.

إذا ثبت هذا فنقول: إن مدلول هذه الآية من هذا الوجه متأكد بعموم قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(١)، وبعموم قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢)، وتحت قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٣)، وتحت سائر العمومات الواردة في وجوب الوفاء بالعهود والعقود.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصا دالا على أن بعض العقود التي وقع التراضي به من الجانبين غير صحيح، قضينا فيه بالبطلان تقديمًا للخاص على العام، وإلا حكمنا فيه بالصحة رعاية لمدلول هذه العمومات. وبهذا الطريق البين الواضح ثبت أن القرآن وافٍ ببيان جميع أحكام الشريعة من أولها إلى آخرها^(٤).

(١) المائدة: الآية (١).

(٢) الصف: الآيتان (٢ و٣).

(٣) المؤمنون: الآية (٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/١٣٩-١٤٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا قريب منهم ، وذلك هو رحمته ؛ لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته ، وما أعد لهم من كرامته ، إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم»^(٢).

وقال ابن كثير: «أي: إن رحمته مرسله للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ»^(٤).

قال ابن القيم في معرض ذكره لمسالك وأوجه إخباره عليه السلام عن الرحمة وهي مؤنثة بالتاء، بقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ وهو مذكر: «المسلك السادس: أن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر لكونه تبعاً له، ومعنى من معانيه، فإذا ذكر أغنى عن ذكره؛ لأنه يفهم منه، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٥)، فاستغنى عن خبر الأعناق بالخبر عن أصحابها، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾^(٦)، المعنى: واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ورسوله كذلك، فاستغنى بإعادة الضمير إلى الله؛ إذ إرضاءه هو إرضاء رسوله، فلم يحتج أن يقول يرضوهما، فعلى هذا يكون الأصل في الآية إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى، وهذا المسلك مسلك حسن، إذا كسي تعبيراً أحسن من هذا، وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الأفهام، وهو من أسرار القرآن، والذي ينبغي أن يعبر عنه به، أن الرحمة صفة من

(١) الأعراف: الآية (٥٦).

(٣) الأعراف: الآيتان (١٥٦ و ١٥٧).

(٥) الشعراء: الآية (٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٩).

(٦) التوبة: الآية (٦٢).

صفات الرب تبارك وتعالى ، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه ؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها ، فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه ، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين ، وقد تقدم في أول الآية أن الله تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته ، ومن أهل سؤاله بإجابته ، وذكرنا شواهد ذلك ، وأن الإحسان يقتضي قرب الرب من عبده ، كما أن للعبد قرب من ربه بالإحسان ، وأن من تقرب منه شبرًا ، تقرب الله منه ذراعًا ، ومن تقرب منه ذراعًا ، تقرب منه باعًا ، فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ، ورحمته قريبة منهم ، وقربه يستلزم قرب رحمته ، ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة ، وأن الله تعالى قريب من المحسنين ، وذلك يستلزم القربين : قربه وقرب رحمته ، ولو قال إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم ؛ لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته ، والأعم لا يستلزم الأخص ، بخلاف قربه ، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته ، فلا تستهن بهذا المسلك فإن له شأنًا ، وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب ، وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به ، وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كافٍ عن الإخبار عن قرب رحمته منهم ، فهو مسلك سابع في الآية ، وهو المختار وهو من أليق ما قيل فيها ، وإن شئت قلت : قربه تبارك وتعالى من المحسنين وقرب رحمته منهم متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فإذا كانت رحمته قريبة منهم فهو أيضًا قريب منهم ، وإذا كان المعنيان متلازمين صح إرادة كل واحد منهما ، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان ، واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ لها وأشرفه وأجله على الإطلاق ، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد ، وهو قربه تبارك وتعالى من عبده ، الذي هو غاية الأمانى ونهاية الآمال ، وقرّة العيون ، وحياة القلوب ، وسعادة العبد كلها ، فكان في العدول عن قريبة إلى قريب من استدعاء الإحسان ، وترغيب النفوس فيه ، ما لا يتخلف بعده إلا من غلبت عليه شقاوته ، ولا قوة إلا بالله^(١) .

قلت : رحمة الله على الإمام ابن القيم على هذا الفهم الطيب والتخريج الحسن

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٣٠-٣٢).

للفظ الآية التي أكثر المفسرون فيها من تخريج الأقوال حيث جعل الصفة التي هي الرحمة ملازمة لموصوفها وغير مفارقة لها فإن وصف بها فهي صفته، وهو تعالى الموصوف بها وحقيقة الأمر لا يفرق بين الصفة والموصوف في الوجود فلهذا محبته هي صفته وهو الموصوف بها وغضبه هو صفته وهو الموصوف به ويده هي صفته وهو الموصوف بها وهكذا بقية الصفات فحسن ما ذكره العلامة ابن القيم بأن التذكير هنا واقع على الموصوف تبارك وتعالى فهو قريب من المحسنين قرباً خاصاً به كما ورد في كثير من آيات القرآن. والله أعلم.

قال القاسمي: «في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾... الآية، ترجيح للطمع على الخوف؛ لأن المؤمن بين الرجاء والخوف، لكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها، غلب الرجاء عليه. وفيه أيضاً تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة، وهو الإحسان في القول والعمل، قال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين»^(١).

قال شيخ الإسلام: «وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم رحمته، ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعاً وخفية وخوفاً وطمعاً، فقرب مطلوبكم منه، وهو الرحمة، بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم»^(٢).

وقال: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه، وتعليله بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بإيمائه وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، وهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعده من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله ﷻ أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم

(١) محاسن التأويل (١٥٢/٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧-٢٦/١٥).

برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان، فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعد ببعد، وقرب بقرب، فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان: الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى، والإقبال إليه والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة، وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»^(١)، فإذا كان هذا هو الإحسان، فرحمته قريب من صاحبه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة»^(٢).

قلت: ما أحسن ما قرره شيخ الإسلام الحبر الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله عليه في بيان أعظم الإحسان وهو الإيمان والتوحيد واتباع السنة والكتاب وفيه رد على المخرفين الذين ينسبون كل ما اخترعوه واختلقوه من ضلال وشركيات إلى الإحسان ويدندنون حول التعلق بهذه الكلمة وهم في الحقيقة مفارقون لمعنى الإحسان بكل ما في الكلمة من معنى؛ وقد رددت على بعض المخرفين من أمثال هؤلاء، وسميت الرد: (الإحسان في اتباع السنة والقرآن لا في تقليد أخطاء الرجال) وهو مطبوع بحمد الله. ولما رأيت هذه الكلمة من الشيخ الإمام حمدت الله وأثنت عليه على ما وفقت له من اختيار العنوان وعساي أن أكون قد وفقت في مضمون الكتاب، فنرجو الله أن يجعلنا من المحسنين المتبعين لكتابه.

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب: أحمد (٢٧/١)، ومسلم (١/٣٦-٣٨/٨)، وأبو داود (٥/٦٩-٧٣/٧٣).

(٢) (٤٦٩٥)، والترمذي (٥/٨-٩/٢٦١٠)، والنسائي (٨/٤٧٢-٤٧٥/٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/٢٤-٢٥/٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٢٧-٢٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى قد تكون صفة ذاتية له، وقد تكون مفعولاً له ومخلوقاً من مخلوقاته، فتكون بذلك من أثر صفة رحمته الذاتية

✽ عن أسامة قال: «كان ابن لبعض بنات النبي ﷺ يقضي فأرسلت إليه أن يأتيها، فأرسل: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل إلى أجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه، فأقسمت عليه، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه ومعاذ ابن جبل وأبي بن كعب وعبادة بن الصامت، فلما دخلنا ناولوا رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تقلقل في صدره حسبته قال: كأنها شنة، فبكى رسول الله ﷺ فقال سعد بن عبادة: أتبكي، فقال: إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١).

✽ غريب الحديث:

تقلقل: أي: تصوّت اضطراباً.

شنة: الشنة والشن: الخلق من كل آنية صنعت من جلد، وجمعها: شنان.

✽ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يا رب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: يعني: أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد، ثلاثاً، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ، ويرد بعضها إلى بعض وتقول: قط قط قط»^(٢).

✽ غريب الحديث:

سقطهم: أي: أراذلهم وأدوانهم.

أوثرث: على صيغة المجهول، بمعنى: اختصمت، من الإيثار، وهو الانفراد بالشيء.

(١) أخرجه: أحمد (٢٠٤/٥)، والبخاري (١٣/٥٣٣/٧٤٤٨)، ومسلم (٢/٦٣٥-٦٣٦/٩٢٣)، وأبو داود (٣/

٤٩٢/٣١٢٥)، وابن ماجه (١/٥٠٦/١٥٨٨)، والنسائي (٤/٣٢١-٣٢٢/١٨٦٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٢٧٦)، والبخاري (١٣/٥٣٣/٧٤٤٩)، ومسلم (٤/٢١٨٦/٢٨٤٦).

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليصيبن أقوامًا سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم: الجهنميون»^(١).

★ غريب الحديث:

سفع من النار: السفع، بفتح السين وسكون الفاء: هو أثر تغير البشرة من حر النار؛ أي: يصيبهم من لهبها ما يغير ألوانهم.

★ فوائد الأحاديث:

ترجم البخاري لهذه الأحاديث بقوله: «باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾».

قال الغنيان: «ومراده بيان أن الرحمة تطلق على المخلوق، فتكون مخلوقة لله مفعولاً له، وذلك من آثار رحمته التي هي صفته تعالى كما في قوله ﷺ جواباً لسعد بن عباد لما قال له: ما هذا؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب العباد، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»، ولكم أشار إلى هذا اللفظ كعادته بذكره غير الصريح والاكتفاء بالتلويح، وفي الآية التي ترجم بها إشارة إلى مراده، فكأنه لحظ أن الرحمة فيها الجنة، وهي قريب من المحسنين، كما في الحديث: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»^(٢) يعني من المسيئين، ولذلك تظهر المناسبة بين الآية المترجم بها وأحاديث الباب، والله أعلم. وقال الحافظ: المراد أنه يدخل من أحسن الجنة التي وعد المتقين برحمته، وقد قال للجنة: «أنت رحمتي»، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة والعلم عند الله. وليس هذا من التأويل المذموم؛ لأنه من المعنى الذي دلت عليه الآية ضمناً، وإلا فمنطوقها دال على صفة الرحمة الموصوف بها رب العالمين - جل وعلا -، ومما يبين ذلك أن هذه الآية جاءت عقب الأمر بالدعاء تضرعاً وخفية، والنهي عن الاعتداء والإفساد في الأرض بالمعاصي، ثم أمر تعالى بدعائه خوفاً وطمعاً، وهذه حال المتقين، الذين أحسنوا في أعمالهم، وأحسنوا

(١) أخرجه: أحمد (١٣٣/٣)، والبخاري (٥٣٣/١٣) (٧٤٥٠).

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أحمد (٣٨٧/١)، والبخاري (٦٤٨٨/٣٩٠/١١).

إلى عباد الله بالنصح لهم، وإصلاح الأرض بالطاعة والبعد عن مساخط الله التي هي الإفساد في البلاد والعباد، وهؤلاء هم المحسنون الذين قريبة منهم رحمة الله تعالى، ومنها الجنة»^(١).

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد (٢/ ٨٠-٨١).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾
 حَقَّ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا
 بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ^(١)

★ غريب الآية:

بُشْرًا: بالباء وإسكان الشين والتنوين: جمع بشير، وهي قراءة عاصم؛ أي: الرياح تبشر بالمطر وشاهده قوله: ﴿وَمَنْ آيَنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾^(٢). وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو: (نُشْرًا) بضم النون والشين، جمع ناشر، على معنى النسب؛ أي: ذات نشر، فهو مثل شاهد وشُهد. ويجوز أن يكون جمع نُشور، كرسول ورُسل. يقال: ريح النُشور: إذا أتت من ههنا وههنا، والنُشور بمعنى المنشور، كالركوب بمعنى المركوب؛ أي: وهو الذي يرسل الرياح منشرة. وقرأ حمزة: (نُشْرًا) بفتح النون وإسكان الشين؛ على المصدر، أعمل فيه معنى ما قبله، كأنه قال: وهو الذي ينشر الرياح نُشْرًا، نشرُ الشيء فانتشر، فكأنها كانت مطوية فنشرت عند الهبوب. ويجوز أن يكون مصدرًا في موضع الحال من الرياح كأنه قال يرسل الرياح مُنْشِرَةً أي: محيية، من أنشر الله الميت فنشر، كما تقول: أتانا ركضًا؛ أي: راكضًا. وقد قيل: إن نُشْرًا - بالفتح - من النشر الذي هو خلاف الظي، على ما ذكرنا، كأن الريح في سكونها كالمطوية، ثم ترسل من طيها ذلك، فتصير كالمنفتحة. وقد فسر أبو عبيد بمعنى متفرقة في وجوها؛ على معنى ينشرها ههنا وههنا.

أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا: أي: احتملته فوجدته قليلًا باعتبار قوتها. والمعنى: حملت الريح سحابًا ثِقَالًا بالماء؛ أي: أثقلت بحمله. يقال: أقل فلان الشيء؛ أي: حمله.

(١) الأعراف: الآية (٥٧).

(٢) الروم: الآية (٤٦).

سُقْنَاهُ: السَّوْقُ: حَثُّ الشَّيْءِ فِي السَّيْرِ لِلْإِسْرَاعِ.
الْبَلَدُ: الْأَرْضُ الَّتِي تَجْمَعُ الْخَلْقَ الْكَثِيرَ، وَمِثْلُهُ الْبَادِيَةُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قدير، نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: «وهو الذي يرسل الرياح نشرًا» أي: ناشرة بين يدي السحاب، الحامل للمطر، ومنهم من قرأ: (بشرًا) كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾^(١)»^(٢).

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿يَبِّتُكَ يَدَى رَحْمَتِهِ﴾ فإنه يقول: قدام رحمته وأمامها، والعرب كذلك تقول لكل شيء حدث قدام شيء وأمامه: جاء بين يديه؛ لأن ذلك من كلامهم، جرى في أخبارهم عن بني آدم، وكثر استعماله فيهم، حتى قالوا ذلك في غير ابن آدم وما لا يدلّه، والرحمة التي ذكرها - جل ثناؤه - في هذا الموضع: المطر»^(٣).

قال ابن كثير: «وهو كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٤)، وقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥)»^(٦).

قال ابن جرير: «فمعنى الكلام إذن: واللّه الذي يرسل الرياح ليثًا هبوبها، طيبًا نسيمها، أمام غيثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحابًا ثقالًا، حتى إذا أقلتها.. ساقه الله لإحياء بلد ميت، قد تعفت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجذب أهله، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات»^(٧).

قال ابن عطية بعد حكايته اختلاف القراءة في لفظة (الرياح) جمعًا وإفرادًا قال:

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٠).

(٤) الشورى: الآية (٢٨).

(١) الروم: الآية (٤٦).

(٣) جامع البيان (٨/ ٢١٠).

(٥) الروم: الآية (٥٠).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٠) بتصرف يسير.

(٧) جامع البيان (٨/ ٢١٠).

«ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أسعد، وذلك أن الرياح حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا﴾^(٣) وأكثر ذكر الريح مفردة، إنما هو بقرينة عذاب كقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾^(٥)، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ تَدْمِثُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾^(٦)، نحا هذا المنحى يحيى بن يعمر وأبو عمرو بن العلاء وعاصم، . . والمعنى في هذا كله بين، وذلك أن ريح السقيا والمطر، أنها هي منتشرة لينة، تجيء من ههنا وتتفرق، فيحسن من حيث هي منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيراً أن يقال لها: رياح، وتوصف بالكثرة ريح الصر والعذاب، عاصفة صرصر جسد واحد شديدة المر مهلكة بقوتها، وبما تحمله أحياناً من الصر المحرق، فيحسن من حيث هي شديدة الاتصال، أن تسمى ريحاً مفردة، وكذلك أفردت الريح في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾^(٧)، من حيث جري السفن، إنما جرت بريح متصلة كأنها شيء واحد، فأفردت لذلك ووصفت بالطيب، إزالة للاشتراك بينها وبين الريح المكروهة، وكذلك ريح سليمان عليه السلام إنما كانت تجري بأمره أو تعصف في حقوله وهي متصلة، وبعد فمن قرأ في هذه الآية الريح بالافراد فإنما يريد به اسم الجنس، وأيضاً فتقيدها بـ(نشر) يزيل الاشتراك، والإرسال في الريح هو بمعنى الإجراء والإطلاق والإسالة، ومنه الحديث: «فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»^(٨)»^(٩).

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ عطف على قوله: ﴿يُقْشَى أَلْبَلُ النَّهَارِ﴾ يتضمن ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته»^(١٠).

(١) الروم: الآية (٤٦).

(٣) الروم: الآية (٤٨).

(٥) الحاقة: الآية (٦).

(٧) يونس: الآية (٢٢).

(٨) أخرجه من حديث ابن عباس عليه السلام: أحمد (١/ ٢٣٠-٢٣١)، والبخاري (٤/ ١٤٦/ ١٩٠٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٤).

(٩) المعجم الوجيز (٢/ ٤١٢).

(١٠) فتح القدير (٢/ ٣٠٢).

وقال ابن عاشور: «وفيه تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع، كقوله: ﴿وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾^(١)، وقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾^(٢)»^(٣).

وقال: «والمقصد الأول من قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ تقرير المشركين وتفنيد إشراكهم، ويتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم؛ لأن الموصول دل على أن الصلة معلومة الانتساب للموصول؛ لأن المشركين يعلمون أن للرياح مصرفاً وأن للمطر منزلاً، غير أنهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنية إلى المجهول غالباً، فيقولون: مطرنا بنوء الثريا ويقولون: غشنا وما شئنا مبنياً للمجهول أي: أغشنا، فأخبر الله تعالى بأن فاعل تلك الأفعال هو الله، وذلك بإسناد هذا الموصول إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ أي: الذي علمتم أنه يرسل الرياح وينزل الماء، وهو الله تعالى كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾^(٤)، فالخبر مسوق لتعيين صاحب هذه الصلة. فهو بمنزلة الجواب عن استفهام مقصود منه طلب التعيين في نحو قولهم: أراحل أنت أم ثاو، ولذلك لم يكن في هذا الإسناد قصر؛ لأنه لم يقصد به رد اعتقاد، فإنهم لم يكونوا يزعمون أن غير الله يرسل الرياح، ولكنهم كانوا كمن يجهل ذلك من جهة إشراكهم معه غيره، فروعي في هذا الإسناد حالهم ابتداءً، ويحصل رعي حال المؤمنين تبعاً؛ لأن السياق مناسب لمخاطبة الفريقين كما تقدم في الآي السابقة»^(٥).

وقال البقاعي في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: «لعله عبر فيه باليدين: اليمنى واليسرى لدلالته - مع ما فيه من الفخامة - على أنه تارة يكون رحمة وتارة يكون عذاباً، كما كان على قوم نوح عليه السلام، وإن كانت الرحمة فيه أغلب، وهي ذات اليمين، وتارة تكون الرياح جامعة لها لحفظ الماء، وتارة مفرقة مبطللة لها، وتارة تكون مقومة للزروع والأشجار، مكملة لها وهي اللواقح، وتارة تكون منمية لها أو

(١) الجن: الآية (١٦).

(٢) الدخان: الآية (١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٨).

(٤) البقرة: الآية (١٦).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٨٠-١٨١).

مهلكة، كما يكون في الخريف، وتارة تكون طيبة، وتارة مهلكة، إما بشدة الحرارة أو البرودة^(١).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ الآية، بين في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحاب على الريح، ثم يسوقه إلى حيث يشاء من بقاع الأرض، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فُسِقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾^(٢) الآية، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان خوف النبي ﷺ

من أن يقع لهذه الأمة ما وقع للأمم قبلها حيث قلبت عليهم النعم نقمًا

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالذبور»^(٥).

★ غريب الحديث:

الصَّبا: بفتح الصاد مقصورة: الريح الشرقية.

الذَّبُّور: بفتح الدال: الريح الغربية.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا رأى مَخِيلَةً في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك فقال النبي ﷺ: وما أدري كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾»^(٦) الآية^(٧).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/٤٢١). (٢) فاطر: الآية (٩).

(٣) السجدة: الآية (٢٧). (٤) أضواء البيان (٢/٣٢٣).

(٥) أخرجه: أحمد (١/٢٢٨)، والبخاري (٦/٣٧٦/٣٣٤٣)، ومسلم (٢/٦١٧/٩٠٠)، والنسائي في الكبرى

(٦/١١٦١٧/٤٩٧). (٦) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٧) أخرجه: أحمد (٦/١٦٧، ٢٤٠)، والبخاري (٦/٣٠٠/٣٢٠٦)، ومسلم (٢/٦١٦/٨٩٩)، وأبو داود (٥/

٣٢٩-٣٣٠/٥٠٩٨)، والترمذي (٥/٣٥٦/٣٢٥٧)، والنسائي في الكبرى (١/٥٦٢/١٨٣١) (٦/٤٥٩/

١١٤٩٢).

★ غريب الحديث:

مَخِيلَة: المخيلة، بفتح الميم: سحابة فيها رعد وبرق لا ماء فيها. ويقال في السماء إذا تغيّمت: أخالت فهي مُخِيلَة، بالضم.
سُرِّيَ: بضم المهملة وتشديد الراء بلفظ المجهول؛ أي: كشف عنه ما خالطه من الوجل.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا الله خيرها، واستعينوا بالله من شرها»^(١).

★ فوائد الأحاديث:

مناسبة هذه الأحاديث للآية -يقول العيني-: «من حيث إنها مشتملة على ذكر الريح والمطر الذي تأتي به الريح»^(٢)، وقد أخبر ﷺ فيما صحّ عنه: «أن الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب»، ولذلك كان ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه؛ «مخافة أن يحصل من ذلك السحاب أو الريح ما فيه ضرر بالناس»^(٣)، أو «أن يصيب أمته عقوبة ذنب العامة كما أصاب الذين قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾»^(٤)،^(٥).

قال ابن رجب: «إنما كان يظهر في وجه النبي ﷺ الخوف من اشتداد الريح؛ لأنه كان يخشى أن تكون عذاباً أرسل على أمته، وكان شدة خوف النبي ﷺ على أمته شفقة عليهم كما وصفه الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾»^(٦)، ولما تلا عليه ابن مسعود: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا

(١) أخرجه: أحمد (٤٠٩/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٠)، وأبو داود (٥٠٩٧/٣٢٩/٥)، وابن ماجه (٣٧٢٧/١٢٢٨/٢)، وصححه ابن حبان (١٠٠٧/٢٨٧/٣)، والحاكم (٢٨٥/٤) ووافقه الذهبي.

(٢) عمدة القاري (٥٦١/١٠).

(٣) قاله الطيبي في «الكاشف» (١٣٢٥/٤).

(٤) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٥) من كلام الكرمانلي في شرحه على البخاري (ج ١٣/١٦٢).

(٦) التوبة: الآية (١٢٨).

مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجَعَلْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا^(١) بكى^(٢)، ولما تلا قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تَكُنْ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾^(٣) الآية؛ بكى وقال: «اللهم أمني أمني»، فأرسل الله جبريل يقول له: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسووك»^(٤)، وكان يقول: «شيبني (هود) وأخوانها»^(٥)، وجاء في رواية مرسلّة: «قصفت علي الأمم» يشير إلى أنه شبيه منها ما ذكر من هلاك الأمم قبل أمته وعذابهم، وكان عند لقاء العدو يخاف على من معه من المؤمنين ويستغفر لهم كما فعل يوم بدر، وبات تلك الليلة يصلي ويبكي ويستغفر لهم، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»^(٦)، وكل هذا من خوفه وشفقته عليهم.

وقد جاء في روايات متعددة^(٧) التصريح بسبب خوفه من اشتداد الريح^(٨).

قال أبو بكر بن العربي: «فإن قيل: كيف يخشى النبي ﷺ أن يعذب القوم وهو فيهم مع قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾»^(٩)،^(١٠).

فالجواب - يقول أبو بكر بن العربي - : «أن الآية قبل الحديث؛ لأن الآية كرامة للنبي ﷺ، ودرجة رفيعة لا تحط بعد أن رفعت، وخطة لا تنتقض بعد أن عقدت، وأن الله لم يعذب أسلافهم؛ لأن النبي ﷺ في أصلابهم، ولم يعذبهم لحرمة وجوده

(١) النساء: الآية (٤١).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود ؓ: أحمد (٣٨٠/١)، والبخاري (٤٥٨٢/٣١٧/٨)، ومسلم (٥٥١/١) ٨٠٠، وأبو داود (٣٦٦٨/٧٤/٤)، والترمذي (٣٠٢٥/٢٢٢/٥)، والنسائي في الكبرى (٢٩-٢٨/٥) ٨٠٧٨.

(٣) المائدة: الآية (١١٨).

(٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ: مسلم (٢٠٢/١٩١/١)، والنسائي في الكبرى (٣٧٣/٦) ١١٢٦٩.

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس ؓ: الترمذي (٣٢٩٧/٣٧٥/٥) وقال: «حسن غريب»، وصححه الحاكم (٢/٣٤٣) على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه من حديث علي: أحمد (١١٧/١)، وأبو داود (٢٦٦٥/١٢٠-١١٩/٣) مختصراً، وقال الهيثمي في المجمع (٧٦-٧٥/٦): «رواه أحمد والبخاري، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضارب، وهو ثقة».

(٧) وسيأتي ذكر الأحاديث الواردة في هذا المعنى في تفسير سورة (الأحقاف) عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ الآية (٢٤).

(٨) الأنفال: الآية (٣٣).

(٩) فتح الباري (٢٣٨-٢٣٧/٩).

(١٠) نقلاً عن الحافظ في «فتح الباري» (٣٧١/٦).

فيهم ، ولم يعذبهم وهم يستغفرون بعد ذهاب نبيهم»^(١) .

قال الحافظ : «يعكر عليه أن آية (الأنفال) كانت في المشركين من أهل بدر ، وفي حديث عائشة إشعار بأنه كان يواظب على ذلك من صنيعه كان إذا رأى فعل كذا ، والأولى في الجواب أن يقال : إن في آية (الأنفال) احتمال التخصيص بالمذكورين ، أو بوقت دون وقت ، أو مقام الخوف يقتضي غلبة عدم الأمن من مكر الله ، وأولى من الجميع أن يقال : خشي على من ليس هو فيهم أن يقع بهم العذاب ، أما المؤمن فشفقة عليه لإيمانه ، وأما الكافر فلرجاء إسلامه ، وهو بعث رحمة للعالمين»^(٢) .

وفيه من الفوائد أيضًا : قال الحافظ : «وفي الحديث تذكر ما يذهل المرء عنه مما وقع للأمم الخالية والتحذير من السير في سبيلهم خشية من وقوع مثل ما أصابهم»^(٣) . وقال النووي : «فيه الاستعداد بالمراقبة لله ، والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال ، وحدث ما يخاف بسببه ، وكان خوفه ﷺ أن يعاقبوا بعصيان العصاة وسروره لزوال سبب الخوف»^(٤) .

وقال الحافظ : «وفيه شفقته ﷺ على أمته ورأفته بهم كما وصفه الله تعالى»^(٥) . «وقد كان ﷺ - يقول القرطبي - لعظيم حلمه ورأفته وشفقته يرتجي لهم الفلاح والرجوع إلى الحق ، وهذا كما قال يوم أحد : «اللهم اغفر لقومي ؛ فإنهم لا يعلمون»^(٦)»^(٧) .

* * *

(١) العارضة (١٢ / ١٤٠) .

(٣) المصدر نفسه .

(٥) فتح الباري (٦ / ٤٧١) .

(٦) أخرجه من حديث عبد الله بن مسعود ؓ : أحمد (١ / ٣٨٠) ، والبخاري (٦ / ٦٣٧ / ٣٤٧٧) ، ومسلم (٣ /

١٤١٧ / ١٧٩٢) ، وابن ماجه (٢ / ١٣٣٥ / ٤٠٢٥) .

(٧) المفهم (٢ / ٥٤٧) .

(٢) فتح الباري (٦ / ٣٧١) .

(٤) شرح مسلم (٦ / ١٧٣) .

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما نحیی هذا البلد الميت بما نزل به من الماء الذي نزل به من السحاب، فنخرج به من الثمرات بعد موته وجذوبته وقحوط أهله، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، أحياء بعد فنائهم، ودروس آثارهم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- للمشركين به من عبدة الأصنام المكذبين بالبعث بعد الممات المنكرين للثواب والعقاب: ضربت لكم أيها القوم هذا المثل، الذي ذكرت لكم من إحياء البلد الميت بقطر المطر الذي يأتي به السحاب، الذي تنشره الرياح، التي وصفت صفتها لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أن من كان ذلك من قدرته فيسير في حقه إحياء الموتى بعد فنائها وإعادتها خلقاً سوياً بعد دروسها»^(٢).

وقال صديق حسن خان في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾: «التشبيه في مطلق الإخراج من العدم، وهذا رد على منكري البعث، ومحصله أن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس، قادر على إحياء الموتى من قبورهم»^(٣).

وقال الخازن: «﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾» الخطاب لمنكري البعث، يقول: إنكم شاهدتم الأشجار وهي مزهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف، ثم إنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأزهار والثمار، ثم إن الله تعالى أحيأها مرة أخرى، فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها. والمعنى: إن ما وصفت ما وصفت من التشبيه والتمثيل لكي تعتبروا وتذكروا وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي»^(٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢١٠).

(١) الأعراف: الآية (٥٧).

(٣) فتح البيان (٤/ ٣٨٣).

(٤) لباب التأويل (٢/ ١٠٠).

وقال السمرقندي: «وفي هذه الآية إثبات القياس، وهو رد المختلف إلى المتفق؛ لأنهم كانوا متفقين أن الله تعالى هو الذي ينزل المطر ويخرج النبات من الأرض، فاحتج عليهم لإحيائهم بعد الموت، بإحياء الأرض بعد موتها»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

المبينة لأدلة القدرة على البعث والنشور

* عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه - في قصة خروج الدجال ومدة مكثه في الأرض - مرفوعاً: «... ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطراً كأنه الطل أو الظل - نعمان الشاك - فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس! هلم إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسئولون...»^(٢).

★ غريب الحديث:

كأنه الطل: الطل: الذي ينزل من السماء في الصحو، والطل أيضاً أضعف المطر.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون، قال: أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»^(٣).

★ غريب الحديث:

البقل: البقل من النبات ما ليس بشجر دق ولا جل، وحقيقة رسمه أنه: ما لم يبق له أرومة على الشتاء بعدما يرعى.

(١) بحر العلوم (١/٥٤٨).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٢/١٦٦)، ومسلم (٤/٢٢٥٨/٢٩٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/١١٦٢٩/٥٠١).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/٨٩٢/٤٩٣٥)، ومسلم (٤/٢٢٧٠-٢٢٧١/٢٩٥٥/١٤١)، بهذا السياق. وأخرج الطرف الأخير منه: أحمد (٢/٣١٥)، وأبو داود (٥/١٠٨/٤٧٤٣)، والنسائي (٤/٤١١-٤١٢)، وابن ماجه (٢/١٤٢٥/٤٢٦٦).

عَجَب الذنب: العجب، بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة، ويقال له: عجم، بالميم أيضًا عوض الباء، وهو عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العصص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع.

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد: «بيان كيفية البعث»^(١)، و«أن إحياء الناس وبعثهم من قبورهم، يكون بمطر ينزله الله ويبعثه على قبورهم، فتنشق عنهم القبور، ثم تعود إليهم أرواحهم»^(٢).

قلت: وهذا المعنى -الذي دل عليه هذان الحديثان في كيفية البعث وإخراج الموتى من قبورهم بعد موتهم للبعث والنشور- هو أحد وجهي التشبيه المذكورين في تأويل قوله تعالى هنا: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾، قال الخازن: «وقيل: إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء، والمعنى أنه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته، فأنبث فيه الزرع والشجر، وجعل فيه الثمر، كذلك يحيي الله الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن كانوا أمواتا ورُممًا بالية؛ لأن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم إلى حشرهم ونشرهم»^(٣).

فإن قال قائل: فما فائدة إعادة نشر الخلق بواسطة هذا المطر، مع أنه تعالى لا يحتاج في فعله ذلك إلى واسطة؟

قيل: «لله عِلْمٌ في ذلك سر لا نعلمه»^(٤).

قال الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والانتسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبته مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهاً شاكًا، لا مؤمنًا مصدقًا ولا جاحدًا مكذبًا»^(٥).

(١) أفاده القرطبي في «التذكرة» (ص: ١٧٧) وأبو حيان في «البحر» (٤/٣٢١).

(٢) أفاده القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/٢٣٠). (٣) لباب التأويل (٢/١٠٠).

(٤) انظر «كشف المشكل» (٣/٤٥٤). (٥) انظر شرح الطحاوية (ص: ٢٠٣-٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

★ غريب الآية:

النكد: كل شيء أخرج إلى طالبه يتعسر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : والبلد الطيبة تربته ، العذبة مشاربه يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث ، وأرسل عليه الحيا ، بإذنه طيباً ثمره في حينه ووقته ، ﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾ فردوت تربته وملحت مشاربه ، ﴿لَا يَخْرِجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ يقول : إلا عسراً في شدة ، كما قال الشاعر :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت أعطيت تافها نكداً

يعني بالتافه : القليل ، وبالنكد : العسر»^(١).

وقال : «وقوله : ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يقول : كذلك نبين آية بعد آية ، وندلي بحجة بعد حجة ، ونضرب مثلاً بعد مثل ، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية ، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة ، باتباعهم ما أمرهم باتباعه ، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة ، وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه مثل للمؤمن ، والذي خبث فلا يخرج نباته إلا نكداً مثل للكافر»^(٢).

قال أبو السعود : «وهذا ما ترى مثل لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب ، إلى المكلفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها ، والمحرومين من مغنم آثارها»^(٣).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢١٢).

(١) جامع البيان (٨/ ٢١١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣٤).

قال الطاهر بن عاشور: «المقصود من هذه الآية التمثيل، وليس المقصود بمجرد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر؛ لأن الغرض المسوق له الكلام، يجمع أمرين: العبرة بصنع الله، والموعظة بما يماثل أحواله»^(١).

قال الرازي: «هذه الآية دالة على أن السعيد لا ينقلب شقيًا وبالعكس، وذلك لأنها دلت على أن الأرواح قسمان: منها ما تكون في أصل جوهرها طاهرة نقية، مستعدة لأن تعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، ومنها ما تكون في أصل جوهرها غليظة كدرة بطيئة القبول للمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة، كما أن الأراضى منها ما تكون سبخة فاسدة، وكما أنه لا يمكن أن يتولد في الأراضى السبخة تلك الأزهار والثمار التي تتولد في الأرض الخيرة، فكذلك لا يمكن أن يظهر في النفس البليدة والكدرة الغليظة، من المعارف اليقينية، والأخلاق الفاضلة، مثل ما يظهر في النفس الطاهرة الصافية... فثبت بهذا البيان أن السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، وأن النفس الطاهرة يخرج نباتها من المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة بإذن ربها، والنفس الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدًا قليل الفائدة والخير، كثير الفضول والشر»^(٢).

وقال: «من الاستدلال بهذه الآية في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿يَاْذِنْ رَبِّهٖ﴾، وذلك يدل على أن كل ما عمله المؤمن من خير وطاعة، لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى»^(٣).

قال صديق حسن خان: «وخص خروج نبات الطيب بقوله: ﴿يَاْذِنْ رَبِّهٖ﴾ على سبيل المدح والتشريف، وإن كان كل من النباتين يخرج بإذنه تعالى، قاله أبو حيان في «النهر»، والمعنى: بمشيئته، وعبر به عن كثرة النبات وحسنه، وغزارة نفعه، لأنه أوقعه في مقابلة قوله: ﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾»^(٤).

قال ابن عاشور: «والإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ﴾ إلى تفنن الاستدلال، بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانية، والدالة أيضًا على وقوع

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٥٠-١٥١).

(٤) فتح البيان (٤/ ٣٨٣).

البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابلية الناس للهدى والانتفاع به، بالاستدلال الواضح البين المقرب في جميع ذلك، فذلك تصريح؛ أي: تنويع وتفنين للآيات؛ أي: الدلائل، والمراد بالقوم الذين يشكرون: المؤمنون؛ تنبيهًا على أنهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأن غيرهم مورد التمثيل بالبلد الخبيث، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١) «(٢)».

قال الرازي: «وإنما ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لأن الذي سبق ذكره هو أنه تعالى يحرك الرياح الطيبة النافعة، ويجعلها سببًا لنزول المطر، الذي هو الرحمة، ويجعل تلك الرياح والأمطار سببًا لحدوث أنواع النبات النافعة اللطيفة اللذيذة، فهذا من أحد الوجهين: ذكر الدليل الدال على وجود الصانع، وعلمه وقدرته وحكمته، ومن الوجه الثاني: تنبيه على إيصال هذه النعمة العظيمة إلى العباد، فلا جرم كانت من حيث إنها دلائل على وجود الصانع وصفاته آيات، ومن حيث إنها نعم يجب شكرها، فلا جرم، قال: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ وإنما خص كونها آيات بالقوم الشاكرين؛ لأنهم هم المنتفعون بها، فهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) «(٤)».

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله

* عن أبي موسى عن النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً،

(١) العنكبوت: الآية (٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٨٦-١٨٧).

(٣) البقرة: الآية (٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٥٢).

فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

★ غريب الحديث:

أجاذب: جمع جذب، وهي الأرض الصلبة التي لا ينصب منها الماء.
قيعان: جمع قاع، وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تُنبِت.

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث بيان للمعنى الذي دلت عليه الآية، وهو يدل على صحة ما ذهب إليه المفسرون في تأويل هذه الآية، كما قال الخازن، حيث قالوا: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فشبّه المؤمن بالأرض الخيرة الطيبة، وشبّه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة، فإذا نزل المطر عليها، أخرجت أنواع الأزهار والثمار، وكذلك المؤمن إذا سمع القرآن آمن به وانتفع به، وظهرت منه الطاعات والعبادات، وأنواع الأخلاق الحميدة، وشبّه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة، التي لا ينتفع بها، وإن أصابها المطر، فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدق به، ولا يزيده إلا عتوًا وكفرًا، وإن عمل الكافر حسنة في الدنيا، كانت بمشقة وكلفة، ولا ينتفع بها في الآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنه: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول: هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة، فالكافر خبيث وعمله خبيث، وقال مجاهد: هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب»^(٢).

قال الحافظ: «قال القرطبي وغيره: ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل منبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت، ثم

(١) أخرجه: أحمد (٣٩٩/٤)، والبخاري (٧٩/٢٣٢/١)، ومسلم (٢٢٨٢/١٧٨٧/٤)، والنسائي في الكبرى (٥٨٤٣/٤٢٧/٣).

(٢) لباب التأويل للخازن (١٠٠/٢).

شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم؛ فهو بمنزلة الأرض الطيبة، شربت فانتفعت في نفسها وأنبت فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع. لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: «نضر الله امرئاً سمع مقالتي فآداهما كما سمعها»^(١)، ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها. وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما. وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بهما، والله أعلم»^(٢).

قال ابن القيم: «فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه، وشقاء من ليس من أهله، وذكر أقسام بني آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم وتقسيم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد، وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث. قال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس»^(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لقد هممتُ أن أمر بحطب يُحْتَطَب، ثم أمر بالصلاة فيؤدَّن لها، ثم أمر رجلاً فيؤمَّ الناس، ثم أخالفُ إلى رجالٍ فأحرقُ عليهم بيوتهم. والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدُهم أنه يجد عَرْقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»^(٤).

★ غريب الحديث:

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أحمد (٤٣٧/١)، والترمذي (٢٦٥٧/٣٣/٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢٣٢/٨٥/١)، وصححه ابن حبان (٦٦/٢٦٨/١).

(٢) فتح الباري (١٧٧/١).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢٤٨/١).

(٤) أخرجه: البخاري (٧٢٢٤/٢٦٦/١٣)، ومسلم (٦٥١/٤٥١/١)، والنسائي (٨٤٧/٤٤٢/٢).

مرماتين: قيل: هما السهمان، وقيل: هما حديدتان كانوا يلعبون بها، وهي ملس كالأسنة كانوا يثبتونها في الأكوام والأغراض، ويقال لها فيما زعم بعضهم: المذاجي، وقال أبو عبيد: يقال: إن المرمأة ما بين ظلفي الشاة، قال: وهذا حرف لا أدري ما وجهه، إلا أن هذا تفسيره، ويروى المرماتين - بكسر الميم وبفتحها - واحدها مرمأة، مثل مرمأة.

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث يشهد لقول من قال: إن الآية ضربت مثلاً للمؤمن والمنافق، ولهذا الغرض - والله أعلم - أورده القرطبي في تفسيره عقب ذكره لقول قتادة في هذه الآية حيث قال: «وقال قتادة: مثل - أي: هذا مثل - من يعمل محتسباً متطوعاً، والمنافق غير المحتسب، ثم ذكر الحديث»^(١).

قال ابن عبد البر: «فهذا توبيخ منه لمن تأخر عن شهود العشاء معه، وتقريع وذم صريح وعتب صحيح؛ إذ أضاف إليهم أن أحدهم لو علم أنه يجد من الدنيا الغرض القليل والتافه الحقير، والنزر اليسير في المسجد لقصده من أجل ذلك، وهو يتخلف عن الصلاة فيه، ولها من الأجر العظيم والثواب الجسيم، ما لا خفاء له عن المؤمن والحمد لله، وكفى بهذا توبيخاً في أثره الطعام واللعب على شهود صلاة الجماعة، هذا منه ﷺ إنما كان قصداً إلى المنافقين وإشارة إليهم، ألا ترى إلى قول ابن مسعود: «ولقد رأيتنا في ذلك الوقت وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم نفاقه»^(٢)، وما أظن أحداً من أصحابه الذين هم أصحابه حقاً كان يتخلف عنه إلا لعذر بين، هذا ما لا يشك فيه مسلم إن شاء الله»^(٣).



(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٣٨٢)، ومسلم (١/٤٥٣/٦٥٤ [٢٥٧])، وأبو داود (١/٣٧٣/٥٥٠)، والنسائي (٢/

٨٤٨/٤٤٢)، وابن ماجه (١/٢٥٥-٢٥٦/٧٧٧).

(٣) التمهيد (٥/٥٤ فتح البر).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩)

★ غريب الآية:

قومه: القوم: سموا بذلك لقيامهم بمهمات الأمور. والأصل في اللفظ إطلاقه على الرجال دون النساء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أقسم ربنا - جل ثناؤه - للمخاطبين بهذه الآية أنه أرسل نوحًا إلى قومهم منذرهم بأسه، ومخوفهم سخطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم: ﴿يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الذي له العباد، وذّلّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبود يستوجب عليكم العبادة غيره، فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم، بمجيئه إياكم بسخط ربكم»^(١).

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة، وبينات قاهرة، وبراهن باهرة، أتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وفيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيانات ليس من خواص قوم محمد عليه الصلاة والسلام؛ بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم، على الجهل والعناد، يفيد تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام وتخفيف ذلك على قلبه.

(١) جامع البيان (٨/٢١٣).

وثانيها : أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا ، والخسارة في الآخرة ، وعاقبة أمر المحققين إلى الدولة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوي قلوب المحققين ، ويكسر قلوب المبطلين .
وثالثها : التنبيه على أنه تعالى وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه ﷺ كان أمياً ، وما طالع كتاباً ، ولا تلمذ أستاذاً ، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله ، وذلك يدل على صحة نبوته^(١) .

قال ابن عاشور في معرض إشارته إلى أن الغرض المقصود بوصف عذاب الآخرة وأحوال الناس في هذه السورة وما تخلل ذلك من الأمثال والتعريض هو الاعتبار والموعظة بما حل بالأمم الخالية ، فقال : «وتتبع هذا الاعتبار أغراض أخرى ، وهي : تسلية الرسول ﷺ وتعليم أمته بتاريخ الأمم التي قبلها ، من الأمم المرسل إليهم ، ليعلم المكذبون من العرب أن لا غضاضة على محمد ﷺ ، ولا على رسالته من تكذيبهم ، ولا يجعله ذلك دون غيره من الرسل ، بله أن يؤيد زعمهم أنه لو كان صادقاً في رسالته ، لأيده الله بعقاب مكذبيه ، لما قالوا على سبيل التهكم والحجاج : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا بَعْدَ الْبَرِّ﴾^(٢) ، وليعلم أهل الكتاب وغيرهم أن ما لقيه محمد ﷺ من قومه هو شنشنة أهل الشقاوة تلقاء دعوة رسل الله ، وأكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق ؛ لأن الغرض من هذه الأخبار ، تنظير أحوال الأمم المكذبة رسلها ، بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمد ﷺ^(٣) .

وقال : «وخاطب نوح قومه كلهم ؛ لأن الدعوة لا تكون إلا عامة لهم ، وعبر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بأصرة القرابة ، ليتحققوا أنه ناصح ، ومريد خيرهم ،

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٥٢-١٥٣) .

(٢) الأنفال : الآية (٣٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٨٧-١٨٨) .

ومشفق عليهم ، وأضاف القوم إلى ضميره للتحبيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم^(١) .

وقال في قوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ : « بني نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم ، دلالة على إحاضه النصيح لهم وحرصه على سلامتهم ، حتى جعل ما يضر بهم كأنه يضر به ، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم ، وذلك لأن قوله هذا كان في مبدأ خطابهم بما أرسل به ، ويحتمل أنه قاله بعد أن ظهر منهم التكذيب : أي : إن كنتم لا تخافون عذاباً فأني أخافه عليكم ، وهذا من رحمة الرسل بقومهم^(٢) .

قال الرازي : « أعلم أنهم اختلفوا في معنى قوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ هل هو اليقين ، أو الخوف بمعنى الظن والشك ؟ قال قوم : المراد منه الجزم واليقين ؛ لأنه كان جازماً بأن العذاب ينزل بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدين . وقال آخرون : بل المراد منه الشك ، وتقريره من وجوه : الأول : أنه إنما قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ لأنه جوز أن يؤمنوا كما جوز أن يستمروا على كفرهم ، ومع هذا التجويز لا يكون قاطعاً بنزول العذاب ، فوجب أن يذكره بلفظ الخوف . والثاني : أن حصول العقاب على الكفر والمعصية أمر لا يعرف إلا بالسمع ، ولعل الله تعالى ما بين له كيفية هذه المسألة فلا جرم بقي متوقفاً مجوزاً أنه تعالى هل يعاقبهم على ذلك الكفر أم لا ؟ والثالث : يحتمل أن يكون المراد من الخوف الحذر ، كما قال في الملائكة : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : يحذرون المعاصي خوفاً من العقاب . الرابع : أنه بتقدير أن يكون قاطعاً بنزول أصل العذاب ، لكنه ما كان عارفاً بمقدار ذلك العذاب ، وهو أنه عظيم جداً أو متوسط ، فكان هذا الشك راجعاً إلى وصف العقاب ، وهو كونه عظيماً أم لا ، لا في أصل حصوله^(٣) .

(١) المصدر السابق (٨ / القسم الثاني / ١٨٨) .

(٢) المصدر السابق (٨ / القسم الثاني / ١٨٩-١٩٠) .

(٣) مفاتيح الغيب (١٤ / ١٥٦) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أخبار نبي الله نوح ﷺ

* عن أنس رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل قال: قال رسول الله ﷺ: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر ذنبه فيستحيي، اتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض...»^(١).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد التصريح بأن نوحًا ﷺ أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض:

قال أبو بكر بن العربي: «نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر الفرائض، كذلك في صحيح الأثر عن النبي ﷺ، ومن قال من المؤرخين: إن إدريس كان قبله فقد وهم، والدليل على صحة وهمه في اتباع صحف اليهود، وكتب الإسرائيليات، الحديث الصحيح في الإسراء، حين لقي النبي ﷺ آدم وإدريس، فقال له آدم: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، وقال له إدريس: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولو كان إدريس أبًا لنوح على صلب محمد، لقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، فلما قال له مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، دل على أنه يجتمع معه في أبيهم نوح، ولا كلام لمنصف بعد هذا»^(٢).

قال القرطبي: «قال القاضي عياض: وجاء جواب الآباء ههنا، كنوح وإبراهيم وآدم: مرحبًا بالابن الصالح، وقال عن إدريس بالأخ الصالح، كما ذكر عن موسى وعيسى ويوسف وهرون ويحيى ممن ليس بأب باتفاق للنبي ﷺ، وقال المازري: قد ذكر المؤرخون أن إدريس جد نوح عليهما السلام، فإن قام الدليل على أن إدريس

(١) أخرجه: أحمد (١١٦/٣)، والبخاري (٢٠٢/٨-٢٠٣/٨)، ومسلم (١/١٨٠-١٨١/١٩٣)، والنسائي في الكبرى (١١٢٤٣/٣٦٤/٦).

(٢) أحكام القرآن (٧٨٥/٢).

بعث أيضًا ، لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح ، لما أخبر ﷺ من قول آدم أن نوحًا أول رسول بعث ، وإن لم يقم دليل جاز ما قالوا ، فصح أن يحمل أن إدريس كان نبيا غير مرسل . قال القاضي عياض : قد يجمع بين هذا بأن يقال : اختص بعث نوح لأهل الأرض - كما قال في الحديث - كافة ، كنبينا ﷺ ، ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم ، وقد استدل بعضهم على هذا بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (٢٢) ، وقد قيل : إن إلياس هو إدريس ، وقد قرئ : (سلام على إدراسين) ، قال القاضي عياض : وقد رأيت أبا الحسن ابن بطال ذهب إلى أن آدم ليس برسول ، ليسلم من هذا الاعتراض ، وحديث أبي ذر الطويل يدل على أن آدم وإدريس رسولان ، قال ابن عطية : ويجمع ذلك بأن تكون بعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس ، وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان ، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة ، والله أعلم (٢٣) .

* عن ابن مسعود قال : كآني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : «اللهم اغفر لقومي ؛ فإنهم لا يعلمون» (٣) .

★ فوائد الحديث:

قال ابن هبيرة : «في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ ذكر ما جرى لنبي قبله من الأذى ليشعر أصحابه وأمته أن صبره على أذى قومه قد سبقه الأنبياء إليه ، وليس هو عن عجز ولا عن ذل كما يظنه أهل الجاهلية ، وإنما هو الرفق بالخلق والأناة بهم والصبر عليهم ، ولا سيما إذا كانوا لا يعلمون ، فيصبر انتظارا لهم أن يؤمنوا ، فيكون صبره ذلك نوعا من المجاهدة في سبيل الله ﷻ ، وقوله : «يمسح الدم عن وجهه» يعني أنه بلغ الأمر به إلى أن اجتراً عليه قومه حتى ضربوه وأدموه في وجهه ، وذلك من أشق ما لقي الأنبياء . وفيه أيضًا دليل على النبي ﷺ لا يولي المشركين

(١) الصافات : الآيتان (١٢٣ و ١٢٤) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٣٢-٢٣٣) .

(٣) أخرجه : أحمد (١/ ٣٨٠ و ٤٢٧) ، والبخاري (٦/ ٦٣٧ و ٣٤٧٧) ، ومسلم (٣/ ١٤١٧ و ١٧٩٢) ، وابن ماجه

(٢/ ١٣٣٥ و ٤٠٢٥) .

ظهره، بل يلقاهم بوجهه، ولذلك شج رسول الله ﷺ في وجهه، وكسرت رباعيته؛ أي: أنه كان مقبلًا غير مدبر ﷺ^(١).

قال الحافظ: «لم أقف على اسم هذا النبي صريحًا، ويحتمل أن يكون هو نوح ﷺ، فقد ذكر ابن إسحق في «المبتدأ» وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسير (الشعراء) من طريق إسحق^(٢)، قال: حدثني من لا أتهم عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه أن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٣) قلت: وإن صح ذلك فكأن ذلك كان في ابتداء الأمر، ثم لما يئس منهم قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٤)، وقد ذكر مسلم بعد تخريج هذا الحديث حديث «أنه ﷺ قال في قصة أحد: «كيف يفلح قوم دموا وجه نبيهم؟» فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٥)»، ومن ثم قال القرطبي: إن النبي ﷺ هو الحاكي والمحكي.. وأما النووي فقال: هذا النبي الذي جرى له ما حكاه النبي ﷺ من المتقدمين، وقد جرى لنبينا نحو ذلك يوم أحد»^(٦).

وتأويل القرطبي بعيد؛ قال الحافظ: «ثم وجدت في مسند أحمد^(٨) من طريق عاصم عن أبي وائل ما يمنع تأويل القرطبي، ويعين الغزوة التي قال فيها رسول الله ﷺ ذلك، ولفظه: «قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين بالجعرانة، قال: فازدحموا عليه، فقال: إن عبدًا من عباد الله بعثه الله إلى قومه فكذبوه وشجوه، فجعل يمسح الدم عن جبينه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، قال عبد الله: فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح جبهته يحكي الرجل». قلت: ولا يلزم من هذا الذي قاله عبد الله أن يكون النبي ﷺ مسح أيضًا، بل الظاهر أنه حكى صفة مسح جبهته خاصة كما مسحها ذلك النبي، وظهر بذلك فساد ما زعمه القرطبي»^(٩).

(١) الإفصاح (٢/ ٧٢-٧٣).

(٢) لعله سقط، والصواب: من طريق ابن إسحق.

(٣) وكذلك أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٣١٣) (شاكراً).

(٤) نوح: الآية (٢٦).

(٥) آل عمران: الآية (١٢٨).

(٦) مسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩١) من حديث أنس.

(٧) فتح الباري (٦/ ٦٤٦).

(٨) أخرجه من حديث ابن مسعود: أحمد (١/ ٤٢٧)، والبخاري (٦/ ٦٣٧/ ٣٤٧٧)، ومسلم (٣/ ١٤١٧).

(٩) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٥).

(٩) فتح الباري (٦/ ٦٤٦-٦٤٧).

* عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية ، عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس قال : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ، ويرفع كل راع ابن راع ، قال : فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل» ، ثم قال : «إن نبي الله نوحًا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك الوصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بـ (لا إله إلا الله) ، فإن السموات السبع والأرضين السبع ، لو وضعت في كفة ووضعت (لا إله إلا الله) في كفة رجحت بهن (لا إله إلا الله) ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ، قصمتهن (لا إله إلا الله) ، و(سبحان الله وبحمده) ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر» . قال : قلت -أو قيل- : يا رسول الله ! هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر؟ قال : الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال : «لا» ، قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال : «لا» ، قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال : «لا» ، قال : أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال : «لا» ، قيل : يا رسول الله ! فما الكبر؟ قال : «سفه الحق ، وغمص الناس»^(١) .

* غريب الحديث:

سيجان : جمع ساج ، كالتيجان جمع تاج ، والساج الطيلسان الأخضر .
حلقة مبهمة : أي : غير معلومة المدخل والطرف .
قصمتهن : بقاف وصاد مهملة وميم ؛ أي : قطعتهن وكسرتهن ، والقصم : كسر الشيء وإبانته ، والفصم ، بالفاء : كسره من غير إبانة .
سفه الحق : قيل : هو أن يرى الحق سفهاً باطلاً ، فلا يقبله ويتعظم عنه ، والمعنى : الاستخفاف بالحق ، وأن لا يراه على ما هو عليه من الرجحان والرزانة .

(١) أخرجه : أحمد (٢/ ١٦٩-١٧٠ و ٢٢٥) واللفظ له ، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٥٤٨) ، والبزار (٤/ ٣٠٦٩ الكشف) . قال في «المجمع» (٨٤/ ١٠) : «رواه البزار ، وفيه محمد بن إسحاق ، وهو مدلس ، وهو ثقة ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح» ، وصححه الحاكم (١/ ٤٨-٤٩) ووافقه الذهبي .

غمص الناس: أي: احتقارهم، وأن لا يراهم شيئاً.

★ فوائد الحديث:

قال محمد ناصر الدين الألباني: «فيه فوائد كثيرة، أكتفي بالإشارة إلى بعضها:

١- مشروعية الوصية عند الوفاة.

٢- فضيلة التهليل والتسبيح، وأنها سبب رزق الخلق.

٣- وأن الميزان يوم القيامة حق ثابت، وله كفتان، وهو من عقائد أهل السنة، خلافاً للمعتزلة وأتباعهم في العصر الحاضر، ممن لا يعتقد ما ثبت من العقائد في الأحاديث الصحيحة، بزعم أنها أخبار آحاد لا تفيد اليقين...

٤- وأن الأرضين سبع كالسموات، وفيه أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما... ويشهد لها قول الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(١) أي: في الخلق والعدد، فلا تلتفت إلى من يفسرها بما يؤول إلى نفي المثلية في العدد أيضاً، اغتراراً بما وصل إليه علم الأوربيين من الرقي، وأنهم لا يعلمون سبع أراضين مع أنهم لا يعلمون سبع سموات أيضاً، أفنكر كلام الله وكلام رسوله بجهل الأوربيين وغيرهم، مع اعترافهم أنهم كلما ازدادوا علماً بالكون، ازدادوا علماً بجهلهم به، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا أُوتِشِرَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

٥- أن التجميل باللباس الحسن ليس من الكبر في شيء، بل هو أمر مشروع؛ لأن الله جميل يحب الجمال، كما قال ﷺ، بمثل هذه المناسبة، على ما رواه مسلم في صحيحه^(٣).

٦- أن الكبر الذي قرن مع الشرك، والذي لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة منه، هو الكبر على الحق، ورفضه بعد تبينه، والطعن في الناس الأبرياء بغير

(١) الطلاق: الآية (١٢).

(٢) الإسراء: الآية (٨٥).

(٣) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: أحمد (٣٩٩/١)، ومسلم (٩٣/١)، وأبو داود (٣٥١/٤).

(٤٠٩١) مختصراً دون ذكر الشاهد، والترمذي (٣١٧-٣١٨/٤)، وابن ماجه (٢٢-٢٣/١).

(٥٩) دون ذكر الشاهد.

حق، فليحذر المسلم أن يتصف بشيء من مثل هذا الكبر، كما يحذر أن يتصف بشيء من الشرك، الذي يخلد صاحبه في النار»^(١).

وقال سليمان آل الشيخ: «وفيه دليل على أن الله تعالى فوق السموات»^(٢).

قلت: وفيه دليل على أنه كان لنوح عليه السلام ابن مؤمن غير الابن الذي أغرقه الله مشركا.

- وفيه الاهتمام بالدعوة إلى التوحيد ابتداءً وانتهاءً وفي سائر أطوار الحياة.

- وفيه الاهتمام بتعليم الأبناء الأوامر والنواهي على طريقة العد والحصر.

* * *

(١) السلسلة الصحيحة (١/ القسم الأول/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٧١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦٠﴾

★ غريب الآية:

الملأ: الأشراف؛ سُموا بذلك لكونهم يملؤون القلوب هيبة، والعيون جلاله.
ضلال: الضلال والضلالة: العدول عن طريق الحق والذهاب عنه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «الملأ أشراف القوم، فإنهم يملؤون العيون رواء بما يكون عادة من تأنقهم بالزي الممتاز وغير ذلك من الشمائل، قال هؤلاء الملأ لنوح: إنا لنراك في ضلال عن الحق بيتن ظاهر بنهيك إيانا عن عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر الذين هم وسيلتنا وشفعاؤنا عند الله تعالى يقبلنا ببركتهم، ويعطينا سؤالنا بوساطتهم؛ لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى. ونحن لا نرى أنفسنا أهلاً لدعائه والتوجه إليه بأنفسنا؛ لما نقترفه من الذنوب التي تبعدنا عن ذلك المقام الأقدس بغير شفيع ولا وسيط من أوليائه وأحبائه. حكموا بضلاله وأكدوه بالتعبير بالرؤية العلمية، وب(أن) و(اللام) وبالظرفية المفيدة للإحاطة، كأنهم قالوا: إنا لنراك في غمرة من الضلال محيطية بك لا تهتدي معها إلى الصواب سبيلاً. وذلك لما رأوه عليه من الثقة بما يدعو إليه»^(١).

قال ابن كثير: «وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾»^(٢)، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾»^(٣)، إلى غير ذلك من الآيات»^(٤).

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٩١-٤٩٢).

(٢) المطففين: الآية (٣٢).

(٣) الأحقاف: الآية (١١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : قال نوح لقومه مجيباً لهم: يا قوم! لم آمركم بما أمرتكم به من إخلاص التوحيد لله وإفراده بالطاعة دون الأنداد والآلهة زوالاً مني عن محجة الحق، وضلالاً لسبيل الصواب، وما بي ما تظنون من الضلال، ولكني رسول إليكم من رب العالمين بما أمرتكم به من إفراده بالطاعة، والإقرار له بالوحدانية، والبراءة من الأنداد والآلهة»^(١).

وقال الألوسي: «ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لهم نحو الحق، ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ نفي للضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه؛ فإن التاء للمرة؛ لأن مقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحق يقتضي ذلك، والوحدة المستفادة منه باعتبار أقل ما ينطلق، فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقل قليل من الضلال، فضلاً عن الضلال المبين»^(٢).

وقال السمرقندي: «وفي الآية بيان أدب الخلق في حسن الجواب والمخاطبة؛ لأنه رد جهلهم بأحسن الجواب، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾»^(٣)، يعني السداد من القول»^(٤).

* * *

(١) جامع البيان (٨/٢١٣-٢١٤).

(٢) روح المعاني (٨/١٥٠).

(٣) الفرقان: الآية (٦٣).

(٤) بحر العلوم (١/٥٤٩).

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

★ غريب الآية:

أبَلِّغُكُمْ: بالتشديد: من التبليغ، وبالتخفيف: من الإبلاغ. يقال: بَلَّغْتَهُ الخبر: إذا أوصلته وأدبته إليه.

الرسالات: جمع رسالة، وهي ما يتحملة النبي إلى قومه من لدن الله ﷻ. وأنصح لكم: النصيحة والنصيحة: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغش.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «هذا خبر من الله - جل ثناؤه - عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكذبوه: ولكني رسول من رب العالمين أرسلني إليكم، فأنا أبليغكم رسالات ربي وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقاب الله على كفركم به، وتكذيبكم إياي، وردكم نصيحتي، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن عقابه لا يرد عن القوم المجرمين»^(١).

قال أبو حيان: «ما أحسن سياق هذه الأفعال، قال أولاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، وهذا مبدأ أمره معهم، وهو التبليغ كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾^(٢)، ثم قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أخلص لكم في تبیین الرشد والسلامة في العاقبة إذا عبدتم الله وحده، ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من بطشه بكم، وهو مآل أمركم إذا لم تفردوه بالعبادة، فنبه على مبدأ أمرهم ومنتهاه معهم»^(٣).

(١) جامع البيان (٨/٢١٤).

(٢) الشورى: الآية (٤٨).

(٣) البحر المحيط (٤/٣٢٥).

قال ابن عاشور: «والمقصود منها - أي: جملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبي﴾ - إفادة التجدد وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم، تأييساً لهم، من متابعتهم إياهم، ولولا هذا المقصد لكان معنى هذه الجملة، حاصلاً من معنى قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾، ولذلك جمع الرسالات؛ لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه»^(١).

قال الزمخشري: «وفي زيادة اللام - أي: في قوله: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ - مبالغة ودلالة على إحاطة النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له، مقصوداً بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح، فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى، ورسله عليهم السلام»^(٢).

قال الخازن: «حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ . . . بصيغة الفعل . . . لأن صيغة الفعل تدل على تجدد النصيح ساعة بعد ساعة، فكان نوح يدعو قومه ليلاً ونهاراً، كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^(٣)، فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾»^(٤).

قلت: ما ذكره الله تعالى في هذه الآية على لسان نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من وصف نفسه بالنصح لقومه؛ دلالة واضحة على أن الداعي إلى الله تعالى شرطه في دعوته أن يكون ناصحاً لدعوته وللمن يدعو، والنصح دائماً هو كمال الإخلاص في الفعل والقول، وأن يبذل كمال قوته العلمية والعملية في ذلك وأن تكون دعوته مستقاة من دعوة الرسول ﷺ خالصة من الأهواء والبدع والشركيات وما يفسدها من رياء وسمعة ومصالح دنيوية وذاتية، فنرجو الله أن يجعلنا من الناصحين وأن لا نكون من العابثين المفسدين.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن نصيح الأمة

هو تبليغ الرسالة وأداء الأمانة

* عن جابر رضي الله عنه في حديث حجة الوداع الطويل، أنه ﷺ خطبهم، فقال في خطبته: «. . . وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٩٣).

(٢) الكشاف (٢/ ٨٦).

(٣) نوح: الآية (٥).

(٤) لباب التأويل (٢/ ١٠٣) بتصرف.

وأديت ونصحت . فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات^(١) .

★ غريب الحديث:

ينكتها : قال القاضي عياض : «كذا الرواية بالتاء ، بالشتين من فوقها ، وهو بعيد المعنى ، قيل صوابه : ينكبها ، بباء واحدة ، وكذا رويناه عن شيخنا أبي الوليد هشام بن أحمد ، من طريق ابن الأعرابي عن أبي داود في تصنيفه : بالباء بواحدة ، وبالتاء اثنتين من طريق أبي بكر النجاري عنه ، ومعناه : يردّها ويقلبها إلى الناس ، مشيرًا إليهم ، ومنه نكب كتابته : إذا قلبها»^(٢) .

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث : دليل على أنه ﷺ بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، فإنه ﷺ «بلغ أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئًا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئًا مما قد يضرهم ، إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه ، وهكذا شأن جميع الرسل»^(٣) .

وفيه شهادة الصحابة رضي الله عنهم للرسول ﷺ ، أنه قد بلغ ما أمر به ، وأدى الأمانة التي أودعها الله للخلق عنده ، ونصح الأمة إلى ما فيه صلاحها وسعادتها ، وإشهاده ﷺ ربه على عبادته بما أقروا به من إبلاغهم ﷺ ما أمر به وأنه لم يكتم شيئًا .

قال أمين خطاب السبكي : «وفيه دليل على أنه يستحب للإمام أن يخطب الحجيج يوم عرفة قبل صلاة الظهر ، بواد عرنة ، يعظهم فيها بما يناسب حالهم ، ويعلمهم مناسك الحج ، وبه قال الأئمة الأربعة والجمهور»^(٤) .

وقال الطيبي : «قوله : «وأنتم تُسألون عني» عطف على مقدر ؛ أي : قد بلغت ما أرسلت به إليكم جميعًا ، غير تارك لشيء مما بعثني الله به ، وأنتم تسألون عن ذلك

(١) أخرجه : مسلم (٢/٨٨٦-٨٩٢/١٢١٨) ، وأبو داود (٢/٤٥٥-٤٦٤/١٩٠٥) ، وابن ماجه (٢/١٠٢٢-١٠٢٧/٣٠٧٤) .

(٢) الإكمال (٤/٢٧٧-٢٧٨) .

(٣) من كلام ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/١٠٣) .

(٤) تكملة المنهل العذب المورود (٢/٢١) .

يوم القيامة، هل بلغكم محمد جميع ما أمر به أن يبلغ إليكم؟ كما قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ أي: إن لم تبلغ الجميع، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ لأنك كتمت شيئاً مما أنزل إليك، فما بلغت جميع ما أنزل إليك، والفاء في قوله: «فما أنتم قائلون» يدل على هذا المحذوف؛ أي: إذا كان الأمر على هذا فبأي شيء تجيبونه؟ ومن تم طبق جوابهم السؤال، فأتوا بالألفاظ الجامعة؛ أي: بلغت ما أنزل إليك، وأدبت ما كان عليك، وزدت على ذلك بما نصحتنا من السنن والآداب وغير ذلك»^(١).

(١) شرح الطيبي (١٩٦٦/٦).

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ
لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أيضًا خبر من الله ﷻ عن ذكره عن قيل نوح لقومه أنه قال لهم إذ ردوا عليه النصيحة في الله، وأنكروا أن يكون الله بعثه نبيًا، وقالوا له: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(١): ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: أو عجبتم أن جاءكم تذكير من الله وعظة، يذكركم بما أنزل ربكم على رجل منكم، قيل: معنى قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾: مع رجل منكم، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ يقول: لينذركم بأس الله، ويخوفكم عقابه على كفركم به، ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ يقول: وكي تتقوا عقاب الله وبأسه بتوحيده، وإخلاص الإيمان به، والعمل بطاعته، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول: وليرحمكم ربكم إن اتقيتم الله، وخفتموه، وحذرتم بأسه»^(٢).

وقال الشنقيطي: «أنكر تعالى في هذه السورة الكريمة على قوم نوح، وقوم هود عجبهم من إرسال رجل، وبين في مواضع أخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك. قال في عجب قوم نبينا ﷺ من ذلك: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾^(٣)، وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾^(٤)، وقال عن الأمم السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَمِيدٌ﴾^(٥)، وقال: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٦١) ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَبِيُّهُمْ﴾^(٦) الآية، وقال: ﴿وَلَيْنَ اطَّعْتُمْ بِشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾^(٧)، وصرح بأن هذا العجب من إرسال

(١) هود: الآية (٢٧).

(٢) ق: الآية (٢).

(٣) القمر: الآيتان (٢٤ و ٢٣).

(٤) يونس: الآية (٢).

(٥) التغابن: الآية (٦).

(٦) المؤمنون: الآية (٣٤).

بشر مانع للناس من الإيمان بقوله : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١).

ورد الله عليهم ذلك في آيات كثيرة كقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾^(٢) الآية ، وقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾^(٣) الآية ، وقوله : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(٤) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات^(٥).

وقال الرازي : «بين تعالى ما لأجله يبعث الرسول ، فقال : ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ، وما لأجله ينذر ، فقال : ﴿وَلِنُنَقِّوْهُمْ﴾ ، وما لأجله يتقون ، فقال : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ، وهذا الترتيب في غاية الحسن ؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار ، والمقصود من الإنذار ، التقوى عن كل ما لا ينبغي ، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة»^(٦).

* * *

(١) الإسراء : الآية (٩٤).

(٣) الفرقان : الآية (٢٠).

(٥) أضواء البيان (٢/٣٣-٣٤).

(٢) الأنبياء : الآية (٧).

(٤) الأنعام : الآية (٩).

(٦) مفاتيح الغيب (١٤/١٥٩).

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾

★ غريب الآية:

الْفُلُّ: السفينة، والْفُلُّك يقع على الجمع والواحد.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فكذب نوحًا قومه، إذ أخبرهم أنه لله رسول إليهم يأمرهم بخلع الأنداد والإقرار بوحدانية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به... ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقول: وأغرق الله الذين كذبوا بحججه، ولم يتبعوا رسله، ولم يقبلوا نصيحته إياهم في الله بالطوفان، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ يقول: عمين عن الحق»^(١).

قال ابن كثير: «﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾»^(٢)، «﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾»^(٣)»^(٤).

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا كيفية إغراقهم، ولكنه بيّنها في مواضع أخر كقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾»^(٥)، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾»^(٦).

قال ابن كثير: «بيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ

(١) جامع البيان (٨/ ٢١٤-٢١٥).

(٢) العنكبوت: الآية (١٥).

(٣) نوح: الآية (٢٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٢).

(٥) القمر: الآية (١١).

(٦) العنكبوت: الآية (١٤).

رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾^(١).

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح عليه السلام بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين.

قال مالك عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح عليه السلام إلا والأرض ملاءى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز.

وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم (جرهم)، وكان لسانه عربياً.

رواهن ابن أبي حاتم. وقد روي هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلاً عن ابن عباس رضي الله عنه^(٢).

قال القاسمي: «قال الجشمي: في الآيات فوائد، منها: أن نوحاً دعاهم أولاً إلى التوحيد. والرسول وإن حمل الشرائع، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد، ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد، فلذلك بدأ به. وجميع الرسل بدؤوا بالتوحيد ثم بالشرائع، ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام، بمكة، في التوحيد»^(٣).

قلت: ما أحسن ما قال هذا المفسر الذي نقل عنه القاسمي رحمه الله حيث جعل الدعوة إلى التوحيد هي الأصل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنها هي المذكورة في القرآن، وما يتبعها من أوامر ونواهي هي تكميل لها وناتج عن تحقيقها، فمن لم يحقق دعوة التوحيد التي بعث بها النبي ﷺ فلا تصح له شريعة، وإن فعل فالشريعة مهما تعددت أوامرها ونواهيها فصحتها متوقفة على تحقيق التوحيد، ولهذا كانت دعوة نبينا ﷺ أكثر زمانها خصص لتحقيق التوحيد، وبعد أن بدأت الشرائع تنزل، كان بيان التوحيد متواصلاً ومصاحباً لنزول الشرائع، ولم ينقطع

(١) غافر: الآيتان (٥١ و٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٣٢-٤٣٣).

(٣) محاسن التأويل (٧/١٦٢).

حتى توفي ﷺ، ولذا تجد السور المدنية التي نزلت فيها الشرائع وأحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة التي قالها بعد بداية نزول الشرائع مليئة بآيات التوحيد، ومن تتبع هذا الأمر وجده ماثلاً واضحاً، ولذا دعوة بدون توحيد لا خير فيها ولا في أصحابها.

فصل في بيان ما اشتملت عليه قصة نوح من فوائد

من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾^(١)، فيه

مسائل:

الأولى: شيء من تفصيل قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾^(٢).

الثانية: معنى قوله: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، ويُبعث إلى الناس

عامة»^(٣).

الثالثة: الملاطفة في الدعوة إلى الله لقوله: ﴿يَقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه.

الرابعة: التي أرسلت الرسل وخلق الخلق لأجلها.

الخامسة: تفسير الآية.

السادسة: دعاؤهم بالرغبة.

السابعة: دعاؤهم بالتخويف.

الثامنة: جواب المأل لهذا الكلام بهذه الجهالة.

التاسعة: كون أهل الباطل ينسبون أهل الحق إلى الجهالة، بل إلى السفاهة، بل

إلى السحر، بل إلى الجنون.

العاشرة: حُسن جوابه لهم، ومقابلة الإساءة بالتي هي أحسن.

الحادية عشرة: تعريفهم بأنهم إنما ردوا وعصوا رب العالمين.

(١) الأعراف: الآية (٥٩).

(٢) النحل: الآية (٣٦).

(٣) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ: أحمد (٣٠٤/٣)، والبخاري (١/٥٧٤/٣٣٥)، ومسلم (١/٣٧٠-

٣٧١/٥٢١)، والنسائي (١/٢٢٩-٢٣١/٤٣٠).

الثانية عشرة: تعريفهم بما فيه من الخصال التي لا غناء لهم عنها .

الثالثة عشرة: تعريفهم أن تلك الخصال لا تقتضي الحسد، بل تقتضي المحبة والانقياد .

الرابعة عشرة: لما عرّفهم أن الرسالة التي أتتهم منه، وعظهم بأنه رب العالمين .

الخامسة عشرة: تعريفهم أن هذا الذي استغربوا ونسبوا من قال إلى الجهالة والجنون هو الواجب في العقل، وهو أيضًا حظهم ونصيبهم من الله؛ لأنه سبب الرحمة، ففي هذا الكلام من أوله إلى آخره من تحقيق الحق، وذكر أدلته العقلية على تحقيقه، وإبطال الباطل وذكر الأدلة العقلية على بطلانه ما لا يخفى على من له بصيرة .

السادسة عشرة: ذكر أنهم كذبوه مع هذا البيان، ففصل الله الخصومة بما ذكر أنه فعل بالفريقين .

السابعة عشرة: ذكر أن ذلك السبب التكذيب بآياته، فدلّ على أنه أتاهاهم بآيات الله .

الثامنة عشرة: أن السبب في ذلك التكذيب هو العمى والجهالة، فهي وصفهم لا وصف خصومهم^(١) .

وفي هذه القصة أيضًا فوائد أخرى ذكرها السعدي في كتابه «تيسير اللطيف المنان»^(٢)، وقد ذكرتها في سورة (هود)؛ للمناسبة .

* * *

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٠٤-١٠٦) .

(٢) (ص: ٢٧٤-٢٧٩) .

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَبْقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذِكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

★ غريب الآية:

سفاهة: السفاهة: الجهالة وخفة الحلم.

أوعجبتكم: العَجَبُ: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء.

خلفاء: جمع خليفة وهو القائم مقام غيره، نيابة عنه في التدبير والتسيير.

الآلاء: النعم. وفي واحدتها أربع لغات: إِلَى كِمَعَى، وَالْي كَرَحَى، وَالْي كَهَجَر، وَالْي كِفْلَس.

بصطة: أي: زيادة واتساعاً.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: يقول -تعالى ذكره-: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، ولذلك نصب هودًا؛ لأنه معطوف به على نوح عليهما السلام، قال هود: يا قوم اعبدوا الله، فأفردوا له العبادة، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره، فإنه ليس لكم إله غيره، أفلا تتقون ربكم فتحذرونه، وتخافون عقابه بعبادتكم غيره، وهو خالقكم ورازقكم دون كل ما سواه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ١٦٦ ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: يقول - تعالى ذكره - مخبراً عما أجاب هوداً به قومه الذين كفروا بالله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الذين جحدوا توحيد الله، وأنكروا رسالة هود إليهم: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ﴾ يا هود ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ يعنون في ضلالة عن الحق والصواب، بتركك ديننا وعبادة آلهتنا، ﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في قيلك: إني رسول من رب العالمين.

﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ يقول: أي ضلالة عن الحق والصواب، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ١٦٧ ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

يعني بقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾: أؤدي ذلك إليكم أيها القوم، ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصح، فاقبلوا نصيحتي، فإنني أمين على وحي الله، وعلى ما أتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه، ولا أزيد، ولا أبدل، بل أبلغ ما أمرت به كما أمرت. ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ يقول: أوعجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظمتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة، على رجل منكم، لينذركم بأس الله، ويخوفكم عقابه؟! ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم وكفروا بربهم؛ فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم لما أهلكهم أهلككم منهم فيها، فاتقوا الله أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة فيهلككم، ويبدل منكم غيركم سنته في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾: زاد في أجسامكم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح، وفي قواكم على قواهم نعمة منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في

أجسامكم وقواكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ يقول: كي تفلحوا، فتدركوا الخلود والبقاء في النعيم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده»^(١).

قال الزمخشري: «وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم، أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله ﷻ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يعضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم»^(٢).

(١) جامع البيان (٨/٢١٥-٢١٦).

(٢) الكشف (٢/٨٧).

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧٠)

★ غريب الآية:

نَذَر: ندع ونترك.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : قالت عاد لهود : أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين كي نعبد الله وحده ، وندين له بالطاعة خالصاً ، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آبائنا يعبدونها ، ونتبرأ منها ؟ فلسنا فاعلي ذلك ولا متبعية على ما تدعوننا إليه ، فائتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله ، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعد»^(١).

قال ابن كثير : «يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، كما قال الكفار من قريش : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٢)»^(٣).

قال الرازي : «اعلم أن هوداً عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع ، وذلك لأنه بين أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة ، وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات ، والجماد لا قدرة له على شيء أصلاً ، وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم . ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن

(٢) الأنفال : الآية (٣٢).

(١) جامع البيان (٨ / ٢٢٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣ / ٤٣٥).

يصدر عنه نهاية الإنعام . وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله ، وأن لا يعبدوا شيئاً من الأصنام ، ومقصود الله تعالى من ذكر أقسام إنعامه على العبيد ، هذه الحجة التي ذكرها . ثم إن هوداً عليه السلام لما ذكر هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد ، فقالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّمُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ ، ثم قالوا : ﴿ فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا ﴾ ، وذلك لأنه عليه السلام قال : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) ، فقوله : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ مشعر بالتهديد والتخويف بالوعيد . فلهذا المعنى قالوا : ﴿ فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا ﴾ ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون كونه كاذباً بدليل أنهم قالوا له : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، فلما اعتقدوا كونه كاذباً قالوا له : ﴿ فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا ﴾ ، والغرض أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذباً ، وإنما قالوا ذلك لأنهم ظنوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر ، فلا جرم استعجلوه على هذا الحد ^(٢) .

* * *

(١) الأعراف : الآية (٦٥) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/١٦٥-١٦٦) .

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

★ غريب الآية:

قد وقع عليكم: أي: وجب وثبت.

رجس: الرجس: اسم لكل متقذر، ثم استعمل في الأفعال القبيحة، ويطلق ويراد به العذاب، وهو المراد في هذا الموضع.

أتجادلونني في أسماء: يعني الأصنام التي عبدوها وكان لها أسماء مختلفة، فالاسم هنا بمعنى المسمى، نظيره: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا﴾^(١)، وهذه الأسماء مثل العزى من الأعز واللات، وليس لها من العز والإلهية شيء. من سلطان: أي: من حجة لكم في عبادتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : قال هود لقومه: قد حل بكم عذاب وغضب من الله...»

وأما قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ فإنه يقول: أتخاصمونني في أسماء سميتموها أصناماً لا تضر ولا تنفع، ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يقول: ما جعل الله لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجون بها، ولا معذرة تعتذرون بها؛ لأن العباداة إنما هي لمن ضر ونفع وأثاب على الطاعة، وعاقب على المعصية، ورزق ومنع؛ فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس، فإنه لا نفع فيه ولا ضرر، إلا أن تتخذ منه آلة، ولا حجة لعابد عبده من

(١) يوسف: الآية (٤٠).

دون الله في عبادته إياه؛ لأن الله لم يأذن بذلك، فيعذر من عبده بأنه يعبدته اتباعاً منه أمر الله في عبادته إياه، ولا هو - إذ كان الله لم يأذن في عبادته، مما يرجي نفعه، أو يخاف ضره في عاجل أو آجل، فيعبد رجاء نفعه، أو دفع ضره - ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ يقول: فانتظروا حكم الله فينا وفيكم، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ حكمه وفصل قضائه فينا وفيكم^(١).

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا شيئاً من هذا الجدال الواقع بين هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبين عاد. ولكنه أشار إليه في مواضع أخر كقوله: ﴿يَكْفُرُوا مَا جِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢)»^(٣).

(١) جامع البيان (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) هود: الآيات (٥٣-٥٦).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٦﴾

★ غريب الآية:

داير: الدابر: الآخر؛ أي: أهلكناهم بالكلية، ودمرناهم عن آخرهم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فَأَنْجَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِهِ، وَبِمَا عَادَ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَهَجَرَ الْأَلْهَةَ وَالْأَوْثَانَ بِرَحْمَةِ مِنَّا، ﴿وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا﴾ يقول: وأهلكنا الذين كذبوا من قوم هود بحججنا جميعًا عن آخرهم، فلم نبق منهم أحدًا»^(١).

قال ابن كثير: «وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن آخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٢) لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه، فتشلق رأسه حتى تُبينه من جثته، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(٣).

قال أبو السعود: «وتقديم حكاية الإنجاء على حكاية الإهلاك... فيه تنبيه على أن مناط النجاة، هو الإيمان بالله تعالى وتصديق آياته، كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب»^(٤).

(٢) الحاقة: الآيات (٦-٨).

(١) جامع البيان (٨/ ٢٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٤٠).

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم، كمرثد بن سعد، ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم، ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين، ونجا الله المؤمنين»^(١).

قال الألوسي: «وفائدة هذا النفي عند الزمخشري التعريض بمن آمن منهم، وبيانه - على ما قال الطيبي - أنه إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان، تزيد رغبته فيه، ويعظم قدره عنده، ونظيره في اعتبار شرف الإيمان، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾»^(٢) الآية. وقال بعضهم: فائدة ذلك بيان أنه كان المعلوم من حالهم أنه سبحانه لو لم يهلكهم ما كانوا ليؤمنوا؛ كما قال جل شأنه في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾»^(٣)، فهو كالعذر عن عدم إيمانهم والصبر عليهم»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة إهلاك قوم عاد

* عن رجل من ربيعة قال: «قدمت المدينة فدخلت على رسول الله ﷺ، فذكرت عنده وافد عاد، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد، قال رسول الله ﷺ: وما وافد عاد؟ قال: قال فقلت: على الخبير سقطت، إن عادًا لما أقحطت بعثت قبلاً، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة فقال: اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التي سقاه، فرفع له صحابات فقيل له: اختر إحداهن، فاختر السوداء منهن، فقيل له: خذها رماًداً رمدداً، لا تذر من عاد أحداً، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة، يعني حلقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾^(٥) ما نذر من شيء ألت عليه إلا جعلته كالرَّمِيمِ»^(٦) الآية»^(٧).

(١) الكشف (٢/ ٨٨-٨٩).

(٢) غافر: الآية (٧).

(٣) يونس: الآية (١٣).

(٤) روح المعاني (٨/ ١٥٩-١٦٠).

(٥) الذاريات: الآيتان (٤١ و ٤٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٢)، والترمذي (٥/ ٣٦٤-٣٦٥/ ٣٢٧٣) واللفظ له، ورواه النسائي في الكبرى (٥/ ١٨١).

(٧) وابن ماجه (٢/ ٩٤١/ ٢٨١٦) مختصراً.

★ غريب الحديث:

قَيْلاً : بفتح القاف وسكون التحتية وباللام : هو وافد عاد .
على الخير سقطت : أي : على العارف بقصة وافد عاد وقعت ، وهو مثل سائر
للعرب .
الجرادتان : هما مغنيتان كانتا بمكة في الزمن الأول مشهورتان بحسن الصوت
والغناء .
الرَّمَدَد : بالكسر : المتناهي في الاحتراق والدقة ، كما يقال : ليل أليل ، ويوم
أيوم : إذا أرادوا المبالغة .

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد تفصيل لما أجمل من صفة إهلاك قوم عاد في هذه
الآية ، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ
أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية (٢٤) من
سورة (الأحقاف) .

فصل في بيان ما تضمنته قصة هود مع قومه من الفوائد

من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : «وأما قصة عاد فنذكر ما فيها من
الزوائد الخاصة :

الأولى : تبين أن أعظم التقوى اتقاء الشرك .

الثانية : وصفه الملائكة بالكفر .

الثالثة : وصفهم نبيهم بالسفاهة التي هي أبلغ من الجهل .

الرابعة : وصفهم إياه بالكذب .

الخامسة : استعطافه إياهم بأمانته .

السادسة : وعظه إياهم بتلك الآية الواضحة العظيمة .

السابعة: فيه ما يدل على أنهم يعلمون ذلك لقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾^(١).
 الثامنة: وعظه إياهم بتذكيرهم نعمة الله باستخلافهم في الأرض بعد قوم نوح.
 التاسعة: وعظه بزيادة النعمة على أهل زمانهم بزيادتهم في الخلق بسطة.
 العاشرة: ذكر أن ذلك لا يدل على الكرامة، بل قد يكون السبب للإهانة.
 الحادية عشرة: ذكر أن هذا الذي كرهوه هذه الكراهة هو في غاية فلاحهم.
 الثانية عشرة: ذكر ما أجابوه به عن هذا الكلام الذي هو في غاية الحُسن.
 الثالثة عشرة: ذكر أن هذا الخلاف بينه وبينهم في توحيد العبادة، لا في أصل العبادة.

الرابعة عشرة: ذكر عمدتهم اتباع السواد الأعظم.
 الخامسة عشرة: زيادة العتوب قولهم: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُ﴾.
 السادسة عشرة: ذكر أن الصدق ممدوح عندهم، وكذلك الكذب مذموم عندهم.

السابعة عشرة: ذكر المسألة المهمة، وهي إنكاره عليهم الاعتماد على ذلك الدليل مع كونه لم ينزل فيه نص من الله.
 الثامنة عشرة: كونه بين لهم كبر جهالتهم كيف تجاسروا على الجدل بذلك.
 التاسعة عشرة: معرفة الأشياء التي لا حقيقة لها من الحقائق.
 العشرون: كون الشيء معمولاً به قرناً بعد قرن من غير نكير لا يدل على صحته.
 الحادية والعشرون: أمره إياهم بانتظار الوعيد.
 الثانية والعشرون: إخباره بانتظارهم الوعد^(٢).

(١) الأعراف: الآية (٦٩).

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٠٦-١٠٨).

قوله تعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا . . . ومعنى الكلام : وإلى بني ثمود أخاهم صالحًا . . . قال : ﴿يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يقول : قال صالح لثمود : يا قوم ! اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فما لكم إله يجوز لكم أن تعبدوه غيره ، وقد جاءكم حجة وبرهان على صدق ما أقول ، وحقيقة ما إليه أدعو من إخلاص التوحيد لله ، وإفراده بالعبادة دون ما سواه ، وتصديقي على أنني له رسول ، وبيّنتي على ما أقول ، وحقيقة ما جئتكم به من عند ربي ، وحجتي عليه هذه الناقة التي أخرجها الله من هذه الهضبة^(١) دليلًا على نبوتي ، وصدق مقالتي ، فقد علمتم أن ذلك من المعجزات التي لا يقدر على مثلها أحد إلا الله . وإنما استشهد صالح فيما بلغني على صحة نبوته عند قومه ثمود بالناقة ؛ لأنهم سألوه إياها آية ، ودلالة على حقيقة قوله . . .

وأما قوله : ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ فإنه يقول : ولا تمسوا ناقة الله بعقر ولا نحر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ يعني : موجع^(٢) .

قال ابن كثير : «﴿يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا

(١) لا أعلم في أن ناقة صالح خرجت من هضبة أو جبل أو سهل حديثاً يصح ، وهذا من الأمور الغيبية التي يستدل لها بالنقل الصحيح .

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٢٤-٢٣١) .

(٣) الأنبياء : الآية (٢٥) .

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافُوتَ^(١) (٢).

قال محمد رشيد رضا: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ ومثله في سورة (الشعراء) إلا أنه وصف العذاب بالعظيم فهو أليم وعظيم، وفي (هود) إلا أنه وصف العذاب بالقرب وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بسوء وكذلك كان، وفي سورة (القمر): ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾^(٣)، وفسره قوله تعالى في سورة (الشعراء): ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُرْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾^(٤)، وهو قبل الوعيد على مسها بسوء، والشرب بكسر المعجمة: ما يشرب، وفي سورة (الشمس): ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَفْوَنَهَا ۖ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا ۖ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ۖ﴾^(٥) إلخ، فدل مجموع الآيات على أن آية الله تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها، ولا في أكلها ولا في شربها، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة إذ كان ماء قليلًا، فكانوا يشربونه يومًا وتشربه هي يومًا، وورد أنهم كانوا يستعيضون عنه في يومها بلبنها روي هذا عن ابن عباس وقتادة^(٦).

وقال: «قد علمنا من سنة القرآن وأساليبه في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى في البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام لا حوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال. وقد حكى هنا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها عقب ذكر تبليغ الدعوة، وفي قصته من سورة (هود) أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته، وتصريحهم بالشك في صدقه، وزاد في سورة (الشعراء) طلبهم الآية منه، وكل ذلك صحيح ومراد، وهو المسنون المعتاد، ولا منافاة بين ذلك التفصيل وهذا الإجمال، والمروي أن هذه السورة (الأعراف) نزلت بعد تينك السورتين فتفصيلهما لإجمالها جاء على الأصل المألوف في كلام الناس، وإن كان غير ملتزم في القرآن، على أن ترتيب السور لم يراع فيه ترتيب نزولها، والمعنى قد جاء تكلم آية عظيمة القدر،

(١) النحل: الآية (٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٠).

(٣) القمر: الآية (٢٨).

(٤) الشعراء: الآية (١٥٥).

(٥) الشمس: الآيات (١١-١٤).

(٦) تفسير المنار (٨/ ٥٠٢).

ظاهرة الدلالة على ما جئتم به من الحق ، فتنكير الآية للتعظيم والتفخيم . وقوله : ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ للإعلام بأنها ليست من فعله ولا مما ينالها كسبه عليه السلام ، وكذلك سائر ما يؤيد الله تعالى به الرسل من خوارق العادات ، فليعتبر بذلك الجاهلون الذين يظنون أن الخوارق مما يدخل في كسب الصالحين الذين هم دون الأنبياء ، ولا سيما الذين يسمونهم الأقطاب المتصرفين في الكون ، ولو كانت كذلك لم تكن خوارق ، ولا آيات من الله تعالى دالة على تصديق الرسل في دعوى النبوة ، وعلى كمال اتباع من دونهم لهم فيما جاؤوا به من الهداية ، إذ كسب العباد ما زال يتفاوت تفاوتًا عظيمًا بتفاوت قوى عضلهم وجوارحهم ، وقوى عقولهم وأرواحهم وعزائمهم ، وتفاوت علومهم ومعارفهم ، ولذلك اشتبهت الآيات على كثير من الناس بالسحر والشعوذة ، وما يكون في بعض الناس من التأثير لعلو الهمة وقوة الإرادة^(١) .

قلت : هذا الكلام الذي نبه عليه الشيخ رشيد رضا رحمته الله ، من قوله : «وكذلك سائر ما يؤيد الله به الرسل» إلى قوله : «فيما جاؤوا به من الهداية» لهي كلمة حق وصدق .

ولو تتبعنا ما ذكرته الرافضة عن أئمتهم والصوفية عن مشايخهم ؛ لرأينا من ذلك العجب ؛ فإنهم ما تركوا خصوصية لله تعالى في الخلق والتدبير والعبادة إلا ونسبوها لمشايخهم ، فنسبوا إليهم علم ما كان وما يكون !! قال الخميني في (الحكومة الإسلامية) : «وإن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل» !! وفي هذا الكتاب من الكفريات والطامات ما يعرفه من قرأه من أول وهلة ، وأما الصوفية فقد نسبوا لأئمتهم الاطلاع على اللوح المحفوظ وأن من لم ير مورده في اللوح المحفوظ لا ينبغي له أن يعطي الورد ، ولا أن يتعامل معه !! وقال التجانيون : إن أول من يفتح الجنة هو التجاني !! ولو استرسلت في نقل كفرياتهم وزندقتهم لطال بنا الكلام ، ومن أراد التوسع فيما عليه هؤلاء الرافضة والصوفية ، فعليه بمراجعة كتابنا (الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين) ففيه الرد على الصوفية عمومًا ، وكتابنا (موسوعة عقيدة السلف) ففيه الرد على أقطابهم وشيوخهم

(١) تفسير المنار (٨/ ٥٠١-٥٠٢) .

خصوصًا ، كالتجاني ، والشعراني ، وغيرهم . وعليه بمراجعة كتاب (الكافي) للكليني فإنه مليء بهذه الكفريات ولا سيما الجزء الأول منه وكذلك كتاب (الإبريز) للدباغ ، فضلًا عن كتب ابن عربي ، والتي ما ترك فيها كفرًا إلا وسطره باسم الحلول . فلعنة الله على الزنادقة الذين أفسدوا دين الله وأدخلوا فيه من الطامات والكفريات باسم التربية وباسم الذكر والشيخ والإمام كما سمي من سمي أم الخبائث بالشراب الروحي وسمى المخدرات بلقيمات الذكر وسمى الدعارة والزنا بالأنس والفرح وسمى الشذوذ بمشاهدة أوصاف الحي القيوم في الغلام وهكذا إلى آخر مصطلحات الكفر والزندقة التي لا نهاية لها . فاللهم مُنَّ علينا بعافيتك ولطفك .



قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾^(١)

★ غريب الآية:

بَوَّأَكُمْ: أي: أنزلكم في الأرض منازل صالحة، والمبَوَّأ: المنزل الذي يلزمه نازله، فأصله من البواء، وهو اللزوم.

وتنحتون: أي: تتخذون البيوت في الجبال. والنحت: الأخذ من الشيء لتجعله على صورة مخصوصة، كنحت النحيت والصنم والبيت من خشب وحجر ونحوهما، ويكون في الأجسام الصلبة المحتملة لذلك، وقد يتجوز به في غيرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - مخبراً عن قيل صالح لقومه واعظاً لهم: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ أيها القوم نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ يقول: تخلفون عاداً في الأرض بعد هلاكها...»

وأما قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فإنه يقول: وأنزلكم في الأرض، وجعل لكم فيها مساكن، وأزواجاً، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ ذكر أنهم كانوا ينقبون الصخر مساكن^(٢).

قال القرطبي: «استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع، كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٣) ذكر أن ابناً لمحمد بن سيرين بنى داراً وأنفق فيها مالا كثيراً، فذكر ذلك لمحمد بن سيرين، فقال: ما أرى بأساً أن يبني الرجل بناءً ينفعه، وروي أنه عليه السلام قال: «إذا أنعم الله

(١) الأعراف: الآية (٧٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٣١).

(٣) الأعراف: الآية (٣٢).

على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه»^(١) ومن آثار النعمة البناء الحسن والثياب الحسنة، ألا ترى أنه إذا اشترى جارية جميلة بمال عظيم، فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك، فكذلك البناء، وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصري وغيره»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما يباح من البناء ويمنع

✽ عن قيس بن أبي حازم: دخلنا على خباب نعوذه، وقد اكتوى سبع كيات، فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وأنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب، ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به، ثم أتيناها مرة أخرى وهو يبني حائطاً له فقال: «إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب»^(٣).

✽ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث ونحوه من ذهب إلى كراهة البناء الرفيع، كالقصور ونحوها، مما لا تمس الحاجة إليه، وإليه ذهب القرطبي في تفسيره^(٤) وحكاه عن الحسن وغيره، وإلى هذا المعنى ألمح البخاري في صحيحه فقال: «باب ما جاء في البناء»^(٥) وغرضه ﷺ من هذه الترجمة بيان ما يباح من البناء ويمنع منه ويذم، وقد أشار إلى المذموم منه - رحمه الله تعالى - تحت هذه الترجمة بقوله ﷺ: «من أشرط الساعة إذا تطاول رعاة البهم في البنيان»^(٦).

قال الحافظ: «أشار بإيراد هذه القطعة إلى ذم التطاول في البنيان، وفي الاستدلال بذلك نظر، وقد ورد في ذم تطويل البناء صريحاً ما أخرج ابن أبي الدنيا من رواية عمارة بن عامر: «إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع نوذي: يا فاسق إلى أين؟» وفي سنده ضعف مع كونه موقوفاً. وفي ذم البناء مطلقاً حديث خباب رفعه

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: أحمد (١٨٢/٢)، والترمذي (٢٨١٩/١١٤/٥)،

والحاكم (١٣٥/٤) وصححه، ووافقه الذهبي. (٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٩/٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١٠٩/٥)، والبخاري (٥٦٧٢/١٥٧/١٠). وأخرجه مختصراً: مسلم (٢٦٨١/٢٠٦٤/٤)،

والنسائي (١٣٢٢/٣٠١/٤). (٤) الجامع (٢٣٩/٧).

(٥) الفتح (١٠٩/١١).

(٦) البخاري (١٠٩/١١) معلقاً.

قال: «يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب» أو قال: «البناء» أخرجه الترمذي^(١) وصححه وأخرج له شاهداً عن أنس بلفظ: «إلا البناء فلا خير فيه»^(٢) وللطبراني^(٣) من حديث جابر رفعه: «إذا أراد الله بعبد شراً خضر له في اللبن والطين حتى يبني» ومعنى «خضر» بمعجمتين: حسن، وزناً ومعنى. وله شاهد في «الأوسط»^(٤) من حديث أبي بشر الأنصاري بلفظ: «إذا أراد الله بعبد سوءاً أنفق ماله في البنيان». وأخرج أبو داود^(٥) من حديث عبد الله بن العاص قال: «مربي النبي ﷺ وأنا أطين حائطاً، فقال: الأمر أعجل من ذلك» وصححه الترمذي وابن حبان^(٦)، وهذا كله محمول على ما لا تمس الحاجة إليه مما لا بد منه للتوطن وما يقي البرد والحر، وقد أخرج أبو داود^(٧) أيضاً من حديث أنس رفعه: «أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا» أي: إلا ما لا بد منه، ورواته موثقون إلا الراوي عن أنس وهو أبو طلحة الأسدي فليس بمعروف، وله شاهد عن واثلة عند الطبراني^(٨).

قال ابن بطال: «التطاول في البنيان من أشراط الساعة، وذلك أن يبني ما يفضل عما يكتنه من الحر والبرد ويستره عن الناس، وقد ذم الله تعالى من فعل ذلك فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَقْبُحُونَ﴾^(٩) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ»^(١٠) يعني قصوراً... وأما من بنى ما يحتاج إليه ليكتنه من الحر والمطر، فمباح له ذلك، وكذلك فعل السلف»^(١١).

وقوله هنا: «إلا في شيء يجعله في التراب»:

قال المناوي: «أي: في نفقته في البنيان، الذي لم يقصد به وجه الله، وقد زاد

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) الترمذي (٤/٦٥١/٢٤٨٢)، والنسائي (٧/٥٢/٣٩٢٨).

(٣) الطبراني في الكبير (٢/١٨٥-١٨٦/١٧٥٥).

(٤) الطبراني في الأوسط (٩/٤٣٤/٨٩٣٤) وفيه: «إذا أراد بعبد هواناً».

(٥) أبو داود (٥/٤٠١/٥٢٣٥).

(٦) الترمذي (٤/٤٩١/٢٣٣٥)، وابن حبان (٧/٢٦٢/٢٩٩٦).

(٧) أبو داود (٥/٤٠٢-٤٠٣/٥٢٣٧).

(٨) فتح الباري (١١/١٠٩-١١٠).

(٩) الشعراء: الآيتان (١٢٨ و ١٢٩).

(١٠) شرح البخاري (٩/٧٤-٧٥).

على ما يحتاجه لنفسه وعياله على الوجه اللائق، فإنه ليس له فيه أجر، بل ربما كان عليه وزر»^(١).

قال إبراهيم النخعي: «البناء كله وبال، قيل: أرأيت ما لا بد منه؟ قال: لا أجر ولا وزر»^(٢).

قال السعدي: «وبالجملة، فالبنايات للقصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية، إما أن تتخذ مساكن للحاجة إليها، والحاجات تتنوع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة، وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير.

وإما أن تكون البنايات حصوناً واقية لشُرور الأعداء، وثغوراً تحفظ به البلاد ونحوها، مما ينفع المسلمين ويقىهم الشر، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء، وإما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله، وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في الطرق النافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرها»^(٣).

(١) فيض القدير (٦/٤٥٦).

(٢) شرح السنة (١٤/٢٨٠).

(٣) تيسير اللطيف المنان (ص: ٢٨٤).

قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴾^(١)

★ غريب الآية:

ولا تعثوا في الأرض مفسدين: أي: لا تفسدوا فيها، فيكون قوله:
﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: فتذكروا نعم الله تعالى عليكم في ذلك كله،
واشكروها له بتوحيده، وإفراده بالعبادة، واستعمالها فيما فيه صلاحكم،
ولا تستبدلوا الكفر بالشكر فتعثوا في الأرض مفسدين... والمعنى: ولا تتصرفوا
في هذه النعم تصرف عثيان وكفر بمخالفة ما يرضي الله فيها حال كونكم متصفين
بالإفساد ثابتين عليه. وقال المفسرون: إن ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة، والصواب
أنها تفيد معنى زائداً على التأكيد كما علمت»^(٢).

وفي هذه الآية مسألة: وهي قضية إثبات إنعام الله على الكفار في قوله تعالى:
﴿ فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ ﴾، وهي نِعْمُهُ سبحانه عليهم. وفي المسألة تفصيل؛ قال
القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى من سورة (آل عمران): ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٣) قال: «في هذه الآية وأمثالها كقوله: ﴿أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ
لِّأَنفُسِهِمْ﴾^(٤) الآية، ﴿وَأُمِلُّ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(٥)، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ
وَبَيْنٍ﴾^(٦)، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧)؛ دليل على أن الكفار غير مُنعم عليهم
في الدنيا؛ لأن حقيقة النعمة الخلوص من شوائب الضرر العاجلة والآجلة، ونعم

(٢) تفسير المنار (٨/ ٥٠٣-٥٠٤).

(٤) آل عمران: الآية (١٧٨).

(٦) المؤمنون: الآية (٥٥).

(١) الأعراف: الآية (٧٤).

(٣) الآية (١٩٧).

(٥) الأعراف: الآية (١٨٣).

(٧) الأعراف: الآية (١٨٢).

الكفار مشوبة بالآلام والعقوبات ، فصار كمن قدم بين يدي غيره حلاوة من عسل فيها السم ، فهو وإن استلذ آكله لا يقال : أنعم عليه ؛ لأن فيه هلاك روحه . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء ، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري .

وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القاضي أبو بكر : إلى أن الله أنعم عليهم في الدنيا .

قالوا : وأصل النعمة من النعمة بفتح النون ، وهي لين العيش ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَعَّمْ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ﴾^(١) . يقال : دقيق ناعم ، إذا بولغ في طحنه وأجيد سحقه .

وهذا هو الصحيح ، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلفين فقال : ﴿ فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ ﴾^(٢) ، ﴿ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾^(٣) ، والشكر لا يكون إلا على نعمة . وقال : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾^(٤) ، وهذا خطاب لقارون . وقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾^(٥) الآية ، فنبه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نعمة دنياوية فجحدوها . وقال : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾^(٦) ، وقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾^(٧) . وهذا عام في الكفار وغيرهم .

فأما إذا قدم لغيره طعاماً فيه سم فقد رفق به في الحال ؛ إذ لم يجرعه السم بحثاً ؛ بل دسه في الحلاوة ، فلا يستبعد أن يقال : قد أنعم عليه ، وإذا ثبت هذا فالنعم ضربان : نعمة نفع ونعمة دفع ، فنعم النفع ما وصل إليهم من فنون اللذات ، ونعم الدفع ما صرف عنهم من أنواع الآفات .

فعلى هذا قد أنعم على الكفار نعم الدفع قولاً واحداً ؛ وهو ما زُوي عنهم من الآلام والأسقام ، ولا خلاف بينهم في أنه لم يُنعم عليهم نعمة دينية . والحمد لله^(٨) .

وقال ابن القيم : « هذه مسألة اختلف الناس فيها ، وطال الحجاج من الطرفين ، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا ؟ فمن نافٍ محتج بهذه وبقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ ﴾

(١) الدخان : الآية (٢٧) .

(٣) البقرة : الآية (١٧٢) .

(٥) النحل : الآية (١١٢) .

(٧) فاطر : الآية (٣) .

(٢) الأعراف : الآية (٧٤) .

(٤) القصص : الآية (٧٧) .

(٦) النحل : الآية (٨٣) .

(٨) الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٠٤) .

وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا^(١)، فخص هؤلاء بالإنعام، فدل على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين: ﴿وَلَا تَمَنَّيْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ﴾^(٢)، وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأى نعمة على من خلق للعذاب الأبدي!

ومن مثبت محتج بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٣)، وقوله لليهود: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾^(٤)، وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة (النحل) التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُنَزِّلُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٥)، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(٦) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ^(٧)، وهذا نص صريح لا يحتمل صرفاً. واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان، لا يشركهم فيها سواهم. ومطلق النعمة عام للخلقة كلهم؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد، وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك. فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة خطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر خطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب. وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب.

وأما قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم؛ ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا

(٢) البقرة: الآية (١٥٠).

(٤) البقرة: الآية (٤٠).

(١) النساء: الآية (٦٩).

(٣) إبراهيم: الآية (٣٤).

(٥) النحل: الآيات (٨١-٨٣).

عنهم ، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم ، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم ، فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله ، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته ، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرًا ، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه ، وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم . والله أعلم^(١) .

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢-٢٣) .

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ
 اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَتَكْ صَاحِبًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا
 إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِء مُّؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 ءَامَنْتُمْ بِهِء كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يعني - جل ثناؤه - بقوله : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ﴾ : قال الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح والإيمان
 بالله وبه ، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ يعني : لأهل المسكنة من تباع صالح ، والمؤمنين به
 منهم ، دون ذوي شرفهم ، وأهل السؤدد منهم : ﴿أَتَقْلَمُونَ أَتَكْ صَاحِبًا مُّرْسَلٌ مِّن
 رَبِّهِ﴾ أرسله الله إلينا وإليكم؟ قال الذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم : إنا
 بما أرسل الله به صالحًا من الحق والهدى ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ يقول : مصدقون ، مقرّون أنه
 من عند الله ، وأن الله أمر به ، وعن أمر الله دعانا صالح إليه ، ﴿قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا﴾ عن أمر الله وأمر رسوله صالح : ﴿إِنَّا﴾ أيها القوم ﴿بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِء﴾
 يقول : صدقتم به من نبوة صالح ، وأن الذي جاء به حق من عند الله ﴿كَافِرُونَ﴾
 يقول : جاحدون منكرون ، لا نصدق به ، ولا نقره»^(١).

قال محمد رشيد رضا : «مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون
 من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم ، وإلى كل دعوة إصلاح ؛ لأنه لا يثقل
 عليهم أن يكونوا تبعًا لغيرهم ، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون ، والأغنياء
 المترفون ؛ لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي
 التي تحرم عليهم الإسراف الضار ، وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال .
 وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم صالح في قولهم للمؤمنين منهم : ﴿أَتَقْلَمُونَ﴾

أَنْتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِّن رَّبِّهِمْ ؟ قِيلَ : إِنْ السُّؤَالُ لِلتَّهْكِمْ وَالِاسْتِهْزَاءِ ، وَلَا مَانِعَ مِنْ جَعْلِهِ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا إِذْ سَأَلُوهُمْ عَنِ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مَرْسَلٌ ؛ لَا رَتِيَابَهُمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ عِلْمٍ بَرَهَانِي ، وَتَجْوِيزِهِمْ أَنْ يَكُونَ عَنْ اسْتِحْسَانٍ مَا وَتَفْضِيلٍ لَهُ عَلَيْهِمْ ، وَاخْتِيَارٍ لِّرِيَاسَةِ عَلَى رِيَاسَتِهِمْ^(١) .

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٥٠٤) .

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ
أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

★ غريب الآية:

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ: العقّر: الجرح، وقيل: قطع عضو يؤثر في النفس، وعقرت
الفرس: إذا ضربت قوائمها بالسيف، وعقرت ظهر الدابة: إذا أدبرته. قال
القشيري: العقّر كشف عرقوب البعير، ثم قيل للنحر: عقر؛ لأن العقّر سبب النحر
في الغالب.

وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ: أي: استكبروا. يقال: عتا يعتو عُتْوًا: إذا استكبر، وتعتى
فلان: إذا لم يطع، والليل العاتي: الشديد الظلمة.
الرجفة: أي: الزلزلة الشديدة.

جاثمين: أي: لا صقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر؛ أي:
صاروا خامدين من شدة العذاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فعقرت ثمود الناقة التي جعل الله لهم
آية، ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: تكبروا وتجبروا عن اتباع الله واستعلوا عن
الحق، ... ﴿وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ يقول: قالوا: جئنا يا صالح بما تعدنا
من عذاب الله ونقمته؛ استعجالاً منهم للعذاب، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يقول:
إن كنت لله رسولاً إلينا، فإن الله ينصر رسله على أعدائه، فعجل ذلك لهم كما
استعجلوه، يقول -جل ثناؤه-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ ..
يقول -تعالى ذكره-: فأخذت الذين عقروا الناقة من ثمود الرجفة، وهي الصيحة،
والرجفة: الفعلة من قول القائل: رجف بفلان كذا يرجف رجفًا، وذلك إذا حركه

وزعزعه، كما قال الأخطل:

إما تريني حناني الشيب من كبر كالنسر أرجف والإنسان مهدود
ولأنما عني بالرجفة ههنا: الصيحة التي زعزعتهم وحركتهم للهلاك؛ لأن ثمود
هلكت بالصيحة فيما ذكر أهل العلم، ..

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ يقول: فأصبح الذين أهلك الله من ثمود في
دارهم، يعني في أرضهم التي هلكوا فيها وبلدتهم، ولذلك وحد الدار ولم يجمعها،
فيقول: في دورهم، وقد يجوز أن يكون أريد بها الدور، ولكن وجه بالواحدة إلى
الجمع كما قيل: ﴿وَالْمَصْرِ ۝١١٠ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(١)، وقوله: ﴿جَثِيمِينَ﴾ يعني:
سقوطاً صرعى لا يتحركون؛ لأنهم لا أرواح فيهم قد هلكوا، والعرب تقول للبارك
على الركبة جاثم^(٢).

وقال ابن عاشور: «الفاء للتعقيب لحكاية قول الذين استكبروا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي
ءَامَنَتْكُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قالوا ذلك فعقروا، والتعقيب في كل شيء بحسبه،
وذلك أنهم حين قالوا ذلك، كانوا قد صدعوا بالكذيب، وصمموا عليه، وعجزوا
عن المحاجة والاستدلال، فعزموا على المصير إلى النكاية والإغابة لصالح عليه السلام،
ومن آمن به، ورسموا لا ابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة، التي جعلها صالح عليه السلام
لهم، وأقامها بينه وبينهم، علامة موادة ما داموا غير متعرضين لها بسوء،
ومقصدهم من نيتهم إهلاك الناقة أن يزيلوا آية صالح عليه السلام، لئلا يزيد عدد المؤمنين
به؛ لأن مشاهدة آية نبوته سالمة بينهم، تشير في نفوس كثير منهم الاستدلال على
صدقه، والاستئناس لذلك، بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها، على مرعاها وشربها،
ولأن في اعتدائهم عليها إيذاناً منهم بتحفظهم للإضرار بصالح عليه السلام، وبمن آمن به
بعد ذلك، وليروا صالحاً عليه السلام أنهم مستخفون بوعيده إذ قال لهم: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ
فِي أَخْذِكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والضمير في قوله: ﴿فَعَقَرُوا﴾ عائد إلى الذين استكبروا، وقد
أسند العقير إليهم وإن كان فاعله واحداً منهم؛ لأنه كان عن تمالؤ ورضى من جميع
الكبراء، كما دل عليه قوله تعالى في سورة (القمر): ﴿فَنَادَوْا صَالِحًا فَتَطَوَّى فَعَقَرَ﴾^(٣)،

(١) العصر: الآيتان (٢٠١).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٣٢-٢٣٣) باختصار.

(٣) القمر: الآية (٢٩).

وهذا كقول النابغة في شأن بني حنّ:

وهم قتلوا الطائي بالجو عنوة

وإنما قتله واحد منهم^(١).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَصْلِحْ أَثْنَانَا بِمَا تَعْدُنَا﴾ الآية. لم يبين هنا هذا الذي يعدهم به، ولكن بين في مواضع أخر أنه العذاب، كقوله: ﴿وَلَا تَمْشَوْهَا إِسْوَىٰ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾^(٢)، وقوله هنا: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَذَابٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾^(٣) ونحو ذلك من الآيات^(٤).

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحْ أَثْنَانَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمْشَوْهَا إِسْوَىٰ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وفي آية: ﴿عَظِيمٌ﴾^(٥) وفي الأخرى: ﴿أَلِيمٌ﴾ والكل حق. والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علما جازما، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق، ووقوع العذاب بهم. قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَذَابٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾^(٦).

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا سبب رجفة الأرض بهم، ولكنه بين في موضع آخر أن سبب ذلك صيحة الملك بهم، وهو قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(٧)

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٢٢٤-٢٢٥). (٢) هود: الآية (٦٤).

(٣) هود: الآية (٦٥). (٤) أضواء البيان (٢/ ٣٥).

(٥) الأحقاف: الآية (٢١). (٦) البداية والنهاية (١/ ١٢٨-١٢٩).

(٧) هود: الآية (٦٧).

والظاهر أن الملك لما صاح بهم رجفت بهم الأرض من شدة الصيحة، وفارقت أرواحهم أبدانهم، واللّه - جل وعلا - أعلم^(١).

قال الرازي: «طعن قوم من الملحدين في هذه الآيات بأن ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرجفة والطاغية والصيحة، وزعموا أن ذلك يوجب التناقض، والجواب، قال أبو مسلم: الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده، سواء كان حيواناً أو غير حيوان، وألحق الهاء به للمبالغة، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (١) ﴿أَن رَّاهُ أَشْتَقَى﴾ (٢)، ويقال: طغى طغياناً، وهو طاغ وطاغية، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَفْوِنَهَا﴾ (٣)، وقال في غير الحيوان: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ (٤)؛ أي: غلب وتجاوز عن الحد، وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض، وهي حركة خارجة عن المعتاد، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها، وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة، وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (٥) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (٦)، فبطل ما قاله الطاعن^(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على المراقبة

عند المرور بديار الظالمين ومواقع العذاب

وبيان صفة عاقر ناقة صالح عليه السلام وبيان صفة هلاك ثمود

عن عبد الله بن زمعة قال: سمعت النبي ﷺ - وذكر الذي عقر الناقة - قال: «انتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زمعة»^(٧).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: بيان صفة عاقر ناقة صالح عليه السلام، وقد اختلف في

(١) أضواء البيان (٢/٣٥).

(٢) العلق: الآيتان (٧٦ و٧٧).

(٣) الشمس: الآية (١١).

(٤) الحاقة: الآية (١١).

(٥) النازعات: الآيتان (١٣ و١٤).

(٦) مفاتيح الغيب (١٤/١٧٣).

(٧) أخرجه: أحمد (٦/٤٢٩)، والبخاري (٦/٤٦٦/٣٣٧٧)، ومسلم (٤/٢١٩١/٢٨٥٥)، والترمذي (٥/

٣٣٤٣/٤١٠).

ذلك على أقوال لا دليل عليها ، هذا أصحها ، كما قال القرطبي في تفسيره^(١) ، وقد وصفه عليه السلام في هذا الحديث بأنه : «ذو عز ومنعة» ، وفي رواية بأنه : «عزيز عارم منيع في رهطه» .

قال أبو العباس القرطبي : «والعارم : الجبار الصعب على من يرومه ، والممتنع بسلطانه وعشيرته ، وأبو زمعة هذا يحتمل أن يكون هو الذي قال فيه أبو عمر : أنه بلوي صحابي ، ممن بايع تحت الشجرة ، وتوفي بإفريقية في غزاة معاوية ابن خديج الأولى ، ودفن بالبلوية بالقيروان ، قلت : فإن كان هو هذا فإنه إنما شبهه بعافر الناقة ، في أنه عزيز في قومه ومنيع على من يريده من أهل الكفر ، ويحتمل أن يريد به غيره ممن يسمى بأبي زمعة ، قاله ابن إسحق وغيره»^(٢) .

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم ما أصابهم»^(٣) .

* عن ابن عمر رضي الله عنهما : «أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عجنّا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء . ويروى عن سبرة بن معبد وأبي الشموس أن النبي ﷺ أمر بإلقاء الطعام ، وقال أبو ذر عن النبي ﷺ من اعتجن بمائه»^(٤) .

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد : «الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين ومواضع العذاب»^(٥) . والنهي عن عبورها ، «إلا على وجه الخوف المانع من العذاب»^(٦) .

قال الحافظ : «ووجه هذه الخشية - أي : خشية وقوع العذاب - أن البكاء يبعثه

(٢) المفهم (٧/٤٢٩) .

(١) جامع أحكام القرآن (٧/٢٤١) .

(٣) أخرجه : أحمد (٢/٩) ، والبخاري (١/٦٩٧/٤٣٣) ، ومسلم (٤/٢٢٨٥-٢٢٨٦/٢٩٨٠) .

(٤) أخرجه : البخاري (٦/٤٦٦/٣٣٧٨) ، ومسلم (٤/٢٢٨٦/٢٩٨١) .

(٥) أفاده النووي في شرح مسلم (١٨/٨٦) .

(٦) مستفاد من كلام شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٥/٣٢٤) .

على التفكير والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكير في أحوال توجب البكاء من تقدير الله تعالى على أولئك بالكفر، مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه مقلب القلوب، فلا يأمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك، والتفكير أيضًا في مقابلة أولئك نعمة الله بالكفر، وإمهالهم أعمال عقولهم فيما يوجب الإيمان به والطاعة له، فمن مر عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارًا في أحوالهم، فقد شابههم في الإهمال، ودل على قساوة قلبه وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم، وبهذا يندفع اعتراض من قال: كيف يصيب عذاب الظالمين من ليس بظالم؟ لأنه بهذا التقرير لا يأمن أن يصير ظالمًا، فيعذب بظلمه»^(١).

وفيهما: «كراهة الاستسقاء من بيار ثمود، ويلتحق بها نظائرها من الآبار والعيون التي كانت لمن هلك بتعذيب الله على كفره»^(٢).

وفيهما: الابتعاد عن مقارنة الظالمين وأهل البدع والفجور؛ قال شيخ الإسلام: «وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي: لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله ﷻ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم، ماقتاً لهم، شائناً ما هم فيه بحسب الإمكان؛ كما في الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٣). وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾^(٤) الآية. وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار.

وذلك أن مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين: أحدهما: أن يكون مكرهاً عليها، والثاني: أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة

(١) فتح الباري (١/٦٩٨-٦٩٩).

(٢) من كلام الحافظ في فتح الباري (٦/٤٦٩).

(٣) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أحمد (٣/١٠)، ومسلم (١/٦٩/٤٩)، وأبو داود (١/٦٧٧/٦).

(٤) (١١٤٠)، والترمذي (٤/٤٠٧-٤٠٨/٢١٧٢)، والنسائي (٨/٤٨٥-٤٨٦/٥٠٢٣)، وابن ماجه (١/٤٠٦/١).

(١٢٧٥).

(٤) التحريم: الآية (١١).

المقارنة، أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه، فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة، وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما، وهو الأمر الذي أكره عليه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١) «(٢)».

وسياتي مزيد بيان لهذا المعنى ولوجه هذه الكراهة هل هي للتنزيه أو للتحريم، ولمباحث أخرى لها تعلق بهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية (٨٠) من سورة (الحجر)، وبالله التوفيق والعصمة.

* * *

(١) النحل: الآية (١٠٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٣٢٤-٣٢٥).

قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقَوِرَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ ﴿٧٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : فأدبر صالح عنهم حين استعجلوه العذاب ، وعقروا ناقة الله خارجاً عن أرضهم من بين أظهرهم ؛ لأن الله -تعالى ذكره- أوحى إليه : إني مهلكهم بعد ثلاثة . وقيل : إنه لم تهلك أمة ونبيها بين أظهرها . فأخبر الله -جل ثناؤه- عن خروج صالح من بين قومه الذين عتوا على ربهم ، حين أراد الله إحلال عقوبته بهم ، فقال : ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ صالح ، وقال لقومه ثمود : ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ ، وأدبت إليكم ما أمرني بأدائه إليكم ربي من أمره ونهيه ، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ في أدائي رسالة الله إليكم في تحذيركم بأسه بإقامتكم على كفركم به ، وعبادتكم الأوثان ، ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ لكم في الله ، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم ، الصادين لكم عن شهوات أنفسكم»^(١).

فصل في بيان ما تضمنته قصة صالح مع قومه من الفوائد والعبر

من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : «وأما قصة ثمود فنذكر ما فيها من الزوائد على القصتين أيضاً :

الأولى : وعظه إياهم بالآية العظيمة .

الثانية : استعطافهم بذكر ربوبية من جاءت منه لهم .

الثالثة : ذكر إضافة الناقة إلى الله .

الرابعة : تفسير البيئة بهذا .

الخامسة : تخصيص الله إياهم بناقته .

السادسة : العجب العُجاب من كراحتهم الأمر المطلوب منهم ، وهو كف الأذى عن ناقة الله التي فيها من نعم الدين والدنيا لمن قبلها ما لا يظنه الظانون .

السابعة : أنه مع هذا توعدّهم بالوعيد الشديد إن لم يكفوا عنها الأذى .

الثامنة : تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالقصور في السهل .

التاسعة : نعمة الله عليهم في هذه القوة العظيمة وهي قدرتهم على نحت الجبال بيوتًا .

العاشرة : تذكيرهم بنعم الله ، فدلّ على أنهم يعرفون ذلك .

الحادية عشرة : وعظه إياهم أن الذي ينهاهم عنه هو الفساد في الأرض ، وهو قبيح بإجماع العقلاء .

الثانية عشرة : ذكر قبح جوابهم لهذه الموعظة البليغة التي جمعت لهم خير الدنيا والآخرة ، وحذرتهم من عقوبة الدنيا والآخرة .

الثالثة عشرة : نعتهم الملاءمة بالكبر .

الرابعة عشرة : إن الذين استجابوا للحق هم الضعفاء ، وأما الملاءمة المستكبرون فهذا جوابهم وفعلهم .

الخامسة عشرة : جمعهم بين هذه الثلاث : عقر الناقة ، والعتو عن أمر ربهم ، وقولهم لرسولهم هذا .

السادسة عشرة : ذكر قولهم : ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فلم يذكر إنكارهم الرسل من حيث الجملة .

السابعة عشرة : ذكر قولهم عنهم لمّا وقع عليهم ما استعجلوا به .

الثامنة عشرة : ذكره أنه لم يبق من الحرص على دنياهم وعلى آخرتهم ممكناً .

التاسعة عشرة : ذكر أن العلة في عدم القبول عدم المحبة للناصح ، لا عدم البيان^(١) .

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص : ١٠٨-١٠٩) .

وقال الشنقيطي: «بين تعالى هذه الرسالة التي أبلغها نبيه صالح إلى قومه في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا إِسْوَءَ فِعَالٍ ذِكْرُ اللَّهِ عَذَابُ الْيَوْمِ﴾^(١)»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان ما خاطب به النبي ﷺ قتلى بدر من المشركين

تفريقاً لهم وتوبيخاً وتحقيراً

عن أبي طلحة: «أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فخذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً ونقيمة وحسرة وندماً^(٣).

★ غريب الحديث:

صناديد قريش: هم أشrafهم وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صنديد وكل عظيم غالب صنديد.

أطواء بدر: جمع طوي، أي بثر مطوية من آبار بدر.

العرصة: هو كل موضع واسع لا بناء فيه.

(١) الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) أضواء البيان (٢/٣٥).

(٣) تقدم تخريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ الآية (٤٤) من هذه السورة.

الرَّكْبِي: بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد آخره، جنس للركية، وهي البئر قبل أن تطوى جمعها ركايا.

★ فوائد الحديث:

تقدم بيان بعض ما في هذا الحديث من الفوائد والعبر والعظات تحت قوله تعالى من هذه السورة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ . . . الآية (٤٤).

والغرض من ذكره هنا بيان أن ما فعله النبي ﷺ يوم بدر من مخاطبة أصحاب القلب بعد ما جئفوا تقريراً لهم وتوبيخاً مطابق لما فعله صالح عليه السلام مع قومه بعد هلاكهم ونزول العذاب بهم تقريراً وتوبيخاً على أحد الوجهين في تأويل الآية، وهو اختيار ابن كثير وغيره.

قال ابن كثير: «هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك»^(١).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٤٣-٤٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

★ غريب الآية:

شهوة: أي: تبعًا لما تطلبه نفوسكم من القبيح. وأصل الشهوة: نزوع النفس إلى ما تريده وتحبه.

مُسْرِفُونَ: الإسراف: الخروج عن حد الاعتدال والحق إلى الفساد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولقد أرسلنا لوطًا، ولوقيل معناه: واذكر لوطًا - يا محمد - إذ قال لقومه، إذ لم يكن في الكلام صلة الرسالة، كما كان في ذكر عاد وثمود، كان مذهبًا، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يقول: حين قال لقومه من سدوم، وإليهم كان أرسل لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، وكانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها التي عاقبهم الله عليها إتيان الذكور، ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يقول: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحد من العالمين»^(١).

وقال الشنقيطي: «بين تعالى أن المراد بهذه الفاحشة اللواط بقوله بعده: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ الآية، وبين ذلك أيضًا بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾»^(٢)، وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(٣)،^(٤).

قال ابن القيم في معرض حكايته وذكره لما احتج به من ذهب إلى أن عقوبة اللواط أشد من عقوبة الزنى؛ قال: «قالوا: ومن تأمل قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾

(١) جامع البيان (٨/ ٢٣٤).

(٢) الشعراء: الآية (١٦٥).

(٣) العنكبوت: الآية (٢٩).

(٤) أضواء البيان (٢/ ٣٥).

إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا^(١)، وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، تبين له تفاوت ما بينهما وأنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا؛ أي: هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد؛ أي: أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكمال غنيّة عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾^(٢)؛ أي: الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد. ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع، وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله، ينكحه كما ينكح الأنثى، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَأُونَ الرِّجَالَ﴾، ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة، لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة، التي تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلمها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام النساء على الرجال، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن، كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ومكاثرة النبي ﷺ والأنبياء بأمته، إلى غير ذلك من مصالح النكاح، والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتُرَبِّي عليه، بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله ﷻ، ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلوبهم، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، ثم أكد سبحانه قبح ذلك، بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد، فقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

(١) الإسراء: الآية (٣٢).

(٢) الشعراء: الآية (١٩).

مُسْرِفُونَ ﴿١﴾ ، فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى^(١) .

قال الرازي مبيّنًا الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل الشنيع : «اعلم أن قبح هذا العمل كالأمر المقرر في الطباع ، فلا حاجة فيه إلى تعديد الوجوه على التفصيل ، ثم نقول : موجبات القبح فيه كثيرة :

أولها : أن أكثر الناس يحترزون عن حصول الولد ؛ لأن حصوله يحمل الإنسان على طلب المال ، وإتاعاب النفس في الكسب ، إلا أنه تعالى جعل الوقاع سببًا لحصول اللذة العظيمة ، حتى إن الإنسان بطلب تلك اللذة يقدم على الوقاع ، وحينئذ يحصل الولد شاء أم أبى ، وبهذا الطريق يبقى النسل ولا ينقطع النوع ، فوضع اللذة في الوقاع كشبه الإنسان الذي وضع الفخ لبعض الحيوانات ، فإنه لا بد وأن يضع في ذلك الفخ شيئًا يشتهيه ذلك الحيوان حتى يصير سببًا لوقوعه في ذلك الفخ ، فوضع اللذة في الوقاع يشبه وضع الشيء الذي يشتهيه الحيوان في الفخ ، والمقصود منه إبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع . إذا ثبت هذا فنقول : لو تمكن الإنسان من تحصيل تلك اللذة بطريق لا تفضي إلى الولد ، لم تحصل الحكمة المطلوبة ، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل ، وذلك على خلاف حكم الله ، فوجب الحكم بتحريمه قطعًا ، حتى تحصل تلك اللذة بالطريق المفضي إلى الولد .

والوجه الثاني : وهو أن الذكورة مظنة الفعل ، والأنوثة مظنة الانفعال ، فإذا صار الذكر منفعلًا ، والأنثى فاعلاً ، كان ذلك على خلاف مقتضى الطبيعة ، وعلى عكس الحكمة الإلهية .

والوجه الثالث : الاشتغال بمحض الشهوة تشبه بالبهيمة ، وإذا كان الاشتغال بالشهوة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة ، فليكن قضاء الشهوة من المرأة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة ، وهو حصول الولد وإبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع . فأما قضاء الشهوة من الذكر فإنه لا يفيد إلا مجرد قضاء الشهوة ، فكان ذلك تشبّهًا بالبهايم ، وخروجًا عن الغريزة الإنسانية ، فكان في غاية القبح .

والوجه الرابع : هب أن الفاعل يلتذ بذلك العمل ، إلا أنه يبقى في إيجاب العار

(١) الجواب الكافي (ص : ٢٦٣-٢٦٥) .

العظيم، والعيب الكامل بالمفعول على وجه لا يزول ذلك العيب عنه أبد الدهر، والعاقل لا يرضى لأجل لذة خسيصة منقضية في الحال، إيجاب العيب الدائم الباقي بالغير.

والوجه الخامس: أنه عمل يوجب استحكام العداوة بين الفاعل والمفعول، وربما يؤدي ذلك إلى إقدام المفعول على قتل الفاعل، لأجل أنه ينفر طبعه عند رؤيته، أو على إيجاب إنكائه بكل طريق يقدر عليه. أما حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة، فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة وحصول المصالح الكبيرة، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(١).

والوجه السادس: أنه تعالى أودع في الرحم قوة شديدة الجذب للمني، فإذا واقع الرجل المرأة قوي الجذب، فلم يبق شيء من المنى في المجاري إلا وينفصل. أما إذا واقع الرجل فلم يحصل في ذلك العضو المعين من المفعول قوة جاذبة للمني، وحينئذ لا يكمل الجذب، فيبقى شيء من أجزاء المنى في تلك المجاري، ولا ينفصل، ويعفن ويفسد ويتولد منه الأورام الشديدة والأسقام العظيمة، وهذه فائدة لا يمكن معرفتها إلا بالقوانين الطبية. فهذه هي الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل.

ورأيت بعض من كان ضعيفاً في الدين يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(٢) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ^(٣)، وذلك يقتضي حل وطء المملوك مطلقاً سواء كان ذكراً أو أنثى، قال: ولا يمكن أن يقال أنا نخصص هذا العموم بقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، قال: لأن هاتين الآيتين كل واحد منهما أعم من الأخرى من وجه، وأخص من وجه، وذلك لأن المملوك قد يكون ذكراً، وقد يكون أنثى، وأيضاً الذكر قد يكون مملوكاً، وقد لا يكون مملوكاً، وإذا كان الأمر كذلك

(١) الروم: الآية (٢١).

(٢) المؤمنون: الآية (٦٥).

(٣) الشعراء: الآية (١٦٥).

لم يكن تخصيص إحداهما بالأخرى أولى من العكس، والترجيح من هذا الجانب؛ لأن قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾^(١) شرع محمد، وقصة لوط شرع سائر الأنبياء، وشرع محمد عليه الصلاة والسلام أولى من شرع من تقدمه من الأنبياء، وأيضًا الأصل في المنافع والملاذ الحل، وأيضًا الملك مطلق للتصرف. فقل له الاستدلال إنما يقبل في موضع الاحتمال، وقد ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد حرمة هذا العمل، والمبالغة في المنع منه، والاستدلال إذا وقع في مقابلة النقل المتواتر، كان باطلاً^(٢).

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾: «والجملة مستأنفة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبيح قبيح، واختراعه أقبح، ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، فإن سبك النظم الكريم، وإن كان على نفي كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين، لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين، كما مرّ تحقيقه مرارًا في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(٣)، أو مسوقة جوابًا عن سؤال مقدر، كأنه قيل من جهتهم: لم لا نأتيها؟ فقل: بيانا للعلة وإظهارًا للزاجر: ما سبقكم بها أحد لغاية قبحها وسوء سبيلها، فكيف تفعلونها؟ قال عمرو بن دينار: «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط»^(٤)»^(٥).

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿مِن دُونِ النِّسَاءِ﴾ زيادة في التفضيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيدًا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقل من الآخر فظاعة، ولكن المراد أن إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾^(٦)»^(٧).

وقال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: «و(بل) هنا للخروج

(١) المؤمنون: الآية (٦).

(٣) الأنعام: الآية (٢١).

(٤) أخرجه: ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/١٥١٧/٨٦٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٣٥٩/٥٤٠٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/٢٤٥).

(٦) الشعراء: الآية (١٦٦).

(٧) التحرير والتنوير (٨/القسم الثاني/٢٣١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/١٧٦-١٧٧).

من قصة إلى قصة، تنبئ بأنهم متجاوزو الحد في الاعتداء، وقيل: إضراب عن تقريرهم وتوبيخهم والإنكار، أو عن الإخبار عنهم بهذه المعصية الشنيعة إلى الحكم عليهم بالحال التي تنشأ عنها القبائح، وتدعو إلى اتباع الشهوات، وهي الإسراف، وهو الزيادة المفسدة، لما كانت عادتهم الإسراف أسرفوا حتى في باب قضاء الشهوة، وتجاوزوا المعتاد إلى غيره، ونحوه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾^(١)، وقيل: إضراب عن محذوف تقديره: ما عدلتم بل أنتم، وقال الكرمانى: بل رد لجواب، زعموا أن يكون لهم عذر؛ أي: لا عذر لكم ولا حجة، بل أنتم، وجاء هنا ﴿مُسْرِفُونَ﴾، باسم الفاعل؛ ليدل على الثبوت، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأسماء، وجاء في (النمل): ﴿تَجْهَلُونَ﴾^(٢)، بالمضارع؛ لتجدد الجهل فيهم، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأفعال^(٣).

قال محمد رشيد رضا: «ومجموع الآيات - أي: قوله هنا: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، وقوله في (الشعراء): ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وقوله في (النمل): ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ - يدل على أنهم كانوا مرزوين بفساد العقل والنفس، بجمعهم بين الإسراف والعدوان والجهل، فلا هم يعقلون ضرر هذه الفاحشة، في الجناية على النسل وعلى الصحة، وعلى الفضيلة والآداب العامة، ولا غيرها من منكراتهم - فيجتنبوها، أو يجتنبوا الإسراف فيها - ولا هم على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك... فقبح اللواطه وفحشها ليس بكونها لذة بهيمية كما قيل، إذ اللذة البهيمية لا قبح فيها لذاتها؛ لأنها مقتضى الفطرة، ومبدأ حكمة بقاء النسل، بل فحشها باستعمالها بما يخالف مقتضى الفطرة وحكمتها، وبما يترتب عليها من المضار البدنية والاجتماعية والأدبية الكثيرة»^(٤).

قال الألوسي: «وفي هذه الآيات دليل على أن اللواطه من أعظم الفواحش... والمقصود تهويل أمر تلك الفاحشة، وألحق بها بعضهم السحاق»^(٥).

(٢) النمل: الآية (٥٥).

(١) الشعراء: الآية (١٦٦).

(٣) البحر المحيط (٤/٣٣٧).

(٤) المنار (٨/٥١١-٥١٢).

(٥) روح المعاني (٨/١٧٢-١٧٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حد اللوطي ومواقع البهيمة

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث دليل على أن جريمة اللواط من كبائر الذنوب وعظيم الموبقات، وقد احتج بهذا الحديث من ذهب من العلماء إلى القول بأن اللوطي يقتل سواء أحسن أو لم يحسن، وقد اختلف العلماء في ذلك بعد إجماعهم على تحريم هذه الفعلة الشنعاء.

● تنبيه:

ذكر ابن العربي رحمه الله هذا الحديث في أحكامه، وتبعه القرطبي والسيوطي تحت قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، وأما ابن كثير - رحمه الله تعالى - فذكره تحت قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٢).

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوه معها، قال: قلت له: ما شأن البهيمة؟ قال: ما أراه قال ذلك، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل»^(٣).

★ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث من ذهب إلى أن حكم واطئ البهيمة كحكم اللوطي سواء. قالوا: «لأنه وطء لا يحل بحال، فكان فيه القتل كحد اللوطي»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (٣٠٠/١)، وأبو داود (٦٠٧/٤-٦٠٨/٤) واللفظ له، والترمذي (١٤٥٦/٤٧/٤)، وابن ماجه (٢٥٦١/٨٥٦/٢)، والحاكم (٣٥٥/٤) وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٢) الأعراف: الآية (٨٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣٠٠/١)، وأبو داود (٦٠٩/٤-٦١٠/٤)، والترمذي (١٤٥٥/٤٦/٤)، وابن ماجه (٢٥٦٤/٨٥٦/٢). والحديث صححه الألباني في الإرواء (٢٣٤٨/١٣/٨).

(٤) أفاده ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص: ٢٧١-٢٧٢).

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في عقوبة من ارتكب فاحشة قوم لوط، وسنذكر إن شاء الله أقوال العلماء في ذلك، وأدلتهم، وما يظهر رجحانه بالدليل من ذلك، فنقول وبالله - جل وعلا - نستعين:

قال بعض العلماء: الحكم في ذلك: أن يقتل الفاعل والمفعول به مطلقاً سواء كانا محصنين أو بكرين، أو أحدهما محصناً والآخر بكراً.

وممن قال بهذا القول: مالك بن أنس وأصحابه، وهو أحد قولي الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد. وحكى غير واحد إجماع الصحابة على هذا القول، إلا أن القائلين به اختلفوا في كيفية قتل من فعل تلك الفاحشة، فقال بعضهم: يقتل بالسيف، وقال بعضهم: يرمم بالحجارة، وقال بعضهم: يحرق بالنار، وقال بعضهم: يرفع على أعلى بناء في البلد فيرمى منه منكساً ويتبع بالحجارة.

وحجة من قال بقتل الفاعل والمفعول به في اللواط مطلقاً: ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١). قال ابن حجر: ورجاله موثقون، إلا أن فيه اختلافاً. اهـ.

وما ذكره يحيى بن معين من أن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب ينكر عليه حديث عكرمة هذا عن ابن عباس، فيه أن عمرًا المذكور ثقة، أخرج له الشيخان ومالك كما قدمناه مستوفى.

ويعتضد هذا الحديث بما رواه سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية: أنه يرمم. أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي.

وبما أخرجه الحاكم وابن ماجه عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «اقتلوا الفاعل والمفعول به، أحصنا أو لم يحصنا»^(٢) قال الشوكاني: وإسناده ضعيف.

قال ابن الطلاع في أحكامه: لم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه رجم في اللواط، ولا أنه حكم فيه، وثبت عنه أنه قال: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» رواه عنه ابن

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) الحديث «اقتلوا الفاعل والمفعول به» مضى تخريجه قريباً. وزيادة: «أحصنا أو لم يحصنا» ليست من لفظ الحديث، وإنما هي من كلام يحيى بن سعيد وربيعه كما عند الحاكم في مستدركه (٤/٣٥٥).

عباس وأبو هريرة . اهـ .

قال الحافظ : وحديث أبي هريرة لا يصح ، وقد أخرجه البزار من طريق عاصم بن عمر العمري عن سهيل عن أبيه عنه ، وعاصم متروك . وقد رواه ابن ماجه من طريقه بلفظ : «فارجموا الأعلى والأسفل»^(١) . اهـ .

وأخرج البيهقي عن علي عليه السلام : أنه رجم لوطيًا ، ثم قال : قال الشافعي : وبهذا نأخذ برجم اللوطي محصنًا كان أو غير محصن .

وقال : هذا قول ابن عباس ، قال : وسعيد بن المسيب يقول : السنة أن يرجم اللوطي أحصن أو لم يحصن .

وقال البيهقي أيضًا : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الفارسي قالا : ثنا أبو عمرو بن مطر ، ثنا إبراهيم بن علي ، ثنا يحيى بن يحيى ، أنبا عبد العزيز بن أبي حازم ، أنبا داود بن بكر عن محمد بن المنكدر ، عن صفوان بن سليم «أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق عليه السلام في خلافته يذكر له : أنه وجد رجلًا في بعض نواحي العرب ينكح كما تنكح المرأة ، وأن أبا بكر عليه السلام جمع الناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألهم عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولاً علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، قال : إن هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار . فكتب أبو بكر عليه السلام إلى خالد بن الوليد عليه السلام يأمره أن يحرقه بالنار» . هذا مرسل .

وروي من وجه آخر عن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن علي عليه السلام في غير هذه القصة قال : يرجم ويحرق بالنار .

ويذكر عن ابن أبي ليلى عن رجل من همدان : أن عليًا عليه السلام رجم رجلًا محصنًا في عمل قوم لوط . هكذا ذكره الثوري عنه مقيدًا بالإحصان . وهشيم رواه عن ابن أبي ليلى مطلقًا ، اهـ منه بلفظه .

فهذه حجج القائلين بقتل الفاعل والمفعول به في اللواط .

(١) ابن ماجه (٢/٨٥٦/٢٥٦٢) .

وحجة من قال : إن ذلك القتل بالنار هو ما ذكرناه عن أصحاب رسول الله ﷺ آنفاً .

وحجة من قال : إن قتله بالسيف قوله ﷺ : « فاقتلوا الفاعل والمفعول به » ، والقتل إذا أطلق انصرف إلى القتل بالسيف .

وحجة من قال : إن قتله بالرجم هو ما قدمنا من رواية سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس : أنه يرمم . وما ذكره البيهقي وغيره عن علي أنه رجم لوطياً ، ويستأنس لذلك بأن الله رمى أهل تلك الفاحشة بحجارة السجيل .

وحجة من قال : يرفع من أعلى بناء أو جبل ويلقى منكساً ويتبع بالحجارة : أن ذلك هو الذي فعله الحكيم الخبير بقوم لوط ؛ كما قال : ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾^(١) .

قال مقيده عفا الله عنه : وهذا الأخير غير ظاهر ؛ لأن قوم لوط لم يكن عقابهم على اللواط وحده ، بل عليه وعلى الكفر ، وتكذيب نبيهم ﷺ . فهم قد جمعوا إلى اللواط ما هو أعظم من اللواط ، وهو الكفر بالله ، وإيذاء رسوله ﷺ .

القول الثاني : هو أن اللواط زنى فيجلد مرتكبه مائة إن كان بكرًا ويغرب سنة ، ويرجم إن كان محصنًا . وهذا القول هو أحد قولي الشافعي .

وذكر البيهقي عن الربيع بن سليمان : أن الشافعي رجع إلى أن اللواط زنى ، فيجري عليه حكم الزنى ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد رحمهم الله تعالى .

ورواه البيهقي عن عطاء وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، وهو قول أبي يوسف ومحمد وسعيد بن المسيب والحسن وقتادة والنخعي والثوري والأوزاعي وغيرهم .

واحتج أهل هذا القول بما رواه البيهقي عن محمد بن عبد الرحمن عن خالد الحذاء عن ابن سيرين عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان »^(٢) أخبرنا أبو عبد الله

(١) الحجر : الآية (٧٤) .

(٢) أخرجه من حديث أبي موسى رضي الله عنه : البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٧٥ / ٥٤٥٨) ، وفي السنن الكبرى له (٨/ ٢٣٣) .

الحافظ، ثنا أبو العباس بن يعقوب، ثنا يحيى بن أبي طالب، ثنا أبو بدر، ثنا محمد بن عبد الرحمن، فذكره. قال الشيخ: ومحمد بن عبد الرحمن هذا لا أعرفه، وهو منكر بهذا الإسناد. انتهى منه بلفظه.

وقال الشوكاني رحمته الله في «نيل الأوطار» في هذا الحديث: وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن كذبه أبو حاتم.

وقال البيهقي: لا أعرفه، والحديث منكر بهذا الإسناد. ورواه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء، والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى، وفيه بشر بن المفضل البجلي وهو مجهول. وقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عنه، اهـ منه.

واستدل القائلون بهذا القول أيضًا بقياس اللواط على الزنى بجامع أن الكل إيلاج فرج في فرج محرم شرعًا، مشتهى طبعًا.

ورد بأن القياس لا يكون في الحدود؛ لأنها تدرأ بالشبهات. والأكثر على جواز القياس في الحدود، وعليه درج في «مراقي السعود» بقوله:

والحد والكفارة التقدير جوازه فيها هو المشهور

إلا أن قياس اللائط على الزاني يقدح فيه بالقادح المسمى: (فساد الاعتبار)؛ لمخالفته لحديث ابن عباس المتقدم: أن الفاعل والمفعول به يقتلان مطلقًا، أحصنا أولم يحصنا، ولا شك أن صاحب الفطرة السليمة لا يشتهي اللواط، بل ينفر منه غاية النفور بطبعه كما لا يخفى.

القول الثالث: أن اللائط لا يقتل ولا يحد حد الزنى، وإنما يعزر بالضرب والسجن ونحو ذلك. وهذا قول أبي حنيفة.

واحتج أهل هذا القول بأن الصحابة اختلفوا فيه، واختلافهم فيه يدل على أنه ليس فيه نص صحيح، وأنه من مسائل الاجتهاد، والحدود تدرأ بالشبهات، قالوا: ولا يتناوله اسم الزنى؛ لأن لكل منهما اسمًا خاصًا به؛ كما قال الشاعر:

من كف ذات حر في زنى ذي ذكر لها محبان لوطي وزناء

قالوا: ولا يصح إلحاقه بالزنى لوجود الفارق بينهما؛ لأن الداعي في الزنى من الجانبين بخلاف اللواط، ولأن الزنى يفضي إلى الاشتباه في النسب وإفساد الفراش بخلاف اللواط. قال في «مراقي السعود»:

والفرق بين الأصل والفرع قدح إبداء مختص بالأصل قد صلح
أو مانع في الفرع. الخ.

واستدل أهل هذا القول أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا﴾^(١) الآية.

قالوا: المراد بذلك: اللواط. والمراد بالإيذاء: السب أو الضرب بالنعال.
وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
مجاهد: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ قال: «الرجلان الفاعلان».
وأخرج آدم والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله: ﴿فَتَاذُوهُمَا﴾ يعني سباً، قاله
صاحب «الدر المنثور»^(٢).

وقال ابن القيم: «وأما واطئ البهيمة، فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:
أحدها: أنه يؤدب، ولا حد عليه، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في
أحد قوليه، وقول إسحق.

والقول الثاني: حكمه حكم الزاني، يجلد إن كان بكرًا، ويرجم إن كان
محصنًا، وهذا قول الحسن.

والقول الثالث: أن حكمه حكم اللوطي، نص عليه أحمد، فيخرج على
الروايتين في حده، هل هو القتل حتمًا أو هو كالزاني؟

والذين قالوا: حده القتل، احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن
النبي ﷺ: «من أتى بهيمةً فاقتلوه، واقتلوه معها»^(٣).

قالوا: ولأنه وطء لا يباح بحال؛ فكان فيه القتل كحد اللوطي.

ومن لم يرَ عليه حدًا قالوا: لم يصح فيه الحديث، ولو صح لقلنا به، ولم يحل لنا
مخالفته.

(١) النساء: الآية (١٦).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٠-٤٥).

(٣) مضي تخريجه قريباً.

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة، فوقف عندها، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك.

وقال الطحاوي: الحديث ضعيف، وأيضاً فراويه ابن عباس، وقد أفتى به لا حد عليه، قال أبو داود: وهذا يضعف الحديث.

ولا ريب أن الزاجر الطبيعي عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبيعي عن التلوث، وليس الأمر أنهما في طباع الناس سواء، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم^(١).

(١) الداء والدواء (ص: ٣٠٣-٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وما كان جواب قوم لوط للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح، وركوبهم ما حرّم الله عليهم من العمل الخبيث إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأهله، ولذلك قيل: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ فجمع، وقد جرى قبل ذكر لوط وخذه دون غيره. وقد يحتمل أن يكون إنما جمع بمعنى: أخرجوا لوطاً ومن كان على دينه من قريتهم، فاكتفى بذكر لوط في أول الكلام عن ذكر أتباعه، ثم جمع في آخر الكلام، كما قيل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(١)، وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ يقول: إن لوطاً ومن تبعه أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار»^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «فإن قيل: إنه لم يسبق ذكر لمن آمن معه، فيعود إليهم ضمير ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾، قلنا: إن هذا مما يعرف بالقرينة، وقد صرح به في آية (النمل)، ففيها: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾^(٣) بدل ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾، والباقي سواء، إلا أن العطف في أولها بالفاء، كآية (العنكبوت) التي اختلف فيها الجواب، وهي: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾^(٤)، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ومتى كان الكلام مفهوماً كان صحيحاً فصيحاً وإن أشكل على جامدي النحاة إعرابه، كما سبق نظيره.

فإن قيل: إن في حكاية الجوابين تعارضاً في المعنى محكياً بصيغة النفي والإثبات فيهما، فكيف وقع هذا في كتاب الله تعالى؟ وما الذي يدفع هذا

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٣٥).

(٤) العنكبوت: الآية (٢٩).

(١) الطلاق: الآية (١).

(٣) النمل: الآية (٥٦).

التعارض؟ قلنا: إنه لا تعارض ولا تنافي بين الجوابين، لحملهما على الوقوع في وقتين. ولا شك أنه كان ينهاهم كثيرًا، فكان يسمع في كل وقت كلامًا ممن حضر منهم، وقد قلنا: إن قصص القرآن لم يقصد بها سرد حوادث التاريخ، بل العبرة والموعظة، فيذكر في كل سورة من القصص الواحدة من المعاني والمواعظ ما لا يذكر في الأخرى، ومجموعها هو كل ما أراد الله تعالى أن يعظ به هذه الأمة. فمن المعهود أن الرسل عليهم السلام - وكذا غيرهم من الوعاظ الذين ينهون الضالين والمجرمين عن المنكر - يكررون لهم الوعظ بمعان متقاربة، ويسمعون منهم أجوبة متشابهة، وقد يقول بعضهم ما لا يقول غيره فيعجبهم ويقرؤنه عليه فيسند إليهم كلهم، كما يسند إليهم فعل الواحد منهم إذا رضوه وأقروه عليه ولو بعد فعله، كما تقدم آنفًا في إسناد عقر الناقة إلى قوم صالح وإنما عقرها واحد منهم، وقد حكى الله تعالى من قول رسوله لوط عليه السلام لقومه في سورة (العنكبوت) ما لم يحكه في سورتي (الأعراف) و(النمل)، فزاد على إتيانهم الرجال قطع السبيل، وإتيانهم المنكر في النادي الحافل، والمجلس الحاشد، فكانهم ضاقوا به حينئذ ذرعًا واستعجلوه العذاب الذي أنذرهم إذا أصرروا على عصيانه، والأظهر أن هذا كان بعد أمرهم بإخراجه، وأن التوعد بالإخراج كان قبل الأمر به، والله أعلم.

فإن قيل: هذا مقبول؛ لأن مثله معهود معروف، ولكن ما وجه بدء جملة الجواب بالواو تارة وبالفاء أخرى؟ وما وجه اختصاص كل منهما بموضعه؟

قلنا: إن عطف الجملة على ما قبلها بكل من الواو والفاء جائز إلا أن في الفاء زيادة معنى؛ لأنها تفيد ربط ما بعدها بما قبلها بما يقتضي وجوب تلوه له فهو جماع معانيها العامة من التعقيب والسببية وجزاء الشرط، والأصل العام في هذا الارتباط أن يكون ما بعد الفاء أثرًا لفعل وقع قبله، وكل من آتني (النمل) و(العنكبوت) جاء بعد إسناد فعل إلى القوم، وهو قوله في الأولى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَهْلُوتِ﴾^(١)، وفي الثانية: ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(٢)، فلذلك عطف الجواب على ما بعدهما بالفاء. وأما آية (الأعراف) فقد جاءت بعد

(١) النمل: الآية (٥٥).

(٢) العنكبوت: الآية (٢٩).

جملة اسمية وهي قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(١)، وإسناد صفة الإسراف إليهم فيها مقصود بالذات دون ما قبله من فعل الفاحشة الذي كان بتكراره علة لهذه الصفة وكان الإصرار عليه معلولاً لها، وثُمَّ وجه آخر لأن عطف هذه بالواو مبني على ما استظهرناه من كون الأمر بإخراجه عليه السلام من بعضهم قد كان بعد الإنذار والوعيد به من آخرين منهم، فكان بهذا في معنى المعطوف عليه، فكأنه قال: فما كان جواب قومه إلا أن قال بعضهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾^(٢)، وأن قال بعضهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾^(٣)، وردده آخرون: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، وهذه الدقة في اختلاف التعبير في المواقع المتحدة أو المتشابهة لأمثال هذه النكت لا تجدها مطردة إلا في كتاب الله تعالى، وهي من إعجازه اللفظي، ولذلك يغفل عنها أكثر المفسرين^(٤).

وقال: «فإن قيل: إن المعهود من أهل الرذائل أن ينكروها، أو يسموها بغير اسمها، ويألمون ممن يعيرهم بها؛ لما جبل الله عليه البشر من حب الكمال وكره النقص، فكيف علل قوم لوط إخراجه هو ومن آمن معه بأنهم يتطهرون ويتزهون من أدران الفواحش، وهو شهادة لهم بالكمال وشهادة على أنفسهم بالنقص؟

فالجواب ما قال الزمخشري فيه وهو أنه: سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخارهم بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعادوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهّد^(٥)، اهـ. ومثله معهود من المجاهرين بالفسق، وللنقص والرذائل دركات، كما أن للكمال والفضائل درجات، فأولاها: أن يلم بالرذيلة وهو يشعر بقبحها، ويلوم نفسه عليها، ثم يتوب إلى ربه منها، ويليه أن يعود إليها المرة بعد المرة مستتراً مستخفياً، ويليه أن يصبر عليها، حتى يزول شعوره بقبحها، ويليه أن يجهر بها، ويكون قدوة سيئة للمستعدين لها، ويليه أن يفاخر بها أهلها، ويحتقر من يتزهون عنها، وهذه أسفل الدركات، وهي دركة قوم لوط، ولا يهبط إليها ولا يسف من يؤمن بالله واليوم

(١) الأعراف: الآية (٨١).

(٢) الشعراء: الآية (١٦٧).

(٣) النمل: الآية (٥٦).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٥١٢-٥١٤).

(٥) الكشف (٢/ ٩٢-٩٣).

الآخر، بل وصف الله المؤمنين بأنهم إذا عملوا السيئات يعملونها بجهالة، ثم يتوبون من قريب، وأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون^(١).

* * *

(١) المصدر السابق (٨/٥١٤-٥١٥).

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٨٢)

★ غريب الآية:

الغابرين : أي : الباقيين في عذاب الله ، قاله ابن عباس وقتادة . يقال : غبر الشيء : إذا مضى ، وغبر : إذا بقي ، فهو من الأضداد .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : فلما أبى قوم لوط - مع توبيخ لوط إياهم على ما يأتون من الفاحشة ، وإبلاغه إياهم رسالة ربه بتحريم ذلك عليهم - إلا التماسي في غيهم ، أنجينا لوطاً وأهله المؤمنين به ، إلا امرأته ، فإنها كانت للوط خائنة ، وبالله كافرة .

وقوله : ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ يقول : من الباقيين ، وقيل : ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ولم يقل : الغابرات ؛ لأنه يريد أنها ممن بقي مع الرجال ، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل : ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ . . .

فإن قال قائل : فكانت امرأة لوط ممن نجا من الهلاك الذي هلك به قوم لوط ؟ قيل : لا ، بل كانت فيمن هلك .

فإن قال : فكيف قيل : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وقد قلت : إن معنى الغابر : الباقي ؟ فقد وجب أن تكون قد بقيت ؟

قيل : إن معنى ذلك غير الذي ذهبت إليه ، وإنما عنى بذلك : إلا امرأته كانت من الباقيين قبل الهلاك ، والمعمرين الذين قد أتى عليهم دهر كبير ، ومر بهم زمن كثير حتى هرمت فيمن هرم من الناس ، فكانت ممن غبر الدهر الطويل قبل هلاك القوم ، فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب ، وقيل : معنى ذلك : من الباقيين في عذاب الله^(١) .

(١) جامع البيان (٨/٢٣٦) .

وقال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أنه لم ينج مع لوط إلا خصوص أهله، وقد بين تعالى في (الذاريات)، بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)، وقوله هنا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، أوضحه في مواضع أخرى: فبين أنها خائنة، وأنها من أهل النار، وأنها واقعة فيما أصاب قومها من الهلاك، قال فيها، هي وامرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾^(٢)، وقال فيها وحدها، أعني امرأة لوط: ﴿إِلَّا امْرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾^(٣)،^(٤).

قلت: والخيانة المذكورة هنا غير مقصود بها الخيانة في العرض؛ بل خيانتها كانت بكفرها، وتأبيدها لعمل قومها، وإخبارها قومها بمن حل بلوط من الضيوف؛ فإن الله ﷻ نزه أنبياءه عن أن تقع أزواجهم في الفاحشة.

(١) الذاريات: الآيتان (٣٥ و٣٦).

(٢) التحريم: الآية (١٠).

(٣) هود: الآية (٨١).

(٤) أضواء البيان (٢/٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وأمطرنا على قوم لوط الذين كذبوا لوطاً ولم يؤمنوا به مطراً من حجارة من سجيل أهلكناهم به، ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقول - جل ثناؤه - : فانظر - يا محمد - إلى عاقبة هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله من قوم لوط، فاجترموا معاصي الله، وركبوا الفواحش، واستحلوا ما حرم الله من أدبار الرجال، كيف كانت، وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيره من العقوبة، عاقبة من كذبك، واستكبر عن الإيمان بالله وتصديقك، إن لم يتوبوا من قومك»^(١).

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا هذا المطر ما هو، ولكنه بين في مواضع آخر أنه مطر حجارة أهلكهم الله بها، كقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾^(٢)، وأشار إلى أن السجيل الطين بقوله في (الذاريات): ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾^(٣)، وبين أن هذا المطر مطر سوء لا رحمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً﴾^(٤)، وقوله تعالى في (الشعراء): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾^(٥)»^(٦).

فصل في بيان ما اشتملت عليه قصة لوط مع قوميه من الفوائد والعبر

من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: «وأما قصة لوط، فنذكر أيضاً ما فيها من الزيادة على القصص الثلاث:

(٢) الحجر: الآية (٧٤).

(٤) الفرقان: الآية (٤٠).

(٦) أضواء البيان (٢/٣٦).

(١) جامع البيان (٨/٢٣٧).

(٣) الذاريات: الآية (٣٣).

(٥) الشعراء: الآية (١٧٣).

- الأولى: التصريح أن هذا الفعل لم يفعل قبلهم.
- الثانية: موعظة نبيهم بذلك، فدل على أنه متقرر عندهم أن أول من ابتدع القبيح ليس كغيره.
- الثالثة: تعظيم هذه الفاحشة بمخاطبتهم بالاستفهام.
- الرابعة: تغليظها بالآلف واللام، فدل على الفرق بينها وبين الزنى لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١).
- الخامسة: تنبيههم على مخالفة العقول والشهوات لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾^(٢) فتركوا موضع الشهوة مع حسنه عقلاً ونقلاً.
- السادسة: تنبيههم على العلة أنها ليست للشهوة بل للسرف.
- السابعة: هذا الجواب العُجاب تلك النصيحة والبيان بأدلة العقل والنقل.
- الثامنة: إقرارهم أن آل لوط الطيبون، وأنهم الأخباث.
- التاسعة: تصريحهم أن هذا هو الذي نقموا عليه، وجعلوه سبباً لإخراجهم من البلد.
- العاشرة: ما في إهلاك امرأته من الدلالة على التوحيد، والدلالة على أن من أحب قوماً حُشر معهم، وإن لم يعمل عملهم.
- الحادية عشرة: ذكر الأمر بالنظر في عاقبة المجرمين^(٣).



(١) الإسراء: الآية (٣٢).

(٢) الأعراف: الآية (٨١).

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١١٠).

قوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

★ غريب الآية:

أوفوا : الإيفاء : التميم .

الكيل : معلوم ، وهو ما يكال به .

الميزان : معلوم ، وهو ما يوزن به .

ولا تبخسوا الناس أشياءهم : البخس : النقص ، ويكون في السلعة بالتعيب والتزهد فيها ، أو المخادعة عن القيمة والاحتياي في التزيد في الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على السنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم .

ولا تفسدوا : أي : لا تحدثوا الفساد ، وهو خلاف الحق .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : وأرسلنا إلى ولد مدين ، ومدين هم ولد مدين بن إبراهيم خليل الرحمن فيما حدثنا به ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحق ، فإن كان الأمر كما قال : فمدين قبيلة كتميم . وزعم أيضا ابن إسحق : أن شعيبا الذي ذكر الله أنه أرسله إليهم من ولد مدين هذا ، وأنه شعيب بن ميكيل بن يشجر قال : واسمه بالسريانية : بثرون .

فتأويل الكلام على ما قاله ابن إسحق : ولقد أرسلنا إلى ولد مدين أخاهم شعيب ابن ميكيل ، يدعوهم إلى طاعة الله ، والانتهاى إلى أمره ، وترك السعي في الأرض بالفساد ، والصدّ عن سبيله ، فقال لهم شعيب : يا قوم ! اعبدوا الله وحده لا شريك

له، ما لكم من إله يستوجب عليكم العبادة غير الإله الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضرركم، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه، ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يقول: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يقول: ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها، ومن ذلك قولهم: تحسبها حمقاء وهي باخسة، بمعنى: ظالمة، ومنه قول الله: ﴿وَشَرُّهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ﴾^(١) يعني به: رديء...

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه من عبادة غير الله والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن، ﴿بَقَدْ إِصْلَحَهَا﴾ يقول: بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يقول: هذا الذي ذكرت لكم، وأمرتكم به من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض خير لكم في عاجل دنياكم، وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة، ﴿إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم مصدقي فيما أقول لكم وأؤدي إليكم عن الله من أمره ونهيه^(٢).

قال ابن كثير: «وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم؛ أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا، كما قال تعالى: ﴿وَيَلِّ الْمُطْغِفِينَ﴾^(٣) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ^(٤) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ^(٥) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ^(٦) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ^(٧) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٨)»، وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد، نسأل الله العافية منه^(٩).

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب أنه أمر قومه في هذه الآية بأشياء:

الأول: أنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله، وهذا أصل معتبر في

(١) يوسف: الآية (٢٠).

(٢) جامع البيان (٨/٢٣٦-٢٣٧).

(٣) المطففين: الآيات (١-٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٤٧).

شرائع جميع الأنبياء، فقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

والثاني: أنه ادعى النبوة فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ويجب أن يكون المراد من البينة ههنا المعجزة؛ لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه. فأما أن تلك المعجزة من أي الأنواع كانت فليس في القرآن دلالة عليه، كما لم يحصل في القرآن الدلالة على كثير من معجزات رسولنا . . .

والثالث: أنه قال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

واعلم أن عادة الأنبياء عليهم السلام إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفساد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفساد بدؤوا بمنعهم عن ذلك النوع. وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ . . .

والرابع: قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، والمراد أنه لما منع قومه من البخس في الكيل والوزن منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقه، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الحيل.

والخامس: قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾؛ وذلك لأنه لما كان أخذ أموال الناس بغير رضاها يوجب المنازعة والخصومة، وهما يوجبان الفساد، لا جرم قال بعده: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ . . .

وحاصل هذه التكاليف الخمسة يرجع إلى أصليين: التعظيم لأمر الله، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة، والشفقة على خلق الله، ويدخل فيه ترك البخس، وترك الإفساد، وحاصلها يرجع إلى ترك الإيذاء، كأنه تعالى يقول: إيصال النفع إلى الكل متعذر، وأما كف الشر عن الكل فمممكن، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الخمسة، قال: ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ وهو إشارة إلى هذه الخمسة، والمعنى: ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الآخرة إن كنتم مؤمنين بالآخرة، والمراد: ترك البخس وترك الإفساد خير لكم في طلب المال في المعنى؛ لأن الناس إذا علموا منكم الوفاء والصدق والأمانة، رغبوا في المعاملات معكم، فكثرت أموالكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم

مصدقين لي في قلبي»^(١).

وقال ابن عاشور: «حاصل ما أمر به شعيب عليه السلام قومه بعد الأمر بالتوحيد ينحصر في ثلاثة أصول: هي حفظ حقوق المعاملة المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وحفظ حقوق حرية الاستهداء. فالأول قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشتريين؛ لأن الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حب الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء الناقص بثمان الشيء الوافي، كما يحسبه المشتري، وأما النهي عن بخس الناس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع؛ لأن المشتري هو الذي يبخس شيء البائع، ليهيئه لقبول الغبن في ثمن شيء، وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال، ..

وما جاء في هذا التشريع هو أصل من أصول المعاملة بين الأمة؛ لأن المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، وإنما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل، فالمنتج يزداد إنتاجاً وعرضاً في الأسواق، والطالب - من تاجر أو مستهلك - يقبل على الأسواق لا يخشى غبناً ولا خديعة ولا خلافة، فتتوفر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها، وتحسينياتها، فيقوم نماء المدينة والحضارة على أساس متين، ويعيش الناس في رخاء وتحابب وتأخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ضد ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذا الأصل الثاني من أصول دعوة شعيب عليه السلام للنهي عن كل ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصلاح في الأرض»^(٢).

وقال الألوسي: «وفائدة التصريح بالنهي عن النقص بعد الأمر بالإيفاء: تأكيد ذلك الأمر، وبيان قبح ضده»^(٣).

قال أبو حيان: «وفي إضافة الأشياء إلى الناس دليل على ملكهم إياها، خلافاً

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٠-١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٣) روح المعاني (٨/ ١٧٦-١٧٧).

للإباحية الزنادقة، كانوا يبخسون الناس في مبايعاتهم، وكانوا مكاسين، لا يدعون شيئاً إلا مكسوه»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كراهة الخداع في البيع

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل للنبي ﷺ: إني أخدع في البيوع، فقال: «إذا بايعت فقل: لا خلابة»، فكان الرجل يقول له^(٢).

★ غريب الحديث:

خلابة: مصدر خلبت الرجل: إذا خدعته، أخلبه خلْبًا وخالبة.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفقه: «أن الخداع في البيع مكروه، وأنه لو لم يكن مكروهاً لما قال ﷺ لذلك المخدوع: «إذا بايعت فقل: لا خلابة»»^(٣).

قال ابن بطال: «اختلف الفقهاء فيمن باع بيعاً غبن فيه غبنًا لا يتغابن الناس بمثله، فقال مالك: إن كانا عارفين بتلك السلعة، وبأسعارها وقت البيع لم يفسخ البيع كثيراً كان الغبن أو قليلاً، وإن كانا أو أحدهما غير عارف بتقلب السعر وبتغيره وتفاوت الغبن، فسخ البيع، إلا أن يريد أن يمضياه، ومن أصحاب مالك من اعتبر مقدار ثلث قيمة السلعة، ولم يحد مالك في ذلك حدًا، ومذهبه إذا خرج عن تغابن الناس في مثل تلك السلعة أنه يفسخ، وبهذا قال أبو ثور، وقال أبو حنيفة والشافعي: ليس له أن يفسخ في الغبن الكثير كما لا يفسخ في القليل، وقد قال ابن القاسم في «العتبية»: إنه لا يفسخ في الغبن الكثير، واحتج الكوفيون فقالوا: إن حبان بن منقذ أصابته آفة في رأسه فكان يخدع في البيوع، فقال له النبي ﷺ: «إذا بايعت فقل: لا خلابة، ولك الخيار ثلاثاً»، قالوا: فموضع الدليل منه هو أنه كان يخدع في البيع، ومن كان يخدع في عقله بضعف يلحقه الغبن في عقود، فجعل له

(١) البحر المحيط (٤/٣٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١١٦/٢)، والبخاري (٥/٨٦/٢٤٠٧)، ومسلم (٣/١١٦٥/١٥٣٣)، وأبو داود (٣/٧٦٥-٧٦٧/٣٥٠٠)، والنسائي (٧/٢٨٩/٤٤٩٦).

(٣) أفاده الحافظ في الفتح (٤/٤٢٣)، والعيني في عمدة القاري (٨/٣٩٣).

النبي ﷺ الخيار لما يلحقه من ذلك، فلو كان الغبن شيئاً يملك به فسخ العقد، لما احتاج إلى شرط الخيار مع استغنائه عنه، وقال مالك: هذه الحجة لنا؛ لأنه ﷺ قال له: «لك الخيار»، ولم يقل له: اشترط الخيار، وإنما قال له: «قل: لا خلافة»؛ أي: لا خديعة، فلو كان الغبن مباحاً، لم يكن لقوله: «لا خلافة» معنى، ولم ينفعه ذلك، فلما كان ذلك ينفعه، جعل له النبي ﷺ الخيار بعد ذلك، لينظر فيما باعه، ويسأل عن سعره، ويرى رأيه في ذلك، وإنما جعل ذلك في حبان ليعلمنا الحكم في مثله، وإنما تعرف الأحكام بما بينه ﷺ، فبين ﷺ حكم من يغبن في بيعه إذا لم يكن عارفاً بما يبيعه، ودليل آخر: وهو قوله ﷺ: «لا تلقوا الركبان للبيع، فمن تلقاها فهو بالخيار إذا دخل السوق»^(١)، وإنما جعل له الخيار في ذلك لأجل الغبن الذي يلحقه؛ لأنه لم يدخل السوق، ولا عرف سعر ما باع، ومن يتلقاه وإنما يقصد الغبن والاسترخاض، فعلم بهذا أن الغبن يوجب الخيار، وأيضاً فإنه لو ابتاع سلعة فوجد بها عيباً، كان له الخيار بالرد؛ لأجل النقص الموجود بها، فلا فرق بأن يجد النقص بالسلعة أو بالثمن؛ لأنه في كلا الموضعين قد وجد النقص الذي يخرج به عن القصد، فإن قيل: يلزمكم أن تفسدوا البيع وإن كان غبناً يسيراً، قيل: البيع لا يخلو من الغبن اليسير؛ لأن كل واحد منهما يقصد الاسترخاض، فأجيز على حسب تعارفهم فيه، فإذا خرج عن عرفهم ثبت فيه الخيار، ذكر هذا كله ابن القصار^(٢).

وقال ابن العربي: «إنما أذن الله سبحانه في الأموال بالأكل بالحق والتعامل بالصدق، وطلب التجارة بذلك، فمتى خرج عن يد أحد شيء من ماله بعلمه لأخيه، فقد أكل كل واحد منهما ما يرضي الله ويرتضيه، وإن خرج شيء من ماله عن يده بغير علمه، فلا يخلو أن يكون مما يتغابن الناس بمثله، مما لا غنى عنه في ارتفاع الأسواق وانخفاضها عنه، فإنه حلال جائز من غير خلاف؛ إذ لا يمكن الاحتراز منه وإن كان بأكثر من ذلك فقد اختلف الناس فيه، فقال علماؤنا: إذا جرى ذلك في بيع كان صاحبه بالخيار، إن شاء أمضاه بعد العلم به، وإن شاء رده، وقال بعضهم وآخرون غيرهم: إنه لا رد فيه، والصحيح هو الأول، فقد ثبت أن النبي ﷺ قال

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٤١٠/٢)، والبخاري (٤٥٤/٤)، ومسلم (٣/١١٥٧).

١٥١٩ [١٧]، والنسائي (٢٩٠/٧).

(٢) شرح البخاري (٦/٢٤٦-٢٤٧).

لرجل كان يخدع في البيوع: «إذا بايعت فقل: لا خلافة»، وفي غير الصحيح: «واشترط الخيار ثلاثاً»، وفي رواية: «ولك الخيار ثلاثاً»، فإن قيل... كان هذا الرجل قد أصابته مأمومة في الجاهلية، أثرت في عقله، فكان يخدع لأجل ذلك في بيعه، فقال له النبي ﷺ ما قال، لما كان عليه من الحال، حتى كان يقول لما أصابه: لا خلافة لا خلافة، فالجواب: أن النبي ﷺ لو كان الذي قال له من حكمه، لما أصابه من عقله، لما جوز بيعه؛ لأن بيع المعتوه لا يجوز بخيار ولا بغير خيار، ولكنه أمره بأن يصرح عن قوله حتى يقع الاحتراز منه^(١).

* * *

(١) أحكام القرآن (٢/٧٨٨-٧٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

★ غريب الآية:

تصدون: الصد: الصرف. والمعنى: تصرفونهم عن الهدى.
عوجًا: أي: انحرافًا وفسوقًا عن أمر الله.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾: ولا تجلسوا لكل طريق - وهو الصراط - توعدون المؤمنين بالقتل، وكانوا فيما ذكر يقعدون على طريق من قصد شعيبًا، وأراده ليؤمن به، فيتوعدونه ويخوفونه ويقولون: إنه كذاب...»

وأما قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ فإنه يقول: وتردون عن طريق الله، وهو الرد عن الإيمان بالله، والعمل بطاعته، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ يقول: تردون عن طريق الله من صدق بالله ووحده، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يقول: وتلتمسون لمن سلك سبيل الله، وآمن به، وعمل بطاعته ﴿عِوَجًا﴾ عن القصد والحق إلى الزيغ والضلال...

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ يذكرهم شعيب نعمة الله عندهم بأن كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلًا عددهم، وأن رفعهم من الذلة والخساسة، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية، ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يقول: وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم، وعصوا رسله من المثلات والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه، ألم يهلك بعضهم غرقًا

بالطوفان، وبعضهم رجمًا بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟ والإفساد في هذا الموضع معناه: معصية الله^(١).

وقال القرطبي: «اختلف العلماء في معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان؛ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ. وهذا ظاهر الآية. وقال أبو هريرة: هذا نهى عن قطع الطريق، وأخذ السلب؛ وكان ذلك من فعلهم..»

وقال السدي أيضًا: كانوا عشارين متقبلين. ومثلهم اليوم هؤلاء المكاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعًا من الوظائف المالية بالقهر والجبر، فضمنوا ما لا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهي. والمترتبون في الطرق، إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل به في سائر البلاد. وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غصب وظلم وعسف على الناس، وإذاعة للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإننا لله وإننا إليه راجعون! لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدين إلا اسمه.

يعضد هذا التأويل ما تقدم من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس^(٢).

قلت: الدعاة إلى الله تعالى يتعرضون في حياة دعوتهم إلى أنواع من الأذى ومما تعرض له هذا النبي الكريم الحليم جماعة من سفهاء قومه يصدون الناس عنه ويصرفونهم عنه ويشيرون سمعته ويذيعون كل ما يصد عن دعوته.

ولهم نظائر في هذا الزمان من دعاة الباطل ودعاة أبواب جهنم فبعضهم يصد عن الإسلام عمومًا ويصفه بكل أوصاف القبح؛ بل بلغ ببعضهم الوقاحة بتصوير رسول

(١) جامع البيان (٨/٢٣٨-٢٣٩).

(٢) جامع أحكام القرآن (٧/٢٤٨-٢٤٩).

الإسلام بصور قبيحة يتنزّه عنها أقل الناس عقلاً وفطرة وبعضهم يصف السنة بالتشدد والتنطع وبعضهم يصفها بالجزئيات والقشور، وبعضهم يصفها بالتخلف والحرفيّة وغير ذلك من المصطلحات التي يلقيها إبليس في روعهم؛ ولكن الله ينصر عباده المخلصين، ويكتب لهم من الحسنات والطهر من السيئات ما الله به عليم، فنرجو من الله أن يجعلنا من أوليائه ممن يحب الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ،
وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾

★ غريب الآية:

طائفة: الطائفة: الجماعة من الناس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله - تعالى ذكره - : ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ﴾ : وإن كانت جماعة منكم وفرقة ﴿ءَامَنُوا﴾ يقول: صدقوا ﴿بِالَّذِي أُرْسِلْتُ﴾ من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه، وظلم الناس، وبخسهم في المكايل والموازين، فاتبعوني على ذلك، ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ يقول: وجماعة أخرى لم يصدقوا بذلك، ولم يتبعوني عليه، ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يقول: والله خير من يفصل، وأعدل من يقضي؛ لأنه لا يقع في حكمه ميل إلى أحد، ولا محاباة لأحد، والله أعلم»^(١).

قال الرازي: «المقصود منه تسلية قلوب المؤمنين وزجر من لم يؤمن؛ لأن قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ تهديد، وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾، والمراد إعلاء درجات المؤمنين، وإظهار هوان الكافرين، وهذه الحالة قد تظهر في الدنيا، فإن لم تظهر في الدنيا فلا بد من ظهورها في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني أنه حاكم منزّه عن الجور والميل والحيف، فلا بد وأن يخص المؤمن التقى بالدرجات العالية، والكافر الشقي بأنواع العقوبات، ونظيره قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)»^(٣).

(٢) ص: الآية (٢٨).

(١) جامع البيان (٨/ ٢٤٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٣-١٨٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾
قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ
لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

★ غريب الآية:

لتعودن: أي: لتصيرن إلى ملتنا. وقيل: كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على
الكفر؛ أي: لتعودن إلينا كما كنتم من قبل، وأصل العود: الرجوع، وهو مصير
الشيء إلى الحال التي كان عليها. ويجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء.
قد افترينا: الافتراء: أقبح الكذب، مشتق من الفري، وهو قطع الجلد للخز.
في ملتكم: الملة: الدين والشريعة. جمعها: ملل.
ربنا افتح: أي: احكم واقض. ومنه قيل للقاضي والحكم: فتاح؛ لأنه يفتح
مواطن الحق.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني
بالملا: الجماعة من الرجال، ويعني بالذين استكبروا: الذين تكبروا عن الإيمان
بالله، والانتهاى إلى أمره، وأتباع رسوله شعيب لما حذرهم شعيب بأس الله على
خلافهم أمر ربهم، وكفرهم به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ﴾ ومن تبعك وصدقك وآمن بك،
وبما جئت به معك من قريتنا ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يقول: لترجعن أنت وهم في ديننا
وما نحن عليه، قال شعيب مجيباً لهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾؟

ومعنى الكلام: أن شعيباً قال لقومه: أخرجوننا من قريتكم، وتصدوننا عن
سبيل الله، ولو كنا كارهين لذلك؟ ثم أدخلت (الف) الاستفهام على (واو) (ولَوْ).

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ :

يقول - جل ثناؤه - : قال شعيب لقومه ، إذ دعوه إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها ، وتوعدوه بطرده ومن تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك هو وهم : ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ يقول : قد اختلقنا على الله كذبًا ، وتخرصنا عليه من القول باطلاً إن نحن عدنا في ملتكم ، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها ، بأن بصّرنا خطأها ، وصواب الهدى الذي نحن عليه ، وما يكون لنا أن نرجع فيها فندين بها ، ونترك الحق الذي نحن عليه ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ : إلا أن يكون سبق لنا في علم الله أنا نعود فيها ، فيمضي فينا حينئذ قضاء الله ، فينفذ مشيئته علينا ، ﴿ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يقول : فإن علم ربنا وسع كل شيء ، فأحاط به ، فلا يخفى عليه شيء كان ، ولا شيء هو كائن ، فإن يكن سبق لنا في علمه أنا نعود في ملتكم ، فلا يخفى عليه شيء كان ، ولا شيء هو كائن ، فلا بد من أن يكون ما قد سبق في علمه ، وإلا فلإنا غير عائدين في ملتكم^(١).

وقد استشكل بعض المفسرين قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ على اعتبار أن شعيباً لم يكن قبل على ملتهم ، وأجابوا بنفي ذلك عن شعيب عليه السلام ، وأجاب شيخ الإسلام عن هذا الإشكال فقال : « قوله سبحانه : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ ﴿ ٨٨ ﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ظاهره دليل على أن شعيباً والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم ؛ لقولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ، ولقول شعيب : نعود فيها ؟ ولقوله : ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ ، فدل على أنهم كانوا فيها . ولقوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ بَخَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ .

فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها ، ولقوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ، ولا يجوز أن يكون الضمير عائداً على قومه ؛ لأنه صرح فيه

(١) جامع البيان (٩/١-٢).

بقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ﴾، ولأنه هو المحاور له بقوله: ﴿أُولَئِكَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ﴾ إلى آخرها، وهذا يجب أن يدخل فيه المتكلم، ومثل هذا في سورة (إبراهيم): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١) الآية (٢).

وقال في توجيه هذه الآية وما في معناها: «التحقيق: أن الله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب، كما في حديث هرقل. ومن نشأ بين قوم مشركين جهال، لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم، إذا كان معروفاً بالصدق والأمانة، وفعل ما يعرفون وجوبه، وترك ما يعرفون قبحه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٣)، فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم، ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قاذحاً.

وقد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرائع، وأن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلاً عن أن تقر به، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ (٤) الآية، وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (٥)، فجعل إنذارهم بالتوحيد كالإنذار بيوم التلاق، وكلاهما عرفوه بالوحي.

وما ذكر أنه ﷺ بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي، فإنه سيد ولد آدم، والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره، من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى، وبالنصر والقهر، كما كان نوح وإبراهيم.

ولهذا يضيف الله الأمر إليهما في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٦) الآية، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٧) الآية؛ وذلك أن نوحاً أول رسول بعث إلى المشركين، وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين، وقوم إبراهيم مبدؤه من عبادة الكواكب، ذاك الشرك الأرضي، وهذا السماوي، ولهذا سَدَّ ﷺ ذريعة هذا

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/١٥).

(٤) النحل: الآية (٢).

(٦) الحديد: الآية (٢٦).

(١) إبراهيم: الآية (١٣).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

(٥) غافر: الآية (١٥).

(٧) آل عمران: الآية (٣٣).

وهذا»^(١).

وقال الخازن في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾: «قال الواحدي: معنى العود هنا: الابتداء. والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية: أن شعيباً وأصحابه قالوا: ما كنا لنرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا، فأمرنا راجعة إلى الله، غير خارجة عن قبضته، يسعد من يشاء بالطاعة، ويشقى من يشاء بالمعصية.

وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشية الله، ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر، ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٢)، وكان نبينا محمد ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٣).

قال الزجاج - رحمه الله تعالى - : المعنى: وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيته أن نعود فيها؛ وتصديق ذلك قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون، وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء، فالسعيد من سعد في علم الله تعالى، والشقي من شقى في علم الله تعالى»^(٤).

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٠-٣١).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٥).

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١١٢ و ٢٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٣) مختصراً،

والترمذي (٤/ ٣٩١-٣٩٠ / ٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠ / ٣٨٣٤)، والحاكم في المستدرک (١/

٥٢٦) مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) لباب التأويل (٢/ ١١٣).

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيُنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب - وهم ﴿الْمَلَأُ﴾ - الذين جحدوا آيات الله ، وكذبوا رسوله ، وتمادوا في غيهم لآخرين منهم : لئن أنتم اتبعتم شعيبًا على ما يقول ، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله ، والانتفاء إلى أمره ونهيه ، وأقررتم بنبوته ، ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ يقول : لمغبونون في فعلكم ، وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون إلى دينه الذي يدعوكم إليه ، وهالكون بذلك من فعلكم»^(١).

(١) جامع البيان (٩/٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ﴿٩١﴾

★ غريب الآية:

الرجفة: أصل الرجف: الحركة والاضطراب الشديد. تقول: رجفت الأرض والبحر رجفًا. والمراد هنا الصيحة؛ لأنها تزلزل قلوبهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى ههنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعبيًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة (هود) فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَبًا وَلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾^(١). والمناسبة في ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٢)، فجاءت الصيحة أسكتتهم.

وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورة (الشعراء): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣)، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤)، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾^(٥).

* * *

(١) هود: الآية (٩٤).

(٢) هود: الآية (٨٧).

(٣) الشعراء: الآية (١٨٩).

(٤) الشعراء: الآية (١٨٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٨-٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٢﴾

★ غريب الآية:

لم يَفْنَوْا: لم يُقِيمُوا. وأصله من غَنِيَ بالمكان: إذا أقام به مستغنياً به عن غيره.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فأهلك الذين كذبوا شعيباً فلم يؤمنوا به، فأبادهم، فصارت قريتهم منهم خاوية خلاء، ﴿كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ يقول: كأن لم ينزلوا قط، ولم يعيشوا بها حين هلكوا...»

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ يقول - تعالى ذكره - : لم يكن الذين اتبعوا شعيباً الخاسرين؛ بل الذين كذبوه كانوا هم الخاسرين الهالكين؛ لأنه أخبر عنهم - جل ثناؤه - : أن الذين كذبوا شعيباً قالوا للذين أرادوا اتباعه: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾^(١)، فكذبهم الله بما أحل بهم من عاجل نكاله، ثم قال لنبيه محمد ﷺ: ما خسر أتباع شعيب، بل كان الذين كذبوا شعيباً لما جاءت عقوبة الله هم الخاسرين دون الذين صدقوا وآمنوا به^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «والآية بيان مستأنف من قبل الله ﷻ ناقض لقول الملائكة من قوم شعيب لقومهم، ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾، وقولهم قبله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾^(٣)، كأن سائلاً يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الأمر فيها وكيف كان عاقبة أهلها؟ فأجيب عن الأول بقوله: الذين كذبوا شعيباً وهددوه وأنذروه الإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم، فحرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقاً أو في ذلك العيش الرغيد والأمد

(١) الأعراف: الآية (٩٠).

(٢) جامع البيان (٩/٥-٦).

(٣) الأعراف: الآية (٨٨).

المديد، فمتى انقضى الشيء صار كأنه لم يكن .

وأجيب عن الثاني بقوله : الذين كذبوا شعيباً وزعموا أن من يتبعه يكون خاسراً وأكدوا زعمهم بأقوى المؤكدات كانوا هم الخاسرين لما يعتزون به من تقاليد ملتهم، ومن مالهم ووطنهم، ولما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة لو آمنوا دون الذين اتبعوه، فإنهم كانوا هم الفائزين المفلحين، فالجملة تفيد حصر الخسار في المكذبين له بالنص، وتقتضي نفيه عن المتبعين له بالأولى، ومناسبة الجزاء للذنب بجعل الحرص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق سبباً للحرمان الأبدي منه، وجعل الحرص على الربح بأكل أموال الناس بالباطل سبباً للخسران بالحرمان منه ومن غيره .

واختار بعضهم في نكتة الفصل والتكرار وجهاً آخر، وهو أنه بيان مستأنف من الله تعالى جاء بأسلوب الخطابة العربية المؤثرة في الوعظ والتوبيخ وما في معناهما نحو : أنت الذي جنيت علينا، أنت الذي سلطت علينا أعداءنا، أنت الذي فرقت كلمتنا، أنت الذي أوقعت الشقاق بيننا .

وقال الزمخشري في «الكشاف» : إن في هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيهاً لرأيهم واستهزاءً بنصحهم لقومهم، واستعظاماً لما جرى عليهم، اهـ . وقد خفيت على بعض العلماء الأذكاء دلالة العبارة على هذه المعاني كلها لعدم تأملها^(١) .

* * *

(١) تفسير المنار (٩/١٢-١٣) .

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾

★ غريب الآية:

آسى: أحزن. يقال: آسيتُ عليه آسى: إذا حزنت.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فأدبر شعيب عنهم شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذبوه حزناً عليهم: ﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾ وأدبت إليكم ما بعثني به إليكم من تحذيركم غضبه على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بأمري إياكم بطاعة الله، ونهيكم عن معصيته، ﴿فَكَيْفَ ءَامَى﴾ يقول: فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسوله، وأتوجع لهلاكهم؟»^(١).

وقال الشنقيطي: «بين - جل وعلا - الرسالات التي أبلغها رسوله شعيب إلى قومه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَالِإِيَّائِي أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾»^(٢) الآية، ونحوها من الآيات. وبين نصحه لهم في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾»^(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ ءَامَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، أنكر نبي الله شعيب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - الأسى؛ أي: الحزن على الكفار إذا أهلكهم الله بعد إبلاغهم، وإقامة الحجة عليهم مع تماديهم في الكفر والطغيان لجأجا وعناداً، وإنكاره لذلك يدل على أنه لا

(١) جامع البيان (٦/٩).

(٢) هود: الآية (٨٤).

(٣) هود: الآية (٨٩).

ينبغي، وقد صرح تعالى بذلك فنهى نبينا ﷺ عنه في قوله: ﴿وَلْيَزِدْكَ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، ومعنى (لا تأس): لا تحزن، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) الآية^(٣).

وقال القاسمي: «قال الجشمي: من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهلكوا بعذاب الاستئصال، لما لم يقبلوا نصيحة نبيهم. فتدل على وجوب قبول النصيحة في الدين، وتدل على أنه لا يجوز الحزن على هلاك الكفرة والظلمة، بل يجب أن يحمد الله ويشكر، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)»^(٥).

* * *

(١) المائدة: الآية (٦٨).

(٢) النحل: الآية (١٢٧).

(٣) أضواء البيان (٢/٣٦-٣٧).

(٤) الأنعام: الآية (٤٥).

(٥) محاسن التأويل (٧/٢١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤)

★ غريب الآية:

البأساء: الشدة والمكروه.

الضراء: الضر، وهو سوء الحال، وهو ضد النفع. والضراء تقابل بالسراء
والنعماء.

يَضَّرَّعُونَ: أي: يتضرعون. وقد تقدم قريباً معنى التضرع، فليراجع.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ معرفه سنته في الأمم التي
قد خلت من قبل أمته، ومذكر من كفر به من قريش لينزجروا عما كانوا عليه مقيمين
من الشرك بالله، والتكذيب لنبية محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ قبلك
﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وهو البؤس وشظف المعيشة وضيقها، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾
وهي الضر وسوء الحال في أسباب دنياهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يقول: فعلنا ذلك
ليتضرعوا إلى ربهم، ويستكينوا إليه، وينيبوا بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من
تكذيب أنبيائهم»^(١).

وقال ابن عطية: «هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ؛ لأنه
لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية قال: ومن يؤمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل
بأولئك؟ وهذا استفهام على جهة التوقيف»^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «تقدم مثل هذا في قوله تعالى من سورة (الأنعام):
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾»^(٣) . . . فإنه بمعنى

(١) جامع البيان (٩/٦-٧).

(٢) المحرر الوجيز (٢/٤٣٢).

(٣) الأنعام: الآية (٤٢).

ما هنا ، ولكن السياق مختلف ، فلما كان ما هنا قد ورد عقب قصص طائفة من الرسل جعل هذا المعنى قاعدة كلية وسنة مطردة في الرسل مع أقوامهم ليعتبر به كل من سمعه أو قرأه في عصر التنزيل وما بعده . ولما كان ما هنالك قد ورد في سياق تبليغ خاتم الرسل للدعوة ومحااجة قومه جعل خطاباً خبيراً له لتسليته وتثبيت قلبه من جهة ، ولتخويف كفار قريش وإنذارهم من جهة أخرى . وهذا ملاحظ هنا أيضاً ، ولكن بالتبع للاعتبار بالسنة العامة ، لا بالقصد الأول^(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾^(١)

★ غريب الآية:

ثم بدّلنا: التبديل: التغيير وهو جعل الشيء مكان الآخر.
عَفَوا: أصل العفو الترك. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾^(٢).
والمعنى: كثروا وكثرت أموالهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أهل القرية التي أخذنا أهلها بالبأساء والضراء، ﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾، وهي البأساء والضراء؛ وإنما جعل ذلك سيئة؛ لأنه مما يسوء الناس، ولا تسوؤهم الحسنة، وهي الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ يقول: حتى كثروا، وكذلك كل شيء كثر، فإنه يقال فيه: قد عفا، كما قال الشاعر:

ولكننا نعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كُوم
... واختلفوا في تأويل قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ فقال بعضهم نحو الذي قلنا

فيه ...

وقال آخرون: معنى ذلك: حتى سُروا ...

وهذا الذي قاله قتادة في معنى: ﴿عَفَوا﴾ تأويل لا وجه له في كلام العرب؛ لأنه لا يعرف العفو بمعنى السرور في شيء من كلامها إلا أن يكون أراد: حتى سُروا بكثرتهم وكثرة أموالهم، فيكون ذلك وجهًا وإن بُعد.

وأما قوله: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ فإنه خبر من الله عن هؤلاء

(١) الأعراف: الآية (٩٥).

(٢) البقرة: الآية (١٧٨).

القوم الذين أبدلهم مكان الحسنة السيئة التي كانوا فيها استدراجاً وابتلاءً أنهم قالوا إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافنا، ونحن لا نعدو أن نكون أمثالهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعاش والرخاء فيها، وهي السراء؛ لأنها تسر أهلها، وجهل المساكين شكر نعمة الله، وأغفلوا من جهلهم استدامة فضله بالإنابة إلى طاعته، والمسارة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون، يقول جل جلاله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بَغْثَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

قال محمد رشيد رضا: «ومن الشواهد على هذا الابتلاء في القصص التي قفي عليها بهذه العبر: قول هود عليه السلام لقومه: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، وقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَإِذْ كُنَّا نُمَسِّكُ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ثَمَّذُوتَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَجْحُونَ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٣)، وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَإِذْ كُنَّا نُمَسِّكُ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ثَمَّذُوتَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَجْحُونَ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٤)، ولكن لم تزد الآلاء هؤلاء الكافرين إلا بغياً وبطراً وفساداً في الأرض»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على التفطن لأمر الله

واستشعار الابتلاء في السراء والضراء

* عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(٦).

*** فوائد الحديث:**

قال ابن عثيمين: «في هذا الحديث: الحث على الإيمان وأن المؤمن دائماً في

(١) جامع البيان (٩/٧-٩).

(٣) الأعراف: الآية (٧٤).

(٥) تفسير المنار (٩/١٦).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/٣٣٢)، ومسلم (٤/٢٢٩٥/٢٩٩٩).

(٢) الأعراف: الآية (٦٩).

(٤) الأعراف: الآية (٨٦).

خير ونعمة .

وفيه الحث على الصبر على الضراء وأن ذلك من خصال المؤمنين . فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابراً محتسباً تنتظر الفرج من الله ﷻ وتحتسب الأجر على الله فذلك عنوان الإيمان . وإن رأيت بالعكس فلم نفسك وعدل مسيرتك وثب إلى الله .

وفي هذا الحديث : الحث على الشكر عند السراء ؛ لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق الله له ، وهو من أسباب زيادة النعم كما قال الله : ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١) ، وإذا وفق الله العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثانية ، فإذا وفق فهي نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة ، وهكذا لأن الشكر قل من يقوم به ، فإذا من الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة^(٢) .

وقال القاري : «وجه حصر الخير في كل حال للمؤمن الكامل ؛ لأن غيره إن أصابته سراء شبع وبطر ، وإن أصابته ضراء جزع وكفر ، بخلاف حال المؤمن ، فإنه كما قيل :

إذا كان شكر نعمة الله نعمة عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلله وإن طالت الأيام واتسع العمر
إذا مس بالنعماء عم سرورها وإن مس بالضراء أعقبه الأجر^(٣) .

وقال ابن علان بعد ذكره لحال المؤمن الكامل الإيمان مع ما يصيبه من سراء وضراء ، قال : «أما غير كامل الإيمان ، فإنه يتضجر ويتسخط من المصيبة ، فيجتمع عليه نصبها ووزر سخطه ، ولا يعرف للنعمة قدرها ، فلا يقوم بحقها ولا يشكرها ، فتقلب النعمة في حقه نقمة ، وينعكس عليه الحال ، نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة ، ومن الحور بعد الكور»^(٤) .

وقال الحافظ ابن حجر : «والذي يظهر أن المصيبة إذا قارنها الصبر حصل

(١) إبراهيم : الآية (٧) .

(٢) شرح رياض الصالحين (١/١٤٥) .

(٣) المرقاة (٩/١٥٣) .

(٤) دليل الفالحين (١/١٤٧) .

التكفير ورفع الدرجات على ما تقدم تفصيله ، وإن لم يحصل الصبر نظر إن لم يحصل من الجزع ما يذم من قول أو فعل فالفضل واسع ، ولكن المنزلة منحطة عن منزلة الصابر السابقة ، وإن حصل فيكون ذلك سبباً لنقص الأجر الموعود به أو التكفير ، فقد يستويان ، وقد يزيد أحدهما على الآخر ، فبقدر ذلك يُقضى لأحدهما على الآخر^(١).

* * *

(١) فتح الباري (١٠/١٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

بَغْتَةً: أي: فجأة؛ ليكون أكثر حسرة. والفجأة: الأخذ على غِرَّةٍ دون سابق علم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة أتاهم على غرة منهم بمجيئه وهم لا يدرون، ولا يعلمون أنه يجيئهم، بل هم بأنه آتيهم مكذبون، حتى يعاينوه ويروه»^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «أي: فكان عاقبة ذلك أن أخذناهم بالعذاب فجأة وهم فاقدون للشعور بما سيحل بهم؛ لأنهم كانوا يجهلون سنن الله تعالى في الاجتماع البشري، فلا هم عرفوها بعقولهم، ولا هم صدقوا الرسل في نذره، وهذا معنى قوله تعالى في سياق سورة (الأنعام) الذي ذكرناه آنفاً: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٣)، وذلك شأن الكافرين والجاهلين: إذا مسهم الشر يثسوا وابتأسوا، وإذا مسهم الخير أشروا وبطروا، فإذا كان ذلك الخير قوة وسلطة بغوا في الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل...

وقد قال الله تعالى في هذا المعنى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِعَاقِبَتِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾^(٤) قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا^(٥)، وقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّ بِهَا وَإِن تَصْبَهُمْ سَبِثَةً يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ

(٢) جامع البيان (٩/٩).

(١) الأعراف: الآية (٩٥).

(٣) الأنعام: الآية (٤٤).

(٤) الإسراء: الآيتان (٨٣ و٨٤).

الْإِنْسَانَ كَفُورًا^(١)، المراد بالفرح ما كان عن بطر وغرور، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا أَنجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(٢) اقرأ تنمة الآية وما بعدها.

وأما المؤمنون بالله وما جاء به رسله حقاً فهم الذين تكون الشدائد والمصائب تربية لهم وتمحيصاً، كما تكون للكافرين عقاباً وإبلاساً، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه أظهرها بيانه إياه بالتفصيل في قصة أحد من سورة (آل عمران) إذ قضت حكمته بأن يقصر المسلمون في سبب من أسباب النصر في الحرب، فيظهر عليهم المشركون، فينزل تلك الآيات الحكيمة المبينة للحقائق وسنن الاجتماع في الحروب والشدائد التي أولها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣)، ومنها قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٤)، ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المداولات بأسبابها وحكمها ويتحرى الاتعاظ وتربية نفسه بها، لا كما يراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها، والآيات التي بعد ما أشرنا إليه منها تنمة وإيضاح لها^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موت الفجأة

وأنه أخذة أسف للكافر والفاجر ورحمة للمؤمن

* عن عبيد بن خالد وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: «موت الفجأة أخذة أسف»، وحدث به مرة عن النبي ﷺ^(٦).

(١) الشورى: الآية (٤٨).

(٢) يونس: الآيتان (٢٢ و٢٣).

(٣) آل عمران: الآيات (١٣٧-١٤١).

(٤) آل عمران: الآية (١٤٠).

(٥) تفسير المنار (٩/١٦-١٨).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/٢١٩)، وأبو داود (٣/٣٨١/٣١١٠) موقوفاً ومرفوعاً. قال المنذري: «وحدث عبيد - هذا - الذي أخرجه أبو داود، رجال إسناده ثقات. والوقف لا يؤثر؛ فإن مثله لا يؤخذ بالرأي، فكيف وقد أسنده مرة، والله أعلم» (مختصر سنن أبي داود ٤/٢٨٢).

★ غريب الحديث:

أخذه أسف: قال السندي: «قوله: أخذه أسف، بفتح السين؛ أي: غضب، أو بكسرهما؛ أي: غضبان»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «الأسف: الغضبان؛ ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾»^(٢)، ومعناه -والله أعلم- أنهم فعلوا ما أوجب الغضب عليهم والانتقام منهم»^(٣).

وقد بوب البخاري رحمه الله في كتاب الجنائز: باب موت الفجاءة، البغته. أورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها في الرجل الذي أخبر النبي ﷺ بافتلات نفس أمه، وأنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدق عنها، الحديث»^(٤).

قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن رشيد: مقصود المصنف -والله أعلم- الإشارة إلى أنه ليس بمكروه؛ لأنه ﷺ لم يظهر منه كراهيته لما أخبره الرجل بأن أمه افتلتت نفسها، وأشار إلى ما رواه أبو داود بلفظ: «موت الفجاءة أخذه أسف» وفي إسناده مقال، فجرى على عادته في الترجمة بما لم يوافق شرطه، وإدخال ما يؤول إلى ذلك ولو من طرف خفي، انتهى»^(٥).

ونقل عن ابن المنير قال: «لعل البخاري أراد بهذه الترجمة أن من مات فجأة فليستدرك ولده من أعمال البر ما أمكنه مما يقبل النيابة، كما وقع في حديث الباب»^(٦).

قلت: وإنما كره من كره موت الفجاءة لما فيه من خوف حرمان الوصية، وترك الإعداد للمعاد، والاغترار والتسويق بالتوبة؛ كما قال ابن بطال»^(٧).

(١) حاشية المسند (٢٤/٢٠٣).

(٢) معالم السنن (١/٢٦١).

(٣) البخاري (٣/٣٢٥/١٣٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) فتح الباري (٣/٣٢٥).

(٥) فتح الباري (٣/٣٢٥).

(٦) شرح صحيح البخاري (٣/٣٧٨).

(٧) الزخرف: الآية (٥٥).

أما من كان متأهبًا للموت مراقبًا له فهو غير مكروه في حقه .
 قال النووي : « وذكر المدائني أن إبراهيم الخليل وجماعة من الأنبياء صلوات
 الله وسلامه عليهم أجمعين ماتوا فجأة ، قال : وهو موت الصالحين ، وهو تخفيف
 على المؤمن ، ويحتمل أن يقال : إنه لطف ورفق بأهل الاستعداد للموت المتيقظين ،
 وأما غيرهم ممن له تعلقات يحتاج إلى الإيصاء والتوبة واستحلال من بينه وبينه
 معاملة أو مصاحبة ونحو ذلك ، فالفجاءة في حقه أخذة أسف»^(١) .

* * *

(١) المجموع شرح المذهب (٥/ ٢٧٢) .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَإِنِ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

★ غريب الآية:

بركات: البركة: كثرة الخير وتزايدده. أصلها: الثبوت.

أفأمن: الأمن: الطمأنينة عند الخوف.

بأسنا: البأس: العذاب والبؤس: الفقر. والأصل: الشدة.

ضحى: الضحى: انبساط الشمس وامتداد النهار، وسمي الوقت به.

وهم يلعبون: أي: وهم فيما لا يجدي عليهم؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا

يجدي عليه: لاعب.

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١)؛ أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعدما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٩٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٣)، الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم

(١) يونس: الآية (٩٨).

(٢) الصافات: الآيتان (١٤٧ و١٤٨).

(٣) سبأ: الآية (٣٤).

به الرسل ، وصدقت به واتبعته ، واتفقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ، ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ أي : قطر السماء ونبات الأرض . قال تعالى : ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ؛ أي : ولكن كذبوا رسلهم ، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم .

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره ، والتجروء على زواجه : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ أي : الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّتًا﴾ أي : عذابنا ونكالنا ، ﴿بَيَّتًا﴾ أي : ليلاً ، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ * أو أمن أهل القرى أن يأتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي : في حال شغلهم وغفلتهم^(١) .

وقال القرطبي : «وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم ؛ إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾^(٢) ، وعن هود : ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾^(٣) ، فوعدهم المطر والخصب على التخصيص . يدل عليه : ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي : كذبوا الرسل . والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا»^(٤) .

قال السمرقندي : «في الآية دليل على أن الكفاية والسعة في الرزق من السعادة إذا كان المرء شاكراً ، وتكون عقوبة له إذا لم يكن شاكراً ؛ لأنه قال في آية أخرى : ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ﴾^(٥) يعني : الغنى يكون وبالا لمن لا يشكر الله تعالى وعقوبة له»^(٦) .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾^(٧) ، وقوله : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿٢١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٨) ، وقوله : ﴿وَالْوَلَّوْا

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٠-٤٥١) .

(٢) نوح : الآيتان (١٠ و ١١) .

(٣) هود : الآية (٥٢) .

(٤) جامع أحكام القرآن (٧/ ٢٥٣) .

(٥) الزخرف : الآية (٣٣) .

(٦) بحر العلوم (١/ ٥٥٧) .

(٧) المائدة : الآيتان (٦٥ و ٦٦) .

(٨) الطلاق : الآيتان (٢ و ٣) .

أَسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا^(١)، وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مَنًّا حَسَنًا﴾^(٢) الآية، وقول هود: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾^(٣) الآية، وقول نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾^(٤).

قال القرطبي: «جعل تعالى التقى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات، ووعد بالمزيد لمن شكر فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٥)»^(٦).

وقال ابن الجوزي في آية (المائدة): «وقد أعلم الله تعالى بهذا أن التقوى سبب في توسعة الرزق؛ كما قال: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٧).

وقال الألوسي: «وفي الآية -على ما قيل- إشكال وهو أنه يفهم بحسب الظاهر منها أنه لم يفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وفي (الأنعام): ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٨)، وهو يدل على أنه فتح عليهم بركات من السماء والأرض؛ وهو معنى قوله سبحانه: ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لأن المراد منها الخصب والرخاء والصحة والعافية لمقابلة (أخذناهم بالبأساء والضراء)، وحمل فتح البركات على إدامته أو زيادته عدول عن الظاهر، وغير ملائم لتفسيرهم الفتح بتيسير الخير ولا المطر والنبات. وأجاب عنه الخلخالي بأنه ينبغي أن يراد بالبركات غير الحسنة، أو يراد آمنوا من أول الأمر فنجوا من البأساء والضراء كما هو الظاهر، والمراد في سورة (الأنعام) بالفتح ما أريد بالحسنة ههنا، فلا يتوهم الإشكال، انتهى. وأنت خير بأن إرادة آمنوا من أول الأمر إلى آخره غير ظاهرة؛ بل الظاهر أنهم لو أنهم آمنوا بعد أن ابتلوا ليسرنا عليهم ما يسرنا مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء كإمطار الحجارة، وبعضها من الأرض كالرجفة، وبهذا ينحل الإشكال؛ لأن آية (الأنعام) لا تدل على أنه فتح لهم هذا الفتح كما هو ظاهر لتاليها، وما ذكر من أن المراد بالفتح هناك ما أريد بالحسنة ههنا

(١) الجن: الآية (١٦).

(٢) هود: الآية (٣).

(٣) هود: الآية (٥٢).

(٤) نوح: الآيات (١٠-١٢).

(٥) إبراهيم: الآية (٧).

(٦) جامع أحكام القرآن (١٥٦/٦).

(٧) زاد المسير (٣٠٠/٢).

(٨) الأنعام: الآية (٤٤).

إن كان المراد به أن الفتح هناك واقع موقع إعطاء الحسنة بدل السيئة هنا حيث كان ذكر كل منهما بعد ذكر الأخذ بالبأساء والضراء، وبعده الأخذ بغتة فربما يكون له وجه لكنه وحده لا يجدي نفعًا، وإن كان المراد به أن مدلول ذلك العام المراد به التكثير هو مدلول الحسنة فلا يخفى ما فيه، فتدبر.

وقيل: المراد بالبركات السماوية والأرضية الأشياء التي تحمد عواقبها، ويسعد في الدارين صاحبها، وقد جاءت البركة بمعنى السعادة في كلامهم، فلتحمل هنا على الكامل من ذلك الجنس، ولا يفتح ذلك إلا للمؤمن، بخلاف نحو المطر والنبات والصحة والعافية، فإنه يفتح له وللكافر أيضًا استدراجًا ومكرًا^(١).

* * *

(١) روح المعاني (٩/١٠-١١).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْخَيْرُونَ﴾ (٩٩)

★ غريب الآية:

مكر الله: المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة. وذلك ضربان: مكر محمود، وذلك أن يتحرى بذلك فعل الجميل، وعلى ذلك تحمل هذه الآية وما كان على شاكلتها من الآيات التي أضيف فيها المكر إلى الله ﷻ إضافة صفة لموصوف. وأما المذموم من المكر، وهو أن يتحرى بمكره فعل قبيح، فهو منزّه عنه سبحانه، ولا يضاف إليه من هذا الضرب منه شيء ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ﴾ (١).

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفأمن -يا محمد- هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدراج الذين قصّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجاً مع مقامهم على كفرهم وإصرارهم على معصيتهم ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَيْرُونَ﴾ وهم الهالكون» (٢).

وقال السعدي: «وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً وجلّلاً أن يبتلى ببليّة تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن؛ فإن العبد -ولو بلغت له الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة» (٣).

(٢) جامع البيان (٩/٩).

(١) فاطر: الآية (٤٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٨/٣).

قال محمد رشيد رضا : «إذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلاً يورث الخسر ، فكيف حال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته؟ قال تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ﴾^(١) ، فأعلم الناس بالله وأعبدهم له وأقربهم إليه هم أبعد خلقه عن الأمن من مكره ؛ إذ لا يصح أن يأمن منه إلا من أحاط بعلمه ومشيتته ، وليس هذا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٢) ، ألم تر إلى الرسل الكرام كيف كانوا يستثنون مشيئته حتى فيما عصمهم به؟ كقول شعيب الذي حكاه الله عنه قبيل هذه الآيات : ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾^(٣) ، وقد كان أصلح البشر وخاتم الرسل ﷺ يكثر من الدعاء بقوله : «يا مقلب القلوب والأبصار! ثبت قلبي على دينك» كما ثبت في الصحاح^(٤) ، وقد ذكر تعالى أن الراسخين في العلم يدعونه بقوله : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٥) ، وقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٦) ، ويقابل الأمن من مكر الله ضده وهو اليأس من رحمة الله . فكل منهما مفسدة تتبعها مفسد كثيرة^(٧) .

قال الألوسي : «استدل الحنفية بالآية على أن الأمن من مكر الله تعالى - وهو كما في جمع الجوامع الاسترسال في المعاصي اتكالا على عفو الله تعالى - كفر ، ومثله اليأس من رحمة الله تعالى لقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٨) ، وذهبت الشافعية إلى أنهما من الكبائر لتصريح ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بذلك . . . وقال بعض المحققين : إن كان في الأمن اعتقاد أن الله تعالى

(٢) طه : الآية (١١٠) .

(١) فصلت : الآية (٢٣) .

(٣) الأعراف : الآية (٨٩) .

(٤) إذا كان يقصد بالصحاح - وهو غالب الظن - الصحيحين والسنن ، فلا تسلم هذه التسمية ؛ لاحتواء السنن على أحاديث ضعاف . والحديث أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه : أحمد (٣/ ١١٢ و ٢٥٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٣) مختصراً ، والترمذي (٣٩٠ - ٣٩١ / ٢١٤٠) وحسنه ، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠ / ٣٨٣٤) ، والحاكم في المستدرک (١/ ٥٢٦) مختصراً وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٦) فاطر : الآية (٢٨) .

(٥) آل عمران : الآية (٨) .

(٨) يوسف : الآية (٨٧) .

(٧) تفسير المنار (٩/ ٢٨ - ٢٩) .

لا يقدر على الانتقام منه ، وكذا إذا كان في اليأس اعتقاد عدم القدرة على الرحمة والإحسان أو نحو ذلك ، فذلك مما لا ريب في أنه كفر . وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد ، ولم يكن فيه تهاون وعدم مبالاة باللَّه تعالى ، فذلك كبيرة ، وهو كالمحاكمة بين القولين^(١) .

قال ابن عثيمين : « في هذه الآية دليل على أن لله مكرًا ، والمكر هو التوصل إلى إيقاع الخصم من حيث لا يشعر . ومنه جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري : « الحرب خدعة »^(٢) .

فإن قيل : كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم ؟

قيل : إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر ، وأنه غالب على خصمه ، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق ، فلا يجوز أن تقول : إن الله ماكر ، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحًا مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٤) ، ومثل قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾^(٥) . ولا تنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق ، بل إنها في المقام التي تكون مدحًا يوصف بها ، وفي المقام التي لا تكون مدحًا لا يوصف بها .

وكذلك لا يسمى الله به فلا يقال : إن من أسماء الله : الماكر ، والمكر من الصفات الفعلية ؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه^(٦) .

قال ابن عاشور : « واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذبين ، الذي ابتدئ الحديث عنه من قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾^(٧) ، ثم قوله : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّتًا ﴾^(٨) الآيات ، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر

(١) روح المعاني (١٣/٩) .

(٢) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه : أحمد (٣٠٨/٣) ، والبخاري (١٩٤/٦) ، ومسلم (١٣٦١/٣) .

(٣) الأنفال : الآية (٣٠) ، والترمذي (١٦٦/٤) ، والنسائي في الكبرى (١٩٣/٥) .

(٤) النمل : الآية (٥٠) .

(٥) الأعراف : الآية (٩٩) .

(٦) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (١٧٠/١) .

(٧) الأعراف : الآية (٩٤) .

(٨) الأعراف : الآية (٩٧) .

الرسول ﷺ، وعن الغرور بأن دين الشرك هو الحق، فهو آمن ناشئ عن كفر، والمأمون منه هو وعيد الرسل إياهم وما أطلق عليه أنه مكر الله.

ومن الأمن من عذاب الله أصناف أخرى تغاير هذا الأمن، وتتقارب منه، وتتباعده، بحسب اختلاف ضمائر الناس ومبالغ نياتهم، فأما ما كان منها مستنداً لدليل شرعي فلا تبعة على صاحبه، وذلك مثل أمن المسلمين من أمثال عذاب الأمم الماضية المستند إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ اللَّهِ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١)، وإلى قول النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾^(٢) فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أعوذ بسبحات وجهك الكريم»، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: «أعوذ بسبحات وجهك الكريم»، ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا﴾ الآية، فقال: «هذه أهون»^(٣)، كما تقدم في تفسيرها في سورة (الأنعام)، ومثل أمن أهل بدر من عذاب الآخرة لقول النبي ﷺ: «ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»^(٤) في قصة حاطب بن أبي بلتعة، ومثل إخبار النبي ﷺ عبد الله بن سلام أنه لا يزال آخذاً بالعروة الوثقى^(٥)، ومثل الأنبياء، فإنهم آمنون من مكر الله بإخبار الله إياهم بذلك، وأولياء الله كذلك، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٦). فمن العجيب ما ذكره الخفاجي أن الحنفية قالوا: الأمن من مكر الله كفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٧).

(١) الأنفال: الآية (٣٣).

(٢) الأنعام: الآية (٦٥).

(٣) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: أحمد (٣٠٩/٣)، والبخاري (٣٧٠-٣٧١/٨)، والترمذي (٢٤٤/٥).

(٤) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: أحمد (٨٠-٧٩/١)، والبخاري (١٧٦-١٧٧/٦)، ومسلم (٤/٢٤٩٤-١٩٤٢)، وأبو داود (١٠٨-١١٠/٣)، والترمذي (٣٨١-٣٨٣/٥)، والنسائي في الكبرى (١١٥٨٥/٤٨٧/٦).

(٥) أخرجه من حديث قيس بن عباد عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أحمد (٤٥٢/٥)، والبخاري (١٦٢-١٦٣/٧).

(٦) يونس: الآيتان (٦٢ و٦٣).

(٧) التحرير والتنوير (٩/٢٤-٢٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الأمن من مكر الله من الكبائر

✽ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان متكئاً فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، والإياس من روح الله، والأمن من مكر الله، وهذا أكبر الكبائر»^(١).

✽ فوائد الحديث:

في هذا الحديث التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب الكبائر، بل هو أكبر الكبائر.

قال ابن حجر الهيتمي: «عدّ ذلك كبيرة -أي: أمن مكر الله- هو ما أطبقوا عليه لما علمت من الوعيد الشديد الذي فيه، بل جاء تسميته أكبر الكبائر... وبكونه أكبر الكبائر صرح ابن مسعود كما رواه عنه عبدالرزاق والطبراني»^(٢).

قال القاسمي: «قال الكمال بن أبي شريف: عطفهما -يعني: الإياس والأمن- في الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر، ظاهر في أنهما غير الكفر.

وقال أيضاً: مراد الشافعية بكونه كبيرة أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها في حد الأمن من المكر، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعاداً دخل به في حد اليأس. وأما من كان أمنه لا اعتقاد أن لا مكر، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه، فينبغي أن يكون كل منهما كافراً عند الشافعية أيضاً، ويحمل عليه نص القرآن، انتهى»^(٣).

وفيه: «شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله»^(٤).

(١) أخرجه: ابن أبي حاتم (٩٣١/٣)، والبزار [١٠٦/٧١/١] كشف الأستار، وذكره الهيتمي في «المجمع» (١٠٤/١)، وقال: «رواه البزار والطبراني، ورجاله موثقون»، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٦٤/٢) وحسن إسناده وعزاه للبزار وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط». والحديث حسنه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١٧/٤) والعلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩/٥-٨٠/٢٠٥١).

(٢) الزواجر (١٧٤/١).

(٣) محاسن التأويل (٢٢٣/٧).

(٤) أفاده شيخ الإسلام في «كتاب التوحيد» [ص: ٥٢٦] تيسير العزيز الحميد، وانظر «القول المفيد» (٢/٢٠٩).

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: «واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثيرة، وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: أو نفي الإيمان. قلت: ومن برئ منه رسول الله ﷺ أو قال: «ليس منا من فعل كذا وكذا». وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «هي إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»^(١).

* * *

(١) فتح المجيد (ص: ٤٣٤).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

★ غريب الآية:

أولم يهد: أي: أولم يبين ويوضح.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أولم نبين، وكذا قال مجاهد والسدي، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أولم نبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

وقال أبو جعفر ابن جرير في تفسيرها: «يقول تعالى: أولم نبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً»^(١).

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٣)، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾^(٥)، أي:

(١) جامع البيان (٩/٩).

(٢) السجدة: الآية (٢٦).

(٣) مريم: الآية (٩٨).

(٤) طه: الآية (١٢٨).

(٥) إبراهيم: الآيتان (٤٤ و٤٥).

هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(١) ، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد : ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٢) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٤) ، وقال تعالى : ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِئْسَارَ مَا أَتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(٦) ، وقال تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثُرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدِ﴾^(٧) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٨) ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٩) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه ، وحصول نعمه لأوليائه^(١٠) .

* * *

(١) الأنعام : الآية (٦) .

(٢) الأحقاف : الآيات (٢٥-٢٧) .

(٣) سبأ : الآية (٤٥) .

(٤) الملك : الآية (١٨) .

(٥) الحج : الآيتان (٤٥ و٤٦) .

(٦) الأنعام : الآية (١٠) .

(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥١-٤٥٢) .

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

★ غريب الآية:

نقص: أي: نتلو عليك ونبين لك أخبارها؛ من قولهم: قص فلان الخبر؛ أي: أتى بقصته، من قصها، وأصله من قص الأثر؛ أي: تتبعه حتى عرف صاحبه أين سلك.

من أنبائها: أي: من أخبارها. والنبأ: الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يحصل به العلم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أي: من أخبارها، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٢)،^(٣).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾

(١) الإسراء: الآية (١٥).

(٢) هود: الآيتان (١٠٠ و ١٠١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٥٢/٣).

الآية، في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه من التفسير، بعضها يشهد له القرآن.

منها: أن المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم الله يوم أخذ الميثاق أنهم يكذبون به، ولم يؤمنوا به، لاستحالة التغير فيما سبق به العلم الأزلي. ويروى هذا عن أبي بن كعب وأنس، واختاره ابن جرير^(١)، ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) الآية، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)، ونحو ذلك من الآيات.

ومنها: أن معنى الآية أنهم أخذ عليهم الميثاق، فأمنوا كرهاً، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعاً. ويروى هذا عن السدي، وهو راجع في المعنى إلى الأول.

ومنها: أن معنى الآية أنهم لو ردوا إلى الدنيا مرة لكفروا أيضاً، فما كانوا ليؤمنوا في الرد إلى الدنيا بما كذبوا به من قبل؛ أي: في المرة الأولى، ويروى هذا عن مجاهد. ويدل لمعنى هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا﴾^(٤) الآية، لكنه بعيد من ظاهر الآية.

ومنها: أن معنى الآية: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، وهذا القول حكاه ابن عطية، واستحسنه ابن كثير، وهو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة. ووجهه ظاهر؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾^(٥)، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٦)، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾^(٧)، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾^(٨)، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها أوجه من التفسير، كلها يشهد له قرآن، وكلها حق، فنذكر جميعها، والعلم عند الله تعالى^(٩).

(١) جامع البيان (٩/ ١١).

(٣) يونس: الآية (١٠١).

(٥) النساء: الآية (١٥٥).

(٧) البقرة: الآية (١٠).

(٩) أضواء البيان (٢/ ٣٧-٣٨).

(٢) يونس: الآية (٩٦).

(٤) الأنعام: الآية (٢٨).

(٦) الصف: الآية (٥).

(٨) المنافقون: الآية (٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولم نجد لأكثر أهل هذه القرى، التي أهلكتناها واقتصصنا عليك يا محمد نبأها، ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ يقول: من وفاء بما وصيناهم به من توحيد الله، واتباع رسله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وهجر عبادة الأوثان والأصنام. والعهد: هو الوصية، وقد بينا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته. ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ يقول: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة عن طاعة ربهم، تاركين عهده ووصيته» (٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الله فطر عباده وجبلهم على الإقرار بربوبيته وإقامة ألوهيته

* عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» (٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء،

(١) الأعراف: الآية (١٠٢).

(٢) جامع البيان (١٢/٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/١٦٢)، ومسلم (٤/٢١٩٧-٢١٩٨/٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/٢٦-٢٧/٨٠٧٠/٨٠٧١).

هل تحسون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْقَيُّمُ﴾ ^(١) ^(٢).

★ فوائد الحديثين:

احتج الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره ^(٣) بهذين الحديثين على أن المراد بالعهد المذكور في هذه الآية: هو ما جبل الله عليه بني آدم «وفطرهم عليه»، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك». وقد اختلف المفسرون في تحديد المراد بالعهد في هذه الآية على ثلاثة أقوال، هذا أحدها.

«والثاني: ما جعله الله في عقولهم من وجوب شكر النعمة، وأن الله هو المنعم، قاله علي بن عيسى.

والثالث: أنه ما عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قاله الحسن» ^(٤).

قال محمد رشيد رضا: «والصواب أن العهد يعم هنا كل ما يصلح له من عهد فطري وشرعي وعرفي مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض في تعاهدتهم وتعاقدهم؛ لأنه جاء نكرة في سياق النفي مع تأكيد النفي بـ(مِنْ)، كأنه قال: وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهداً ما يفون به» ^(٥).

(١) الروم: الآية (٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٣٣/٢)، والبخاري (١٣٥٩/٣)، ومسلم (٢٠٤٧/٤)، وأبو داود (٨٦/٥) - (٤٧١٤/٨٨)، والترمذي (٢١٣٨/٣٨٩/٤).

(٣) (٤٥٣/٣).

(٤) انظر «النكت والعيون» (٢٤٤/٢).

(٥) تفسير المنار (٣٥/٩).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين، ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ودلائلنا البينة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر في زمان موسى، ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أي: قومه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، وكقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١)؛ أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله؛ أي: انظر -يا محمد- كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله -موسى وقومه- من المؤمنين به^(٢).

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وذكر في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص، لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام.

واعلم أن الكناية في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِم﴾ يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم، ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم بإهلاكهم. وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ فيه مباحث:

البحث الأول: هذه الآية تدل على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة بها يمتاز عن

(١) النمل: الآية (١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٣-٤٥٤).

غيره، إذ لو لم يكن مختصًا بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.
والبحث الثاني: هذه الآية تدل على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة، ومعجزات كثيرة^(١).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (١٤/١٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

* غريب الآية:

حقيق على: أي: حريص على أن لا أقول. وقرئت: (حقيقٌ عليّ)، بمعنى: واجبٌ عليّ أن لا أقول.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعون، يدعو إلى الإيمان: ﴿يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربّي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها، أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله، ولم يرسله. فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق على أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك، لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر. فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة، على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل، الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم^(١).

قال ابن جرير: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: قال موسى لفرعون

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٧١-٧٢).

وملئه : قد جئتكم ببرهان من ربكم يشهد أيها القوم على صحة ما أقول ، وصدق ما أذكر لكم من إرسال الله إياي إليكم رسولاً ، فأرسل - يا فرعون - معي بني إسرائيل^(١) .

قال أبو حيان : «الظاهر أن موسى لم يطلب من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه ، وفي غير هذه الآية دعاؤه إياه إلى الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيده . قال تعالى : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى ﴾ (٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾^(٢) ، وكل نبي داع إلى توحيد الله تعالى . وقال تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴾^(٣) ، فهذا ونظائره دليل على أنه طلب منه الإيمان خلافاً لمن قال : إن موسى لم يدعه إلى الإيمان ولا إلى التزام شرعه^(٤) .

فائدة دعوية:

قال أبو حيان : «هذه محاوراة من موسى عليه السلام لفرعون ، وخطاب له بأحسن ما يدعى به وأحبها إليه ، إذ كان من ملك مصر يقال له : فرعون ، كنمرود في يونان ، وقيصر في الروم ، وكسرى في فارس ، والنجاشي في الحبشة . وعلى هذا لا يكون فرعون وأمثاله علماً شخصياً ، بل يكون علم جنس كأسامة وثعالة . ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله : ﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لينبهه على الوصف الذي ادعاه ، وأنه فيه مبطل لا محقق . ولما كان قوله : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أردفها بما يدل على صحتها ، وهو قوله : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ ﴾ ولما قرر رسالته فرع عليها تبليغ الحكم ، وهو قوله : ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ ولم ينازعه فرعون في هذه السورة في شيء مما ذكره موسى إلا أنه طلب المعجزة . ودل ذلك على موافقته لموسى ، وأن الرسالة ممكنة لإمكان المعجزة ، إذ لم يدفع إمكانها ؛ بل قال : ﴿ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِبَيِّنَةٍ ﴾ ويأتي الكلام على هذا الطلب من فرعون للمعجزة^(٥) .

* * *

(٢) النازعات : الآيتان (١٨ و ١٩) .

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٥٧) .

(١) جامع البيان (٩/ ١٤) .

(٣) المؤمنون : الآية (٤٧) .

(٥) البحر المحيط (٤/ ٣٥٥-٣٥٦) .

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَآئِفَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ ﴿١٠٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «فقال له فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَآئِفَةٍ﴾، يقول: بخجة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول، ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾»^(١).

قال أبو حيان: «لما عرض موسى ﷺ رسالته على فرعون وذكر الدليل على صدقه، وهو مجيئه بالبينة والبخارق المعجز، استدعى فرعون منه خرق العادة الدال على الصدق. وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار، وتجويزه ذلك. ويحتمل أن يكون: على سبيل التعجيز لما تقرر في ذهن فرعون أن موسى لا يقدر على الإتيان ببينة. والمعنى: إن كنت جئت بآية من ربك فأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك»^(٢).

(١) جامع البيان (١٤/٩).

(٢) البحر المحيط (٣٥٧/٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٥٨﴾

★ غريب الآية:

فإذا هي ثعبان: الثعبان: ما عظم من الحيات. وقيل: الحية الذكر، مشتق من ثَعِبْتُ الماءَ أَثْعَبُهُ: إذا فَجَّرْتَهُ فَانْفَجَرَ.
نَزَعَ: النَّزْعُ هو إزالة الشيء عن مكانه. ومنه نَزَعُ الرِّدَاءِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ وهو الذكر العظيم من الحيات، ﴿مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر بين لا خفاء في كونه ثعباناً حقيقياً يسعى وينتقل من مكان إلى آخر، تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسعى، كما سيأتي من أعمال سحرة فرعون، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ ناصعة البياض تتلألاً ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ إليه، وهم فرعون وملؤه، أو لكل من ينظره، والنظارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الأمور الغريبة. وقد وصف الله تعالى بياضها في (طه) و(النمل) و(القصص) بأنه ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً﴾^(١) أي: من غير علة كالبرص»^(٢).

قال الألوسي: «والآية من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كالنحاس إلى الذهب؛ إذ لو كان ذلك تخيلاً لبطل الإعجاز، ولم يكن لذكر ﴿مُبِينٌ﴾ معنى مبين، وارتكاب غير الظاهر غير ظاهر، ويدل لذلك أيضاً أنه لا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ما ذكر وتخصيص الإرادة له، والقول بأن قلب الحقائق

(١) طه: الآية (٢٢)، النمل: الآية (١٢)، القصص: الآية (٣٢).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٤).

محال والقدرة لا تتعلق به، فلا يكون النحاس ذهبًا بل رصاص مموه، والحق جواز الانقلاب، إما بمعنى أنه تعالى يخلق بدل النحاس ذهبًا على ما هو رأي المحققين، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصف الذي صار به نحاسًا ويخلق فيه الوصف الذي يصير به ذهبًا على ما هو رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات، والمحال إنما هو انقلابه ذهبًا مع كونه نحاسًا؛ لا امتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاسًا وذهبًا، وعلى أحد هذين الاعتبارين توكا أئمة التفسير في أمر العصا^(١).

قال ابن عطية: «وهاتان الآيتان عرضهما موسى ﷺ للمعارضة ودعا إلى الله بهما، وخرق العادة بهما وتحدي الناس إلى الدين بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاء إلى الدين مطلقًا فبهما تحدى، وإذا جعلنا التحدي الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك؛ لأن المعارضة والعجز فيها وقعا.

قال القاضي أبو محمد: ويقال: التحدي هو الدعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحو ثالث، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعًا؛ لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معًا، وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلها^(٢).

(١) روح المعاني (٢١/٩).

(٢) المحرر الوجيز (٤٣٦/٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

إن هذا لساحر: السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره. وأصله: خفاء الأمر. ثم استعير للكلام المُنمّق الحسن. تقول: سحرني بكلامه: إذا أخذ بمجامع قلبك. وأطلق ذلك على الكلام من حيث إنه يغير المعاني عن مقرها إلى مقر آخر، وهو ممدوح في الأشياء الحسنة شرعاً، ومذموم في غيرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: قال الملأ - وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون - موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كمقالاته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافتراءهم، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١)»^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «وفي معنى هذا القول من فرعون ورجال دولته ما حكى الله تعالى عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه في سورة (يونس): ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) القصص: الآية (٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٥-٤٥٦).

(٣) يونس: الآية (٧٨).

وما قال الملاء من قوم فرعون هذا القول إلا تبعًا لقوله هو، الذي حكاه تعالى عنه في سورة (الشعراء): ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (١) أي: رددوا قوله وصار يلقيه بعضهم إلى بعض، كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهارًا للموافقة عليه، وتعميمًا لتبليغه. وإنما لم يصرحوا بكلمة ﴿بِسِحْرِهِ﴾ كما صرح هو لأنهم كانوا دونه خوفًا وانزعاجًا، وأقل منه حرصًا على الطعن في دعوة موسى، ولكن ذكرها السحرة في تناجيهم مع فرعون، وهو أجدر بذكرها، فحكاها الله تعالى عنهم بقوله من سورة (طه): ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ (١١٠) قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (١١١) فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ (١١٢) (٢) (٣).

(١) الشعراء: الآيتان (٣٤ و ٣٥).

(٢) طه: الآيات (٦٢-٦٤).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٠-٦١).

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ﴿٥٧﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٥٨﴾

★ غريب الآية:

أَرْجِهْ : أَنْظِرْهُ إِلَى أَجَلٍ .

حاشرين : أي : جامعين للسحرة ، والحشر : الجمع . وقيل : الحشر : إخراج
الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عند الحرب وغيرها .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا : «أي : قال الملأ لفرعون حين استشارهم بقوله : ﴿فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ﴾ : ﴿أَرْجِهْ﴾ أي : أرجئ وأخر أمره وأمر أخيه ، ولا تفصل فيه بادي الرأي ،
وأرسل في مدائن ملكك رجالاً أو جماعات من الشرطة والجند حاشرين ؛ أي :
جامعين سائقين للسحرة منها ، فالحشر الجمع والسوق ، وإنما يوجد السحرة في
المدائن الجامعة الأهلة بدور العلم والصناعة ، فإن ترسلهم ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ
عَلِيمٍ﴾ بفنون السحر ماهر فيها ، وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى فلا يفتن به أحد .

قرأ الجمهور : ﴿سَاحِرٍ﴾ بصيغة اسم الفاعل ، وحمزة والكسائي هنا وفي
(يونس) : ﴿سَحَارٍ﴾ سَحَارٌ بصيغة المبالغة له ، وجاء ذلك بالإمالة وعدمها ، وبها
قرأ الجميع في (الشعراء) ورسمهما في المصحف الإمام واحد هكذا : (سحر)
ليحتمل القراءتين . ووجههما أن فرعون لما طلب كل ساحر عليم في مدائن البلاد ،
خصّ بالذكر المهرة المتمرّنين في السحر ، المكثرين منه ، أو أن بعض ملئه طلب
هؤلاء فقط ؛ لأنهم أجدر بإتيان موسى بمثل ما جاء به من الأمر العظيم ، كما حكى
الله تعالى عن فرعون في سورة (طه) : ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسُ﴾
﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴿٥٨﴾^(١) ، وطلب آخرون حشر جميع السحرة الراسخين في

(١) طه : الآيتان (٥٧ و ٥٨) .

العلم لعله يوجد عند بعض المقتصدين أو المقلين من السحر ما لا يوجد عند المكثرين منه، فبينت القراءتان كل ما قيل مع الإيجاز البليغ^(١).

وقال الرازي: «هذه الآية تدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان، وهذا يدل على صحة ما يقوله المتكلمون من أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالباً على أهل ذلك الزمان، فلما كان السحر غالباً على أهل زمان موسى ﷺ كانت معجزته شبيهة بالسحر، وإن كان مخالفاً للسحر في الحقيقة، ولما كان الطب غالباً على أهل زمان عيسى ﷺ كانت معجزته من جنس الطب، ولما كانت الفصاحة غالبية على أهل زمان محمد -عليه الصلاة والسلام- لا جرم كانت معجزته من جنس الفصاحة»^(٢).

وقال القاسمي: «قال الجُشمي: تدل الآية على عظيم معجزة لموسى، وتدل على جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه غير الله تعالى، حتى نسبوه إلى السحر. وتدل على أن عادة البشر، أن من رأى أمراً عظيماً أن يعارضه. فلذلك دعا فرعون بالسحرة. فدل على أن العرب لو قدروا على مثل القرآن، لعارضوه. وتدل على أن الطريق في المعجزات، المعارضة بإتيان مثله، ولذلك قال تعالى في القرآن: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾^(٣)، ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه. وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال، لذلك قالوا: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾^(٤)، فيدل على أن من أقوى الدواعي إلى ترك الدين، المحافظة على الرياسة والمال والجاه، كما هو عادة الناس في هذا الزمن»^(٥).



(١) تفسير المنار (٩/ ٦١-٦٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) يونس: الآية (٣٨).

(٤) الأعراف: الآية (١١٠).

(٥) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ١١٤ ﴿

★ غريب الآية:

وإنكم لمن المقربين: أي: لمن أهل المنزلة الرفيعة لدينا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً. فوعدهم ومنهم أنه يعطيهم ما أرادوا، وليجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده»^(١).

قال أبو حيان: «وفي مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه دليل على شدة اضطراره لهم، وأنهم كانوا عالمين بأنه عاجز، ولذلك احتاج إلى السحرة في دفع موسى عليه السلام»^(٢).

قال الرازي: «الآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام، وتدل أيضاً على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان، وإلا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون؛ لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان، فلم لم يقلبوا التراب ذهباً، ولم لم ينقلوا ملك فرعون إلى أنفسهم؟ ولم لم يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا؟ والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق، وأن لا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب. والله أعلم»^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٥٦/٣).

(٢) البحر المحيط (٣٦٠/٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١٠-٢٠٩/١٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال محمد رشيد رضا: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ استئناف بياني كمنظائره؛ أي: قال السحرة لموسى ﷺ بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم: إما أن تلقي ما عندك أولاً، وإما أن نكون نحن الملقيين لما عندنا من دونك. أما تخييرهم إياه فلثقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرهم، وإرهاباً له، وإظهاراً لعدم المبالاة به، مع العلم بأن المتأخر يكون أبصر بما يقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه، وما قيل من أن علة التخيير مراعاة الأدب لا وجه له ألبتة؛ بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدعي الألوهية والربوبية فيهم، وما طلبوه منه وما وعدهم إياه؛ كله يقتضي أن يحتقروا خصمه، لا أن يتأدبوا معه كما يتأدب أهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض إذا تلاقوا للمباراة، وهو ما وجه الزمخشري به التعليل، وما قاله البيضاوي وغيره من أن علته إظهار التجلد فضعيف؛ إذ لم يروا من موسى شيئاً بأعينهم يقتضيه، وإنما سمعوا أنه ألقى عصاه بحضرة فرعون فصارت ثعباناً، فاستعدوا لمقابلته بعصي وحبال كثيرة يخيل إليه وإلى كل ناظر أنها ثعابين تسعى، فيبطلون سحره بسحر مثله، كما قال ملكهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾^(١).

وذهب الزمخشري ومن تبعه إلى أن هذا التعبير عن إلقاءهم يدل على رغبتهم في البدء بما ينبئ عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل ﴿نَحْنُ﴾ وتوكيد الضمير المستتر به. وفي سورة (طه): ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾^(٢)، وفيه من التوكيد ما يدل على الرغبة في الأولية التي صرحوا بذكرها هنا. فلا فرق بين التعبيرين في المعنى، فلا بأس حينئذ بجعل الاختلاف اللفظي في الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل، وقد اختلف فيه على أقوال، ثالثها - وهو الصحيح

(١) طه: الآية (٥٨).

(٢) طه: الآية (٦٥).

المعتمد- : أنه جائز وواقع فيما لا يخل بأداء المعنى ، ولا ينافي البلاغة العليا ، فكيف إذا كان مزيد تفنن قد يصل إلى حد الإعجاز فيها ، وذلك أن تأدية دقائق المعنى مكررة بالفاظ مختلفة في منتهى العسر وكثيراً ما يكون متعذراً ، فلو لم يؤكد الضمير المتصل ههنا بالضمير المنفصل ﴿نَحْنُ﴾ لما أفاد معنى الرغبة في أولية الإلقاء المصرح به في سورة (طه) ، وبذلك علم أن مراعاة الفاصلتين في الموضعين هو الذي وُحِدَ بينهما بجعل كل منهما دالاً على رغبة السحرة في التقدم والأولية ، فأَيَّ خطيب أو كاتب يقدر على إفادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين في اللفظ من غير تصريح به^(١) .

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٤-٦٥) .

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْفُقَاةُ فَلَمَّا الْفُقَاةُ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرَهُبُوهُمْ
وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾

★ غريب الآية:

سحروا أعين الناس: أي: خيلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها بما يتخيل من
التمويه الذي جرى مجرى الشعوذة وخفة اليد.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿قَالَ الْفُقَاةُ﴾ أي: أنتم أولاً قبلي. والحكمة
في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجتهم
ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون
أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا الْفُقَاةُ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَأَسْتَرَهُبُوهُمْ﴾ أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا
مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جِئْتُمْ بِهِمْ فَعَرَّبُوا حَافَاتِهِمْ مِنْهُ لِيُفَلِّحُوا فِي أَفْئِدَتِهِمْ وَأُولَئِكَ
الَّذِينَ هُمْ يُفَلِّحُونَ﴾ (١٦) ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (١٧) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (١٨) ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ
تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (١٩) (٢).

قال محمد رشيد رضا: «قَالَ الْفُقَاةُ»، وفي سورة (طه): ﴿قَالَ بَلْ الْفُقَاةُ﴾ (٣)،
وهو أدل على رغبته عليه السلام في سبقهم للإلقاء. ولعله نطق أولاً بما فيه الإضراب
فقال: ﴿بَلْ الْفُقَاةُ﴾ أنتم من دوني، ثم أعاد كلمة ﴿قَالَ الْفُقَاةُ﴾ وحدها لتأكيد رغبته
والإيذان بعدم مبالاته. وفي سورتي (يونس) و(الشعراء): ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْفُقَاةُ مَا
أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤)، فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا وفي سورة (طه)؛ لأنه جواب
لخطابهم إياه باسمه بالتخيير، فالمقام فيها مقام الإضمار حتماً. وأما إظهاره في

(١) طه: الآيات (٦٦-٦٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٥٦-٤٥٧).

(٤) يونس: الآية (٨٠)، الشعراء: الآية (٤٣).

(٣) طه: الآية (٦٦).

سورتي (يونس) و(الشعراء) فسببه أنه ليس فيهما ذكر لنداء السحرة إياه وتخييرهم له ، فأول آية (يونس) : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى الْقَوَا ۖ ﴾ ، وقبلها طلب فرعون للسحرة فلو لم يصرح باسم موسى لكان المتبادر أن الذي أمرهم بالإلقاء هو فرعون حسب قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور ، وكذلك آية (الشعراء) جاءت بعد ذكر طلب فرعون للسحرة ومجيئهم وسؤالهم إياه الأجر إن كانوا هم الغالبين وإجابته إياهم ، فهي أولى من آية (يونس) بما ذكر . وأما زيادة : ﴿ مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ ﴾ فإنها فائدة نافلة ذات شأن تدل على عدم مبالاته بما يلقون مهما عظم أمره وكان مجهولاً عنده ، وهي لا تنافي عدم ذكرها في آية (الأعراف) فيجمع بينهما .

وقد قيل : كيف يأمرهم موسى ﷺ بالإلقاء ما عندهم وهو من السحر المنكر؟ وأجيب بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداء ، وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاؤوا لأجله ولا بد لهم منه ، وأراد التوصل به إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته ، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه في سورة (يونس) : ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾^(١) ، ومثله توسل إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وآلهما إلى إظهار حقيقة التوحيد لعبدة الكواكب من قومه لما رأى كلاً من الكوكب والقمر والشمس بازغاً فقال : ﴿ هَذَا رِيِّي ﴾^(٢) ، ثم تعقبه بما يدل على كونه لا يصح أن يكون رباً وإسماعه إياهم بعد إبطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٣) «^(٤)» .

وقال الشنقيطي : «لم يبين هنا هذا السحر العظيم ما هو؟ ولم يبين هل أوجس موسى في نفسه الخوف منه؟ ولكنه يبين كل ذلك في (طه) بقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَلِّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾^(١٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿ ١٧ ﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿ ١٨ ﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾^(٥) ، ولم يبين هنا أنهم تواعدوا مع موسى موعداً لوقت مغالبتهم مع السحرة ،

(١) يونس : الآيتان (٨١ و٨٢) .

(٣) الأنعام : الآية (٧٩) .

(٥) طه : الآيات (٦٦-٦٩) .

(٢) الأنعام : الآية (٧٦) ، (٧٧) ، (٧٨) .

(٤) تفسير المنار (٩/ ٦٥-٦٦) .

وأوضح ذلك في سورة (طه)، في قوله عنهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِمْ فَاجْعَلْ يَلِينًا وَبَيْنًا مَّوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُمْ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ ﴿١﴾ ﴿٢﴾.

قال الألوسي: «واستدل بالآية من قال -كالمعتزلة-: إن السحر لا حقيقة له وإنما هو مجرد تخيل، وفيه أنهم إن أرادوا أن ما وقع في القصة من السحر كان كذلك فمسلم، والآية تدل عليه، وإن أرادوا أن كل سحر تخيل فممنوع، والآية لا تدل عليه، والذي ذهب إليه جمهور أهل السنة أن السحر أقسام، وأن منه ما لا حقيقة له، ومنه ما له حقيقة، كما يشهد بذلك سحر اللعين لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله -صلى الله تعالى عليه وسلم-^(٣)، وسحر يهود خيبر ابن عمر رضي الله عنه حين ذهب ليخرص تمرهم.

وذكروا أنه قد يصل السحر إلى حد المشي على الماء والطيران في الهواء ونحو ذلك، وترتب ذلك عليه كترتب الشبع على الأكل، والري على الشرب، والإحراق على النار، والفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله تعالى. نعم قال القرطبي: أجمع المسلمون على أنه ليس من السحر ما يفعل الله تعالى عند إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق الحجر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء وأمثال ذلك من آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام. ومن أنكر حقيقته استدل بلزوم الالتباس بالمعجزة، وتعقب بأن الفرق مثل الصبح ظاهر^(٤).

* * *

(١) طه: الآيتان (٥٨ و٥٩).

(٢) أضواء البيان (٢/٣٨-٣٩).

(٣) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/٩٦)، والبخاري (٦/٤١٢)، ومسلم (٤/١٧١٩/٢١٨٩)، وابن ماجه (٢/١١٧٣/٣٥٤٥).

(٤) روح المعاني (٩/٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧)

★ غريب الآية:

تلقف: أي تأخذه بقوة وسرعة من الهواء. والمعنى: تَلْتَقِمُ وتَبْتَلِعُ. يقال: لَقِفَ الشيء يَلْقَفُهُ وَيَتَلَقَّفُهُ: إذا أخذه من الهواء بسرعة.
ما يافكون: أي: ما يكذبون. والإفك: أشد الكذب، أصله: صرف الشيء عما يَحِقُّ أن يكون عليه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي: تَأْكُلُ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «ذكر هنا وفي سورة (طه) أمره تعالى لموسى بالإلقاء، وفي سورة (الشعراء) أنه فعل الإلقاء الذي أمر به ولم يذكر الأمر فحذف من كل سورة ما أثبت مقابله في الأخرى، وهو من قبيل الاحتباك في السور، والإيجاز المؤدي للمعاني المتعددة بأخصر عبارة»^(٢).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٧).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾

★ غريب الآية:

فوقع الحق: أي: ظهر الحق وثبت.

وبطل ما كانوا يعملون: أي: انمحي وزال؛ لأنه لا ثبات له أمام الحق. وأصل الباطل: الشيء الزائل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فظهر الحق، وتبين لمن شاهده وحضره في أمر موسى، وأنه لله رسول يدعو إلى الحق، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من إفك السحر وكذبه ومخايله»^(١).

قلت: وكذلك في كل زمن يوقع الله الحق ويظهره، ويبطل الباطل وأهله، لكن شريطة أن يقوم أهل الحق بالحق ونصرته؛ كما فعل موسى عليه السلام. فقيام الحق إذن مشروط بقيام أهله بالنصرة بالقلب واللسان والبنان والسيف، وكل ما أوتوه من حجج علمية ومادية.

ومتى أغفل أهل الحق الحق وتوانوا في نصرته؛ رفع الباطل رأسه وظهر على الحق، أوليوشكن الله أن يذهب بالمتوانين في نصرة الحق، ويجيء بمن ينصر دينه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(٢)، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣)، وقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾^(٤)، وقال: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٥).

(٢) محمد: الآية (٣٨).

(٤) التوبة: الآية (٤٠).

(١) جامع البيان (٢٢/٩).

(٣) المائدة: الآية (٥٤).

(٥) محمد: الآية (٧).

قوله تعالى: ﴿فَغْلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ﴿١١٩﴾

★ غريب الآية:

غَلِبُوا: أي: هُزِمُوا؛ مأخوذ من الغلبة، وهي الظفر بالعدو في حال النزاع.
صاغرین: أي: أذلاء مقهورين مغلوبين. والصَّغار: الذلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: فغلب فرعون وملؤه في ذلك المجمع العظيم الذي كان في عيد لهم ويوم زينة من مواسمهم، ضربه موسى موعداً لهم بسؤالهم كما بين في سورة (طه): ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾^(١) لتكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجماهير الناس، ولم يقل فغلبهم موسى؛ لأن ذلك لم يكن بكسبه وصنعه، ﴿وَانْقَلَبُوا﴾ أي: عادوا من ذلك المجمع صاغرین أذلة؛ بما رزئوا به من الخذلان والخيبة، أو صاروا ﴿صَغِيرِينَ﴾. وإنما خص هذا بفرعون وملئه، وكان المتبادر أن يكون للسحرة أولاً وبالذات وفرعون بالتبع أو للجميع على سواء؛ لأنه تعالى بين ما كان من عاقبة السحرة بقوله: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾^(٢) ﴿٣﴾.

(١) طه: الآية (٥٩).

(٢) الأعراف: الآية (١٢٠).

(٣) تفسير المنار (٦٩/٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وألقي السحرة عندما عاينوا من عظيم قدرة الله، ساقطين على وجوههم، سجدًا لربهم، يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يقولون: صدقنا بما جاءنا به موسى، وأن الذي علينا عبادته هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء، وغير ذلك، ويدبر ذلك كله، رب موسى وهارون، لا فرعون»^(١).

وقال ابن عطية: «لما رأى السحرة من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسى، آمنوا بقلوبهم، وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفرع من قدرة الله تعالى، فخرّوا سجدًا لله تعالى، متطارحين، وآمنوا نطقًا بالسنتهم. وتبينهم الرب بذكر موسى وهارون زوال عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه الجهال من أنه رب الناس»^(٢).

وقال الرازي: «قال المتكلمون: وهذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم، وذلك لأن أولئك الأقوام كانوا عالمين بحقيقة السحر واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى ﷺ خارجة عن حد السحر؛ علموا أنه من المعجزات الإلهية، لا من جنس التمويهات البشرية. ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال؛ لأنهم كانوا يقولون: لعله أكمل منا في علم السحر، فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر. فلأجل كمالهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان، فإذا كان حال علم السحر كذلك، فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد»^(٣).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٤٠).

(١) جامع البيان (٩/ ٢٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢١٤).

قلت : هذه الملاحظة التي لاحظها المفسر الرازي في فضيلة العلم خصوصًا علم التوحيد المبني على نصوص الكتاب والسنة ، ملاحظة جيدة ، إذ لا شك أنه كلما قوي طالب العلم الصادق في علم التوحيد كان أثبت وأكثر يقينًا ؛ لأن التوحيد هو العمود الفقري والأساس الذي تنبني عليه الشريعة وما سواه فروع له وامتداد للتطبيق العملي الذي هو نتيجة العلم بالتوحيد الذي يأخذ الإنسان ظاهرًا وباطنًا ويطبع به وتصبح أعماله على طريق اليقين ، ويعلم أن المستحق للعبادة هو خالقه ، لا غيره ، وأن هذا المعبود اتصف بالكمال المطلق ، وأن كل عظيم مهما عظمت فيه صفة من الصفات فالله تعالى أعظم وأن عظمة ذلك مكتسبة وعظمة الله تعالى ذاتية غير مكتسبة من أحد فهو الذي يطعم ولا يطعم وهو الذي يوجد ولم يوجد أحد وهو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد ، ف سبحانه من تفرد بكل كمال وتنزه عن كل نقص وتفرد في ملكه ، ونور خلقه بحكمه .

وقال : «احتجّ أهل التعليم بهذه الآية فقالوا : الدليل على أن معرفة الله لا تحصل إلا بقول النبي أن أولئك السحرة لما قالوا : ﴿ءَأَمَّنَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يتم إيمانهم ، فلما قالوا : ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ تم إيمانهم ، وذلك يدل على قولنا .

وأجاب العلماء عنه : بأنهم لما قالوا : ﴿ءَأَمَّنَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال لهم فرعون : إياي تعنون ، فلما قالوا : ﴿رَبِّ مُوسَى﴾ قال : إياي تعنون ؛ لأنني أنا الذي رببت موسى ، فلما قالوا : ﴿وَهَارُونَ﴾ زالت الشبهات ، وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بالله السماء . وقيل : إنما خصهما بالذكر بعد دخولهما في جملة العالمين ؛ لأن التقدير : آمنا برب العالمين ، وهو الذي دعا إلى الإيمان به موسى وهارون . وقيل : خصهما بالذكر تفضيلًا وتشريفًا ، كقوله : ﴿وَمَلَكَيْنَا وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾^(١) ^(٢) .

* * *

(١) البقرة : الآية (٩٨) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢١٥ / ١٤) .

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۝١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِثَايِتٍ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾

★ غريب الآية:

لَأُصَلِّبَنَّكُمْ: الصَّلْبُ: هو الشَّدُّ على الخشبة وغيرها.
وما تَنْقِمُ مِنْآ: أي: لست تكره منآ سوى أن آمنا بالله وهو الحق. يقال: نَقَمْتُ الشيءَ وَنَقِمْتُهُ، بالفتح والكسر: إذا كرهته، والفتح أفصح.
ربنا أفرغ علينا: الإفراغ: أصله: الصَّبُّ. ثم استعير للمعاني فقليل: أفرغ الله علينا الصبر. أي: جَمَّلَنَا به وجعله من أخلاقنا عند القطع والصلب.
صبرًا: الصبر: أصله الحَبْسُ. وهو حبس النفس عن إظهار الجزع عند المصائب، وعن الشهوات، وحبسها على فعل الأوامر واجتناب النواهي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما توعد به فرعون -لعنه الله- السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾^(١)، وهو يعلم -وكل من له لب- أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج

(١) طه: الآية (٧١).

القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم، ولا رآه، ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاَطَاعُوهُ﴾^(١)؛ فإن قوما صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢) من أجهل خلق الله وأضلهم...

وقوله: ﴿لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ يعني: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس، و﴿لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾^(٣) أي: على الجذوع...

قال ابن عباس: «وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون».

وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أننا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعوننا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٤) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٧﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾^(٥)، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في

(١) الزخرف: الآية (٥٤).

(٢) النازعات: الآية (٢٤).

(٣) طه: الآية (٧١).

(٤) طه: الآيات (٧٢-٧٥).

آخره شهداء بررة.

قال ابن عباس، وعبيد بن عمير، وقتادة وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء^(١).

قلت: وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكذلك صحابة رسول الله ﷺ كانوا عبدة أوثان كفرة وانقلبوا إلى خيرة خلق الله وأفضل الخلق بعد الرسل فأنزل الله ثناءه عليهم في القرآن في غير ما آية وتزكية منه لهم بما يتمنى كل مسلم أن يكون في سلوكهم ويسير على منوالهم، ولكن إن فاته ذلك فمحبتهم والترضي عنهم جميعاً. وكم من عالم من العلماء من الله عليه بالهداية فانقلب من الضلال إلى الهدى؛ كالرازي والجويني وغيرهم كثير من قدامى ومعاصرين، فالعالم إذا كان صادقاً في علمه ومخلصاً فيه لكن أخطأ في منهجه وعقيدته فغالباً ما يمن الله عليه بالهداية إلى الصواب والحق، فكان سحرة فرعون مثلاً لكل عالم صادق أخطأ في منهجه وعقيدته.

وقال ابن عاشور: «والقرآن لم يتعرض هنا، ولا في سورة (الشعراء)، ولا في سورة (طه) للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون؛ لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة، وهو تأييد الله موسى، وهداية السحرة، وتصلبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنة.

وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث، كما قال في سورة (النازعات): ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾^(٢)، فاختلف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية^(٣).

قال الرازي: وفي الآية فوائد:

الفائدة الأولى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أكمل من قوله: أنزل علينا صبراً؛ لأننا ذكرنا أن إفراغ الإناء هو صب ما فيه بالكلية، فكانهم طلبوا من الله كل الصبر لا بعضه.

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٥٨-٤٥٩).

(٢) النازعات: الآية (٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٩/٥٦-٥٧).

والفائدة الثانية: أن قوله: ﴿صَبْرًا﴾ مذكور بصيغة التنكير، وذلك يدل على الكمال والتمام؛ أي: صبرًا كاملاً تاماً، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾^(١) أي: على حياة كاملة تامة.

والفائدة الثالثة: أن ذلك الصبر من قبلهم ومن أعمالهم، ثم إنهم طلبوه من الله تعالى، وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل إلى بتخليق الله وقضائه^(٢).

وقال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾: «أي: توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين. ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شراً محضاً سبباً للفوز بالسعادة؛ لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل الله سبحانه، فوصلوا بالشر إلى الخير، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان.

وإذا كانت المهارة في علم الشر قد تأتي بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة في علم الخير، اللهم انفعنا بما علمتنا، وثبت أقدامنا على الحق، وأفرغ علينا سجال الصبر، وتوفنا مسلمين، آمين»^(٣).

* * *

(١) البقرة: الآية (٩٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١٨/١٤).

(٣) فتح القدير (٣٣٠/٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتُنْقِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾

★ غريب الآية:

أَتَذَرُ: أي: أترك. ولم يستعمل منه ماضٍ ولا مصدر. وقيل: أصل ذلك من القذف؛ يقال: فلان يذر الشيء؛ أي: يقذفه؛ لقلة اعتداده به. ونستحيي نساءهم: أي: نستبقيهن ولا نقتلهن.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أظهره لموسى وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض؛ أي: يفسدوا أهل رعيته ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله العجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ﴾ قال بعضهم: (الواو) هنا حالية؛ أي: أذاره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبي بن كعب: (وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك)، حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: هي عاطفة؛ أي: لا تدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه آلهتك.

وقرأ بعضهم: (إلاهتك)؛ أي: عبادتك، وزوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبد. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبد في السر. وقال في رواية أخرى: كان له جمانة في عنقه معلقة يسجد لها.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: وآلهته - فيما زعم ابن عباس - كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عجلاً جسداً.

فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله: ﴿سَنُقِيلُ أَسْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام؛ حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رآه، وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعة هذا أيضاً، إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده^(١).

وقال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾: وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان، قاهرون لهم كما كنا من قبل، فلا يستطيعون إفساداً في أرضنا، ولا خروجاً من حظيرة تعبيدنا. وفي سورة (المؤمن): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(٢)، وهو يدل على أنه كان لديه من يدافع عن موسى ممن آمن به سرّاً، وممن كان يحبه وإن لم يؤمن به؛ فقد قال تعالى له: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾^(٣)، وفيه تصريح بما كان له في أنفس المصريين من المحبة والاحترام. وقد حكى الله تعالى لنا دفاع واحد ممن آمن به فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾^(٤)،^(٥).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٩-٤٦٠).

(٣) طه: الآية (٣٩).

(٢) غافر: الآية (٢٦).

(٤) غافر: الآية (٢٨).

(٥) تفسير المنار (٩/ ٨٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ من بني إسرائيل - لما قال فرعون للملأ من قومه : سنقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم - : ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ على فرعون وقومه فيما ينوبكم من أمركم ، ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم من فرعون . . .

وقوله : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يقول : إن الأرض لله ، لعل الله أن يورثكم - إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون ، واحتسبتم ذلك ، واستقمتم على السداد - أرض فرعون وقومه ، بأن يهلكهم ويستخلفكم فيها ، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده ، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يقول : والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه ، فخافه باجتناّب معاصيه ، وأدى فرائضه»^(١).

وقال الرازي : «فهنا أمرهم بشيئين وبشرهم بشيئين ، أما اللذان أمر موسى ﷺ بهما : فالأول : الاستعانة بالله تعالى . والثاني : الصبر على بلاء الله . وإنما أمرهم أولاً بالاستعانة بالله ، وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى ، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره . واستعداده بمشاهدة قضاء الله ، خفف عليه أنواع البلاء . وأما اللذان بشر بهما : فالأول : قوله : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهذا إطماع من موسى ﷺ قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه ، وذلك معنى الإرث ، وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف . والثاني : قوله : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، فقيل : المراد أمر

الآخرة فقط، وقيل: المراد أمر الدنيا فقط، وهو الفتح والظفر والنصر على الأعداء، وقيل: المراد مجموع الأمرين، وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه، فالله يعينه في الدنيا والآخرة^(١).

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآيات على أن قوم فرعون لما عجزوا عن موسى في آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض، وأنه عند ذلك أوعده. وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى؛ لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح في معجزته، ولهذا قال مشايخنا: إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن، التي في إيرادها إبطال أمر النبي ﷺ، إلى القتل، الذي لا يفيد ذلك، دل على عجزهم. وهكذا حال كل ضال مبتدع، إذا أعيته الحجة، عدل إلى التهديد والوعيد. وتدل على أن عند الخوف من الظلمة يجب الفرع إلى الله تعالى، والاستعانة به، والصبر. ولا مفزع إلا في هذين: وهو الانقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة في الدفع، واللفظ له في الصبر. وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى^(٢)».

قلت: هذه الآية الكريمة التي ذكرها الله عن عبده ورسوله موسى قوله عظيمة أصبحت قرآنًا يتلى يتعبد به آناء الليل وأطراف النهار، وهي من أعظم التسليّة للدعاة إلى الله الصادقين وينبغي أن تكون منهاجًا لكل داعية يريد بدعوته وجه الله ونصرة دينه والدعوة إلى توحيده ونصرة نبيه ﷺ، فيقرن دعوته بالاستعانة بالله في كل لحظة، وأنه لا حول له ولا قوة. ويقرن دعوته بكامل الصبر، فإذا لم يفعل ذلك فلن يتم له مقصوده، ثم يعلم أن ما يؤول إليه الأمر من العاقبة الحسنة هو لمن استعان وصبر واتقى، مهما طالّت الشدائد، وأظلمت الدنيا في وجهه، واحتلكت الظروف، وتكالب الأحزاب فرادى وجماعات ودولًا؛ فإن الله ناصر دينه وعباده المخلصين الصادقين، فنرجو الله أن يجعلنا منهم وأن لا يحبط لنا عملًا.

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٢١).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٣٥).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : قال قوم موسى لموسى - حين قال لهم : ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ - : ﴿أَوْذِينَا﴾ بقتل أبنائنا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ يقول : من قبل أن تأتينا برسالة الله إلينا ؛ لأن فرعون كان يقتل أولادهم الذكور حين أظله زمان موسى على ما قد بينت فيما مضى من كتابنا هذا .

وقوله : ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يقول : ومن بعد ما جئتنا برسالة الله ؛ لأن فرعون لما غلبت سحرته ، وقال للملأ من قومه ما قال ، أراد تجديد العذاب عليهم بقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم .

وقيل : إن قوم موسى قالوا لموسى ذلك حين خافوا أن يدركهم فرعون وهم منه هاربون ، وقد تراءى الجمعان فقالوا له : يا موسى ! ﴿أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ كانوا يذبحون أبنائنا ، ويستحيون نسائنا ، ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا»^(٢) .

(١) الأعراف : الآية (١٢٩) .

(٢) جامع البيان (٢٧/٩) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - جل ثناؤه - : قال موسى لقومه : لعل ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه ، ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ ﴾ ، يقول : يجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم ، لا تخافونهم ، ولا أحداً من الناس غيرهم ، ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : فيرى ربكم ما تعملون بعدهم من مسارعتكم في طاعته ، وتثاقلكم عنها »^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عظم مسؤولية الاستخلاف في الأرض وما في ذلك من حض على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » . وفي حديث ابن بشار : « لينظر كيف تعملون »^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال النووي : « معنى «مستخلفكم فيها» : جاعلكم خلفاء من القرون الذين من قبلكم »^(٤).

وقال القاري : « أي : أنتم بمنزلة الوكلاء في التصرف فيها ، وإنما هي في الحقيقة لله تعالى . ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : تتصرفون ، أو معناه : جاعلكم

(١) الأعراف : الآية (١٢٩).

(٢) جامع البيان (٢٨/٩).

(٣) أخرجه : أحمد (٢٢/٣) ، ومسلم (٢٧٤٢/٢٠٩٨/٥) ، والترمذي (٤١٩/٤-٤٢٠/٤٢١٩١) ، وابن ماجه (٢/

١٣٢٥/٤٠٠٠) ، والنسائي في الكبرى (٩٢٦٩/٤٠٠/٥).

(٤) شرح مسلم (٢٦٧/٦).

خلفاء من كان قبلكم، وقد أعطى ما في أيديهم إياكم، فكيف تعتبرون بحالهم، وتتدبرون في مآلهم. وقال الطيبي^(١) رَحِمَهُ اللهُ: الاستخلاف: إقامة الغير مقام نفسه؛ أي: جعل الله الدنيا مزية لكم ابتلاء هل تتصرفون فيها كما يحب ويرضى، أو تسخطونه وتتصرفون فيها بغير ما يحب ويرضى^(٢).

قلت: وقوله في هذا الحديث: «فناظر كيف تعملون» فيه حض على العزم على الشكر عند حلول النعم، وذلك نظير قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

قال أبو حيان: «وهي جملة تجري مجرى البعث والتحريض على طاعة الله تعالى»^(٣).

وفيه من الفوائد: التحذير من الاغترار بالدنيا، والافتتان بزينتها وزخرفها. وقد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾. الآية (١٤) من سورة (آل عمران)، فليراجع، وبالله التوفيق.

وفيه تنبيه على أهمية «الاتعاظ»، وأخذ العبرة من الأمم السابقة؛ فإن ما حصل لبني إسرائيل يحصل لغيرهم إذا تعاطوا أسبابه^(٤).

(١) انظر كلامه في الكاشف (٧/ ٢٢٦٠).

(٢) المرقاة (٦/ ٢٦٧).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٤) انظر «نزهة المتقين» (ص: ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾

★ غريب الآية:

السنين: جمع سنة، وهي الحول القحط المجذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وقد اخترنا قوم فرعون وأتباعه، على ما هم عليه من الضلالة ﴿بِالسِّنِينَ﴾، يقول: بالجدوب سنة بعد سنة والقحوط، يقال منه: أسنت القوم: إذا أجذبوا، ﴿وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول: واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يقول: عظة لهم، وتذكيراً لهم؛ لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة»^(١).

وقال الرازي: «ظاهر الآية أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار لأجل أن يرجعوا عن طريقة التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية، وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب، وترغب فيما عند الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَآ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدُّ دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾^(٣)»^(٤).

وقال ابن عاشور: «وفي هذه الآية تنبيه للأمة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله؛ فإن سلب النعمة للمنعم عليهم تنبيه لهم على استحقاقهم إغراض الله تعالى عنهم»^(٥).

(٢) الإسراء: الآية (٦٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/٢٢٤).

(١) جامع البيان (٢٨/٩).

(٣) فصلت: الآية (٥١).

(٥) التحرير والتنوير (٦٤/٩).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

★ غريب الآية:

يطيروا: يتشاءموا. وأصل التطير أن العرب كانت تزجر الطير إذا أرادت أمراً، فإن أخذ جهة اليسار تشاءمت، وإن أخذ جهة اليمين تفاءلت.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ﴾: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة؛ أي: قحط وجذب ونحو ذلك، تطيروا بموسى وقومه فقالوا: ما جاءنا هذا الجذب والقحط إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا عن بعض الكفار مع نبينا ﷺ في قوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(١)، وذكر نحوه أيضاً عن قوم صالح مع صالح في قوله: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ﴾^(٢)، وذكر نحوه ذلك أيضاً عن القرية التي جاءها المرسلون في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾^(٣)، وبين تعالى أن شؤمهم من قبل كفرهم ومعاصيهم، لا من قبل الرسل، قال في (الأعراف): ﴿إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقال في سورة (النمل) في قوم صالح: ﴿قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾^(٤)، وقال في (يس): ﴿قَالُوا طَّيَّرَكُمْ مَعَكُمْ﴾^{(٥) (٦)}.

قال الرازي: «بين تعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم، يقدمون على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ قال ابن

(١) النساء: الآية (٧٨).

(٢) النمل: الآية (٤٧).

(٣) يس: الآية (١٨).

(٤) النمل: الآية (٤٧).

(٥) يس: الآية (١٩).

(٦) أضواء البيان (٢/٣٩).

عباس: يريد بالحسنة: العشب والخصب والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة، ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: نحن مستحقون على العادة التي جرت من كثرة نعمنا وسعة أرزاقنا، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليه، ويقوموا بحق النعمة فيه. وقوله: ﴿وَلِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يريد القحط والجذب والمرض والضر والبلاء، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: يتشاءموا به. ويقولوا: إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه، والتطير: التشاؤم، في قول جميع المفسرين، وقوله: ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ هو في الأصل: يتطيروا، أدغمت التاء في الطاء؛ لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الطائر قولان: القول الأول: قال ابن عباس: يريد شؤمهم عند الله تعالى؛ أي: من قبل الله؛ أي: إنما جاءهم الشر بقضاء الله وحكمه، فالطائر ههنا: الشؤم. ومثله قوله تعالى في قصة ثمود: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَّيَّرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) قال الفراء: وقد تشاءمت اليهود بالنبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذأتانا، قال الأزهري: وقيل للشؤم: طائر وطيروا؛ لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيروا؛ لتشاءمهم بها. ثم أعلم الله تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة فقال: «لا طيرة ولا هام»^(٢)، وكان النبي ﷺ يتفاءل، ولا يتطير^(٣). وأصل الفأل: الكلمة الحسنة، وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل وأبطل الطيرة، قال محمد الرازي رَحِمَهُ اللهُ: ولا بد من ذكر فرق بين البابين. والأقرب أن يقال: إن الأرواح الإنسانية أصفى وأقوى من الأرواح البهيمية والطيرية. فالكلمة التي تجري على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير، وحركات البهائم، فإن أرواحها ضعيفة، فلا يمكن الاستدلال بها على شيء من الأحوال. القول الثاني في تفسير الطائر: قال

(١) النمل: الآية (٤٧).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢٦٧/٢)، والبخاري (١٠/٢٦٥/٥٧٥٧)، ومسلم (٤/١٧٤٤/١٧٤٤)، والنسائي في الكبرى (٣٧٦/٤/٧٥٩٢).

(٣) أخرجه من حديث بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أحمد (٣٤٧-٣٤٨/٥)، وأبو داود (٢٣٦/٤/٣٩٢٠)، والنسائي في الكبرى (٥/٨٨٢٢/٢٥٤)، وصححه ابن حبان (١٣/١٤٢/٥٨٢٧) (الإحسان).

أبو عبيدة: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: حظهم. وهو ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم، والعرب تقول: أطرت المال وطيرته بين القوم فطار لكل منهم سهمه؛ أي: حصل له ذلك السهم. واعلم أن على كلا القولين المعنى أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الكل من الله تعالى؛ وذلك لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة، ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره، والحق أن الكل من الله.. فإسنادها إلى غير الله يكون جهلاً بكمال الله تعالى^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «وفي الآية من نكت البلاغة أنه عبر عن مجيء الحسنة بـ(إذا) الدالة على تحقق الوقوع، وعرفها لإفادة أنها الأصل الثابت الغالب بغلبة رحمة الله وفضله على سخطه وعقابه، وعبر بإصابة السيئة بـ(إن) التي هي أداة الشك؛ أي: إن شرطها مشكوك في وقوعه، وإما منزل منزلة المشكوك فيه؛ لندرته أو لسبب آخر، وذكر السيئة لإفادة أن وقوعها قليل، وخلاف الأصل الغالب، وأفاد بالتعبيرين أن القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات، وأن الحسنة على عظمتها وكثرتها ما زادتهم إلا غروراً بحالهم، وتمادياً في ظلمهم، وإصراراً على بغيهم، وأن السيئة لم تقدمهم عظة ولا عبرة، ولم تحدث لهم توبة»^(٢).

قال أبو السعود: «وهذا -أي: دعواهم استحقاق الحسنات، وتشاؤمهم بموسى عند حلول ونزول النقمات بهم- كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم، ونهاية جهلهم وغباوتهم، فإن الشدائد ترقق القلوب، وتلين العرائك، لا سيما بعد مشاهدة الآيات، وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيء منها، بل ازدادوا عتواً وعناداً»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في النهي عن التطير وبيان أنه من الشرك

عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «الطيرة شرك، ثلاثاً. وما منا

(١) مفاتيح الغيب (١٤/٢٢٤-٢٢٥).

(٢) المنار (٩/٨٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/٢٦٤).

إلا ، ولكن الله يذهب بالتوكل»^(١).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفقه تحريم التطير ، وأنه نوع من أنواع الشرك . وسيأتي تفصيل هذه المسألة عند قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قَالُوا طَهِّرْ كُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ الآيتان (١٨ و ١٩) من سورة (يس) ، وبالله التوفيق .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (٤٣٨ / ١) ، وأبو داود (٢٣٠ / ٤) ، والترمذي (١٣٧ - ١٣٨ / ٤) وقال : «حسن صحيح» ، وابن ماجه (١١٧٠ / ٢) ، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣ / ٤٩١ / ٦١٢٢) ، والحاكم (١ / ١٨) وقال : «حديث صحيح سنده ، ثقات رواه» .

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله ﷻ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق، وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به»^(٢).

وقال: «وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ»^(٤).

(١) الأعراف: الآية (١٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦١).

(٣) يونس: الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(٤) البداية والنهاية (١/ ٢٤٨).

قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ
ءَآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

★ غريب الآية:

الطوفان: السيل المغرق.

القمل: واحده: قملة، معروف.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى الطوفان: فقال بعضهم هو الماء، . . . وقال آخرون: بل هو الموت، . . . وقال آخرون: بل ذلك كان أمراً من الله طاف بهم، . . . والصواب من القول في ذلك عندي، ما قاله ابن عباس على ما رواه عنه أبو ظبيان، أنه أمر من الله طاف بهم، وأنه مصدر من قول القائل: طاف بهم أمر الله يطوف طوفاناً، كما يقال: نقص هذا الشيء ينقص نقصاناً، وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد، وجاز أن يكون الموت الذريع، . . .

وأما القمل فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، . . . وقال آخرون: بل هو الدبى، وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له، . . . وقال آخرون: بل القمل البراغيث»^(١).

قال الماوردي: «وأما الدم ففيه قولان: أحدها: أن ماء شربهم كان يصير دمًا عبيطًا، فكان إذا غرف القبطي من الماء صار دمًا، وإذا غرف الإسرائيلي كان ماءً، والثاني: أنه رعاف كان يصيبهم، قاله زيد بن أسلم»^(٢).

(١) جامع البيان (٩/ ٣٠-٣٣).

(٢) النكت والعيون (٢/ ٢٥٢-٢٥٣).

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ فإن معناه: علامات ودلالات على صحة نبوة موسى، وحقية ما دعاهم إليه، مفصلات: قد فُصِّلَ بَيْنَهَا، فجعل بعضها يتلو بعضها، وبعضها في إثر بعض»^(١).

وقال ابن عطية: «وهذه عقوبات وأنواع من العذاب، بعثها الله عليهم ليزدجروا وينيبوا»^(٢).

وأما قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فقال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات، من الآيات والحجج، عن الإيمان بالله، وتصديق رسوله موسى ﷺ، واتباعه على ما دعاهم إليه، وتعظموا على الله وعتوا عليه، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ يقول: كانوا قوماً يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق، عتوا وتمردا»^(٣).

قال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على عناد القوم، وإصرارهم على الكفر، وجهلهم، حيث عاهدوا في كل آية يأتي بها على صدقه، وإثبات العهد أنهم لا يؤمنون بها، وليس هذا عادة من غرضه الحق، وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها، وتدل على وجوب التدبر في الآيات»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان حكم قتل الجراد والضفادع وغير ذلك

* عن أبي زهير النميري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوا الجراد؛ فإنه جند الله الأعظم»^(٥).

★ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث من ذهب إلى أن الجراد لا يقتل إذا حل بأرض قوم وإن

(٢) المحرر الوجيز (٢/٤٤٣).

(٤) محاسن التأويل (٧/٢٣٨).

(١) جامع البيان (٩/٣٩).

(٣) جامع البيان (٩/٤٠).

(٥) أخرجه: الطبراني في الكبير (٢٢/٢٩٧/٧٥٧)، وفي مسند الشاميين (٢/٤٣٨/١٦٥٦)، وفي الأوسط (١٠/

١٢٨/٩٢٧٣)، والبيهقي في الشعب (٧/٢٣٢/١٠١٢٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/١٧٨٨-١٧٨٩/

١٢٩٣). والحديث حسنه الألباني لشواهده، انظر «السلسلة الصحيحة» (٢٤٢٨).

أفسد، وقالوا: هو خلق عظيم من خلق الله، يأكل من رزق الله ولا يجري عليه القلم. قال القرطبي: «وقال أهل الفقه كلهم: يقتل، . . . واحتجوا بأن في تركها فساد الأموال، وقد رخص النبي ﷺ بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله، فالجراح إذا أرادت فساد الأموال كانت أولى أن يجوز قتلها، ألا ترى أنهم قد اتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب لأنهما يؤذيان الناس؟ فكذلك الجراح»^(١).

قلت: وعلى هذا فالنهي عن قتله محمول -والله أعلم- على إذا ما لم يتعرض للمزارع والمحاصل بالفساد؛ قال البيهقي: «وهذا إن صح، فإنما أراد به -والله أعلم- إذا لم يتعرض لإفساد المزارع، فإذا تعرض له، جاز دفعه بما يقع به الدفع من القتال والقتل، أو المراد به تعذر مقاومته بالقتال والقتل»^(٢).

* عن عبدالرحمن بن عثمان: «أن طبيباً سأل النبي ﷺ عن ضفدع يجعلها في دواء، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «في هذا دليل على أن الضفدع محرم الأكل، وأنه غير داخل فيما أبيح من دواب الماء.

فكل منهى عن قتله من الحيوان، فإنما هو لأحد أمرين: إما لحرمة في نفسه كالآدمي، وإما لتحريم لحمه، كالصرد والهدهد ونحوهما، وإذا كان الضفدع ليس بمحترم كالآدمي، كان النهي فيه منصرفاً إلى الوجه الآخر»^(٤).

قال المناوي: «نهى عن قتلها، لا لحرمتها، بل لنجاستها أو لقذارتها ونفرة الطبع منها، أو أنه عرف منها من المضرّة فوق ما عرفه الطبيب من المنفعة»^(٥).

* عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراح فقال: «غزونا مع

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٦٨).

(٢) البيهقي في الشعب (٧/٢٣٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/٤٥٣)، وأبو داود (٤/٢٠٣-٢٠٤/٣٨٧١)، والنسائي (٧/٢٣٩/٤٣٦٦)، والحاكم (٤/

٤١٠-٤١١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) معالم السنن (٥/٣٥٦) مختصر المنذري.

(٥) فيض القدير (٦/٤٣٦).

النبي ﷺ سبع غزوات أو ستاً كنا نأكل معه الجراد»^(١).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه إباحة الجراد، وأجمع المسلمون على إباحته»^(٣).

قال الحافظ: «قد أجمع العلماء على جواز أكله بغير تذكية، إلا أن المشهور عند المالكية اشتراط تذكيته، واختلفوا في صفتها فقليل: بقطع رأسه، وقيل: إن وقع في قدر أو نار حل، وقال ابن وهب: أخذه ذكاته، ووافق مطرف منهم الجمهور، في أنه لا يفتقر إلى ذكاته، لحديث ابن عمر: «أحلت لنا ميتتان السمك والجراد، والكبد والطحال» أخرجه أحمد والدارقطني مرفوعاً، وقال: إن الموقوف أصح، ورجح البيهقي أيضاً الموقوف، إلا أنه قال: إن له حكم الرفع»^(٤).

وقال الصنعاني في حديث ابن عمر: «يدل على حل ميتة الجراد، على أي حال وجدت، فلا يعتبر في الجراد شيء، سواء مات حتف أنفه أو بسبب، والحديث حجة على من اشترط موتها بسبب عادي، أو بقطع رأسها وإلا حرمت»^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (٣٥٣/٤)، والبخاري (٥٤٩٥/٧٧٤/٩)، ومسلم (١٩٥٢/١٥٤٦/٣)، وأبو داود (٤/١٦٤/٣٨١٢)، والترمذي (١٨٢٢-١٨٢١/٢٣٦/٤)، والنسائي (٤٣٦٧/٢٣٩/٧).
(٢) أخرجه مرفوعاً: أحمد (٩٧/٢)، وابن ماجه (٣٣١٤/١١٠٢-١١٠١/٢)، وعبد بن حميد (رقم ٨٢٠)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٨٠٣/٢٤٤/١١)، والدارقطني (٢٧٢-٢٧١/٤). وأخرجه البيهقي (٢٥٤/١) موقوفاً وقال: «هذا إسناد صحيح، وهو في معنى المسند»، وأخرجه أيضاً مرفوعاً وقال: «إلا أن الصحيح من هذا الحديث هو الأول» -يعني الموقوف-. وذكر الدارقطني في «العلل» (٢٦٦-٢٦٧/١١) أن الموقوف هو الصواب، قال ابن القيم في «الزاد» (٣٩٢/٣): «وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: «أحل لنا كذا، وحرم علينا...» ينصرف إلى إحلال النبي ﷺ وتحريمه».

(٣) شرح مسلم (٣٢/٧).

(٤) فتح الباري (٧٧٤/٩).

(٥) سبل السلام (٣٤/١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٣٤﴾

★ غريب الآية:

الرجز: العذاب الشديد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ ولما نزل بهم عذاب الله وحل بهم سخطه، ثم اختلف أهل التأويل في ذلك الرجز الذي أخبر الله أنه وقع بهؤلاء القوم، فقال بعضهم: كان ذلك طاعوناً... وقال آخرون: هو العذاب... وأولى القولين بالصواب في هذا الموضع أن يقال: إن الله - تعالى ذكره - أخبر عن فرعون وقومه أنهم لما وقع عليهم الرجز، وهو العذاب والسخط من الله عليهم فزعوا إلى موسى بمسألته ربه كشف ذلك عنهم، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ لأن كل ذلك كان عذاباً عليهم، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان طاعوناً، ولم يخبرنا الله أي ذلك كان، ولا صح عن رسول الله ﷺ بأي ذلك كان خبرٌ فنسلم له، فالصواب أن نقول فيه كما قال - جل ثناؤه -: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾، ولا نتعداه إلا بالبيان الذي لا تمانع فيه بين أهل التأويل، وهو لما حل بهم عذاب الله وسخطه ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ يقول: بما أوصاك وأمرك به، وقد بينا معنى العهد فيما مضى، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ يقول: لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ يقول: لنصدقن بما جئت به ودعوت إليه، ولنقرن به لك، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يقول: ولنخليّن معك بني إسرائيل، فلا نمنعهم أن يذهبوا حيث شاؤوا»^(١).

(١) جامع البيان (٩/ ٤٠-٤١) باختصار.

واختار الرازي أن الرجز هو الأنواع الخمسة المذكورة، قال: «ثم إنهم اختلفوا في المراد بهذا الرجز، فقال بعضهم: إنه عبارة عن الأنواع الخمسة المذكورة من العذاب الذي كان نازلاً بهم. وقال سعيد بن جبير: الرجز معناه: الطاعون، وهو العذاب الذي أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان في يوم واحد، فتركوا غير مدفونين. واعلم أن القول الأول أقوى؛ لأن لفظ (الرجز) لفظ مفرد محلى بالآلف واللام فينصرف إلى المعهود السابق، وههنا المعهود السابق هو الأنواع الخمسة التي تقدم ذكرها، وأما غيرها فمشكوك فيه، فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى بين ما كانوا عليه من المناقضة القبيحة؛ لأنهم تارة يكذبون موسى عليه السلام، وأخرى عند الشدائد يفرعون إليه فزع الأمة إلى نبيها، فيسألونه: أي: يسأل ربه رفع ذلك العذاب عنهم، وذلك يقتضي أنهم سلموا إليه كونه نبياً مجاب الدعوة، ثم بعد زوال تلك الشدائد يعودون إلى تكذيبه والطعن فيه، وأنه إنما يصل إلى مطالبه بسحره، فمن هذا الوجه يظهر أنهم يناقضون أنفسهم في هذه الأقاويل»^(١).

وقال أبو حيان: «وفي قولهم: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ دلالة على أنه طلب منهم الإيمان، كما أنه طلب منهم إرسال بني إسرائيل، وقدموا الإيمان؛ لأنه المقصود الأعظم الناشئ منه الطواعية، وفي إسناد الكشف إلى موسى حيدة عن إسناده إلى الله تعالى؛ لعدم إقرارهم بذلك»^(٢).

قال ابن عاشور: «وليس قولهم: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بإيمان بالله ورسالة موسى، ولكنهم كانوا مشركين وكانوا يجوزون تعدد الآلهة، واختصاص بعض الأمم وبعض الأقطار بآلهة لهم، فهم قد خامرهم من كثرة ما رأوا من آيات موسى أن يكون لموسى رب له تصرف وقدرة، وأنه أصابهم بالمصائب؛ لأنهم أضروا عبده، فسألوا موسى أن يكف عنهم ربه، ويكون جزاءه الإذن لبني إسرائيل بالخروج من مصر ليعبدوا ربهم»^(٣).

(١) مفاتيح الغيب (١٤/٢٢٨-٢٢٩).

(٢) البحر المحيط (٤/٣٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٩/٧٢).

وقال: «ووعدهم بالإيمان لموسى وعد بالإيمان بأنه صادق في أنه مرسل من رب بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر، وليس وعدًا باتباع الدين الذي جاء به موسى ﷺ؛ لأنهم مكذبون به في ذلك وزاعمون أنه ساحر يريد إخراج الناس من أرضهم ولذلك جاء فعل الإيمان متعلقًا بموسى، لا باسم الله، وقد جاء هذا الوعد على حسب ظنهم أن الرب الذي يدعو إليه موسى هو رب خاص به وبقومه، كما دل عليه قوله: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾، وقد وضحوا مرادهم بقولهم: ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾»^(١).

* * *

(١) المصلى نفسه (٧٣/٩).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ١٣٥ ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ١٣٦

★ غريب الآية:

ينكثون: النكث: نقض العهد الذي يلزم الوفاء به.

اليم: البحر.

وكانوا عنها غافلين: الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله، وتصديق رسوله، مع ما أتد به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة، التي أراهم الله إياها عياناً، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً. وكلما شاهدوا آية وعابنوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمننّ به وليرسلنّ معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق، ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون فيكذبون، ويعدون ولا يفون: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(١)، فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل هذا، والعظيم الحليم القدير ينظرهم، ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم، ويتقدم بالوعد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالا وسلفاً لمن أشبههم من

(١) الأعراف: الآية (١٣٤).

الكافرين ، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين ، كما قال تبارك وتعالى - وهو
أصدق القائلين - في سورة (حم والكتاب المبين) : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا
يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ
عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا
وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ .

* * *

(١) الزخرف : الآيات (٤٦-٥٦) .

(٢) البداية والنهاية (١/٢٤٩-٢٥٠) .

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ
وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ»^(٣)، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(٤)»^(٥).

وقال ابن عاشور: «والقوم الذين كانوا يستضعفون هم بنو إسرائيل، كما وقع في الآية الأخرى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾»^(٥)، وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة، إلى تعريفهم بطريق الموصلية؛ لنكتتين:

أولاهما: الإيماء إلى علة الخبر، أي أن الله ملكهم الأرض، وجعلهم أمة حاکمة، جزاء لهم على ما صبروا على الاستعباد غيرة من الله على عبده.

الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد ﷺ، بأنهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، جزاء على صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم»^(٦).

وقال أبو السعود: «والجمع بين صفتي الماضي والمستقبل - أي: في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ - للدلالة على استمرار الاستضعاف

(١) الأعراف: الآية (١٣٧).

(٣) الدخان: الآيات (٢٥-٢٨).

(٥) الشعراء: الآية (٥٩).

(٢) القصص: الآيتان (٦٥ و٦٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٦٦).

(٦) التحرير والتنوير (٩/٧٦).

وتجده، وهم بنو إسرائيل، ذكروا بهذا العنوان؛ إظهاراً لكمال لطفه تعالى بهم، وعظيم إحسانه إليهم، في رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على فضل الشام وفضل أهله

* عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع فقال رسول الله ﷺ: «طوبى للشام»، فقلنا: لأيّ ذلك يا رسول الله؟ قال: «لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»^(٢).

★ غريب الحديث:

نؤلف: من التأليف؛ أي: نجمع.

الرقاع: جمع رقعة، وهي ما يكتب فيه.

طوبى: اسم الجنة، وقيل: هي شجرة في الجنة، وأصلها: فُعلى، من الطيب، طوبى لك: أي أصبت خيراً وطيباً، والمقصود بها هنا الطيب، لا الجنة.

الشام: بلاد عن مشأمة القبلة وسميت لذلك، أو لأن قوماً من بني كنعان تشاءموا إليها؛ أي: تياسروا، أو لأن أرضها شامات بيض وحمرة وسود. وهي الآن بلاد سوريا والأردن ولبنان وفلسطين تقريباً.

* عن ابن حوالة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة، جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق» قال ابن حوالة: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال: «عليك بالشام! فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم، فعليكم بيمنكم! واسقُوا مِنْ غَدَرِكُمْ، فإن الله توكل لي بالشام وأهله»^(٣).

(١) إرشاد العقل السليم (٣/٢٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/١٨٥)، والترمذي (٥/٦٩٠/٣٩٥٤) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه ابن حبان (١٦/٢٩٣/٧٣٠٤) والحاكم (٢/٢٢٩) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. قلت: لكن فيه ابن شماس، وليس من رجالهما، وإنما هو من رجال مسلم، فالحديث على شرط مسلم.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/١١٠)، وأبو داود (٣/١٠/٢٤٨٣) واللفظ له، وصححه ابن حبان (١٦/٢٩٥/٧٣٠٦) والحاكم (٤/٥١٠) ووافقه الذهبي.

* غريب الحديث:

خِرَلي: من الخِيرة بمعنى الاختيار؛ أي: اختر لي جنداً ألزمه.

غُدركم: جمع غدير، وهو الحوض.

توكل: ضمّن حفظها وحفظ أهلها من الكفار وشرهم.

* عن قرّة عن النبي ﷺ قال: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة

من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»^(١).

* غريب الحديث:

خذلهم: أي: ترك نصرتهم ومعاونتهم.

حتى تقوم الساعة: أي: يقرب قيامها؛ لأن الساعة لا تقوم وفي الأرض من

يقول: الله.

* عن ابن عمر قال: ذكر النبي ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في

يَمَنّا»، قالوا: يا رسول الله! وفي نجدنا، قال: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم

بارك لنا في يَمَنّا» قالوا: يا رسول الله! وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: «هناك

الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان»^(٢).

* غريب الحديث:

الشام واليمن: سميت اليمن لأنها عن يمين الكعبة، والشام عن يسار الكعبة،

والمشامة: الميسرة.

نجد: نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق

ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة. وأصل نجد: ما ارتفع من الأرض، وهو

خلاف الغور فإنه ما انخفض منها، فنجد ليس مكاناً مخصوصاً بعينه، والله أعلم.

الزلازل: أي: الحسية والمعنوية، وهي تزلزل القلوب واضطراب أهلها.

(١) أخرجه: أحمد (٤٣٦/٣)، والترمذي (٢١٩٢/٤٢٠/٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (١١٨/٢ و١٢٦)، والبخاري (٧٠٩٤/٥٧/١٣)، والترمذي (٣٩٥٣/٦٨٩/٥) وقال: «هذا

حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

الفتن: البلايا والمحن الموجبة لضعف الدين وقلة الديانة.

قرن الشيطان: حزبه وأهل وقته وزمانه وأعوانه. فكان أول الفتن ظهوراً من جهة المشرق، فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين، وكل ذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به. وكذلك البدع المختلفة نشأت من تلك الجهة.

* عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت، أو من نحو حضرموت، قبل يوم القيامة تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله! فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام»^(١).

★ غريب الحديث:

ستخرج نار: هي نار حقيقية، وهي علامة من علامات الساعة.

حضرموت: بلدة قرب عدن باليمن، والنسبة إليها: حضرمي.

تحشر الناس: تجمعهم وتسوقهم.

* عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إني رأيت كأن عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري، فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام»^(٢).

★ غريب الحديث:

رأيت: أي: في المنام.

عمود: أسطوانة.

نور ساطع: رافع لامع واصل أثره في الآفاق.

(١) أخرجه: أحمد (٨/٢)، والترمذي (٢٢١٧/٤٣١/٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث ابن عمر»، وصححه ابن حبان (٧٣٠٥/٢٩٤/١٦).

(٢) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٢٥٢/٥)، والحاكم (٥٠٩/٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وتعقبهما الشيخ الألباني في «تخريج أحاديث فضائل الشام» (ص: ١٥) بقوله: «وقد وهما في قولهما: إنه على شرطهما؛ وإنما هو صحيح فقط؛ لأن في السند يونس بن ميسرة بن حلبس، ولم يخرج له الشيخان شيئاً، وهو ثقة». وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥٨/١٠) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد، وفي أحدهما ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وقد توبع على هذا، وبقية رجاله رجال الصحيح».

عُمد به : ذهب به وقصد به .

الفتنة : المحنة والابتلاء والجمع : فتن .

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد : فضائل عظيمة ظاهرة للشام وأهله ودليل على أنها أرض مباركة ، وهي شاهدة بالقوة لقول من قال : إن المراد بقوله تعالى : ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ أرض الشام وحدها شرقها وغربها ، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما ، قال ابن عطية : «وقال أبو جعفر النحاس : وقيل : يراد أرض مصر ، وهو قول الحسن في كتاب النقاش ، وقالت فرقة : يريد الأرض كلها ، قال القاضي أبو محمد : . . . ولكن الذي يليق بمعنى الآية وما رُوي فيها هو أنه مَلَكُ أبناء المستضعفين بأعيانهم مشارق الأرض ومغاربها ، لا سيما بوصفه الأرض بأنها التي بارك فيها ، ولا يتصف بهذه الصفة ، وينفرد بها أكثر من غيرها إلا أرض الشام ، لما بها من الماء والشجر والنعم والفوائد»^(١) .

قلت : وقد دلت هذه الأحاديث على فضل الشام وفضل أهله من وجوه :

الأول : أن النبي ﷺ دعا لها بالبركة مع ما دلت عليه نصوص الكتاب العزيز من أنها أرض مباركة ، بارك الله فيها . قال شيخ الإسلام : «ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله تعالى : قوله تعالى في قصة موسى : ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾^(٢) فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ^(٣) وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا^(٤)»^(٢) ، ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام ومغاربها بعد أن أغرق فرعون في اليم ، وقوله تعالى : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَرْنَا حَوْلَهُ^(٣)﴾ وحوله أرض الشام ، وقوله تعالى في قصة إبراهيم : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٤٦) .

(٢) الأعراف : الآيات (١٢٩-١٣٧) .

(٣) الإسراء : الآية (١) .

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾، ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطًا إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والفرات، وقوله تعالى: ﴿وَلَسَلِمَتْنَا لِيُنْجِيَ الْفِرْعَوْنَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (٢)، وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان، وقوله تعالى في قصة سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ (٣)، وهما كانا بين اليمن مساكن سبأ، وبين منتهى الشام من العمارة القديمة، كما قد ذكره العلماء، فهذه خمس نصوص حيث ذكر الله أرض الشام، في هجرة إبراهيم إليها، ومسرى الرسول إليها، وانتقال بني إسرائيل إليها، ومملكة سليمان بها، ومسير سبأ إليها: وصفها بأنها الأرض التي باركنا فيها» (٤).

وقال القاري في بيان وجه دعائه ﷺ للشام بالبركة مع ما علم في الكتاب من أنها أرض مباركة: «لعل تقديمه على اليمن مشير إلى أنه مبارك في أصله لقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، ولوجود كثير من الأنبياء فيه، فالمراد زيادة البركة، أو البركة الحاصلة لأهل المدينة، وسائر المؤمنين على الخصوص» (٥).

الثاني: أن النبي ﷺ حث على سكنى الشام، وأخبر بتكفل الله تبارك وتعالى لمن سكنه من أهل الإسلام.

قال القاري في قوله: «إن الله قد توكل لي بالشام»: «قال القاضي: أراد بالتوكل: التكفل؛ فإن من توكل في شيء، فقد تكفل بالقيام به، والمعنى: أن الله ضمن لي حفظها وحفظ أهلها من بأس الكفرة واستيلائهم بحيث يتخطفهم ويدمرهم بالكلية» (٦).

الثالث: أن الله ﷻ اختصه عن غيره من البلدان بما بسط عليه من أجنحة ملائكة الرحمن.

قال المناوي: «أي أن ملائكة البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء

(١) الأنبياء: الآيتان (٧٠ و٧١).

(٢) الأنبياء: الآية (٨١).

(٣) سبأ: الآية (١٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/٥٠٥-٥٠٦).

(٥) المرقاة (١٠/٦٣٩).

(٦) المرقاة (١٠/٦٤٥).

تحفها وتحوطها بإنزال البركات ودفع المهالك والمؤذيات»^(١).

وقال القاري في قوله: «ملائكة الرحمن»: «فيه إيماء إلى أن المراد بهم ملائكة الرحمة «باسطة أجنحتها عليها» أي: على بقعة الشام وأهلها بالمحافظة عن الكفر»^(٢)»^(٣).

الرابع: أن النبي ﷺ أخبر أن الإيمان يكون بالشام عند وقوع الفتن، وكون الملاحم العظام، وأن بقية المؤمنين ينحازون إليها في آخر الزمان، وأن أهلها يتمسكون بالطاعة، ويعتصمون بلزوم السنة والجماعة، وأن بها طائفة منصورة إلى قيام الساعة.

قال المناوي: «تكون الشام زمن الفتن محل أمن، وأهل الإسلام بها أسلم»^(٤).
الخامس: قال شيخ الإسلام: «ومن ذلك أنها خيرة الله من الأرض، أن أهلها خيرة الله وخيار أهل الأرض، واستدل أبو داود في سننه على ذلك بحديثين، حديث عبد الله بن خوالة الأزدي عن النبي ﷺ قال: «ستجندون أجناداً: جنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق، فقال الخوالي: يا رسول الله! اختر لي، قال: عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فمن أبى فليلحق بيمينه، وليتق من غدرة، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله»^(٥)، وكان الخوالي يقول: ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه، ففي هذا الحديث مناقب: أنها خيرة، وحديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض الزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم، تقدرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا»^(٦) فقد أخبر أن خير أهل الأرض الزمهم مهاجر إبراهيم، بخلاف من يأتي إليه أو يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام،

(١) فيض القدير (٤/٣٦١).

(٢) لو كانت العبارة: «بالمحافظة من الكفر»، لكان أوضح، والمعنى: حفظهم عن أن يقعوا في الكفر.

(٣) المرقاة (١٠/٦٤١).

(٤) فيض القدير (٤/٣١٩).

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أحمد (٢/٨٤)، وأبو داود (٣/٩-١٠/٢٤٨٢)، والحديث ضعيف السند لكن صححه الشيخ الألباني بطريق آخر وشاهد ذكرهما في السلسلة الصحيحة (٣/٣٢٠٣).

وفي هذا الحديث بشرى لأصحابنا الذين هاجروا من حران وغيرها إلى مهاجر إبراهيم، واتبعوا ملة إبراهيم ودين نبيهم محمد ﷺ تسليماً، وبيان أن هذه الهجرة التي لهم، بعد هجرة أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره، وقد جعل مهاجر إبراهيم يعدل لنا مهاجر نبينا ﷺ، فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة^(١).

وقال الطيبي في قوله ﷺ: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده»: «يعني أن الشام مختار الله من الأرض، فلا يختارها إلا خيرة الله من عباده، فإن أبيتم أيها العرب ما اختاره الله تعالى، واخترتم بلادكم ومسقط رأسكم من البوادي، فالزموا يمنكم، واسقوا من غدرها؛ لأنه أوفق لكم من البوادي، ألا ترى كيف جمع الضميرين في القرينتين، بعد أن أفردته في قوله: «عليكم بالشام» فعلم من هذا أن الشام أولى بالاختيار، واليمن عند الاضطرار^(٢).

السادس: أن النبي ﷺ نفى الخير عن أهل الإسلام، عند وجود فساد أهل الشام.

قال ابن العربي: «وأما مدحه للشام عند الفتنة، فلأنه كان مأوى الجهاد والرباط، فإذا فسد أهله فسد الناس كلهم؛ لأنهم إذا تركوا الجهاد ذلّوا^(٣).

السابع: أنها أرض المحشر والنشر.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/٥٠٨-٥٠٩).

(٢) شرح الطيبي (١٢/٣٩٦٢).

(٣) عارضة الأحوذى (٩/٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾

★ غريب الآية:

يعرشون: يبنون. يقال: عُرِشُ مَكَّةَ؛ أي: بناؤها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ فإنه يقول: وفي وعد الله الذي وعد بني إسرائيل بتمامه على ما وعدهم من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عدوهم فرعون. و(كلمته الحسنى): قوله -جل ثناؤه-: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥﴾ وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١)...

وأما قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾؛ فإنه يقول: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يقول: وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور، وأخرجناهم من ذلك كله، وخرّبنا جميع ذلك»^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «والعبرة في هذه الآيات... أن يتفكر تالي القرآن في تأثير الإيمان والوحي في موسى وهارون عليهما السلام؛ إذ تصديا لأعظم ملك في أعظم دولة في الأرض قاهرة لقومهما ومعبدة لهم في خدمتها منذ قرون كثيرة، فدعّاه إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان وتعبيد بني إسرائيل وأنذراه وهدداه، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات البينات حتى أظفرهما الله تعالى به

(١) القصص: الآيتان (٦٥ و٦٦).

(٢) جامع البيان (٩/٤٣-٤٤).

وأنقذا قومهما من ظلمه وظلم قومه .

فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسله من المسلمين أن ينتقلوا من التفكير في هذا إلى التفكير في وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر، كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم، وأن لا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم؛ فإن قوة الحق التي نصرها الله تعالى برجل أو رجلين على أعظم الدول لا تُغلب إذا نصرنا الله ونحن مئات الملايين، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾^(١)، ويقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)،^(٣).

* * *

(١) محمد: الآية (٧).

(٢) الروم: الآية (٤٧).

(٣) تفسير المنار (٩/١٠١-١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

★ غريب الآية:

جاءوا: تجاوزنا. يقال: جُزْتُ البلدَ وجاوزته: إذا تعدَّيته وخلفته ورائي.
البحر: أصله المكان المتسع ذو الماء العظيم.
يعكفون: العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أريناهموها، والعبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى، فلم تزجرهم تلك الآيات، ولم تعظم تلك العبر والبيانات، حتى قالوا - مع معاينتهم من الحجج ما يحق أن يذكر معها البهائم، إذ مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، يقومون على مثل لهم يعبدونها من دون الله - : اجعل لنا يا موسى إلهاً، يقول: مثلاً لعبده، وصنماً نتخذه إلهاً، كما لهؤلاء القوم أصنام يعبدونها، ولا تنبغي العبادة لشيء سوى الله الواحد القهار، وقال موسى صلوات الله عليه: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله، وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض»^(١).

قال ابن عطية: «الظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: اجعل

(١) جامع البيان (٩/٤٥).

لنا صنمًا نفرده بالعبادة ونكفر بربك ، فعرفهم موسى أن هذا جهل منهم ؛ إذ سألوا أمرًا حرامًا ، فيه الإشراك في العبادة ، ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله ﷻ ، وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي ﷺ في قول أبي واقد الليثي له في غزوة حنين ، إذ مروا على دوح سدره خضراء عظيمة : «اجعل لنا -يا رسول الله- ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» ، وكانت ذات أنواط سرحة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم ، ولها يوم يجتمعون إليها فيه ، فأراد أبو واقد وغيره أن يشرع ذلك رسول الله ﷺ في الإسلام ، فرأى رسول الله ﷺ أنها ذريعة إلى عبادة تلك السرحة ، فأنكره ، وقال : «الله أكبر ! قلتم -والله- كما قالت بنو إسرائيل : ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ، لتتبعن سنن من قبلكم» ، قال القاضي أبو محمد : ولم يقصد أبو واقد بمقالته فسادًا ، وقال بعض الناس كان ذلك من بني إسرائيل كفرًا ، ولفظة الإله تقتضي ذلك ، وهذا محتمل ، وما ذكرته أولاً أصح عندي ، والله تعالى أعلم»^(١).

وقال محمد رشيد رضا في قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ : «وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء ، وهو على طريقتنا وطريقة ابن جرير والخصاف ، يشمل كلما يصلح له من الجهل الذي هو فقد العلم ، والجهل الذي هو سفه النفس وطيش العقل ، وأهمه المناسب للمقام جهل التوحيد وما يجب من إفراد الرب تعالى بالعبادة من غير واسطة ، ولا التقيد بمظهر من المظاهر يتوجه إليه معه ، ولا سيما مظهر الأصنام والتماثيل لبعض المخلوقات ، التي اغتر الجاهلون من قبل بنفعها ، أو الخوف من ضررها ، فالأول كالكواكب والنيل والعجل أبيس ، والثاني كالثعبان ، ثم جهل ما كرم الله تعالى به البشر ، فجعلهم أهلاً لمعرفته ، ودعائه ومناجاته كفاحًا بغير واسطة ، يقربهم إليه ، فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو الأحد الصمد الذي يتوجه إليه ويقصد وحده ، ولذلك قال إماما الموحدين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والتسليم : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) ، وهذا النوع من الجهل هو الذي قال الله تعالى

(١) المحرر الوجيز (٢/٤٤٧-٤٤٨).

(٢) الأنعام : الآية (٧٩).

فيه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(١)، وإسناد الجهل إلى القوم أبلغ من إسناده إلى ضمير المخاطبين؛ لأنه حكم على جماعتهم بما هو كالمتحقق المعروف من حالهم، الذي هو علة لمقالهم، يدخل فيه الذين سألوه ذلك منهم دخولا أوليا^(٢).

قال الفوزان: «فيه - أي: ما صدر من بني إسرائيل هنا - آفة الجهل، وأن الجهل قد يقع في الكفر بالله ﷻ، وهذه خطورة عظيمة، ولا ينجي من هذا الجهل إلا تعلم العقيدة الصحيحة، والتأكد منها وتدريسها، وتكرارها على الناس، وتعليمها للناس، ونشرها بكل وسيلة في المساجد وفي المدارس، وفي وسائل الإعلام، وفي المجالس وفي البيوت»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين

* عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلت: يا رسول الله! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾»، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم»^(٤).

* غريب الحديث:

ذات أنواط: هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم؛ أي: يعلقونه عليها للبركة، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، فنهاهم عن ذلك، وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سمي من المنوط.

(١) البقرة: الآية (١٣٠).

(٢) المنار (٩/١١٠-١١١).

(٣) إعانة المستفيد (١/٢٢١-٢٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/٢١٨)، والترمذي (٤/٤١٢-٤١٣/٢١٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٦/١١١٨٥) واللفظ له، وصححه ابن حبان (١٥/٩٤/٦٧٠٢).

★ فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ: «أخبرني أن هذا الأمر الذي طلبوه منه، وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة عندها تبركاً، كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذاً إله مع الله، مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور، من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقيلها وتقيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟ وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركاً؟! . . . وفي هذه الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها، هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركاً، ويقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً، وطلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾، فكيف بغيرهم من غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟

وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم طلبهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمى شركه ما سماه، كمن يسمي دعاء الأموات والذبح لهم والنذر ونحو ذلك، تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه، وقس على ذلك.

وفيها أن من عبد فهو إله؛ لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذاً له مع الله تعالى.

وفيها أن معنى الإله هو المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً فنهي عن ذلك فأنتهى لا يكفر، وأن (لا إله إلا الله) تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة. . فكيف بما هو أعظم منه؟ ففيه رد على الجهال الذين يظنون على أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء وأن ما سواها مخلوق، ونحو ذلك من العبارات، والإغلاظ على من وقع ذلك منه جهلاً. .

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناهما على الأمر، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر، أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك فمن قولهم: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ إلى آخره - قاله المصنف - (يعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب).

وفيه أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة، كما وقع فيمن قبلها، ففيه رد على من قال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة.

وفيه سد الذرائع، والغضب عند التعليم، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى، فإنه لنا لنحذره - ذكر ذلك المصنف -^(١).

قلت: وأغلب بلدان المسلمين اليوم، لا تكاد تخلو من ذوات أنواط، لا ذات أنواط واحدة، يدان لها في الأرض بأنواع العبادات؛ من حج وطواف وتبرك وذبح وغيرها مما لا يجوز أن يصرف إلا لله تعالى.

والمسلمون الذين يقعون في ذلك، غافلون تمام الغفلة عن أمثال هذه النصوص الواضحة، بل تجد في المسلمين من يتصدى بماله وقلمه وجاهه وسلطانه لتأييد ونشر هذه الشراكيات عياذاً بالله.

وعرَّج على بعض البلاد الإسلامية لترى ما يتفطر له قلب الموحد من مواسم شركية على القبور والأضرحة بمختلف الأسماء؛ فهذا يبتغي عنده الأولاد! وهذا يبتغي عنده تفريج الكرب وهبة البيوت والمساكن! وهذا يستشفى به من أنواع الأمراض! وغير ذلك كثير.

فاللهم جدد الإيمان في قلوب عبادك، وامح عنهم الشرك والخرافات، وألهمهم رشدهم، وردهم إلى الحق رداً جميلاً.

وأنتم أيها العلماء! قوموا لله شهداء بالقسط، وانصروا الله ينصركم، وبينوا للناس التوحيد، وحاربوا فيهم الشرك والبدع؛ أداء لما أوجب الله عليكم من البيان ﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(٢).

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٦-١٧٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٨٧).

تنبيه مهم جدًا:

قال سليمان آل الشيخ أيضًا: «ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب، كشرب سؤرهم والتمسك بهم، أو بشياهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في «شرح مسلم»، في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئًا من ذلك مع النبي ﷺ، وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ، وهذا خطأ صريح لوجوه: منها: عدم المقاربة، فضلًا عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة. ومنها: عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، ومن شهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم، من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح، وقد عدم أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم، ومنها: أنا لو ظننا صلاح شخص؛ فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره. ومنها: أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره، لا في حياته ولا بعد موته، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، فهلاً فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وكذلك التابعون هلاً فعلوه مع سعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وأويس القرني، والحسن البصري، ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم، فدل أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ. ومنها: أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم»^(١).

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٨-١٨٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾

★ غريب الآية:

مُتَّبَرُّ: مأخوذ من التَّبار، وهو الهلاك؛ يقال: تَبَّرَهُ يُتَّبَرُّهُ: إذا بالغ في هلاكه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن قيل موسى لقومه من بني إسرائيل، يقول - تعالى ذكره - : قال لهم موسى: إن هؤلاء العكوف على هذه الأصنام، الله مهلك ما هم فيه من العمل، ومفسده، ومخسرهم فيه بإثابته إياهم عليه العذاب المهين، ﴿وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم إياها، فمضمحل؛ لأنه غير نافع عند مجيء أمر الله وحلوله بساحتهم، ولا مدافع عنهم بأس الله إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن»^(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ﴾

★ غريب الآية:

أَبْغِيكُمْ: أي: أطلب لكم إلهًا غير الله تعالى؛ يقال: بَغَيْتُهُ وَبَغَيْتُ لَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: قال موسى لقومه: أَسِوْىَ اللَّهِ أَلْتَمْسُكُمْ
إِلَهًا، وَأَجْعَلُ لَكُمْ مَعْبُودًا تَعْبُدُونَهُ، وَاللَّهُ الَّذِي هُوَ خَالِقُكُمْ، فَضَّلَكُمْ عَلَى عَالَمِي
دَهْرِكُمْ وَزَمَانِكُمْ، يَقُولُ: فَأَبْغِيكُمْ مَعْبُودًا لَا يَنْفَعُكُمْ، وَلَا يَضُرُّكُمْ تَعْبُدُونَهُ وَتَتْرَكُونَ
عِبَادَةَ مَنْ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْخَلْقِ، إِنْ هَذَا مِنْكُمْ لَجْهَلٌ»^(١).

وقال أبو حيان: «ما أحسن ما خاطبهم موسى ﷺ بدأهم أولاً بنسبتهم إلى
الجهل، ثم ثانيًا: أخبرهم بأن عباد الأصنام ليسوا على شيء، بل مآل أمرهم إلى
الهلاك وبطلان العمل. وثالثًا: أنكر وتعجب أن يقع هو ﷺ في أن يبغى لهم غير
الله إلهًا»^(٢).

(١) جامع البيان (٤٦/٩).

(٢) البحر المحيط (٣٧٨/٤).

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أُنْجِيتَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

★ غريب الآية:

يسومونكم : أي : يكلفونكم ذلك ويحملونكم عليه ؛ يقال : سأمه خسفاً : إذا حمله على مكروه .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ : واذكروا مع قبلكم هذا الذي قلتموه لموسى - بعد رؤيتكم من الآيات والعبر ، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم ، والأيادي التي تقدمت فعلكم ما فعلتم - : ﴿وَإِذْ أُنْجِيتَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه ، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يقول : إذ يحملونكم أقبح العذاب وسيئه . وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا ما كان العذاب الذي كان يسومهم سيئه ، ﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الذكور من أولادكم ، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يقول : يستبقون إناثهم ، ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يقول : وفي سومهم إياكم سوء العذاب ، اختبار من الله لكم ونعمة عظيمة»^(١) .

وقال القاسمي : «قال الجشمي : تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر . وتدل على أن المحن في الأولاد والأهل بمنزلة المحن في النفس ، ويجري مجراه»^(٢) .

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٢٤٤) .

(١) جامع البيان (٩/ ٤٧) .

قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ ۖ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾^(١)

★ غريب الآية:

مِيقَات : المِيقَات : الوقت المضروب للشيء ، والوعد الذي جعل له وقت . وقد يقال للمكان الذي يجعل وقتاً للشيء ، كمِيقَات الحج .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : «لما أتمَّ الله نعمته عليهم ، بالنجاة من عدوهم ، وتمكينهم في الأرض ، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم ، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية ، والعقائد المرضية .

فواعد موسى ثلاثين ليلة ، وأتمَّها بعشر ، فصارت أربعين ليلة ؛ ليستعد موسى ، ويتهيأ لوعده الله ، ويكون لنزولها ، موقع كبير لديهم ، وتشوق إلى إنزالها»^(٢) .

وقال ابن كثير : «قد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي ؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة ، والعشر عشر ذي الحجة . قاله مجاهد ، ومسروق ، وابن جريج ، وروي عن ابن عباس . فعلى هذا يكون قد كمل المِيقَات يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام ، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣)»^(٤) .

وقال القرطبي : «والفائدة في قوله : ﴿فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ ۖ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ - وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون - لثلاثاً يتوهم أن المراد : أتممنا الثلاثين بعشر منها ، فبين أن العشر سوى الثلاثين .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٦) .

(١) الأعراف : الآية (١٤٢) .

(٣) المائدة : الآية (٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦٨) .

فإن قيل : فقد قال في (البقرة) : ﴿أَرْبَعِينَ﴾^(١) ، وقال هنا : ﴿ثَلَاثِينَ﴾ فيكون ذلك من البداء ؟ قيل : ليس كذلك ؛ فقد قال : ﴿وَأَتَمَمْنَهَا بِعَشْرِ﴾ ، والأربعون ، والثلاثون ، والعشرة ، قول واحد ليس بمختلف . وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف ؛ قال : ﴿أَرْبَعِينَ﴾ في قول مؤلف ، وقال : ﴿ثَلَاثِينَ﴾ يعني شهراً متتابعاً وعشراً ، وكل ذلك أربعون ؛ كما قال الشاعر :

عشر وأربع

يعني أربع عشرة ليلة البدر ، وهذا جائز في كلام العرب^(٢) .

وقال : «قال علماؤنا : دلت هذه الآية على أن ضرب الأجل للمواعدة سنة ماضية ، ومعنى قديم أسسه الله تعالى في القضايا ، وحكم به للأمم ، وعرفهم به مقادير الثاني في الأعمال . وأول أجل ضربه الله تعالى الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات ، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُفُوفٍ﴾^(٣) . وقد بينا معناه فيما تقدم في هذه السورة من قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾^(٤) . قال ابن العربي : فإذا ضرب الأجل لمعنى يحاول فيه تحصيل المؤجل ، فجاء الأجل ولم يتيسر ، زيد فيه تبصرة ومعذرة . وقد بين الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام ، فضرب له أجلاً ثلاثين ، ثم زاده عشرًا تنمة أربعين ، وأبطأ موسى عليه السلام في هذه العشر على قومه ، فما عقلوا جواز الثاني والتأخر حتى قالوا : إن موسى ضلّ أو نسي ، ونكثوا عهده ، وبدلوا بعده ، وعبدوا إلهاً غير الله . قال ابن عباس : «إن موسى قال لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأخلف فيكم هارون ، فلما فصل موسى إلى ربه زاده الله عشرًا ، فكانت فتنهم في العشر الذي زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل ، على ما يأتي بيانه . ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدرة ، كما أن الأجل مقدر . ولا يكون إلا باجتهاد من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلقة بالأمر : من وقت وحال وعمل ، فيكون مثل ثلث المدة السالفة ، كما أجل الله لموسى . فإن رأى

(١) البقرة : الآية (٥١) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٧٥) .

(٣) ق : الآية (٣٨) .

(٤) الأعراف : الآية (٥٤) .

الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدة واحدة جاز، ولكن لا بد من التربص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر، قاله ابن العربي^(١) «(٢)».

وقال: «ودلت الآية أيضًا على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾؛ لأن الليالي أوائل الشهور. وبها كانت الصحابة رضي الله عنهم تخبر عن الأيام؛ حتى روي عنها أنها كانت تقول: «صمنا خمسًا مع رسول الله ﷺ»، والعجم تخالف في ذلك، فتحسب بالأيام؛ لأن معولها على الشمس. ابن العربي: وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك، ولهذا قال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ «(٣)».

قلت: وهذا الذي قرره هنا من الحساب والتاريخ بالليالي فيه نظر، ولا يسلم له؛ بل الأمر فيه سعة، فيؤخذ بالأنسب، وعلى حسب ما اقتضاه المقام.

وقد أرخ الله تعالى لوقائع عدة بالأيام؛ قال تعالى في حكاية قول اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْكَامًا مَّقْدُودَةً﴾ «(٤)» في (البقرة) و(آل عمران) (٢٤)، والنار تمس الكافرين ليلاً ونهاراً.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَقْدُودَاتٍ﴾ «(٥)» وهي أيام التشريق، وقال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ «(٦)» وهي أيام العشر؛ كما في صحيح البخاري عن ابن عباس، والذكر يقع في أيامها ولياليها.

وقال في حق زكريا حين طلب الآية: ﴿ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ «(٧)».

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ «(٨)» فأرخ بالأيام.

وأرخ لخلق السموات والأرض في ثمانية مواضع من كتابه ستة أيام في الأعراف (٥٤)، ويونس (٣) وق (٣٨) والفرقان (٥٩) والسجدة (٤) والحديد (٤) وهود (٦) وفصلت (١٠).

(١) انظر كلامه في «أحكام القرآن» (٢/ ٧٩٠-٧٩١).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٤) البقرة: الآية (٨٠).

(٥) البقرة: الآية (٢٠٣).

(٦) الحج: الآية (٢٨).

(٧) آل عمران: الآية (٤١).

(٨) آل عمران: الآية (١٤٠).

وأرخ للأمم الهالكة فقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(١).

وأرخ صالح عليه السلام لوقوع العذاب بقومه بالأيام فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾^(٢).

وجمع الله تعالى في التاريخ بين الليالي والأيام فقال: ﴿مِيزُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِينَ﴾^(٣) وفي (الحاقة): ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾^(٤).

وأرخ لعذاب عاد بالأيام فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾^(٥).

وقال تاريخاً لأيام الدنيا: ﴿هَنِيئًا بِمَا أَشْقَيْنَا فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾^(٦). والله أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في إعذار الحكام إلى المحكومين مرة بعد أخرى

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغه ستين سنة»^(٧).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا أيضاً أصل لإعذار الحكام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى. وكان هذا لطفًا بالخلق، ولينقذ القيّام عليهم بالحق. يقال: أعذر في الأمر؛ أي: بالغ فيه؛ أي: أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده. وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم؛ لتتم حجته عليهم؛ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٨)، وقال: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾^(٩)، قيل: هم الرسل. ابن عباس: هو الشيب؛ فإنه يأتي في سن الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سن الصبا. وجعل الستين

(٢) هود: الآية (٦٥).

(٤) ١: الآية (٧).

(٦) الحاقة: الآية (٢٤).

(٧) أخرجه: أحمد (٣٢٠/٢)، والبخاري (١١/٢٨٦-٢٨٧/٢٤١٩).

(١) يونس: الآية (١٠٢).

(٣) سبأ: الآية (١٨).

(٥) فصلت: الآية (١٦).

(٨) الإسراء: الآية (١٥).

(٩) فاطر: الآية (٣٧).

غاية الإعذار؛ لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقب المنية ولقاء الله؛ ففيه إعدار بعد إعدار: الأول بالنبى ﷺ، والثاني: بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين؛ قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾^(١)، فذكر ﷺ أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها. قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا، ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس»^(٢).

* * *

(١) الأحقاف: الآية (١٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «يعني أن موسى لما أراد الذهاب لميقات ربه، استخلف عليهم أخاه الكبير هارون -عليهما السلام- للحكم بينهم، والإصلاح فيهم، إذ كانت الرياسة فيهم لموسى، وكان هارون وزيره، ونصيره، ومساعدته؛ كما سأل ربه بقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ﴾^(٢) هَارُونَ أَخِي^(٣) أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى^(٤) وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي^(٥)»^(٦).

قال أبو حيان: «أمره حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها أن يكون خليفته في قومه، وأن يصلح في نفسه، أو ما يجب أن يصلح من أمر قومه، ونهاه أن يتبع سبيل من أفسد. وفي النهي دليل على وجود المفسدين. ولذلك نهاه عن اتباع سبيلهم. وأمره إياه بالإصلاح، ونهيه عن اتباع سبيل المفسدين، هو على سبيل التأكيد، لا لتوهم أنه يقع منه خلاف الإصلاح واتباع تلك السبيل؛ لأن منصب النبوة منزّه عن ذلك. ومعنى ﴿أَخْلُفْنِي﴾ استبد بالأمْر، وذلك في حياته إذ راح إلى مناجاة ربه، وليس المعنى: أنك تكون خليفتي بعد موتي. ألا ترى أن هارون عليه السلام مات قبل موسى، عليهما السلام، وليس في قول الرسول ﷺ علي: «أنت مني كهارون من موسى» دليل على أنه خليفته بعد موته؛ إذ لم يكن هارون خليفة بعد موت موسى، وإنما استخلف الرسول علياً على أهل بيته إذ سافر الرسول ﷺ في بعض مغازيه؛ كما استخلف ابن أم مكتوم على المدينة، لم يكن في ذلك دليل على أنه يكون خليفة بعد موت الرسول»^(٧).

(٢) طه: الآيات (٢٩-٣٢).

(١) الأعراف: الآية (١٤٢).

(٣) تفسير المنار (٩/١٢١).

(٤) البحر المحيط (٤/٣٧٩-٣٨٠).

قال ابن عاشور: «وقد جمع له في وصيته ملاك السياسة بقوله: ﴿وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحًا، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره، فإن عادت بالصلاح عليه وبضده على غيره، لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أن تؤول فسادًا على من لا حت عنده صلاحًا، ثم إذا تردد فعل بين كونه خيرًا من جهة، وشرًا من جهة أخرى، وجب اعتبار أقوى حالتيه فاعثربها إن تعذر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفر صلاحًا، وإن استوى جهته الغي إن أمكن إلغاؤه، وإلا تخير، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان منزلة علي رضي الله عنه وبعض فضائله

* عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف عليًا، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «وقوله -عليه الصلاة والسلام- لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»: مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة وبعض المعتزلة؛ في أن الخلافة كانت حقًا لعلي، واستخلاف النبي عليه الصلاة والسلام له لذلك بهذا الحديث وأشباهه مما احتجوا به.

ثم اختلفوا بعد في تقديم غيره، فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره، ثم كفر بعضهم عليًا؛ لأنه لم يقم في طلب حقه، وهؤلاء استحق مذهبنا أن لا يرد عليهم، وقد قالوا بأشنع من هذا فيمن هو أفضل ممن ذكرنا، ولا امتراء في كفر

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٨٧-٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٨٢-١٨٤)، والبخاري (٨/ ١٤١/ ٤٤١٦)، ومسلم (٤/ ١٨٧٠/ ٢٤٠٤)، والترمذي (٥/ ٣٧٢٤/ ٥٩٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٤/ ٨١٤٠).

القائلين بهذا؛ لأن من كفر الأمة كلها والصدر الأول فقد أبطل نقل الشريعة وهدم الإسلام، وأما من عداهم فإنهم لا يسلكون هذا. فأما الإمامية وبعض المعتزلة فتخطئهم، وأما بعض المعتزلة فلا يقول ذلك لقولها بجواز تقديم المفضول على الفاضل في الإمامة على ما تقدم من الخلاف في ذلك.

وهذا الحديث بكل حال لا حجة فيه لأحد منهم، بل فيه من فضائل علي ومنزلته ما لا يحيط من منزلة غيره، وليس في قوله هذا دليل على استخلافه بعده؛ لأنه إنما قال له حين استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، فقال له ذلك لا لاستخلافه بعده، بدليل أن هارون الذي يستشهد به لم يكن خليفة بعد موسى، وإنما مات في حياته، وقبل موت موسى بنحو أربعين سنة على ما قال أهل الخبر، إنما استخلفه موسى حين ذهب لمناجاة ربه فقال له: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كما نص الله تعالى.

وقوله: «غير أنه لا نبي بعدي» معناه -والله أعلم- لما ذكر.

قوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»: يريد في تقديمه على من يخلفه، استثنى من حال هارون بعض صفاته وهي النبوة؛ لأن هارون كان نبياً، وقد أعلم النبي -عليه الصلاة والسلام- أنه لا نبي بعده، ومعناه منذ بعث؛ أي: بعد مبعثه انقطعت النبوة فلا نبي حتى تقوم الساعة.

وفي طي ذلك تنبيهه -عليه الصلاة والسلام- على ما اقترفه غلاة الرافضة على علي من النبوة حتى ترقى بعضهم فيه إلى دعوى ألوهيته من زمنه عليه السلام إلى أيامنا هذه، وقد حرق بعضهم عليه السلام على هذه الدعوة، فزادهم ذلك ضللاً، وقالوا: الآن تحققنا أنه الله؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا الله؛ فلهذا خص هذا الكلام في شأن علي دون أبي بكر وعمر وغيرهم إذ لم يدع ذلك أحد لهم ولا اعتقده فيهم.

وفيه بيان أن عيسى حين نزوله لا يكون رسولاً لهذه الأمة ولا مجددًا شريعة، وإنما يأتي بالحكم بشريعة محمد -عليه الصلاة والسلام^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
إِلَيْكَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بما كلمه، من وحيه وأمره ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه، واشتياقاً لرؤيته.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى، أنشأ الخلق في هذه الدار، على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبتون لرؤية الله.

وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة؛ فإنه قد دلت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى.

ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال مقنعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ إذا تجلى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرِنِي﴾^(٢).

قال ابن عثيمين: «أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته، وذلك لأن الكلام صار حين المجيء، لا سابقاً عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته.

فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وإنه لا يتعلق بمشيئته؛ كما تقوله الأشاعرة.

وفي هذه الآية إبطال زعم من زعم أن موسى فقط هو الذي كلم الله، وحرف

(١) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٧-٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١) إلى نصب الاسم الكريم؛ لأنه في هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها^(٢).

قال القنوجي: «قال الزمخشري: تكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام، كما خلقه محفوظاً في الألواح، انتهى. وإليه ذهب المعتزلة، وهو مذهب فاسد، يردّه الكتاب والسنة، وأين للشجر وذلك الجرم أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾^(٣) الآية؟

وذهب الحنابلة ومن وافقهم من أهل الحديث أن كلامه تعالى حروف وأصوات مقطعة، وأنه قديم، وهو الحق، وقد نطق به السنة المطهرة، وقال جمهور المتكلمين: إن كلامه صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات، وأرادوا به الكلام النفسي. ولا توجد له رائحة في السنة المطهرة، وكذا ما ذكره الشيخ في «التأويلات»: أن موسى سمع صوتاً دالاً على كلام الله، وهو ظاهر البطلان لمخالفة نص القرآن.

وقد سكت جمع من السلف والخلف عن الخوض في تأويل صفة كلام الله تعالى. وقالوا: إنه متكلم بكلام قديم يليق بذاته بحرف وصوت لا يشبه كلام المخلوق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٤)، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٥)،^(٦).

وقد تقدم الكلام على صفة الكلام لله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ الآية (١٦٤) من سورة (النساء)، فليراجعه من شاء.

(١) النساء: الآية (١٦٤).

(٢) شرح الواسطية (مجموع الفتاوى ٣٥٨/٨).

(٣) طه: الآية (١٤).

(٤) الشورى: الآية (١١).

(٥) الروم: الآية (٢٧).

(٦) فتح البيان (٩/٨-٩).

قوله تعالى : ﴿لَنْ تَرَنِى وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِى﴾^(١)

★ غريب الآية :

فإن استقر مكانه : أي : فإن ثبت الجبل مكانه وسكن .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني : «لَنْ تَرَنِى» يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه ، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حيًّا في دار الدنيا ، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترًا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة .

ومنهج الحق واضح ، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب ، والمتعصب وإن كان بصره صحيحًا فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقّي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم .

وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع ، فإنه صار بها باب الحق مرتجًا وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه والهداية منه .

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

... وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والأشعرية ، فالمعتزلة استدلوا

بقوله : ﴿لَنْ تَرَنِى﴾ كما تقدم ، وبأمره بأن ينظر إلى الجبل . والأشعرية قالوا : إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة ، ولا يخفأك أن الرؤية

(١) الأعراف : الآية (١٤٣) .

الأخرية هي بمعزل عن هذا كله، والخلاف بينهم هو فيها، لا في الرؤية في الدنيا، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة، وكلامهم فيها معروف^(١).

قال القنوجي: «وقد تمسك أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية، وقالوا: (لن) للتأييد والدوام، وهذا غلط؛ إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة العربية ولم يقل به أحد منهم. والكتاب والسنة على خلاف ذلك؛ فقد قال تعالى في حق اليهود: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾^(٢) مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿يَلْتَمِتْهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾^(٤)، والسنة أكثر من أن تحصى^(٥).

قال ابن القيم: «قد أخبر الله سبحانه عن أعلم الخلق به في زمانه، وهو كليمه ونجيه وصفيه من أهل الأرض أنه سأل ربه تعالى النظر إليه، فقال له ربه تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل ما هو من أبطل الباطل، وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان، والصابئة، والفرعونية، بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، وأشد تنزيها له منه؟!!

الوجه الثاني: أن الله ﷻ لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه. ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، لم ينكر عليه، ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء، لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه، أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٦) قَالَ رَبِّي إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي

(١) فتح القدير (٢/ ٣٤١-٣٤٢).

(٢) البقرة: الآية (٩٥).

(٣) الزخرف: الآية (٧٧).

(٤) الحاقة: الآية (٢٧).

(٥) فتح البيان (٥/ ١٠).

أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ»^(١).

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾، ولم يقل: لا تراني، ولا: إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله. وهذا يدل على أنه ﷺ يرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾، فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟

الوجه الخامس: أن الله ﷻ قادر على أن يجعل الجبل مستقرًا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية محالًا لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف أكل وأشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا بَجَلَى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى؛ فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد، لا ثواب له ولا عقاب عليه، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته، ويريههم نفسه؟ فأعلم ﷻ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ﷻ قد كلمه منه إليه، وخاطبه، وناجاه، وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم. وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يكلم أحدًا، أو يراه أحد، ولهذا سأل موسى ﷺ النظر إليه لما أسمعته كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأل لا يقدر على احتمالها، كما لم يثبت الجبل لتجليه»^(٢).

(١) هود: الآيتان (٤٦ و ٤٧).

(٢) حادي الأرواح (ص: ١٩٦-١٩٨).

وقال الشنقيطي: «استدل المعتزلة النافون لرؤية الله بالأبصار يوم القيامة بهذه الآية على مذهبهم الباطل، وقد جاءت آيات تدل على أن نفي الرؤية المذكور، إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرونه - جل وعلا - بأبصارهم؛ كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۚ إِنَّ رَبَّهَا نَظِيرَةٌ﴾^(١)، وقوله في الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوُونَ﴾^(٢)؛ فإنه يفهم من مفهوم مخالفته أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه - جل وعلا -.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(٣): «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم»^(٤)، وذلك هو أحد القولين في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(٥)، وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، وتحقيق المقام في المسألة: أن رؤية الله - جل وعلا - بالأبصار: جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلة على جوازها عقلاً في دار الدنيا: قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(٦)؛ لأن موسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق الله تعالى، وأما شرعاً فهي جائزة وواقعة في الآخرة؛ كما دلت عليه الآيات المذكورة، وتواترت به الأحاديث الصحاح، وأما في الدنيا فممنوعة شرعاً كما تدل عليه آية (الأعراف) هذه، وحديث «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»^(٧)؛ كما أوضحناه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»^(٨).

(١) القيامة: الآيتان (٢٢ و ٢٣).

(٢) المطففين: الآية (١٥).

(٣) يونس: الآية (٢٦).

(٤) أخرجه من حديث صهيب رضي الله عنه: أحمد (٣٣٢-٣٣٣/٤)، ومسلم (١٦٣/١)، والترمذي (٥٩٣/٤).

(٥) (٢٥٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣٦١-٣٦٢/٦)، وابن ماجه (١٨٧/٦٧).

(٦) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٧) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أبو داود (٤٩٥-٤٩٦/٤٣٢٠).

(٨) أضواء البيان (٣٣٢/٢).

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا
وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا ۖ ﴾^(١)

★ غريب الآية:

تجلى : أي : ظهر وبدا .

جعله دكًا : أي : جعله أرضًا مستوية ، لا أكمة فيها . ومنه : ناقة دكاء : أي :
لا سنام لها ، وأرض دكاء مسواة .
وحرَّ موسى صعقًا : أي : سقط مغشيًا عليه .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : فلما اطلع الرب للجبل جعل الله الجبل
دكًا ؛ أي : مستويًا بالأرض ، ﴿ وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا ۖ ﴾ أي : مغشيًا عليه »^(٢) .
قال ابن القيم في قوله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ۖ ﴾ : « هذا من
أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى ، فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو
جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه ، في
دار كرامته ، ويريهم نفسه ؟ فأعلم ﷺ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه
الدار ، فالبشر أضعف »^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في فضيلة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام

✽ عن أنس : « أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ۖ ﴾

(٢) جامع البيان (٩/ ٥٢) .

(١) الأعراف : الآية (١٤٣) .

(٣) حادي الأرواح (ص : ١٩٧-١٩٨) .

دَكَاءٌ، قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى، قال: فساخ الجبل، وخرّ موسى صَعِقًا^(١).

★ فوائد الحديث:

قوله: «قال حماد: هكذا»: قال السندي: «يعني أنه أخرج طرف الخنصر، بيانا للتجلي، ولعل المراد به، أنه تجلى له أدنى تجلي، كأنه بمنزلة إخراج الخنصر من الإنسان، وقد قررنا مرارًا أن الوجه في أمثال هذه الأحاديث التفويض والتسليم مع الإيمان بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢)»^(٣).

قوله: «فساخ الجبل»: قال ابن جرير: «ولم يقل: فتفتت، ولا تحول ترابًا، ولا شك أنه إذا ساخ فذهب ظهر وجه الأرض، فصار بمنزلة الناقة التي قد ذهب سنامها، وصارت دكاء بلا سنم، وأما إذا دك بعضه فإنما يكسر بعضه بعضًا، ويتفتت ولا يسوخ،... فمعنى الكلام إذا: فلما تجلى ربه للجبل ساخ، فجعل مكانه أرضًا دكاء»^(٤).

وفي الحديث كما في الآية: إثبات التجلي لله ﷻ، على الوجه اللائق بجلاله وجماله ﷻ، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، على ما نطق به كتاب ربنا ﷻ، وأكدته سنة نبينا ﷺ، خلافاً لمن نفاه من المعتزلة، جرياً على مذهبهم الباطل في نفي الصفات عموماً، وفي نفي صفة الرؤية خصوصاً، وخلافاً للأشاعرة الذين اختلف مسلكهم في نفي هذه الصفة، -كغيرها من الصفات التي على شاكلتها- بين متأول لها، بما يخالف مقتضى لفظ الآية، وبين مفوض متظاهر بالإثبات، وكلا مسلكي نفاة الصفات باطل، مناقض للقرآن والسنة، ودلالة نصوصهما، ولمراد الله ورسوله ﷺ من كلامهما، وبهذا تعلم أن القول بالتفويض والتأويل، اللذين يزعم أصحابهما أنهم متبعون للسنة، وعلى سبيل السلف الصالح، من شر أقوال أهل البدع والزيغ والإلحاد والضلال.

(١) أخرجه: أحمد (٢٠٩/٣)، والترمذي (٣٠٧٤/٢٤٨/٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح، لا نعرفه

إلا من حديث حماد بن سلمة»، وصححه الحاكم (٣٢٠-٣٢١/٢) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) حاشية المسند (٢٨٢/١٩).

(٣) الشورى: الآية (١١).

(٤) جامع البيان (٥٤/٩).

قال محمد الجامي: «وأما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن الله يتجلى لعباده في الموقف، وفي الجنة من فوقهم، ويخاطبهم، ويسلم عليهم، ويرونه بأبصارهم كما يرون الشمس، ليس دونها سحاب»^(١).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم! ضرب وجهي رجل من أصحابك. فقال: من؟ قال: رجل من الأنصار. قال: ادعوه. فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد ﷺ؟ فأخذتني غصبة ضربت وجهه. فقال النبي ﷺ: لا تخيروني بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، أو حوسب بصعقة الأولى»^(٢).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: فضيلة ظاهرة لموسى عليه الصلاة والسلام. قال أبو العباس القرطبي: «قد تحصل من هذا الحديث: أن نبينا محمداً ﷺ محقق أنه أول من يفيق، وأول من يخرج من قبره قبل الناس كلهم، الأنبياء وغيرهم، إلا موسى ﷺ فإنه حصل له فيه تردد، هل بعث قبله، أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق؟ وعلى أي الحالين كان، فهي فضيلة عظيمة لموسى ﷺ، ليست لغيره، والله تعالى أعلم»^(٣).

وقال أبو عبد الله القرطبي: «وهذه فضيلة عظيمة لموسى ﷺ، ولا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى ﷺ على محمد ﷺ مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً، والله أعلم»^(٤).

وقد استشكل ظاهر قوله ﷺ هنا: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة... إلخ،

(١) الصفات الإلهية (ص: ٣٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٠-٤١)، والبخاري (٨٩/٥-٩٠/٩٢)، ومسلم (١٨٤٥/٤-٢٣٧٤)، وأبو داود (٤٦٦٨/٥١/٥).

(٣) المفهم (٢٣٤/٦).

(٤) التذكرة (ص: ١٦٩).

بالأحاديث الدالة على أن موسى عليه السلام قد توفي ، وأن نبينا ﷺ رآه في قبره ، وسيأتي إن شاء الله تعالى توجيه ذلك ، وبسط الخلاف فيه ، وبيان وجه الصواب من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ الآية (٦٨) من سورة (الزمر) ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا : «أي : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ موسى من غشيه ، والتعبير بالإفاقة يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصعق بالغشي ، وبطلان تفسير قتادة له بالموت ، وقال به بعض شذاذ الصوفية وادعوا أنه رأى ربه فمات ، أو مات ثم رأى ربه ، ولو مات لقال تعالى : (فلما بعث) إلخ ، كما قال في السبعين الذين اختارهم من قومه ، وذهبوا معه إلى الجبل وطلبوا منه أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ؛ فإنه قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٢) كما في سورة (البقرة) ، وسيأتي خبرهم في هذه القصة من هذه السورة . ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ ﴾ أي : تنزيها لك وتقديسا عما لا ينبغي في شأنك مما سألتك أو من لوازمه ، أو كما حكى تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾^(٣) ، وأكثر مفسري أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى ، ونفي العلم إنما يصح عندهم بمعنى أن ما سأل غير ممكن ، أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا ، لا أنه غير ممكن في نفسه وغير واقع البتة ولا في الآخرة . ومعنى التوبة : الرجوع ، والمراد هنا : الرجوع عما طلب ، إلى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الأدب . قال مجاهد : ﴿ بُتُّ إِلَيْكَ ﴾ أن أسألك الرؤية ، ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : «أي : من بني إسرائيل» ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس : «وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد» ، ذكرهما الحافظ ابن كثير وقال : وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك

(١) الأعراف : الآية (١٤٣) .

(٢) البقرة : الآية (٥٦) .

(٣) هود : الآية (٤٧) .

إلى يوم القيامة . قال : وهذا قول حسن له اتجاه . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحق بن يسار ، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات ، والله أعلم^(١) .

قال أحمد بن المنير : «أما تسبيح موسى ﷺ فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف في خبره الحق ، وقوله الصدق ، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقُدس علمه وخبره عن الخُلف . وأما التوبة في حق الأنبياء ، فلا تستلزم كونها عن ذنب ؛ لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرأً من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل^(٢) .

(١) تفسير المنار (٩/١٢٦) .

(٢) الإنصاف (٢/١١٥ الكشاف) .

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي
فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾

★ غريب الآية:

اصطفيتك: أي: اخترتك واختصصتك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن موسى عليه السلام لما طلب الرؤية، ومنعه الله منها، عدد الله عليه وجوه نعمه العظيمة التي له عليه، وأمره أن يشتغل بشكرها، كأنه قال له: إن كنت قد منعتك الرؤية، فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا، فلا يضق صدرك بسبب منع الرؤية، وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها واشتغل بشكرها. والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية، وهذا أيضًا أحد ما يدل على أن الرؤية جائزة على الله تعالى؛ إذ لو كانت ممتنعة في نفسها لما كان إلى ذكر هذا القدر حاجة»^(١).

قال الشوكاني: «امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره أن يأخذ ما آتاه؛ أي: أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم، والإكرام الجليل»^(٢).

قال الرازي رحمه الله: «فإن قيل: كيف اصطفاه على الناس برسالاته مع أن كثيرًا من الناس قد ساواه في الرسالة؟ قلنا: إنه تعالى بين أنه خصه من دون الناس، بمجموع الأمرين، وهو الرسالة مع الكلام بغير واسطة، وهذا المجموع ما حصل لغيره، فثبت أنه إنما حصل التخصيص ههنا لأنه سمع الكلام بغير واسطة، وإنما

(١) مفاتيح الغيب (١٤/٢٤٥).

(٢) فتح القدير (٢/٣٤٣).

كان الكلام بغير واسطة سبباً لمزيد الشرف، بناءً على العرف الظاهر؛ لأن من سمع كلام الملك العظيم، من فلق فيه، كان أعلى حالاً، وأشرف مرتبة ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان اصطفاء الله تعالى لموسى عليه السلام

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيبتك من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق؟ فقال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى، مرتين»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قوله: «أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته»:

قال الحافظ: «الغرض منه شهادة آدم لموسى أن الله اصطفاه»^(٣).

قال العيني: «أي: أخلصك الله بذلك، ويقال: جعلك خالصاً صافياً عن شائبة ما لا يليق بك، وفيه تلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾»^(٤)،^(٥).

وقال الباجي: «يريد -والله أعلم-: أثره بالرسالة على من لم يرسله، وهذا كله على وجه التقرير له على فضله الذي لا يقتضي الإصابة في حاجته، وأن لا يلوم أباه على ما يعي واسع علمه وفضله ولومه عليه»^(٦).

قال الغنيان: «وفرق بين الرسالة والتكليم، فهو -أي التكليم- قدر زائد على الرسالة؛ لأنها تحصل بإرسال ملك أو بالوحي، وأما التكليم فهو بإسماعه كلامه، وهذا الذي اختص به موسى من بين الرسل، فدل هذا على أن الله تعالى كلمه بدون

(١) مفاتيح الغيب (٢٤٦/١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٤٨/٢)، والبخاري (٥٤٥/٦)، ومسلم (٢٠٤٢/٤)، وأبو داود (٧٦/٥).

(٣) ففتح الباري (٥٥١/٦).

(٤) (٨٠).

(٥) عمدة القاري (١٦٠/١٣).

(٦) النساء: الآية (١٦٤).

(٦) المتقي شرح الموطأ (٢٠١/٧).

واسطة، بل أسمع كلامه منه إليه، وهو أمر واضح»^(١).

قال الحافظ: «وفيه استعمال التعريض بصيغة المدح، يؤخذ ذلك من قول آدم لموسى: «أنت الذي اصطفاك الله برسالته». . إلى آخر ما خاطبه به؛ وذلك أنه أشار بذلك إلى أنه اطلع على عذره وعرفه بالوحي، فلو استحضر ذلك ما لame مع وضوح عذره»^(٢).

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/٣٣١).

(٢) فتح الباري (١١/٦٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

الألواح: جمع لوح، وهو ما يكتب فيه.
موعظة: الموعظة: اسم من الوعظ، وهو زجر مقترن بتخويف. وقيل: هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب.
سأريكم دار الفاسقين: ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون التي هلكت. وقيل: جهنم. وقيل: مصر؛ أي: سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خالية عنهم. وقيل: الشام. وهذان القولان يدل عليهما: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾^(١).

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكتبنا لموسى في ألواح، وأدخلت الألف واللام في ﴿الْأَلْوَاحِ﴾ بدلاً من الإضافة، كما قال الشاعر:
والأحلام غير عواذب
وكما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(٢)؛ يعني: هي مأواه.
وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: من التذكير والتنبيه على عظمة الله وعز سلطانه، ﴿مَوْعِظَةً﴾ لقومه ومن أمر بالعمل بما كتب في الألواح، ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: وتبييناً لكل شيء من أمر الله ونهيه»^(٣).
وقال: «قوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾: يقول -تعالى ذكره-: وقلنا لموسى إذ

(١) الأعراف: الآية (١٣٧).

(٢) النازعات: الآية (٤١).

(٣) جامع البيان (٥٧/٩).

كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء : خذ الألواح بقوة .
وأخرج الخبر عن الألواح والمراد ما فيها .

واختلف أهل التأويل في معنى القوة في هذا الموضع ، فقال بعضهم : معناها :
بجدّ . . .

وقال آخرون : معنى ذلك : فخذها بالطاعة لله^(١) .

وقال : «قوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ : يقول -تعالى ذكره- : قلنا
لموسى : وأمر قومك بني إسرائيل يأخذوا بأحسنها ، يقول : يعملوا بأحسن ما
يجدون فيها . . .

فإن قال قائل : وما معنى قوله : ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أكان من خصالهم
ترك بعض ما فيها من الحسن ؟

قيل : لا ، ولكن كان فيها أمر ونهي ، فأمرهم الله أن يعملوا بما أمرهم بعمله ،
ويتركوا ما نهاهم عنه ، فالعمل بالمأمور به أحسن من العمل بالمنهي عنه .

وقوله تعالى : ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ : يقول -تعالى ذكره- لموسى إذ كتب في
الألواح من كل شيء : خذها بجد في العمل بما فيها واجتهاد ، وأمر قومك يأخذوا
بأحسن ما فيها ، وانههم عن تضييعها وتضييع العمل بما فيها والشرك بي ؛ فإن من
أشرك بي منهم ومن غيرهم فإنني سأريه في الآخرة عند مصيره إلى ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾
وهي نار الله التي أعدها لأعدائه .

وإنما قال : ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً
إلام يصير إليه حال من خالف أمري ، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف
أمره .

وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك . . .
وقال آخرون : معنى ذلك : سأدخلكم أرض الشام ، فأريكم منازل الكافرين
الذين هم سكانها من الجبابرة والعمالقة . . .

وقال آخرون : معنى ذلك : سأريكم دار قوم فرعون ، وهي مصر . . .

(١) المصدر السابق (٩/٥٨) .

ولأنما اخترنا القول الذي اخترناه في تأويل ذلك؛ لأن الذي قبل قوله -جل ثناؤه-: ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أمر من الله لموسى وقومه بالعمل بما في التوراة، فأولى الأمور بحكمة الله تعالى أن يختم ذلك بالوعيد على من ضيعه، وفرط في العمل لله، وحاد عن سبيله، دون الخبر عما قد انقطع الخبر عنه، أو عما لم يجر له ذكر^(١).

قال الشوكاني: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢)، وقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٣)، ومن الأحسن: الصبر على الغير، والعفو عنه، والعمل بالعزيمة دون الرخصة، والفريضة دون النافلة، وفعل المأمور به، وترك المنهي عنه^(٤).

وقال محمد رشيد رضا: «والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارئ لهذه الآية من وجوه:

أحدها: أن الكتاب الإلهي يجب أخذه بقوة وإرادة وجد وعزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً، ويتأكد ذلك في الرسول المبلغ له والداعي إليه والمنفذ له بقوله وعمله، ليكون لقومه فيه أسوة حسنة. وتلك سنة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وإن لم تكن بهداية الدين، والدين أحوج إلى القوة والعزيمة؛ لأنه إصلاح للظاهر والباطن جميعاً، وقد أمر الله تعالى بني إسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب أو ميثاق الكتاب بقوة، أمراً مقروناً بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم، كما تقدم في سورة (البقرة)^(٥)، وسيأتي مثله في هذه السورة (الأعراف)، وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم التي كان لها من القوى العددية والحربية والنظامية والمالية والصناعية ما ليس لهم، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى لا بالتغني بقراءته في المحافل، ولا بالتبرك المحض بالمصحف، كما يفعل

(١) المصدر السابق (٩/٥٨-٥٩).

(٢) الزمر: الآية (٥٥).

(٣) الزمر: الآية (١٨).

(٤) فتح القدير (٢/٣٤٣).

(٥) البقرة (٦٣) و(٩٣).

مقلدة الخلف الطالح، إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به في الدنيا والآخرة، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالإعراض عنه وهجر هدايته في الدنيا والآخرة، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾.

ثانيها : أن سبب تخويف بني إسرائيل عند تبليغهم الميثاق الإلهي بوقوع الجبل بهم، وأمرهم في تلك الحال أن يأخذه بقوة هي أن أحكام التوراة التي أخذ عليهم الميثاق بأخذها بقوة شاقة حرجة، وحكمة ما فيها من الشدة والحرص أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال كثيرة، وكان القوم أو الأقوام الذين وعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين أولي قوة وأولي بأس شديد، وكان من سنة الله تعالى في البشر أن تترى أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر، والجهد بالمال والنفس، ولهذا أمر الله تعالى موسى ﷺ أن يسير ببني إسرائيل في طريق التيه، وهو الجنوبي من برية سيناء، دون الطريق الشمالي القريب من مدن فلسطين؛ إذ لم يكن لهم طاقة بقتال جباري الكنعانيين وقتئذ، فكتب الله تعالى عليهم التيه أربعين سنة ملك في أثنائها الذين استذلهم المصريون، ونشأ من صغارهم ومواليدهم جيل جديد تربى في حجر الشرع الجديد، والته الشديد، كما بيناه في تفسير سورة (المائدة).

ثالثها : أن الإسرائيليين قد عظم ملكهم بإقامة شريعتهم بقوة حتى إذا غلب الغرور على العمل وظنوا أن الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو (شعب الله)؛ فسقوا وظلموا، فأنزل الله بهم البلاء، وسلط عليهم البابليين الأقوياء، فثلوا عرشهم وتبروا ملكهم، ثم تابوا إلى رشدهم، فرحمهم الله وأعاد لهم بعض ملكهم وعزهم، ثم ظلموا وأفسدوا، فسלט عليهم النصارى، فمزقوهم كل ممزق، فظلوا عدة قرون متكئين على المسيح الموعود ليعيد لهم ملكهم بخوارق العادات، ثم ربّتهم الشدائد، ونورهم العلم العصري، فطفقوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما في الإمكان من الأسباب، وفي مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء، مع

المحافظة على التقاليد الدينية في ذلك ، حتى انتهى بهم السعي إلى استخدام الدولة البريطانية بما فصلناه في بيان العبرة في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ^(١) من هذه السورة ^(٢) .

رابعها : أن المسلمين الذين اتبعوا سننهم وسنن النصارى شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع في الضر دون النفع ، كما فصلناه في غير هذا الموضع ، قد اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب (الإسلام) ولقب (أمة خاتم الرسل) ﷺ ، ولكنهم لما يثوبوا إلى رشدهم ؛ لأن الذين سلبوا ملكهم وعزهم لم يسوسوهم بشدة مربية كافية ، بل اجتهدوا في إفساد عقائدهم وأخلاقهم ، وإيقاع الشقاق والتفريق فيما بينهم ، بل أفسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم ، بتوليهم التربية والتعليم لكثيرين منهم ، كانوا عوناً لهم على ما يريدون من ثل عروشهم والسيادة عليهم بالتدريج ، كالعثمانيين والمصريين ، كما فصلناه في مواضع أخرى ، ولا يزال هؤلاء المتفرنجون المخربون يجدون في قتل هذه الأمة ، وهم يظنون أنهم يجددون ، ويفسدون عليها أمرها ، ويحسبون أنهم يصلحون ، ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٣) ^(٤) .

قلت : هذا التفسير الذي أشار إليه الشيخ محمد رشيد رضا في الآية وأن الله تعالى يقبل من الإنسان إخلاصه وحسن عمله ومتابعته لأنبيائه ورسله ، ولا ينظر إلى نسبه وشرفه وأنه من سلالة كذا وقبيلة كذا أو بلد كذا ؛ فإن هذه أمور فيها دلالة على آياته تبارك وتعالى ، لا أنها مفخرة يقف عندها الإنسان ويتغنى بها بالليل والنهار ، فيترك السنن الكونية والسنن الشرعية فلا يأخذ بأسباب النجاة ولا يطيع نبياً ولا رسولاً في أمر ولا نهى وهذا الواقع تمثل في اليهود ، وكان لهم النصيب الأوفر لما ابتلوا به من رعونة وحماسة وسفه ، وزعموا أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه !! وكان للنصارى مثله في بعض الأوقات ولكنهم اهتموا بالأخذ بالأسباب المادية ، فكونوا حضارة قوية تتصف بالعدة وبالعدد ، فغلبوا على الأمم بما أوتوا من جدية وأخذ بقوة الأسباب . وأما المسلمون فصدرهم الأول الذين جمعوا بين الأسباب المادية وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتحكيم شرعه ؛ كان لهم من الملك والخلافة ما لم يكن لأمة قبلهم ولا كان لمن بعدهم حتى الآن ، وبعد هذا

(١) الأعراف : الآية (١٣٧) .

(٢) انظر تفسير المنار (٩/ ١٠٢-١٠٤) .

(٣) البقرة : الآية (١٢) .

(٤) تفسير المنار (٩/ ١٩٣-١٩٥) .

ضعف حالهم ، وبدأ يضعف شيئاً فشيئاً ، فصار حالهم إلى أن دخلهم الإفرنج ، فحكم بلادهم ، وصادر خيراتهم ، ومحا هويتهم ، ولم يبق في بلادهم غالباً إلا اسم الإسلام وبعض رسمه ، وخلفهم في الإجهاز على أمة الإسلام تلامذتهم ، وورثتهم من أبناء الأمة ، فزادوا في الطين بلة ، وأصبحت الاستقامة في بلاد الإسلام جريمة كبرى ، وكل من استقام على أمر الله فهو في سجل المجرمين في نظرهم !! ويجب أن يتابع متابعة دقيقة إما بمضايقته ، أو التحذير منه ، وأحياناً سجنه وضربه وقتله !! وأصبح أمر الفرائض وأداؤها جريمة كبرى !! ولا سيما صلاة الصبح !! وهكذا التزبي بزي الإسلام وسمته بكل ما في الكلمة من معنى ، وأصبح الرعب والإرهاب لأهل الإسلام في ديارهم وبلادهم ؛ فالمسلم المستقيم لا يأمن على نفسه أن يؤخذ غرة في لحظة من ليل أو نهار ، وهذا الواقع هو في معظم البلاد الإسلامية ، وفي بعضها متنفس ؛ بل بعضها ينصر الإسلام ويبعث المسلم فيها آمناً مطمئناً ، فنرجو الله أن ترجع للإسلام قوته ومهابته ، ويعبده المسلم فيها على أمن واطمئنان ؛ لا على خوف وهلع وكأنه من كبار المجرمين ، والله المستعان .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر ألواح موسى عليه السلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما ، فحج آدم موسى . قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ؟ فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجياً ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاماً . قال آدم : فهل وجدت فيها : (وعصى آدم ربه فغوى) ؟ قال : نعم . قال : أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى»^(١) .

* فوائد الحديث :

قال القرطبي : «وقوله : «وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء» يعني : الألواح

(١) أخرجه : البخاري (١١/٦١٨/٦٦١٤) ، ومسلم (٤/٢٠٤٣/٢٦٥٢/١٥) واللفظ له . وقد تقدم قريباً تخريجه موسعاً .

التي قال الله تعالى فيها : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، وهي جمع لوح ، بفتح اللام ، وسُمِّي بمصدر لاح الشيء يلوح لوحًا : إذا ظهر ، وسُمِّي بذلك لظهور ما يُكتب فيه . فأما اللوح ، بضم اللام : فهو ما بين السماء والأرض . . .

وقوله : «فيها تبيان كل شيء» أي : كل شيء قصد إلى تبيينه ، أو من كل نوع شيئًا ، أو من كل أصل فرعًا^(١) .

وقال الطيبي : «فيها تبيان كل شيء» أي : أعطاك التوراة فيها تبيان لكل شيء من الإخبار بالغيوب ، والقصص ، والحلال ، والحرام ، والموعظة ، وغير ذلك ، وهو من قوله تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢) .

قال الحافظ : «وفي هذا الحديث عدة من الفوائد . . . منها : إطلاق العموم وإرادة الخصوص في قوله : «أعطاك علم كل شيء» ، والمراد به كتابه المنزل عليه وكل شيء يتعلق به ؛ وليس المراد عمومه ؛ لأنه قد أقر الخضر على قوله : «واني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت»^(٣)»^(٤) .

(١) المفهم (٦/٦٦٦-٦٦٧) .

(٢) الكاشف عن حقائق السنن (٢/٥٣٢) .

(٣) أخرجه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه : أحمد (٥/١١٧-١١٨) ، والبخاري (٨/٥٢٢/٤٧٢٥) ، ومسلم (٤/

١٨٤٧-١٨٥٠/٢٣٨٠) ، والترمذي (٥/٢٨٩-٢٩٢/٣١٤٩) ، والنسائي في الكبرى (٦/٣٨٩-٣٩٠/

١١٣٠٨) ، وأبو داود مختصراً (٥/٨١/٤٧٠٧) .

(٤) فتح الباري (١١/٦٢٦) .

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾

★ غريب الآية :

سأصرف عن آياتي : أي : سأنحي وأعدل بهم عنها ؛ يقال : صرفه عن كذا : إذا عدل به عنه ونحاه . وقيل : أصل الصرف : رد الشيء من حالة إلى حالة وإبدال غيره به . وقيل : هو التقلب والتحويل .

الرُّشْدُ : ويقال : الرُّشْدُ والرَّشَادُ : الهداية والاستقامة والصلاح . وحقبة الرُّشْد والرَّشْد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضد الخيبة .
الغَيِّ : الضلال والجهل .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم : معناه : سأنزعه عنهم فهم الكتاب . . . »

وقال آخرون في ذلك : معناه : سأصرفهم عن الاعتبار بالحجج . . .
وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته ، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده ، وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله وغير ذلك من فرائضه ، والسموات والأرض ، وكل موجود من خلقه فمن آياته ، والقرآن أيضًا من آياته . وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق ، وهم الذين حقت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون ، فهم عن فهم جميع آياته ، والاعتبار والادِّكار بها مصروفون ؛ لأنهم لو وفقوا لفهم بعض ذلك ، فهدوا للاعتبار به ، اتَّعَظُوا وأنابوا إلى الحق ، وذلك غير كائن منهم ؛ لأنه - جل

ثناؤه- قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذَّاءً يَتَّبِعُوهُ﴾، فلا تبديل لكلمات الله...

يقول - تعالى ذكره -: وإن ير هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق - وتكبرهم فيها بغير الحق: تجبرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله، والإذعان لأمره ونهيه، وهم لله عبيد يغذوهم بنعمته، ويريح عليهم رزقه بكرة وعشيًا - ﴿كُذَّاءً يَتَّبِعُوهُ﴾ يقول: كل حجة لله على وحدانيته وربوبيته، وكل دلالة على أنه لا تنبغي العبادة إلا له خالصة دون غيره، ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ يقول: لا يصدقوا بتلك الآية أنها دالة على ما هي فيه حجة، ولكنهم يقولون: هي سحر وكذب، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يقول: وإن ير هؤلاء الذين وصف صفتهم طريق الهدى والسداد الذي إن سلكوه نجوا من الهلكة والعطب، وصاروا إلى نعيم الأبد، لا يسلكوه ولا يتخذوه لأنفسهم طريقًا؛ جهلاً منهم وحيرة، ﴿وَإِنْ يَكْرَأْ سَبِيلَ النَّفْيِ﴾ يقول: وإن يروا طريق الهلاك الذي إن سلكوه ضلوا وهلكوا، وقد بينا معنى ﴿النَّفْيِ﴾ فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يقول: يسلكوه ويجعلوه لأنفسهم طريقًا لصرف الله إياهم عن آياته، وطبعه على قلوبهم، فهم لا يفلحون ولا ينجحون. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يقول - تعالى ذكره -: صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها، ويذكروا فينبوا؛ عقوبة منا لهم على تكذيبهم بآياتنا، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يقول: وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقية ما أمرناهم به ونهيناهم عنه ﴿غَافِلِينَ﴾ لا يتفكرون فيها، لا هين عنها لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا، فعطبوا^(١).

وقال ابن كثير في قوله: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ آيَاتِنَا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: «أي: كما استكبروا بغير حق، أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٣)»^(٤).

وقال: «وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذَّاءً يَتَّبِعُوهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) جامع البيان (٩/٦٠-٦١).

(٢) الأنعام: الآية (١١٠).

(٣) الصف: الآية (٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٥).

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ (١) (٢).

وقال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ :
«الغفلة هنا : هي الغفلة المطبوعة المانعة من أسباب العلم والفطنة ، لا أي نوع من
أنواع الغفلة ، بل هي المبينة في قوله تعالى من أواخر هذه السورة : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا
يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَانُوا فِي سَآخِرٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ (٣) الضالون من هؤلاء
الغافلين عن آيات الله تعالى ، وما تهدي إليه من معرفته ، والاستعداد للحياة
الأخرى الباقية ، هم الذين يقول الله تعالى في وصفهم : ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ﴾ (٤) ، ويقول : ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٥) ؛ إذ كان لهم من الانهماك فيما هم
فيه ، والغرور به ، واحتقار ما سواه ، ما يصددهم عن توجيه عقولهم إلى غيره» (٦).

وقال الزمخشري في قوله : ﴿سَاصِرُفُّ عَنَّا أَيْتَى الَّذِينَ تَكْبَرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ﴾ : «فيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصْرَفُونَ عن الآيات لتكبرهم ،
وكفرهم بها ؛ لئلا يكونوا مثلهم ، فيسلك بهم سبيلهم» (٧).

* * *

(١) يونس : الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(٣) الأعراف : الآية (١٧٩).

(٥) النساء : الآية (١٦٧).

(٧) الكشف (١١٧/٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٥).

(٤) إبراهيم : الآية (٣).

(٦) تفسير المنار (٩/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

★ غريب الآية:

حبطت: أي: بطلت وفسدت. وأصله من قولهم: حبطت الدابة: إذا أكلت
أكلاً انتفخ بطنها منه فماتت.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير
الحق، وكل مكذب حجج الله ورسله وآياته، وجاحد أنه يوم القيامة مبعوث بعد
مماته، ومنكر لقاء الله في آخرته، ذهبت أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها
فثبتت؛ لأنهم عملوا لغير الله، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضي الله، فصارت
أعمالهم عليهم وبالاً، يقول الله - جل ثناؤه - : ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ يقول: هل ينالون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم
الخلود في نار أحاط بهم سرادقها؛ إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة
الرحمن، نعوذ بالله من غضبه»^(١).

قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨)

★ غريب الآية:

اتخذ: الاتخاذ: اصطفاء الشيء لأمر ما .

من حلّيتهم: الحلّي: ما اتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما .

جسدًا: الجسد: الجسم .

له خوار: الخوار: صوت البقر .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واتخذ بنو إسرائيل قوم موسى -من بعد ما فارقهم موسى ماضيًا إلى ربه لمناجاته، ووفاء للوعد الذي كان ربه وعده- ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ وهو ولد البقرة، فعبدوه، ثم بين -تعالى ذكره- ما ذلك العجل فقال: ﴿جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾، والخوار: صوت البقر، يخبر جل ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل، وذلك أن الرب جل جلاله، الذي له ملك السموات والأرض، ومدبر ذلك، لا يجوز أن يكون جسدًا له خوار، لا يكلم أحدًا، ولا يرشد إلى خير، وقال هؤلاء الذي قص الله قصصهم لذلك: هذا إلهنا وإله موسى، فعكفوا عليه يعبدونه جهلًا منهم، وذهابًا عن الله وضلالًا .

وقد بينا سبب عبادتهم إياه، وكيف كان اتخاذ من اتخذ منهم العجل، فيما مضى بما أغنى عن إعادته . . .

وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يقول: ألم ير الذين عكفوا على العجل الذي اتخذوه من حلّيتهم يعبدونه، أن العجل لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلًا؟ يقول: ولا يرشدهم إلى طريق، وليس ذلك من صفة ربهم الذي له العبادة

حقًا، بل صفته أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير، وينهاهم عن سبيل المهالك والردى، يقول الله -جل ثناؤه-: ﴿اتَّخِذُواْ آي : اتَّخِذُواْ الْعَجْل إِلَهَا ، وَكَانُواْ﴾ باتخاذهم إياه ربًا معبودًا ﴿ظَلَمِينَ﴾ لأنفسهم؛ لعبادتهم غير من له العبادة، وإضافتهم الألوهة إلى غير الذي له الألوهة^(١).

وقال النسفي في قوله تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: «إنما نسبت إليهم مع أنها كانت عواري في أيديهم؛ لأن الإضافة تكون لأدنى ملابسة. وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان، فدخل دارًا استعارها يحنث، على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. وفيه دليل على أن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها، نعم المتخذ هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل إليهم»^(٢).

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على صحة الحجاج في الدين، وأنه تعالى دلهم، في بطلان اتخاذ العجل إلها، بأنه لا يتكلم ولا يهدي. وإنما ذكر الكلام لأن الخوار تنفذ فيه الحيلة، ولا تنفذ في الكلام. وتدل على أن إزالة الشبه في الدين واجب، كما أزالها الله تعالى. وتدل على أن القوم كانوا جهالًا غير عارفين حقيقة الأشياء، لذلك عبدوا العجل»^(٣).

وقال الشنقيطي: «بين في هذه الآية الكريمة سخافة عقول عبدة العجل، ووبخهم على أنهم يعبدون ما لا يكلمهم ولا يهديهم سيلاً، وأوضح هذا في (طه)، بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾^(٤)، وقد قدمنا في سورة (البقرة)، أن جميع آيات اتخاذهم العجل إلها حذف القول فيها المفعول الثاني في جميع القرآن، كما في قوله هنا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَقْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا﴾؛ أي: اتخذوه إلها، وقد قدمنا أن النكتة في حذفه دائماً: التنبيه على أنه لا ينبغي التلفظ بأن عجلًا مصطنعًا من جماد إله، وقد أشار تعالى إلى هذا المفعول المحذوف دائماً في (طه) بقوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾^(٥).

(٢) تفسير النسفي (٧٧/٢).

(٤) طه: الآية (٨٩).

(١) جامع البيان (٦٢/٩).

(٣) محاسن التأويل (٢٥٤/٧).

(٥) أضواء البيان (٤٠/٢).

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٩﴾﴾

★ غريب الآية :

سقط في أيديهم : أي ندموا وتحيروا في أمرهم . وأصل السقوط : الوقوع من علو إلى سفلى .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يعني - تعالى ذكره - بقوله : ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ : ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف - جل ثناؤه - صفته عند رجوع موسى إليهم ، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم ، وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف ، وعاجز عن شيء : قد سقط في يديه ، وأسقط ، لغتان فصيحتان ، وأصله من الاستئسار ، وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه ، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره فيكتفه ، فالمرمي به مسقوط في يدي الساقط به ، فقليل لكل عاجز عن شيء ومصارع لعجزه متندم على ما فاته : سقط في يديه وأسقط .

وعنى بقوله : ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ : ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل ، وذهبوا عن دين الله ، وكفروا بربهم ، قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به : ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١) .

وقال صديق حسن خان : «في هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهاال في السؤال والاعتراف بعظم ما أقدموا عليه من الذنب ، والندم على ما صدر منهم ، والرغب إلى الله في إقالة عثرتهم واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويتب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم ، وسيأتي في سورة (طه) إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى ، وإنما

(١) جامع البيان (٩/٦٢-٦٣) .

قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد^(١).

وقال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن عبدة العجل اعترفوا بذنوبهم، وندموا على ما فعلوا، وصرّح في سورة (البقرة) بتوبتهم ورضاهم بالقتل وتوبة الله - جل وعلا - عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ إِيَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)»^(٣).

وقال أبو السعود: «تقديم الرحمة على المغفرة، مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية، إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم، وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم»^(٤).

(١) فتح البيان (٥/٢٢).

(٢) البقرة: الآية (٥٤).

(٣) أضواء البيان (٢/٤١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/٢٧٣).

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۚ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

★ غريب الآية:

أَسِفًا : أي : شديد الغضب . والأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك .
والأسيف أيضًا : الحزين .

بئسما خلفتموني : أي : بئس العمل عملتم بعدي ؛ يقال : خَلَفَهُ يَخْلِفُهُ : إذا سَدَّ مَسَدَّهُ وناب عنه ، ويقال : خلفه بما يكره ، ويقال في الخير أيضًا .
أعجلتم أمر ربكم : أي : سبقتموه . والعجلة : التسرع ، وهو التقدم بالشيء قبل وقته .

ولا تشمت بي الأعداء : أي : لا تسرّهم . والشماتة : إظهار السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني : «هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه ، وانتصاب ﴿غَضْبَنَ﴾ و﴿أَسِفًا﴾ على الحال . .

قال ابن جرير : أخبره الله قبل رجوعه بأنهم فتنوا ، فلذلك رجع غضبان أسفًا ، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ هذا ذم من موسى لقومه ؛ أي : بئس العمل ما عملتموه من بعد غيبتني عنكم ، يقال : خلفه بخير وخلفه بشر ، استنكر عليهم ما فعلوه ، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والإيمان بالله وحده ، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلون أحوالهم واضطراب أفعالهم ، ثم قال منكرًا عليهم : ﴿أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ ، والعجلة : التقدم بالشيء قبل وقته ، . . . والمعنى :

أعجلتم عن انتظار أمر ربكم ؛ أي : ميعاده الذي وعدنيه وهو الأربعون ، ففعلتم ما فعلتم ، وقيل معناه : تعجلتم سخط ربكم ، وقيل معناه : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتكم أمر ربكم ، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ أي : طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف حين أشرف على قومه ، وهم عاكفون على عبادة العجل^(١) .

وقال ابن كثير : «وقوله : ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (١١) ﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (١٢) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (١٣) ، وقال ههنا : ﴿إِنَّمَا أَنَا الْفَقِيرُ الْمُسْتَغْفِرُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشِمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي : لا تسقني مساقهم ، ولا تخلطني معهم ، وإنما قال : ﴿إِنَّمَا أَنَا﴾ لتكون أراف وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه ، فلما تحقق موسى ﷺ براءة ساحة هارون ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (١٤) ، فعند ذلك قال موسى : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥) .

قال ابن جرير : «اختلف أهل العلم في سبب إلقاء إياها - أي : الألواح - ، فقال بعضهم : ألقاها غضباً على قومه الذين عبدوا العجل ، . . وقال آخرون : إنما ألقى موسى الألواح ؛ لفضائل أصابها فيها لغير قومه ، فاشتد ذلك عليه ، . . والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك أن يكون سبب إلقاء موسى الألواح كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجل ؛ لأن الله - جل ثناؤه - بذلك أخبر في كتابه فقال : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يٰقَوْمُ مَا بَدَأْتُ أَفْعَلْتُ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ (١٥) .

وقال ابن عطية بعد حكايته القول الثاني : «وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى ﷺ به ، والأول هو الصحيح» (١٦) .

(١) فتح القدير (٢/٣٤٩) .

(٢) طه : الآيات (٩٢-٩٤) .

(٣) طه : الآية (٩٠) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٧) .

(٥) جامع البيان (٩/٦٤-٦٥) .

(٦) المحرر الوجيز (٢/٤٥٧) .

وقال ابن كثير: «ثم ظاهر السياق، أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون، وأفاكون وزنادقة»^(١).

قال ابن العربي: «وفي هذا - أي: فيما أظهر هارون لموسى ﷺ من العذر لما أخذ برأسه يجره إليه - دليل على أن لمن خشي القتل عند تغيير المنكر أن يسكت عنه»^(٢).

قال السيوطي: «قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ استدل به ابن تيمية على أن من ألقى كتب علم من يده إلى الأرض وهو غضبان لا يلام»^(٣).

قال القاسمي نقلاً عن الجشمي: «وتدل الآية على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين»^(٤).

قال ابن عاشور: «وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة، غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد، ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الخبر ليس كالمعينة

* عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعينة: إن الله ﷻ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»^(٦).

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٧).

(٢) أحكام القرآن (٢/٧٩٣).

(٣) الإكليل (ص: ١٣١).

(٤) التحرير والتنوير (٩/١١٦).

(٥) أخرجه: أحمد (١/٢٧١)، والطبراني في الكبير (١٢/٥٤/١٢٤٥١)، وفي الأوسط (١/٤٥-٤٦/٢٥)،

والبزار (كشف الأستار ١/١١١/٢٠٠)، وصححه ابن حبان (١٤/٩٦-٩٧/٦٢١٣-٦٢١٤) والحاكم (٢/

٣٨٠) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/١٥٣) وقال: «رواه أحمد

والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح».

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «ليس الخبر كالمعاينة» أي: المشاهدة؛ إذ هي تحصيل العلم القطعي. وقد جعل الله لعباده آذانًا وافية، وأبصارًا ناظرة، ولم يجعل الخبر في القوة كالنظر بالعيان»^(١).

قوله: «ألقى الألواح فانكسرت»:

قال المناوي: «أفاد هذا أنه ليس حال الإنسان عند معاينته الشيء كحاله عند الخبر عنه في السكون والحركة؛ لأن الإنسان لعله يسكن إلى ما يرى أكثر من الخبر عنه وإن كان صادقًا عنده وكان خبر الله عند موسى ثابتًا»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «وليس لشك موسى في خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولًا عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقًا به، ومعلوم أن عند المعاينة، حصل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذاك التصديق»^(٣).

وقال أيضًا: «وقد تنازع الناس في السمع والبصر، أيهما أكمل؟ فذهبت طائفة منهم ابن قتيبة، إلى أن السمع أكمل، لعموم ما يعلم به وشموله، وذهب الجمهور إلى أن البصر أكمل، فليس المخبر كالمعاين، وليس كل ما يعاين يمكن الإخبار عنه، وليس العلم الحاصل بالخبر، كالعلم الحاصل بالعيان، وإن كان الخبر لا ريب في صدقه، لكن نفس المرء للمعاين، لا يحصل العلم به قبل العيان كما يحصل عند العيان، والتحقيق في هذا الباب أن العيان أتم وأكمل، والسمع أعم وأشمل، فيمكن أن يعلم بالسمع، والخبر أضعاف ما يمكن علمه بالعيان والبصر أضعافًا مضاعفة، ولهذا كان الغيب كله، إنما يعلم بالسمع والخبر، ثم يصير المغيب شهادة، والمخبر عنه معاينة، وعلم اليقين، عين اليقين»^(٤).

(١) فيض القدير (٣٥٨/٥).

(٢) فيض القدير (٣٥٧/٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣٥/٧).

(٤) درء التعارض (٣٢٥/٧)، وانظر مفتاح دار السعادة (٣٥٨/١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ «كان يتعوذ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء»^(١).

★ غريب الحديث:

درك: يروى بفتح الراء وإسكانها، فبالفتح الاسم، وبالإسكان المصدر، والمتعوذ منه أن يلحقه شقاء في الدنيا يتعبه ويثقله، وفي الآخرة يعذبه.

جهد البلاء: يروى بفتح الجيم وضمها، وهو التعب والمشقة، قاله ابن دريد، وقال غيره: بالضم: الوسع والطاقة، وبالفصح: المبالغة والغاية.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ نقلاً عن النووي: «في الحديث دلالة لاستحباب الاستعاذة من الأشياء المذكورة، وأجمع على ذلك العلماء في جميع الأعصار والأمصار»^(٢).

وقال القرطبي: «إنما دعا النبي ﷺ بهذه الدعوات، وتعوذ بهذه التعوذات؛ إظهاراً للعبودية، وبياناً للمشروعية، ليقتدى بدعواته، ويتعوذ بتعويذاته، والله أعلم»^(٣).

قال الكرمانى: «وإنما دعا - صلى الله تعالى عليه وسلم - بذلك تعليمًا لأمته، وهذه كلمة جامعة؛ لأن المكروه إما أن يلاحظ من جهة المبدأ، وهو سوء القضاء، أو من جهة المعاد، وهو درك الشقاء؛ إذ شقاوة الآخرة هو الشقاء الحقيقي، أو من جهة المعاش، وذلك إما من جهة غيره، وهو شماتة الأعداء، أو من جهة نفسه، وهو جهد البلاء، نعوذ بالله من ذلك»^(٤).

وقال القرطبي: «وشماتة الأعداء هي ظفرهم به، أو فرحهم بما يلحقه من الضرر والمصائب»^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٤٦)، والبخاري (١١/٦٢٧/٦٦١٦)، ومسلم (٤/٢٠٨٠/٢٧٠٧)، والنسائي (٨/٥٥٠٦/٦٦٣).

(٢) فتح الباري (١١/١٧٩).

(٣) المفهم (٧/٣٥).

(٤) شرح البخاري (٢٢/١٥١).

(٥) المفهم (٧/٣٥).

قال فضل الله الجيلاني: «استعاذ ﷺ من شماتة الأعداء لعظم مواقعها، وشدة تأثيرها في الأنفس البشرية، ونفور طباع العباد عنها، وقد يتسبب عن ذلك تعاظم العداوة المفضية إلى استحلال ما حرمه الله تعالى. وفي الحديث دلالة على أن الكلام المسجوع لا يُكره إذا صدر عن غير قصد ولا تكلف، فهو السجع المحمود. والمحمود من السجع ما جاء بانسجام واتفاق. ومنه ما هو مذموم، وهو ما يأتي بتكلف واستكراه»^(١).

(١) فضل الله الصمد (١/ ٥٣٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٥١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : قال موسى لما تبين له عذر أخيه ، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ مستغفراً من فعله بأخيه ، ولأخيه من سالف له بينه وبين الله : تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به ، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ يقول : وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين ، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئاً»^(١).

وقال الشوكاني: «طلب المغفرة له أولاً ، ولأخيه ثانياً ؛ ليزيل عن أخيه ما خافه من السماتة ، فكأنه تدمم مما فعله بأخيه ، وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه ، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم ، ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء ؛ فهو ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»^(٢).

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ : «هذا ثناء يدل على مزيد الثقة في الرجاء ، والدعاء في جملته أقوى في استعتاب هارون من الاعتذار له ، وأدل على تخيب أمل الأعداء في شيء مما يشير حفيظة السماتة»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٦٩/٩).

(٢) فتح القدير (٣٥٠/٢).

(٣) المنار (٢٠٩/٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢)

* غريب الآية:

سينالهم: سيلحقهم ويصيبهم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بتعجيل الله لهم ذلك، ﴿وَذَلَّةٌ﴾ وهي الهوان؛ لعقوبة الله إياهم على كفرهم بربهم، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في عاجل الدنيا قبل أجل الآخرة»^(١).

قال ابن كثير: «أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة (البقرة): ﴿فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾»^(٢).

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة، متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطققت بهم البراذين.

وهكذا روى أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة الجرمي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.
وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل»^(٣).

(٢) البقرة: الآية (٥٤).

(١) جامع البيان (٦٩/٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٧-٤٧٨).

قال الشاطبي: «وجهه - أي: كون المبتدع يلقي عليه الذل في الدنيا - ظاهر؛ لأن المتخذين للعجل إنما ضلوا به حتى عبدوه؛ لما سمعوا من خواره، ولما ألقى إليهم السامري فيه، فكان في حقهم شبهة خرجوا بها عن الحق الذي كان في أيديهم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَجَزَى الْمُفْتَرِينَ﴾، فهو عموم فيهم وفيمن أشبههم، من حيث كانت البدع كلها افتراء على الله؛ حسبما أخبر في كتابه في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾^(١) الآية.

فإذن؛ كل من ابتدع في دين الله؛ فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي الرأي عزه وجبريته؛ فهم في أنفسهم أذلاء.

وأيضاً؛ فإن الذلة الحاضرة في الدنيا موجودة في غالب الأحوال، ألا ترى أحوال المبتدعة في زمان التابعين وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا بالسلطين، ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدر على ذلك؛ استخفى ببدعته، وهرب بها من مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التقية.

وقد أخبر الله تعالى أن هؤلاء الذين اتخذوا العجل أن سينالهم ما وعدهم، فأنجز الله وعده، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾^(٢).

وصدق ذلك الواقع باليهود حيثما حلوا، وفي أي زمان كانوا، لا يزالون أذلاء مقهورين: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، ومن جملة اعتدائهم اتخاذهم العجل.

هذا بالنسبة إلى الذلة، وأما الغضب؛ فمضمونٌ بصادق الأخبار، فيُخاف أن يكون المبتدع داخلاً في حكم الغضب، والله الواقى بفضلته^(٣).

قلت: دين الله صاف كامل مكتمل في أصوله وفروعه، وسلوكه وأخباره وسيره، فمن غيره وبدله بزيادة أو نقص؛ بدل الله وجهه وحاله؛ كما قال هؤلاء العلماء رحمهم الله الحسن البصري وأبو قلابة في تفسير هذه الآية التي سياقها في

(١) الأنعام (١٤٠).

(٢) البقرة: الآية (٦١).

(٣) الاعتصام (١/٢١٧-٢١٩).

بني إسرائيل الذين اتخذوا العجل حيث أخبر الله أنه سينزل بهم غضبه وذلته ، ولم يفرق هؤلاء العلماء بين الذين اتخذوا العجل ، وبين غيرهم ممن يأتي بعدهم ، وإن كان من أمة الإسلام ، زيادة على ما في التوراة وصحف موسى ، فقد ضرب الله تعالى على اليهود الذلة ، وأنزل عليهم غضبه وهوانه إلى يوم القيامة ، وما هي من المبتدعة ببعيد ، فهذا تاريخ الإسلام يشهد أنهم زادوا ونقصوا في دين الله وحرفوا الصفات في كتاب الله ، وبعضهم ألقاها وطردها ، وحرفوا القدر فذهبوا فيه مذهبين : إما جبرية على مذهب المشركين ، وإما مجوسية على مذهب المثبتين خالقاً للظلمات وخالقاً للنور ، وإما مرجئة عطلوا الأعمال وفصلوها عن الإيمان ، وإما متعصبة للمذاهب ، مقدسون للشيوخ ، معرضون عن نصوص الكتاب والسنة ، وإما رافضة سابون ومكفرون لصحابة رسول الله ﷺ ، ومتلاعبون بكل أصول الدين وفروعه ، جعلوا لأنفسهم ديناً جديداً أسسه يهودي اسمه عبد الله بن سبأ ، وما تركوا صنفاً من أصناف الشرك إلا عملوا به ، وأحدثوا في دينهم هذا حيلاً من أهمها التستر بآل البيت ، وهم في الواقع أعداء آل البيت . وإما صوفية وهم امتداد للرفض في كل جزئياته وکلياته ما عدا سب الصحابة فإنهم لا يظهرونه ، وإما خوارج يكفرون الأمة بالذنب والمعصية ، ويعرضون عن نصوص المشيئة وعن نصوص الشفاعة في إخراج المؤمنين من النار . وإما علمانيون منحلون ومفارقون للكتاب والسنة ، يتمسحون بهما متى شأوا للتلاعب على العامة بأنهم ينتسبون إلى الإسلام ، وهم أعداؤه ، وإما شيوعيون واشتراكيون قامت دعوتهم على حرب الرسل والكتب المنزلة من عند الله من بدايتها إلى نهايتها ، فهؤلاء كلهم تلاحظ فيهم ما قال الله تعالى بأن عليهم مسكنة وذلة وغضب . فاللهم نجنا من شرهم واكفناهم بما شئت وكيف شئت .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥٣)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - أنه قابل من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفراً كانت أو غير كفر، كما قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل، وارتدادهم عن دينهم، يقول - جل ثناؤه - : والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضى الله بإنابتهم إلى ما يحب مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط من بعد سبى أعمالهم، وصدقوا بأن الله قابل توبة المذنبين، وتائب على المنيبين بإخلاص قلوبهم، ويقين منهم بذلك، ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم، يقول : لساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، وبكل من كان مثلهم من التائبين»^(١).

قال الرازي : «وهذه الآية تدل على أن السيئات بأسرها مشتركة في أن التوبة منها توجب الغفران؛ لأن قوله : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يتناول الكل . والتقدير : أن من أتى بجميع السيئات، ثم تاب، فإن الله يغفرها له، وهذا من أعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين، والله أعلم»^(٢).

قال الألوسي : «وفي الآية إعلام بأن الذنوب وإن جلت وعظمت، فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

ومما ينسب للإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه :

(١) جامع البيان (٧١/٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/١٥).

ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي جعلت الرجا ربي لعفوك سلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ويعجبني قول بعضهم، وما أولى هذا المذنب به:
أنا مذنب أنا مخطئ أنا عاصي هو غافر هو راحم هو عافي
قابلتهن ثلاثة بثلاثة وستغلبن أوصافه أوصافي^(١).

(١) روح المعاني (٧١-٧٠/٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَٔٓ وَفِي
نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

★ غريب الآية:

سكت: سكن. والسكوت: الإمساك عن الكلام. والمعنى: انقطع عنه الغضب.

وفي نسختها: النسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر. ويقال للأصل الذي كتبت منه: نسخة، وللفرع: نسخة.
يرهبون: أي: يخافون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «وفي هذا النظم الكريم من البلاغة، والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الأمر بذلك، المغري عليه بالتحكم والتشديد، والتعبير عن سكونه بالسكوت، ما لا يخفى»^(١).

قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾: ولما كفت موسى عن الغضب، وكذلك كل كافٍ عن شيء: ساكت عنه. وإنما قيل للساكت عن الكلام: ساكت؛ لكفه عنه. وقد ذكر عن يونس النحوي أنه قال: يقال: سكت عنه الحزن، وكل شيء فيما زعم. ومنه قول أبي النجم:

وهمت الأفعى بأن تسبّحاً وسكت المكاء أن يضبّحاً

﴿أَخَذَ الْأَلْوَا حَٔٓ﴾ يقول: أخذها بعدما ألقاها، وقد ذهب منها ما ذهب، ﴿وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: وفيما نسخ فيها؛ أي: منها ﴿هُدًى﴾ بيان للحق، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يقول: للذين يخافون الله، ويخشون عقابه على معاصيه.

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٦).

واختلف أهل العربية في وجه دخول (اللام) في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ مع استقبح العرب أن يقال في الكلام: رهبت لك، بمعنى: رهبتك، وأكرمت لك، بمعنى: أكرمتك. فقال بعضهم: ذلك كما قال -جل ثناؤه-: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَقْبِرُونَ﴾^(١) أوصل الفعل باللام. وقال بعضهم: من أجل ربهم يرهبون. وقال بعضهم: إنما دخلت عقيب الإضافة: الذين هم راهبون لربهم وراهبو ربهم، ثم أدخلت (اللام) على هذا المعنى؛ لأنها عقيب الإضافة لا على التعليق. وقال بعضهم: إنما فعل ذلك لأن الاسم تقدم الفعل، فحسن إدخال (اللام). وقال آخرون: قد جاء مثله في تأخير الاسم في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾^(٢). وذكر عن عيسى بن عمر أنه قال: سمعت الفرزدق يقول: نقدت له مائة درهم، يريد: نقدته مائة درهم، قال: والكلام واسع^(٣).

وقال ابن كثير: «استدل بعضهم بقوله: ﴿وَفِي نُشْخَبَاتٍ﴾ على أنها تكسرت، وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم^(٤). قال عبد القادر بن شيبه الحمد: «وفي قوله: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ دليل على أنها لم تتكسر عندما ألقاها، ولم يثبت في خبر صحيح أن الألواح تكسرت عندما ألقاها موسى عليه السلام. قال القرطبي رحمه الله: قال أبو الفرج بن الجوزي: من يصحح عن موسى عليه السلام أنه رماها رمي كاسر؟ والذي ذكر في القرآن ألقاها، فمن أين لنا أنها تكسرت؟ اهـ^(٥).

(١) يوسف: الآية (٤٣).

(٢) النمل: الآية (٧٢).

(٣) جامع البيان (٧١/٩).

(٤) البداية والنهاية (٢٦٩/١).

(٥) تهذيب التفسير (٢٩٠/٥).

قوله تعالى : ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾^(١)

★ غريب الآية:

اختار : الاختيار : الاصطفاء ؛ يقال : اخترت هذا : إذا اصطفيته .
فلما أخذتهم الرجفة : أي : ماتوا . والرجفة في اللغة : الزلزلة الشديدة .
أهلكتهم : أي : أمتهم ؛ كما قال تعالى : ﴿إِن أَمْرُؤَا هَٰلِكَ﴾^(٢) .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية : «معنى هذه الآية أن موسى ﷺ اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهاال ودعاء ؛ ليكون منه ومنهم اعتذار إلى الله ﷻ من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل ، وطلب لكمال العفو عن بقي منهم
واختلف العلماء في سبب الرجفة التي حلت بهم
وروي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه ، ويحتمل أن كانت كالإغماء ونحوه ،
﴿الرَّجْفَةُ﴾ الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم ، فلما رأى موسى ذلك أسف عليهم ،
وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعب عليه إذا لم يأت بالقوم ، فجعل يستعطف ربه :
أي رب لو أهلكتهم قبل هذه الحال وإياي لكان أحق عليّ ، وهذا وقت هلاكهم فيه
مفسد عليّ مؤذي لي ، ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل ، ويحتمل قوله :
﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ أن يريد وقت إغصائهم على عبادة العجل ؛
أي : وقت عبادتهم على القول بذلك ، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي ؛ أي : فأنت
قد سترت وعفوت حينئذ ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فساد لبني إسرائيل ، فمنحى

(١) الأعراف : الآية (١٥٥) .

(٢) النساء : الآية (١٧٦) .

الكلام على هذا محض استعطاف، وعلى التأويل الأول منحاه الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف^(١).

* * *

(١) المحرر الوجيز (٢/٤٥٩-٤٦٠).

قوله تعالى: ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ
تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (١٥٥)

★ غريب الآية:

فتنتك: أي ابتلاؤك واختبارك عبادك ليشكروا أم يكفروا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: أتهلك هؤلاء الذين أهلكتهم بما فعل السفهاء منا؛ أي: بعبادة من عبد العجل، قالوا: وكان الله إنما أهلكهم لأنهم كانوا ممن يعبد العجل، وقال موسى ما قال ولا علم عنده بما كان منهم في ذلك...»

وقال آخرون: معنى ذلك: أن إهلاك هؤلاء الذين أهلكتهم هلاك لمن وراءهم من بني إسرائيل إذا انصرف إليهم، وليسوا معي، و﴿السُّفَهَاءُ﴾ على هذا القول كانوا المهلكين الذين سألوا موسى أن يريهم ربهم...»

وقال آخرون في ذلك بما حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾: أتواخذنا وليس منا رجل واحد ترك عبادتك، ولا استبدل بك غيرك؟

وأولى القولين بتأويل الآية قول من قال: إن موسى إنما حزن على هلاك السبعين بقوله: ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾، وأنه إنما عني بـ(السفهاء): عبدة العجل؛ وذلك أنه محال أن يكون موسى ﷺ كان تخير من قومه لمسألة ربه ما أراه أن يسأل لهم إلا الأفضل، فالأفضل منهم، ومحال أن يكون الأفضل كان عنده من أشرك في عبادة العجل، واتخذة دون الله إلهاً.

قال: فإن قال قائل: فجائز أن يكون موسى ﷺ كان معتقداً أن الله سبحانه يعاقب قومًا بذنوب غيرهم فيقول: أتهلكنا بذنوب من عبد العجل، ونحن من ذلك برآء؟

قيل : جائز أن يكون معنى الإهلاك : قبض الأرواح على غير وجه العقوبة ، كما قال -جل ثناؤه- : ﴿إِنْ أَمَرُوا هَلَكًا﴾^(١) -يعني : مات- فيقول : أتميتنا بما فعل السفهاء منا؟

وأما قوله : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ فإنه يقول -جل ثناؤه- : ما هذه الفعلة التي فعلها قومي من عبادتهم ما عبدوا دونك ، إلا فتنة منك أصابتهم ، ويعني بالفتنة : الابتلاء والاختبار ، يقول : ابتليتهم بها ليتبين الذي يضل عن الحق بعبادته إياه ، والذي يهتدي بترك عبادته ، وأضاف إضلالهم وهدايتهم إلى الله ، إذ كان ما كان منهم من ذلك عن سبب منه -جل ثناؤه-

وقوله : ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ يقول : أنت ناصرنا ، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ يقول : فاستر علينا ذنوبنا بتركك عقابنا عليها ، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ : تعطف علينا برحمتك ، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ يقول : خير من صفح عن جرم ، وستر على ذنب^(٢) .

وقال الشوكاني : «قوله : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي : ما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت ، وتمتحن بها من أردت . ولعله ~~عنه~~ استفاد هذا من قوله سبحانه : ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^(٣) . ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ أي : تضلّ بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدي بها من تشاء منهم ، ومثله : ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٤) . ثم رجع إلا الاستعطاف والدعاء فقال : ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ أي : المتولي لأمرنا ، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما أذنبناه ، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء ، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ للذنوب^(٥) .

قال صديق حسن خان : «قال الواحدي : وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر»^(٦) .

(١) النساء : الآية (١٧٦) .

(٢) جامع البيان (٧٦/٩-٧٧) .

(٣) طه : الآية (٨٥) .

(٤) هود : الآية (٧) .

(٥) فتح القدير (٣٥٤/٢) .

(٦) فتح البيان (٣١/٥) .

قوله تعالى: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
إِنَّا هُذْنَا إِلَيْكَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

إنا هدنا إليك: أي: تبتنا. والهؤد: التوبة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - مخبراً عن دعاء نبيه موسى عليه السلام أنه قال فيه: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا﴾ أي: اجعلنا ممن كتبت له ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، وهي الصالحات من الأعمال، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ممن كتبت له المغفرة لذنوبه... وقوله: ﴿إِنَّا هُذْنَا إِلَيْكَ﴾ يقول: إنا تبنا إليك»^(٢).

قال الرازي: «اعلم أن هذا من بقية دعاء موسى عليه السلام عند مشاهدة الرجفة. فقلوله: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ معناه: أنه قرر أولاً أنه لا ولي له إلا الله تعالى، وهو قوله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ ثم إن المتوقع من الولي والناصر أمران: أحدهما: دفع الضرر. والثاني: تحصيل النفع. ودفع الضرر مقدم على تحصيل النفع، فلهذا السبب بدأ بطلب دفع الضرر، وهو قوله: ﴿فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ ثم اتبعه بطلب تحصيل النفع، وهو قوله: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وقوله: ﴿وَأَكْتُبْ﴾ أي: وجب لنا، والكتابة تذكر بمعنى الإيجاب، وسؤاله الحسنة في الدنيا والآخرة كسؤال المؤمن من هذه الأمة حيث أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾^(٣).

واعلم أن كونه تعالى ولياً للعبد يناسب أن يطلب العبد منه دفع المضار وتحصيل

(٢) جامع البيان (٩/ ٧٧).

(١) الأعراف: الآية (١٥٦).

(٣) البقرة: الآية (٢٠١).

المنافع ليظهر آثار كرمه وفضله وإلهيته، وأيضًا اشتغال العبد بالتوبة والخضوع والخشوع يناسب طلب هذه الأشياء، فذكر السبب الأول أولًا، وهو كونه تعالى وليًا له، وفرّع عليه طلب هذه الأشياء، ثم ذكر بعده السبب الثاني، وهو اشتغال العبد بالتوبة والخضوع، فقال: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ قال المفسرون: ﴿هُدْنَا﴾ أي: تبنا ورجعنا إليك، قال الليث: الهود: التوبة، وإنما ذكر هذا السبب أيضًا؛ لأن السبب الذي يقتضي حسن طلب هذه الأشياء ليس إلا مجموع هذين الأمرين كونه إلهًا وربًا ووليًا، وكوننا عبيدًا له تائبين خاضعين خاشعين، فالأول: عهد عزة الربوبية. والثاني: عهد ذلة العبودية، فإذا حصلوا واجتمعا فلا سبب أقوى منهما^(١).

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/١٥).

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٦)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : ﴿ قَالَ ﴾ الله لموسى : هذا الذي أصبت به قومك من الرجفة ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ من خلقي ، كما أصيب به هؤلاء الذين أصبتهم به من قومك ، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يقول : ورحمتي عمت خلقي كلهم ، وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : مخرجه عام ومعناه خاص ، والمراد به : ورحمتي وسعت المؤمنين بي من أمة محمد ﷺ ، واستشهد بالذي بعده من الكلام ، وهو قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الآية . . . وقال آخرون : بل ذلك على العموم في الدنيا وعلى الخصوص في الآخرة . . . وقال آخرون : هي على العموم ، وهي التوبة . . .

وأما قوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فإنه يقول : فسأكتب رحمتي التي وسعت كل شيء ، ومعنى أكتب في هذا الموضع ، أكتب في اللوح الذي كتب فيه التوراة للذين يتقون ، يقول : للقوم الذين يخافون الله ، ويخشون عقابه على الكفر به ، والمعصية له في أمره ونهيه ، فيؤدون فرائضه ، ويجتنبون معاصيه ، وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي وصف الله هؤلاء القوم بأنهم يتقونه ، فقال بعضهم : هو الشرك . . . وقال آخرون : بل هو المعاصي كلها . . . وأما قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنه يقول : وللقوم الذين هم بأعلامنا وأدلتنا يصدقون ويقولون « (١) » .

قال السمعاني في قوله : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ : « وهذا على وفق قول أهل السنة ؛ فإن لله تعالى أن يصيب بعذابه من يشاء من عباده أذنب أو لم يذنب ،

(١) جامع البيان (٩/ ٧٩-٨١) باختصار.

وصحّف بعض القدرية، فقرأ: (عذابي أصيب به من أساء) من الإساءة، وليس بشيء»^(١).

قال أبو حيان: «قرأ زيد بن علي والحسن وطاوس وعمرو بن فائد: (مَنْ أَسَاءَ) من الإساءة. وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس. وعمرو بن فائد رجل سوء. وقرأ بها سفيان بن عيينة مرة واستحسنها، فقام إليه عبدالرحمن المقرئ وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر ولم أفطن لما يقول أهل البدع. وللمعتزلة تعلق بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد، ومن جهة خلق المرء أفعاله، وإن (أساء) لا فعل فيه لله تعالى. والانفصال عن هذا كالانفصال عن سائر الظواهر»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في إثبات صفة الرحمة لله تعالى

* عن أبي هريرة قال: «قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: لقد حَجَرْتَ واسعًا. يريد رحمة الله»^(٣).

★ غريب الحديث:

حَجَرْتَ: بمهمله ثم بمعجمة ثقيلة ثم راء؛ أي: ضيّقت، وزناً ومعنى.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «وهذا الدعاء حرام؛ لأنه دعا أن لا يرحم أحدًا غيرهما»^(٤).

والمعنى -يقول القسطلاني-: «ضيّقت واسعًا، وخصّصت ما هو عام، يريد

(١) تفسير القرآن (٢/٢٢١).

(٢) البحر المحيط (٤/٤٠٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٨٣)، والبخاري (١٠/٥٣٧/٦٠١٠)، وأبو داود (١/٢٦٣-٢٦٤/٣٨٠)، والترمذي (١/٢٧٥-٢٧٦/١٤٧)، والنسائي (٣/١٩/١٢١٥)، وابن ماجه (١/١٧٦/٥٢٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢١/١٦٢).

عليه - الصلاة والسلام - رحمة الله التي وسعت كل شيء»^(١).

قال ابن بطال: «وأما إنكار النبي ﷺ على الأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم أحدًا معنا، بقوله: «لقد حَجَرْتَ واسِعًا» ولم يعجبه دعاؤه لنفسه وحده، فلأنه بخل برحمة الله على خلقه، وقد أثنى الله على من فعل خلاف ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢)، وأخبر تعالى أن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض، فينبغي للمؤمن الاقتداء بالملائكة والصالحين من المؤمنين، ليكون من جملة من أثنى الله عليه ورضي فعله، فلم يخص نفسه بالدعاء دون إخوانه المؤمنين، حرصًا على شمول الخير لجميعهم»^(٣).

* عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»^(٤).

* عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض. فإذا كان يوم القيامة، أكملها بهذه الرحمة»^(٥).

★ فوائد الحديثين:

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن كل ما في جميع الأرض، من رحمة في قلوب جميع الخلق، جزء من مائة جزء مما أعد الله لعباده من الرحمة، وإن باقى المائة، وذلك تسعة وتسعون، جزء مآخرة عنده ﷺ لهم»^(٦).

(١) إرشاد الساري (٤٦/١٣).

(٢) شرح البخاري (٢٢٠/٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤٣٤/٢)، والبخاري (١٠/٥٢٩/٦٠٠٠)، ومسلم (٤/٢١٠٨/٢٧٥٢ [١٩])، والترمذي (٣٥٤١/٥١٣/٥)، وابن ماجه (٢/١٤٣٥/٤٢٩٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤٣٩/٥)، ومسلم (٤/٢١٠٩/٢٧٥٣ [٢١]).

(٥) بهجة النفوس (٤/١٥٣-١٥٤).

(٦) الحشر: الآية (١٠).

وهذا الحديث -يقول النووي- : «من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين ؛ قال العلماء : لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار، المبنية على الأكداد، الإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه، وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به، فكيف الظن بمئة رحمة في الدار الآخرة، وهي دار القرار ودار الجزاء، والله أعلم»^(١).

وقال ابن أبي جمرة في قوله ﷺ : «فامسك عنده تسعة وتسعين جزءاً» : «وأما قولنا : لمن ذلك الإمساك؟ هل لجميع الخلق، أو لِعَبِيدٍ معينين منهم؟ أما من الحديث فليس فيه ما يدل على ذلك، لكن قد أفصح الكتاب والسنة بذلك، أما الكتاب فأيات عديدة، منها قوله ﷻ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .. إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾^(٢)، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ .. إلى قوله ﷻ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٣)، وأما السنة فالأخبار فيها كثيرة، منها الأخبار بأمر الساعة، وكيف يحشر جميع الخلق، فيقال بعد الحساب لكل ما عدا الثقلين الجن والإنس : كونوا تراباً، فيعودون تراباً، والثقلان قسمان : إما شقي ففي النار، وإما سعيد ففي الجنة، فمن كان في النار أو صار تراباً، لم يبق له في تلك الرحمة نصيب، وبقيت موفرة لأهل دار الكرامة، وهم المؤمنون، من الثقلين الجن والإنس، جعلنا الله من أهل دار السعادة بمنه»^(٤).

وفي الحديث إثبات صفة الرحمة وهي من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة، وهي صفة كمال لا تفتقر بذاته كسائر صفاته العلى، لا يجوز نفيها ولا تعطيلها؛ لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه.

وأما قول الزمخشري وأصحابه إن الرحمة مجاز في حق الله تعالى وأنها عبارة عن إنعامه على عباده، فهي نزعة اعتزالية قد حفظ الله تعالى منها سلف المسلمين وأئمة الدين، فإنهم أقروا ما ورد على ما ورد، وأثبتوا لله تعالى ما أثبت له نبيه ﷺ من غير تصرف بكناية أو مجاز، وقالوا : لسنا أغير على الله من رسوله.

(٢) المؤمنون : الآيات (١-١٠).

(١) شرح مسلم (٥٧/١٧).

(٣) الأعراف : الآيتان (١٥٦ و١٥٧).

(٤) بهجة النفوس (١٥٤/٤).

وقد رد ابن القيم رحمه الله على القائلين بأن رحمة الله مجاز، ردًا مفصلاً في كتابه «الصواعق»^(١) نذكره ملخصاً :

«الرد الأول : إن الإلحاد إما أن يكون بإنكار لفظ الاسم أو بإنكار معناه، فإن كان إنكار لفظه إلحاد فمن ادّعى أن الرحمن مجاز لا حقيقة فإنه يجوز إطلاق القول بنفيها، فلا يستنكف أن يقول : ليس بالرحمن ولا الرحيم، كما يصح أن يقال للرجل الشجاع : ليس بأسد على الحقيقة، وإن قالوا : نتأدب في إطلاق هذا النفي، فالأدب لا يمنع صحة الإطلاق، وإن كان الإلحاد هو إنكار معاني أسمائه وحقائقها، فقد أنكرتم معانيها التي تدل عليها بإطلاقها، وما صرفتموه إليه من المجاز فنقيض معناها، أو لازم من لوازم معناها، وليس هو الحقيقة، ولهذا يصرح غلاتهم بإنكار معانيها بالكلية، ويقولون : هي ألفاظ لا معاني لها.

الرد الثاني : إن الحامل لكم على دعوى المجاز في اسم (الرحمن) هو بعينه موجود في اسم العليم، والقدير، والسميع، والبصير، وسائر الأسماء فإن المعقول من العلم صفة عرضية تقوم بالقلب إما ضرورة وإما نظرية والمعقول من الإرادة حركة النفس الناطقة لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها أو ينفع غيرها أو يضره، والمعقول من القدرة القوة القائمة بجسم تتأتى به الأفعال الاختيارية فهل تجعلون إطلاق هذه الأسماء والصفات على الله حقيقة أم مجازاً؟ فإن قلتم حقيقة تناقضتم أقبح التناقض إذ عمدتم إلى صفاته سبحانه فجعلتم بعضها حقيقة وبعضها مجازاً مع وجود المحذور فيما جعلتموه حقيقة، وإن قلتم لا يستلزم ذلك محذوراً فمن أين استلزم اسم (الرحمن) المحذور، وإن قلتم الكل مجاز لم تتمكنوا بعد ذلك من إثبات حقيقة الله ألبتة لا في أسمائه ولا في الإخبار عنه بأفعاله وصفاته، وهذا انسلاخ من العقل والإنسانية.

الرد الثالث : أن نفاة الصفات يلزمهم نفي الأسماء من جهة أخرى، فإن (العليم) و(القدير) و(السميع) و(البصير) أسماء تتضمن ثبوت الصفات في اللغة فيمن وصف بها، فاستعمالها لغير من وصف بها استعمال للاسم في غير ما وضع له، فكما انتفت عنه حقائقها فإنه تنتفي عنه أسماؤها، فإن الاسم المشتق تابع

(١) انظر نص كلامه في «مختصر الصواعق» (ص : ٣٤٢-٣٤٨).

للمشتق منه في النفي والإثبات ، فإذا انتفت حقيقة الرحمة والعلم والقدرة والسمع والبصر ، انتفت الأسماء المشتقة منها عقلاً ولغةً ، فيلزم من نفي الحقيقة أن تنفي الصفات والاسم جميعاً .

الرد الرابع : إنه كيف يكون أظهر الأسماء التي افتتح الله بها كتابه في (أم القرآن) ، وهي من أظهر شعار التوحيد ، والكلمة الجارية على السنة أهل الإسلام ، وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ التي هي مفتاح الطهور والصلاة وجميع الأفعال ، كيف يكون مجازاً؟ هذا من أشنع الأقوال ، فهذان الاسمان اللذان افتتح الله بهما (أم القرآن) ، وجعلهما عنوان ما أنزله من الهدى والبيان . وضمنهما الكلمة التي لا يثبت لها شيطان ، وافتتح بها كتابه نبيُّ الله سليمان ، وكان جبرائيل ينزل بها على النبي ﷺ عند افتتاح كل سورة من القرآن .

الرد الخامس : قولهم : (الرحمة : رقة القلب) تريدون رحمة المخلوق أم رحمة الخالق أم كل ما سمي رحمة شاهداً أو غائباً ، فإن قلتم بالأول صدقتم ولم ينفعكم ذلك شيئاً ، وإن قلتم بالثاني والثالث كنتم قائلين غير الحق ، فإن الرحمة صفة الرحيم ، وهي في كل موصوف بحسبه ، فإن كان الموصوف حيواناً له قلب فرحمته من جنسه رقة قائمة بقلبه ، وإن كان ملكاً فرحمته تناسب ذاته ، فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة ، لم يلزم أن تكون رحمته من جنس المخلوق لمخلوق وهذا يطرد في سائر الصفات كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحياة والإرادة إلزاماً وجواباً ، فكيف يكون رحمة أرحم الراحمين مجازاً دون السميع العليم؟

الرد السادس : إن اسم (الرحمة) استعمل في صفة الخالق وصفة المخلوق ، فإما أن يكون حقيقة في الموصوفين ، أو حقيقة في الخالق مجازاً في المخلوق أو عكسه ، فإذا كانت حقيقة فيهما ، فإما حقيقة واحدة وهو التواطؤ أو حقيقتان وهو الاشتراك ، ومحال أن تكون مشتركة ؛ لأن معناها يفهم عند الإطلاق ويجمعهما معنى واحد ويصبح تقسيمها ، وخواص المشترك منفية عنها ، ولأنها لم يشتق لها وضع في حق المخلوق ، ثم استعيرت من المخلوق للخالق ، تعالى الله عما يقول أهل الزيغ والضلال فبقي قسمان : أحدهما : أن تكون حقيقة في الخالق مجازاً في المخلوق ، والثاني : أن تكون حقيقة متواطئة أو مشتركة ، وعلى التقديرين فبطل أن يكون إطلاقها على الله سبحانه مجازاً .

الرد السابع : إنه من أعظم المحال أن تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء مجازًا ، ورحمة العبد الضعيفة القاصرة المخلوقة المستعارة من ربه التي هي من آثار رحمته حقيقة ، وهل في قلب الحقائق أكثر من هذا .

الرد الثامن : وهو ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : «أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسمًا من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته»^(١) ، فهذا صريح في أن اسم (الرحمة) مشتق من اسمه (الرحمن) تعالى ، فدل على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى كانت هي الأصل في اللفظ ، ومثل هذا قول حسان رضي الله عنه في النبي ﷺ :

فشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد فإذا كانت أسماء الخلق المحمودة مشتقة من أسماء الله الحسنى كانت أسماؤه يقينًا سابقة ، فيجب أن تكون حقيقة ؛ لأنها لو كانت مجازًا لكانت الحقيقة سابقة لها . فإن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، فيكون اللفظ قد سمي به المخلوق ثم نقل إلى الخالق ، وهذا باطل قطعًا .

الرد التاسع : ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي»^(٢) ، وفي لفظ : «غلبت» ، وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾^(٣) ، فوصف نفسه سبحانه بالرحمة ، وتسمى بـ(الرحمن) قبل أن يكون بنو آدم ، فادّعاء المدّعي أن وصفه بـ(الرحمن) مجاز من أبطل الباطل .

الرد العاشر : إنه من المعلوم أن المعنى المستعار يكون في المستعار منه أكمل منه في المستعار له ، وأن المعنى الذي دل عليه اللفظ بالحقيقة أكمل من المعنى الذي دل عليه بالمجاز ، وإنما يستعار لتكميل المعنى المجازي تشبيهه بالحقيقي ،

(١) أخرجه من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه : أحمد (١٩٦/١) ، وأبو داود (٣٢٢/٢) ، والترمذي (١٩٠٧/٢٧٨/٤) وقال : «حديث صحيح» ، وصححه الحاكم (١٥٨-١٥٧/٤) .

(٢) أخرجه : أحمد (٢٤٢-٢٥٨/٢) ، والبخاري (٣٥٢/٦) ، ومسلم (٢١٠٧/٤) ، والترمذي (٢٧٥١/٥) ، والنسائي في الكبرى (٤١٧/٤) ، وابن ماجه (١٤٣٥/٢) .

(٣) الأنعام : الآية (٥٤) .

كما يستعار (الشمس) و(القمر) و(البحر) للرجل الشجاع والجميل والجواد، فإذا جعل (الرحمن) و(الرحيم) و(الودود) وغيرهما من أسمائه سبحانه حقيقة في العبد، مجازًا في الرب لزم أن تكون هذه الصفات في العبد أكمل منها في الرب تعالى.

الرد الحادي عشر: إن الله ﷻ فرق بين رحمته والرضوان وثوابه المنفصل فقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَاقُصَاتٌ مِّنَ النَّخْلِ﴾^(١)، فالرحمة والرضوان صفته والجنة ثوابه، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثوابًا منفصلًا مخلوقًا. وقول من قال: هي إرادته الإحسان، فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة؛ فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم، فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان^(٢).

قال الشيخ ابن عثيمين مبيِّنًا أوجه الفرق بين الرحمة التي يتصف بها الخالق، والرحمة التي يتصف بها المخلوق: «ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق، لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها، . . فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلا الله ﷻ الذي خلقها، فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة، رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟ الجواب: أبدًا، لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق، أنها صفة تقتضي الإحسان إلى المخلوق، ورحمة الخالق غير مخلوقة؛ لأنها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة؛ لأنها من صفاته، فصفت الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق؛ لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لا يمكن؛ لأن صفات الخالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها»^(٣).

عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت

(١) التوبة: الآية (٢١).

(٢) انظر النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٨٠-٨٥).

(٣) القول المفيد (١/ ٤٣٨).

النار: أي رب! يدخلني الجبابرة والملوك والعظماء والأشراف، وقالت الجنة: يا رب! يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين، فقال الله للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «اعلم أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله.

والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: «احتجت الجنة والنار»، فذكر الحديث وفيه: «فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»، فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة؛ لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء، ومنه قوله ﷺ: «خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض»... ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾^(٢)، ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾^(٣)، وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديماً وحديثاً وهو قول الداعي: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك»^(٤).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/٧٨١)، وأبو يعلى (٢/٤٨٣/١٣١٣)، وصححه ابن حبان (١٦/٤٩٢/٧٤٥٤). وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/١١٢) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات؛ لأن حماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط».

(٢) هود: الآية (٩).

(٣) الأعراف: الآية (٥٧).

(٤) بدائع الفوائد (٢/١٨٣).

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ هُمْ أَمْنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

★ غريب الآية:

إصْرهم: الإصر: الثقل. والإصر: العهد أيضا. وقد جمعت هذه الآية المعنيين.

الأغلال: أي: الأثقال. واحده: غل، وهو مختص بما يقيد به، فيجعل الأعضاء وسطه.

عزروه: معناه هنا: نصره وأيدوه. والتعزيز في الأصل: النصرة مع التعظيم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا القول إبانة من الله - جل ثناؤه - عن أن الذين وعد موسى نبيه ﷺ، أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها - جل ثناؤه - بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هم أمة محمد ﷺ؛ لأنه لا يعلم لله رسول وصف بهذه الصفة - أعني ﴿الْأُمِّيَّ﴾ - غير نبينا محمد ﷺ، وبذلك جاءت الروايات عن أهل التأويل...»

وأما قوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ فإن الهاء في قوله: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ عائد على الرسول، وهو محمد ﷺ^(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾:

(١) جامع البيان (٩/ ٨١-٨٣) باختصار.

«يقول - تعالى ذكره - : يأمر هذا النبي الأمي أتباعه بالمعروف، وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك المعروف الذي يأمرهم به، وينهاهم عن المنكر، وهو الشرك بالله، والانتها عما نهاهم الله عنه .

وقوله : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ وذلك ما كانت الجاهلية تحرمه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ وذلك لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المطاعم والمشارب التي حرمها الله . . .

وأما قوله : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم : يعني بالإصر العهد والميثاق، الذي كان أخذه على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة، . . . وقال بعضهم : عنى بذلك أنه يضع عن اتباع نبي الله ﷺ التشديد الذي كان على بني إسرائيل في دينهم»^(١).

قال ابن عطية مرجحاً : «وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد بأن يقوموا بأعمال ثقال، فوضع عليهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال . . . ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأثقال، كقطع الجلد من أثر البول، وأن لا دية، ولا بد من قتل للقاتل، وترك الأشغال يوم السبت . . . هذا قول جمهور المفسرين . . . وقال ابن زيد : إنما المراد هنا بقول الله ﷻ ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ، فمن آمن بمحمد ﷺ زالت عنه الدعوة وتغلبها»^(٢).

وقال ابن جرير في قوله : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ : «يقول - تعالى ذكره - : فالذين صدقوا بالنبي الأمي، وأقروا بنبوته، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يقول : وقروه وعظموه وحموه من الناس، . . . وقوله : ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ يقول : وأعانوه على أعداء الله وأعدائه بجهادهم ونصب الحرب لهم، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ يعني القرآن والإسلام، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول : الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصف بها - جل ثناؤه - أتباع محمد ﷺ، هم

(١) جامع البيان (٨٤ / ٩) باختصار .

(٢) المحرر الوجيز (٤٦٣ / ٢ - ٤٦٤) باختصار .

المنجحون المدركون ما طلبوا ورجوا بفعلهم ذلك»^(١).

قال الرازي: «إنه تعالى وصف محمداً ﷺ في هذه الآية بصفات تسع:

الصفة الأولى: كونه رسولاً، وقد اختص هذا اللفظ بحسب العرف بمن أرسله الله تعالى إلى الخلق لتبليغ التكاليف»^(٢).

الصفة الثانية: كونه نبياً، وهو يدل على كونه رفيع القدر عند الله تعالى.

الصفة الثالثة: كونه أمياً. قال الزجاج: معنى (الأمي) الذي هو على صفة أمة

العرب. قال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب»^(٣)،

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤون، والنبي عليه الصلاة والسلام كان

كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أمياً. قال أهل التحقيق: وكونه أمياً، بهذا

التفسير، كان من جملة معجزاته، وبيانه من وجوه: الأول: أنه عليه الصلاة

والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل

ألفاظه، ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها، فإنه لا بد

وأن يزيد فيها، وأن ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه

ما كان يكتب وما كان يقرأ، يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير.

فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(٤)،

والثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب

(١) جامع البيان (٩/ ٨٥-٨٦) باختصار.

(٢) قال شيخ الإسلام في بيان وجه الفرق بين لفظ (الرسول) و(النبي): «فالنبي هو الذي ينشئه الله، وهو ينبئ بما

أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان

إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. . . فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا

يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعلم، ولهذا قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»،

وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولاً، وكان على ملة إبراهيم، وداود

وسليمان كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ

مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾. (النبوات

٧١٩-٧١٤/٣).

(٣) سيأتي تخريجه قريباً في الأحاديث الأصول.

(٤) الأعلى: الآية (٦).

الأولين ، فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة ، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة ، كان ذلك من المعجزات ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾^(١) ، الثالث : أن تعلم الخط شيء سهل ، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي ، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم ، ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين ، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر ، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً ، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين ، وذلك من الأمور الخارقة للعادة ، وجارٍ مجرى المعجزات .

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ ، وهذا يدل على أن نعتة وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل ؛ لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله ؛ لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات ، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله ، وينفر الناس عن قبول قوله ، فلما قال ذلك ، دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل ، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ، قال الزجاج : يجوز أن يكون قوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ استثناءً ، ويجوز أن يكون المعنى : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ ﴾ أنه ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٢) .

قال ابن كثير : « هذه صفة الرسول في الكتب المتقدمة ، وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : « إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فأزِعها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه » ، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه ، كما أرسل به جميع الرسل قبله ، كما

(١) العنكبوت : الآية (٤٨) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/٢٥-٢٦) .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١)،^(٢).
ثم قال الرازي: «الصفة السادسة: قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، والمراد منه
أضداد الأمور المذكورة وهي عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علم،
والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾، من الناس من قال:
المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها وهذا بعيد لوجهين: الأول: أن على
هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات، وهذا محض التكرير. الثاني: أن
على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة؛ لأننا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما
هي وكم هي؛ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب
الطبع، وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل، فكانت هذه الآية
دالة على أن الأصل في كل ما تستطيه النفس ويستلذه الطبع الحل، إلا لدليل
منفصل.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾،^(٣) قال عطاء
عن ابن عباس: يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة (المائدة) إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ
فَسَقُ﴾ وأقول: كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سبباً للألم،
والأصل في المضار الحرمة، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه
الحرمة إلا لدليل منفصل. وعلى هذا الأصل: فرع الشافعي رحمه الله تحريم بيع
الكلب؛ لأنه روى عن ابن عباس عن النبي ﷺ في كتاب الصحيحين أنه قال:
«الكلب خبيث، وخبيث ثمنه»^(٤)، وإذا ثبت أن ثمنه خبيث وجب أن يكون حراماً
لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾، وأيضاً الخمر محرمة؛ لأنها رجس بدليل
قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿رِجْسٌ﴾ والرجس خبيث بدليل إطباق أهل
اللغة عليه، والخبيث حرام لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٧).

(١) النحل: الآية (٣٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/١١٨-١١٩) والبخاري (٤/٥٣٦/٢٢٣٧) ومسلم (٣/١١٩٨/١٥٦٧) وأبو داود (٣/٧١٠/٣٤٢٨) والترمذي (٣/٤٣٩/١١٣٣) والنسائي (٧/٢١٥/٤٣٠٣) وابن ماجه (٢/٧٣٠/٢١٥٩) كلهم
من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه. أما حديث ابن عباس فليس في الصحيحين، وإنما أخرجه أحمد
(١/٢٧٨).

الصفة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على أن شريعته ﷺ أسهل الشرائع، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية، وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة^(٢). وتدل على وجوب تعظيم الرسول، ونصره بالجهاد، ونصرته بنصرة دينه، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك؛ لأن جميع ذلك من باب النصرة، وهذا لا يختص بعصره، فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف، ولعل الجهاد بالبيان وإيراد الحجة ووضع الكتب فيه، وحل شبه المخالفين، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف، ولهذا قلنا منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل»^(٣).

قال الرازي: «واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة؛ لأن كل ما كان ضرراً كان إصرًا وغلاً، وظاهر هذا النص يقتضي عدم المشروعية، وهذا نظير لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار»^(٤) في الإسلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة»^(٥)، وهو أصل كبير في الشريعة»^(٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض صفات الرسول ﷺ

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا»، يعني مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين^(٧).

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/١٥-٢٧).

(٢) قال ابن العربي: «وكان فيما سبق من الشرائع تكاليف كثيرة، فيها مشاق عظيمة، وخفف تلك المشاق لمحمد ﷺ، فمنها مشقتان عظيمتان: الأولى في البول، كان إذا أصاب ثوب أحدهم قرصه، فخفف الله ذلك عن هذه الأمة بالغسل بالماء... ومن الإصر الذي وضع لإحلال الغنائم، وكانت حراماً على سائر الأمم، ومنها أن لا تجالس الحائض ولا تؤاكل، فخفف الله ذلك في دينه، فقال ﷺ: «لتشد عليها إزارها، ثم شأنه بأعلاها» في أعداد لأمثالها». (أحكام القرآن ٢/٧٩٥). (٣) محاسن التأويل (٧/٢٧٨).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة (الأنعام). (٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة (الأنعام).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٧/١٥).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/٤٣ و ٥٢)، والبخاري (٤/١٥٩/١٩١٣)، ومسلم (٢/٧٦١/١٠٨٠ [١٥])، وأبو داود (٢/٧٣٩-٧٤٠/٢٣١٩)، والنسائي (٤/٤٤٦-٤٤٧/٢١٣٩-٢١٤٠).

★ فوائد الحديث:

تقدم شرحه وبيان معناه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في سورة (البقرة) تحت قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الآية (٧٨).

✳ عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قلنا: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: «أجل - والله - إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، وحرزاً للأمين، أنت عبادي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفْتَحُ بها عين عمي، وآذان صم، وقلوب غلف»^(٢).

★ فوائد الحديث:

تقدم شرح غريبه وبيان فوائده عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ الآية (١١٩) من سورة (البقرة)، وعند قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَوِ انْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَسُكْرًا يُسْقَىٰ﴾ الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران).

✳ عن الفلتان بن عاصم قال: «كنا قعوداً مع النبي ﷺ في المسجد، فشخص بصره إلى رجل يمشي في المسجد، فقال: يا فلان، أتشهد أنني رسول الله؟ قال: لا. قال: أتقرأ التوراة؟ قال: نعم، قال: والإنجيل؟ قال: نعم، قال: والقرآن؟ قال: والذي نفسي بيده، لو أشاء لقراءته. قال: ثم أنشده، فقال: تجدني في التوراة والإنجيل؟ قال: نجد مثلك ومثل أمتك ومثل مخرجك، وكنا نرجو أن تكون فينا، فلما خرجت، تخوفنا أن تكون أنت، فنظرنا فإذا ليس أنت هو. قال: ولم ذاك؟ قال: إن معه من أمته سبعين ألفاً ليس عليهم حساب ولا عقاب، وإن ما معك نفر يسير، قال: فوالذي نفسي بيده لأنا هو، وإنها لأمتي، وإنهم لأكثر من سبعين ألفاً،

(١) الأحزاب: الآية (٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١٧٤/٢)، والبخاري (٢١٢٥/٤٣١/٤).

وسبعين ألفاً، وسبعين ألفاً»^(١).

★ غريب الحديث:

فشخص بصره: شخوص البصر: ارتفاع الأجفان إلى فوق، وتحديد النظر وانزعاجه.

★ فوائد الحديث:

المقصود من إيراد هذا الحديث هنا: بيان أن هذه الصفة التي نعت الله بها نبيه ﷺ في كتابه هي صفته ﷺ الموصوف بها «في كتب الأنبياء قبله بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم»^(٢).

قال القسطلاني: «وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته، لكن أهل الكتاب كما قال الله تعالى: ﴿لَيَكْفُرُوا بِمَا لَمْ يُخَالَفُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، و﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(٤)، وإلا فهم -قاتلهم الله- عرفوا محمداً ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوها وبدّلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فدلائل نبوته ﷺ في كتابيهما -بعد تحريفهما- طافحة، وأعلام شريعته ورسالته فيهما لا تحصى»^(٥).

وقال القاضي عياض: «ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب، من صفته وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وجد من ذلك في أشعار الموحدين المتقدمين؛ من شعر تبة والأوس بن حارثة، وكعب بن لؤي، وسفيان بن مجاشع، وقس بن ساعدة،

(١) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٨/٣٣٣-٣٣٤/٨٥٥)، والبزار (كشف الأستار ٤/٢٠٧-٢٠٨/٣٥٤٤)، قال البزار: «لا نعلم أحداً يرويه عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد»، وصححه ابن حبان (١٤/٥٤١-٥٤٢/٦٥٨٠) واللفظ له. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/٢٤٢) وقال: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات من أحد الطريقين»، وذكره في (١٠/٤٠٧-٤٠٨) منه وقال: «رواه البزار ورجاله ثقات».

(٢) أفاده ابن كثير في التفسير (٣/٤٨١) بتصرف يسير. (٣) البقرة: الآية (١٤٦).

(٤) النساء: الآية (٤٦). (٥) المواهب اللدنية (٣/١٧٤-١٧٥).

وما ذكر عن سيف بن ذي يزن وغيرهم، وعرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثكلان الحميري، وعلماء يهود، وشامول عالمهم صاحب تبّع، من صفته وخبره. وما أُلْفِي من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبيّنوه، ونقله عنهما ثقات من أسلم منهم، مثل ابن سلام وابني سعية، وابن يامين، ومخيريق، وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود، وبحيرا، ونصطور الحبشة، وصاحب بصرى، وضغاطر، وأسقفت الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشي، ونصارى الحبشة، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى. وقد اعترف بذلك هرقل، وصاحب رومة عالما النصارى ورئيساهم، ومقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب، وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطيا، وغيرهم من علماء اليهود، ممن حمله الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء.

والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر.

وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتجّ عليهم بما انطوت عليه من ذلك صُحُفهم، وذمّهم بتحريف ذلك وكتمانه، وليّهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكذب؛ فما منهم إلا من نفر عن معارضته، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهاره.

ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال وتخريب الديار ونبد القتال، وقد قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)،^(٢).

* عن أبي موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره، قال: «بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «فيه ما يجب الاقتداء به من التيسير في الأمور، والرفق

(١) آل عمران: الآية (٩٣).

(٢) الشفا (١/٥١٥-٥١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/٣٩٩)، ومسلم (٣/١٣٥٨/١٧٣٢)، وأبو داود (٥/١٧٠/٤٨٣٥).

بالناس، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة والتنفير لقلوبهم، لا سيما فيمن كان قريب العهد به، وكذلك يجب فيمن قارب حد التكليف من الأطفال، ولم يتمكن رسوخ الأعمال في قلبه، ولا التمرن عليها، ألا يشدد عليه ابتداءً؛ لأن لا ينفر عن عمل الطاعات، نعم وكذلك يجب للإنسان في نفسه في تدريبها على الأعمال إذا صدقت إرادته، ألا يبتدئها أولاً إلا بتدريج وتيسير، حتى إذا أنست بحاله ودامت عليها، ينقلها لحال آخر، وزاد عليها في عمل أكثر من الأول، حتى يرى قدر احتمالها، ولا يكلفها ما لعلها تعجز عنه ولا يدوم عليه^(١).

قال النووي: «إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأنه قد يفعلهما في وقتين، فلو اقتصر على «يسروا»، لصدق ذلك على من يسر مرة، أو مرات، وعسر في معظم الحالات، فإذا قال: «ولا تعسروا» انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب»^(٢).

وقال الطيبي: «والأحاديث.. متعاضدة على معنى عدم الحرج والتضييق في أمور الملة الحنيفية السمحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٣). . . كأنه قيل: وسع الله عليكم دينكم يا أمة نبي الرحمة خاصة، ورفع عنكم الحرج أيًا كان»^(٤).

وانظر زوائد فوائد عند الآية (١٨٥) من سورة (البقرة).

* عن علي رضي الله عنه قال: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً؛ فظنوا به الذي هو أهناه وأهداه وأتقاه»^(٥).

* غريب الأثر:

أهناء: في الأصل بالهمز: اسم تفضيل من هنا الطعام، بالهمزة: إذا ساغ أو جاء بلا تعب ولم يعقبه بلاء، لكن قلبت همزته ألفاً للازدواج والمشاكلة.

أتقاه: اسم تفضيل من الاتقاء، على الشذوذ؛ لأن القياس بناء اسم التفضيل من

(٢) شرح مسلم (٣٦-٣٧/١٢).

(٤) شرح الطيبي (٨/٢٥٩٠).

(١) الإكمال (٣٧/٦).

(٣) الحج: الآية (٧٨).

(٥) أخرجه: أحمد (١/١٢٢)، وابن ماجه (١/٩/٢٠) واللفظ له. وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله

محتج بهم في الصحيحين».

الثلاثي المجرد، وهو مبني على توهم أن التاء حرف أصلي .

★ فوائد الأثر:

قال السندي: «قوله: «الذي هو أهناه» أي: الذي هو أوفق به من غيره، وأهدى وأليق بكمال هداه .

قوله: «وأتقاه» أي: وأنسب بكمال تقواه، وهو أن قوله صواب، ونصح واجب العمل به؛ لكونه جاء من عند الله تعالى، وبلغه الناس بلا زيادة ونقصان»^(١).

وقوله: «الذي هو أهده» قال السندي: «أي: الظنون، وهو أن ذلك الحديث صدق حق»^(٢).

(١) حاشية ابن ماجه (١/١٢).

(٢) حاشية المسند (٢/٢٨٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
الَّذِي لَمْ يَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذا أمر من الله ﷻ لنبهه بإشهار الدعوة والحض على الدخول في الشرع، وذلك أنه لما رَجَى الأمة المتبعة للنبي الأمي، التي كتب لهم رحمته، عقب ذلك بدعاء الناس إلى الاتباع الذي معه تحصل تلك المنازل، وهذه الآية خاصة لمحمد ﷺ بين الرسل؛ فإن محمداً ﷺ بعث إلى الناس كافة، وإلى الجن، قاله الحسن، وتقتضيه الأحاديث، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم، ثم إنه لما أعلن بالرسالة من عند الله، أردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له، وهي أنه ملك السموات والأرض بالخلق والإبداع، والإحياء والإماتة، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، هو الحض على اتباع محمد ﷺ^(١). قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ فإنه من نعت رسول الله ﷺ، .. ومعنى قوله: ﴿الْأُمِّيِّ﴾ يقول: الذي يصدق بالله وكلماته. ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ فقال بعضهم: معناه: وآياته، .. وقال آخرون: بل عني بذلك عيسى ابن مريم عليه السلام، .. والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله - تعالى ذكره - أمر عباده أن يصدقوا بنبوة النبي الأمي، الذي يؤمن بالله وكلماته، ولم يخصص الخبر - جل ثناؤه - عن إيمانه من كلمات الله ببعض

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٦٤-٤٦٥).

دون بعض، بل أخبرهم عن جميع الكلمات، فالحق في ذلك أن يعم القول، فإن رسول الله ﷺ كان يؤمن بكلمات الله كلها، على ما جاء به ظاهر كتاب الله. وأما قوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا به أيها الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يقول: لكي تهتدوا فترشدوا، وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه^(١).

وقال الرازي: «هذه الآية تدل على أن محمداً ﷺ مبعوث إلى جميع الخلق، وقال طائفة من اليهود يقال لهم العيساوية، وهم أتباع عيسى الأصفهاني: إن محمداً رسول الله صادق، مبعوث إلى العرب، وغير مبعوث إلى بني إسرائيل، ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية؛ لأن قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ خطاب يتناول كل الناس^(٢). وسيأتي تفصيل الرد عليهم وعلى من قال بمثل قولهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأنه ﷺ رسول إلى جميع الناس، وصرح بذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٣)، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾^(٥)، وقيد في موضع آخر عموم رسالته ببلوغ هذا القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٦)، وصرح بشمول رسالته لأهل الكتاب مع العرب بقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلِمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾^(٧) إلى غير ذلك من الآيات^(٨).

قال ابن عاشور: «والمقصود من ذكر هذه الأوصاف الثلاثة - أي: في قوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ - تذكير اليهود ووعظهم، حيث جحدوا نبوة محمد ﷺ، وزعموا أنه لا رسول بعد موسى،

(١) جامع البيان (٨٦/٩-٨٧) باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/١٥).

(٣) سبأ: الآية (٢٨).

(٤) الفرقان: الآية (١).

(٥) هود: الآية (١٧).

(٦) الأنعام: الآية (١٩).

(٧) آل عمران: الآية (٢٠).

(٨) أضواء البيان (٣٣٤/٢).

واستعظموا دعوة محمد ﷺ، فكانوا يعتقدون أن موسى لا يشبهه رسول، فذكروا بأن الله مالك السموات والأرض، وهو واهب الفضائل، فلا يستعظم أن يرسل رسولا، ثم يرسل رسولا آخر؛ لأن الملك بيده، ولأن الله هو الذي لا يشابهه أحد في ألوهيته، فلا يكون إلهان للخلق، وأما مرتبة الرسالة فهي قابلة للتعدد، وبأن الله يحيي ويميت، فكذلك هو يميت شريعة ويحيي شريعة أخرى، وإحياء الشريعة إيجادها بعد أن لم تكن؛ لأن الإحياء حقيقته إيجاد الحياة في الموجود، ثم يحصل من هذه الصفات إبطال عقيدة المشركين، بتعدد الآلهة، وبإنكار الحشر.

وقد انتظم أن يفرع على هذه الصفات الثلاث الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرسول في قوله: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾، والمقصود طلب الإيمان بالنبي الأمي؛ لأنه الذي سيق الكلام لأجله، ولكن لما صُدِّر الأمر ب خطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن بالله، وفيهم من يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبي الأمي، جُمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي الأمي في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجهاً للفرق كلهم، ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان بالله والنبي الأمي، مع قضاء حق التأدب مع الله بجعل الإيمان به مقدماً على طلب الإيمان بالرسول ﷺ للإشارة إلى أن الإيمان بالرسول إنما هو لأجل الإيمان بالله، على نحو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾^(١)، وهذا الأسلوب نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ فإنهم آمنوا بالله ورسوله، وإنما المقصود زيادة النهي عن اعتقاد التثليث، وهو المقصود من سياق الكلام.

والإيمان بالله الإيمان بأعظم صفاته وهي الإلهية المتضمن إياها اسم الذات، والإيمان بالرسول الإيمان بأخص صفاته وهو الرسالة، وذلك معلوم من إناطة الإيمان بوصف الرسول دون اسمه العلم.

وفي قوله: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ.

ووصف النبي الأمي بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى

وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وأنه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب؛ لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق. وهذا نظير قوله تعالى في تفضيل المسلمين: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾^(١)،^(٢).

وقال في قوله: ﴿وَكَلِمَتِهِ﴾: «أوثر هنا بكلماته دون كتبه؛ لأن المقصود الإيمان إلى إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام بأن عيسى كلمة الله؛ أي: أثر كلمته، وهي أمر التكوين؛ إذ كان تكوّن عيسى عن غير سبب التكون المعتاد، بل كان تكونه بقول الله: (كن)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣)، فاقضى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بعيسى؛ أي: بكونه رسولاً من الله، وذلك قطع لمعذرة النصارى في التردد في الإيمان بمحمد ﷺ، واقتضى أن الرسول يؤمن بأن عيسى كلمة الله وليس ابن الله، وفي ذلك بيان للإيمان الحق، ورد على اليهود فيما نسبوه إليه، ورد على النصارى فيما غلوا فيه»^(٤).

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا كثرة كلماته، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٦)،^(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

الدالة على عموم رسالته ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس

عن أبي الدرداء قال: «كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ١٤١).

(٦) لقمان: الآية (٢٧).

(١) آل عمران: الآية (١١٩).

(٣) آل عمران: الآية (٥٩).

(٥) الكهف: الآية (١٠٩).

(٧) أضواء البيان (٢/ ٣٣٤).

أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ: أما صاحبكم هذا فقد غامر، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: واللّه -يا رسول الله- لانا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) فقلت: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت^(١).

★ غريب الحديث:

غامر: بالغين المعجمة؛ أي: خاصم. والمعنى: دخل في غمرة الخصومة. والغامر الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم كالحرب وغيره. وقيل: هو من الغمر، بكسر المعجمة، وهو الحقد؛ أي: صنع أمراً اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه ويحقد الآخر عليه.

★ فوائد الحديث:

قوله: «إني قلت: (يا أيها الناس...)» وقال أبو بكر: صدقت:

قال القسطلاني: «وهذا خطاب عام يرد على العيسوية من اليهود المصدقين ببعثته إلى العرب، لا إلى بني إسرائيل؛ لانا نقول إنهم أقرؤا بأنه رسول، وإذا كان كذلك كان صادقاً في كل ما يدعيه، وقد ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي عموم رسالته، فوجب تصديقه وبطل قولهم إنه كان مبعوثاً لا لبني إسرائيل»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «وهذا القدر يعترف به كل عاقل -من اليهود والنصارى- يعترفون بأن دين المسلمين حق، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وأن من أطاعه منهم دخل الجنة، بل يعترفون بأن دين الإسلام خير من دينهم، كما أطبقت على ذلك الفلاسفة، كما قال ابن سينا وغيره: أجمع فلاسفة العالم على أنه لا يقرع العالم ناموس أعظم من هذا الناموس، لكن من لم يتبعه يعلل نفسه بأنه لا يجب عليه اتباعه، لأنه رسول إلى العرب الأميين دون أهل الكتاب، لأنه إن كان دينه حقاً

(١) أخرجه البخاري (٨/٣٨٦/٤٦٤٠).

(٢) إرشاد الساري (١٠/٢٥٩).

فديننا أيضًا حق، والطريق إلى الله تعالى متنوعة، ويشبهون ذلك بمذاهب الأئمة، فإنه وإن كان أحد المذاهب يرجح على الآخر، فأهل المذاهب الأخر ليسوا كفارًا ولا من أهل الكتاب، هذه الشبهة التي يضل بها المتكايسون من أهل الكتاب، والمتفلسفة ونحوهم وبطلانها ظاهر، فإنه كما علم علمًا ضروريًا متواترًا أنه دعا المشركين إلى الإيمان، فقد علم بمثل ذلك أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأنه جاهد أهل الكتاب كما جاهد المشركين، فجاهد بني قينقاع، وبني النضير، وقريظة، وأهل خيبر، وهؤلاء كلهم يهود، وسبى ذريتهم ونساءهم، وغنم أموالهم، وأنه غزا النصاري عام تبوك بنفسه وبسراياه، حتى قتل في محاربتهم زيد بن محمد مولاة الذي كان تبناه، وجعفر وغيرهما من أهله، وأنه ضرب الجزية على نصارى نجران. وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده، جاهدوا أهل الكتاب وقتلوا من قاتلهم، وضربوا الجزية على من أعطاهم منهم عن يد وهم صاغرون. وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به، مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه، ويكفر من لم يتبعه منهم، ويذمه ويلعنه، والوعيد له كما في تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه، والوعيد كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾^(١) الآية. وفي القرآن من قوله: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ﴾، ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾، ما لا يحصى إلا بكلفة. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٢)، ومثل هذا في القرآن كثير جدًا، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٣)، فإذا علم بالاضطرار بالنقل المتواتر - الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته - أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم، وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه، وأنه ضرب الجزية عليهم، وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم، فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعات، وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر، وفي ذلك أنزل الله سورة (الحشر)، ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد، وقتل رجالهم وسبى حريمهم

(١) النساء: الآية (٤٧).

(٢) البينة: الآيات (١-٧).

(٣) سبأ: الآية (٢٨).

وأخذ أموالهم، وقد ذكره الله تعالى في سورة (الأحزاب)، وقاتل أهل خيبر حتى فتحها، وقتل من قتل من رجالهم، وسبى من سبى من حريمهم، وقسم أرضهم بين المؤمنين، وقد ذكرها الله تعالى في سورة (الفتح)، وضرب الجزية على النصارى، وفيهم أنزل الله سورة (آل عمران)، وغزا النصارى عام تبوك، وفيها أنزل الله سورة (براءة)، وفي عامة السور المدنية مثل (البقرة) و(آل عمران) و(النساء) و(المائدة)، وغير ذلك من السور المدنية، من دعوة أهل الكتاب وخطابهم، ما لا تتسع هذه الفتوى لعشره، ثم خلفاؤه بعده أبو بكر وعمر، ومن معهما من المهاجرين والأنصار، الذي يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له، وأطوعهم لأمره وأحفظهم لعهد، وقد غزوا الروم كما غزوا فارس، وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس، فقاتلوا من قاتلهم، وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون. ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١). قال سعيد بن جبیر: تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ﴾^(٢)، ومعنى الحديث متواتر عنه، معلوم بالاضطرار، فإذا كان الأمر كذلك، لزم بأنه رسول الله إلى كل الطوائف، فإنه يقرر بأنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم، فإن رسول الله لا يكذب، ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله، ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن الله،.. فإذا علم أنه نبي كيف ما كان، لزم أن يكون ما أخبر به عن الله حقاً، وإذا كان رسول الله وجبت طاعته في كل ما يأمر به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣)، وإذا أخبر أنه رسول الله إلى أهل الكتاب، وأنه تجب عليهم طاعته كان ذلك حقاً^(٤).

* عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(٥).

(١) سيأتي تخريجه قريباً في أحاديث الباب.

(٢) هود: الآية (١٧).

(٣) النساء: الآية (٦٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/٢٠٣-٢٠٧) بتصرف.

(٥) أخرجه: أحمد (٢/٣١٧-٣٥٠)، ومسلم (١/١٣٤/١٥٣).

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «المراد أن كل من بلغته دعوته ﷺ وثبتت عنده رسالته، يجب عليه الإيمان به، أميًا كان أو كتابيًا، فإن لم يؤمن به لم يدخل الجنة، وعلم منه عموم رسالته ﷺ إلى الكل، والله تعالى أعلم»^(١).

قال النووي: «وقوله: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة» أي: ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهًا على من سواهما، ذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى، والله أعلم»^(٢). وقال أيضًا: «فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ»^(٣).

وقال القاضي عياض: «فيه دليل على أن من في أطراف الأرض وجزائر البحر المقطعة ممن لم تبلغه دعوة الإسلام ولا أمر النبي ﷺ أن الحرج عنه في عدم الإيمان به ساقط؛ لقوله: «لا يسمع بي»؛ إذ طريقة معرفته والإيمان به ﷺ مشاهدة معجزته وصدقه أيام حياته، أو صحة النقل بذلك والخبر لمن لم يشاهده، وجاء بعده بخلاف الإيمان بالله وتوحيده الذي يوصل إليه بمجرد النظر الصحيح ودليل العقل السليم»^(٤).

وقد تقدم الكلام على هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَحَدٌ﴾ الآية (١٩) من سورة (آل عمران).

عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة»^(٥).

(١) حاشية المسند (٣٢/٣٠٦).

(٢) شرح النووي (٢/١٦٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الإكمال (١/٤٦٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/٣٠٤)، والبخاري (١/٥٧٤/٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١/٣٧٠-٣٧١/٥٢١)، والنسائي (١/٢٢٩-٢٣١/٤٣٠).

★ فوائد الحديث:

تقدم شرح غريبه وبيان بعض فوائده عند قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ الآية (٩٢) من سورة (الأنعام).

وفيه من الفوائد مما لم يتقدم:

أن قوله: «وبعثت إلى الناس عامة» يدخل فيه الجن أيضاً، كما صرح بذلك أئمة اللغة.

قال العلامة الخيزري: «قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي: الجن داخلون في مسمى الناس لغة. وقال الجوهرى: الناس قد يكونون من الجن والإنس. ويؤيد ذلك رواية: «بعثت إلى كل أحمر وأسود»^(١)؛ فإن العلماء اختلفوا في المراد بهم فقيل: هم الإنس والجن. ويؤيده قول من قال: إن إطلاق السواد على الجن صحيح باعتبار تشابههم بالأرواح، والأرواح يقال لها: أسودة، كما في حديث الإسراء أنه رأى آدم وعن يمينه أسودة وعن شماله أسودة، وأنها نسمة بنيته^(٢). . . وأصرح الأدلة على ذلك. . . رواية مسلم: «وأرسلت إلى الخلق كافة».

قال ابن عبد البر: (لا يختلفون في أن محمداً رسول الله إلى الإنس والجن، بشير ونذير، وهذا مما فضل به على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه بعث إلى الخلق كافة؛ الجن والإنس وغيره لم يرسل إلا بلسان قومه). وكذلك نقل ابن حزم. وكذلك صرح ببعثته إليهم من أصحابنا الحليني في «شعب الإيمان» والرويانى في «البحر»، وغيرهما. وقال ابن تيمية: (أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى جميع الثقليين؛ الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته، وأن يحللوا ما حلل الله تعالى ورسوله، ويحرموا ما حرم الله تعالى ورسوله ﷺ، وأن يحبوا ما أحب الله تعالى ورسوله، ويكرهوا ما كرهه الله تعالى ورسوله ﷺ، وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن فلم يؤمن به؛ استحق

(١) هذه الرواية عند: أحمد (٣/٣٠٤)، ومسلم (١/٣٧٠-٣٧١/٥٢١).

(٢) الحديث أخرجه مطولاً من حديث أبي بن كعب ؓ: أحمد (٥/١٤٣)، والبخاري (١/٦٠٥-٦٠٦/٣٤٩)، ومسلم (١/١٤٨-١٤٩/١٦٣).

عقاب الله تعالى ، كما يستحق أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسل . وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين).

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أنهم آمنوا به ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١) ، وأمره تعالى أن يخبر بذلك ، قال تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ السُّورَةَ بِكَمَالِهَا ، فَأَمْرَهُ سَبْحَانَهُ بِإِعْلَامِ أَمْتِهِ بِأَحْوَالِ الْجِنِّ ، وأنه مبعوث إلى الإنس والجن ؛ لما في ذلك من هدي الإنس والجن إلى ما يجب عليهم من الإيمان بالله تعالى ورسوله عليهم الصلاة والسلام واليوم الآخر ، وما يجب من طاعة رسوله ، وتحريم الشرك على الجن وغيرهم ، كما قال تعالى في السورة : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(٢) . وقد اجتمع النبي ﷺ بطوائف من الجن ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأسلموا وآمنوا به ، والأحاديث بذلك كثيرة . وقال تعالى مخبراً عنهم أنهم قالوا : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾^(٣) ، وقال تعالى عنهم : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الضَّالِّحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾^(٤) ؛ أي : مذاهب شتى ؛ مسلمون وكفار ، وأهل سنة وأهل بدعة ، وقد روى الإمام أحمد في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له عن السدي أنه قال : في الجن قدرية ، ومرجئة ، وشيعة . . .»^(٥) .

وقال ابن دقيق العيد : «وظاهره - أي : حديث جابر - يقتضي أن كل واحدة من هذه الخمس لم يكن لأحد قبله ، ولا يعترض على هذا بأن نوحاً ﷺ بعد خروجه من الفلك كان مبعوثاً إلى كل أهل الأرض ؛ لأنه لم يبق إلا من كان مؤمناً معه وقد كان مرسلاً إليهم ؛ لأن هذا العموم في الرسالة لم يكن في أصل البعثة ، وإنما وقع لأجل الحادث الذي وقع ، وهو انحصار الناس في الموجودين لهلاك سائر الناس . وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل بعثته»^(٦) .

قال الحافظ عقب كلام ابن دقيق : «وأما قول أهل الموقف لنوح كما صح في

(١) الأحقاف : الآيات (٢٩-٣٢) .

(٢) الجن : الآية (٦) .

(٣) الجن : الآية (١٤) .

(٤) الجن : الآية (١١) .

(٥) اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ (٢/٧٤-٧٦) . وانظر مجموع الفتاوى (١٩/٩-١٠) .

(٦) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (١/١١٤) .

حديث الشفاعة: «أنت أول رسول إلى أهل الأرض»^(١)، فليس المراد به عموم بعثته بل إثبات أولية إرساله، وعلى تقدير أن يكون مرادًا فهو مخصوص بتنصيبه ﷺ في عدة آيات على أن إرسال نوح كان إلى قومه، ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم، واستدل بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من في الأرض فأهلكوا بالغرق إلا أهل السفينة، ولو لم يكن مبعوثًا إليهم لما أهلكوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَقَّ نَبَعَتْ رَسُولًا﴾^(٢)، وقد ثبت أنه أول الرسل. وأجيب بجواز أن يكون غيره أرسل إليهم في أثناء مدة نوح وعلم نوح بأنهم لم يؤمنوا، فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيب. وهذا جواب حسن لكن لم ينقل أنه نبي في زمن نوح غيره. ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا ﷺ في ذلك بقاء شريعته إلى يوم القيامة ونوح وغيره بصدد أن يبعث نبي في زمانه أو بعد فينسخ بعض شريعته. ويحتمل أن يكون دعاؤه قومه إلى التوحيد بلغ بقية الناس، فتمادوا على الشرك، فاستحقوا العقاب، وإلى هذا نحا ابن عطية في تفسير سورة (هود) قال: وغير ممكن أن تكون نبوته لم تبلغ القريب والبعيد لطول مدته. ووجهه ابن دقيق العيد بأن توحيد الله تعالى يجوز أن يكون عامًا في حق بعض الأنبياء، وإن كان التزام فروع شريعته ليس عامًا؛ لأن منهم من قاتل غير قومه على الشرك، ولو لم يكن التوحيد لازمًا لهم لم يقاتلهم، ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرسال نوح إلا قوم نوح، فبعثته خاصة؛ لكونها إلى قومه فقط، وهي عامة في الصورة؛ لعدم وجود غيرهم، لكن لو اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثًا إليهم»^(٣).

* * *

(١) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.. الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) الإسراء: الآية (١٥).

(٣) فتح الباري (١/ ٥٧٥-٥٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره - : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ يعني بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقول: يهتدون بالحق؛ أي: يستقيمون عليه ويعملون، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: وبالحق يعطون ويأخذون، وينصفون من أنفسهم فلا يجورون»^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَئِذَا يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبِذَرْنَاهُمْ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾^(٥) الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٥٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿٥٩﴾﴾^(٦)،^(٧).

(٢) آل عمران: الآية (١١٣).
(٤) القصص: الآيات (٥٢-٥٤).

(١) جامع البيان (٨٧/٩).
(٣) آل عمران: الآية (١٩٩).
(٥) البقرة: الآية (١٢١).
(٦) الإسراء: الآيات (١٠٧-١٠٩).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩١-٤٩٢).

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَى عَشْرَةِ أَسْبَاطًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١٦٠)

★ غريب الآية:

أسباطًا : أي : قبائل ، كل قبيلة من نسل رجل .

انبجست : أي : انفجرت . وبجس الماء وانبجس : انفجر . لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع .

المنّ والسلوى : المنّ : شيء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر ، والسلوى : طائر . وقيل : المنّ والسلوى : كلاهما إشارة إلى ما أنعم الله به عليهم ، وهما بالذات شيء واحد ، لكن سمّاه منّا بحيث إنه امتنّ به عليهم ، وسمّاه سلوى من حيث إنه كان لهم به التسلي .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : فرقناهم ، يعني قوم موسى من بني إسرائيل ، فرقهم الله فجعلهم قبائل شتى ، اثنتي عشرة قبيلة . وقد بيّنا معنى (الأسباط) فيما مضى ، ومن هم .

واختلف أهل العربية في وجه تأنيث (الاثنتي عشرة) و(الأسباط) جمع مذكر ، فقال بعض نحويي البصرة : أراد اثنتي عشرة فرقة ، ثم أخبر أن الفرق أسباط ، ولم يجعل العدد على (أسباط) . وكان بعضهم يستحكي على هذا التأويل ويقول : لا يخرج العدد على عين الثاني ، ولكن (الفرق) قبل (الاثنتي عشرة) حتى تكون

(الاثنتا عشرة) مؤنثة على ما قبلها ، ويكون الكلام : وقطعناهم فرقاً اثنتي عشرة أسباطاً ، فيصح التأنيث لما تقدم . وقال بعض نحويي الكوفة ، إنما قال : (اثنتي عشرة) بالتأنيث ، و(السبط) مذكر ؛ لأن الكلام ذهب إلى (الأمم) فغلب التأنيث وإن كان (السبط) ذكراً ، وهو مثل قول الشاعر :

وإن كلاباً هذه عشر أبطنٍ وأنت بريء من قبائلها العشرِ

ذهب بـ(البطن) إلى القبيلة والفصيلة ، فلذلك جمع (البطن) بالتأنيث .

وكان آخرون من نحويي الكوفة يقولون : إنما أنثت (الاثنتا عشرة) ، و(السبط) ذكر ؛ لذكر (الأمم) .

والصواب من القول في ذلك عندي أن (الاثنتي عشرة) أنثت لتأنيث (القطعة) . ومعنى الكلام : وقطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ، ثم ترجم عن (القطع) بـ(الأسباط) ، وغير جائز أن تكون (الأسباط) مفسرة عن (الاثنتي عشرة) ، وهي جمع ؛ لأن التفسير فيما فوق (العشر) إلى (العشرين) بالتوحيد ، لا بالجمع ، و(الأسباط) جمع لا واحد ، وذلك كقولهم : عندي اثنتا عشرة امرأة ، ولا يقال : عندي اثنتا عشرة نسوة ، ففي ذلك أن (الأسباط) ليست بتفسير للاثنتي عشرة ، وأن القول في ذلك على ما قلنا .

وأما (الأمم) فالجماعات ، و(السبط) في بني إسرائيل نحو (القرن) . وقيل : إنما فرقوا أسباطاً لاختلافهم في دينهم .

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ، أَنِ اصْبِرْ فِي صَبْرِكَ الْخَجَرَ فَأَنْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلْنَا عَنْهُمْ آلِهَتَهُمُ الَّذِينَ كَفَلُوا مِنْ ظِلِّهِمْ مَا رَبَّنَا وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ :

يقول - تعالى ذكره - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ ﴾ إذ فرقنا بني إسرائيل قومه اثنتي عشرة فرقة ، وتيهناهم في التيه فاستسقوا موسى من العطش وغوور الماء ، ﴿ أَنِ اصْبِرْ فِي صَبْرِكَ الْخَجَرَ ﴾ ، وقد بيّنا السبب الذي كان قومه استسقوه ، وبيّنا معنى (الوحي) بشواهد ، ﴿ فَأَنْجَسَتْ ﴾ : فانصبت وانفجرت من الحجر ﴿ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ من الماء ، ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ يعني كل أناس من الأسباط الاثنتي عشرة

﴿مَشْرِيقَهُمْ﴾ لا يدخل سبط على غيره في شربه ، ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ يكنهم من حر الشمس وأذاها .

وقد بينا معنى (الغمام) فيما مضى قبل ، وكذلك (المن) و(السلوى) .

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرُّ وَالْسَّلْوَى﴾ طعاما لهم ، ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يقول : وقلنا لهم : كلوا من حلال ما رزقناكم أيها الناس وطيبناه لكم ، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ، وفي الكلام محذوف ترك ذكره استغناء بما ظهر عما ترك ، وهو : فأجمعوا ذلك وقالوا : لن نصبر على طعام واحد ، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يقول : وما أدخلوا علينا نقصا في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا ، وفعلهم ما فعلوا ، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي : ينقصونها حظوظها باستبدالهم الأدنى بالخير ، والأرذل بالأفضل^(١) .

* * *

(١) جامع البيان (٨٩/٩) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا
 حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرَ لَكُمْ
 خَطِيئَتِكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

★ غريب الآية:

وقولوا حطة: أي: قولوا: احطط عنا ذنوبنا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: واذكر أيضاً - يا محمد -
 من خطأ فعل هؤلاء القوم، وخلافهم على ربهم، وعصيانهم نبيهم موسى ﷺ،
 وتبديلهم القول الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾
 وهي قرية بيت المقدس، ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها
 ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ منها، يقول: أنى شئتم منها، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ يقول: وقولوا: هذه
 الفعلة حطة تحط ذنوبنا ﴿نَفِّرَ لَكُمْ﴾ يتغمد لكم ربكم ذنوبكم التي سلفت منكم،
 فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها، ﴿سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ منكم، وهم المطيعون لله
 على ما وعدتكم من غفران الخطايا»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّكَمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

★ غريب الآية:

رجزًا: عذابًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فغير الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، فقالوا - وقد قيل لهم: قولوا هذه حطة - : حنطة في شعيرة، وقولهم ذلك كذلك هو غير القول الذي قيل لهم قولوه، يقول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّكَمَاءِ﴾ بعثنا عليهم عذابًا أهلكتناهم بما كانوا يغيرون ما يؤمرون به، فيفعلون خلاف ما أمرهم الله بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بقليله. وقد بينا معنى الرّجز فيما مضى»^(١).

قال محمد رشيد رضا: «إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة، لا تاريخ شعوب ومدائن، ولا تحقيق وقائع ومواقع. والعبرة في هذه القصة أن نتقي الظلم والفسق، ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة، وأنه قد عاقب بني إسرائيل بظلمهم، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل، وكثرة وجود الأنبياء فيهم»^(٢).

مقاربة بين ألفاظ هذه الآية وآية (البقرة):

قال الرازي: «اعلم أن هذه القصة أيضًا مذكورة مع الشرح والبيان في سورة (البقرة). بقي أن يقال: إن ألفاظ هذه الآية تخالف ألفاظ الآية التي في سورة (البقرة) من وجوه: الأول: في سورة (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾^(٣)،

(١) جامع البيان (٩/ ٩٠).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٣٧٤).

(٣) البقرة: الآية (٥٨).

وههنا قال: ﴿وَلَاذَ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾. والثاني: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿فَكُلُوا﴾ بالفاء، وههنا: ﴿وَكُلُوا﴾ بالواو. والثالث: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿رَعْدًا﴾، وهذه الكلمة غير مذكورة في هذه السورة. والرابع: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، وقال ههنا على التقديم والتأخير. والخامس: أنه قال في (البقرة): ﴿تَنْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾، وقال ههنا: ﴿تَنْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾، والسادس: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وههنا حذف حرف الواو. والسابع: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١)، وقال ههنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾. والثامن: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وقال ههنا: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾. واعلم أن هذه الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها ألبتة، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة. أما الأول: وهو أنه قال في سورة (البقرة): ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وقال ههنا: ﴿أَسْكُنُوا﴾، فالفرق أنه لا بد من دخول القرية أولاً، ثم سكونها ثانياً. وأما الثاني: فهو أنه تعالى قال في (البقرة): ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ بالفاء. وقال ههنا: ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ بالواو، والفرق أن الدخول حالة مخصوصة، كما يوجد بعضها ينعدم. فإنه إنما يكون داخلاً في أول دخوله، وأما ما بعد ذلك فيكون سكوناً لا دخولاً. إذا ثبت هذا فنقول: الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار. فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال: ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وأما السكون فحالة مستمرة باقية. فيكون الأكل حاصلًا معه لا عقيب فظهر الفرق. وأما الثالث: وهو أنه ذكر في سورة (البقرة): ﴿رَعْدًا﴾، وما ذكره هنا، فالفرق الأكل عقيب دخول القرية يكون ألد؛ لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم، ولما كان ذلك الأكل ألد لا جرم ذكر فيه قوله: ﴿رَعْدًا﴾، وأما الأكل حال سكون القرية، فالظاهر أنه لا يكون في محل الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة، فلا جرم ترك قوله: ﴿رَعْدًا﴾ فيه. وأما الرابع: وهو قوله في سورة (البقرة): ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، وفي سورة (الأعراف) على العكس منه، فالمراد التنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الذكرين على الآخر،

(١) البقرة: الآية (٥٩).

إلا أنه لما كان المقصود منهما تعظيم الله تعالى ، وإظهار الخضوع والخشوع لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير . وأما الخامس : وهو أنه قال في سورة (البقرة) : ﴿ خَطَايَكُمْ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ خَطِيئَتِكُمْ ﴾ ، فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة ، فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع . وأما السادس : وهو أنه تعالى قال في سورة (البقرة) : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالواو ، وههنا حذف الواو ، فالفائدة في حذف الواو أنه استئناف ، والتقدير : كأن قائلًا قال : وماذا حصل بعد الغفران ؟ ف قيل له : ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . وأما السابع : وهو الفرق بين قوله : ﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾ وبين قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة ، والإرسال يشعر بها ، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ، ثم جعله كثيرًا ، وهو نظير ما ذكرناه في الفرق بين قوله : ﴿ فَأَنبَجَسْتُ ﴾^(١) وبين قوله : ﴿ فَأَنفَجَرْتُ ﴾^(٢) . وأما الثامن : وهو الفرق بين قوله : ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ وبين قوله : ﴿ يَفْسُقُونَ ﴾ فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين ؛ لأجل أنهم ظلموا أنفسهم ، وبكونهم فاسقين ؛ لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله تعالى ، فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين ، فهذا ما خطر بالبال في ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة ، وتمام العلم بها عند الله تعالى»^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضائح اليهود

وتحريفاتهم لأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « قيل لبني إسرائيل : ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَكُمْ ﴾ ، فبدّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا : حبة في شعرة»^(٤) .

(١) الأعراف : الآية (١٦٠) .

(٢) البقرة : الآية (٦٠) .

(٣) مفاتيح الغيب (٣٧/١٥-٣٩) .

(٤) أخرجه : أحمد (٣١٨، ٣١٢/٢) ، والبخاري (٤٦٤١/٣٨٧/٨) ، ومسلم (٣٠١٥/٢٣١٢/٤) ، والترمذي

(١٠٩٨٩/٢٨٦/٦) ، والنسائي في الكبرى (٢٩٥٦/١٨٨/٥) .

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائده عند قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَكُمْ وَسَفَرِيذُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من سورة (البقرة) الآية (٥٨)، فلتراجع.

قوله تعالى : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ۝

★ غريب الآية:

يَعْدُونَ: من عَدَا يَعْدُو عَدُوًّا وَعُدُوَانًا: إذا ظلم. وأصله: مجاوزة الحد.

الحيتان: جمع حوت، وهو السمك العظيم.

شُرَعًا: أي: بادية خراطيمها لكل أحد.

كذلك نَبْلُوهُمْ: أي: نختبرهم ونشدد عليهم في العبادة.

معذرة: مصدر اُعْتَذَرَ يَعْتَذِرُ: إذا أَدْلَى بِعُذْرِهِ؛ أي: نعتذر معذرة، كأنه قيل:

أطلب منه أن يعذرني.

بَئِيس: شديد.

عَتَوْا: العُتُوُّ: أشد الفساد. وأصله: النُّبُوُّ عن طاعة الأمر. والمعنى: خرجوا

إلى ما نهوا من الشر والفساد.

خاسئين: جمع خاسئ. وهو الذليل المبعد عن الخير. يقال: أَخْسَأْتُهُ فَخَسِئَ؛

أي: أَبْعَدْتُهُ فَأَبْتَعَدَ.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : واسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود، وهم مجاوروك، عن أمر القرية التي كانت حاضرة البحر، يقول: كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه، واختلف أهل التأويل فيها، فقال بعضهم: هي أيلة، .. وقال آخرون: معناه ساحل مدين، .. وقال آخرون: هي مقنا، .. وقال آخرون: هي مدين، .. والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر، وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا؛ لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأن ذلك من أي، والاختلاف فيه على ما وصفت، ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه، إلا بخبر يوجب العلم، ولا خبر كذلك في ذلك.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَكَ فِي السَّبْتِ﴾ يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمر الله، ويتجاوزونه إلى ما حرمه الله عليهم، .. وكان اعتداؤهم في السبت أن الله حرم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ يقول: إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم الذي نهوا فيه عن العمل، ﴿شُرَعًا﴾ يقول: شارة ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية، كشوارع الطرق، .. وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئُتُونَ﴾ يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت، لا تأتيهم الحيتان، ﴿كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنه في اليوم المحلل صيده، ﴿كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ﴾ ونختبرهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها^(١).

وقال في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُم وَلَكُمْ يَنْفِقُونَ﴾: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: اذكر أيضًا - يا محمد - ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة منهم لجماعة، كانت تعظ المعتدين

(١) جامع البيان (٩/ ٩٠-٩٢).

في السبت وتنهاهم عن معصية الله فيه، ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا بمعصيتهم إياه، وخلافهم أمره، واستحلالهم ما حرم عليهم، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، قال الذين كانوا ينهونهم عن معصية الله، مجيبهم عن قولهم: عظتنا إياهم ﴿مَعْدِرَةً إِلَيْنَا رَبِّكُمْ﴾ نؤدي فرضه علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ يقول: ولعلهم أن يتقوا الله فيخافوه، فينبوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتهم إياه، وتعديه على ما حرم عليهم من اعتدائهم في السبت، .. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبت ما أمرها الله به، من ترك الاعتداء فيه، وضيعت ما وعظتها الطائفة الواعظة، وذكرتها ما ذكرتها به من تحذيرها عقوبة الله على معصيتها، فتقدمت على استحلال ما حرم الله عليها، أنجى الله الذين ينهون منهم عن السوء، يعني عن معصية الله، واستحلال حرمه، ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول: وأخذ الله الذين اعتدوا في السبت، فاستحلوا فيه ما حرم الله من صيد السمك وأكله، فأحل بهم بأسه، وأهلكهم ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يخالفون أمر الله، فيخرجون من طاعته إلى معصيته، وذلك هو الفسق، ..

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلما تمردوا فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: بعداء من الخير^(١).

قال القرطبي بعد إيراد لقول قتادة: «صار الشباب قردة والشيخوخة خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم»: «فعلى هذا القول إن بني إسرائيل إلا فرقتين، ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم: إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا، فمسخهم الله قردة، ﴿قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَيْنَا رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ أي: قال الواعظون: موعظتنا إياكم معذرة إلى ربكم؛ أي: إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم

(١) جامع البيان (٩٢/٩-١٠١) باختصار.

تتقون، أسند هذا القول الطبري عن ابن الكلبي، وقال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افتقرت ثلاث فرق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية، فرقة عصت وصادت، وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا، وفرقة نهت واعتزلت، وكانوا اثني عشر ألفًا، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وإن هذه الطائفة قالت للناحية: لم تعظون قومًا - تريد العاصية - الله مهلكهم أو معذبهم على غلبة الظن وما عهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية، فقالت الناحية: موعظتنا معذرة إلى الله لعلهم يتقون، ولو كانوا فرقتين، لقالت الناحية للعاصية: ولعلكم تتقون، بالكاف^(١).

وقال أيضًا: «ثم اختلف بعد هذا فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تنه ولم تعص، هلكت مع العاصية، عقوبة على ترك النهي، قاله ابن عباس، وقال أيضًا: ما أدري ما فعل بهم. وهو الظاهر من الآية، وقال عكرمة: قلت لابن عباس - لما قال: ما أدري ما فعل بهم - : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة، وهذا مذهب الحسن، ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير، قوله: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾^(٢) الآية^(٣).

وفي إخبار الله ﷻ عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة، لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى من الصيد، يقول ابن القيم: «قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه؛ إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبًا لموسى ﷺ، وكفرًا بالتوراة وإنما هو استحلال تأويل، واحتيال ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مُسَخُوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٠٦-٣٠٧).

(٢) البقرة: الآية (٦٥).

(٣) المصدر السابق (٧/٣٠٧).

تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم الله تعالى قرده، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاءً وفاقاً^(١).

قال ابن العربي: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ» أي: تركوه عن قصد، وهذا يدل على أن النسيان لفظ ينطلق على الساهي والعامد، ردًا على أهل جهالة زعموا أن الناسي والساهي لمعنى واحد، وهؤلاء قوم لا معرفة لهم باللغة، وقصدهم هدم الشريعة، وقد بينا ذلك في غير موضع، وحققنا معنى قوله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فليصلها إذا ذكرها»^(٢) وقلنا معناه: من نام عن صلاة أو تركها، فليصلها متى ذكرها، فالساهي له حالة ذكر، والعامد هو أبدًا ذاكِر، وكل واحد منهم يتوجه عليه فرض القضاء متى حَضَرَهُ الذكر دائمًا، أو في حال دون حال، وبهذا استقام نظام الكلام واستقر حكم شريعة الإسلام»^(٣).

وقال: «قال علماؤنا: اختلف الناس في الممسوخ، هل ينسل أم لا؟ فمنهم من قال: إن الممسوخ لا ينسل، ومنهم من قال: ينسل»^(٤).

قال الطحاوي بعد إيرادِهِ لأحاديث دالة على أن الممسوخ لا نسل له، منها قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقَبًا، وَقَدْ كَانَتِ الْقُرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ»^(٥)، قال: «قال قوم في كتاب الله ما يدفع هذه الآثار التي رويتها في هذا الباب، في نفي من أهلكه أو مسخه، أن لا يكون له نسل ولا عقب، وهو قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقُرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ يريد من جعلها منهم، فذكر ﷺ أنه جعلهم من القوم الذين سخط عليهم ولعنهم، وذكر ذلك بالمعرفة لا بالنكرة، فكان ذلك على القردة والخنازير الموجودة المعقولة، لا على من سواها من قردة وخنازير، ولو كان ذلك على قردة وخنازير سوى القردة والخنازير الموجودة المعقولة لكان: وجعل بينهم قردة وخنازير، على النكرة لا على المعرفة، فكان جوابنا لهم في ذلك بتوفيق

(١) إغاثة اللهفان (١/٥٠٥).

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أحمد (٣/٢٦٩)، والبخاري (٢/٨٩-٩٠/٥٩٧)، ومسلم (١/٤٧٧/٦٨٤)، وأبو داود (١/٣٠٧-٣٠٨/٤٤٢)، والترمذي (١/٣٣٥-٣٣٦/١٧٨)، والنسائي (١/٣١٩/٦١٢)، وابن ماجه (١/٢٢٧/٦٩٦).

(٣) أحكام القرآن (٢/٧٩٧).

(٤) المصدر السابق (٢/٧٩٨).

(٥) أخرجه: أحمد (١/٣٨٠)، ومسلم (٤/٢٠٥١/٢٦٦٣).

اللَّهُ ﷻ وعونه، أنه قد يجوز أن يكون القردة والخنازير قد كانت قبل ذلك مخلوقة على ما هي عليه، كسائر الأشياء المخلوقة على ما هي عليه، لا ممسوخة من خلق كانت عليه، إلى قردة وخنازير، وكانت مما تناسل، ومما يعقب كسائر المخلوقين سواها، ثم كان من الله جعله القردة والخنازير، ممن سخط عليه من عباده الذين خرجوا عن أمره، واعتدوا عن عبادتهم التي تعبدتهم بها إلى ما سواها، فمسخهم قردة وخنازير، لا تناسل لها ولا أعقاب لها، فكانت في الدنيا ما شاء الله ﷻ كونها فيها، ثم أفناها بلا أعقاب خلفتها، وبقيت القردة والخنازير التي كانت قبل ذلك، ولم يلحقها مسخ حولها عما خلقت عليه، إلى ما هي عليه، فكان منها التناسل في حياتها، والإعقاب بعد موتها، فبان بحمد الله ونعمته احتمال ما حملنا قول رسول الله ﷺ فيما لا يخالف ما في كتاب الله ﷻ، مما يوهم هؤلاء الجاهلين أنه يخالفه، والله ﷻ نسأله التوفيق»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الحيل والنهي عنها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(٢).

* غريب الحديث:

الحيل: «جمع حيلة، والحيلة مشتقة من التحول، وهي النوع والحالة كالجلسة والقعدة والركبة فإنها بالكسر للحالة، وبالفتح للمرة كما قيل:

الفَعْلَةُ للمرة، والفِعْلَةُ للحالة والمَفْعَلُ للموضع، والمِفْعَلُ للآلة

وهي من ذوات الواو، فإنها من التحول من حال يحول، وإنما انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وهو قلب مقيس مطرد في كلامهم، نحو ميزان وميقات وميعاد، فإنها مفعال من الوزن والوقت والوعد، فالحيلة هي نوع مخصوص من التصرف

(١) مشكل الآثار (٨/٣٢٣-٣٢٤).

(٢) أخرجه: ابن بطة في «إبطال الحيل» (ص: ١١٢/ح: ٥٦)، وجود إسناده ابن كثير فقال: «وهذا إسناد جيد؛ فإن أحمد بن محمد بن مسلم -هذا- ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه، وباقي رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً».

والعمل الذي يتحول به فاعله من حال إلى حال، ثم غلب عليها بالعرف استعمالها في سلوك الطرق الخفية التي يتوصل بها الرجل إلى حصول غرضه، بحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء والفتنة، فهذا أخص من موضوعها في أصل اللغة، وسواء كان المقصود أمرًا جائزًا أو محرّمًا، أو خص من هذا استعمالها في التوصل إلى الغرض الممنوع منه شرعًا أو عقلاً أو عادة، فهذا هو الغالب عليها في عرف الناس، فإنهم يقولون: فلان من أرباب الحيل، ولا تعاملوه فإنه متحيل، وفلان يعلم الناس الحيل، وهذا من استعمال المطلق في بعض أنواعه كاللدابة والحيوان وغيرها^(١).

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث من أوضح الأدلة على بطلان الحيلة في الأحكام، كما قال ابن بطة العكبري،^(٢) «فهو نص في تحريم استحلال محارم الله بالحيل»^(٣).

والحيل نوعان، يقول ابن القيم: «نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، والتخلص من الحرام، وتخليص الحق من الباطل المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه.

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالمًا، والظالم مظلومًا، والحق باطلاً، والباطل حقًا، فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

قال الإمام أحمد: لا يجوز شيء من الحيل في إبطال حق مسلم.

قال ابن بطة: «فالحيلة في الدين محرمة في الكتاب والسنة، فكل حكم عمل بالحيلة في طلاق أو خلع أو شراء، فهو مردود مذموم عند العلماء الربانيين والفقهاء الديانيين»^(٤).

وقال أيضًا: «وأصل الحيلة في شريعة الإسلام خديعة، والخديعة نفاق، والنفاق عند الله ﷻ أعظم من صراح الكفر، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) إبطال الحيل (ص: ١١٢).

(٣) أفاده ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٥١٣).

(٤) إبطال الحيل (ص: ١١٩).

ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ (٢)، أفلا ترى أن المنافقين أظهروا قبول الأحكام الإسلامية، وألزموا أنفسهم التدين بها، حيلة بذلك وخديعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ، ولعباده المؤمنين رحمة الله عليهم، ليحققوا بذلك دماءهم، ويحفظوا أموالهم، فأعطاهم ما أرادوا بما أظهروا، وأكذبهم فيما ادعوا بما أسروا وأبطنوا، ورد عليهم كيدهم وخديعتهم بسوء اعتقادهم، وإرادتهم غير الذي أمر الله به، من خالص التصديق وصافي التوحيد، واستعمالهم آلات الإيمان، لغير ما أرادها الله ﷻ، وهذا باب من الحيلة، وهو أفحشها وأقبحها، وكل ما كان من الحيلة، فمشبه بها، ومنسوب إليها ومتشعب عنها، ألا ترى أن الله ﷻ شرع -برأ بكافة خلقه وإرفاقاً بهم- رخصاً وصفها عند الحاجة إليها وشدة الضرورة عند نزولها، فقال ﷻ حين فرغ من فرض الصيام: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (٣)، وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ (٤)، فأباح الفطر في السفر وقصر الصلاة، وفرض الحج بوجود الاستطاعة، فلو أن رجلاً سافر لا يريد بسفره إلا الأكل والجماع نهاراً في شهر رمضان حتى يقضي ذلك على مهل متقطعاً، في قصر الأيام على مر الأوقات، ولو أن رجلاً سافر لا يريد من سفره إلا أن يضع عن نفسه بعض صلاته، وكذلك لو وجب عليه الحج بوجود الاستطاعة، فوهب ماله لبعض ولده عند أوقات الحج ثم استرجعه بعد ذلك، وكذلك لو كان له من أصناف الماشية مال كثير تجب فيه الزكاة الكثيرة، فباعها عند رأس الحول وجرى ثمنها مجرى المال المستفاد، أو مالاً صامتاً، فعند رأس الحول ابتاع به عقاراً، حتى إذا جاوز الحول باعه، لكان هذا كله في ظاهره جائزاً في شريعة الإسلام، ماضياً على أحكامها، ولو استفتى فاعله جميع فقهاء المسلمين في جميع الأمصار، فيما فعل غير مخبر لهم بنيته، ولا ما قصده له من ذلك، لما اختلف عليه اثنان في جوازه وصحته، ولا رأوه حرجاً في فعله، ولا آثماً في

(١) البقرة: الآيتان (٨ و ٩).

(٢) النساء: الآية (١٤٢).

(٣) البقرة: الآية (١٨٥).

(٤) النساء: الآية (١٠١).

مُرْتَكِبِهِ، وما ظنك الآن إذا كان المفتي هو الأمر بهذا، والدال عليه، والمفتي به؟!»^(١).

قال ابن القيم: «وتلخيص هذا أن الحيل المحرمة مخادعة لله، ومخادعة الله حرام، أما المقدمة الأولى: فإن الصحابة والتابعين، وهم أعلم الأمة بكلام الله ورسوله ومعانيه سمو ذلك خداعًا، وأما الثانية: فإن الله ذم أهل الخداع، وأخبر أن خداعهم إنما هو لأنفسهم، وأن في قلوبهم مرضًا، وأنه تعالى خادعهم، فكل هذا عقوبة لهم، ومدار الخداع على أصليين: أحدهما: إظهار فعل غير مقصوده الذي جعل له، الثاني: إظهار قول غير مقصوده الذي وضع له، وهذا منطبق على الحيل المحرمة، وقد عاقب الله تعالى المتحيلين على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد، بجد جنتهم عليهم وإهلاك ثمارهم، فكيف بالمتحيل على إسقاط فرائض الله وحقوق خلقه، ولعن أصحاب السبت ومسخهم قردة وخنازير على احتيالهم على فعل ما حرمه عليهم، قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾^(٢)، قال: رموا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها فأكلوها، والله أوحى أكلة، أكلة أسرع في الدنيا عقوبة، وأسرع عذابًا في الآخرة، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا أنه عجل لهؤلاء وأخر لهؤلاء، وقوله: «رموها في السبت» يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضًا، ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت، إذ لو اجترؤوا على ذلك لاستخرجوها، قال شيخنا: وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى، وإنما فعلوا ذلك تأويلًا واحتيالًا ظاهره ظاهر الاتقاء، وحقيقته حقيقة الاعتداء، ولهذا -والله أعلم- مسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله، بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره، دون حقيقته، مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض

(١) المصدر السابق (١٠٨-١١١).

(٢) البقرة: الآية (٦٥).

ظاهره دون الحقيقة، جزاءً وفاً، ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً، كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة المنافقين يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل، والصيد المحرم، عالماً بتحريمه، فإنه يقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم، وخشيته لله، واستغفاره وتوبته يوماً ما، واعترافه بأنه مذنب عاص، وانكسار قلبه من ذل المعصية، وازدراؤه على نفسه ورجاؤه لمغفرة ربه له، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين، وهذا كله إيمان يفضي بصاحبه إلى خير، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله، ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل، فقال: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(١)، وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية، أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها، نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.. وتأمل قوله: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» أي: أسهلها وأقربها، وإنما ذكر أدنى الحيل؛ لأن المطلق ثلاثاً مثلاً، من أسهل الحيل عليه أن يعطي بعض التيوس المستعارة عشرة دراهم ويستعيره لينزو على امرأته نزوة وقد طيبها له، بخلاف الطريق الشرعي التي هي نكاح الرغبة فإنها يصعب معها عودها إلى الأول جداً، وكذلك من أراد أن يقرض ألفاً بألف وخمسمائة، فمن أدنى الحيل أن يعطيه ألفاً إلا درهماً باسم القرض، ويبيعه خرقة تساوي درهماً بخمسمائة، ولو أراد ذلك بالطريق الشرعي لتعذر عليه، وكذلك حيلة اليهود بنصب الشباك يوم الجمعة وأخذ ما وقع فيها يوم السبت من أسهل الحيل، وكذلك إذا ابتهم الشحم وبيعه وأكل ثمنه»^(٢).

وقال أيضاً: «ليس كل ما يسمى حيلة حراماً، قال الله تعالى: ﴿لَا الْمُسْتَفْهِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾»^(٣)، أراد بالحيلة التحيل على التخلص من بين الكفار، وهذه حيلة محمودة يثاب عليها، وكذلك الحيلة على

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٦١-١٦٥) باختصار.

(٣) النساء: الآية (٩٨).

هزيمة الكفار، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق، أو على تخليص ماله منهم، كما فعل الحجاج بن علاط بامراته، وكذلك الحيلة على قتل رأس من رؤوس أعداء الله، كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحقيق اليهودي وكعب بن الأشرف وأبا رافع وغيرهم، فكل هذه حيل محمودة محبوبة لله ومرضية له . . . وإذا قسمت باعتبارها لغة، انقسمت إلى الأحكام الخمسة؛ فإن مباشرة الأسباب الواجبة حيلة على حصول مسبباتها، فالأكل والشرب واللبس والسفر الواجب حيلة على المقصود منه، والعقود الشرعية واجبها ومستحبها ومباحها كلها حيلة على حصول المعقود عليه، والأسباب المحرمة كلها حيلة على حصول مقاصدها منها، وليس كلامنا في الحيلة بهذا الاعتبار العام، الذي هو مورد التقسيم إلى مباح ومحظور، فالحيلة جنس تحته التوصل إلى فعل الواجب، وترك المحرم، وتخليص الحق ونصر المظلوم، وقهر الظالم وعقوبة المعتدي، وتحته التوصل إلى استحلال المحرم، وإبطال الحقوق، وإسقاط الواجبات، ولما قال النبي ﷺ: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» غلب استعمال الحيل في عرف الفقهاء على النوع المذموم، وكما يذم الناس أرباب الحيل، فهم يذمون أيضًا العاجز الذي لا حيلة عنده؛ لعجزه وجهله بطرق تحصيل مصالحه، فالأول ماكر مخادع، والثاني عاجز مفرط، والممدوح غيرهما، وهو من له خبرة بطرق الخير والشر: خفيها وظاهرها، فيحسن التوصل إلى مقاصده المحمودة، التي يحبها الله ورسوله بأنواع الحيل، ويعرف طرق الشر الظاهرة والخفية، التي يتوصل بها إلى خداعه والمكر به، فيحترز منها ولا يفعلها ولا يدل عليها، وهذه كانت حال سادات الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم كانوا أبر الناس قلوبًا، وأعلم الخلق بطرق الشر ووجوه الخداع، وأتقى لله من أن يرتكبوا منها شيئًا، أو يدخلوه في الدين، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لست بخب ولا يخدعني الخب»، وكان حذيفة أعلم الناس بالشر والفتن، وكان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكان هو يسأله عن الشر، والقلب السليم ليس هو الجاهل بالشر الذي لا يعرفه؛ بل الذي يعرفه ولا يريد؛ بل يريد الخير والبر، والنبي ﷺ قد سمى الحرب خدعة^(١)، ولا ريب في انقسام الخداع إلى ما يحبه الله

(١) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: أحمد (٣/٣٠٨)، والبخاري (٦/١٩٤/٣٠٣٠)، ومسلم (٣/١٣٦١/١٧٣٩)، وأبو داود (٣/٩٩/٢٦٣٦)، والترمذي (٤/١٦٦/١٦٧٥)، والنسائي في الكبرى (٥/١٩٣/٨٦٤٣).

ورسوله وإلى ما يبغضه وينهى عنه، وكذلك المكر ينقسم إلى قسمين: محمود ومذموم، فالحيل والمكر والخديعة تنقسم إلى محمود ومذموم، فالحيل المحرمة منها ما هو كفر، ومنها ما هو كبيرة، ومنها ما هو صغيرة، وغير المحرمة منها ما هو مكروه، ومنها ما هو جائز، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما هو واجب^(١).

ولأرباب الحيل الذين جوزوها شبه كثيرة ذكرها الإمام ابن القيم في كتابه الماتع «إعلام الموقعين»، ويثن زيفها، ورد على أصحابها ردًا مجملًا وآخر مفصلًا، نكتفي هنا بذكر المجمل منهما طلبًا للاختصار، ومن أراد التفصيل فليراجع «الإعلام».

قال رحمه الله: «قال المبطلون للحيل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فسبحان الله الذي فرض الفرائض، وحرم المحارم، وأوجب الحقوق رعاية لمصالح العباد في المعاش والمعاد، وجعل شريعته الكاملة قيامًا للناس، وغذاء لحفظ حياتهم، ودواء لدفع أدوائهم، وظله الظليل الذي من استظل به أمن من الحرور، وحصنه الحصين الذي من دخله نجا من الشرور، فتعالى شارع هذه الشريعة الفائقة لكل شريعة أن يشرع فيها الحيل التي تسقط فرائضه، وتحل محارمه، وتبطل حقوق عبادته، ويفتح للناس أبواب الاحتيال، وأنواع المكر والخداع، وأن يبيع التوصل بالأسباب المشروعة إلى الأمور المحرمة الممنوعة، وأن يجعلها مضغة لأفواه المحتالين، عرضة لأغراض المخادعين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويظهرون خلاف ما يبطنون، ويرتكبون العبث الذي لا فائدة فيه سوى ضحكة الضاحكين، وسخرية الساخرين، فيخادعون الله كما يخادعون الصبيان، ويتلاعبون بحدوده كتلاعب المُجَّان، فيحرمون الشيء ثم يستحلونه إياه بعينه، بأدنى الحيل، ويسلكون إليه نفسه طريقًا توهم أن المراد غيره، وقد علموا أنه هو المراد لا غيره، ويسقطون الحقوق التي وصى الله بحفظها وأدائها بأدنى شيء، ويفرقون بين متماثلين من كل وجه لاختلافهما في الصورة أو الاسم، أو الطريق الموصول إليهما، ويستحلون بالحيل ما هو أعظم فسادًا مما يحرمونه، ويسقطون بها ما هو أعظم وجوبًا مما يوجبونه، والحمد لله الذي نزه شريعته عن هذا التناقض والفساد، وجعلها كفيلة وافية

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٤٠-٢٤٢).

بمصالح خلقه في المعاش والمعاد، وجعلها من أعظم آياته الدالة عليه، ونصبها طريقًا مرشدًا لمن سلكه إليه، فهو نوره المبين، وحصنه الحصين، وظله الظليل، وميزانه الذي لا يُعول، لقد تعرف بها إلى ألياء عباده غاية التعرف، وتحبب بها إليهم غاية التحبب، فأنسوا بها منه حكمته البالغة، وتمت بها عليهم منه نعمه السابغة، ولا إله إلا الله الذي في شرعه أعظم آية تدل على تفردّه بالإلهية وتوحده بالربوبية، وأنه الموصوف بصفات الكمال المستحق لنعوت الجلال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وله المثل الأعلى، فلا يدخل السوء في أسمائه، ولا النقص والعيب في صفاته، ولا العيب ولا الجور في أفعاله؛ بل هو منزّه في ذاته وأوصافه وأفعاله وأسمائه عما يضاد كماله بوجه من الوجوه، وتبارك اسمه وتعالى جده، وبهرت حكمته، وتمت نعمته، وقامت على عباده حجته، والله أكبر كبيرًا أن يكون في شرعه تناقض واختلاف، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا؛ بل هي شريعة مؤتلفة النظام، متعادلة الأقسام، مبرأة من كل نقص، مطهرة من كل دنس، مسلمة لا شية فيها، مؤسسة على العدل والحكمة والمصلحة والرحمة قواعدها ومبانيها، إذا حرمت فسادًا حرمت ما هو أولى منه أو نظيره، وإذا رعت صلاحًا رعت ما هو فوقه أو شبهه، فهي صراطه المستقيم، الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج؛ بل هي حنيفية التوحيد سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل: لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجى: لو أباحت لكان أرفق؛ بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، فأوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة، وظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها، شعارها الصدق وقوامها الحق، وميزانها العدل وحكمها الفصل، لا حاجة بها ألبتة إلى أن تكمل سياسة ملك، أو رأي ذي رأي، أو قياس فقيه، أو ذوق ذي رياضة، أو منام ذي دين وصلاح؛ بل لهؤلاء كلهم أعظم الحاجة إليها، ومن وفق منهم للصواب، فلا عتماده وتعويله عليها، فقد أكملها الذي أتم نعمته علينا بشرعها قبل سياسات الملوك، وحيل المتحيلين، وأقيسة القياسيين، وطرائق الخلافيين، وأين كانت هذه الحيل والأقيسة والقواعد المتناقضة، والطرائق القدد، وقت نزول قوله:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)؟، وأين كانت يوم قوله ﷺ: «لقد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٢) ويوم قوله ﷺ: «ما تركت من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا أعلمتكموه»^(٣)؟، وأين كانت عند قول أبي ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»^(٤)، وعند قول القائل لسلمان: «لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال: أجل»^(٥)؟ فأين علمهم الحيل والمخادعة والمكر، وأرشدهم إليه ودلهم عليه؟ كلاً والله، بل حذرهم أشد التحذير، وأوعدهم عليه أشد الوعيد، وجعله منافياً للإيمان، وأخبر عن لعنة اليهود لما ارتكبوه، وقال لأمتة: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل»، وأغلق أبواب المكر والاحتيال، وسد الذرائع، وفصل الحلال من الحرام، وبين الحدود، وقسم شريعته إلى حلال بين وحرام بين، وبرزخ بينهما، فأباح الأول وحرم الثاني، وحض الأمة على اتقاء الثالث خشية الوقوع في الحرام، وقد أخبر الله تعالى عن عقوبة المحتالين، على حل ما حرمه عليهم، وإسقاط ما فرضه عليهم في غير موضع من كتابه، قال أبو بكر الآجري وقد ذكر بعض الحيل الربوية التي يفعلها الناس: لقد مسخ اليهود قردة بدون هذا. وصدق والله لا كل حوت صيد يوم السبت، أهون عند الله وأقل جرماً من أكل الربا الذي حرمه الله بالحيل والمخادعة، ولكن كما قال الحسن: عجل لأولئك عقوبة تلك الأكلة الوخيمة وأرجئت عقوبة هؤلاء. وقال الإمام أبو يعقوب الجوزجاني: وهل أصاب الطائفة من بني إسرائيل المسخ إلا باحتيالهم على أمر الله، بأن حفروا الحفائر على

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١٢٦-١٢٧/٤)، وابن ماجه (٤٣/١٦/١)، والطبراني في الكبير (٦١٩/٢٤٧/١٨)، والحاكم (٩٦/١) من حديث العرياض بن سارية. وليس في شيء من ألفاظه عند مخرجه لفظه: «المحجة».

(٣) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢/٧٩/٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٩/٧/١٠٣٧٦)، وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٤٧/١٥٦-١٥٥/٢). وأخرجه من طريق أخرى: أحمد (١٥٣/٥)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٣).

(٥) أخرجه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه: أحمد (٤٣٧/٥)، ومسلم (٢٦٢/٢٢٣/١)، وأبو داود (١٧/١-٧/١٨)، والترمذي (١٦/٢٤/١)، والنسائي (٤١/٤٢-٤١/١)، وابن ماجه (٣١٦/١١٥/١).

الحيتان في يوم سبتهم ، فمنعوها الانتشار يومها إلى الأحد فأخذوها . . وقال بعض الأئمة : في هذه القصة مزجرة عظيمة للمتعاطين الحيل على المناهي الشرعية ، ممن تلبس بعلم الفقه وليس بفقيه ؛ إذ الفقيه من يخشى الله ﷻ في الربويات ، واستعارة التيس الملعون لتحليل المطلقات ، وغير ذلك من العظام والمصائب الفاضحات ، التي لو اعتمدها مخلوق مع مخلوق لكان في نهاية القبح ، فكيف بمن يعلم السر وأخفى ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وقال : وإذا وازن اللبيب بين حيلة أصحاب السبب والحيل التي يتعاطاها أرباب الحيل في كثير من الأبواب ، ظهر له التفاوت ومراتب المفسدة التي بينها وبين هذه الحيل ، فإذا عرف قدر الشرع وعظمة الشارع وحكمته ، وما اشتمل عليه شرعه من رعاية مصالح العباد ، تبين له حقيقة الحال ، وقطع بأن الله تعالى يتنزه ويتعالى أن يشرع لعباده نقض شرعه وحكمته بأنواع الخداع والاحتيال»^(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ واعظًا ومحذرًا من هذا الفعل الشنيع : «فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله ، أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال ، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال ، وأن يعلم أن لله يومًا تكعُّ فيه الرجال ، وتنسف فيه الجبال ، وتترادف فيه الأهوال ، وتشهد فيه الجوارح والأوصال ، وتبلى فيه السرائر ، وتظهر فيه الضمائر ، ويصير الباطن فيه ظاهرًا ، والسر علانية ، والمستور مكشوفًا ، والمجهول معروفًا ، ويحصل ويبدو ما في الصدور ، كما يبصر ويخرج ما في القبور ، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات ، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات ، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه ، وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال ، وتسود وجوه بما في قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال ، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون ، وبدينهم كانوا يلعبون ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون»^(٢).

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٠٥-٢٠٨).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٦٣-١٦٤).

وإني أقول: ما أشبه اليوم بالأمس، حين تنظر إلى بعض من تلبس بالفقه والعلم يفتي الناس بالطامات، ويحل لهم ركوب المحرمات بما أوتيته من دهاء ومكر وحيل يلبس بها على مرضى القلوب والعوام. وهذه فتاواهم وكتبهم قد انتشرت هنا وهناك، وهذه مواقعهم على الإنترنت، من فتح عليها تحسب سماً بمذاق عسل فأرداه قتيلاً بوصف شهيد.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

★ غريب الآية:

وَإِذْ تَأَذَّنَ: أي: أعلم.

مَنْ يَسُومُهُمْ: أي: يذيقهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾: واذكر -يا محمد- إذ أذن ربك، فأعلم... ليبعثن على اليهود من يسومهم سوء العذاب»^(١).

قال ابن كثير: «وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلْقِيَت باللام في قوله: ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه، واحتياهم على المحارم...»

قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: «هي المسكنة، وأخذ الجزية منهم». وقال علي بن أبي طلحة عنه: «هي الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته، إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبيرة وابن جريج والسدي وقتادة. وقال عبدالرزاق عن معمر عن عبدالكريم الجزري عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية.

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه،

(١) جامع البيان (٩/١٠٢).

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي : لمن تاب إليه وأتاب . وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة ؛ لئلا يحصل اليأس ، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا ؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف^(١) .

قال ابن عاشور : «وقد ألمّ بمعنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ٤ فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ٥ ثم رددنا لكم الكثرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ٦ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسئروا وجوهكم وليدخُلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليستبرؤا ما علوا تنبرا ٧ عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾ ٨^(٢) ^(٣) .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩٧) .

(٢) الإسراء : الآيات (٤-٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٧) .

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٦٨﴾

★ غريب الآية:

قطّعناهم: أي: فرقناهم في البلاد.

وبلوناهم: أي: اختبارناهم.

بالحسنات: أي: بالخصب والعافية.

والسيئات: أي: الجذب والشدائد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وفرّقنا بني إسرائيل ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ يعني: جماعات شتى متفرقين...»

وقوله: ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ يقول: من هؤلاء القوم الذين وصفهم الله من بني إسرائيل ﴿الصَّالِحُونَ﴾ يعني: من يؤمن بالله ورسوله، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني: دون الصالح، وإنما وصفهم الله - جل ثناؤه - بأنهم كانوا كذلك قبل ارتدادهم عن دينهم، وقبل كفرهم بربهم، وذلك قبل أن يُبعث فيهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليه.

وقوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا، والدعة والسعة في الرزق، وهي الحسنات التي ذكرها - جل ثناؤه -، ويعني بالسيئات: الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب، والرزايا في الأموال، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم، وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه^(١).

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ ﴾^(١)

★ غريب الآية:

خَلَفٌ : الخلف : مَنْ أتى بعد غيره . وفرّقوا بين الصالح والطالح بالفتحة فقالوا : خَلَفٌ سوءٍ وخَلَفٌ خيرٍ .

عَرَضَ هذا الأدنى : ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم . والعرض ، بفتح الراء : متاع الدنيا ، وبالسكون : ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير . والإشارة في الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : فخلف من بعده هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم ﴿ خَلَفٌ ﴾ يعني : خلف سوء ، يقول : حدث بعدهم وخلافهم ، وتبدّل منهم بدل سوء . . . »

وقيل : إن الخَلَف الذي ذكر الله في هذه الآية أنهم خلفوا من قبلهم ، هم النصارى . . .

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله تعالى إنما وصف أنه خلف القوم الذين قصّ قصصهم في الآيات التي مضت خلف سوء رديء ، ولم يذكر لنا أنهم نصارى في كتابه ، وقصتهم بقصص اليهود أشبه منها بقصص النصارى . وبعد ، فإن ما قبل ذلك خبر عن بني إسرائيل وما بعده كذلك ، فما بينهما بأن يكون خبراً عنهم أشبه ؛ إذ لم يكن في الآية دليل على صرف الخبر عنهم إلى غيرهم ، ولا جاء بذلك دليل يوجب صحة القول به .

فتأويل الكلام إذن : فتبدّل من بعدهم بدلٌ سوء ، ورثوا كتاب الله : تعلموه ،

(١) الأعراف : الآية (١٦٩) .

وضيعوا العمل به، فخالفوا حكمه، يرشون في حكم الله، فيأخذون الرشوة فيه من عرض هذا العاجل ﴿الْأَذْنَى﴾، يعني بـ ﴿الْأَذْنَى﴾: الأقرب من الآجل الأبعد، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا فعلوا ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا؛ تمنيا على الله الأباطيل، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(١). ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ يقول: وإن شرع لهم ذنب حرام مثله من الرشوة بعد ذلك أخذوه واستحلوه، ولم يرتدعوا عنه. يخبر -جل ثناؤه- عنهم أنهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة^(٢).

قال أبو حيان: «ولهذه الأمة من هذه الآية نصيب وافر. وقال رسول الله ﷺ: «لتسلكن سنن من قبلكم»^(٣). ومن اختبر حال علمائها وقضاتها ومفتيها شاهد بالعيان ما أخبر به الصادق»^(٤).

قلت: رحمة الله على المفسر أبي حيان الذي لم يقتصر فهمه على سياق الآية وظاهرها وأن الأمر في اليهود وعلمائهم فقط؛ بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الأسباب، فمع الأسف الأمة الإسلامية أشبهت اليهود في هذه الفعلة الشنيعة، فكما أشار أبو حيان إلى العلماء والقضاة والمفتين وإلى كثير من ولاية الأمور؛ فإنهم آثروا ما عند الناس على ما عند الله، فباعوا دينهم بدنياههم، ووافقوا على كل باطل، بل دعوا إليه وناصروه من أجل دريهمات معدودات ومتاع قليل، فقلما تجد العالم المخلص الزاهد، والقاضي العادل، والمفتي الورع، فكل هذا أصبح تاريخاً قد مضى إلا من وفقه الله وعصمه.

فما أشبه اليوم بالبارحة! ولعل اليوم أكثر وأفظع وأشر! فإن البطون قد اتسعت، والطمع قد كثر، والشره قد انتشر، والله المستعان.

وقال محمد رشيد رضا: «وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين،

(١) البقرة: الآية (٧٩).

(٢) جامع البيان (٩/١٠٤-١٠٥).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ من حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه: الطبراني في الكبير (١٧/١٣/٣)، والحاكم (١/١٢٩).

(٤) البحر المحيط (٤/٤١٥).

حتى رجال الدين الذين ورثوا الكتاب الكريم، والقرآن الحكيم، ودرسوا ما فيه، غلب على أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل، وعرضها الدنيء، والغرور بالنسبة إلى الإسلام، والتحلي بلقبه، والتعلل بأمانى المغفرة، مع الإصرار على الذنب، والاتكال على المكفرات والشفاعات، وهم يقرؤون ما في الكتاب من النهي عن الأمانى والأوهام، ومن نوط الجزاء بالأعمال، والمغفرة بالتوبة والإصلاح، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضي عنه؛ كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(١)، ولن يرضى الله عن فاسق ولا منافق، ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢)، بل ما قص الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بني إسرائيل إلا لنعتبر بأحوالهم، ونتقي الذنوب التي أخذهم بها، ولكننا مع هذا كله اتبعنا سننهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، إلا أننا نحمد الله أن هذا الاتباع فينا غير عام، وأنه لا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق، يطعن فيها الجماهير الذين صار الإسلام فيهم غريبًا، وقد شرحنا ذلك مرارًا، بل صرحت الآيات بالتحذير من اتباع أهل الكتاب في أمانيتهم، وفي فسقهم، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٣) إلخ، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٤)،^(٥).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٢) التوبة: الآية (٩٦).

(٣) النساء: الآية (١٢٣).

(٤) الحديد: الآية (١٦).

(٥) تفسير المنار (٩/ ٣٨٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

★ غريب الآية:

ودرسوا ما فيه: أي: قرؤوه. والدرس: تكرير الشيء؛ يقال: درس الكتاب: إذا كرر قراءته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ﴾ على هؤلاء - المرتشين في أحكامهم، القائلين: سيغفر الله لنا فعلنا هذا، إذا عوتبوا على ذلك - ﴿مِثَاقُ الْكِتَابِ﴾، وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، فقال - جل ثناؤه - لهؤلاء الذين قصّ قصتهم في هذه الآية موبخاً لهم على خلافهم أمره، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه: ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، ولا يضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه؟..

وأما قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾، فإنه معطوف على قوله: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ومعناه: فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب، ودرسوا ما فيه. ويعني بقوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: قرؤوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتاب، فعلموا ما فيه ودرسوه، فضيعوه، وتركوا العمل به، وخالفوا عهد الله إليهم في ذلك؛ كما حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قال: علموه وعلموا ما في الكتاب الذي ذكر الله، وقرأ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^(١).

﴿وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يقول - جل ثناؤه -: وما في الدار الآخرة، وهو ما في المعاد عند الله مما أعد لأوليائه، والعاملين بما أنزل في كتابه، المحافظين على حدوده، ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، ويخافون عقابه، فيراقبونه في أمره

(١) آل عمران: الآية (٧٩).

ونهيهم، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم، ويقولون: سيغفر لنا، أن ما عند الله في الدار الآخرة للمتقين العادلين بين الناس في أحكامهم، خير من هذا العرض القليل الذي يستعجلونه في الدنيا على خلاف أمر الله، والقضاء بين الناس بالجور^(١).

قال الألوسي: «قد عرض الزمخشري -عامله الله تعالى بعدله- في تفسير هذه الآية بأهل السنة، وزعم أن مذهبهم هو مذهب اليهود بعينه؛ حيث جؤزوا غفران الذنب من غير توبة، ونقل عن التوراة من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة، وأنت تعلم أن اليهود أكدوا القول بالغفران، وأهل السنة لا يجزمون في المطيع بالغفران، فضلاً عن العاصي بما هو حق الله تعالى، فضلاً عما عساه سبحانه فيما هو من حقوق العباد، فالموجبون على الله تعالى وإن كان بالنسبة إلى التائب أقرب إليهم، فهل ما ادّعاه إلا من قبيل ما جاء في المثل: (رمتني بدائها وانسلت)؟ وما نقله عن التوراة، إن كان استنباطاً من الآية، فلا تدل على ما في الكشف إلا على تحريفهم ما في التوراة من نعت النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم-، وآية الرجم، ونحو ذلك من تسهيلاتهم على الخاصة، وتخفيفاتهم على العامة، يأخذون الرشا بذلك، والتقول على الله عزيمة، وإن كان قد قرأ التوراة التي لم تحرف، وأنها هي تعين الحمل على الشرك بقواطع من كتاب الله تعالى الكريم، أو يكون ذلك لهم وهذا لهذه الأمة المرحومة خاصة، وقد سلم هو نحوه منه في قوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾^(٢)، وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمني على الله^(٣).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليُبين الحق للناس، ولا يكتُمونه، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٤)»^(٥).

(٢) الأحقاف: الآية (٣١).

(٤) آل عمران: الآية (١٨٧).

(١) جامع البيان (٩/١٠٧-١٠٨).

(٣) روح المعاني (٩/٩٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠)

★ غريب الآية:

يُمَسِّكُونَ: أي: يَتَمَسَّكُونَ؛ يقال: مَسَكَ بالشيءِ وأَمْسَكَ وَتَمَسَّكَ وَامْتَسَكَ وَاسْتَمَسَكَ، كلها بمعنى واحد.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم.

ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسوله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم»^(١).

قال محمد رشيد رضا: «﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَهُمْ؛ لأنهم هم المصلحون، والله لا يضيع أجر المصلحين، فهو خبرٌ قُرْنٌ بالدليل، ومثله قوله

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/١١٢).

تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(١) «(٢)» .

قال القاسمي : «قال الجشمي : تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب ، ووعد من تمسك به ، تنبيهاً لنا وتحذيراً عن سلوك طريقته . وتدل على أن الاستغفار باللسان ، وتمني المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل»^(٣) .

- وذكر إقامة الصلاة في هذه الآية تنبيه على أهميتها . قال الرازي : «فإن قيل : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة الصلاة ، فكيف أفردت بالذكر؟ قلنا : إظهاراً لعلو مرتبة الصلاة ، وإنها أعظم العبادات بعد الإيمان»^(٤) .

(١) الكهف : الآية (٣٠) .

(٢) تفسير المنار (٩/٣٨٥) .

(٣) محاسن التأويل (٧/٢٩١-٢٩٢) .

(٤) التفسير الكبير (١٥/٤٨) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَنْقُتَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾﴾

★ غريب الآية:

وَإِذْ نَنْقُتَا: أي: رفعنا؛ نَتَقَ الشيء: جذبه ونزعه حتى يسترخي. ومنه نَتَقُ غُرَى الجِمل. وكل شيء قَلَعْتُهُ وَرَمَيْتَ بِهِ فَقَدْ نَتَقْتُهُ. والمعنى: زعزعناه من مقره. كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ: أي: كأنه لارتفاعه سحابة تظل. والظُلَّة: كل ما أظلك؛ أي: سترك، من سقف وسحابة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: واذكر - يا محمد - إذ اقتلعنا الجبل، فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظلام، وقلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ من فرائضنا، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، واعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: كي تتقوا ربكم، فتخافوا عقابه، بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المواثيق»^(١).

قال ابن عاشور: «هذه آية أظهرها الله لهم تخويفاً لهم؛ لتكون مذكرة لهم، فيعقب ذلك أخذ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، فكان رفع الطور معجزة لموسى ﷺ تصديقاً له فيما سيبلغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة. والقصة تقدمت في سورة (البقرة) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾^(٢)»^(٣).

(٢) البقرة: الآية (٦٣).

(١) جامع البيان (٩/١٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٩/١٦٥).

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٤﴾﴾

★ غريب الآية:

المبطلون: أي: الذين جاؤوا بالباطل. والإبطال: يقال تارة لمن يبطل شيئاً؛ أي: يفسده ويزيله حقاً كان ذلك الشيء أو باطلاً، وتارة لمن أتى بالباطل. ويقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له. ويقال فيمن يشتغل عما ينفعه من أمر الدنيا والدين.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:

أحدهما: أن معنى أخذه ذرية بني آدم من ظهورهم: هو إيجاد قرن منهم بعد قرن، وإنشاء قوم بعد آخرين كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ﴾^(٣)، ونحو ذلك من الآيات. وعلى هذا القول فمعنى قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ أن إشهادهم على أنفسهم إنما هو بما نصب لهم من الأدلة القاطعة بأنه ربهم المستحق منهم لأن يعبدوه وحده، وعليه فمعنى ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أي: قالوا ذلك بلسان حالهم لظهور الأدلة عليه، ونظيره من إطلاق الشهادة على

(٢) فاطر: الآية (٣٩).

(١) الأنعام: الآية (١٣٣).

(٣) النمل: الآية (٦٢).

شهادة لسان الحال قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ ^(١) أي : بلسان حالهم على القول بذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝١ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ^(٢) ؛ أي : بلسان حاله أيضا على القول بأن ذلك هو المراد في الآية أيضا .

واحتج من ذهب إلى هذا القول بأن الله - جل وعلا - جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك به - جل وعلا - في قوله : ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝٧٧ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ قالوا : فلو كان الإشهاد المذكور الإشهاد عليهم يوم الميثاق ، وهم في صورة الذر لما كان حجة عليهم ؛ لأنه لا يذكره منهم أحد عند وجوده في الدنيا ، وما لا علم للإنسان به لا يكون حجة عليه .

فإن قيل : إخبار الرسل بالميثاق المذكور كافٍ في ثبوته ، قلنا : قال ابن كثير في تفسيره : الجواب عن ذلك أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ الآية ، اه منه بلفظه .

فإذا علمت هذا الوجه الذي ذكرنا في تفسير الآية ، وما استدلل عليه قائله به من القرآن ، فاعلم أن الوجه الآخر في معنى الآية : أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر ، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۝٧٨ ثُمَّ أَرْسَلَ بَعْدَ ذَٰلِكَ الرُّسُلَ مَذْكُرَةً لِّذَٰلِكَ الْمِيثَاقِ الَّذِي نَسِيَهُ الْكُلُّ وَلَمْ يُولَدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَهُوَ ذَاكِرٌ لَهُ ، وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده .

قال مقيده - عفا الله عنه - : هذا الوجه الأخير يدل له الكتاب والسنة .

أما وجه دلالة القرآن عليه ، فهو أن مقتضى القول الأول أن ما أقام الله لهم من البراهين القطعية كخلق السموات والأرض ، وما فيهما من غرائب صنع الله الدالة على أنه الرب المعبود وحده ، وما ركز فيهم من الفطرة التي فطرهم عليها تقوم عليهم به الحجة ، ولو لم يأتهم نذير والآيات القرآنية مصرحة بكثرة ، بأن الله تعالى

(١) التوبة : الآية (١٧) .

(٢) العاديات : الآيتان (٦ و٧) .

لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل ، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة ، وما ركز من الفطرة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١) ؛ فإنه قال فيها : ﴿حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ، ولم يقل حتى نخلق عقولاً ، وننصب أدلة ، ونركز فطرة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٢) ، فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس ، وينقطع به عذرهم : هو إنذار الرسل ، لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة .

وهذه الحجة التي بعث الرسل لقطعها بينها في (طه) بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى﴾^(٣) ، وأشار لها في (القصص) بقوله : ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) ، ومن ذلك أنه تعالى صرح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل ، ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة كقوله تعالى : ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٥) قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٧) ، ومعلوم أن لفظة (كلما) في قوله : ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ﴾ صيغة عموم ، وأن لفظة (الذين) في قوله : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ صيغة عموم أيضاً ؛ لأن الموصول يعم كلما تشمله صلته .

وأما السنة : فإنه قد دلت أحاديث كثيرة على أن الله أخرج ذرية آدم في صورة الذر ، فأخذ عليهم الميثاق كما ذكر هنا^(٧) .

(١) الإسراء : الآية (١٥) .

(٢) النساء : الآية (١٦٥) .

(٣) طه : الآية (١٣٤) .

(٤) القصص : الآية (٤٧) .

(٥) الملك : الآيتان (٨ و٩) .

(٦) الزمر : الآية (٧١) .

(٧) أضواء البيان (٢/٤٢-٤٤) .

قال ابن عطية: «في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته، لكانت لهم حجتان: إحداهما: كنا غافلين. والأخرى: كنا تباغاً لأسلافنا، فكيف نهلك، والذنب إنما هو لمن طرق لنا وأضلنا؟ فوقعت شهادة بعضهم على بعض، أو شهادة الملائكة عليهم، لتقطع لهم هذه الحجج»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان معنى أخذ الله الميثاق من ذرية آدم من ظهورهم وإشهادهم على أنفسهم بأنه ربهم ومعبودهم الحق وأن ذلك على حقيقته لا مجاز فيه

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فشرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم فتلا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»^(٢).

* عن أنس يرفعه: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك»^(٣).

* عن عبدالرحمن بن قتادة السلمي وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله آدم ثم أخذ الخلق من ظهره، فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، قال قائل: يا رسول الله! فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر»^(٤).

(١) المحرر الوجيز (٢/٤٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٢٧٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٧/١١١٩١) والحاكم (١/٢٧-٢٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر»، ووافقه الذهبي. وتعقبه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٣) بقوله: «وحقهما أن يقيداه بأنه على شرط مسلم؛ فإن كلثوم بن جبر من رجاله، وسائرهم من رجال الشيخين».

(٣) أخرجه: أحمد (٣/١٢٧)، والبخاري (٦/٤٤٨/٣٣٣٤)، ومسلم (٤/٢١٦٠-٢١٦١/٢٨٠٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/١٨٦)، وصححه ابن حبان (٢/٥٠/٣٣٨) والحاكم (١/٣١) ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/١٨٦) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات».

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تبارك وتعالى آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال هؤلاء للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في يساره: إلى النار ولا أبالي»^(١).

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن القيم: «الآية دلت على أن هذا الأخذ من بني آدم لا من آدم، وأنه من ظهورهم لا من ظهوره وأنهم ذرياتهم أمة بعد أمة وأنه إشهاد تقوم به الحجة له سبحانه فلا يقول الكافر يوم القيامة كنت غافلاً عن هذا، ولا يقول الولد أشرك أبي وتبعته، فإن ما فطرهم الله عليه من الإقرار بربوبيته وأنه ربهم وخالقهم وفاطرهم حجة عليهم، ثم دل حديث عمر وغيره على أمر آخر لم تدل عليه الآية وهو القدر السابق والميثاق الأول، وهو سبحانه لا يحتج عليهم بذلك، وإنما يحتج عليهم برسله، وهو الذي دلت عليه الآية، فتضمنت الآية والأحاديث إثبات القدر والشرع وإقامة الحجة والإيمان بالقدر فأخبر النبي ﷺ لما سئل عنها بما يحتاج العبد إلى معرفته والإقرار به معها، وبالله التوفيق»^(٢).

وقال ابن كثير: «فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك. قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: (من آدم من ظهورهم) ولم يقل: (من

(١) أخرجه: أحمد (٤٤١/٦)، والبزار (كشف الأستار ٢١/٣/٢١٤٤) وقال: «لا نعلم أحداً رواه بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وإسناده حسن». وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٨٥/٧) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) شفاء العليل (١/٤٣-٤٤).

ظهره ذريتهم) أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ الْأَرْضَ﴾ وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾^(١)، وقال: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾^(٢)، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ الْأَسْثُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول كما قال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ الآية، وتارة تكون حالاً كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقْرَأُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾^(٣) أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾^(٤)، كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَأَتَّكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾^(٥) قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كافٍ في وجوده، فالجواب: إن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾^(٦) أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الآية^(٦).

وقد تعقب العلامة الألباني رحمه الله أصحاب هذا القول فقال: «إذا عرفت هذا - يعني أن حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس له حكم الرفع - فمن العجيب قول الحافظ ابن كثير عقب الأحاديث والآثار التي سبقت إلى الإشارة إلى أنه أخرجها:

(فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد

(١) النمل: الآية (٦٢).

(٢) الأنعام: الآية (١٣٣).

(٣) التوبة: الآية (١٧).

(٤) العاديات: الآية (٧).

(٥) إبراهيم: الآية (٣٤).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٠٦).

بيناً أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم).

قلت (الشيخ الألباني): وليس الأمر كما نفى، بل الإشهاد وارد في كثير من تلك الأحاديث:

الأول: حديث أنس هذا، ففيه كما رأيت قول الله تعالى: «قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(١): (فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية).

قلت: ولفظ حديث ابن عمرو الذي أعلاه ابن كثير بالوقف إنما هو: «أخذ من ظهره...»، فأى فرق بينه وبين لفظ حديث أنس الصحيح؟!

الثاني: حديث عمر بلفظ: «ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية...».

الثالث: حديث أبي هريرة الصحيح: «... مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة...».

الرابع: حديث هشام بن حكيم: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم...».

الخامس: حديث أبي أمامة: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه، وأهل الشمال بشماله، فقال: ... ألت بربكم، قالوا: بلى...».

ففي ذلك رد على قول ابن القيم أيضاً في كتاب (الروح)^(٢) بعد أن سرد طائفة من الأحاديث المتقدمة:

(وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالربوبية وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية، فمن قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية، والآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه).

وقد أفاض جداً في تفسير الآية وتأويلها تأويلاً ينافي ظاهرها، بل ويعطل دلالتها أشبه ما يكون بصنيع المعطلة لآيات وأحاديث الصفات حين يتأولونها،

(١) (٦/٢٨٤).

(٢) (ص: ١٦١).

وهذا خلاف مذهب ابن القيم رحمه الله الذي تعلمناه منه ومن شيخه ابن تيمية، فلا أدري لماذا خرج عنه هنا لاسيما وقد نقل^(١) عن ابن الأنباري أنه قال: (مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده، وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب، وكما فعل ذلك للبعير لما سجد، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت).

كما نقل أيضاً عن إسحق بن راهويه: (وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم).

قلت: وفي كلام ابن الأنباري إشارة لطيفة إلى طريقة الجمع بين الآية والحديث وهو قوله: (إن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده).

والإيه ذهب الفخر الرازي في تفسيره^(٢)، وأيده العلامة ملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح»^(٣)، وقال عقب كلام الفخر: (قال بعض المحققين: إن بني آدم من ظهره، فكل ما أخرج من ظهورهم فيما لا يزال إلى يوم القيامة هم الذين أخرجهم الله تعالى في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق الأزلي ليعرف منه أن النسل المخرج فيما لا يزال من أصلاب بنيه هو المخرج في الأزل من صلبه، وأخذ منهم الميثاق الأول، وهو المقالي الأزلي كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني، وهو الحالي الإنزالي. والحاصل أن الله تعالى لما كان له ميثاقان مع بني آدم أحدهما تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقاً آخر أزلياً فقال ما قال من مسح ظهر آدم في الأزل وإخراج

(١) (ص: ١٦٣).

(٢) (٣٢٣/٤).

(٣) (١٤١-١٤٠/١).

ذريته وأخذه الميثاق عليهم، اه وبهذا يزول كثير من الإشكالات فتأمل فيها حق التأمل).

وجملة القول: أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى كما سبق، وأنه لا تعارض بينه وبين آية أخذ الميثاق، فالواجب ضمه إليها، وأخذ الحقيقة من مجموعها، وقد تجلت لك إن شاء الله مما نقلته لك من كلام العلماء، وبذلك ننجو من مشكلتين بل مفسدتين كبيرتين:

الأولى: رد الحديث بزعم معارضته للآية.

والأخرى: تأويلها تأويلاً يبطل معناها، أشبه ما يكون بتأويل المبتدعة والمعتزلة. كيف لا وهم أنفسهم الذين أنكروا حقيقة الأخذ والإشهاد والقول المذكور فيها بدعوى أنها خرجت مخرج التمثيل! وقد عز عليّ كثيراً أن يتبعهم في ذلك مثل ابن القيم وابن كثير، خلافاً للمعهود منهم من الرد على المبتدعة ما هو دون ذلك من التأويل، والعصمة لله وحده.

ثم إنه ليلوح لي أننا وإن كنا لا نتذكر جميعاً ذلك الميثاق الرباني، وقد بين العلماء سبب ذلك، فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي تشهد فعلاً بأن الله هو الرب وحده لا شريك له، إنما هي أثر ذلك الميثاق، وكأن الحسن البصري رحمته الله أشار إلى ذلك حين روى عن الأسود بن سريع مرفوعاً: «ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة...» الحديث^(١)، قال الحسن عقبه: ولقد قال الله ذلك في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾... الآية، أخرجه ابن جرير^(٢). ويؤيده أن الحسن من القائلين بأخذ الميثاق الوارد في الأحاديث، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعليه فلا يصح أن يقال: إن الحسن البصري مع الخلف القائلين بأن المراد بالإشهاد المذكور في الآية إنما هو فطرهم على التوحيد، كما صنع ابن كثير، والله أعلم^(٣).

(١) أخرجه من حديث الأسود بن سريع رحمته الله: أحمد (٤٣٥/٣)، والدارمي (٢٢٣/٢) دون قوله: «إلا إنها ليست نسمة...»، والنسائي في الكبرى (٨٦١٦/١٨٤/٥)، والطبراني في الكبير (٢٨٣/١-٢٨٥/٢٨٥-٨٣٥)، وفي الأوسط (٢٠٠٥/٩-٨/٣)، والحاكم (١٢٣/٢) من طريقين، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٣١٦/٥) وقال: «رواه أحمد بأسانيد، والطبراني في الكبير والأوسط، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح».

(٢) (١٥٣٥٣).

(٣) السلسلة الصحيحة (٤/١٦٠-١٦٣).

* عن ابن محيريز أنه قال : دخلت أنا وأبو صرمة على أبي سعيد الخدري فسأله أبو صرمة فقال : يا أبا سعيد! هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر العزل؟ فقال : «نعم، غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة بني المصطلق، فسبينا كرائم العرب، فطالت علينا العزبة ورغبنا في الفداء، وأردنا أن نستمتع ونعزل، فقلنا نفعل ورسول الله ﷺ بين أظهرنا لا نسأله! فسألنا رسول الله ﷺ فقال : لا عليكم أن لا تفعلوا، ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون»^(١).

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث فيه بيان ما في الآية من أن الله تعالى فرغ من تقدير الكائنات حين أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم.

قال القاري : «أي : ليست نسمة كائنة في علم الله تعالى من حدوث المحدثات إلى يوم القيامة في حال من الأحوال، إلا كائنة ثابتة في وقت من الأوقات لا يمنعها عزل ولا غيره، والحاصل أن كل إنسان قدره الله، أن سيوجد ولا يمنعه العزل»^(٢).
قال النووي رَحِمَهُ اللهُ : «معناه ما عليكم ضرر في ترك العزل؛ لأن كل نفس قدر الله تعالى خلقها لا بد أن يخلقها، سواء عزلتم أم لا. وما لم يقدر خلقها لا يقع سواء عزلتم أم لا. فلا فائدة في عزلكم؛ فإنه إن كان الله تعالى قدر خلقها سبقكم الماء، فلا ينفع حرصكم في منع الخلق»^(٣).

قال آل بسام : «فيه الإيمان بالقدر، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس فيه تعطيل للأسباب؛ فإنه قدر الأشياء وقدر لها أسبابها، فلا بد من عمل الأسباب، والله يقدر ما يشاء ويفعل ما يريد، فتعطيل الأسباب وعدم الإيمان بتأثيرها، أو الاعتماد عليها وحدها كلاهما مذهب مذموم، والمذهب الحق المختار الوسط، هو الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن للأسباب تأثيراً، وهو مذهب أهل السنة، وبه تجتمع الأدلة العقلية والنقلية، ولله الحمد»^(٤).

(١) أخرجه : أحمد (٨٨/٣)، والبخاري (٣٨١/٩/٥٢١٠)، ومسلم (١٠٦١/٢/١٤٣٨) واللفظ له، وأبو داود

(٢/٢٢٤/٢١٧٢)، والنسائي (٦/٤١٦-٤١٧/٣٣٢٧).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٠/١٠).

(٢) شرح المشكاة (٦/٣٤٥).

(٤) تيسير العلام (٣/٩٩).

قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيسِ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾﴾

★ غريب الآية :

واتلُ : أي : واقرأ عليهم . والتلاوة : القراءة وإلقاء الكلام الذي يعاد ويكرر للاعتبار به .

نبا : النبأ : الخبر ذو الفائدة العظيمة .

فانسَلَخَ منها : أي : خرج منها ونزع منه العلم الذي كان يعلمه . والانسلاخ : الخروج ؛ يقال : انسَلَخْتَ الحية من جلدها ؛ أي : خرجت منه .

فاتبعه الشيطان : أي : لحق به ؛ يقال : أتبعْتُ القومَ ؛ أي : لحقتهم .

أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ : اطمأن وسكن إلى لذاتها ؛ ظاناً دوامها له . وأصل الإخلاد : اللزوم ؛ يقال : أَخْلَدَ فلان بالمكان : إذا أقام به ولزمه .

إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ : أي : إِنْ تَطْرُدْهُ كما يطرد المقاتل مقاتله .

يَلْهَثُ : اللهث : إخراج اللسان من شدة العطش .

سَاءَ مَثَلًا : أي : قبح مثلهم ؛ يقال : ساء الشيء : قبح .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم : «وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى : فمنها قوله : ﴿ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته ، فإنها نعمة ، والله هو الذي

أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه ثم قال: ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلم عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه، ومنها قوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾^(١)، وكان محفوظاً محروساً بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئاً إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء، ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأساً، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه، قال ابن عباس: «ولو شئنا لرفعناه بعمله بها». وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ عائد على الكفر، والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا، قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد، وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها، وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن جبیر: ركن إلى الأرض، وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا، وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ... وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها، وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وقال ابن دريد: كان هواه مع القوم، يعني الذين حاربوا موسى وقومه، وقال يمان: اتبع امرأته؛ لأنها هي التي حملته على ما فعل^(٢).

(١) الشعراء: الآية (٦٠).

(٢) إعلام الموقعين (١/١٦٧-١٦٨).

وقال: «شبه سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدّها شرًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشرًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاه بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشره، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعة في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه، وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهته سرّ بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته، واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا؛ لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى»^(١).

وقال **رحمته**: «فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه. وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه: أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا. وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا؛ فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها. وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، ولم يقل: تبعه؛ فإن في معنى (أتبعه) أدركه ولحقه، وهو أبلغ من (تبعه) لفظًا ومعنى. ورابعها: أنه غوى بعد الرشيد، والغى: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦٥-١٦٦).

والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل في الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر. وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به فصار وبالآ عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه. وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى. وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان: إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة:

وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا بأبناء حي من قبائل مالك

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض؛ لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع. وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا يقتدي به ويتبعه. وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسًا، وأبخلها وأشدّها كلبًا، ولهذا سمي كلبًا. وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدائها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب، قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث وإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه^(١).

قال الرازي: «إن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا فذاك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات وتقرير تلك العبارات، يدلع لسانه ويخرجه لأجل ما تمكن في

(١) الفوائد (ص: ١٣٢-١٣٤).

قلبه من حرارة الحرص ، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا ، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب ، الذي أخرج لسانه أبدًا ، من غير حاجة ولا ضرورة ، بل بمجرد الطبيعة الخسيسة^(١) .

قال القرطبي : « هذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به ، وقيل : هو في كل منافق ، والأول أصح »^(٢) .

قال الرازي : « هذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم ، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيانه . . لما اتبع الهوى انسلخ من الدين ، وصار في درجة الكلب ، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقه أكثر ، فإذا أعرض عن متابعة الهدى ، وأقبل على متابعة الهوى كان بُعدُه عن الله أعظم »^(٣) .

قال محمد رشيد رضا : « وأكبر وجوه العبرة فيما نراه من حال علماء الدنيا ، اللابسين لباس علماء الدين ، الذين هم أظهر مظاهر المثل في الانسلاخ من آيات الله ، والإخلاد إلى الأرض ، واتباع أهوائهم ، وتفانيهم في إرضاء الحكام ، وإن كانوا مرتدين ، والعوام وإن كانوا مبتدعة خرافيين ، وهم فتنة للنابتة العصرية ، تصدهم عن الإسلام ، وللعوام في الثبات على الخرافات والأوهام ، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاهها ، فيما لا يطلب إلا من الله تعالى ، والطواف بها والنذر لها وغير ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »^(٤) .

قلت : رحمة الله على الشيخ محمد رشيد رضا حيث بين واقع الذي يعيشه مع علماء السوء ، الذين كانوا في ركب كل زنديق كان حاكمًا أو محكومًا ، عاميًا أو جاهلًا ، ولا يهمهم إلا تحصيل المصالح والأغراض الخاصة ، ولا يهمهم صلاح ولا فساد ، ولا توحيد ولا شرك ، ولا استقامة ولا انحراف ، وهكذا تستوي عندهم الأمور ، فلا يفرقون بين حق وباطل ، وهذا - مع الأسف - واقع أكثر البلاد التي تنتسب إلى الإسلام إلا الطائفة المنصورة ؛ نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم .

قال القرطبي : « فدلّت الآية لمن تدبرها على أن لا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه ؛ إذ لا يدري بما يختم له . ودلت على منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره . . ودلت

(١) مفاتيح الغيب (١٥/٦٠-٦١) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٢٣) .

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/٦٠) .

(٤) تفسير المنار (٩/٤١٦) .

على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها ، فوجب أن يُخاف مثل هذا على غيره ، وأن لا يُقبل منه إلا بحجة^(١) .

فصل في ما اشتملت عليه هذه الآيات من الفوائد والعبر

من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : «وقوله : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ فيه مسائل :

الأولى : معرفة أن لا إله إلا الله ، كما في قصة آدم وإبليس ، ويعرف ذلك من عرف أسباب الشرك ، وهو الغلو في الصالحين والجهل بعظمة الله .
الثانية : معرفة أن محمداً رسول الله يعرفه من عرف عداوة علماء أهل الكتاب له .

الثالثة : معرفة الدين الصحيح ، والدين الباطل ؛ لأنها نزلت في إبطال دينهم الذي نصرُوا ، وتأيد دينه الذي أنكروا .

الرابعة : معرفة عداوة الشيطان ومعرفة حيله .

الخامسة : أن من انسلخ من الآيات أدركه الشيطان ، ومن لم ينسلخ منها حَمَتَه منه ، ثم صار أكثر من ينتسب إلى العلم يظن العكس .

السادسة : خوف الخاتمة كما في حديث ابن مسعود .

السابعة : عدم الاغترار بغزارة العلم .

الثامنة : عدم الاغترار بصلاح العمل .

التاسعة : عدم الاغترار بالكرامات وإجابة الدعاء .

العاشرة : أن الانسلاخ لا يشترط فيه الجهل بالحق أو بغضه . . .

الثانية عشرة : معرفة الفتنة وأنه لا بد منها ، فليتهاهب وليسأل الله العافية لقوله :

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٢٣) .

(٢) العنكبوت : الآية (٢) .

الثالثة عشرة: عدم أمن مكر الله.

الرابعة عشرة: عقوبة العاصي في دينه ودنياه.

الخامسة عشرة: ذكر مشيئة الله، وذكر السبب من العبد.

السادسة عشرة: أن محبة الدنيا تكون سبباً لردة العالم عن الإسلام.

السابعة عشرة: تمثيل هذا العالم بالكلب في اللهث على كل حال.

الثامنة عشرة: أن هذا مثل لكل من كذب بآيات الله فليس مختصاً.

التاسعة عشرة: ذكر كونه سبحانه أمر بقص القصص على عباده.

العشرون: ذكر الحكمة في الأمر به.

الحادية والعشرون: قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ كقوله: ﴿يَنْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾^(١). والله

أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم العالم الذي يخالف فعله قوله

عن عبد الله بن مسعود في قوله ﷺ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا

فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: «هو بلعم بن باعوراء»^(٣).

عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ما أتخوف عليكم رجل

قرأ القرآن حتى إذا رثيت بهجته عليه وكان ردةً للإسلام، غيَّره إلى ما شاء الله،

فأنسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك. قال:

قلت: يا نبي الله! أيهما أولى بالشرك، المرمي أم الرامي؟ قال: بل الرامي»^(٤).

(١) الجمعة: الآية (٥).

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١١١-١١٢).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/٣٤٨/١١١٩٣)، وعبد الرزاق في التفسير (٢/٢٤٣)، والطبراني (٩/٢٤٩/٩٠٦٤).

من طرق عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله به، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/٢٥) وقال:

«رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح»، والحاكم (٢/٣٢٥) واللفظ له، وقال الذهبي: «على شرط

البخاري ومسلم».

(٤) أخرجه: البزار (كشف الأستار ١/٩٩/١٧٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/٢٨١-٢٨٢/٨١)، وذكره

الهيثمي في «المجمع» (١/١٨٧-١٨٨) وقال: «رواه البزار، وإسناده حسن»، وذكره ابن كثير في التفسير

(٣/٥٠٩) بسند أبي يعلى، وقال: «هذا إسناد جيد».

★ غريب الحديث:

ردة للإسلام: الردء: الذي يتبع غيره معيناً له. والردء: العون والناصر.
والمعنى: ناصراً للإسلام ومعيناً لأهله.

★ فوائد الحديث:

وهذا الحديث في معنى الآية كما قال ابن كثير، وقد تقدم بيان معنى الآية. وفي هذا الحديث بيان واضح لشدة خوف النبي ﷺ على أمته من العالم الذي هذه صفته، الذي «اتخذ العلم حرفة يتأكل بها ذا هيبة وأبهة يتعزز ويتعاضم بها، يدعو الناس إلى الله ويفر هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للناس التنسك والتعبد ويسارر ربه بالعظام، إذا خلا به ذئب من الذئاب، لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذر منه الشارع ﷺ...»

وكان يحيى بن معاذ يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب القصور! قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين المحمدية والعالمية؟

وأكثر علماء الزمان ضربان: ضرب منكب على حطام الدنيا، لا يمل من جمعه، وتراه شهره ودهره يتقلب في ذلك، كالهج في المزابل يطير من عذرة إلى عذرة، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه، ولزمه خوف الفقر وحب الإكثار، واتخذ المال عدة للنوائب، لا يتنكر عليه تغلب الدنيا. وضرب هم أهل تصنع ودهاء وخداع، وتزين للمخلوقين، وتملق للحكام؛ شحاً على رئاستهم، يلتقطون الرخص، ويخادعون الله بالحيل ديدنهم المداهنة وساكن قلوبهم المنى، طمأنينتهم إلى الدنيا، وسكونهم إلى أسبابها، اشتغلوا بالأقوال عن الأفعال، وسيكافئهم الجبار المتعال^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت

(١) من كلام المناوي في «الفيض» (٢/٤١٩-٤٢٠).

أفعالهم : لا تسمعوا منهم . فلو كان ما دعوا إليه حقًا ، كانوا أول المستجيبين له ، فهم في الصورة أدلاء ، وفي الحقيقة قطاع الطرق»^(١) .

* عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس لنا مثل السوء الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه»^(٢) .

* فوائد الحديث :

قوله ﷺ : «ليس لنا مثل السوء» :

قال الحافظ : «أي : لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات في أخس أحوالها ، قال الله ﷻ : ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٣) ، ولعل هذا أبلغ في الزجر عن ذلك ، وأدل على التحريم مما لو قال مثلاً : لا تعودوا في الهبة»^(٤) .

* * *

(١) الفوائد (ص : ٨٠) .

(٢) أخرجه : أحمد (٢١٧/١) ، والبخاري (٢٦٢٢/٢٩٣/٥) ، وأخرجه بدون ذكر الجملة الأولى : «ليس لنا مثل السوء» : أحمد (٢٣٧/١) ، ومسلم (١٢٤٠-١٢٤١/١٦٢٢) ، وأبو داود (٣٥٣٨/٨٠٨/٣) ، والنسائي (٣٧١٢/٥٨٢/٦) ، وابن ماجه (٢٣٩١/٧٩٩/٢) .

(٣) النحل : الآية (٦٠) .

(٤) فتح الباري (٥/٢٩٤) .

قوله تعالى : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : الهداية والإضلال بيد الله ، والمهتدي وهو السالك سبيل الحق ، الراكب قصد المحجة في دينه ، من هداه الله لذلك ، فوفقه لإصابته ، والضال من خذله الله فلم يوفقه لطاعته ، ومن فعل الله ذلك به فهو الخاسر ، يعني الهالك»^(١).

وفي هذه الآية - يقول السمعاني : «دليل على القدرية ، حيث نسب الهداية والضلالة إلى فعله من غير سبب»^(٢).

قال ابن عاشور : «هذه الجملة تذييل للقصة والمثل ، وما أعقبا به من وصف حال المشركين ؛ فإن هذه الجملة تحصل ذلك كله ، وتجري مجرى المثل ، وذلك أعلى أنواع التذييل . وفيها تنويه بشأن المهتدين وتلقين للمسلمين للتوجه إلى الله تعالى بطلب الهداية منه ، والعصمة من مزالق الضلال ؛ أي : فالذين لم يهتدوا إلى الحق بعد أن جاءهم دلت حالهم على أن الله غضب عليهم فحرمهم التوفيق»^(٣).

قال محمد رشيد رضا : «وفي الآية من محاسن البديع الاحتباك ، وهو حذف الفوز والفلاح من الجملة الأولى للعلم به ، من إثبات نظيره ومقابله ، وهو الخسران في الجملة الثانية ، وحذف الضال من الجملة الثانية لإثبات مقابله ، وهو المهتدي في الجملة الأولى ، وإفراد المهتدي في الجملة الأولى مراعاة للفظ (من) ، وجمع الخاسرين في الثانية ، مراعاة لمعناها ، فإنها من صيغ العموم ، وحكمة إفراد الأول ، الإشارة به إلى أن الحق المراد من الهداية الإلهية نوع واحد ، وهو الإيمان

(١) جامع البيان (٩/ ١٣٠-١٣١).

(٢) تفسير القرآن (٢/ ٢٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٠).

المثمر للعمل الصالح، وحكمة جمع الثاني الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الهدى والضلال
خلقاً لله وكسباً من العباد

✽ عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «علمنا خطبة الحاجة: الحمد لله نستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ثم يقرأ ثلاث آيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٣)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٤)،^(٥).

✽ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جفت القلم على علم الله»^(٦).

✽ فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «من يهد الله فلا مضل له»؛ شهادة بأنه المتصرف في خلقه، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد^(٧).

وقال ابن القيم: «هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما

(٢) آل عمران: الآية (١٠٢).

(١) المنار (٤١٧/٩).

(٤) الأحزاب: الآية (٧٠).

(٣) النساء: الآية (١).

(٥) أخرجه: أحمد (٣٩٢-٣٩٣/١)، وأبو داود (٥٩١-٥٩٢/٢)، والترمذي (١١٠٥/٤١٣/٣)، وحسنه، والنسائي (١٤٠٣/١١٦/٣)، وابن ماجه (٦٠٩-٦١٠/١٨٩٢)، والحاكم (١٨٣-١٨٢/٢) وسكت عنه وكذا الذهبي.

(٦) أخرجه: أحمد (١٧٦/٢)، والترمذي (٢٦٤٢/٢٦/٥) وقال: «هذا حديث حسن»، وصححه ابن حبان (١٤/٤٣-٤٥/٦١٦٩-٦١٧٠)، والحاكم (٣٠/١).

(٧) أفاده شيخ الإسلام (٢٢٢/١٤).

يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى ، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال ، وكل نعمة دون نعمة الهدى ، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال ، وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد وأن العبد هو الضال أو المهتدي ، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره ، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن ، فأما مراتب الهدى فأربعة :
إحداها : الهدى العام وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها وهذا أعم مراتبه .

المرتبة الثانية : الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة .

المرتبة الثالثة : الهداية المستلزمة للاهتداء وهي هداية التوفيق ومشية الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ .

المرتبة الرابعة : الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة قال تعالى : ﴿ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ (٢) ، فهذه هداية بعد قتلهم ، فقليل : المعنى : سيهديهم إلى طريق الجنة ، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم . . . » (٣) .

وسئل شيخ الإسلام عن الباري سبحانه : هل يضل ويهدي ؟ فأجاب : « إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له ، خلقه بمشيئته وقدرته ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذي يعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ، ويغني ويفقر ، ويضل ويهدي ، ويسعد ويشقي ، ويولي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويشرح صدر

(١) الصافات : الآيتان (٢٢ و٢٣) .

(٢) محمد : الآيتان (٥ و٤) .

(٣) شفاء العليل (١ / ١٨١ - ١٨٢ / ٢٢٣) .

من يشاء للإسلام ويجعل صدر من يشاء ضيقًا كأنما يصعد في السماء، وهو يقلب القلوب، ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاعه، وهو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، وهو الذي جعل المسلم مسلمًا، والمصلي مصليًا، قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾^(١)، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾^(٣)، وقال عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكَاثُرِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾^(٦)، وقال: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾^(٧)، والفلك مصنوعة لبني آدم، وقد أخبر الله تبارك وتعالى أنه خلقها بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾^(٨)، وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا﴾^(٩). الآيات. وهذه كلها مصنوعة لبني آدم. وقال تعالى: ﴿اتَّقِبُوا مَا تَتَحَوَّنَ ۖ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٠)، (ف-ما) بمعنى: الذي، ومن جعلها مصدرية فقد غلط، لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس والمبنى دلّ على أنه خالق كلّ صانع وصنعتة، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجْدَ لَهُمْ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾^(١١)، وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾^(١٢)، وهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه، وله فيما خلقه حكمة بالغة، ونعمة سابغة، ورحمة عامة وخاصة، وهو لا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون، لا لمجرد قدرته وقهره، بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، فإنه ﷻ أحكم الحاكمين،

(٢) إبراهيم: الآية (٤٠).

(٤) القصص: الآية (٤١).

(٦) هود: الآية (٣٧).

(٨) يس: الآية (٤٢).

(١١) الكهف: الآية (١٧).

(١) البقرة: الآية (١٢٨).

(٣) السجدة: الآية (٢٤).

(٥) المعارج: الآية (١٩-٢١).

(٧) هود: الآية (٣٨).

(٩) النحل: الآية (٨٠).

(١٠) الصافات: الآيتان (٩٥ و٩٦).

(١٢) الأنعام: الآية (١٢٥).

وأرحم الراحمين ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وقد أحسن كل شيء خلقه ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(١) ، وقد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾^(٤) «^(٥)» .

وأما قوله ﷺ : « جف القلم على علم الله » : فقال ابن رجب : « هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها ، والفراغ منها من أمد بعيد ، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ، ورفعت الأقلام عنه ، وطال عهده ، فقد رفعت عنه الأقلام ، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها ، وجفت الصحيفة التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها . وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة على مثل هذا المعنى ، قال الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(٦) . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ ، قال : « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة »^(٧) ، وفيه أيضاً عن جابر أن رجلاً قال : يا رسول الله ! فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؟ قال : « لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » ، قال : ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا ، فكلٌ میسر لما خلق له »^(٨) «^(٩)» .

* * *

(٢) البقرة : الآية (١٦٤) .

(٤) المائدة : الآية (١٦) .

(١) النمل : الآية (٨٨) .

(٣) الأعراف : الآية (٥٧) .

(٥) مجموع الفتاوى (٨ / ٧٨ - ٨٠) .

(٦) الحديد : الآية (٢٢) .

(٧) سيأتي تخريجه تحت الآية الموالية .

(٨) أخرجه : أحمد (٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣) ومسلم (٤ / ٢٠٤٠ - ٢٠٤١ / ٢٦٤٨) .

(٩) جامع العلوم والحكم (١ / ٤٨٢) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

ذرائنا: أي: خلقنا وأنشأنا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال البغوي: «أخبر الله تعالى أنه خلق كثيرًا من الجن والإنس للنار، وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومن خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها»^(٢).

قال الخازن: «وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة في أن الله خالق أعمال العباد جميعها، خيرها وشرها؛ لأن الله ﷻ بين بصريح اللفظ أنه خلق كثيرًا من الجن والإنس للنار، ولا تزيّد على بيان الله ﷻ»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القضاء والقدر

✳ عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»^(٤).

✳ عن عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي. فقلت: طوبى له! عصفور من عصافير الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «أو لا تدري أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً؟»^(٥).

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) لباب التأويل (٢/١٥٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/١٦٩)، ومسلم (٤/٢٠٤٤/٢٦٥٣)، والترمذي (٤/٣٩٨-٣٩٩/٢١٥٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٤) أخرجه: أحمد (٦/٢٠٨)، ومسلم (٤/٢٠٥٠/٢٦٦٢)، وأبو داود (٥/٨٦/٤٧١٣)، والنسائي (٤/٣٥٩/١٩٤٦)، وابن ماجه (١/٣٢/٨٢).

* عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١).

* فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث إثبات القضاء والقدر، وأن الله تبارك وتعالى قدر شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وجميع أعمالهم قبل أن يخلقهم، وأنه ﷻ علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك في كتاب، فهو عنده قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وفي ذلك إثبات القدر السابق. وقد خالف في ذلك القدرية ومن سار على دربهم، فأنكروا أن يكون الله عالمًا بالأشياء قبل وقوعها، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوها - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وفي حديث عائشة دليل على أن من مات من أطفال المسلمين أنه من أهل الجنة.

قال النووي: «أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلفًا، وتوقف فيه بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا، وأجاب العلماء بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبي وقاص في قوله: «أعطه؛ إني لأراه مؤمنًا، قال: أو مسلمًا»^(٢) الحديث، ويحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم

(١) أخرجه: أحمد (٣٨٢/١)، والبخاري (٣٧٣-٣٢٠٨)، ومسلم (٢٠٣٦/٤)، وأبو داود (٨٢/٥) - (٤٧٠٨/٨٣)، والترمذي (٣٨٨-٣٨٩/٤)، وابن ماجه (٧٦/٢٩).

(٢) أخرجه من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه: أحمد (١٨٢/١)، والبخاري (١٠٧/٢٧)، ومسلم (١٣٢/١) - (٢٣٧/١٥٠)، وأبو داود (٦٠-٦٢/٤٦٨٣)، والنسائي (١٠٣/٨).

أن أطفال المسلمين في الجنة، فلما علم قال ذلك في قوله ﷺ: «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»^(١) وغير ذلك من الأحاديث، والله أعلم»^(٢).

وقال ابن كثير: «فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء - كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي قطع به إن شاء الله ﷻ. فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مشيئة الله ﷻ - قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحق بن راهويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطنه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه، وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال المشركين خاصة في المشيئة، انتهى كلامه، وهو غريب جدًا.

وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضًا، والله أعلم. وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دُعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله! طوبى له! عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء، ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيّدة، وقد تكلم

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢٣٩-٢٤٠/٢)، والبخاري (١٥٣/٣)، ومسلم (٤/٢٠٢٨/٢٦٣٢ [١٥٠])، والترمذي (٣/٣٧٤/١٠٦٠)، والنسائي (٤/٣٢٥/١٨٧٤)، وابن ماجه (١/١٦٠٣/٥١٢).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٦/١٧٠).

فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً - أو: مقارباً - ما لم يتكلموا في الولدان والقدر»^(١)، قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين»^(٢).

* * *

(١) أخرجه: الطبراني (١٢/١٦٢/١٢٧٦٤)، وفي الأوسط (٥/٥٦/٤٠٩٨)، والبخاري (مختصر زوائد البزار: ٢/١٥٤/١٦٠٦)، وابن حبان (١٥/١١٨-١١٩/٦٧٢٤)، والحاكم (١/٣٣) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا نعلم له علة»، ووافقه الذهبي. والحديث صحيحه أيضاً الشيخ الألباني في الصحيحة (١٦٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٥٧-٥٨).

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «أما قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم، فوصفهم ربنا - جل ثناؤه - بأنهم: ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ لإعراضهم عن الحق، وتركهم تدبر صحة نبوة الرسل، وبطول الكفر.

وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله، وتكذيب رسله، فوصفهم الله بتركهم إعمالهما في الحق بأنهم لا يبصرون بها.

وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ آيات كتاب الله، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْفَوَ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وذلك نظير وصف الله إياهم في موضع آخر بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢)،^(٣).

قال محمد رشيد رضا: «وبما إذا كان هؤلاء معدين لجهنم دون الجنة؟ وما صفاتهم المؤهلة لذلك؟

الجواب: ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، إلخ. . . أي: لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتزكى به أنفسهم من توحيد الله المطهر لها من

(٢) البقرة: الآية (١٧١).

(١) فصلت: الآية (٢٦).

(٣) جامع البيان (٩/١٣١-١٣٢).

الخرافات والأوهام، ومن المهانة والصغار؛ فإن من يعبد الله تعالى وحده عن إيمان ومعرفة تعلو نفسه، وتسمو بمعرفة ربه رب العالمين ومدبر الكون بتقديره وسننه، فلا تذلل نفسه بدعاء غيره، والخوف منه، والرجاء فيه، والاتكال عليه، بل يطلب كل ما يحتاج إليه من ربه وحده، فإن كان مما أقدر الله تعالى عليه خلقه، بإعلامهم بأسبابه، وتمكينهم منها، طلبه بسببه، مراعيًا في طلبه ما علمه من مقادير الخلق وسننه، وذلك عين الطلب من الله تعالى، ولا سيما في نظر العالم بما ذكر، وإن لم يكن كذلك، توجه إلى الله وحده لهدايته إلى العلم بما لا يعلم بسببه، وإقداره على ما لا يقدر عليه من وسائله، أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه، أو إيصاله إليه، ممن أعطاهم من أسبابه ما لم يعطه، كالأطباء لمداداة الأمراض، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال، والعلماء الراسخين لبيان الحقيقة وحل الإشكال، ولا يتوجه مثل هذا العارف الموحد في طلب شيء إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة، والوسائل المعقولة المجربة كالرقى والنشرات، والتناجيس والطلسمات، والعزائم والتبخيرات، ولا كرامات الصالحين من الأحياء والأموات، دع التقرب إليهم بما يعد من العبادات كالدعاء الذي هو مخ العبادة والركن الأعظم فيها.. والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(١) ويقول: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾^(٢) ويقول: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ويقول: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾^(٤) ويقول: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾^(٥) إلخ.. ويقول: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾^(٦) ويقول: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٧) ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات، والحرص على أعمال الخيرات، وإن شئت فقل: واجتناب الرذائل والتحلي بالفضائل، مناط سعادة الدنيا، وبها مع الإيمان بالله واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة، وأنها لا يمكن أخذ الناس بها فعلاً وتركًا، وسرًا وجهرًا، إلا بالتربية الدينية الصحيحة، ولذلك ترى أعلمهم بصفات

(١) الجن: الآية (١٨).

(٢) الأنعام: الآية (٤١).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٤) البقرة: الآية (١٥٠).

(٥) إبراهيم: الآية (١٢).

(٦) المائدة: الآية (٢٣).

(٧) التوبة: الآية (١٣).

النفس البشرية وأخلاقها، وقوانين التربية الصورية وآدابها، يجنون على أجسادهم وأنفسهم بالإسراف في الشهوات، والاحتيال على كثرة المقتنيات، والتعالي على الأقران. . فيجترحون فواحش الزنا واللواط، ويقتربون جريمتي الرشوة والقمار، ويستحلون منكرات الحسد والاستكبار، ومنهم أكثر الخونة أعوان الأجانب على استعباد أمتهم، وامتلاك أوطانهم، ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية، واللذات المعنوية، والسعادة الأبدية، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾^(١)، ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الآيات الإلهية في الأنفس والآفاق، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات، وأظهر آياته العلمية الباقية إلى آخر الزمان ما أودعه منها في كتابه القرآن المنزل على رسوله الأُمِّي ﷺ كالعلوم الإلهية والتشريعية والأدبية والاجتماعية، وأخبار الغيب الماضية والآتية، فهم ينظرون في ظواهر هذه الآيات، ويتكلفون لها غرائب التأويلات، ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۚ أُنْظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾^(٢) وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾^(٣) وقال في عدم فقههم للقرآن: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) وهذه الآيات جمعت حرمانهم لهداية القلوب والأسماع والأبصار، فهي شاهد لكل ما جاء في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ومثلها في سورتي (الإسراء) و(الكهف)، ولكن الشاهد فيهما على نفي هداية القلوب والأسماع فقط، إذ هو المناسب للموضوع، ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهوه بها أسباب النصر على الأعداء من روحية وعقلية واجتماعية وآلية، التي نصر الله بها المؤمنين على الكافرين في عهد الرسول ﷺ ثم في عهد الخلفاء الراشدين والمدنيين في الإسلام، وجعل العشرة منهم أهلاً لغلب المائة في طور القوة، والمائة أهلاً لغلب المائتين في طور الضعف، وعلل ذلك بأن الكفار قوم لا يفقهون، وقال في سورة (الحشر): ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

(١) الروم: الآية (٧).

(٢) الأنعام: الآية (٦٥).

(٣) الأنعام: الآية (٩٨).

(٤) الأنعام: الآية (٢٥).

قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^(١)، فمن آيات الدين في المؤمن أن يكون أفقه من الكافر بنظم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية، وأكمل اتصافاً بها، وتمتعاً بثمرها، فأين هذا الإيمان من مسلمي هذا الزمان؟ ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها سنن الله تعالى في الاجتماع وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعات، ولا سيما في عهد النبوة وزمن المعجزات، ولا يفقهون إدالة الله لأهل الحق من أهل الباطل، بل يحكمون في ذلك بما يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر، دون ما وراءها من الفقه الباطن، كما حكاها الله تعالى عن المنافقين في آخرة سورة (التوبة) من كونهم لا يزدادون بنزول سور القرآن إلا رجساً؛ أي: خبثاً ونفاقاً، وكونهم يفتنون ويمتحنون مراراً، ولا يفيدهم ذلك توبة ولا ادكاراً، حتى إذا ما أنزلت سورة فرّوا من سماعها فراراً، لا يخافون أن يراهم الله، ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرْفَ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^(٢)﴾، وما حكاها تعالى عنهم في سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهم إذ توهموا أنهم يقنعون المؤمنين من الأنصار بترك الإنفاق على إخوانهم المهاجرين، وأن ذلك كاف في انفضاضهم من حول الرسول ﷺ ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ^(٣)﴾ أي: لا يفقهون سر كفاية الله تعالى رسوله والمؤمنين وكفالتهم لهم، ولا يفقهون أن سبب إنفاق الأنصار الأبرار رضوان الله تعالى عليهم هو الإيمان الصادق الذي هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته، فلا يؤثر فيهم قولهم: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إلا احتقارهم لهم على نفقاتهم، وثباتهم هم على إنفاقهم لا يفقهون هذا ولا ذاك لأنهم محرومون من وجدان الإيمان، وإيثار ما عند الله تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من متاع.

وجملة القول: أن نفي الفقاهاة عن قلوب المخلوقين لجهنم يشمل كل ما ذكرنا، وما في معناه من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس.

(١) الحشر: الآية (١٣).

(٢) التوبة: الآية (١٢٧).

(٣) المنافقون: الآية (٧).

ومن العبرة فيه : أن الذين يدعون الإيمان في هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ما ذكر ولا يعلمون أن من فقهه فهو المخلوق للجنة كما يؤخذ من الحكم على أن من لم يفقهه مخلوق لجهنم ، بل صار كثير ممن لا يوصفون بإيمان ولا إسلام يفقهون من سنن الله تعالى المشار إلى بعضهم في القرآن ما لا يفهمون كأسباب النصر في الحرب ولذلك تراهم ينصرون فيها على هؤلاء ، والله تعالى يقول للمؤمنين : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾^(١) ويقول فيهم : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) ، وليس المعنى أنه ينصرهم بخوارق العادات ، بل إنهم بمقتضى الإيمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية . وفقاهة الأمر تقتضي العمل بموجبه ، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين ، وأن لدى أعدائهم من العلم وأخلاق الإيمان أكثر مما عندهم ، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الإيمان الإسلامي الكامل . ثم إنهم بعد ذلك يعدون جهلهم وخذلانهم حجة على الإسلام ، ويزعمون أنه هو سبب حرمانهم النصر ، والترقي في معارج العمران ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ حقيقة الإسلام ، ولا يدرون ما الكتاب وما الإيمان ، فالقرآن حجة عليهم ، وهم أجهل وأضل من أن يكونوا حجة على القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أبلغ من أن يقال : ليس لهم قلوب يفقهون بها لأن إثبات خلق القلوب لهم ، هو موضع قيام الحجة عليهم ، والتعبير الآخر يصدق بأمرين : بعدم وجود القلوب لهم بالمرة ، وبوجود قلوب لا يفقهون بها ، وفي الحالة الأولى لا تقوم عليهم حجة لأنهم لم يؤثروا آلة التكليف وهو العقل والوجدان فلا تكون العبارة نصاً في قيام الحجة لاحتمالها عدم التكليف ، وإنما قال : ﴿ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ولم يقل : « لا تفقه » لبيان أنهم هم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الأمور واكتناه الحقائق ، ويقال مثل هذا وما قبله فيما بعده وهو : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ومعنى الجملتين يفهم إجمالاً مما فسرنا به فقه القلوب تفصيلاً ؛ أي : ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكير فيما يرون من آيات الله في خلقه ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه ، فيهتدوا بكل منها ما فيه إلى سعادتهم

(١) محمد : الآية (٧) .

(٢) الروم : الآية (٤٧) .

في دنياهم وآخرتهم . وأما التفصيل فيؤخذ من آيات القرآن الكثيرة المرشدة إلى النظر في آياته تعالى في الأنفس والآفاق وفي تدبر القرآن ، وكذا الاستفادة مما يروى ويؤثر من تاريخ البشر ، فإن الآذان قد خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع ، لا من القرآن فقط ، كما أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك على كماله بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منهما فيما خلق له . قال تعالى في آخر سورة (الم السجدة) : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١) أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنفسهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴿١﴾ فهذا مثالان لآيات البصرية والسمعية وأمثالهما كثير ، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لا يفقهون شيئاً منها ، وليس الفقه عندهم إلا تقليد علماء فروع الأحكام العملية فيما كتبه منها ، وقد يكون في حكايتها دون العمل بها !

وفي معنى ما هنا من صفات أهل جهنم قوله تعالى في الذين علم الله رسوخهم في الكفر وثباتهم عليه من سورة (البقرة) : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً﴾ (٢) فقد بين بضرب من التشبيه البليغ عدم انتفاعهم بمواهب القلوب والأسماع والأبصار التي هي آلات العلم والعرفان ، وطرق الهدى والإيمان . وقوله في المنافقين بتشبيه أبلغ : ﴿صُمُّوا بِكُمْ غَمٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣) ومثله المثل : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّوا بِكُمْ غَمٌّ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٤) وقوله فيهم من سورة (النحل) : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ (٥) وقوله في سورة (الجاثية) : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦) وقوله في سورة (الأحقاف) بعد ذكر هلاك عاد : ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (٧) وقوله تعالى في سورة (الأنفال) :

(١) السجدة : الآيتان (٢٦ و ٢٧) .

(٢) البقرة : الآية (٧) .

(٣) البقرة : الآية (١٨) .

(٤) البقرة : الآية (١٧١) .

(٥) الآية (١٠٨) .

(٦) الآية (٢٣) .

(٧) الأحقاف : الآية (٢٦) .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ولو أسمعهم سماع تفقه واعتبار والحال أنه قد علم أنهم لا خير فيهم لتولوا عن الاستجابة وهم معرضون.

كرر الرب الحكيم بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة في البلاغة كالتشبيه بالتمثيل والاحتجاج، وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والإنذار، لمن لم يفقد استعداد الهداية من الكافرين، لأجل العظة والذكرى للمؤمنين، كما نرى في آيات (الأنفال)، ومع هذا التكرار البالغ حد الإعجاز في البلاغة نرى أكثر المسلمين أشد إهمالاً من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق؛ لأنهم من أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته تعالى في أعضاء الإنسان ومشاعره وقواه العقلية وانفعالاته النفسية وآياته في الجماد والنبات والحيوان والهواء والماء والبخار، والغازات التي تتركب منها هذه المواد وغيرها، وسنن النور والكهرباء، والهيئة الفلكية، ومن أصاب منهم حظاً من هذه العلوم فإنما أخذه عن الإفرنج أو تلاميذهم المتفرنجين فكان مقلداً فيه لهم لا مستقلاً، ولم يتجاوز طريقتهم في البحث عن منافع هذه الأشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مدبراً عليمًا حكيمًا، مريدًا قديرًا رحيمًا، يجب أن يعبد وحده، وأن يخشى ويحب فوق كل أحد، وأن تكون معرفته والزلزلة عنده ورجاء لقائه في الآخرة منتهى كل غاية من الحياة، ولو قصد أولئك العلماء هذا من العلم لأصابوه، فإن الأمور بمقاصدها، و«إنما الأعمال بالنيات»، ولكنهم غفلوا عنه؛ لتعلق إرادتهم بما دونه، ولهذا كان علمهم على سعته ناقصاً أقبح نقص، وكان الانتفاع به مشوباً بضرر عظيم باستعمال ما هداهم إليه العلم من خواص الأشياء في الحرب وآلات القتال، التي تدمر العمران وتسحق الألوف الكثيرة من البشر في وقت قصير، وبهذا يصدق على هؤلاء

العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها ، وآثروا الجهل على العلم بها ، من قوله **عَلَيْكَ : ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾** ^(١) أي : أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبقر وغنم ، في كونهم لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمشيتهم في هذه الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام ؛ لأن هذه لا تجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزواتها ؛ بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية ، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون في كل ذلك إسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها ، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهاداً يفرط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافي ، ويقصر في حقوق الزوجية ، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهبانية ، فيجني على شخصه وعلى نوعه بالتفريط كما يجني عليهما عبيد اللذات بالإفراط ، دع الجنابة على الأخلاق والآداب وعلى الأمم والشعوب ، وهداية الإسلام تحظر هذا وذاك ، وتوجب الأكل من الطيبات والزواج بشرطه ، وتحرم الإسراف في كل شيء . فلو اهتدى الناس بالقرآن في فقه أسرار الخلق ومنافعه لجمعوا بها بين ارتقائهم في معاشهم ، واستعدادهم لمعادهم ، واتقوا هذا الإسراف في الشهوات والتنازع عليها الذي أفسد مدنية الإفرنج بما يشكو منه جميع حكماؤهم ويجزمون بأنه لا بد أن يقضي عليهم» ^(٢) .

قلت : هذا الفهم الطيب للشيخ محمد رشيد رضا وتنزيله على الواقع الاجتماعي المعيش أمر مهم يربط المسلم بربه ، ويعلم أنه مقصر في الفهم الصحيح لهذا الكتاب ، وأن كتاب الله هو النور المضيء الذي لا يخفى على ذي بصيرة ، الذي جاء بخيري الدنيا والآخرة ، جاء بالتوحيد بكامل أصوله وفروعه ، ومن فقهه الله فيه فصل عن كل الخرافات والأوهام ، والوثنيات ، والشركيات الإنسية والجنية ، والجمادات ، والكواكب ، وكل ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يخلق ولا يرزق ، ولا يشيب ولا يعاقب ، فيعيش بفقه التوحيد عزيزاً منيعاً شريفاً بكل ما في

(١) الأعراف : الآية (١٧٩) .

(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٢١-٤٢٩) .

الكلمة من معنى ، ومن فقد فقه التوحيد تخبط تخبطاً وضل ضلالاً لا نهاية له ، وقد أدى بهؤلاء تخبطهم وضلالهم حتى عبدوا الفئران والبقر والمومسات من البشر! وعبدوا الشيطان الذي هو أصل الشرك وداعيه! واعتقدوا في كل شيء أن له نفعاً وضراً إلا الله فإنه لا يضر ولا ينفع في نظرهم! فلهذا تجدهم يقسمون بغيره ولا يقسمون به ، ويخافون من غيره ولا يخافون منه!

وتجدهم في فقه العبادات معرضين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فإن كان من أهل فقه التعصب يتعصبون تعصب المستميت لقول فلان وعلان ، وهكذا تجدهم منحرفين في أخلاقهم وأهليهم ؛ لا يبالون بحلال وحرام ، ولا بمعصية وطاعة ، ولا بمن استقام ممن هو تحت مسؤوليتهم ولا بمن انحرف ، وربما لفرط جهلهم حاربوا المستقيم واتهموه بتهم تنفره من الاستقامة .

وأما سنن الحياة - كما أشار الشيخ محمد رشيد رضا - في إنجاح المجتمعات الإسلامية وجعلها أرقى المجتمعات ؛ فإن غالب حكام المسلمين وعلمائهم لا يهتم هذا الأمر ولا يلتفتون إليه ، وإنما تهمهم ملذاتهم ومصالحهم ، ومجتمعاتهم يقودها غيرهم كامل القيادة ، وهم محجورون غاية الحجز ، فلا كلمة لهم ولا شخصية مستقلة ؛ فإن الظاهرة الفاسدة تولد في بلاد الغرب الكافر وتربى وتحتضن في بلاد الإسلام ، فتزوج وتلد وتتناسل إلى ما لا نهاية .

أما ما أشار إليه من الاستعدادات الحربية والدفاع عن حوزة البلاد ؛ فالناس معتمدون في ذلك على الله الحامي لبلاده من الكفرة والملحدين ، وإلا لو أراد الغازي أن يرجع إلى غزوه العسكري ما منع من ذلك مانع ، فلحظة واحدة تجد أساطيله متربعة في كثير من العواصم الإسلامية . فنرجو الله أن يحفظ بلاد المسلمين من شر الكفرة والملحدين والمنافقين الداخلين والخارجيين ، والله المستعان .

وقال ابن كثير : «وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني : ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبيلاً للهداية ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ^(١)، وقال تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتِيَّ فِهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ^(٢)﴾، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتِيَّ فِهْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^(٣)﴾، ولم يكونوا صمًا بكمًا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ^(٤)﴾، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ^(٥)﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَسْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ^(٦)﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ^(٧)﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق، ولا يعونه، ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذْيِ النَّعِيقِ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْمٌ عُتِيَّ^(٧)﴾ أي: ومثلهم -في حال دعائهم إلى الإيمان- كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ^(٨)﴾ أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس^(٨) بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء، ولأن الدواب تفقه ما خلقت له، إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ^(٧) بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ^(٩)﴾.

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، القوم الذين غفلوا؛ يعني: سهوا عن آياتي وحججي، وتركوا تدبرها والاعتبار بها، والاستدلال على ما دلت عليه من توحيد ربها، لا البهائم التي قد عرفها ربها ما سخرها له^(١٠)».

قال محمد رشيد رضا: «﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ أي: أولئك الموصوفون بكل ما

(١) الأحقاف: الآية (٢٦).

(٣) البقرة: الآية (١٧١).

(٥) الحج: الآية (٤٦).

(٧) البقرة: الآية (١٧١).

(٩) تفسير القرآن العظيم (٣/٥١٣-٥١٤).

(٢) البقرة: الآية (١٨).

(٤) الأنفال: الآية (٢٣).

(٦) الزخرف: الآيتان (٣٦ و٣٧).

(٨) البس: السؤق والزجر.

(١٠) جامع البيان (٩/١٣٣).

ذكرهم، الغافلون التأموا الغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة جميعاً، أو خيرهما وأكملهما وأدومهما وهي الثانية، فهم طبقات على درجات في الغفلة، الغافلون عن أنفسهم، الغافلون عن استعمال عقولهم ومشاعرهم في أفضل ما خلقت لأجله من معرفة الله تعالى، الغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية، وحياتهم القومية، وحياتهم الملية، الذين يعدون كالأنعام من وجه آخر غير الذي تقدم من مجافاة سنن الفطرة، وهو حقارتهم ومهانتهم الشخصية والقومية بين الأمم والدول وتسخير غيرهم لهم كما يسخر الأنعام في سبيل معيشته.

فالقسم الأول من الغافلين هم الذين قال الله تعالى فيهم في أوائل سورة (يونس) بعد التذكير بخلق السموات والأرض واستوائه على عرشه وتديره أمر العالم، وكونه يبدئ الخلق ثم يعيده، والإعادة في العادة أهون من البدء، والتذكير بآياته في جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وتقديره منازل ليعلم منها عدد السنين والحساب، وآياته في اختلاف الليل والنهار وخلق السموات والأرض، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(١) فهذا نص في أن النار مأوى الغافلين عن هذه الآيات؛ أي: عن دلالتها على وجود خالقها ومدير النظام فيها وكون إعادة خلق البشر وغيرهم في طور آخر لا يتعاصى على قدرته، وهو من مقتضى علمه وحكمته، وعن كون معرفته تعالى أعلى أنواع المعرفة، وكون التنعم الروحاني ببلقائه ﷻ في دار الكرامة أسمى أنواع النعيم. وإن كان هؤلاء الغافلون عما ذكر من أكبر العلماء بسنن الله تعالى وحكمه في خلق العالم العلوي والعالم السفلي، بل حجة الله على هؤلاء العلماء أبلغ وأظهر؛ لأنهم لو فطنوا لدلالاتها على ما ذكر وفقهوه كما يجب لكانوا أسعد في هذه الحياة الدنيا وأبعد عن شرورها ومفاسدها مما هم عليه الآن، ولا استعدادوا بذلك لسعادة الآخرة أكمل استعداد.

كذلك يصدق عليهم قوله تعالى في أول سورة (الروم): ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(٢) فانظر إلى بلاغة القرآن في إعادة ضمير (هم) وهو

(١) يونس: الآيتان (٧ و٨).

(٢) الروم: الآية (٧).

للتأكيد الذي اقتضاه وصفهم بالعلم الذي من شأن صاحبه عدم الغفلة .

تلك الصفات هي صفات من خلقوا لسكنى الجحيم ، وما يقابلها فهو صفات أهل دار النعيم ، فأهل النار بنص كتاب الله تعالى هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور ، ولا يستعملون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ومعرفة آيات الله الكونية ، وفقه آياته التنزيلية ، وهما سبب كمال الإيمان ، والباعث النفسي على كمال الإسلام والإحسان ، ولن ترى في كتب التفسير الكثيرة من نبه قراء كتاب الله تعالى إلى هذه المعاني الهادية إلى سبيله وصراطه المستقيم ، على أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب الله مهجورًا ، فإذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن معنى هذه الآية قال لك : (إن الله تعالى خلق للنار خلقًا هم على الكفر والمعاصي مجبورون ، لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئًا مما من شأنه أن يفهم ، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولًا أوليًا ، ولهم أعين لا يبصرون بها شيئًا من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجًا أوليًا ، ولهم آذان لا يسمعون بها شيئًا من المسموعات ، فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ما سلف)^(١) اهـ ملخصًا من «روح المعاني» ، وما زاد عليه فيه فكلام في الإعراب ونكت التعبير وتحقيق لمعنى الجبر عند بعض المتكلمين ، وهو زبدة ما في كتب التفسير . وأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين ، وأهل الجنة من يسمونهم مسلمين ، وإن كانوا يجهلون حقائق هذه الأمور ويصرون على الفجور ، اتكالا على شفاعة أهل القبور ، الذين يدعونهم مع الله أو من دون الله لمهمات الأمور ، ويذبحون لهم النسائك وينذرون لهم النذور ، وهي عبادات لغير الله يخرجون بها من حظيرة الإيمان ، والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل ، بل هي كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل ، ومعناها أن هؤلاء المكلفين من الجن والإنس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة في علم الهدى الذي يترتب عليه الأعمال المزكية للنفس ، فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها أنه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم ؛ فإن ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل : إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك

(١) انظر هذا الكلام في «روح المعاني» (٩/١١٨-١١٩).

القوى في أسباب الهدى، بل قال: إنهم هم لم يستعملوها في ذلك، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١)، ولكن الجدل في المذاهب هو الذي أوهمهم. ونحمد الله تعالى أن هداانا إلى تفسير الآية بالشواهد الكثيرة من القرآن، وسنن الله تعالى في الإنسان والأكوان، وهو ما لم نطلع على مثله، ولا ما يحوم حوله لإنسان. والتحدث بنعمة الله، مما أمر به الله، فالحمد لله، ثم الحمد لله^(٢).

* * *

(١) الملك: الآيتان (١١٠ و ١١١).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٢٩-٤٣١).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

★ غريب الآية:

ولله الأسماء الحسنی: أي: البالغة في الحسن غايته، والتي لا نقص فيها بوجه من الوجوه. وهي كل اسم سَمِيَ الله سبحانه به نفسه في كتابه، أو على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام. وهي أعلام وأوصاف: أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني.

يلحدون: أي: يميلون بها عما يجب في حقها من الإيمان بها، وبما دلت عليه من الأحكام، والصفات اللائقة بجلال من تسمى بها سبحانه، من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل. وأصل الإلحاد: المَيْلُ وترك القصد؛ يقال: ألحد فلان عن كذا: إذا مال عنه. وألحد أيضًا: جار عن الحق، وجادل ومارى فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، والحسنی: تأنيث الأحسن؛ أي: التي هي أحسن الأسماء؛ لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة»^(١).

وقال أبو حيان: «لما نبه على أن دخول جهنم هو للغفلة عن ذكر الله، والمخلص من العذاب هو ذكر الله، أمر بذكر الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلى، والقلب إذا غفل عن ذكر الله، وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في الحرص وانتقل

(١) فتح القدير (٢/٣٧٦).

من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، وقد وجدنا ذلك بالحس حتى إن أحدهم ليصلي الصلوات كلها قضاء في وقت واحد، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله تعالى تخلص من آفات الغفلة، وامتلأ ما أمره الله به، واجتنب ما نهى عنه^(١).

وقال الرازي: «دلت هذه الآية على أن أسماء الله ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، فيجب كونها موصوفة بالحسن والكمال، فهذا يفيد أن كل اسم لا يفيد في المسمى صفة كمال وجلال، فإنه لا يجوز إطلاقه على الله سبحانه»^(٢).

قال ابن القيم: «إن أسماء الله كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض، لا شرف فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»^(٣).

وقال أيضاً: «إن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى؛ إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، واللهم أعطني فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك»^(٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/٧٢).

(١) البحر المحيط (٤/٤٢٦-٤٢٧).

(٣) بدائع الفوائد (١/١٦٣-١٦٤).

(٤) مدارج السالكين (١/٢٨).

قال الرازي: «وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية»^(١).

ونصّ ابن القيم على أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه، هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع^(٢).

وفي الآية تحريم الإلحاد في أسماء الله تعالى، وهو الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع، قال ابن القيم: «والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها وبمعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (لحد)». إذا عرف هذا فالإلحاد في أسماء الله تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ فإن أولئك أعطوا أسمائه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله، وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه. ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط

(١) مفاتيح الغيب (٧٤/١٥).

(٢) بدائع الفوائد (١٦٢/١).

والمنكوب، وكل من جحد شيئاً عما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، فقد أُلْحِدَ في ذلك فليستقلّ أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، ويرأى الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم برياً من التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً، وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل»^(١).

ومن الإلحاد أيضاً - يقول الرازي: - «أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه، ولا يتصور مسماه، فإنه ربما كان مسماه أمراً غير لائق بجلال الله»^(٢).

ومن أنواع الإلحاد أيضاً: تفسير أسمائه ﷺ على غير مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ^(٣).

قال الرازي في قوله: ﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: «تهديد ووعيد لمن أُلْحِدَ في أسماء الله»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أسماء الله وفضيلة إحصائها

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة»^(٥).

(١) بدائع الفوائد (١/١٦٩-١٧٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/٧٥).

(٣) أفاده السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/١٢٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/٧٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/٢٦٧)، والبخاري (٥/٤٤٤-٤٤٥/٢٧٣٦)، ومسلم (٤/٢٠٦٢/٢٦٧٧)، والترمذي

(٥/٤٩٦/٣٥٠٦)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٩٣/٧٦٥٩)، وابن ماجه (٢/١٢٦٩/٣٨٦٠).

★ غريب الحديث:

أحصاها : الإحصاء في كلام العرب على ثلاث مراتب : أولها : العدد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾^(١) ، والثانية بمعنى الفهم ، ومنه يقال : رجل ذو حصاه ؛ أي : ذولب وفهم . والثالثة بمعنى الإطاقة على العمل والقوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ ﴾^(٢) ؛ أي : لن تطيقوا العمل بذلك .

* عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ أو حزن : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهب همي ، إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحاً ، قالوا : يا رسول الله ! ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : أجل ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن »^(٣) .

★ فوائد الحديثين:

قال القاضي عياض نقلاً عن أبي القاسم الطبري : « وفيه إثبات الأسماء المحصورة بهذا العدد . قال : وليس مقتضاه أنه ليس له أسماء غيرها »^(٤) .

قال ابن القيم : « إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد ؛ فإن

(٢) المزمّل : الآية (٢٠) .

(١) الجن : الآية (٢١) .

(٣) أخرجه : أحمد (٣٩١/١) ، وابن أبي شيبة (٢٩٣١٨/٤٠/٦) ، والطبراني في الكبير (١٧٠-١٦٩/١٠) ، وفي الدعاء (١٠٣٥٢/٢) ، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٠) ، وأبو يعلى (٩/٩٧٢) ، واللفظ له ، والحاكم (٥٠٩/١) وقال : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه ؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه » . وتعقبه الذهبي بقوله : « وأبو سلمة لا يدرى من هو ، ولا رواية له في الكتب الستة » . وقد جزم الشيخ ناصر في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩) أن أبا سلمة هذا هو موسى بن عبدالله الجهني ، وهو ثقة من رجال مسلم ، وبين كذلك أن عبدالرحمن بن عبدالله قد سمع من أبيه . وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/١٠) وقال : « رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري ، إلا أنه قال : « وذهب غمي » مكان « همي » ، والطبراني ، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان .

(٤) الإكمال (١٧٥/٨) .

لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، فجعل أسماءه ثلاثة أقسام:

قسم سمي به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه.

وقسم أنزل به كتابه، فتعرّف به إلى عباده.

وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه ولهذا قال: «استأثرت به» أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه. ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «يفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن»^(١)، وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢)، وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة» فالكلام جملة واحدة. وقوله ﷺ: «ومن أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقل، والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوك قد أعدهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له ممالك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه»^(٣).

وأما قوله ﷺ: «من أحصاها دخل الجنة» فهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح. وهذا الإحصاء -الذي من حقه دخل الجنة- على مراتب.

قال ابن القيم: «المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ؓ: أحمد (٤٣٥/٢)، والبخاري (٥٩٣/٨)، ومسلم (٤٨١/١).
(٢) أخرجه من حديث عائشة ؓ: أحمد (٢٠١/٦)، ومسلم (٤٨٦/٢٥٢)، وأبو داود (٨٧٩/٥٤٧)،
والترمذي (٢٤٣٤/٥٣٧)، والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦/٣٧٨)، وابن ماجه مختصراً (٢/٢).
(٣) بدائع الفوائد (١٦٦-١٦٧).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ؓ: أحمد (٢٠١/٦)، ومسلم (٤٨٦/٢٥٢)، وأبو داود (٨٧٩/٥٤٧)،
والترمذي (٢٤٩٣/٤٩٠-٤٨٩/٥)، والنسائي (١٦٩/١١١)، وابن ماجه (١٢٦٢-١٢٦٣/٢).
(٣) بدائع الفوائد (١٦٦-١٦٧).

المرتبة الثانية : فهم معانيها ومدلولها .

المرتبة الثالثة : دعاؤه بها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ . وهو مرتبتان : إحداهما : دعاء ثناء وعبادة ، والثاني : دعاء طلب ومسألة ، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنی وصفاته العلی ، وكذلك لا يسأل إلا بها ، فلا يقال : يا موجود ، أو يا شيء ، أو يا ذات اغفر لي وارحمني ، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب ، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم ، ومن تأمل أدعية الرسل ، ولا سيما خاتمهم وإمامهم ، وجدها مطابقة لهذا ، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال : يتخلق بأسماء الله ، فإنها ليست بعبارة سديدة ، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة ، وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان ، وهي التعبد ، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن ، وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال^(١) .

وقال القرطبي : «والمرجو من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله الجنة . لكن المرتبة الأولى هي مرتبة أصحاب اليمين ، والثانية للسابقين ، والثالثة للصديقين»^(٢) .

(١) بدائع الفوائد (١/١٦٤) .

(٢) المفهم (٧/١٧) .

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٨١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة، كاملة في نفسها مكمله غيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه ويدعون إليه وإلى العمل به، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء، والحقوق والمقالات وغير ذلك، وهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة، كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»^(١).

قال ابن الجوزي: «وفيمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان من هذه الأمة... والثاني: أنهم من جميع الخلق، قاله ابن السائب، والثالث: أنهم الأنبياء، والرابع: أنهم العلماء، ذكر القولين الماوردي»^(٢).

وقال أبو حيان: «الظاهر أن هذه الجملة أخبر فيها أن ممن خلق أمة موصوفون بكذا، فلا يدل على تعيين لا في أشخاص ولا في أزمان، وصلحت لكل هاد من هذه الأمة وغيرهم، وفي زمان الرسول وغيره»^(٣).

وإليه ذهب القرطبي قال: «دلت الآية على أن الله ﷻ لا يخلي الدنيا في وقت من الأوقات، من داع يدعو إلى الحق»^(٤).

(٢) زاد المسير (٣/١٩٩-٢٠٠).

(١) تفسير الكريم الرحمن (٣/١٢٢).

(٣) البحر المحيط (٤/٤٢٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٠٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة العلم والعلماء

وأحياء الكتاب والسنة في قلوب الأمة

* عن معاوية بن أبي سفيان قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»^(١).

★ غريب الحديث:

يفقهه : يفهمه ، يقال : فقهه ، بالضم : إذا صار الفقه له سجية ، وفقهه ، بالفتح : إذا سبق غيره إلى الفهم ، وفقهه ، بالكسر : إذا فهم .

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال : «يريد أن أمته آخر الأمم ، وأن عليها تقوم الساعة ، وإن ظهرت أشراتها وضعف الدين ، فلا بد أن يبقى من أمته من يقوم به ، والدليل على ذلك قوله : «لا يضرهم من خالفهم» . وفيه أن الإسلام لا يذل وإن كثر مطالبوه»^(٢).

وفي تعيين هذه الطائفة يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ : «وقد قال أحمد بن حنبل في هذه الطائفة : إن لم يكونوا أهل الحديث ، فلا أدري من هم»^(٣).

قال الحاكم معلقاً على كلام الإمام أحمد : «وفي مثل هذا قيل : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالحق ، فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر ، أن الطائفة المنصورة التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة هم أصحاب الحديث ، ومن أحق بهذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصالحين ، واتبعوا آثار السلف من الماضين ، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله أجمعين ، من قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطار»^(٤) ، وتنعموا بالبؤس في الأسفار ، مع مساكنة العلم والأخبار ، وقنعوا

(١) أخرجه : أحمد (١٠١/٤) ، والبخاري (٢١٧/١) ، ومسلم (١٥٢٤/٣) ، وابن ماجه (٨٠/١)

(٢٢١) مختصراً دون موضع الشاهد .

(٣) الإكمال (٣٥٠/٦) .

(٢) شرح البخاري (١٥٥/١) .

(٤) الدمن : جمع دمنة ، ولعل المقصود : المكان القريب من الدار . والأوطار : جمع وطر ، وهو الاشتغال بحاجات النفس .

عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار، قد رفضوا الإلحاد الذي تتوق إليه النفوس الشهوانية، وتوابع ذلك من البدع والأهواء، والمقاييس والآراء والزيغ، جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاهم، وبواربها فرشهم... إن أصحاب الحديث خير الناس، وكيف لا يكونون كذلك وقد نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسميرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخلوقهم المداد، ونومهم السهاد، واصطلاهم الضياء، وتوسدهم الحصى، فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس، فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، قلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم»^(١).

قال القاضي عياض: «وإنما أراد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث، وقال البخاري: هم أهل العلم»^(٢).

قال النووي: «ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وأمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، وقد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث»^(٣).

قال ابن عثيمين: «وهذه الطائفة غير محصورة بعدد ولا بمكان ولا بزمان، يمكن أن تكون بمكان تنصرف فيه في شيء من أمور الدين، وفي مكان آخر تنصرف فيه طائفة أخرى، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقياً منصوراً مظفراً»^(٤).

قال شيخنا العلامة عبدالمحسن العباد في بيان ما تضمنه هذا الحديث من الفقه

وما يستنبط منه، قال:

(١) معرفة علوم الحديث (٣/٢).

(٢) الإكمال (٦/٣٥٠).

(٣) شرح مسلم (١٣/٥٧-٥٨).

(٤) شرح الواسطية (٢/٣٧٨).

- «- وجوب الإيمان بوقوع استمرار الحق، وأنه لا ينقطع حتى يأتي أمر الله، كما جاء ذلك عن الذي لا ينطق عن الهوى، صلوات الله وسلامه عليه.
- أن الطائفة المنصورة لها مخالفون ومناوئون.
- الحث على التمسك بالكتاب والسنة، ليكون العبد من هذه الطائفة.
- بيان أن أعداء هذه الطائفة لا يضرونها ولا يؤثرون على استمرار الحق.
- أن استمرار الحق في أمة محمد ﷺ منقبة عظيمة لها»^(١).
- * عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «أي: يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم، قالوا: ولا يكون إلا عالمًا بالعلوم الدينية»^(٣).

قال ابن الأثير: «قد تكلم العلماء في تأويل هذا الحديث، كل واحد في زمانه، وأشاروا إلى القائم الذي يجدد للناس دينهم على رأس كل مائة سنة، وكأن كل قائل قد مال إلى مذهبه، وحمل تأويل الحديث عليه، والأولى أن يحمل الحديث على العموم، فإن قوله ﷺ: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» لا يلزم منه أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلًا واحدًا، وإنما قد يكون واحدًا، وقد يكون أكثر منه، فإن لفظة «من» تقع على الواحد والجمع، وكذلك لا يلزم أن يكون أراد بالمبعوث الفقهاء خاصة، كما ذهب إليه بعض العلماء؛ فإن انتفاع الأمة بالفقهاء، وإن كان نفعًا عامًا في أمور الدين، فإن انتفاعهم بغيرهم أيضًا كثير، مثل أولي الأمر، وأصحاب الحديث، والقراء، والوعاظ، وأصحاب الطبقات من الزهاد، فإن كل قوم ينفعون بفن لا ينفع به الآخر، إذ الأصل في حفظ الدين حفظ

(١) عشرون حديثاً من صحيح البخاري (ص: ٤٤).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/٢٨٠/٤٢٩١) واللفظ له، والحاكم (٤/٥٢٢). قال الشيخ الألباني: «وسكت عنه الحاكم والذهبي، أما المناوي فنقل عنه أنه صححه، فلعله سقط ذلك من النسخة المطبوعة من المستدرک، والسند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم» (السلسلة الصحيحة ٢/١٤٨).

(٣) فيض القدير (٢/٢٨١-٢٨٢).

قانون السياسة، وبث العدل والتناصف الذي به تحقق الدماء، ويتمكن من إقامة قوانين الشرع، وهذا وظيفة أولي الأمر، وكذلك أصحاب الحديث ينفعون بضبط الأحاديث التي هي أدلة الشرع، والقراء ينفعون بحفظ القراءات وضبط الروايات، والزهاد ينفعون بالمواعظ، والحث على لزوم التقوى، والزهد في الدنيا، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر... فالأحسن والأجدر أن يكون ذلك إشارة إلى حديث جماعة من الأكابر المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم^(١).

قال في «العون»: «قد عرفت مما سبق أن المراد من التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات.

وقال في «مجالس الأبرار»: والمراد من تجديد الدين للأمة إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، وقال فيه: ولا يعلم ذلك المجدد إلا بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه؛ إذ المجدد للدين لا بد أن يكون عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصرًا للسنة، قاصرًا للبدعة، وأن يعم علمه أهل زمانه، وإنما كان التجديد على رأس كل مائة سنة لانخرام العلماء فيه غالبًا، واندراس السنن وظهور البدع، فيحتاج حينئذ إلى تجديد الدين، فيأتي الله تعالى من الخلق بعوض من السلف إما واحدًا أو متعددًا، انتهى...

فظهر أن المجدد لا يكون إلا من كان عالمًا بالعلوم الدينية، ومع ذلك من كان عزمه وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن ونشرها، ونصر صاحبها، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، أو تصنيف الكتب، أو التدريس، أو غير ذلك. ومن لا يكون كذلك لا يكون مجددًا ألبتة وإن كان عالمًا بالعلوم مشهورًا بين الناس، مرجعًا لهم. فالعجب كل العجب من صاحب جامع الأصول أنه عد أبا جعفر الإمامي الشيعي والمرتضى أخا الرضى الإمامي الشيعي من المجددين، حيث قال: الحديث إشارة إلى جماعة من الأكابر على رأس كل مائة، ففي رأس الأولى عمر بن عبدالعزيز... إلى أن قال: وعلى الثالثة: المقتدر، وأبو جعفر الطحاوي الحنفي، وأبو جعفر الإمامي، وأبو الحسن الأشعري

(١) جامع الأصول (١١/ ٣٢٠-٣٢١).

والنسائي، وعلى الرابعة: القادر بالله، وأبو حامد الإسفرائيني، وأبو بكر محمد الخوارزمي الحنفي، والمرتضى أخو الرضى الإمامي... إلخ. وقد ذكره العلامة محمد طاهر في «مجمع البحار» ولم يتعرض بذكر مسامحته، ولم ينبه على خطئه، ولا شبهة في أن عدهما من المجددين خطأ فاحش، وغلط بين؛ لأن علماء الشيعة وإن وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد، وبلغوا أقصى مراتب من أنواع العلوم، واشتهروا غاية الاشتهار، لكنهم لا يستأهلون المجددية، كيف وهم يخربون الدين؟! فكيف يجددون ويميتون السنن فكيف يحيونها؟ ويروجون البدع فكيف يمحوونها؟ وليسوا إلا من الغالين المبطلين الجاهلين، وجل صناعتهم التحريف والانتحال والتأويل، لا تجديد الدين وإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، هداهم الله تعالى إلى سواء السبيل»^(١).

قال الحافظ: «إنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة، وهو متجه؛ فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبدالعزيز؛ فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد، سواء تعدد أم لا»^(٢).

وقال القاري: «الأظهر عندي -والله أعلم- أن المراد بمن يجدد ليس شخصاً واحداً، بل المراد به جماعة يجدد كل أحد في بلد في فن أو فنون من العلوم الشرعية ما تيسر له من الأمور التقريرية أو التحريرية، ويكون سبباً لبقائه وعدم اندراسه وانقضائه إلى أن يأتي أمر الله»^(٣).

* * *

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩١-٣٩٢).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٣) المرقاة (١/ ٥٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾

★ غريب الآية:

سنستدرجهم: أي: نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر. يقال: استدرجته في الأمر: إذا أخذته فيه قليلاً قليلاً حتى يباغت بما فيه من التبييت، كما يرتقي الراقي الدرج شيئاً فشيئاً.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: والذين كذبوا بأدلتنا وأعلامنا، فجحدوها ولم يتذكروا بها، سنمهله بغرته، ونزين له سوء عمله، حتى يحسب أنه هو فيما عليه من تكذيبه بآيات الله إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغاية التي كتب له من المهل، ثم يأخذه بأعماله السيئة، فيجازيه بها من العقوبة ما قد أعد له، وذلك استدراج الله إياه. وأصل الاستدراج: اغترار المستدرج بلطف من حيث يرى المستدرج أن المستدرج إليه محسن، حتى يورطه مكروهاً»^(١).

قال ابن كثير: «ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)»^(٣).

قال صديق حسن خان: «وفي الآية دليل على مسألة القضاء والقدر، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون»^(٤).

(٢) الأنعام: الآيتان (٤٤ و ٤٥).

(١) جامع البيان (٩/ ١٣٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥١٦).

(٤) فتح البيان (٥/ ٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿٨٣﴾

★ غريب الآية:

أْمَلِي لَهُمْ: أي أَمْهَلُهُمْ، وأطيل مدتهم، وأؤخر عقوبتهم.
 إن كيدي: أي: مكري، والكيد: المكر. وقد يراد به معنى العذاب.
 متين: شديد وقوي. أصله من المتن، وهو الصلب؛ فإنه أقوى ما في الناس.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «معنى الآية: وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر، وأمد لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سنتي في نظام الاجتماع للبشر؛ كيذا لهم، ومكرًا بهم، لا حبًا فيهم ونصرًا لهم، ﴿فَذَرُّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّما نُمدُّهم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾، وإن تسأل عن كيدي فهو قوي متين. قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى: «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١)، فمعنى هذا الإملاء أن سنة الله تعالى في الأمم والأفراد قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، فالمخذول إذا بغى وظلم، ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب ظلمه، يزداد بغيًا وظلمًا، ولا يحسب للعواقب حسابًا، فيسترسل في ظلمه إلى أن تحقيق به عاقبة ذلك بأخذ الحكام له أو بتورطه في مهلكة أخرى، وللعذاب الآخرة أشد وأبقى»^(٢).

(١) المؤمنون: الآيات (٥٤-٥٦).

(٢) أخرجه: البخاري (٤٦٨٣/٤٥١/٨) ومسلم (٤٦٨٣/١٩٩٨-١٩٩٧/٤) والترمذي (٣١١٠/٢٦٩/٥) والنسائي في الكبرى (١١٢٤٥/٣٦٥/٦) وابن ماجه (٤٠١٨/١٣٣٢/٢).

(٣) تفسير المنار (٤٥٣-٤٥٢/٩).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

★ غريب الآية:

جنة: أي جنون.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أولم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبروا بعقولهم ، ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جنة به ، ولا خبل ، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح ، والدين القويم ، والحق المبين ؟ ..

ويعني بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ : ما هو إلا نذير منذركم عقاب الله على كفركم به إن لم تنيبوا إلى الإيمان به . ويعني بقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ : قد أبان لكم - أيها الناس - إنذاره ما أنذركم به من بأس الله على كفركم به»^(١).

قال محمد رشيد رضا: «قد حكى الله تعالى عن قوم نوح - أول رسله إلى قوم مشركين - أنهم اتهموه بالجنون ، فقالوا بعد قولهم : إنه بشر مثلهم ، يريد أن يتفضل عليهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَقَّ حِينٍ﴾^(٢) ، وفي سورة (القمر) عنهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾^(٣) ، وفي سورة (الشعراء) حكاية عن فرعون - لعنه الله - في موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم: ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم مَجْنُونٌ﴾^(٤) ، وقال تعالى عنه في سورة (الذاريات): ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾^(٥) ، ثم بين تعالى في هذه السورة أن جميع الكفار كانوا يقولون هذا القول في رسلهم ، فقال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(٦).

(٢) المؤمنون: الآية (٢٥).

(٤) الشعراء: الآية (٢٧).

(١) جامع البيان (٩/١٣٦).

(٣) القمر: الآية (٩).

(٥) الذاريات: الآية (٣٩).

(٦) الذاريات: الآيتان (٥٢ و٥٣).

وفي معنى آية (الأعراف) في خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات، منها: قوله تعالى في كفار مكة من سورة (المؤمنون): ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ (١٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ (٢٠)، ومثله في سورة (سبا): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكُّ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمْزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٢)، ثم قال فيها: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفَرْدَى ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٣)، وهذه شبيهة بآية (الأعراف). وفي أول سورة (الحجر): ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٤)، وفي سورة (الصافات): ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (٥)، وفي سورة (الطور) من الرد عليهم: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٦)، ومثله: ﴿تَوَالَّقَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٧)، وفي آخرها: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨)، وفي سورة (التكوير) بعد وصف ملك الوحي: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٩) ...

قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرمون رسلهم بالجنون؛ لأنهم ادّعوا أن الله تعالى خصّهم برسالته ووحيه على كونهم بشرًا كغيرهم لا يمتازون على سائر الناس بما يفوق أفق الإنسانية، كما علم من نشأتهم ومعيشتهم، ولأنهم ادّعوا ما لا يعهد له عندهم نظير، وليس مما تصل إليه عقولهم بالتفكير، وهو أن الناس يبعثون بعد الموت والبلى خلقًا جديدًا، ولأن كلاً منهم كان يدّعي أن الناس مخطئون وهو المصيب، وضالون وهو المهتدي، وخاسرون وهو المفلح، إلا من اتبعه منهم، ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة وأنكروا أنها بالدعاء والتعظيم والندور لها تقرب المتوسلين بها إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده، وأثبتوا أن الشفاعة لله وحده، لا

(١) المؤمنون: الآيات (٦٨-٧٠).

(٣) سبا: الآية (٤٦).

(٥) الصافات: الآية (٣٦).

(٧) القلم: الآيتان (٢١ و٢٢).

(٩) التكوير: الآية (٢٢).

(٢) سبا: الآيتان (٧ و٨).

(٤) الحجر: الآيتان (٦ و٧).

(٦) الطور: الآية (٢٩).

(٨) القلم: الآيتان (٥١ و٥٢).

يشفع أحد عنده إلا بإذنه، من رضي له لمن رضي عنه، فلا استقلال لهؤلاء الآلهة بالشفاعة عنده لمن توسل بهم، وشرعوا أنه لا يدعى مع الله أحد من ملك كريم، ولا صالح عظيم، فضلاً عن صورهم وتماثيلهم المذكرة بهم، وقبورهم المشرفة برفاتهم، مع أن المذنب العاصي لا يليق به في رأي المشركين أن يدعو الله تعالى بغير واسطة ولا وسيلة لتدنسه بالذنوب، فيحتاج إلى من يقربه إليه من أولئك الطاهرين، وشبهتهم أن الملوك العظام في الدنيا لا يدخل أحد عليهم إلا بإذن وزرائهم وحجابههم. ومن الغريب أن هذه الشبهة الشركية لا تزال متسلسلة في جميع المشركين، حتى من أشرك من أهل الكتاب والمسلمين، الذين خالفوا نصوص الكتب الإلهية وسنة الرسل إلى أعمال الوثنيين. ولا يرون بأساً في تشبيه رب العالمين وأرحم الراحمين بالملوك الظالمين المستبدين.

وأما معنى الآية، فالاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ، وهو داخل على فعل حذف للعلم به من سياق القول، كما تقدم في أمثاله، والتقدير: أكذبوا الرسول، ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته، وفي حقيقة دعوته، ودلائل رسالته، وآيات وحدانية ربه، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك؛ فإن حذف معمول التفكير يؤذن بعموم ما يدل عليه المقام مما يقتضيه الحال كما هي القاعدة المعروفة في علم المعاني.

ألا فليتفكروا، فالمقام مقام تفكر وتأمل؛ إنهم إن تفكروا أوشك أن يعرفوا الحق، وما الحق؟ ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ جملة مستأنفة لبيان الحق في أمر الرسول نفياً وإثباتاً، فهي نافية لما رموه به من الجنون، كقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾^(٢)، ومثلها آية (سبأ): ﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾^(٣)، ولذلك ختمتا بنفي كل صفة عنه في موضوع رسالته إلا كونه منذراً مبلغاً عن ربه، فقال هنا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، الإنذار: تعليم وإرشاد مقترن بالتخويف من مخالفته؛ أي: ليس بمجنون، ليس إلا منذراً ناصحاً ومبلغاً عن الله مبيناً، يندركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له، وقد

(١) القلم: الآية (٢).

(٢) التكوين: الآية (٢٢).

(٣) سبأ: الآية (٤٦).

دعاكم لما يحييكم في الدنيا بجمع كلمتكم ، وإصلاح أفرادكم ومجتمعكم والسيادة على غيركم ، ويحييكم في الآخرة بقاء ربكم . وقال هنالك : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

وقد عبر عنه في هاتين الآيتين وفي آية (التكوير) بالصاحب لهم ؛ لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا حق التفكير في سيرته الشريفة المعقولة ليعلموا أن الشذوذ ومجافاة المعقول ليس من دأبه ولا مما عهد عنه ، وكذلك الكذب ، كما قال بعض زعمائهم من أهل مكة : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس ، أفيكذب على الله؟ وقد قال تعالى في أولئك الزعماء : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ بِمَحْذُونٍ ﴾^(١) .

وقد بيّنا في تفسيرنا هذا شبهة المشركين على الرسل بكونهم بشرًا مع الرد عليها ، كذلك شبهاتهم على البعث مع الرد عليها .

ولو تفكر مشركو مكة في نشأة النبي ﷺ وأخلاقه وآدابه وما جربوا من أمانته وصدقه من صبوته إلى أن اكتهل ، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله بعبادته وحده ، ومن كون حكمته في خلقه السموات والأرض بالحق تقتضي تنزهه عن العبث ، ومنه أن يكون هذا الإنسان السميع البصير العاقل البحت عن حقائق الأشياء من ماض وحاضر وآت ، ينتهي وجوده بالعدم المحض الذي هو في نفسه محال ، ثم لو تفكروا في سوء حالهم الدينية ، كعبادة الأصنام ، والأدبية والمدنية والاجتماعية ، وما دعاهم إليه من إصلاحها كلها ، لعلموا أن هذا الإصلاح الديني والأدبي والاجتماعي والسياسي لا يثمر إلا السيادة والسعادة ، وأنه لا يمكن أن يكون مصدره جنون من دعا إليه ، بل إذا كان فيه شيء غير معقول فهو أنه لا يمكن أن يكون هذا العلم العالي والإصلاح الكامل من رأي محمد بن عبد الله الأمي الناشئ بين الأميين ، ولا أن تكون هذه البلاغة المعجزة للبشر في أسلوب القرآن ونظمه من كسب محمد الذي بلغ الأربعين ولم ينظم قصيدة ، ولا ارتجل خطبة ، وأن هذه الحجج البالغة على كل ما يدعو إليه القرآن ، والبراهين العقلية والعلمية الكونية لا يتأتى أن تأتي فجأة من ذي عزلة لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحداً فيما مضى من

(١) الأنعام : الآية (٣٣) .

عمره كمحمد بن عبد الله . فإذا تفكروا في هذا كله جزموا بأن هذا كله وحي من الله تعالى ألقاه في روعه ، ونزل من لدنه على روحه ، وعلموا أن استبعادهم لذلك جهل منهم ، فالله تعالى القادر على كل شيء يختص برحمته من يشاء . لهذا حثهم على التفكير في هذا المقام من هذه السورة وغيرها ، وذكر بعدها كونه نذيراً مبيناً ، ونذيراً بين يدي عذاب شديد^(١) .

(١) تفسير المنار (٩/٤٥٣-٤٥٧) .

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

★ غريب الآية:

ملكوت: الملكوت: الملك العظيم. وهو من أبنية المبالغة، كالجبروت، وهو مختص بملك الله تعالى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق - جل ثناؤه - من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى؟»^(١).

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾: «وردت هذه الآية بنصها في آخر سورة (المرسلات)^(٢) التي أقيمت فيها الدلائل على البعث والجزاء، وتهديد المكذبين بالويل والهلاك بعد تقرير كل نوع منها. وورد في الآية الخامسة والثلاثين^(٣) من سورة (الجاثية) بعد التذكير بآيات الله للمؤمنين، وآياته لقوم يوقنون، وآياته لقوم يعقلون، قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ

(٢) ١: الآية (٥٠).

(١) جامع البيان (٩/١٣٦).

(٣) بل وردت في الآية السادسة من (الجاثية).

وَأَيُّ حَدِيثٍ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ - الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَآيَاتِهِ الْمَشَارِإِلَيْهَا بَعْدَهَا - يُؤْمِنُونَ؟^(١)، والحديث في الجميع كلام الله الذي هو القرآن، يدل عليه هنا قوله تعالى في رسوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، وفي آية (المرسلات) القرينة في تهديد المكذبين له. وفي آية (الجاثية) افتتاح السورة بذكر الكتاب، فيكون معناها: فبأي حديث بعد كتاب الله - المذكور في الآية الأولى وآياته المشار إليها بعدها - يؤمنون؟

والمراد أن محمداً رسول الله ﷺ نذير مبين عن الله تعالى، وإنما أنذر الناس بهذا الحديث؛ أي: القرآن، كما أمره أن يقول: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٢)، وهو أكمل كتب الله بياناً، وأقواها برهاناً، وأقهرها سلطاناً، فمن لم يؤمن به فلا مطمع في إيمانه بغيره، ومن لم يرو ظمأه الماء النقااح المبرد، فأَيُّ شيء يرويه؟! ومن لم يبصر في نور النهار، ففي أَيِّ نور يبصر؟!^(٣).

قال القرطبي: «استدل بهذه الآية - وما كان مثلها من قوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»^(٤)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾^(٥)، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^(٦) الآية، وقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٧) - من قال بوجوب النظر في آياته، والاعتبار بمخلوقاته، قالوا: وقد ذم الله تعالى من لم ينظر، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية»^(٨).

قال محمد رشيد رضا: «واستعمال القرآن يدل على أن النظر العقلي مبدأ من مبادئ الفكر والتفكير، كما أن مبدأه هو النظر الحسي في الغالب؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾»^(٩) إلخ، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾»^(١٠) إلخ. ومنه النظر في عاقبة الأمم برؤية آثارها في عدة آيات، والشواهد على ذلك في التنزيل معروفة، فلا نطيل في سردها. والآيات التي نحن

(٢) الأنعام: الآية (١٩).

(٤) يونس: الآية (١٠١).

(٦) الغاشية (١٧).

(٩) الغاشية: الآية (١٧).

(١) الجاثية: الآية (٦).

(٣) تفسير المنار (٩/٤٥٨-٤٥٩).

(٥) ق: الآية (٦).

(٧) الذاريات: الآية (٢١).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٣٠-٣٣١).

(١٠) ق: الآية (٦).

بصدد تفسيرها جمعت بين المبدأ الحسي ، وهو ملكوت السموات والأرض ،
والمبدأ الفكري ، وهو اقتراب الأجل ، وهما وما في معناهما يدلان على بناء الدين
الإسلامي على قاعدتي : النظر العقلي والتفكر اللذين يمتاز بهما الأفراد والأمم
بعضها على بعض ، والله أعلم وأحكم^(١) .

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦١) .

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾

★ غريب الآية:

يعمّهون: أي: يتحيّرون. وقيل: يترددون. والعمه: التردد في الأمر من التحير.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها؛ لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لا اعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم، وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله لهم من عقوبته، وأليم نكاله»^(١).

قال ابن كثير: «من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئًا، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(٢)، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)»^(٤).

قال محمد رشيد رضا: «إن إسناد الإضلال إلى الله تعالى ليس معناه أنه أجبرهم على الضلال إجبارًا، وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطرارًا لا اختيارًا؛ بل معناه أنهم مارسوا الكفر والضلال، وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه في الطغيان، ففقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان»^(٥).

(٢) المائدة: الآية (٤١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٥١٨).

(١) جامع البيان (٩/١٣٧).

(٣) يونس: الآية (١٠١).

(٥) تفسير المنار (٩/٤٥٩).

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

★ غريب الآية:

الساعة : أي : وقت القيامة الكبرى .

أيان : معناها : متى ؛ فهي سؤال عن الزمان .

مرساها : أي : وقت ثبوتها واستقرارها ؛ مِنْ رَسَا الشَّيْءُ يَرُسُو : إذا ثبت .

حفي عنها : أي مُسْتَقْصٍ في السؤال عنها ومهتم بوقتها .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : «يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي : المكذبون لك ، المتعنتون ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي : متى وقتها ، الذي تجيء به ، ومتى تحل بالخلق ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي : إنه تعالى المختص بعلمها ، ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي : لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو ، ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : خفي علمها على أهل السموات والأرض ، واشتد أمرها أيضا عليهم فهم من الساعة مشفقون ، ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ أي : فجأة من حيث لا يشعرون ، لم يستعدوا لها ولم يتهيؤوا لها ، ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي : هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحف عن السؤال عنها ، ولم يعلموا أنك لكمال علمك بربك ، وما ينفع السؤال عنه غير مبال بالسؤال الخالي من المصلحة ، المتعذر علمه ؛ فإنه لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب ، وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه ، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه ، وخصوصا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ويدعون ما يجب عليهم من العلم ، ثم يذهبون إلى ما لا

سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه»^(١).

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - جل وعلا -، وقد جاءت آيات أخر تدل على ذلك أيضًا، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٣)، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ، أنها الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (٤) الآية»^(٥).

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ فقال بعضهم: عني بذلك قوم رسول الله ﷺ من قريش، وكانوا سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ. وقال آخرون: بل عني به قوم اليهود...»

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قومًا سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة، فأنزل الله هذه الآية، وجائز أن يكون كانوا من قريش، وجائز أن يكونوا كانوا من اليهود، ولا خبر بذلك عندنا يجوز قطع القول على أي ذلك كان»^(٦).

ورجح ابن كثير القول الأول فقال: «والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادًا لوقوعها، وتكذيبًا بوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾»^(٧)، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾»^(٨) (٩).

قال صديق حسن خان: «وظاهر الآية أن السؤال عن نفس الساعة، وظاهر ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أن السؤال عن وقتها، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك»^(١٠).

وقال محمد رشيد رضا: «وذكر الساعة أولاً، والاستفهام عن زمن وقوعها

(١) تفسير الكريم الرحمن (٣/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) النازعات: الآيات (٤٢-٤٤).

(٣) الأنعام: الآية (٥٩).

(٤) لقمان: الآية (٣٤).

(٥) أضواء البيان (٢/ ٤٥).

(٦) جامع البيان (٩/ ١٣٧)..

(٧) يونس: الآية (٤٨).

(٨) الشورى: الآية (١٨).

(٩) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥١٨).

(١٠) فتح البيان (٥/ ٩٢).

ثانيًا ؛ على قاعدة تقديم الأهم ، وهو المقصود بالذات»^(١) .

قال ابن كثير : «فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه ، نبي الرحمة ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والعاقب ، والمقفي ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما : «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، وَقرن بين أصبعيه : السبابة والتي تليها»^(٢) ، ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يرد علمها إليه إذا سئل عنها فقال : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

قال محمد رشيد رضا : «﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل أيها النذير : إن علم الساعة عند ربي وحده ، ليس عندي ولا عند غيري من الخلق شيء منه . وهذا يدل عليه لفظ (إنما) من الحصر ؛ كما قال تعالى في الآية التي فسر بها النبي ﷺ مفاتيح الغيب : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾^(٤) أي : عنده ، لا عند أحد سواه . ومثله قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾^(٥) الآية ؛ أي : يرد إليه وحده ، لا إلى غيره . وأشبه الآيات الدالة على استئثار علم الله تعالى بالساعة بآية (الأعراف) آيتان : آية (الأحزاب) - ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾^(٦) - ، وذكرناها آنفاً ، وآية أواخر (النازعات) وما بعدها : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾^(٧) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾^(٨) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾^(٩) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾^(١٠) ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾^(١١) أي : إلى ربك وحده من دونك ودون سائر خلقه منتهى أمر الساعة الذي يسألونك عنه ، وإنما أنت منذر لأهل الإيمان الذين يخشونها ويستعدون لها ، لا تعدو وظيفة الإنذار والتعليم والإرشاد .

فهذه الآيات كآية (الأعراف) سؤالاً وجواباً . فالسؤال عن الساعة من حيث

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦٥) .

(٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه : أحمد (٣/ ١٣٠) ، والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤) ، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨-٢٢٦٩) .

(٣) أفاده ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٣) .

(٤) لقمان : الآية (٣٤) .

(٥) الآية (٦٣) .

(٦) فصلت : الآية (٤٧) .

(٧) النازعات : الآيات (٤٢-٤٦) .

إرساؤها ومنتهى أمرها ، والجواب رد ذلك إلى الرب مضافاً إلى ضمير رسوله . فما أخبره به في قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ هو ما أمره أن يجيب به في قوله : ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ . وفيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب ؛ لا يكون للعبد ، فهو تعالى قد رباه ليكون منذراً ومبشراً ، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها . والإنذار إنما يناط بالإعلام بالساعة وأحوالها ، والنار وسلاسلها وأغلالها ، ولا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها ؛ ليخشى أهل كل زمن إتيانها فيه . والإعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة ؛ بل فيه مفسد أخرى ، فلو قال الرسول للناس : إن الساعة تأتي بعد ألفي سنة من يومنا هذا مثلاً - وألفاً سنة في تاريخ العالم وآلاف السنين تعد أجلاً قريباً - لرأى المكذبين يستهزئون بهذا الخبر ، ويلحون في تكذيبه ، والمرتابين يزدادون ارتياباً ، حتى إذا ما قرب الأجل وقع المؤمنون في رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم ، ويوقع الشلل في أعضائهم ، والتشنج في أعصابهم ، حتى لا يستطيعون عملاً ، ولا يسيغون طعاماً ولا شراباً ، ومنهم من يخرج من ماله وما يملكه ، من حيث يكون الكافرون آمنين ، يسخرون من المؤمنين .

وقد وقع في أوربة أن أخبر بعض رجال الكنيسة الذين كان يقلدهم الجمهور بأن القيامة تقوم في سنة كذا ، فهلعت القلوب ، واختلت الأعمال ، وأهمل أمر العيال ، ووقف المصدقون ما يملكون على الكنائس والأديار ، ولم تهدأ الأنفس ويثب إليها رشدتها إلا بعد ظهور كذب النبا بمجيء أجله دون وقوعه .

فالحكمة البالغة إذاً في إبهام أمر الساعة العامة للعالم ، وكذا الساعة الخاصة بأفراد الناس ، أو بالأمم والأجيال ، وجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به ، على ما سنذكر في إيضاحه ، فلذلك قال بعد حصر أمرها في علمه : ﴿لَا يُجَلِّهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذي يكون إرساؤها فيه ؛ يقال : جلا لي الأمر وانجلى ، وجلاه فلان تجلية ، بمعنى : كشفه وأظهره أتم الإظهار . و(اللام) الداخلة على (وقتها) تسمى لام التوقيت ؛ كقولهم : وكتب هذا الكتاب لغرة المحرم أو لعشر مضين أو بقين من صفر .

والمعنى : لا يكشف حجاب الخفاء عنها ، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الرب تعالى إلا هو ، فلا وساطة بينه وبين عبادته في إظهارها ، ولا الإعلام بميقاتها ، وإنما وساطة الرسل عليهم السلام في الإنذار بها .

وقفى على هذا الإيثاس من علم أمرها ، والإنباء بوقت وقوعها ، بقوله في تعظيم شأنها ، وسر إخفاء وقتها : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : ثقل وقوعها ، وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلها من الملائكة والإنس والجن ؛ لأن الله تعالى نبأهم بأحوالها ، ولم يشعرهم بميقاتها . فهم يتوقعون أمراً عظيماً ، لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه .

روي عن قتادة في تفسير الجملة أنه قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون .

وقال السدي : خفيت في السموات والأرض ، فلا يعلم قيامها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

فهذان القولان تفسير لثقلها بفقد العلم بها ؛ فإن المجهول ثقل على النفس ، ولا سيما إذا كان عظيماً .

وروي عن معمر وابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ^(١) و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ ^(٢) و ﴿ إِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ﴾ ^(٣) و ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ ^(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ^(٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُبْنً ^(٦) وغير ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها .

وعن ابن عباس في ثقلها : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . ولكل رواية وجه صحيح . والمتبادر من الجملة ما ذكرناه أولاً ، وهو يتفق مع جملة هذه الروايات .

﴿ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ ﴾ أي : فجأة على حين غفلة ، من غير توقع ولا انتظار ، ولا إشعار ولا إنذار . وقد تكرر هذا القول في التنزيل

والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم المعتادة . وأبلغ من هذا قوله تعالى في أول سورة (الحج) : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ^(٢) .

(٢) الانفطار : الآيتان (١ و ٢) .

(١) التكوير : الآية (١) .

(٣) الواقعة : الآيات (٤-٦) .

(٤) الحج : الآيتان (١ و ٢) .

فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق، ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال، والقيـل والقال^(١).

قال شيخ الإسلام: «ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمنا، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها»^(٢).

قال أبو حيان: «قالوا: وحكمة إخفائها: أنهم يكونون دائماً على حذر، فإخفاؤها أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاص، وهو وقت الموت لذلك»^(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «وفي السؤال عن زمن وقوعها بحرف الإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والجريان أو الميدان والاضطراب نكتة دقيقة، هي في أعلى درج البلاغة. وهو أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم، وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بمن فيها من العوالم المتحركة المضطربة، فعبر بإرسائها عن منتهى أمرها، ووقوف سيرها. والساعة زمن وهو أمر مقدر، لا جسم سائر أو مسير، وما يقع فيها ويعبر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال، لا رسواً ولا إرساءً، وهو أمر مستقبل لا حاصل، ومتوقع لا واقع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَمْ مِنْ دَافِعٍ^(٤) معناه: أنه سيقع حتماً، ولذلك علق به بيان ما يقع فيه بقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا^(٥) فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ^(٦) فلم يبق لإرسائها معنى إلا إرساء حركة هذا العالم فيها. وإنه لتعبير بليغ لم يعهد له في كلام البلغاء نظير، ولم أر أحداً نبه لهذا»^(٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان اشراط الساعة

* عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ ولكن أخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦٥-٤٦٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٣٢).

(٥) الطور: الآيات (٩-١١).

(٢) الفتاوى (٤/ ٢٨١).

(٤) الطور: الآيات (٧ و٨).

(٦) تفسير المنار (٩/ ٤٦٤-٤٦٥).

وهرجًا ، قالوا : يا رسول الله ! الفتنة قد عرفناها ، فالهرج ما هو ؟ قال : بلسان الحبشة : القتل ، ويلقى بين الناس التناكر ، فلا يكاد أحد يعرف أحدًا^(١) .

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي : «والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب ، أن الذي أخبر به النبي ﷺ من الفتن والكوائن ، أن ذلك يكون ، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر ، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة ، فلا يعلم أحد أي سنة هي ، ولا أي شهر ، أما أنها تكون في يوم جمعة في آخر ساعة منه ، وهي الساعة التي خلق الله فيها آدم ﷺ ، ولكن أي جمعة ؟ لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا الله وحده لا شريك له ، وكذلك ما يكون من الأشرط تعيين الزمان لها لا يعلم ، والله أعلم»^(٢) .

✽ عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : «تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة»^(٣) .

✽ عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(٤) .

(١) أخرجه : أحمد (٣٨٩/٥) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٠٩/٧) وقال : «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» .

(٢) التذكرة (ص : ٦٢٨) .

(٣) أخرجه : أحمد (٣٢٦/٣) ، ومسلم (٢٥٣٨/١٩٦٦/٤) .

(٤) أخرجه : البخاري (٦٥٠٦/٤٢٨/١١) بهذا اللفظ ، وأخرج طرفه الأول إلى قوله : «أو كسبت في إيمانها خيرًا» : أحمد (٢٣١/٢) ، والبخاري (٤٦٣٦-٤٦٣٥/٣٧٧/٨) ، ومسلم (١٥٧/١٣٧/١) ، وأبو داود (٤/٤٩٢/٤٣١٢) ، والنسائي في الكبرى (١١١٧٧/٣٤٤-٣٤٣/٦) ، وابن ماجه (٤٠٦٨/١٣٥٢/٢) .

★ غريب الحديث:

اللُّقْحَة: بكسر اللام وسكون القاف بعدها مهملة: هي ذات الدر من النوق.
يُلَيِّط حوضه: بضم أوله: يقال: أَلَاط حوضه: إذا مَدَره؛ أي: جمع حجارة
فصَّيَّرها كالخوض ثم سد ما بينهما من الفرج بالمدْر نحوه لينحبس الماء، هذا
أصله، وفي ذلك إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا
بَغْتَةً﴾^(١).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وحاصل هذا الحديث أن الساعة تقوم بغتة كما قال تعالى:
﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾»^(٢).

وقد تقدمت باقي فوائد الحديث في أواخر سورة (الأنعام) الآية (١٥٤).

عن أنس أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله! متى
الساعة قائمة؟ قال: ويلك وما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها إلا أنني أحب الله
ورسوله، قال: إنك مع من أحببت، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: نعم، وفرحنا يومئذ
فرحاً شديداً. فمر غلام للمغيرة - وكان من أقراني فقال: إن آخر هذا فلن يدركه
الهرم حتى تقوم الساعة»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال الإسماعيلي - بعد أن قرر أن المراد بالساعة ساعة الذين
كانوا حاضرين عند النبي ﷺ، وأن المراد موتهم، وأنه أطلق على يوم موتهم اسم
الساعة؛ لإفضائه بهم إلى أمور الآخرة-: ويؤيد ذلك أن الله استأثر بعلم قيام
الساعة العظمى، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الكثيرة، قال: ويحتمل أن
يكون المراد بقوله: «حتى تقوم الساعة» المبالغة في تقرب قيام الساعة، لا
التحديد.. قال: وهذا عمل شائع للعرب، يستعمل للمبالغة عند تفخيم الأمر،

(٢) المفهم (٣٠٦/٧).

(١) فتح الباري (٤٣٤/١١).

(٣) أخرجه: أحمد (١٩٢/٣)، والبخاري (٦١٦٧/١٠). وأخرجه: مسلم (٢٠٣٢-٢٠٣٣/٤).
[١٦٣] ٢٦٣٩، والترمذي (٥١٣/٥) (٢٣٨٥) دون الطرف الأخير منه.

وعند تحقيقه، وعند تقريب الشيء وعند تبعيده، فيكون حاصل المعنى أن الساعة تقوم قريباً جداً. وبهذا الاحتمال الثاني جزم بعض شراح «المصابيح»، واستبعده بعض شراح «المشارك»، وقال الداودي: المحفوظ أنه ﷺ قال ذلك للذين خاطبهم بقوله: «تأتيكم ساعتكم» يعني بذلك موتهم؛ لأنهم كانوا أعراباً، فخشي أن يقول لهم: لا أدري متى الساعة، فירתابوا، فكلمهم بالمعاريض، وكأنه أشار إلى حديث عائشة الذي أخرجه مسلم^(١): «كان الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم سناً، فيقول: إن يعيش هذا حتى يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم»، قال عياض -وتبعه القرطبي-: هذه رواية واضحة، تفسر كل ما ورد من الألفاظ المشككة في غيرها^(٢).

قال الطيبي: «سلك مع السائل طريق الأسلوب الحكيم؛ لأنه سأل عن وقت الساعة وإبان إرسائها، فقل له: فيم أنت من ذكراها؟ وإنما يهّمك أن تهتم بأهبتها، وتعتني بما ينفعك عند إرسائها من العقائد الحقّة، والأعمال الصالحة»^(٣).

* * *

(١) في صحيحه (٢٩٥٢/٢٢٦٩/٤)، وكذا أخرجه البخاري (٤٣٩/١١-٤٤٠/٤٤١١).

(٢) فتح الباري (٦٨١/١٠).

(٣) شرح الطيبي (٣٢٠١/١٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده بيانها لحقيقة الرسالة والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية، وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها. ومناسبتها لما قبلها: أن الله تعالى أمر خاتم رسله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده وأمرها بيده وحده، وأمره في هذه أن يبين للناس أن كل الأمور بيد الله تعالى وحده، وأن علم الغيب كله عنده، وأن ينفي كلاً منهما عن نفسه ﷺ، وذلك أن الذين كانوا يسألونه ﷺ عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب، وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالإسلام أن الرسول قد يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعن يحب أو يشاء، أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره أو بمن يشاء. فأمره الله تعالى أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضي ذلك، وإنما وظيفة الرسول التعليم والإرشاد، لا الخلق والإيجاد، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه، وأنه فيما عدا تبليغ الوحي عن الله تعالى بشر كسائر الناس ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ (١)».

قال ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: قل أيها الرسول للناس فيما تبلغه من أمر دينهم: إنني لا أملك لنفسي -أي: ولا لغيري بالأولى- جلب نفع ما في وقت ما، ولا دفع ضرر ما في وقت ما، فوقع كلمتي النفع والضر نكرتين

(١) الكهف: الآية (١١٠).

منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة ، ونفي عموم الفعل يقتضي نفي عموم الأوقات له . ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل إنسان سليم الأعضاء من نفع نفسه وغيره في بعض الأمور الكسبية ودفع بعض الضرر عنها ، ولذلك حرمت الشريعة الضرر والضرار .

ويجاب عن هذا الإشكال من وجهين ، أحدهما : أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً مستقلاً بقدرته وإنما يملك ما يملكه من ذلك بتمليك الرب الخالق جلت قدرته وهو المراد بالاستثناء أي : لا أملك منهما ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ من نفع أقدرني على جلبه ، وضرر أقدرني على منعه ، وسخر لي أسبابهما ، أو إلا وقت مشيئته سبحانه أن يمكنني من ذلك ، فالمعنى المراد على هذا هو بيان عجز المخلوق الذاتي وكون كل شيء أوتي به فهو بمشيئة الله تعالى لا يستقل العبد بشيء منه استقلالاً مطلقاً ، ولا هو يملكه بذاته لذاته ؛ بل بمشيئة الله تعالى ، فالاستثناء على هذا متصل بما قبله ، مخصص لعمومه ، مقيد لإطلاقه .

الثاني : أنه ﷺ لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفعاً ولا ضرراً لنفسه بمنطوق الجملة ولا لغيره بمفهومها الأولى ، مما يعجز عنه غيره بمقتضى بشريته وما أقدره الله تعالى عليه بمقتضى سنته في عالم الأسباب والمسببات ، كما أنه لا يملك شيئاً من علم الغيب الذي هو شأن الخالق دون المخلوق ، كما يأتي بيانه في تفسير الجملة التالية ، والاستثناء على هذا منفصل عما قبله مؤكداً لعمومه ؛ أي : لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كان ، فهو كقوله تعالى : ﴿ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ (١) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ (٢) وقوله حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً (٣) وقوله في خطاب كلمته موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٤) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسْناً بَعْدَ سَوْءٍ (٥) الآية .

وهذا الوجه هو المختار عندنا ؛ لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم الله ووفقهم لطاعته وولايته من الأنبياء ، ومن دون الأنبياء من الصالحين ، فجعلوهم شركاء لله تعالى فيما يرجوه عباده من نفع يسوقه إليهم ، وما يخشونه من شر يمسهم

(٢) الأنعام : الآية (٨٠) .

(١) الأعلى : الآيتان (٧ و ٦) .

(٣) النمل : الآيتان (١٠ و ١١) .

فيدعونه ليكشفه عنهم، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالاً، وإما إشراكاً، إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف في خلقه بما هو فوق الأسباب التي منحها الله تعالى لسائر الناس، فصاروا يستقلون بالنفع والضرر منحا ومنحا، وإيجاباً وسلباً، ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبي الأعلى الذي هو فوق الأسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره، ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الأنبياء والأولياء عند الله تعالى كوزراء الملوك وحجابهم وبطانتهم، وسطاء بينهم وبين من لم يصل إلى رتبهم، فالملك المستبد بسلطانه يعطي هذا ويعفو عن ذنب هذا بوساطة هؤلاء الوزراء والحجاب المقربين عنده، وكذلك رب العالمين يعطي ويمنع ويغفر ويرحم وينتقم بوساطة أنبيائه وأوليائه بزعمهم، فهم شفعاء للناس عنده تعالى يقربونهم إليه زلفى، كما حكاه التنزيل عن المشركين، وبيناه في مواضع من هذا التفسير.

وفي مثل هذا التشبيه الوثني وتمثيل تصرف الرب العظيم الغني عن عباده بتصرف الملوك المستبدين الجاهلين الذين يحتاجون إلى وزرائهم وبطانتهم في حمله على ما ينبغي له فيهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(١)، وبين في هذه الآية وأمثالها أن رسل الله تعالى وهم صفوة خلقه لا يشاركون الله تعالى في صفة من صفاته، ولا تأثير لأحد منهم في علمه ولا في مشيئته؛ لأنها كاملة أزلية لا يطرأ عليها تغير، وأن الرسالة التي اختصهم الله تعالى بها لا يدخل في معناها إقدارهم على النفع والضرر بسلطان فوق الأسباب المسخرة لسائر البشر ولا منحهم علم الغيب، وإنما هي تبليغ وحي الله تعالى وبيانه للناس بالقول والفعل والحكم.

ودليلنا على اختيار هذا الوجه: أن مدار العبودية على توجه العباد إلى المعبود فيما يرجون من نفع ويخافون من ضرر، فاستعمل اللفظان في التنزيل في بيان أن الرب المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالأسباب العادية كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾^(٢)، وقوله في عجل بني إسرائيل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

(١) النحل: الآية (٧٤).

(٢) المائدة: الآية (٧٦).

(٣) طه: الآية (٨٩).

نَفْعًا^(١)، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا^(٢)﴾، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا^(٣)﴾ الآية.

فلما كان ملك الضر والنفع بهذا الإطلاق خاصًا برب العباد وخالقهم، وكان طلب النفع أو كشف الضر عبادة لا يجوز أن يوجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله تعالى عظيمًا عليهم - أمر الله رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغة في تقريره وتوكيده، فقال تعالى في سورة (يونس): ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ^(٤)﴾ الآية، وقال في سورة (الجن): ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا^(٥)﴾، وهذه الآية أبلغ وأشمل مما في معناها بما فيها من إيجاز واحتباك بحذف ما يقابل الضر والرشد المذكورين، وهما ضداهما بدالتهما عليهما، والتقدير: لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا رشدًا ولا غواية، فهذه الآيات بمعنى ما هنا تؤيد اختيارنا.

ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب مستدلًا عليه بانتفاء أظهر منافعه القريبة، فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ^(٦)﴾، الخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوؤهم ويضرهم، ويراد بهما هنا الجنس الذي يصدق ببعض أفرادِهِ وهو الخير الذي يمكن تداركه وتحصيله، والسوء الذي يمكن الاستعداد لدفعه بعلم ما يأتي به الغد. والجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب، كأنه يقول: لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا ولا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب، وأقربه ما يقع في مستقبل أيامي في الدنيا، لاستكثر من الخير كالمال وأعمال البر التي تتوقف على معرفة ما يكون في المستقبل من عسرة وغلاء مثلاً وتغير الأحوال، ولما مسني السوء الذي يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب، كشدة الحاجة مثلاً، ومن أمثلته في العبادة قوله ﷺ في حجة الوداع: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت،

(٢) الرعد: الآية (١٦).

(٤) يونس: الآية (٤٩).

(١) الفتح: الآية (١١).

(٣) الفرقان: الآية (٣).

(٥) الجن: الآية (٢١).

ولولا أن معي الهدى لأحلت»^(١) رواه الشيخان وغيرهما؛ يعني: لو أنه علم ﷺ ما يحصل من انفراده دون أصحابه بسوقه الهدى إلى الحرم من مشقة فسخهم الحج إلى عمرة دونه؛ إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدى لما ساق الهدى ليوافق الجمهور في تمتعهم بالعمرة إلى الحج. ومن أمثلته في الإدارة وسياسة الحرب ما عاتبه الله تعالى عليه من الإعراض عن الأعمى والتصدي للأغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر، ومن الإذن بتخلف المنافقين في غزوة تبوك سنة العسرة، ولم أر أحدا نبّه على هذا النوع من المفسرين.

وفيه وجه آخر أنه مستأنف غير معطوف على ما قبله، ومعناه: وما مسني الجنون كما زعم الجاهلون، فيكون حاصل معنى الآية نفي رفعه إلى رتبة الربوبية الذي افتتن بمثله الغلاة، ونفي وضعه في أدنى مرتبة البشرية الذي زعمته الغواة العتاة. وبيان حقيقة أمره، وما رفع الله تعالى من قدره، بجعله فوق جميع البشر بوحيه، ووساطته بينه وبين خلقه، لكن في التبليغ والإرشاد، لا في الخلق والإيجاد، ولا في تدبير أمور العباد، فإن هذا شأن الربوبية، وإنما هو صلوات الله عليه وسلامه في أعلى مقام العبودية.

ومن نكت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيرها في أخرى: تقديم النفع على الضر في هذه الآية وتأخيرها وتقديم الضر عليه في آية سورة (يونس) المذكورة آنفاً. والفرق المحسن لذلك أن آية (الأعراف) جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وهو من علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها، فاقضى ذلك البدء بنفي ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من أنه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمناً وعظماً شأن، لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل، واتقى أسباب ما يمسّه من سوء فيه، كأمثلة التي ذكرناها.

وأما آية سورة (يونس) فقد وردت في سياق تماري الكفار فيما أوعدهم الله من

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٢٤٧/٦)، والبخاري (١٣/٢٧٠/٧٢٢٩)، ومسلم (٢/٨٧٩/١٢١١ [١٣٠])، وأبو داود (٢/٣٨٤/١٧٨٤).

العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى واستعجالهم إياه تهكمًا ومبالغة في الجحود، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضرًا كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعًا، كالنصر الذي يترتب على تعجيل العذاب لهم في الدنيا، فقد أمره الله تعالى أن يبلغهم أن أمر عذابهم تعجيلًا أو تأخيرًا لله تعالى وحده، كما أمره أن ينفي عن نفسه القدرة على ما اقترحوه من الآيات، ومن ذلك ما ذكره تعالى من مقترحاتهم في سورة (الإسراء) من تفجير ينبوع في مكة وإيجاد جنة تنفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أو إسقاط السماء عليهم كسفاً، وهو من العذاب. . إلخ، ومن أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١)، وقال تعالى في هذه السورة أيضًا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾^(٢)؛ أي: موكلًا بأمر ثوابهم وعقابهم منفذًا له، وقال تعالى في سورة (الرعد): ﴿وَإِنْ مَا نُزِّلْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَاِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٣) «(٤)».

قال الشنقيطي: «هذه الآية تدل على أنه ﷺ لم يكن يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، وقد أمره تعالى أن يقول إنه لا يعلم الغيب في قوله في (الأنعام): ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾^(٥) الآية، وقال: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ^(٧) الآية، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٨) الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

والمراد بالخير في هذه الآية الكريمة قيل: المال، ويدل على ذلك كثرة ورود الخير بمعنى المال في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدُونَ﴾^(٩)، وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾^(١٠)، وقوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾^(١١) الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: المراد بالخير فيها العمل الصالح؛ كما قاله مجاهد وغيره، والصحيح

(٢) الإسراء: الآية (٥٤).

(٤) تفسير المنار (٩/٥٠٧-٥١٣).

(٦) الجن: الآيتان (٢٦ و ٢٧).

(٨) العاديات: الآية (٨).

(١٠) البقرة: الآية (٢١٥).

(١) الإسراء: الآية (٩٣).

(٣) الرعد: الآية (٤٠).

(٥) الأنعام: الآية (٥٠).

(٧) النمل: الآية (٦٥).

(٩) البقرة: الآية (١٨٠).

الأول؛ لأنه ﷺ مستكثر جدًا من الخير الذي هو العمل الصالح؛ لأن عمله ﷺ كان ديمة^(١)، وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته^(٢) (٣).

قوله: ﴿إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: قال محمد رشيد رضا: «هذا بيان مستأنف لتعليل ما تقدم من نفي امتياز ﷺ على البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب وسنن الله في الخلق، ونفي امتيازهم بعلم الغيب، عللها ببيان حصر امتيازهم بالتبليغ عن الله ﷻ. والتبليغ قسمان: قسم مقترن بالتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي وهو الإنذار، وقسم مقترن بالترغيب في الثواب على الإيمان والطاعة، وهو البشارة أو التبشير، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الإطلاق، والآيات فيه كثيرة، ويوجه أيضًا إلى من يؤمن وإلى من يصر على كفره وإجرامه مطلقًا، وإذا ذكر الفريقان جميعًا في سياق واحد يخص الكافرون بالإنذار، والمؤمنون الصالحون بالتبشير، وقد ذكر في أول سورة (الكهف) الإنذار المطلق بالقرآن، ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وإنذار متخذي الولد لله تعالى من الكافرين. ومن المقابلة بين الفريقين قوله تعالى في آخر سورة (مريم): ﴿لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾^(٤)، وفي معناها آيات أخرى في المقابلة كما ترى في أوائل سورتي (البقرة) و(الإسراء)، ولكن دون ذكر لفظ الإنذار. والتبشير لا يوجه إلى الكافرين والمجرمين بلقبهم إلا بأسلوب التهكم كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥) على القول المشهور الذي عليه الجمهور، وأما الإنذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به كقوله في سورة (فاطر): ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(٦)، وقوله في سورة (يس): ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾^(٧).

بناءً على هذا قال بعض المفسرين: إن قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٨) متعلق

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/٤٣-٥٥-١٨٩)، والبخاري (١١/٣٥٥/٦٤٦٦)، ومسلم (١/٧٨٣/٥٤١)، وأبو داود (٢/١٠٢/١٣٧٠).

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: مسلم (١/٥١٥/٧٤٦ [١٤١])، وأبو داود (٢/١٠١/١٣٦٨)، والنسائي (١/٧٦١/٤٠٢).

(٣) أضواء البيان (٢/٣٤٠).

(٤) آل عمران: الآية (٢١).

(٥) مريم: الآية (٩٧).

(٦) فاطر: الآية (١٨).

(٧) يس: الآية (١١).

(٨) الأعراف: الآية (٥٢).

بالوصفين على معنى أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بإنذاره فيزيدهم خشية الله واتقاء لما يسخطه، وبتبشيرهم فيزدادون شكرًا له بعبادته وإقامة سنته. وقال بعضهم إنه متعلق بالثاني المتصل به، ويدل على حذف مقابله فيما قبله. والتقدير: ما أنا إلا نذير للكافرين وبشير للمؤمنين، ووجهه أن المقام مقام التبليغ، وهنالك وجه ثالث، وهو أن البشارة للمؤمنين خاصة لاتصالها بهم، والإنذار عام لهم ولغيرهم، وقد عرف وجهه مما فصلناه.

وقد ورد في مثل هذا من حصر وظيفة الرسول بالإنذار والتبشير بلفظيهما معًا، أو بأحدهما، ويلفظ التبليغ الجامع لهما آيات كثيرة، بعضها بالإثبات بعد النفي كما هنا، وبعضها بـ(إنما)، والحصر بكل منهما أقوى النصوص القطعية الدلالة، ومع هذا التكرار والتوكيد كله يأبى غلاة الإطراء للرسول ولمن دون الرسل من الصالحين حقيقة أو توهمًا إلا أن يشركوهم مع الله ﷻ في صفات ربوبيته وأفعاله.

قال تعالى في سورة (سبا): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقال في سورتي (الإسراء) و(الفرقان): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢)، وقال في سورتي (الأنعام) و(الكهف): ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(٣)، وقال في سورة (النحل): ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٤)، وفي سورة (يس) حكاية عن الرسل: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٥)، وفي سورتي (النور) و(العنكبوت): ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٦).

فإن قيل: إن الحصر في هذه الآيات وأمثالها إضافي؛ فإن من وظائف الرسل بيان الوحي والحكم بين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾^(٧)، وقال ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٨)، والبيان يكون بالأفعال كالأقوال، بل الأفعال أقوى دلالة وأعصى

(١) سبا: الآية (٢٨).

(٢) الإسراء: الآية (١٠٥)، الفرقان (٥٦).

(٣) الأنعام: الآية (٤٨)، الكهف (٥٦).

(٥) يس: الآية (١٧).

(٤) النحل: الآية (٣٥).

(٦) النور: الآية (٥٤)، العنكبوت: الآية (١٨).

(٨) النحل: الآية (٤٤).

(٧) النساء: الآية (١٠٥).

على تأويل المحرفين . وكما قد أمر تعالى بتحكيم رسوله ﷺ والخضوع لحكمه ، أمر بالتأسي به في هديه وسنته ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾^(١) .

قلنا : إن هذا لا ينافي الحصر الحقيقي ؛ لأن التبليغ لدين الله وشرعه لا يتم إلا بالعمل والحكم به وتنفيذ أحكامه ، فهو داخل في التبليغ وبيان الوحي .
وجملة القول : أن الرسل عليهم الصلاة والسلام عبيد لله تعالى مكرمون ، لا يشاركونه في صفاته ولا في أفعاله ، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه ولا في تدبيره ، وهم بشر كسائر الناس ، لا يمتازون على البشر في خلقهم وصفاتهم وغرائزهم ، وإنما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالاته لعباده ، وبما زكاهم وعصمهم فأهلهم لأن يكونوا أسوة حسنة وقدوة صالحة للناس في العمل بما جاؤوا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى ومكارم الأخلاق»^(٢) .

قلت : إذا تبين لك هذا ، فاعلم أن ما يقع فيه الناس من الغلو في الرسول ﷺ وإطرائه يفضي إلى الوقوع في الشرك . فيصفون النبي ﷺ بالقدرة على النفع والضرر ، ويصفونه بعلم الغيب الذي نفاه عن نفسه في هذه الآية ، ويتعصبون لهذه الضلالات ، ويحاربون أهل التوحيد والمتبعين لسنة النبي ﷺ ، ويكلونهم التهم الباطلة ؛ من بغض النبي ﷺ ، وبغض آله ، وإنكار علو مكانته ﷺ .

ومعلوم أن محبة النبي ﷺ في لزوم أقواله واتباع أوامره واجتناب نواهيه . وقد نهى ﷺ عن إطرائه والغلو فيه . وهؤلاء الذين يدعون محبته قد أطروه ، وغلوا فيه حتى قال شاعرهم البوصيري :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
وقد نبهنا على بعض ما وقع فيه هؤلاء الغلاة في كتاب «وقفات مع الكتاب المسمى دلائل الخيرات» ، والله الموفق .

(١) الأحزاب : الآية (٢١) .

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥١٤-٥١٦) .

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

★ غريب الآية:

ليسكن إليها: أي: ليأنس بها ويطمئن إليها.

فلما تغشَّاهَا: كناية عن الوقاع.

فمرَّت به: أي: استمرت بذلك الحمل الخفيف تقوم وتقع وتقلب ولا تكثر بحمله إلى أن ثقل. وقيل: المعنى: فاستمر بها الحمل فهو من المقلوب.

أثقلت: أي: صارت ذات ثقل، كما تقول: أثمر النخل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «افتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد، والأمر باتباع ما أنزل الله، والنهي عن اتباع أولياء من دونه. وتلاه التذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين، والعداوة بينه وبين الشيطان، ثم اختتمت بهذه المعاني، وهو التذكير بالنشأة الأولى، والنهي عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان، والأمر بالتوحيد واتباع القرآن»^(١).

قال ابن كثير: «ينبّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا النَّاسُ أَتَقُؤا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

(١) تفسير المنار (٥١٦/٩).

(٢) الحجرات: الآية (١٣).

وَنِسَاءٌ ﴿١﴾ الآية .

وقال في هذا الآية الكريمة : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي : ليألفها ويسكن بها ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٢) ، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين ؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه .

﴿فَلَمَّا تَفَشَّنَهَا﴾ أي : وطئها ، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ ، وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له الماء ، إنما هي النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة .

وقوله : ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد : استمرت بحمله . وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه . وقال ميمون بن مهران عن أبيه : استخفته . وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله : ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال : لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي ، إنما هي : فاستمرت به . وقال قتادة : ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ واستبان حملها . وقال ابن جرير : معناه : استمرت بالماء ، قامت به وقعدت . وقال العوفي عن ابن عباس : استمرت به ، فشكت : أحملت أم لا ؟

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي : صارت ذات ثقل بحملها . وقال السدي : كبر الولد في بطنها .

﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحًا﴾ أي : بشراً سوياً ، كما قال الضحاك عن ابن عباس : أشفقا أن يكون بهيمة . وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك : أشفقا أن لا يكون إنساناً . وقال الحسن البصري : لئن آتينا غلاماً^(٣) .

قال ابن جرير : «و(الصلاح) قد يشمل معاني كثيرة : منها : الصلاح في استواء الخلق ، ومنها : الصلاح في الدين ، والصلاح في العقل والتدبير .

وإذ كان ذلك كذلك ، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني (الصلاح) دون بعض ، ولا فيه من العقل دليل وجب أن يعم كما عمه الله ، فيقال : إنهما قالا : ﴿لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحًا﴾ بجميع معاني (الصلاح) .

(٢) الروم : الآية (٢١) .

(١) النساء : الآية (١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٤-٥٢٥) .

وأما معنى قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فإنه: لنكوننَّ ممن يشكر ما وهبت له من الولد صالحاً^(١).

* * *

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى
 اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٩٠)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القاسمي : « هذه الآية سبقت توبيخًا للمشركين في جنايتهم بالشرك ،
 ونقضهم ميثاقهم ، في جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه . وذلك أنه تعالى
 ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم
 ليأنسوا بهن ، ثم إنشأه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى
 الوجود ، ومن الضعف إلى القوة ، ثم بين إعطاءهم الموائيق إن آتاهم ما يطلبون
 وولد لهم ما يشتهون ، ليكونن من الشاكرين ، ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه
 النعم ، التي امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم في إفراده بالشكر ، حيث
 أشركوا معه غيره في ذلك . ونظير هذه الآية ، في الإخبار عن تبديل المشركين نعمة
 الله كفرًا ، قوله تعالى في سورة (يونس) : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْحِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ
 فِي الْفُلِّ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
 وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ
 ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) . وقد ذكر المفسرون ههنا
 أحاديث وآثارًا تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء . ولا حاجة بنا إلى روايتها ؛
 لأنها واهية الإسناد معلولة ، كما بينه الحافظ ابن كثير في تفسيره . وتقبل ثلة من
 السلف لها وتلقيها ، لا يجدي في صحتها شيئًا ؛ إذ أصلها مأخوذ من أقاصيص
 مسلمة أهل الكتاب ، كما برهن عليه ابن كثير . وتهويل بعضهم بأنها مقتبسة من
 مشكاة النبوة ، إذ أخرجها فلان وفلان ، من تنميق الألفاظ لتمزيق المعاني ؛ فإن
 المشكاة النبوية أجل من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته .

(١) يونس : الآيتان (٢٢ و٢٣) .

إذا علمت ذلك، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها، آدم وحواء، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك، وأن ظاهر النظم يقتضيه، ثم أخذ يؤوله، إما بتقدير مضاف؛ أي: جعل أولادهما له شركاء، فيما آتى أولادهما، وإما بأن المراد جعل أحدهما، وهو حواء، من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك فإنه ذهب في غير مذهب.

وقد قرر ما ارتضيناه في معنى الآية غير واحد. قال الحسن البصري، فيما روى عنه ابن جرير: إن الآية عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده. وفي رواية عنه: كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم^(١).

وقال ابن كثير: «وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن، رضي الله عنه، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث^(٢) عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم».

ثم قال -معلقاً على الآثار الواردة عن السلف في تفسير هذه الآية-: «وهذه الآثار يظهر عليها -والله أعلم- أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن

(١) محاسن التأويل (٧/٣١٦-٣١٧).

(٢) يشير إلى حديث سمرة بن جندب المروي في هذا الباب من حديث الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبدالحارث؛ فإنه يعيش، فسموه عبدالحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره». أخرجه: أحمد (٥/١١)، والترمذي (٥/٢٥٠/٣٠٧٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. عمر بن إبراهيم شيخ بصري»، والحاكم (٢/٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبي. قال ابن كثير: «هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن عن سمرة مرفوعاً، فالله أعلم. الثاني: أنه قد روي من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر عن أبيه. وحدثنا ابن علية، عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء بن الشخير، عن سمرة بن جندب، قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث. الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه». (تفسير القرآن العظيم ٣/٥٢٦).

رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»^(١)، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام، فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها: ما علمنا كذبه، بما دلّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(٢)، وهو الذي لا يصدق ولا يكذب؛ لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر: هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣).

وفي ختم الآية بقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بعد ذكر الخلق ونعمة الأولاد تنبيه على ما يقع في هذا الباب من الشرك.

قال محمد رشيد رضا: «أي: تعالى شأنه عن شركهم؛ فإنه هو معطي النسل بما خلقه لكل من الزوجين من أعضاء، وقدر لهما في العلوق والوضع من أسباب، لا فعل لغيره في ذلك البتة. وجمع الضمير هنا بعد تثنيته الأفعال قبله؛ لأن المراد فيه بالزوجين الجنس، لا فردين معينين. وقال الزمخشري: إن الضمير في ﴿ءَاتَيْنَا﴾ و﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما. والآية على كل من القولين بيان لحال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله، والجنس يصدق ببعض أنواعه وبعض أفراده.

فمثال الشرك الخفي في إنعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الأسباب في سلامة الحامل من الأمراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه، وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الأمراض؛ كقولهم:

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري (٨/٢١٥-٢١٦/٤٤٨٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٦/١١٣٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٤٧٤)، وأبو داود (٤/٦٩-٧٠/٣٦٦٢) عن أبي هريرة. وفي الباب من حديث أبي سعيد وابن عمرو وغيرهما.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٢٧-٥٢٨).

لولا أن فعلنا كذا لكان كذا، ولولا فلان أو فلانة - من طيب أو مرشد أو قابلة - لهلك الولد أو لأجهضت أمه إجهاضاً، أو جاءت بسقط لم يستهل، أو لمات عقب إسقاطه لعدم استعداده للحياة. وينسون في هذه الأحوال فضل الله تعالى عليهم بما من به من العافية والتوفيق وتسخير الأسباب من البشر وغيرهم، وإن كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها - ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم، أو نعمة يدفعها الله تعالى عنهم، وهذا الشرك ليس خروجاً من الملة، ولكنه نقص في شكر المنعم، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الأولاد على حب الله تعالى، وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره، وإيثارهم لهم على طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام، وهو كسابقه نقص في التوحيد، لا نقص له، وغفلة عنه، لا جحد به.

ومثال الشرك الجلي: إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعونهم من دونه أو معه من الأولياء والقديسين، أو الأنبياء والمرسلين، أو ما يذكر بهم أو بمثلهم من القبور أو الأصنام والتمائيل، يقولون: لولا سيدي فلان، ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب، أو لكان كذا وكذا مما نكره، يعتقدون أن لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الأسباب المذكورة عن القسم الأول^(١).

* * *

قوله تعالى : ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ﴿١٩١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير : «هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعباديتها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال : ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي : أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً، ولا يستطيع ذلك؛ كما قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطار، لما استطاعوا إنقاذه ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يُعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى : ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي : بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾» ﴿٣﴾.

(١) الحج : الآيتان (٧٣ و٧٤).

(٢) الصافات : الآيتان (٩٥ و٩٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٢٩).

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٩٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : أي شرك هؤلاء المشركون في عبادة الله ما لا يخلق شيئاً من خلق الله ، ولا يستطيع أن ينصرهم إن أراد الله بهم سوءاً ، أو أحل بهم عقوبة ، ولا هو قادر إن أراد به سوءاً نصر نفسه ، ولا دفع ضرر عنها ؟ وإنما العابد يعبد ما يعبد لا جتلاب نفع منه ، أو لدفع ضرر منه عن نفسه ، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله ، لا تنفعهم ، ولا تضرهم ، بل لا تجتلب إلى نفسها نفعاً ، ولا تدفع عنها ضرراً ، فهي من نفع غير أنفسها ، أو دفع الضرر عنها أبعد ، يُعَجَّب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم الله غيره»^(١) .

قال ابن كثير في قوله : ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ : «يعني : ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء ، كما كان الخليل - عليه الصلاة والسلام - يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة ، كما أخبر تعالى عنه في قوله : ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرِيًّا بِالْيَمِينِ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾^(٣) ، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ، وكانا شابتين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ، ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ؛ ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتؤوا لأنفسهم ، فكان لعمر بن الجموح ، وكان سيّداً في قومه ، كان له صنم يعبد ويطيعه ، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ، ويلطخان به بالعدرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به ، فيغسله ويطيعه ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : انتصر . ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً ، حتى أخذه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك ، نظر فعلم أن

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٠) .

(٢) الصافات : الآية (٩٣) .

(٣) الأنبياء : الآية (٥٨) .

ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستنداً لم تك والكلب جميعاً في قرن
ثم أسلم، فحسّن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً ﷺ وأرضاه، وجعل جنة
الفردوس مأواه^(١).

وقال ابن عاشور: «الظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيلون أن
تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم؛ إذ
كان النصر أشد مرغوب لهم؛ لأن العرب كانوا أهل غارات وقاتل وتترات،
فالانتصار من أهم الأمور لديهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَأَلَّهُمْ
يُنْصَرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ^(٣)، قال أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل،
وقال أيضاً: لنا العزى ولا عزى لكم^(٤)، وأن الله أعلم المسلمين بذلك تعريضاً
بالبشارة بأن المشركين سيُغلبون، قال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٥)، وأنهم سيمحقون الأصنام، ولا يستطيع أحد الذب
عنها^(٦).



(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٢٩).

(٢) يس: الآيتان (٧٤ و٧٥).

(٣) مريم: الآيتان (٨١ و٨٢).

(٤) أخرجه من حديث البراء بن عازب ﷺ: أحمد (٤/٢٩٣)، والبخاري (٧/٤٤٣/٤٠٤٣)، وأبو داود (٣/

١١٧-١١٨/٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/١٨٩-١٩٠/٨٦٣٥٤).

(٥) آل عمران: الآية (١٢).

(٦) التحرير والتنوير (٩/٢١٧).

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان الأندلسي : «الظاهر أن الخطاب للكفار . انتقل من الغيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات والتوبيخ على عبادة غير الله . ويدلّ على أن الخطاب للكفار قوله بعد : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾^(١) ، وضمير المفعول عائد على ما عادت عليه هذه الضمائر قبل وهو الأصنام . والمعنى : وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى ورشاد ، أو إلى أن يهدوكم كما تطلبون من الله الهدى والخير ، لا يتبعوكم على مرادكم ولا يجيبوكم . أي : ليست فيهم هذه القابلية ؛ لأنها جماد لا تعقل . ثم أكد ذلك بقوله : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي : دعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سيّان . فكيف يعبد من هذه حاله ؟ !

وقيل : الخطاب للرسول والمؤمنين ، وضمير النصب للكفار . أي : وإن تدعوا الكفار إلى الهدى لا يقبلوا منكم ، فدعاؤكم وصمتكم سيّان . أي : ليست فيهم قابلية قبول ولا هدى^(٢) .

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - في وصفه وعيبه ما يشرك هؤلاء المشركون في عبادتهم ربهم إياه : ومن صفته أنكم أيها الناس إن تدعوهم إلى الطريق المستقيم ، والأمر الصحيح السديد ، لا يتبعوكم ؛ لأنها ليست تعقل شيئاً ، فترك من الطرق ما كان عن القصد منعدلاً جائراً ، وترك ما كان مستقيماً سديداً .

وإنما أراد الله - جل ثناؤه - بوصف آلهتهم بذلك من صفتها تنبيههم على عظيم خطئهم ، وقبح اختيارهم ، يقول - جل ثناؤه - : فكيف يهديكم إلى الرشاد من إن دعي إلى الرشاد وعُرفه لم يعرفه ، ولم يفهم رشاداً من ضلال ، وكان سواءً دعاء

(١) الآية (١٩٤) .

(٢) البحر المحيط (٤/٤٣٩) .

داعيه إلى الرشاد وسكوته ؛ لأنه لا يفهم دعاءه ، ولا يسمع صوته ، ولا يعقل ما يقال له ، يقول : فكيف يُعبد من كانت هذه صفته ، أم كيف يشكل عظيم جهل من اتخذ ما هذه صفته إلهاً ؟ ! وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبد ، الضار من يعصيه ، الناصر وليه ، الخاذل عدوه ، الهادي إلى الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه^(١) .

قال ابن كثير : «يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها ، كما قال إبراهيم : ﴿ يَتَأْتَى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾^(٢)»^(٣) .



(١) جامع البيان (٩/ ١٥٠) .

(٢) مريم : الآية (٤٢) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٩) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ
فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان الأندلسي: «هذه الجملة على سبيل التوكيد لما قبلها في انتفاء كون هذه الأصنام قادرة على شيء من نفع أو ضرر»^(١).

قال ابن جرير: «يقول - جل ثناؤه - لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان موبخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أيها المشركون آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وتعبدونها شركاً منكم وكفراً باللَّهِ، ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له ممالك، فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة؛ لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتهم، فإن لم يستجيبوا لكم؛ لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سئل سمع مسألة سائله، وأعطى وأفضل، ومن إذا شكى إليه من شيء سمع فضر من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضر»^(٢).

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: «أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه بقواكم البشرية من نفع أو ضرر بذواتهم، فادعوهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم، أو ليحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون منهم إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾»^(٣)، وقولكم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾»^(٤)»^(٥).

(١) البحر المحيط (٤/٤٣٩).

(٣) يونس: الآية (١٨).

(٤) الزمر: الآية (٣).

(٥) تفسير المنار (٩/٥٢٨-٥٢٩).

(٢) جامع البيان (٩/١٥١).

وفي الآية سؤال أورده الرازي، قال: «وهو أنه كيف يحسن وصفها بأنها عباد مع أنها جمادات؟ وجوابه من وجوه: الأول: أن المشركين لما ادعوا أنها تضر وتنفع؛ وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة، فلا جرم وردت هذه الألفاظ على وفق معتقداتهم، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾، ولم يقل: فادعوهم فليستجبن لكم، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾، ولم يقل: التي.

والجواب الثاني: أن هذا اللغو أورد في معرض الاستهزاء بهم؛ أي: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ولا فضل لهم عليكم، فلم جعلتم أنفسكم عبيداً وجعلتموها آلهة وأرباباً؟ ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالكم، فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾^(١)، ثم أكد هذا البيان بقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾. ومعنى هذا الدعاء: طلب المنافع وكشف المضار من جهتهم. واللام في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ لام الأمر على معنى التعجيز. والمعنى أنه لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة؛ ظهر أنها لا تصلح للمعبودية. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾^(٢).

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي في ادعاء أنها آلهة ومستحقة للعبادة، ولما ثبت بهذه الدلائل الثلاثة اليقينية أنها لا تصلح للمعبودية، وجب على العاقل أن لا يلتفت إليها، وأن لا يشتغل إلا بعبادة الإله القادر العالم الحي الحكيم الضار النافع^(٣).

(١) الآية (١٩٥).

(٢) مريم: الآية (٤٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٩٦/١٥).

قوله تعالى : ﴿ اَلْهَمَّ اَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا اَمْ لَهُمْ اَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا اَمْ لَهُمْ اَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا اَمْ لَهُمْ اِذَا تُسْمَعُونَ بِهَا قُلْ اَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ (١٩٥)

* غريب الآية :

يبطشون بها : من البطش ، وهو تناول الشيء بصولة وقهر . ويقال : هو سرعة الانتقام وعدم التؤدة في العفو .
ثم كيدون : الأصل : كيدوني ، فحذفت الياء تخفيفاً ؛ لأن الكسرة تدل عليها .
والكيد : المكر ، والكيد : الحرب .
فلا تُنْظِرُون : أي : فلا تؤخرون .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه ، معرفهم جهل ما هم عليه مقيمون : الأصنامكم هذه أيها القوم ﴿ اَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ فيسعون معكم ولكم في حوائجكم ، ويتصرفون بها في منافعكم ، ﴿ اَمْ لَهُمْ اَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشرّ ومكروه ، ﴿ اَمْ لَهُمْ اَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ فيعرفوكم ما عاينوا ، وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه ، ﴿ اَمْ لَهُمْ اِذَا تُسْمَعُونَ بِهَا ﴾ فيخبروكم بما سمعوا دونكم ، مما لم تسمعوه ، يقول - جل ثناؤه - : فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتها ، والمعظم من الأشياء إنما يعظم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم ، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها ، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضرر ؟

وقوله : ﴿ قُلْ اَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان : ادعوا شركاءكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة ، ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أنتم

وهن، ﴿فَلَا تُنْظِرُون﴾ يقول: فلا تؤخرون بالكيد والمكر، ولكن عجلوا بذلك، يُعلمه -جل ثناؤه- بذلك أنهم لن يضروه، وأنه قد عصمه منهم، ويعرف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصره من بغى أولياءهم بسوء»^(١).

قال الرازي: «اعلم أن هذا نوع آخر من الدليل في بيان أنه يقبح من الإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام. وتقريره أنه تعالى ذكر في هذه الآية أعضاء أربعة، وهي الأرجل والأيدي والأعين والأذان، ولا شك أن هذه الأعضاء إذا حصل في كل واحدة منها ما يليق بها من القوى المحركة والمدركة؛ تكون أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى، فالرجل القادرة على المشي واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة، والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة الباصرة والسامعة وعن قوة الحياة. وإذا ثبت هذا؛ ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا نسبة لفضيلة الإنسان إلى فضل هذه الأصنام ألبتة، وإذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة ألبتة، لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة. هذا هو الوجه في تقرير هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية»^(٢).

(١) جامع البيان (٩/١٥١-١٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/٩٧-٩٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾

★ غريب الآية:

إن وليي الله: أي: إن الذي يتولى نصري وحفظي هو الله. ووليي الشيء: هو الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه لما بين في الآيات المتقدمة أن هذه الأصنام لا قدرة لها على النفع والضرر؛ بين بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله تعالى؛ لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين ومنافع الدنيا: أما تحصيل منافع الدين؛ فبسبب إنزال الكتاب، وأما تحصيل منافع الدنيا؛ فهو المراد بقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾»^(١).

قال ابن كثير: «أي: الله حسبي وكافي، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾»^(٢)، وكقول الخليل عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾»^(٣)، الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾»^(٤)»^(٥).

قال أبو السعود: «وصفه تعالى بتنزيل الكتاب للإشعار بدليل الولاية والإشارة

(١) مفاتيح الغيب (٩٨/١٥).

(٢) الشعراء: الآيات (٨٠-٧٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥٣٠/٣).

(٢) هود: الآيات (٥٦-٥٤).

(٤) الزخرف: الآيات (٢٨-٢٦).

إلى علة أخرى لعدم المبالاة، كأنه قيل : لا أبالي بكم وبشركائكم ؛ لأن وليي هو الله الذي أنزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصري ، وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، فضلاً عن نصركم^(١).

وقال الرازي : ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ﴾ ؛ أي : الذي يتولى حفظي ونصرتي هو الله الذي أنزل الكتاب المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة في الدين . و﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ : ينصرهم ، فلا تضرهم عداوة من عاداهم ، وفي ذلك يأمن المشركين من أن يضره كيدهم . وسمعت أن عمر بن عبد العزيز ما كان يدخر لأولاده شيئاً ، فقيل له فيه فقال : ولدي إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين ، فإن كان من الصالحين فوليه الله ، ومن كان الله له ولياً فلا حاجة له إلى مالي ، وإن كان من المجرمين فقد قال تعالى : ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾^(٢) ، ومن رده الله ؛ لم أشتغل بإصلاح مهماته^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موالة المؤمنين

ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ جهاًراً غير سِرٍّ يقول : «ألا إن آل أبي (يعني فلاناً) ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين»^(٤).

* فوائد الحديث:

ستأتي فوائد هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنْ أَوْلِيَائُكُمْ إِلَّا الْمُنَفَّوْنَ﴾ الآية (٣٤) من سورة (الأنفال).

* * *

(١) إرشاد العقل السليم (٣/٣٠٧).

(٢) القصص : الآية (١٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/٩٩).

(٤) أخرجه : أحمد (٤/٢٠٣) ، والبخاري (١٠/٥١٣/٥٩٩٠) ، ومسلم (١/١٩٧/٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٧)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أيضًا أمر من الله - جل ثناؤه - لنبيه أن يقول للمشركين بقوله - تعالى ذكره - : قل لهم : إن الله نصيري وظهري ، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم أيها المشركون من دون الله من الآلهة ، لا يستطيعون نصركم ، ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرّون على نصرة أنفسهم ، فأَيُّ هذين أولى بالعبادة ، وأحق بالألوهة ؟ أمن ينصر وليه ، ويمنع نفسه ممن أراده ، أم من لا يستطيع نصر وليه ، ويعجز عن منع نفسه ممن أراده ، وبغاه بمكروه؟» (١).

قال أبو حيان: «وهذه الآية بيان لحال الأصنام وعجزها عن نصرة أنفسها ، فضلًا عن نصرة غيرها . وتقدم قوله : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٢) ، قال الواحدي : أعيد هذا المعنى ؛ لأن الأول مذكور على جهة التقرير ، وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين من لا تجوز ، كأنه قيل : الإله المعبود يجب أن يكون يتولى الصالحين ، وهذه الأصنام ليست كذلك ، فلا تكون صالحة للإلهية» (٣).

وفي الآية قول آخر ، وإن كان لا يصل في القوة إلى القول الأول نُورِدُهُ ، وهو أن المقصود بها المشركين الذين كان يدعوهم النبي ﷺ إلى التوحيد .

قال الرازي: «القول الثاني : إن هذه الأحوال المذكورة صفات لهؤلاء المشركين الذين يدعون غير الله ، يعني أن الكفار كانوا يخوفون رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، فقال تعالى : إنهم لا يقدرّون على شيء ؛ بل إنهم قد

(٢) الأعراف : الآية (١٩٢).

(١) جامع البيان (٩/١٥٢).

(٣) البحر المحيط (٤/٤٤٣) ، وانظر مفاتيح الغيب (١٥/٩٩).

بلغوا في الجهل والحمافة إلى أنك لو دعوتهم وأظهرت أعظم أنواع الحجة والبرهان؛ لم يسمعون بعقولهم ذلك البتة.

فإن قيل: لم يتقدم ذكر المشركين، وإنما تقدم ذكر الأصنام، فكيف يصح ما ذكر؟

قلنا: قد تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُون﴾^(١) «(٢)».

(١) الآية (١٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٩٩/١٥).

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَبَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - جل ثناؤه - لنبية محمد ﷺ : قل للمشركين : وإن تدعوا - أيها المشركون - آلهتكم إلى الهدى ، وهو الاستقامة إلى السداد ، ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ يقول : لا يسمعون دعاءكم ، ﴿وَتَرَبَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ .

وهذا خطاب من الله لنبية ﷺ يقول : وترى - يا محمد - آلهتهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، ولذلك وحّد ، ولو كان أمر النبي ﷺ بخطاب المشركين لقال : وترونهم ينظرون إليكم . . .

وقد كان مجاهد يقول في ذلك : . . . ﴿وَتَرَبَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ما تدعوهم إلى الهدى . وكأن مجاهدًا وجه معنى الكلام إلى أن معناه : وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، فهو وجه ، ولكن الكلام في سياق الكلام على الآلهة ، فهو بوصفها أشبه .

قال أبو جعفر : فإن قال قائل : فما معنى قوله : ﴿وَتَرَبَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ؟ وهل يجوز شيء ينظر إلى شيء ولا يراه ؟

قيل : إن العرب تقول للشيء إذا قابل شيئًا أو حاذاه : هو ينظر إلى كذا ، ويقال : منزل فلان ينظر إلى منزلي : إذا قابله . وحكي عنها : إذا أتيت موضع كذا وكذا ، فنظر إليك الجبل ، فخذ يمينًا أو شمالًا . وحدثت عن أبي عبيد قال : قال الكسائي : الحائط ينظر إليك : إذا كان قريبًا منك حيث تراه ، ومنه قول الشاعر :

إذا نظرت بلاد بني تميم بعين أو بلاد بني صباح

يريد : تقابل نبتها وعشبتها وتحاذى .

فمعنى الكلام : وترى - يا محمد - آلهة هؤلاء المشركين من عبدة الأوثان ،

يقابلونك ويحاذونك، وهم لا يبصرونك؛ لأنه لا أبصار لهم. وقيل: ﴿وَتَرَبَّهُمْ﴾، ولم يقل: وتراها؛ لأنها صور مصورة على صور بني آدم^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَبَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾^(٢)»^(٣).

قال محمد رشيد رضا: «وفي الآية وجه آخر ذهب إليه بعضهم، وهو أن الخطاب فيها للمؤمنين والرسول في مقدمتهم؛ بناءً على أن الكلام في الأصنام قد تم فيما قبلها وعاد الكلام في عابديها؛ أي: وإن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الأغبياء من المشركين، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين، إلى هدى الله، وهو التوحيد والإسلام؛ لا يسمعون دعوتكم سماع فهم واعتبار، وتراهم -أيها الرسول- ينظرون إليك وهم لا يبصرون ما أوتيت من سمت الجلال والوقار، الذي يميز به صاحب البصيرة بين أولي الجد والعزم، والصدق في القول والفعل، وبين أهل العبث والهزل. ولقد كان بعض ذوي الفطرة السليمة ينظر إلى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسيماه في وجهه أنه حر صادق، غير مخادع ولا مماذق، فيقول: والله ما هذا الوجه وجه كاذب.

وما زال من المعهود بين الناس أن أصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضًا بذلك من أول العهد بالتلاقي بما يتوسمون من ملامح الوجه ومعارفه، ثم من موضوع الحديث وتأثيره في نفس المتكلم والسامع، ثم يكمل ذلك بالمعاشرة. كما يعرفون حال الأشرار والمنافقين بذلك، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَفَرَّقْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَفَرَّقْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^(٤). بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلى عقائل قريش فضائل محمد بن عبد الله قبل بعثته، فاستمالته وخطبته لنفسها على غناها وفقره، بعد أن رفضت أناسًا من كبراء قريش خطبوها بعد موت

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) فاطر: الآية (١٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٠).

(٤) محمد: الآية (٣٠).

زوجها الأول، ثم كانت أول من جزم برسالته عندما حدثها بأول ما رآه من بدء الوحي وخاف على نفسه منه . وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول رجل دعاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام بحسن فراسته فيه ، فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يتريث أن أجاب الدعوة منشرح الصدر قرير العين ؛ لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا إليها . وأمثلة هذا كثيرة في كل زمان . . .

فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى : ﴿ وَتَرْنَهُمْ يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ على الوجه الأخير في تفسيرها ، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا . ثم اقرأ في معناه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿ (١)﴾ (٢) .

* * *

(١) يونس : الآيتان (٤٢ و٤٣) .

(٢) تفسير المنار (٩ / ٥٣١ - ٥٣٢) .

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾

★ غريب الآية:

خذ العفو: أي: تعاط العفو مع الناس. وقيل: العفو: التجاوز عن الذنب.
العرف: أي: المعروف، خلافه: المنكر.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو بكر بن العربي: «قال علماؤنا: هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيه حسنة إلا أوضحتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاثة أقسام الإسلام الثلاثة؛ فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ تولى بالبيان جانب اللين، ونفى الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات؛ وإنهما ما عُرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفع بالصبر الذي به يتأتى للعبد كل مراد في نفسه وغيره»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع، وهي التي تلي في المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بأبلغ التوكيد، فقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ يأمر فيه بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية، والآداب النفسية، والأحكام العملية»^(٢).

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: تأويله:

(١) أحكام القرآن (٢/٨٢٦).

(٢) تفسير المنار (٩/٥٣٢-٥٣٣).

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس، وهو الفضل وما لا يجهدهم . . .

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خذ العفو من أموال الناس، وهو الفضل، قالوا: وأمر بذلك قبل نزول الزكاة، فلما نزلت الزكاة نسخ . . .
وقال آخرون: بل ذلك أمر من الله نبيه ﷺ بالعفو عن المشركين، وترك الغلظة عليهم قبل أن يفرض عليه . . .

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم، وقال: أمر بذلك نبي الله ﷺ في المشركين. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن الله - جل ثناؤه - أتبع ذلك تعليمه نبيه ﷺ محاجته المشركين في الكلام، وذلك قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾^(١)، وعقبه بقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾^(٢) وإذا لم تأت بهم بتأخير قالوا لولا اجتبتهم^(٣)، فما بين ذلك بأن يكون من تأديبه نبيه ﷺ في عشرتهم به أشبه وأولى من الاعتراض بأخذ الصدقة من المسلمين.

فإن قال قائل: أفمنسوخ ذلك؟

قيل: لا دلالة عندنا على أنه منسوخ؛ إذ كان جائزاً أن يكون - وإن كان الله أنزله على نبيه ﷺ في تعريفه عشرة من لم يؤمر بقتاله من المشركين - مراداً به تأديب نبي الله والمسلمين جميعاً في عشرة الناس وأمرهم بأخذ عفو أخلاقهم، فيكون وإن كان من أجلهم نزل تعليمًا من الله خلقه صفة عشرة بعضهم بعضاً، إذا لم يجب استعمال الغلظة والشدة في بعضهم، فإذا وجب استعمال ذلك فيهم استعمال الواجب، فيكون قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أمراً بأخذه ما لم يجب غير العفو، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة لما قد بينا ذلك في نظائره في غير موضع من كتبنا.

وأما قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله . . .

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف، وهو المعروف في كلام العرب مصدر في معنى (المعروف)؛ يقال: أوليته

(١) الأعراف: الآية (١٩٥).

(٢) الأعراف: الآيتان (٢٠٢ و ٢٠٣).

عرفًا وعارفًا وعارفة، كل ذلك بمعنى (المعروف).

فإذ كان معنى (العرف) ذلك، فمن (المعروف) صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم، وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه فهو من (العرف)، ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى، فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض.

وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فإنه أمر من الله تعالى نبيه ﷺ أن يعرض عمن جهل، وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيه، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب^(١).

قال أبو بكر بن العربي منقحًا ما قيل في مفردات هذه الآية من الأقوال، قال: «أما العفو فإنه عام في متناولاته، ويصح أن يُراد به: خُذْ ما خفت وسهل مما تعطى، فقد كان رسول الله ﷺ يقبل من الصدقة التمرة والقبضة والحبة والدرهم والسَّمَل، ولا يلمز شيئًا من ذلك ولا يعيبه، ولقد كان يُسقط من الحقوق ما يقبل الإسقاط حتى قالت عائشة في الصحيح: «ما انتقم رسول الله لنفسه قط»^(٢).

وأما الاحتمال فقد كان يصبر على الأذى، ويحتمل الجفاء، حتى قال ﷺ: «يرحم الله موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(٣).

وأما مخالفة الناس فهو كان أقدر الخلق عليها وأولاهم بها؛ فإنه كان يلقي كل أحد بما يليق به من شيخ وعجوز، وصغير وكبير، وبدوي وحضري، وعالم وجاهل، ولقد كانت المرأة توقفه في السكة من سكك المدينة، ولقد كان يقول لأخ لأنس صغير: «يا أبا عمير! ما فعل النُّفِير؟»^(٤).

ولقد كان يكلم الناس بلغاتهم..

(١) جامع البيان (٩/١٥٣-١٥٦).

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري (١٠/٦٤٣/٦١٢٦)، ومسلم (٤/١٨١٣/٢٣٢٧)، وأبو داود (٥/١٤٢/٤٧٨٥).

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أحمد (١/٣٨٠)، والبخاري (٦/٥٣٩/٣٤٠٥)، ومسلم (٢/١٠٦٢/٧٣٩).

(٤) أخرجه: البخاري (١٠/٧١٢/٦٢٠٣)، ومسلم (٤/١٨٠٥/٢٣١٠).

أما العرف فالمراد به ههنا المعروف من الدين المعلوم؛ من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، المتفق عليه في كل شريعة التي أمهاتها وأصولها الثلاث التي يقال: إن جبريل نزل بها: أن تصل من قطعك، فلا شيء أفضل من صلة القاطع؛ فإنه يدل على كرم النفس، وشرف الحلم، وخلق الصبر الذي هو مفتاح خيري الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»^(١). وقال: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح»^(٢).

والذي يبين ذلك الحديث الصحيح الذي خرجه الأئمة^(٣) واللفظ للبخاري: قال علي بن أبي طالب: «بعث النبي ﷺ سرية استعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا لي ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهتموا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار. فما زالوا حتى خمدت النار، وسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها؛ إنما الطاعة في المعروف»، يريد الذي يجوز في الدين موقعه ويثبت فيه حكمه..

وأما الإعراض عن الجاهلين فإنه مخصوص في الكفار الذين أمر بقتالهم، عام في كل الذي يبقى بعدهم. وقد قال سبحانه: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٤).

وقالت أسماء: إن أُمِّي قدمت عليّ راغبة وهي مشركة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(٥)^(٦).

(١) أخرجه: أحمد (١٦٣/٢)، والبخاري (٥١٨/١٠/٥٩٩١)، وأبو داود (٣٢٣/٢/١٦٩٧)، والترمذي (٤/١٩٠٨/٢٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠٢/٣) والطبراني (٣١٢٦/٢٢٦/٣) وقال الهيثمي في المجمع (١١٦/٣): «رواه أحمد والطبراني في الكبير وإسناده حسن».

(٣) أخرجه: أحمد (١٢٤/١)، ومسلم (١٤٦٩/٣/١٨٤٠ [٤٠])، والنسائي في الكبرى (٥/٢٢١/٨٧٢١) - (٨٧٢٢). (٤) الممتحنة: الآية (٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٣٤٤/٦)، والبخاري (٥٠٦/١٠/٥٩٧٨)، ومسلم (٢/٦٩٦/١٠٠٣)، وأبو داود (٢/٤٦٦٨/٣٠٨-٣٠٧). (٦) أحكام القرآن (٢/٨٢٤-٨٢٥).

قال القرطبي: «وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحُضْ على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتزهد عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة.

قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم. قال جابر بن سليم أبو جري: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة، فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه بُرد من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله! فقال: وعليك السلام، فقلت: إنا معشر أهل البادية قوم فينا الجفاء، فعلمني كلمات ينفعني الله بها. قال: ادنُ - ثلاثاً - فدنوت، فقال: أعد عليّ، فأعدت عليه، فقال: اتق الله، ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلقى أخاك بوجه مبسط، وأن تُفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك، فلا تسبه بما تعلم فيه؛ فإن الله جاعل لك أجراً وعليه وزراً، ولا تسبّ شيئاً مما خولك الله تعالى، قال أبو جري: فوالذي نفسي بيده ما سببت بعده شاة ولا بعيراً^(١) أخرجه أبو بكر البزار في مسنده بمعناه. وروى أبو سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»^(٢). وقال ابن الزبير: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس. وروى البخاري من حديث هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس..

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ

(١) أخرجه: أحمد (٦٥/٥)، وأبو داود (٤٠٤٨/٣٤٤-٣٤٥/٤). وأخرجه: الترمذي (٢٧٢٢/٦٨/٥)،

والنسائي في الكبرى (١٠١٤٩/٨٧/٦) دون ذكر موطن الشاهد، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أبو يعلى (٦٥٥٠/٤٢٨/١١)، والبزار (كشف الأستار ٤٠٨-٤٠٩/١٩٧٧-١٩٧٩)، وأبو نعيم

في الحلية (٢٥/١٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٢/٨) وقال: «فيه عبدالله بن سعيد المقبري، وهو

ضعيف»، وقال المنذري: «رواه أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن جيد»، ورمز الشيخ الألباني بأنه

حسن لغيره (انظر صحيح الترغيب ١٣/٣، ح: ٢٦٦١).

الأخلاق»^(١). وقال الشاعر:

كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الثناء فإنه لك باقي
ولو أنني خيّرْتُ كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق»^(٢).

وقال الحافظ: «ووجهه (أي: قول جعفر الصادق بأنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها) بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوى الإنسانية: عقلية، وشهوية، وغضبية؛ فالعقلية: الحكمة ومنها الأمر بالمعروف، والشهوية: العفة ومنها أخذ العفو، والغضبية: الشجاعة ومنها الإعراض عن الجاهلين»^(٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «لا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال: أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم. الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة. الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعارض له معارض.

وعليه في كل واحد من هذه واجب، فواجبه في أمرهم ونهيهم أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضده. وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطوعت له به أنفسهم سماحة واختياراً، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم. وواجبه عند جهل الجاهلين عليه الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه؛ فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: «أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»، وقال مجاهد: «يعني: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخصيص، مثل قبول الأعذار، والعفو، والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم، وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾^(٤)، ثم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، وهو كل

(١) أخرجه: أحمد (٣٨١/٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٨٨/٨) وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح»، والحاكم (٦٧٠/٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والبيهقي (١٩٢/١٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٤٤-٣٤٦/٧).

(٤) البقرة: الآية (٢١٩).

(٣) فتح الباري (٣٨٩/٨).

معروف، وأعرفه التوحيد، ثم حقوق العبودية، وحقوق العبيد، ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١)، وعلى هذا فليست بمنسوخة؛ بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «قال بعض العلماء: الناس رجلان؛ فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يخرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾^(٣) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ^(٤) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ^(٥)»، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٦) وَمَا يُلْقْنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقْنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^(٧)؛ أي: هذه الوصية، ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٨)، وقال في هذه السورة الكريمة أيضا: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٩)، فهذه الآيات الثلاث في (الأعراف) و(المؤمنون) و(حم السجدة) لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان أن هذه الآية محكمة غير منسوخة بآية السيف

عن عبد الله بن الزبير ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: «ما

(١) الفرقان: الآية (٦٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٣) المؤمنون: الآيات (٩٦-٩٨).

(٤) فصلت: الآيتان (٣٤ و ٣٥).

(٥) فصلت: الآية (٣٦).

(٦) الأعراف: الآية (٢٠٠).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٢-٥٣٣).

أنزل الله إلا في أخلاق الناس»^(١).

* عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: «أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»^(٢).

★ من فوائد الأثرين:

قال الحافظ رحمه الله: «إلى ما ذهب إليه ابن الزبير من تفسير الآية ذهب مجاهد وخالف في ذلك ابن عباس فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم؛ أي: ما فضل، وكان ذلك قبل فرض الزكاة، وبذلك قال السدي وزاد: نسختها آية الزكاة، وبنحوه قال الضحاك وعطاء وأبو عبيدة. ورجح ابن جرير الأول، واحتج له»^(٣).

* عن ابن عباس قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً - فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي! لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا بن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وإنّ هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله»^(٤).

(١) أخرجه: البخاري (٨/٣٨٨/٤٦٤٣)، وأبو داود (٥/١٤٣/٤٧٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٨/١١١٩٥).

(٢) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٢/١٢٥/١٢٣٨)، والحاكم (١/١٢٤) واللفظ له، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، وقد احتج بالطفاوي، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/٢٥) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

(٣) فتح الباري (٨/٣٨٩).

(٤) أخرجه البخاري (٨/٣٨٨/٤٦٤).

★ غريب الأثر:

القراء: العلماء العباد.

هي يا بن الخطاب: بمعنى التهديد له.

ما تعطينا الجزل: بفتح الجيم وسكون الزاي بعدها لام؛ أي: الكثير، وأصل

الجزل: ما عظم من الحطب.

★ فوائد الأثر:

قال ابن حجر رحمته الله: «ومعنى «ما جاوزها» ما عمل بغير ما دلت عليه، بل عمل بمقتضاها، ولذلك قال: «وكان وقافاً عند كتاب الله» أي: يعمل بما فيه ولا يتجاوزه، وفي هذا تقوية لما ذهب إليه الأكثر أن هذه الآية محكمة»^(١).

قال القرطبي: «فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية، واستدلال الحربها؛ يدل على أنها محكمة لا منسوخة. وكذلك استعمالها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ما يأتي بيانه. وإذا كان الجفاء على السلطان تعمدًا واستخفافًا بحقه، فله تعزيره، وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصفح والعفو كما فعل الخليفة العدل»^(٢).

قال ابن القيم: «فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم؛ فإن العفو ما عفى من أخلاقهم، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم»^(٣).

(١) فتح الباري (٣٢٣/٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٤٧/٧).

(٣) الرسالة التبوكية (ص: ٢٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾

★ غريب الآية:

وإما ينزغَنَّكَ: أي: يصيبَنَّكَ، ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحلّ. والنزغ: الوسوسة. ويقال: نزغ به: استخفّ به. ونزغ بينهما: إذا أفسد. وقيل: النزغ: الإغراء والتسليط. فاستعذ بالله: أي: اطلب النجاة من ذلك بالله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: وإما يغضبَنَّكَ من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن الله الذي تستعيز به من نزغ الشيطان، ﴿سَمِيعٌ﴾ لجهل الجاهل عليك، ولا استعاذتك به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه»^(١).

قال الشنقيطي: «بيّن في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجهلة من شياطين الإنس والجن، فبيّن أن شيطان الإنس يعامل باللين وأخذ العفو، والإعراض عن جهله وإساءته، وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة بالله منه، قال في الأول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، وقال في الثاني: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وبيّن أن هذا الذي ذكرنا في موضعين آخرين، أحدهما في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ

(١) جامع البيان (٩/١٥٦).

أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ فَتَحْنُ أَتْلُمُ بِمَا يَصِفُونَ»^(١)، وقال في الآخر: ﴿وَقُلْ رَبِّ اعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾^(٢) وَاَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ»^(٣)، والثاني في (حم السجدة)، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٤) وزاد هنا أن ذلك لا يعطاه كل الناس، بل لا يعطيه الله إلا لذي الحظ الكبير والبخت العظيم عنده، فقال: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٥)، ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَمَا يَزْغَنَّاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٦)،^(٧).

وقال الرازي: «هذا الخطاب وإن خص الله به الرسول، إلا أنه تأديب عام لجميع المكلفين؛ لأن الاستعاذة بالله - على السبيل الذي ذكرناه - لطف مانع من تأثير وساوس الشيطان، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٩)، وإذا ثبت بالنص أن لهذه الاستعاذة أثراً في دفع نزغ الشيطان، وجبت المواظبة عليه في أكثر الأحوال»^(١٠).

وقال الرازي أيضاً: «الاستعاذة بالله عند هذه الحالة أن يتذكر المرء عظيم نعم الله عليه، وشديد عقابه فيدعوه كل واحد من هذين الأمرين إلى الإعراض عن مقتضى الطبع، والإقبال على أمر الشرع»^(١١).

قلت: بل ينبغي أن يكون مصاحباً لما ذكر أن يستعيز بالله لفظاً كما صح عن النبي ﷺ في الغاضب، ولا شك أن الغضب من نزغ الشيطان، فقال له - وقد احمر وجهه، وانتفخت أوداجه من الغضب - : «إني لأعلم كلمة لو قالها هذا لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١٢).

(١) المؤمنون: الآية (٩٦).

(٢) المؤمنون: الآيتان (٩٧ و٩٨).

(٣) فصلت: الآية (٣٤).

(٤) فصلت: الآية (٣٥).

(٥) فصلت: الآية (٣٦).

(٦) أضواء البيان (٤٧/٢).

(٧) النحل: الآيتان (٩٨ و٩٩).

(٨) مفاتيح الغيب (١٥/١٠٣).

(٩) مفاتيح الغيب (١٥/١٠٢).

(١٠) أخرجه: أحمد (٣٩٤/٦)، والبخاري (٤١٥/٦)، ومسلم (٢٠١٥/٤)، وأبو داود (٥/١٤٠).

(١١) والنسائي في الكبرى (١٠٤/٦) من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.

قال الرازي: «قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك، فإني عليم بما في ضميرك، وفي الحقيقة القول اللساني بدون حضور القلب عديم الفائدة والأثر»^(١).

قال محمد رشيد رضا: «وملخص ما يجب اعتقاده أنه ثبت في وحي الله تعالى إلى رسله أن في عالم الغيب خلقاً خفياً اسمه الشيطان، لا تدركه حواسنا، له أثر في أنفسنا، فهو يتصل بها، ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي وسواساً ونزغاً ومساً، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره..»

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على السنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا، الضار بأرواحنا كضرر نسمة الأمراض بأجسادنا: أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنها، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج، وخروج الصحة من الاعتدال، فنبادر إلى علاجه. فمتى فطنا بميل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل؛ عالجناه بما وصفه الله تعالى لنا من العلاج في هذه الآية، وهو قوله ﷻ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فارجأ إلى الله، وتوجه إليه؛ ليعيدك من شر هذا النزغ، فلا يحملنك على ما يزعجك إليه من الشر، الجأ إلى الله بقلبك، وعبر عن ذلك بلسانك، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تتوجه إليه، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر. ومن المجرب أن الالتجاء إلى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان؛ يصرف عن القلب وسوسة الشيطان»^(٢).

قال ابن عطية: «وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله: إن الاستعاذة عند القراءة: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»^(٣).

وقد تقدم الكلام على الاستعاذة وما يتعلق بها في تفسير سورة (الفاتحة).

(١) مفاتيح الغيب (١٥/١٠٣) بتصرف.

(٢) تفسير المنار (٩/٥٤٠-٥٤١).

(٣) المحرر الوجيز (٢/٤٩١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستعاذة من الشيطان

* عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم ونفخه وهمزه ونفثه، قال: وهمزه الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبرياء»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليتته»^(٢).

* عن عبد الله قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان»^(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان»^(٤).

★ فوائد الأحاديث:

أورد القرطبي هذه الأحاديث في تفسيره، وأشار إلى أنها نظيرة هذه الآية في بيان أن ما يصيب الإنسان ويعرض له من الوسوسة بما لا يحل، أن ذلك من الشيطان، ثم قال معلقاً على هذه الأحاديث: «والصريح: الخالص، وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان؛ لأن الإيمان اليقين، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم، فكانه قال: جزعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه؛ لصحة إيمانكم

(١) أخرجه: أحمد (٤٠٤/١)، وابن ماجه (٨٠٨/٢٦٦/١)، وصححه ابن خزيمة (٤٧٢/٢٤٠/١) واللفظ له، والحاكم (٢٠٧/١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، وقد استشهد البخاري بعباء بن السائب» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٣٣١/٢)، والبخاري (٤١٣-٤١٤/٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤/١١٩/١)، وأبو داود (٥/٢٧٢١/٩٢-٩١).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٣/١١٩/١).

(٤) أخرجه: أحمد (٤٥٦/٢)، ومسلم (١٣٢/١١٩/١)، وأبو داود (٥١١١/٣٣٦/٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٠٠/١٧٠/٦).

وعلمكم بفسادها ، فسمى الوسوسة إيماناً لما كان دفعها والإعراض عنها والرد لها وعدم قبولها والجزع منها صادراً عن الإيمان . وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوسوس من آثار الشيطان . وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها ، والالتفات نحوها ، فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به ، وأما من خالجه الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بد من مشافهته بالدليل العقلي ؛ كما قال ﷺ للذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي ﷺ : « لا عدوى » ، فقال أعرابي : فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء ، فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها ؟ فقال ﷺ : « فمن أعدى الأول ؟ »^(١) ، فاستأصل الشبهة من أصلها ، فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد ﷺ بالإغراء والإضلال ، أخذ يشوش عليهم أوقاتهم بتلك الألقيات والوسوس النزهات ، فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاءوا - كما في الصحيح - فقالوا : يا رسول الله ! إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : أو قد وجدتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : « ذلك صريح الإيمان » ؛ رغماً للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾^(٢) ، فالخواطر التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهي التي تدفع بالإعراض عنها وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة ، والله أعلم^(٣) .

قال السعدي معلقاً على حديث أبي هريرة : « احتوى هذا الحديث على أنه لا بد أن يلقي الشيطان هذا الإيراد الباطل : إما وسوسة محضة ، أو على لسان شياطين الإنس وملائحتهم . وقد وقع كما أخبر ، فإن الأمرين وقعا ، ولا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السؤال الباطل ، ولا يزال أهل الإلحاد يلقون هذه الشبهة التي هي أبطل الشبه ، ويتكلمون عن العلل وعن مواد العالم بكلام سخيف معروف .

وقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث العظيم إلى دفع هذا السؤال بأمور ثلاثة :

(١) أخرجه : أحمد (٢٦٧/٢) ، والبخاري (١٠/٢٩٥/٥٧٧٠) ، ومسلم (٤/١٧٤٢/٢٢٢٠) ، وأبو داود (٤/

٣٩١١/٢٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) الحجر : الآية (٤٢) .

(٣) جامع أحكام القرآن (٧/٣٤٨-٣٤٩) .

بالانتهاء، والتعوذ من الشيطان، وبالإيمان.

أما الانتهاء - وهو الأمر الأول - : فإن الله تعالى جعل للأفكار والعقول حدًا تنتهي إليه، ولا تتجاوزه. ويستحيل لو حاولت مجاوزته أن تستطيع؛ لأنه محال، ومحاولة المحال من الباطل والسفه، ومن أمحل المحال التسلسل في المؤثرين والفاعلين؛ فإن المخلوقات لها ابتداء، ولها انتهاء، وقد تتسلسل في كثير من أمورها حتى تنتهي إلى الله الذي أوجدها وأوجد ما فيها من الصفات والمواد والعناصر؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَىٰ﴾^(١)، فإذا وصلت العقول إلى الله تعالى وقفت وانتهت، فإنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. فأوليته تعالى لا مبتدأ لها مهما فرضت الأزمان والأحوال، وهو الذي أوجد الأزمان والأحوال والعقول التي هي بعض قوى الإنسان. فكيف يحاول العقل أن يتشبث في إيراد هذا السؤال الباطل؟! فالفرض عليه المحتم في هذه الحال: الوقوف والانتهاء.

الأمر الثاني: التعوذ بالله من الشيطان؛ فإن هذا من وساوسه وإلقائه في القلوب؛ ليشكك الناس في الإيمان بربهم. فعلى العبد - إذا وجد ذلك - أن يستعيذ بالله منه، فمن تعوذ بالله بصدق وقوة أعاده الله وطرد عنه الشيطان، واضمحلت وساوسه الباطلة.

الأمر الثالث: أن يدفعه بما يضاده من الإيمان بالله ورسله، فإن الله ورسله أخبروا بأنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه تعالى المتفرد بالوحدانية، وبالخلق والإيجاد للموجودات السابقة واللاحقة.

فهذا الإيمان الصحيح الصادق اليقيني يدفع جميع ما يضاده من الشبه المنافية له؛ فإن الحق يدفع الباطل، والشكوك لا تعارض اليقين.

فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ تبطل هذه الشبه التي لا تزال على السنة الملاحدة، يلقونها بعبارات متنوعة. فأمر بالانتهاء الذي يبطل التسلسل الباطل، وبالتعوذ من الشيطان الذي هو الملقى لهذه الشبه، وبالإيمان الصحيح الذي يدفع

(١) النجم: الآية (٤٢).

كل ما يضاده من الباطل ، والحمد لله . فبالانتهااء : قطع الشر مباشرة ، وبالاستعاذة : قطع السبب الداعي إلى الشر ، وبالإيمان : اللجأ والاعتصام بالاعتقاد الصحيح اليقيني الذي يدفع كل معارض .

وهذه الأمور الثلاثة هي جماع الأسباب الدافعة لكل شبهة تعارض الإيمان . فينبغي العناية بها في كل ما عرض للإيمان من شبهة واشتباه يدفعه العبد مباشرة بالبراهين الدالة على إبطاله ، وبإثبات ضده ، وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال ، وبالتعوذ بالله من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب فتن الشبهات ، وفتن الشهوات ، ليزلزل إيمانهم ، ويواقعهم بأنواع المعاصي . فبالصبر واليقين ينال العبد السلامة من فتن الشهوات ، ومن فتن الشبهات . والله هو الموفق الحافظ»^(١) .

* * *

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص : ٢٢-٢٤) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

★ غريب الآية:

مَسَّهُمْ: أي ألم بهم وأصابهم.

طائِف: أي: شيء من وسوسة الشيطان. والطائِف في الأصل: اسم فاعل من طاف يطوفُ حول الشيء: إذا دار من جميع جوانبه وأحاط به، ثم استعير للطائِف من الجن والخيال والحوادث تخيلاً أن كلاً من هذه الأشياء قد طاف بالإنسان من جميع جهاته، وأحاط به إحاطة من يطوف به. فالتائِف: من يدور حول الشيء يريد اقتناصه وأخذه.

مبصرون: أي: منتهون. وقيل: على بصيرة.

يمدّونهم في الغي: أي: في الجهل.

ثم لا يقصرون: أي: لا يتوبون ولا يرجعون.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القاسمي: «هذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى عن نزع الشيطان، وأن المتقين هذه عادتهم»^(١).

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر الله تعالى عن المتقين من عباده، الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم طيف، وقرأ آخرون: طائف، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، ف قيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان

(١) محاسن التأويل (٣٢٧/٨).

بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعدته ووعيدته، فثابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه^(١).

وقال السعدي: «لما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً، ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب - بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أتى، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين، وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي، ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم، حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة أن إخوان الشياطين يمدون الإنس في الغي، ثم لا يقصرون، وبين ذلك أيضاً في مواضع آخر، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزْأًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿يَنْمَشِرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْرَثُوا مِنَ الْإِنْسِ﴾^(٤)، وبين في موضع آخر أن بعض الإنس إخوان للشياطين، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾^(٥)»^(٦).

قال أبو حيان: «النزغ من الشيطان أخف من مس الطائف من الشيطان؛ لأن النزغ أدنى حركة، والمس الإصابة، والطائف ما يطوف ويدور عليه، فهو أبلغ لا

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٣٥-١٣٦).

(٣) مريم: الآية (٨٣).

(٤) الأنعام: الآية (١٢٨).

(٥) الإسراء: الآية (٢٧).

(٦) أضواء البيان (٢/ ٤٧).

محالة، فحال المتقين تزيد في ذلك على حال الرسول، وانظر لحسن هذا البيان، حيث جاء الكلام للرسول كان الشرط بلفظ إن المحتملة للوقوع ولعدمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيء بـ(إذا) الموضوع للتحقيق أو للترجيح، وعلى هذا فالنزغ يمكن أن يقع ويمكن أن لا يقع، والمس واقع لا محالة، أو يرجح وقوعه، وهو إلصاق البشرية، وهو هنا استعارة، وفي تلك الجملة أمر هو ﷺ بالاستعاذة، وهنا جاءت الجملة خبرية في ضمنها الشرط، وجاء الخبر ﴿تَذَكَّرُوا﴾، فدل على تمكن مس الطائف حتى حصل نسيان فتذكروا ما نسوه، والمعنى: تذكروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبنفس التذكر حصل إبصارهم، فاجأهم إبصار الحق والسداد، فاتبعوه وطرّدوا عنهم مس الشيطان الطائف^(١).

واختلف العلماء في طيف الشيطان هذا ما هو؟ قال ابن جرير: «فقال بعضهم: ذلك الطائف هو الغضب.. وقال آخرون: هو اللمة والزلة من الشيطان.. وهذان التأويلان متقاربا المعنى؛ لأن الغضب من استزلال الشيطان، واللمة من الخطيئة أيضا منه، وكان ذلك من طائف الشيطان، وإذا كان ذلك كذلك، فلا وجه لخصوص معنى منه دون معنى، بل الصواب أنه يعم كما عمه -جل ثناؤه-، فيقال: إن الذين اتقوا إذا عرض لهم عارض من أسباب الشيطان ما كان ذلك العارض، تذكروا أمر الله، وانتهوا إلى أمره.

وأما قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فإنه يعني: فإذا هم مبصرون هدى الله وبيانه وطاعته فيه، فمنتهون عما دعاهم إليه طائف الشيطان^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «والمعنى مع سابقه: أن شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم، وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد؛ ﴿تَذَكَّرُوا﴾ فأبصروا، فحذروا وسلموا، وإن زلوا تابوا وأنابوا. وأن إخوان الشياطين -وهم الجاهلون غير المتقين- يتمكن الشياطين من أهوائهم، فيمدونهم في غيهم وفسادهم؛ لأنهم لا يذكرون الله تعالى إذا شعروا في أنفسهم بالنزوع إلى الشر والباطل والفساد في الأرض، ولا يستعيذون به سبحانه من

(١) البحر المحيط (٤/٤٤٥).

(٢) جامع البيان (٩/١٥٨-١٥٩).

نزع الشيطان ومسه، فيبصروا ويتقوا؛ إما لأنهم لا يؤمنون بالله، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطاناً من الجن يوسوس إليه، ويغريه بالشر. ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم، فلذلك يصرون على الشرور والفساد؛ لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي.

وفي هذا التفسير عود الضمير إلى الشيطان بالجمع؛ لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم، وهو استعمال عربي معروف، ومنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْطَّاغُوتُ﴾^(١).

وقيل: إن الضمير يعود على الجاهلين؛ أي: وإخوان أولئك الجاهلين من الإنس - وهم شياطينهم - يمدونهم في غيهم وفسادهم، فيكونون أعواناً لشياطين الجن في ذلك»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الصرع مس من طيف الشيطان

* عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك، فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها»^(٣).

★ غريب الحديث:

أتكشف: بمثناة وتشديد المعجمة من التكشف، وبالنون الساكنة مخففاً من الانكشاف، والمراد أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع

(١) البقرة: الآية (٢٥٧).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٥٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٦-٣٤٧)، والبخاري (١٠/ ١٤١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤/ ٢٥٧٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٣/ ٧٤٩٠).

من الأخلاط الرديئة، والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه، وأما صرع الأرواح فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولا يدفعونه، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية، لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة، فتدافع آثارها وتعارض أفعالها وتبطلها، وقد نص على ذلك بقراط في بعض كتبه، فذكر بعض علاج الصرع، وقال: هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة، وأما الصرع الذي يكون من الأرواح فلا ينفع فيه هذا العلاج، وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ومن يعتقد بالزندقة فضيلة، فأولئك ينكرون صرع الأرواح، ولا يقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهل، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك، والحس والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها، وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع المرض الإلهي، وقالوا: إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيره فتأولوا عليهم هذه التسمية، وقالوا: إنما سموه بالمرض الإلهي لكون هذه العلة تحدث في الرأس، فتضر بالجزء الإلهي الطاهر الذي مسكنه الدماغ، وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها وتأثيراتها، وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده، ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها، يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم.

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحًا في نفسه جيدًا، وأن يكون الساعد قويًا، فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل، فكيف إذا عدم الأمران جميعًا، يكون القلب خرابًا من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه، ولا سلاح له، والثاني من جهة المعالج، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضًا، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: أخرج منه أو بقول بسم الله...

وبالجملة فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم،

وخراب قلوبهم وألستهم من حقائق الذكر والتعاويد والتحصينات النبوية والإيمانية ، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه ، وربما كان عرياناً فيؤثر فيه هذا ، ولو كشف الغطاء لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة ، وهي في أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت ، ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها ، وبها الصرع الأعظم الذي لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاناة ، فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة ، وبالله المستعان .

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل ، وأن تكون الجنة والنار نصب عينيه ، وقبله قلبه ، ويستحضر أهل الدنيا وحلول المثالات والآفات بهم ، ووقوعها خلال ديارهم كمواقع القطر ، وهم صرعى لا يفيقون ، وما أشد داء هذا الصرع ، ولكن لما عمت البلية به ، بحيث لا يرى إلا مصروعاً ، لم يصبر مستغرباً ولا مستنكراً ، بل صار لكثرة المصروعين عين المستنكر المستغرب خلافه ، فإذا أراد الله بعبد خيراً أفاق من هذه الصرعة ، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالاً على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من أطبق به الجنون ، ومنهم من يفيق أحياناً قليلة ويعود إلى جنونه ، ومنهم من يفيق مرة ويجن أخرى ، فإذا أفاق عمل أهل الإفاقة والعقل ، ثم يعاوده الصرع فيقع في التخبط

وأما صرع الأخلاط فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعاً غير تام ، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة ، فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفي الأعضاء نفوذاً تاماً من غير انقطاع بالكلية ، وقد تكون لأسباب أخرى كريح غليظ يحتبس في منافذ الروح ، أو بخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء ، أو كيفية لاذعة ، فينقبض الدماغ لدفع المؤذي ، فيتبعه تشنج في جميع الأعضاء ، ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصباً ، بل يسقط ويظهر في فيه الزبد غالباً

إذا عرف هذا ، فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها كانت تصرع وتتكشف ، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع ، فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض ، ودعا لها أن لا تتكشف ، وخيرها بين الصبر والجنة وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان ، فاختارت الصبر والجنة ، وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة

والتداوي، وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء، وأن تأثيره وفعله وتأثر الطبيعة عنه وانفعالاتها أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها، وقد جربنا هذا مراراً نحن وغيرنا، وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية وانفعالاتها في شفاء الأمراض عجائب، وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم وسفلتهم وجهالهم، والظاهر أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع، ويجوز أن يكون من جهة الأرواح، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء، فاختارت الصبر والستر، والله أعلم^(١).

قال ابن بطال: «فيه فضل الصرع، وفيه أن اختيار البلاء والصبر عليه يورث الجنة، وإن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة، لمن علم من نفسه أنه يطيق التماسك على الشدة ولا يضعف عن التزامها»^(٢).

قال الأبي -نقلاً عن القاضي-: «فيه أن الأجر في الأمراض والمصائب إنما يكون لمن صبر، وفيه أن الصرع يثاب عليه أكثر الثواب. قلت: ودعاؤه لها بأن لا تنكشف لا ينافي صبرها، ولها الجنة»^(٣).

(١) زاد المعاد (٤/٦٦-٧١).

(٢) شرح البخاري (٩/٣٧٦).

(٣) شرح الأبي (٨/٥٣١).

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِثَآئِرٍ قَالُوا لَوْلَا آجَتِبَيْتَهَا﴾^(١)

★ غريب الآية:

اجتبيتها : أي : اختلقتها من نفسك ؛ يقال : اجتبيت الكلام ؛ أي : ارتجلته واختلقته واخترعته : إذا جئت به من عند نفسك .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : وإذا لم تأت - يا محمد - هؤلاء المشركين بآية من الله ، ﴿قَالُوا لَوْلَا آجَتِبَيْتَهَا﴾ يقول : قالوا : هلا اخترتها واصطفيتها ، من قول الله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِيبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) يعني : يختار ويصطفي . . .

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معناه : هلا افتعلتها من قبل نفسك واختلقتها ؟ بمعنى : هلا اجتبيتها اختلاقاً ، كما تقول العرب : لقد اختار فلان هذا الأمر وتخيره اختلاقاً . . .

وقال آخرون : معنى ذلك : هلا أخذتها من ربك ، وتقبلتها منه . . .

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من قال : تأويله : هلا أحدثتها من نفسك ! لدلالة قول الله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ، يبين ذلك أن الله إنما أمر نبيه ﷺ بأن يجيبهم بالخبر عن نفسه أنه إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحيه إليه ، لا أنه يحدث من قبل نفسه قولاً ، وينشئه فيدعو الناس إليه .

وحكي عن الفراء أنه كان يقول : اجتبيت الكلام ، واختلقته ، وارجلته : إذا افتعلته من قبل نفسك^(٣) .

(١) الأعراف : الآية (٢٠٣) .

(٢) آل عمران : الآية (١٧٩) .

(٣) جامع البيان (٩/ ١٦٠-١٦١) .

قال عبد القادر شعبة الحمد: «وقوله ﷺ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا
 اجْتَبَيْنَاهَا﴾ بيان لتعنت المشركين من قريش وسفاهتهم حيث كانوا يقترحون على
 رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات... كما قال ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا
 مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١
 أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ
 مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفُيقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
 كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١)، وكما قال ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ
 إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ
 عَلَيْهِمْ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)،^(٣).

* * *

(١) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٣).

(٢) العنكبوت: الآيتان (٥٠ و ٥١).

(٣) تهذيب التفسير (٥/ ٣٥٤-٣٥٥).

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠٣)

★ غريب الآية:

بصائر: أي: حجج واضحة وبراهين بينة تبصرون بها وتعتبرون. واحداثها: بصيرة، وأصلها من الظهور.
 هدى: أي: رُشد وبيان.
 ورحمة: أي: ونعمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: قل - يا محمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: هلاً أحدثتها من قبل نفسك! - : إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله؛ لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحى إلي من عنده، وإنما أتبع ما يوحى إلي من ربي؛ لأنني عبده، وإلى أمره أنتهى، وإياه أطيع، ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يقول: هذا القرآن والوحي الذي أتלוه عليكم ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يقول: حجج عليكم، وبيان لكم من ربكم، واحداثها: بصيرة، كما قال - جل ثناؤه - : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾^(١).

وإنما ذكر ﴿ هَذَا ﴾ ووحد في قوله: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ لما وصفت من أنه مراد به القرآن والوحي.

وقوله: ﴿ وَهُدًى ﴾ يقول: وبيان يهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم، ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ رحم الله به عباده المؤمنين، فأنقذهم به من الضلالة والهلكة، ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول: هو بصائر من الله وهدى ورحمة لمن آمن، يقول: لمن صدق

(١) الجاثية: الآية (٢٠).

بالقرآن أنه تنزيل الله ووحيه، وعمل بما فيه دون من كذب به وجحدته، وكفر به بل هو على الذين لا يؤمنون به غم وخزي»^(١).

وقال الرازي: «معناه: ليس لي أن أقترح على ربي في أمر من الأمور، وإنما أنتظر الوحي، فكل شيء أكرمني به قلته، وإلا فالواجب السكوت وترك الاقتراح، ثم بين أن عدم الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحها لا يقدر في الغرض؛ لأن ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة باهرة، فإذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة، فكان طلب الزيادة من باب التعنت، فذكر في وصف القرآن ألفاظاً ثلاثة: أولها: قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أصل البصيرة: الإبصار، ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد؛ أطلق عليه لفظ البصيرة؛ تسميةً للسبب باسم المسبب. وثانيها: قوله: ﴿وَهْدَى﴾. والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها أن الناس في معارف التوحيد والنبوة والمعاد قسمان:

أحدهما: الذين بلغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهدين لها، وهم أصحاب عين اليقين.

والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد، إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين، وهم أصحاب علم اليقين.

فالقرآن في حق الأولين - وهم السابقون - بصائر، وفي حق القسم الثاني - وهم المقتصدون - هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة. ولما كانت الفرق الثلاث من المؤمنين؛ لا جرم قال: ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

(١) جامع البيان (٩/١٦٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾

★ غريب الآية:

وأنصتوا: الإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة؛ يقال: أنصت للحديث وانتصت: إذا استمع له وسكت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات. والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر، بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع. فإن من لزم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدىً متزايداً، وبصيرة في دينه. ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له ولم ينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»^(١).

قال القرطبي: «قال النقاش: أجمع أهل التفسير على أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة»^(٢).

قال الشوكاني: «قيل: هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفأك أن اللفظ أوسع من هذا، والعام لا يقصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل حالة، وعلى أي صفة مما يجب على السامع، وقيل: هذا خاص بقراءة رسول الله ﷺ للقرآن دون غيره، ولا وجه لذلك»^(٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٢٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/١٣٨).

(٣) فتح القدير (٢/٣٩٤).

قال أبو المظفر السمعاني: «وفي الآية قول ثالث: أن المراد به النهي عن الكلام في الصلاة، قاله أبو هريرة، وهذا قول حسن»^(١).

قال القاسمي: «ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها، وعليه أهل الظاهر، وهو قول الحسن البصري وأبي مسلم الأصفهاني»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «فلو كان الرجل ماراً فسمع القرآن من غير أن يستمع إليه لم يؤجر على ذلك، وإنما يؤجر على الاستماع الذي يقصد»^(٣).

قال محمد رشيد رضا: «ولا يجوز لقارئ أن يقرأ على قوم لا يستمعون له، فإن كان في المجلس كثير من الناس يستمعون وينصتون، فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب من غير تهويز على القارئ ولا على المستمعين كان الخطب في هذا هيئاً لا يقتضي ترك القراءة ولا ينافي الاستماع، ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته، وأن يتأدب في مجلس التلاوة، وملاك هذا الأدب للقارئ أن لا يكون منه ولا من غيره، ولا من حال المكان ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس منافياً للأدب...»

واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه، فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمى وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار، ومصرفوا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِبُونَ﴾^(٤)، وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه، إلا

(١) تفسير القرآن (٢/ ٢٤٤).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢١٣).

(٤) فصلت: الآية (٢٦).

بهجر تدبر القرآن، وجعله كالرقى والتعاويد، التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الأبدان، وجل فائدة الصلاة - وهي عماد الدين - بتلاوة القرآن مع التدبر والتخشع، فإذا زال منها هذا صارت عادة قليلة الفائدة»^(١).

وفي الآية قول حكاه الرازي وانتصر له؛ قال: «وهو أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ خطاب مع الكفار في ابتداء التبليغ، وليس خطاباً مع المسلمين، وهذا قول حسن مناسب. وتقريره أن الله تعالى حكى قبل هذه الآية أن أقواماً من الكفار يطلبون آيات مخصوصة ومعجزات مخصوصة، فإذا كان النبي ﷺ لا يأتيهم بها؛ قالوا: ﴿لَوْلَا أَجَبَتْنَاهَا﴾»^(٢). فأمر الله رسوله أن يقول جواباً عن كلامهم: إنه ليس لي أن أقترح على ربي، وليس لي إلا أن أنتظر الوحي. ثم بين تعالى أن النبي ﷺ إنما ترك الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها في صحة النبوة؛ لأن القرآن معجزة تامة كافية في إثبات النبوة، وعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾»^(٣). فلو قلنا: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ المراد منه قراءة المأموم خلف الإمام؛ لم يحصل بين هذه الآية وبين ما قبلها تعلق بوجه من الوجوه، وانقطع النظم، وحصل فساد الترتيب، وذلك لا يليق بكلام الله تعالى، فوجب أن يكون المراد منه شيئاً آخر سوى هذا الوجه. وتقريره أنه لما ادعى كون القرآن بصائر وهدى ورحمة، من حيث إنه معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، وكونه كذلك لا يظهر إلا بشرط مخصوص، وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن على أولئك الكفار استمعوا له وأنصتوا حتى يقفوا على فصاحته، ويحيطوا بما فيه من العلوم الكثيرة؛ فحينئذ يظهر لهم كونه معجزاً دالاً على صدق محمد ﷺ، فيستعينوا بهذا القرآن على طلب سائر المعجزات، ويظهر لهم صدق قوله في صفة القرآن: إنه بصائر وهدى ورحمة، فثبت أنا إذا حملنا الآية على هذا الوجه؛ استقام النظم، وحصل الترتيب الحسن المفيد. ولو حملنا الآية على منع

(١) المنار (٩/٥٥٣-٥٥٥).

(٢) الآية (٢٠٣).

(٣) الآية (٢٠٣).

المأموم من القراءة خلف الإمام؛ فسد النظم، واختل الترتيب. فثبت أن حمله على ما ذكرناه أولى، وإذا ثبت هذا ظهر أن قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن في معرض الاحتجاج بكونه معجزاً على صدق نبوته، وعند هذا يسقط استدلال الخصوم بهذه الآية من كل الوجوه. ومما يقوي أن حمل الآية على ما ذكرناه أولى، وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(١). فلما حكى عنهم ذلك ناسب أن يأمرهم بالاستماع والسكوت؛ حتى يمكنهم الوقوف على ما في القرآن من الوجوه الكثيرة البالغة إلى حد الإعجاز. والوجه الثاني: أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، فحكم تعالى بكون هذا القرآن رحمة للمؤمنين على سبيل القطع والجزم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ولو كان المخاطبون بقوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ هم المؤمنون؛ لما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنه جزم تعالى قبل هذه الآية بكون القرآن رحمة للمؤمنين قطعاً، فكيف يقول بعده من غير فصل: لعل استماع القرآن يكون رحمة للمؤمنين؟

أما إذا قلنا: إن المخاطبين بقوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ هم الكافرون؛ صح حينئذ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأن المعنى: فاستمعوا له وأنصتوا، فلعلكم تطلعون على ما فيه من دلائل الإعجاز، فتؤمنوا بالرسول فتصيروا مرحومين. فثبت أنا لو حملناه على ما قلنا؛ حسن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ولو قلنا: إن الخطاب خطاب مع المؤمنين؛ لم يحسن ذكر لفظ (لعل) فيه. فثبت أن حمل الآية على التأويل الذي ذكرناه أولى، وحينئذ يسقط استدلال الخصم به من كل الوجوه؛ لأننا بيّنا بالدليل أن هذا الخطاب ما يتناول المؤمنين، وإنما تناول الكفار في أول زمان تبليغ الوحي والدعوة^(٣).

(٢) الآية (٢٠٣).

(١) فصلت: الآية (٢٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/١٠٨-١١٠).

قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

★ غريب الآية:

تَضَرُّعًا : أي : تذللًا والتضرُّع : التذلل والخضوع والاستكانة .
 وخيفة : الخيفة : هي الحالة التي يكون الإنسان عليها من الخوف .
 بالغدو : الغدو : جمع غدوة ، وهي أول النهار .
 والآصال : جمع أصل ، والواحد : أصيل ، وهو العشية ، وهي ما بين العصر إلى المغرب . ويجمع أيضًا على أصل .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : «الذكر لله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ، ويكون بهما ، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله ، فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلًا ، وغيره تبعًا ، بذكر ربه في نفسه ؛ أي : مخلصًا خاليًا ، ﴿تَضَرُّعًا﴾ بلسانك ، مكررًا لأنواع الذكر ، ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفًا من الله وجل القلب منه ، خوفًا أن يكون عملك غير مقبول ، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به ، ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ؛ أي : كن متوسطًا لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلًا ، ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْآصَالِ﴾ آخره ، وهذان الوقتان فيهما مزية وفضيلة على غيرهما ، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته ، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به ، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها ، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار ، خصوصًا طرفي النهار ، مخلصًا خاشعًا متضرعًا ، متذللًا ساكنًا ، متواطئًا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار ، وإقبال على الدعاء والذكر ، وإحضار له بقلبه وعدم

غفلة؛ فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه^(١).

قال شيخ الإسلام: «قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه، قال مجاهد وابن جريج: أمروا أن يذكره في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح، وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ الآية، وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾^(٢)، فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

وخص الدعاء بالخُفْيَةِ لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخُفْيَةِ لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله، ومحبته له، فإذا حصل المقصود فلا اشتغال بالوسيلة باطل^(٣).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾: «فإن الجهر هو الإظهار الشديد، يقال: رجل جهوري الصوت ورجل جهير... فإن الدعاء كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(٤)، فالإخفاء قد يكون بصوت يسمعه القريب وهو المناجاة، والجهر مثل المناداة المطلقة، وهذا كقوله ﷺ - لما رفع أصحابه أصواتهم بالتكبير - فقال: «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٥).

ونظير قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، قوله ﷺ فيما روى عن ربه: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»^(٦)،

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/١٣٩-١٤٠).

(٢) الأعراف: الآية (٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/١٩-٢٠).

(٤) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.

(٥) مريم: الآية (٣).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/٢٥١)، والبخاري (١٣/٤٧٣-٤٧٤/٧٤٠٥)، ومسلم (٤/٢٠٦٨-٢٠٦٩).

٢٦٧٥ [٢١]، والترمذي (٥/٥٤٢/٣٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٤/٤١٢/٧٧٣٠) من حديث أبي هريرة.

وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه ، فإنه جعله قسيم الذكر في الملاء ، وهو نظير قوله : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ ، والدليل على ذلك أنه قال : ﴿ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ ، ومعلوم أن ذكر الله المشروع بالغدو والآصال في الصلاة ، وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب ، مثل صلاتي الفجر والعصر ، والذكر المشروع عقب الصلاتين ، وما أمر به النبي ﷺ وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية الماثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال .

وقد يدخل في ذلك أيضاً ذكر الله بالقلب فقط ، لكن يكون الذكر في النفس كاملاً وغير كامل ، فالكامل باللسان مع القلب ، وغير الكامل بالقلب فقط^(١) .

وفي تخصيص الغدو والآصال من بين سائر الأوقات يقول صديق حسن خان : «وخص هذين الوقتين لشرفهما ، ولأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت ، فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله ﷻ ، وأما وقت الآصال ، وهو آخر النهار ، فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت ، فيستحب له أن يشغله بالذكر ؛ لأنها حالة تشبه الموت ، ولعله لا يقوم من تلك النوم ، فيكون موته على ذكر الله ﷻ ، وقيل إن أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره ، فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ، ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب ، فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه به ، وقيل غير ذلك ، والمراد دوام الذكر لله^(٢) .

وبالجملة فهذه الآية أرشدت إلى أنواع من آداب الذكر . قال القاسمي :

«الأول : أن يكون في نفسه ؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى الإجابة وأبعد من الرياء .

الثاني : أن يكون على سبيل التضرع ، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية .

الثالث : أن يكون على وجه الخيفة ؛ أي : الخوف والخشية من سلطان الربوبية ، وعظمة الألوهية ، من المآخذة على التقصير في العمل لتخشع النفس ويخضع القلب .

(٢) فتح البيان (٥/١٢٣) .

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٣-٣٥) بتصرف .

الرابع: أن يكون دون الجهر؛ لأنه أقرب إلى حسن التفكير، قال ابن كثير: فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداءً ولا جهراً بليغاً..

الخامس: أن يكون باللسان، لا بالقلب وحده، وهو مستفاد من قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾؛ لأن معناه: ومتكلمًا كلامًا دون الجهر، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على ﴿تَضَرُّعًا﴾، أو معطوف على ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ أي: اذكره ذكرًا في نفسك، وذكرًا بلسانك دون الجهر.

السادس: أن يكون بالغدو والآصال؛ أي: في البكرة والعشي، فتدل الآية على مزية هذين الوقتين؛ لأنهما وقت سكون ودعة، وتعبد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش.. فطلب الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر.

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض آداب الذكر والدعاء

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم؛ إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم، قال: وأنا خلفه، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: يا عبد الله بن قيس! ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى، يا رسول الله! قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قد تقدم ما يتعلق بهذا الحديث، ونضيف هنا ما اختصره النووي في الأذكار من

(١) محاسن التأويل (٧/٣٣٢-٣٣٣) بتصرف.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٣٩٤)، والبخاري (١١/٢٢٤/٦٣٨٤)، ومسلم (٤/٢٠٧٦/٢٧٠٤) واللفظ له، وأبو داود (٢/١٨٢/١٥٢٦)، والترمذي (٥/٤٧٥-٤٧٦/٣٤٦١)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٩٨/٧٦٨٠)، وأخرجه ابن ماجه (٢/١٢٥٦/٣٨٢٤) مختصراً.

كلام الغزالي عن آداب الدعاء ؛ قال : «آداب الدعاء عشرة :

الأول : أن يترصد الأزمان الشريفة كيوم عرفة ، وشهر رمضان ، ويوم الجمعة ، والثلاث الأخير من الليل ، ووقت الأسحار .

الثاني : أن يغتنم الأحوال الشريفة ، كحالة السجود ، والتقاء الجيوش ، ونزول الغيث ، وإقامة الصلاة ، وبعدها . قلت : وحالة رقة القلب .

الثالث : استقبال القبلة ، ورفع اليدين . .

الرابع : خفض الصوت بين المخافتة والجهر .

الخامس : أن لا يتكلف السجع ، وقد فسر به الاعتداء في الدعاء ، والأولى أن يقتصر على الدعوات المأثورة ، فما كل أحد يحسن الدعاء ، فيخاف عليه الاعتداء ، وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة والانطلاق ، ويقال : إن العلماء . . لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات ، ويشهد له ما ذكره الله ﷻ في آخر سورة (البقرة) : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا ﴾ ^(١) إلى آخرها ؛ لم يخبر سبحانه في موضع عن أدعية عباده بأكثر من ذلك .

قلت : ومثله قول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ ^(٢) إلى آخره .

قلت : والمختار الذي عليه جماهير العلماء أنه لا حَجْر في ذلك ، ولا تكره الزيادة على السبع ؛ بل يستحب الإكثار من الدعاء مطلقًا .

السادس : التضرع والخشوع والرغبة : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ ^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ^(٤) .

السابع : أن يجزم بالطلب ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيها ، ودلائله كثيرة مشهورة ؛ قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ : (لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلمه في نفسه ؛ فإن الله تعالى أجاب شر المخلوقين إبليس إذ قال : ﴿ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ *

(٢) البقرة : الآية (١٢٦) .

(١) البقرة : الآية (٢٨٦) .

(٣) الأنبياء : الآية (٩٠) .

(٤) الأعراف : الآية (٥٥) .

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١﴾.

الثامن: أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً، ولا يستبطن الإجابة.

التاسع: أن يفتح الدعاء بذكر الله تعالى. قلت: وبالصلاة على رسول الله ﷺ بعد الحمد لله تعالى والثناء عليه، ويختمه بذلك كله أيضاً.

العاشر: وهو أهمها، والأصل في الإجابة، وهو التوبة، ورد المظالم، والإقبال على الله تعالى ﴿٢﴾.

* * *

(١) الأعراف: الآيتان (١٤ و ١٥).

(٢) الأذكار (٢/ ٩٥٦-٩٥٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾

★ غريب الآية:

ويسبحونه: أي: يعظمونه وينزهونه.

وله يسجدون: قيل: يصلون، وقيل: يذلون، خلاف أهل المعاصي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : لا تستكبر - أيها المستمع المنصت للقرآن - عن عبادة ربك، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعاً وخيفة، ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له، والتخشع، وذلك هو العبادة، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ يقول: ويعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم، ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يقول: ولله يصلون، وهو سجودهم، فصلوا أنتم أيضاً له، وعظموه بالعبادة كما يفعله من عنده من ملائكته»^(١).

قال أبو حيان: «لما أمر تعالى بالذكر ورغب في المواظبة عليه، ذكر من شأنهم ذلك، فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة:

الأول: نفي الاستكبار عن عبادته، وذلك هو إظهار العبودية، ونفي الاستكبار، هو الموجب للطاعات كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان؛ لأن المستكبر يرى لنفسه شفوفاً ومزية، فيمنعه ذلك من الطاعة.

الثاني: إثبات التسبيح منهم له تعالى، وهو التنزيه والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته المقدسة.

والثالث: السجود له»^(٢).

(١) جامع البيان (٩/١٦٨).

(٢) البحر المحيط (٤/٤٤٩-٤٥٠).

والآيات الدالة على كون الملائكة مستغرقين في العبودية كثيرة، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ^(١)، وقوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيزَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (٢).

وقال الخازن: «فإن قلت: التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾؛ لأنهما من جملة العبادة، فكيف أفردهما بالذكر؟ قلت: أخبر الله ﷻ عن حال الملائكة أنهم خاضعون لعظمته، لا يستكبرون عن عبادته، ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنهم يسبحونه وله يسجدون، ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين: أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأعمال القلوب هي تنزيه الله عن كل سوء، وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾، وعبر عن أعمال الجوارح بقوله: ﴿وَلَهُ يُسْجُدُونَ﴾. وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن، فيستحب للقارئ والمستمع أن يسجد عند قوله: ﴿وَلَهُ يُسْجُدُونَ﴾ ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم» (٣).

قال ابن عاشور: «ومقتضى السجدة هنا أن الآية جاءت للحض على التخلق بأخلاق الملائكة في الذكر، فلما أخبرت عن حالة من أحوالهم في تعظيم الله وهو السجود لله، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبادر بالتشبه بهم تحقيقاً للمقصد الذي سبق هذا الخبر لأجله، وأيضاً جرى قبل ذلك ذكر اقتراح المشركين أن يأتيهم النبي ﷺ بآية كما يقترحون، فقال الله له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ (٤) وبأن يأمرهم بالاستماع للقرآن، وذكر أن الملائكة يسجدون لله، شرع الله هذه الآية سجوداً ليظهر إيمان المؤمنين بالقرآن، وجحود الكافرين به، حين سجد المؤمنون، ويمسك المشركون الذين يحضرون مجالس نزول القرآن. وقد دل استقراء مواقع سجود القرآن أنها لا تعدو أن تكون إغاضة للمشركين، أو اقتداء بالأنبياء أو المرسلين، كما قال ابن عباس في سجدة ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبِّي وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٥): إن الله تعالى قال: ﴿فِيهِدْهُمْ أَقْدَرَةً﴾ (٦) فداود ممن أمر محمد ﷺ بأن يقتدي به» (٧).

(١) الصافات: الآيتان (١٦٥ و ١٦٦).

(٣) لباب التأويل (١٦٤/٢).

(٥) ص: الآية (٢٤).

(٧) التحرير والتنوير (٩/٢٤٤).

(٢) الزمر: الآية (٧٥).

(٤) الأعراف: الآية (٢٠٣).

(٦) الأنعام: الآية (٩٠).

وقال أيضًا : «وليس في هذا التعليل ما يقتضي أن يكون الملائكة أفضل من الرسل ، كما يتوهمه المعتزلة ؛ لأن التشبه بالملائكة من حيث كان الملائكة أسبق في هذا المعنى ؛ لكونه حاصلًا منهم بالجِبَلَّة ، فهم مثل فيه ، ولا شبهة في أن الفريق الذين لم يكونوا مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة ، إذا تخلقوا بمثل خلق الملائكة ؛ كان سُموهم إلى تلك المرتبة أعجب ، واستحقاقهم الشكر والفضل له أجدر»^(١).

فصل في إثبات العندية لله تعالى

في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ دليل على اختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده سبحانه ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾^(٣) ، وقوله تعالى في شأن أهل الجنة : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾^(٤) ، وإثبات هذه العندية - يقول الشيخ الهراس - : «من أعظم الأدلة على علوه تعالى على خلقه ، فتكون بعض مخلوقاته أقرب إليه من بعض ؛ إذ لو لم يكن كذلك لما كان هناك معنى لاختصاص بعضها بالقرب منه ، بل تكون جميعًا عنده سواء ، بل يكون أقربها وهو جبريل عليه السلام بمنزلة أبعدها وهو إبليس في تلك العندية ، وهذا لازم للجهمية الذين نفوا علوه تعالى ومنعوا نسبة العباد إليه بالقرب والبعد ، وجعلوا نسبتهم إليه نسبة واحدة ، وزعموا أن محبته عين إرادته ، وأن كل ما أراده الله فقد أحبه ، فلزمهم على هذا أن يكون كل من جبريل وإبليس مرادًا له ومحبوبًا ، وأن يكون كلاهما سواء عنده والحق أن محبته سبحانه غير إرادته للأشياء بالإرادة الكونية القدرية ؛ لأن المحبة إنما تتعلق بما يأمر الله به عباده ويريده منهم شرعًا ، وهذا ليس بلازم أن يقع ؛ فقد لا يريده الله كونهًا وقدرًا ، وأما الإرادة الكونية فتتعلق بكل كائن ، سواء كان مما يحبه الله ويرضاه ، أو كان مما يبغضه ويسخطه . . وإذا بطل تفسير العندية على هذين الوجهين - أي : عندية التكوين

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٣).

(٢) الأنبياء : الآية (١٩).

(٣) فصلت : الآية (٣٨).

(٤) القمر : الآيتان (٥٤ و ٥٥).

وعندية التقريب والمحبة - فالحق ما ذهب إليه السلف من أن العندية هنا على حقيقتها، فهي تجمع لمن ثبتت له حب الإله ﷻ وقربه من ذاته وكرامته بإحسانه، وذلك لأن لفظ العند واضح في معنى القرب، وهو قرب ذات ومحبة وإحسان، ولا يلزم من قرب المحبة عموم ذلك لكل كائن؛ لأن الحب غير المشيئة^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضل السجود ومقاصده وأحكامه

✽ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله! أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»^(٢).

✽ عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل يقول في السجدة مراراً: «سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته»^(٣).

✽ فوائد الحديثين:

فضيلة سجود التلاوة وأنه للاستحباب:

قال ابن عبد البر: «اختلفوا في وجوب سجود التلاوة.

فقال أبو حنيفة وأصحابه: هو واجب.

وقال مالك والشافعي والأوزاعي والليث: هو مسنون وليس بواجب. وذكر عبد الرزاق... عن ربيعة بن عبد الله بن الهذيل أنه حضر عمر بن الخطاب يوم الجمعة، فقرأ على المنبر سورة (النحل)، حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأها حتى إذا جاء السجدة قال: «يا أيها الناس إنا نمرّ بالسجود، فمن سجد فقد أصاب وأحسن، ومن لم يسجد فلا إثم

(١) شرح نونية ابن القيم (١/٢١٦-٢١٧) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٤٤٣)، ومسلم (١/٨٧/٨١)، وابن ماجه (١/٣٣٤/١٠٥٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/٣٠-٣١ و٢١٧)، وأبو داود (٢/١٢٦-١٢٧/١٤١٤)، والترمذي (٢/٤٧٤/٥٨٠) وقال:

«هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/٥٧١/١١٢٨).

عليه، قال: ولم يسجد عمر رضي الله عنه. قال ابن جريج: وأخبرنا نافع عن ابن عمر رضي الله عنه: لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء^(١).

قال أبو عمر: «أي شيء أبين من هذا عن عمر وابن عمر، ولا مخالف لهما من الصحابة فيما علمت، وليس قول من أوجبها بشيء، والفرائض لا تجب إلا بحجة لا معارض لها، وبالله التوفيق. وقال الأثرم: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن الرجل يقرأ السجدة في الصلاة فلا يسجد؟ فقال: جائز أن لا يسجد، وإن كنا نستحب أن يسجد، فإن شاء سجد، واحتج بحديث عمر: «ليست علينا إلا أن نشاء»، قيل له: فإن هؤلاء يشددون، يعني أصحاب أبي حنيفة؟ فنفض يده وأنكر ذلك^(٢).

وقال الحافظ في «الفتح»: «وأقوى الأدلة على نفي الوجوب حديث عمر المذكور^(٣)».

قال الشيخ ابن باز معلقاً على كلام الحافظ: «أقوى منه وأوضح في الدلالة على عدم وجوب سجود التلاوة حديث ابن عباس... في قراءة زيد بن ثابت على النبي ﷺ سورة (النجم) فلم يسجد فيها^(٤)، ولم يأمره النبي ﷺ بالسجود، ولو كان واجباً لأمره به. والله أعلم^(٥)».

عدد سجديات القرآن:

قال الحافظ: «قد أجمع العلماء على أنه يسجد في عشرة مواضع، وهي متوالية^(٦)».

وقال الطحاوي: «السجود المتفق عليه هو عشر سجديات:

منهن في (الأعراف)، وموضع السجود فيها منها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

(١) أخرجه: البخاري (١٠٧٧/٧٠٩/٢)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٣/٣٤١/٥٨٨٩).

(٢) التمهيد (فتح البر ٤/٧١٤-٧١٥).

(٣) فتح الباري (٧١١/٢).

(٤) أخرجه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: أحمد (١٨٦/٥)، والبخاري (١٠٧٣/٧٠٦/٢)، ومسلم (٤٠٦/١).

(٥) ٥٧٧، وأبو داود (١٤٠٤/١٢١/٢)، والترمذي (٥٧٦/٤٦٦/٢)، والنسائي (٩٥٩/٤٩٩/٢).

(٥) حاشية «فتح الباري» (٧١١/٢).

(٦) فتح الباري (٧٠١/٢).

لَا يَسْتَكَبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿١﴾ .

ومنهن في (الرعد)، وموضع السجود عند قوله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾ ﴿١﴾ .

ومنهن في (النحل)، وموضع السجود منها عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿يُؤْمِرُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

ومنهن في سورة (بنو إسرائيل)، وموضع السجود منها عند قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ سُجَّدًا﴾ إلى قوله: ﴿خُشُوعًا﴾ ﴿٣﴾ .

ومنهن في سورة (مريم)، وموضع السجود منها عند قوله: ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ مَا بَشَرُ الْرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿٤﴾ .

ومنهن في سورة (الحج)، فيها سجدة في أولها عند قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٥﴾ إلى آخر الآية .

ومنهن في سورة (الفرقان)، وموضع السجود منها عند قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ ﴿٦﴾ إلى آخر الآية .

ومنهن في سورة (النمل)، فيها سجدة عند قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ ﴿٧﴾ ، إلى آخر الآية .

ومنهن في (آلم تنزيل السجدة)، فيها سجدة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ﴾ ﴿٨﴾ إلى آخر الآية .

ومنهن في (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)، وموضع السجود منها فيه اختلاف، فقال بعضهم: موضعه: ﴿تَقْبُدُونَ﴾ ﴿٩﴾ ، وقال بعضهم: موضعه: ﴿فَإِنْ اسْتَكَبَرُوا فَاَلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ .

(٢) النحل: الآيتان (٤٩ و ٥٠) .

(٤) مريم: الآية (٥٨) .

(٦) الفرقان: الآية (٦٠) .

(٨) السجدة: الآية (١٥) .

(١) الرعد: الآية (١٥) .

(٣) الإسراء: الآيات (١٠٧-١٠٩) .

(٥) الحج: الآية (١٨) .

(٧) النمل: الآية (٢٥) .

(٩) فصلت: الآية (٣٧) .

(١٠) فصلت: الآية (٣٨) .

(١١) شرح معاني الآثار (١/٣٥٩) .

واختلفوا في غيرها من المواضع :

الموضع الأول : سجدة (ص) :

قال ابن عبد البر : «ذهب مالك والثوري وأبو حنيفة إلى السجود فيها ، وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وجماعة من التابعين ، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور ، واختلف في ذلك عن ابن عباس .

وذهب الشافعي إلى أن لا سجود في (ص) ، وهو قول ابن مسعود وعلقمة»^(١) .

قال النووي : «قال أصحابنا : سجدة (ص) ليست من عزائم السجود ، معناه : ليست سجدة تلاوة ولكنها سجدة شكر ، هذا هو المنصوص وبه قطع الجمهور ، وقال أبو العباس بن سريج وأبو إسحاق المروزي : هي سجدة تلاوة من عزائم السجود ؛ والمذهب الأول قال أصحابنا : إذا قلنا بالمذهب فقرأها في غير الصلاة استحباب أن يسجد . . وإن قرأها في الصلاة ينبغي أن لا يسجد ، فإن خالف وسجد ناسياً أو جاهلاً لم تبطل صلاته ؛ ولكن يسجد للسهو ، وإن سجدها عامداً عالماً بالتحريم بطلت صلاته على أصح الوجهين»^(٢) .

وهذا التفصيل مردود ؛ لثبوت ما يخالفه . والصحيح مشروعية السجود في (ص) في الصلاة وفي غير الصلاة ؛ للحديث الذي أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والطبراني في «الأوسط»^(٣) عن أبي سعيد الخدري قال : «رأيت فيما يرى النائم كأنني تحت شجرة ، وكانت الشجرة تقرأ (ص) فلما أتت على السجدة سجدت ، فقالت في سجودها : اللهم اكتب لي بها أجراً ، وخط عني بها وزراً ، وأحدث لي بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته . فلما أصبحت غدوتُ على النبي ﷺ فأخبرته بذلك فقال : سجدت أنت يا أبا سعيد؟ فقلت : لا ، قال : أنت كنت أحق بالسجود من الشجرة ، فقرأ رسول الله ﷺ سورة (ص) حتى أتى على السجدة فقال في سجوده ما قالت الشجرة في سجودها» .

(١) التمهيد (٧١٠ / ٤) فتح البر .

(٢) المجموع (٥١٢-٥١٣) .

(٣) أبو يعلى (٢ / ٣٣٠ / ١٠٦٩) ، والطبراني في الأوسط (٥ / ٣٨٦ / ٤٧٦٥) ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة . انظر تخريجه مستوفى مع الذي بعده في المجلد (٦ / ٤٧٠-٤٧٥ / ٢٧١٠) .

- سجديات المفصل :

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن في المفصل ثلاث سجديات :

الأولى : في آخر (النجم) .

الثانية : في سورة (الانشقاق) .

الثالثة : في آخر سورة (العلق) .

آخر النجم :

عن ابن عباس قال : «سجد رسول الله ﷺ فيها -يعني (النجم)- والمسلمون والمشركون والجن والإنس»^(١) .

قال ابن حزم : «وبالسجود فيها يقول عبدالرحمن بن أبي ليلى وسفيان وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وداود وغيرهم»^(٢) .

قال أبو عمر : «أما مالك وأصحابه وطائفة من أهل المدينة، فإنهم لا يرون السجود في المفصل، وهو قول ابن عمر وابن عباس، وروي ذلك عن أبي بن كعب، وهو قول سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وعكرمة ومجاهد وطاوس، وعطاء كل هؤلاء يقول : ليس في (المفصل) سجود، بالأسانيد الصحاح عنهم، وقال يحيى بن سعيد : أدركنا القراء لا يسجدون في شيء من (المفصل)، وكان أيوب السختياني لا يسجد في شيء من (المفصل)»^(٣) .

وقال ابن حزم : «واحتج المقلدون لمالك بخبر رويناه من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط عن عطاء بن يسار عن زيد بن ثابت قال : «قرأت على رسول الله ﷺ (والنجم) فلم يسجد فيها»^(٤) قال أبو محمد : لا حجة لهم في هذا فإنه لم يقل إن النبي ﷺ قال : لا سجود فيها، وإنما في هذا الخبر حجة على من قال : إن السجود فرض فقط، وهكذا نقول : إن السجود ليس فرضاً، لكن إن سجد فهو أفضل، وإن ترك فلا حرج ما لم يرغب عن السنة»^(٥) .

(٢) المحلى (١٠٩/٥) .

(١) الترمذي (رقم : ٥٨٠) .

(٣) التمهيد (فتح البر ٦٩٨/٤) .

(٤) تقدم تخريجه قريباً .

(٥) المحلى (١٠٩/٥) .

الانشقاق وآخر (اقرأ):

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾^(١).

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم يرون السجود في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾.

قال ابن حزم بعد أن أورد حديث أبي هريرة: «رويناه من طرق كثيرة متواترة كالشمس، اكتفينا منها بهذا، وبهذا يأخذ عامة السلف»^(٢).

٣- سجدة الحج:

قال ابن عبد البر: «واختلفوا في السجدة الثانية من (الحج) بعد إجماعهم على أن السجدة الأولى منها ثابتة يسجد التالي فيها في صلاة وفي غير صلاة إذا شاء»^(٣). ورجح ابن قدامة في «المغني» مذهب أحمد والشافعي ومن قال بقولهما قائلًا: «لأنه قول من سمينا من الصحابة ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم فكان إجماعًا، وقال أبو إسحق: أدركت الناس منذ سبعين سنة يسجدون في (الحج) سجدتين، وقال ابن عمر: «لو كنت تاركًا إحداهما لتركت الأولى». وذلك لأن الأولى إخبار، والثانية أمر، واتباع الأمر أولى، وذكر الركوع لا يقتضي ترك السجود، كما ذكر البكاء في قوله: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾^(٥)^(٦).

وبالجملة فيستفاد مما تقدم أن عدد سجود القرآن خمس عشرة سجدة، وهو الذي ذهب إليه أحمد وإسحاق والطبري.

وقد روي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ما يؤيد هذا، فروى أبو داود وابن ماجه^(٧)

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٤٦١/٢)، ومسلم (٤٠٦/١) [١٠٨]، وأبو داود (١٢٣/٢) (١٤٠٧)، والترمذي (٤٦٢-٤٦٣/٢)، والنسائي (٩٦٢/٥٠٠/١)، وابن ماجه (١٠٥٨/٣٣٦/١).
(٢) المحلى (١١١/٥).

(٤) مريم: الآية (٥٨).

(٣) فتح البر (٧١١-٧١٢/٤).

(٥) الإسراء: الآية (١٠٩).

(٦) (٣٥٦-٣٥٧/٢).

(٧) أبو داود (١٢٠/٢)، وابن ماجه (١٠٥٧/٣٣٥/١).

وغيرهما عنه «أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في (المفصل)، وفي (الحج) سجدتان»، قال الحافظ في «التلخيص»: «حسنه المنذري والنووي، وضعفه عبدالحق وابن القطان، وفيه عبد الله بن منين، وهو مجهول، والراوي عنه الحارث بن عبد الله العتقي، وهو لا يعرف أيضاً، وقال ابن ماكولا: ليس له غير هذا الحديث»^(١).

لكن «الحديث - مع ضعف إسناده - قد شهد له اتفاق الأمة على العمل بغالبه، ومجيء الأحاديث الصحيحة شاهدة لبقية، إلا سجدة (الحج) الثانية، فلم يوجد ما يشهد لها من السنة والاتفاق، إلا أن عمل بعض الصحابة على السجود فيها قد يستأنس بذلك على مشروعيتهما»^(٢).

هل يشرع سجود التلاوة في الصلاة المكتوبة؟

* عن أبي رافع قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه»^(٣).

ترجم البخاري في صحيحه لهذا الحديث بقوله: «باب من قرأ السجدة في الصلاة فسجد بها».

قال الحافظ: «أشار بهذه الترجمة إلى من كره السجدة في الصلاة المفروضة، وهو منقول عن مالك وعنه كراهته في السرية دون الجهرية، وهو قول بعض الحنفية أيضاً وغيرهم»^(٤).

وقال: «وقد اختلف تعليل المالكية بكراهة قراءة السجدة في الصلاة، فقليل لكونها تشتمل على زيادة سجود في الفرض، قال القرطبي: وهو تعليل فاسد بشهادة هذا الحديث، وقيل لخشية التخليط على المصلين، ومن تم فرق بعضهم بين

(١) (١٨/٢).

(٢) تمام المنة للعلامة الألباني (ص: ٢٧٠).

(٣) أخرجه: البخاري (١٠٧٨/٧١٢/٢)، ومسلم (٥٧٨/٤٠٧/١)، وأبو داود (١٤٠٨/١٢٣/٢)، والنسائي (٩٦٧/٥٠٢-٥٠١/٢).

(٤) فتح الباري (٧١٢/٢).

الجهرية والسرية ؛ لأن الجهرية يؤمن معها التخليط . . ومنهم من علل الكراهة بخشية اعتقاد العوام أنها فرض ، قال ابن دقيق العيد : أما القول بالكراهة مطلقاً فيأباه الحديث ، لكن إذا انتهى الحال إلى وقوع هذه المفسدة ، فينبغي أن تترك أحياناً لتندفع ، فإن المستحب قد يترك لدفع المفسدة المتوقعة ، وهو يحصل بالترك في بعض الأوقات ، اهـ . وإلى هذا أشار ابن العربي بقول : ينبغي أن يفعل ذلك في الأغلب للقدوة»^(١) .

قال ابن بطال : «في هذا الحديث حجة لقول الشافعي والثوري أنه من قرأ سجدة في صلاة مكتوبة أنه لا بأس أن يسجد فيها ، إلا الذين لا يرون السجود في (المفصل) لا يرون السجود في هذه السورة ، فإن فعل فلا حرج عندهم في ذلك . . . قال الطبري : وحديث أبي هريرة شاهد بخلاف قول أبي مجلز ، ودليل كاف يقضي بصحة قول الجماعة ، وبه عمل السلف من الصحابة وعلماء الأمة»^(٢) .

قال أبو عمر : «وفيه السجود في (المفصل) ، والسجود في ﴿إِذَا أَلَمْنَا أَنشَقَّتْ﴾ معينة ، والسجود في الفريضة ، وهذه فصول كلها مختلف فيها ، وهذا الحديث حجة لمن قال به ، وحجة على من خالف ما فيه»^(٣) .

هل تشترط الطهارة لسجود التلاوة؟

ذهب الشافعي إلى اشتراط الطهارة في سجود التلاوة ، وجعلوا حكمه حكم صلاة النفل :

قال النووي : «قال أصحابنا : حكم سجود التلاوة في الشروط حكم صلاة النفل ، فيشترط فيها طهارة الحدث ، والطهارة عن النجس في البدن والثوب والمكان»^(٤) .

هذا قول أحمد كما في «المغني»^(٥) ، وأبي حنيفة كما في «فتح القدير»^(٦) ،

(١) فتح الباري (٢/ ٤٨٠-٤٨١) .

(٣) التمهيد (٤/ ٧٠٣) (فتح البر) .

(٤) المجموع (٣/ ٥١٥-٥١٦) .

(٥) (٢/ ٣٥٨) .

(٢) شرح ابن بطال (٣/ ٦٣) .

(٦) (٢/ ٢٦) .

ومالك كما في «المدونة»^(١). والصحيح عدم اشتراط الطهارة.
 قال البخاري: «وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسجد على غير وضوء»^(٢).
 وروى ابن أبي شيبه عن سعيد بن جبير قال: «كان ابن عمر ينزل عن راحلته فيهرق الماء، ثم يركب فيقرأ السجدة، فيسجد وما يتوضأ»^(٣).
 وفي المصدر نفسه عن الشعبي قال في الرجل يقرأ السجدة وهو على غير وضوء قال: «يسجد حيث كان وجهه».
 «وأما ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن الليث عن نافع عن ابن عمر قال: لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر، فيجمع بينهما بأنه أراد بقوله طاهر: الطهارة الكبرى، أو الثاني على حالة الاختيار، والأول على الضرورة»^(٤).
 وقال الصنعاني: «الأصل أنه لا تشترط الطهارة إلا بدليل، وأدلة وجوب الطهارة وردت للصلاة، والسجدة لا تسمى صلاة، فالدليل على من شرط ذلك»^(٥).
 وقال شيخ الإسلام: «سجود القرآن لا يشرع فيه تحريم ولا تحليل، هذا هو السنة المعروفة عن النبي ﷺ وعليه عامة السلف، وهو المنصوص عن الأئمة المشهورين وعلى هذا فليست صلاة، فلا تشترط لها شروط الصلاة؛ بل تجوز على غير طهارة، كما كان ابن عمر يسجد على غير طهارة، لكن هي بشروط الصلاة أفضل، ولا ينبغي أن يُخل بذلك إلا لعذر، فالسجود بلا طهارة خير من الإخلال به». وقال: «ومعلوم أن جنس العبادة لا تشترط له الطهارة؛ بل إنما تشترط للصلاة، فكذلك جنس السجود يشترط لبعضه، وهو السجود الذي لله؛ كسجود الصلاة، وسجدتي السهو، بخلاف سجود التلاوة وسجود الشكر»^(٦).

ما يلزم المستمع للسجدة:

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: سجود القوم بسجود القارئ:

- | | |
|--------------------------|---------------------------------|
| (١) (١٠٩/١). | (٢) فتح الباري (٢/٧٠٤). |
| (٣) المصنف (١/٣٧٥/٤٣٢٢). | (٤) فتح الباري (٢/٧٠٤). |
| (٥) سبل السلام (١/٤٠٣). | (٦) مجموع الفتاوى (٢٣/١٦٥-١٦٦). |

* عن عبد الله بن عمر قال: «كان النبي ﷺ يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحداً مكاناً لموضع جبهته»^(١).

قال النووي: «فسجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع بلا خلاف، وسواء كان القارئ في صلاة أم لا»^(٢).

وبوب البخاري في كتاب سجود القرآن: «باب من سجد لسجود القارئ، وقال ابن مسعودٍ لتميم بن حذلم - وهو غلام - فقرأ عليه سجدةً فقال: اسجد، فأنت إمامنا فيها»^(٣).

المسألة الثانية: هل يسجد المستمع أم السامع غير القاصد للسمع؟
روى عبدالرزاق عن عثمان أنه مر بقاص فقرأ سجدة ليسجد معه عثمان فقال عثمان: «إنما السجود على من استمع»، ثم مضى ولم يسجد^(٤).

وروي عن عمران بن حصين أنه قال: «إنما السجدة على من جلس لها»^(٥).
وقال ابن عباس: «إنما السجدة على من جلس لها، فإن مررت فسجدوا فليس عليك سجود»^(٦).

وروي نحو هذا القول عن سلمان وسعيد بن المسيب والحسن والنخعي وسعيد بن جبير، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي^(٧).
وأما الشافعي فقال: «لا أؤكد عليه السجود، وإن سجد فحسن»^(٨).

قال ابن بطال: «أجمع فقهاء الأمصار أن التالي إذا سجد في تلاوته لزم العجالس

(١) أخرجه: أحمد (١٧/٢)، والبخاري (٧١٢-٧١٣/٢)، ومسلم (٥٧٥/٤٠٥/١)، وأبو داود (٢/١٤١٢/١٢٥).

(٢) المجموع (٥٠٩/٣).

(٣) فتح الباري (٧٠٨/٢).

(٤) مصنف عبدالرزاق (٥٩٠٦/٣٤٤/٣)، قال الحافظ في «الفتح» (٥٥٨/٢): «إسناده صحيح».

(٥) مصنف عبدالرزاق (٥٩١٠/٣٤٥/٣)، وصححه الحافظ في «الفتح» (٥٥٨/٢).

(٦) مصنف عبدالرزاق (٥٩٠٨/٣٤٥/٣) بسند صحيح.

(٧) ينظر الأوسط لابن المنذر (٢٨١/٥)، والمغني لابن قدامة (٣٦٦-٣٦٧/٢)، والمصنف لابن أبي شيبة (١/٣٦٧).

(٨) المغني (٣٦/٢).

إليه المستمع له أن يسجد بسجوده»^(١).

المسألة الثالثة : هل يسجد المستمع إذا لم يسجد القارئ؟

مذهب الشافعي أنه يسجد؛ لأن الاستماع موجود.

قال النووي : «سواء سجد القارئ أو لم يسجد يسن للمستمع أن يسجد هذا هو الصحيح وبه قطع الجمهور، وقال الصيدلاني : لا يسن له السجود إذا لم يسجد القارئ، واختاره إمام الحرمين»^(٢).

ومذهب أحمد أن التالي إذا لم يسجد لم يسجد المستمع»^(٣).

قال ابن حبيب المالكي : «لأن القارئ لو كان في صلاة ولم يسجد لم يسجد من معه، فكذا هذا»^(٤).

هل يشترط له استقبال القبلة؟

لا يشترط فيها استقبال القبلة؛ بل يسجد كما تيسر؛ لأن ذلك شرط في الصلاة، وسجدة التلاوة ليس بصلاة. قال ابن حزم رحمته الله : «وأما سجودها على غير وضوء وإلى غير القبلة كيف ما يمكن فلأنها ليست صلاة، وقد قال رحمته الله : «صلاة الليل والنهار مثنى مثنى»^(٥)، فما كان أقل من ركعتين فليس صلاة إلا أن يأتي نص بأنه صلاة، كركعة الخوف والوتر وصلاة الجنابة، ولا نص في أن سجدة التلاوة صلاة»^(٦).

التكبير والتسليم في سجود التلاوة:

قال ابن عبد البر رحمته الله : «وأما اختلافهم في التكبير لسجود التلاوة والتسليم منها؛ فقال الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو حنيفة : يكبر التالي إذا سجد ويكبر إذا رفع رأسه في الصلاة وفي غير الصلاة، وروي ذلك عن جماعة من

(١) شرح ابن بطلال (٦٠/٣).

(٢) المغني (٣٦٨/٢).

(٣) المجموع (٥٠٩/٣).

(٤) شرح ابن بطلال (٦٠/٣).

(٥) أخرجه أحمد (٢٦/٢) وأبو داود (١٢٩٥/٦٥/٢) والترمذي (٥٩٧/٤٩١/٢) والنسائي (١٦٦٥/٢٥١/٣).

وابن ماجه (١٣٢٢/٤١٩/١) وصححه ابن حبان (٢٣١-٢٣٢/٢٤٨٢-٢٤٨٣) كلهم من حديث ابن عمر

(٦) المحلى (١١١/٥).

التابعين ، وكذلك قال مالك إذا كان في صلاة ، واختلف عنه إذا كان في غير الصلاة»^(١).

وذهب شيخنا ابن باز رحمته الله إلى إيجاب التكبير في سجود التلاوة إذا كان في الصلاة . قال : «أما إذا كان سجود التلاوة في الصلاة فإنه يجب فيه التكبير عند الخفض ؛ لأن النبي ﷺ يفعل ذلك في الصلاة في كل خفض ورفع»^(٢) ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٣)»^(٤) . وهذا هو مذهب مالك رحمته الله^(٥) .

السجود في الأوقات المنهي عنها :

كره مالك قراءة السجدة في وقت النهي ، وهو رواية عن أحمد ، وذهب في رواية إلى أنه يسجد ، وهو قول الشافعي ، وروي ذلك عن الحسن والشعبي وسالم والقاسم وعطاء وعكرمة^(٦) .

قال البيهقي : «ويذكر عن عطاء وسالم والقاسم وعكرمة أنهم رخصوا في السجود بعد الصبح وبعد العصر ، وثبت عن كعب بن مالك أنه سجد للشكر بعد صلاة الفجر لما سمع البشري ، وكان ذلك في زمان النبي ﷺ»^(٧) . وقال ابن حزم رحمته الله : «يسجد لها في الصلاة الفريضة والتطوع ، وفي غير الصلاة في كل وقت ، وعند طلوع الشمس وغروبها واستوائها»^(٨) .

(١) التمهيد (فتح البر ٤ / ٧١٥) .

(٢) كما في حديث وائل بن حجر رضي الله عنه : «أنه صلى مع رسول الله ﷺ فكان يكبر إذا خفض وإذا رفع ويرفع يديه عند التكبير» رواه أحمد (٤ / ٣١٦) وغيره بسند صحيح .

(٣) أخرجه من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه : أحمد (٥ / ٥٣) ، والبخاري (٢ / ١٤٢ / ٦٣١) . وبغير لفظ الشاهد أخرجه : مسلم (١ / ٤٦٥ - ٤٦٦ / ٦٧٤) ، وأبو داود (١ / ٣٩٥ - ٣٩٦ / ٥٨٩) ، والترمذي (١ / ٣٩٩ / ٢٠٥) ، والنسائي (٢ / ٣٣٦ / ٦٣٤) ، وابن ماجه (١ / ٣١٣ / ٩٧٩) .

(٤) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن باز (٤ / ٣٣٦ - ٣٣٧) .

(٥) المدونة (١ / ١١١) .

(٦) ينظر المغني (٢ / ٣٦٣ - ٣٦٤) .

(٧) السنن الكبرى (٢ / ٣٢٧) .

(٨) المحلى (٥ / ١٠٦) .

ما يقال في سجود التلاوة:

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل: «سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته»^(١).

• عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: رأيتني الليلة وأنا نائم كأنني كنت أصلي خلف شجرة، فسجدت الشجرة لسجودي، وسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود». قال ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، قال ابن عباس: فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبر الرجل من قول الشجرة»^(٢).

قال الشوكاني: «الحديثان يدلان على مشروعية الذكر في سجود التلاوة بما اشتملا عليه»^(٣).

وقال الشيرازي: «المستحب أن يقول في سجوده ما روت عائشة رضي الله عنها . . . وإن

(١) أخرجه: أحمد (٣٠-٣١/٦)، وأبو داود (١٢٣-١٢٧/٢)، والترمذي (٥٨٠/٤٧٤/٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٢٢٢/٢)، وفي الكبرى (٧١٤/٢٣٩/١)، والحاكم (٢٢٠/١)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قال الحافظ في «نتائج الأفكار» (١١٧-١١٨/٢): «هذا حديث حسن، أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة كلهم عن بNDAR محمد بن بشار عن عبد الوهاب الثقفي. وأخرجه ابن خزيمة والحاكم من رواية وهيب بن خالد وخالد بن عبد الله الواسطي كلاهما عن خالد الحذاء. قال ابن خزيمة: إنما أخرجه لثلا يغتر بعض الطلبة فيظنه صحيحاً، وليس كذلك، فإن خالد الحذاء لم يسمعه من أبي العالية، بل بينهما فيه رجل. قلت: كأنه يشير إلى رواية إسماعيل بن علية قال: حدثنا خالد الحذاء عن رجل عن أبي العالية عن عائشة الحديث. وبالسند الذي أشرت إليه إلى الإمام أحمد ثنا إسماعيل فذكره. وهكذا أخرجه أبو داود عن مسدد عن إسماعيل. وخفيت علته على الترمذي فصححه، واغتر ابن حبان بظاهره فأخرجه في صحيحه عن ابن خزيمة. وتبعه الحاكم في تصحيحه. وكأنهما لم يستحضرا كلام إمامهما فيه. وذكر الدارقطني في «العلل» الاختلاف فيه، وقال: الصواب رواية إسماعيل. قلت: وإنما قلت: حسن؛ لأن له شاهداً من حديث علي كما تقدم، وإن كان في مطلق السجود، والله أعلم».

(٢) أخرجه: الترمذي (٤٥٥-٤٥٦/٤٥٦٢٤) وقال: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه (٣٣٤/١)، والحاكم (٢٢٠-٢١٩/١) وقال: «صحيح رواه مكين لم يذكر واحد منهم بجرح وهو من شرط الصحيح، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي بقوله: «صحيح ما في رواه مجروح»، وابن حبان (٤٧٣-٤٧٤/٤٧٤)، وابن خزيمة (٢٨٢-٢٨٣/٥٦٢). والحديث حسنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (١١٣/٢).

(٣) نيل الأوطار (١٢٧/٣) دار الفكر.

قال: «اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود عليه السلام» فهو حسن؛ لما روى ابن عباس رضي الله عنهما ^(١).

قال النووي: «ولو قال ما يقوله في سجود الصلاة جاز وكان حسناً وسواء فيه التسبيح والدعاء. ونقل الأستاذ إسماعيل الضرير في تفسيره أن اختيار الشافعي رحمه الله أن يقول في سجود التلاوة: «سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً»، وظاهر القرآن يقتضي مدح هذا، فهو حسن» ^(٢).

وقال ابن علان: «قال الحافظ: سبق الشافعي إلى ذلك سعيد بن أبي عروبة، وكان أحد فقهاء البصرة وأدرك بعض الصحابة، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريقه، ولا يعترض بالنهي عن القراءة في السجود؛ لأنه يحمل على إرادة التلاوة» ^(٣).

* * *

(١) المجموع شرح المذهب (٥١٧/٣).

(٢) المصدر نفسه (٥١٨/٣).

(٣) الفتوحات الربانية على الأذكار التواوية (٢٧٨/٢).

فهرس الموضوعات

سورة الأعراف

- أغراض السورة ٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة (الأعراف) ٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءته ﷺ سورة (الأعراف) في صلاة المغرب ٦
- قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾ ٨
- قوله تعالى: ﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الحرج في الآية ١٢
- قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ١٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥
- قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ١٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩
- قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ٢٢
- أقوال المفسرين في الآية ٢٢
- قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْفَعَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْفَعَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٢٢
- يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ٢٧

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عظم المسؤولية في الدعوة
 والبلاغ ٣٢
 قوله تعالى : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨)
 وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ٣٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على ثبوت الميزان والرد على
 من أنكره وبيان صفته ٣٧
 قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ
 ﴿١٠﴾ ٤٨
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨
 قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
 إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١) ٥١
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥١
 قوله تعالى : ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ
 طِينٍ﴾ (١٢) ٥٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان العناصر التي خلق الله منها
 آدم والجان والملائكة ٦١
 قوله تعالى : ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣) ٦٣
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٣
 قوله تعالى : ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ٦٥
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٥
 قوله تعالى : ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ٦٨

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة عداوة إبليس ٧٠
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ٧٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعائه ﷺ بالعفو والعافية ٧٤
- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٧٦
- ﴿٧٨﴾ ٧٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٦
- خاتمة الآيات ٧٧
- قوله تعالى: ﴿وَبَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٨١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٨١
- قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ٨٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٨٤
- قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾ ٨٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٨٨
- قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ٩٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم ٩١
- قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا

- ٩٤ ﴿٢٢﴾ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾
- ٩٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
- ٩٦ ﴿٢٣﴾
- ٩٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾
- ٩٧ ﴿٢٤﴾
- ٩٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- الفوائد والعبر المستفادة من قصة آدم وإبليس
- ٩٨ قوله تعالى : ﴿فِيهَا نَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٢٥﴾
- ١١٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾
- ١١٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْتُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ تَهُمَا﴾
- ١١٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة عن الصحابة في بيان ميراث الجد
- ١١٧ مع الأب والإخوة
- ١١٨ قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرْبِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
- ١٢٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾
- ١٢٢

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢٢
 قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ١٢٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢٤
 قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢١﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ١٢٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان المعنى المراد بالآية ١٢٦
 قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ١٣٢
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٣٢
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية ١٣٣
 قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ١٤٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في آداب الأكل والشرب ١٤٩
 قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾ ١٥٣
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٣
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على سعة دين الإسلام ورحمة الله بعباده حيث حرم عليهم ما يضرهم وأباح لهم ما ينفعهم ١٥٧
 قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ١٦٢
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٢
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الغيرة لله تعالى ١٦٥
 قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ١٦٨

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٨
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أسباب بسط الرزق والزيادة
 في العمر ١٧٠
 قوله تعالى : ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مِّنْ أَمْرٍ أُنزِلَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ١٧٢
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٢
 قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ١٧٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٤
 قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم
 مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا
 ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ١٧٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٦
 قوله تعالى : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا
 دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ
 أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ١٧٩
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٩
 قوله تعالى : ﴿وَقَالَتْ أُولِنَهُمْ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
 بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ١٨٢
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٢
 قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا
 يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ١٨٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٤
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الكافر لا تصعد له

- روح إلى السماء ولا يرفع له عمل في الحياة الدنيا للقبول ١٨٥
- قوله تعالى : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) ١٨٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٨
- قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) ١٩٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٠
- قوله تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ ١٩١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩١
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية ١٩٢
- قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ ١٩٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان قيل أهل الجنة عند دخولهم الجنة ١٩٦
- قوله تعالى : ﴿وَتُودُّوْا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أُوْرِثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ١٩٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الميراث الذي لا يفنى ولا يبسد ٢٠٠
- قوله تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ ٢٠٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خطاب النبي ﷺ لمشركي بدر توبيخاً لهم وتحقيراً ٢٠٨
- قوله تعالى : ﴿فَإِذَنْ مُؤْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ (٤٥) ٢١١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١١

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الظالمين المستحقين للعنة هم الكفار والمنافقون ٢١٢
- قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا مِنْهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢١٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُفِّتْ أَبْصَرُهُمْ لِقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ٢١٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٧
- قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٢١٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٨
- قوله تعالى: ﴿أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٢٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ ٢٢٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على تحريم الجنة على الكافرين ولو كانوا آباء الأنبياء ٢٢٣
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ... ٢٢٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٦
- قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ ٢٢٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٧

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على إثبات صفة النسيان لله
 ٢٢٨ تبارك وتعالى على الوجه اللائق به سبحانه
- ٢٣٢ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾
- ٢٣٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ
 ٢٣٥ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾
- ٢٣٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ
 ٢٣٦ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾
- ٢٣٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
 ٢٣٩ عَلَى الْمَرْشِ﴾
- ٢٣٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان وتفصيل ما أجمله القرآن في
 ٢٤٦ كيفية خلق الأرض
- قوله تعالى: ﴿يُفْشِي الْبَلَّ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ
 ٢٤٧ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾
- ٢٤٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾
- ٢٤٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٤٨ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات أفعال العباد وأنها خلق
 الله
- ٢٤٩ قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
- ٢٥٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٥٢

- قوله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ﴾ ٢٥٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان آداب الدعاء ٢٦٠
- قوله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ٢٦٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦٦
- قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٢٧٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى قد تكون صفة ذاتية له ، وقد تكون مفعولاً له ومخلوقاً من مخلوقاته ، فتكون بذلك من أثر صفة رحمته الذاتية ٢٧٤
- قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ٢٧٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان خوف النبي ﷺ من أن يقع لهذه الأمة ما وقع للأمم قبلها حيث قلبت عليهم النعم نقمًا ٢٨١
- قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ٢٨٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لأدلة القدرة على البعث والنشور ٢٨٦
- قوله تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ ٢٨٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله ٢٩٠

- قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾
 ٢٩٤ ﴿٥٩﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٤
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أخبار نبي الله نوح عليه السلام ٢٩٧
 قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٠٣
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٣
 قوله تعالى : ﴿قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٠٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٤
 قوله تعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾
 ٣٠٥ ﴿٦١﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٥
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن نصيح الأمة هو تبليغ
 الرسالة وأداء الأمانة ٣٠٦
 قوله تعالى : ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾
 ٣٠٩ ﴿٦٢﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٩
 قوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾
 ٣١١ ﴿٦٣﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١١
 فصل في بيان ما اشتملت عليه قصة نوح من فوائد من كلام شيخ الإسلام
 محمد بن عبد الوهاب ٣١٣
 قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾
 ٣١٤ ﴿٦٤﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٤
 قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾
 ٣١٥ ﴿٦٥﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٥

- أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٧٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٩﴾ ٣١٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٥
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا نَعْبُدُونَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ ٣١٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٨
- قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاتَّظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ ٣٢٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٠
- قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ ٣٢٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة إهلاك قوم عاد ٣٢٣
- فصل في بيان ما تضمنته قصة هود مع قومه من الفوائد من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ٣٢٤
- قوله تعالى: ﴿وَالِإِنْ تَحْمَدُوا أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقَرِمِ عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلِيمٍ﴾ ﴿٨٣﴾ ٣٢٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ ٣٣٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٠

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما يباح من البناء ويمنع ... ٣٣١
- قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ٣٣٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٤
- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَتَكْذِبُونَ﴾ ٣٣٨
- قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ٣٣٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٨
- قوله تعالى: ﴿فَمَقَرُّوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٣٤٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين ومواضع العذاب وبيان صفة عاقر ناقة صالح عليه السلام وبيان صفة هلاك ثمود ٣٤٣
- قوله تعالى: ﴿فَقَتَلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ ٣٤٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٧
- فصل في بيان ما تضمنته قصة صالح مع قومه من الفوائد والعبر من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ٣٤٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة ٣٤٩
- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٥١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٥١
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حد اللوطي ومواقع البهيمة ٣٥٧

- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ (٨٢) ٣٦٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦٤
- قوله تعالى: ﴿فَأَنبَجَيْنَاهُ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣) ٣٦٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦٨
- قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤) ٣٧٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧٠
- فصل في بيان ما اشتملت عليه قصة لوط مع قومه من الفوائد والعبر من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ٣٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٨٥) ٣٧٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كراهة الخداع في البيع ٣٧٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرْتُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) ٣٧٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧) ٣٨٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٢
- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

- مَعَكَ مِنْ قَرِيبِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُ كُفْرِهِمْ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ
عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ٣٨٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٣
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾
﴿٩٠﴾ ٣٨٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٧
- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ ﴿٩١﴾ ٣٨٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٨
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمْ
الْخَسِرُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ ٣٨٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٩
- قوله تعالى: ﴿فَقُولُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
فَكَيْفَ ءَامَسْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ ٣٩١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩١
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ٣٩٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٣
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ
وَالسَّرَاءُ﴾ ٣٩٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على التفطن لأمر الله
واستشعار الابتلاء في السراء والضراء ٣٩٦

- قوله تعالى: ﴿فَاخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٣٩٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موت الفجأة وأنه أخذه أسف
- للكافر والفاجر ورحمة للمؤمن ٤٠٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَبُوا فَاخَذْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ
﴿٩٨﴾﴾ ٤٠٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٠٣
- قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ
﴿٩٩﴾﴾ ٤٠٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٠٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الأمن من مكر الله من
- الكبائر ٤١١
- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ٤١٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤١٣
- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ
﴿١٠١﴾﴾ ٤١٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤١٥
- قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ٤١٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤١٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الله فطر عباده وجبلهم

- ٤١٧ على الإقرار بربوبيته وإقامة الوهيته
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ
- ٤١٩ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٦﴾
- ٤١٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾
- ٤٢١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾
- ٤٢٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
- ٤٢٤ لِلنَّظِيرِ ﴿١٠٨﴾﴾
- ٤٢٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ
- ٤٢٦ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾
- ٤٢٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوْكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ
- ٤٢٨ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾
- ٤٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ
- ٤٣٠ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾
- ٤٣٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُتْلَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾
- ٤٣١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ

- عَظِيمٍ ﴿١٦٦﴾ ٤٣٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٣٣
- قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّاسِ عَهْدَ أَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ﴾ ٤٣٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٣٦
- قوله تعالى : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٤٣٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٣٧
- قوله تعالى : ﴿فَقُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ٤٣٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٣٨
- قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنَاتِ مُوسَى﴾ ٤٣٩
- وَهَارُونَ ﴿١٦٧﴾ ٤٣٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٣٩
- قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهٖ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٤٤١
- أَجْمَعِينَ ﴿١٦٨﴾ ٤٤١
- قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ٤٤٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤٥
- قوله تعالى : ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٤٤٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤٧
- قوله تعالى : ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ ٤٤٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤٩

- قوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ
 ٤٥٠ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عظم مسؤولية الاستخلاف
 في الأرض وما في ذلك من حض على العزم على الشكر عند حلول النعم
 ٤٥٠ وزوال النقم
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ
 ٤٥٢ ﴿١٢٥﴾﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٢
- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ
 ٤٥٣ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا يَطَّيَّرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التطير وبيان أنه من
 ٤٥٥ الشرك
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ ٤٥٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٧
- قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ
 ٤٥٨ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حكم قتل الجراد والضفادع
 ٤٥٩ وغير ذلك
- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ
 ٤٦٢ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٢٩﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦٢

- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَازَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ٤٦٥
- فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣١﴾ ٤٦٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦٥
- قوله تعالى: ﴿وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ ٤٦٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على فضل الشام وفضل أهله ٤٦٨
- قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ٤٧٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٧٥
- قوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمُكِّنُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ٤٧٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٧٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين ٤٧٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٤٨٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨٣
- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ٤٨٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٨٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ٤٨٦

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إعدار الحكام إلى المحكومين
 مرة بعد أخرى ٤٨٩
 قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
 الْمُفْسِدِينَ﴾ ٤٩١
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٩١
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان منزلة علي عليه السلام وبعض
 فضائله ٤٩٢
 قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ٤٩٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٩٤
 قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ
 تَرِنِي﴾ ٤٩٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٩٦
 قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ رَبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا﴾ ٥٠٠
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٠
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة نبي الله موسى عليه
 الصلاة والسلام ٥٠٠
 قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٠٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٤
 قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَأَمْرِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ
 وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ٥٠٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان اصطفاء الله تعالى لموسى
 عليه السلام ٥٠٧

- قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ ٥٠٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر ألواح موسى عليه السلام ٥١٤
- قوله تعالى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الْفِتْنِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ ٥١٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥١٦
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ
يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ ٥١٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥١٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا
أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ ٥٢٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا
وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ٥٢٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ
أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ٥٢٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الخبر ليس كالمعاينة ٥٢٦
- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
﴿١٥١﴾﴾ ٥٣٠

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٠
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخْذُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿٥٣١﴾﴾ ٥٣١
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣١
 قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا
 لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣٢﴾﴾ ٥٣٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٤
 قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ فِي ثُخْتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً
 لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿٥٣٦﴾﴾ ٥٣٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٦
 قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ
 لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَلِئَنِّي﴾ ٥٣٨
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٨
 قوله تعالى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ
 وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿٥٤٠﴾﴾ ٥٤٠
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤٠
 قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ ٥٤٢
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤٢
 قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
 فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤٤﴾﴾ ٥٤٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤٤
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الرحمة لله تعالى .. ٥٤٥
 قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ
 فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

- وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾
- ٥٥٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٥٣ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض صفات الرسول ﷺ . ٥٥٨
- قوله تعالى : ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٨﴾﴾
- ٥٦٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٦٤ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على عموم رسالته ﷺ إلى
- الثقلين الجن والإنس ٥٦٧
- قوله تعالى : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٥٩﴾﴾
- ٥٧٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٧٥ قوله تعالى : ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ۚ آبَ أَصْرَبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ ۖ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَلِبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٠﴾﴾
- ٥٧٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٧٦ قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّفَرًا لَّكُمْ خَطِيبَتُكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾﴾
- ٥٧٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٧٩ قوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٦٢﴾﴾
- ٥٨٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٨٠

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضائح اليهود وتحريفاتهم
 لأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ ٥٨٢
- قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
 السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
 كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٧﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ
 مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَزْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١١٨﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا
 ذُكِّرُوا بِهِمُ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا
 يَفْسُقُونَ ﴿١١٩﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٢٠﴾ ٥٨٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٨٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الحيل والنهي عنها ٥٨٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبُّكَ لِبَعْثِنَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سَوْءَ
 الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢١﴾ ٦٠٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٠٠
- قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ
 وَيَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢٢﴾ ٦٠٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٠٢
- قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَآدِيهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ
 سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ ٦٠٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٠٣
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا
 فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٣﴾ ٦٠٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٠٦
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتِمُّونَ الْكِتَابَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ
 ﴿١٢٤﴾ ٦٠٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٠٨

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلٌّ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا

ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٦﴾ ٦١٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦١٠

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٧﴾ أَوْ

نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٩﴾ ٦١١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦١١

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان معنى أخذ الله الميثاق من

ذرية آدم من ظهورهم وإشهادهم على أنفسهم بأنه ربهم ومعبودهم الحق وأن

ذلك على حقيقته لا مجاز فيه ٦١٤

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ

فَكَانَ مِنَ الْفَٰرِثِينَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ

الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ

كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٨٢﴾ ٦٢١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٢١

فصل في ما اشتملت عليه هذه الآيات من الفوائد والعبر من كلام شيخ

الإسلام محمد بن عبد الوهاب ٦٢٦

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم العالم الذي يخالف فعل قوله ٦٢٧

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ٦٣٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٣٠

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الهدى والضلال خلقاً لله

- وكسبًا من العباد ٦٣١
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ ٦٣٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٣٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القضاء والقدر ٦٣٥
- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ٦٣٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ٦٥٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٥٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أسماء الله وفضيلة إحصائها .. ٦٥٥
- قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٦٥٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٥٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة العلم والعلماء وإحياء الكتاب والسنة في قلوب الأمة ٦٦٠
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٦٦٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٦٥
- قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٣﴾﴾ ٦٦٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٦٦
- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٨٤﴾﴾ ٦٦٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٦٧
- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٦٧٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٧٢

- قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٨٦) ٦٧٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٧٥
- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّيْهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٧) ٦٧٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٧٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أشراف الساعة ٦٨١
- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) ٦٨٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٨٥
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٨٩) ٦٩٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٩٤
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٠) ٦٩٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٩٧
- قوله تعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٩١) ٧٠١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠١
- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٩٢) ٧٠٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ آمَ أَنْتُمْ صَالِحُونَ﴾ (٩٣) ٧٠٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠٤

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٠٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠٦

قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ آيِدْ يَبْعَثُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَعِزَّ

يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَاتٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿٧٠٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠٨

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ... ٧١٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١٠

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم

والبراءة منهم ٧١١

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

V12 

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١٢

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

V18

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١٤


قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ٧١٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١٧

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن هذه الآية محكمة غير

منسوخة بآية السيف ٧٢٣

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

٧٢٦ 

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٢٦

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستعاذة من الشيطان ٧٢٩

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ٧٣٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٣٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الصرع مس من طيف الشيطان ٧٣٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ ٧٤٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٤٠
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٧٤٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٤٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٧٤٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ ٧٤٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٤٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض آداب الذكر والدعاء ٧٥١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ٧٥٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٥٤
- فصل في إثبات العندية لله تعالى ٧٥٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضل السجود ومقاصده وأحكامه ٧٥٧
- هل يشرع سجود التلاوة في الصلاة المكتوبة؟ ٧٦٣